


Princeton University Library
32101 086587720

مجموعة
اليواقيت العصرية

المحتوية على ستة كتب فى أهم التواريخ والحوادث
والأحوال الوقتية وغيرها من عجائب الوقائع

وهى :

١ — الاستبصار ، فى ذكر حوادث الأعصار .
٢ — المعرب ، عن مشاهير مدن المغرب .
٣ — نزهة المالك والمملوك ، فى تراجم مشاهير الملوك .
٤ — إرشاد الشيخ والشارخ ، لملخص بعض التوارخ .
٥ — الضياء المنتشر ، فى وفيات أعيان القرن الأول إلى الرابع عشر .
٦ — تليين الطبع ، فى ذكر مايسر السمع .

لجامعها

السيد محمد بن محمد بن عبد الله

الموقت بالحضرة المراكشية — كان الله له ورضى عنه

طبع بمطبعة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

وباشر طبعه محمد أمين عمران

رجب سنة ١٣٤٩ هـ

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

حمدا لمن تفضل على الانسان ، بنعمة الاسلام والايمان والاحسان ، وهيأه لعبوديته ، وأفاض عليه من فيض أحديته ، وأتحفه بعلوم وهبية ، وخصه بمزايا وحكم غير متناهية ، فجادت أفكاره بجواهر المعارف ، وانفجرت أنظاره بأزهار رياض الفصاحة والعوارف ، وصلاة وسلاما على سيدنا ومولانا محمد ، زاكي الخلال ، المنعوت بأشرف الخصال ، وعلى الأصحاب والآل ، ومتبعي سنته عند تقلبات الأحوال ، ما تعاقبت الأيام والليال .

﴿أما بعد﴾ فيقول العبد الفقير إلى الله ، محمد بن محمد بن عبد الله ، الموقت بالحضرة المراكشية وقته ، كان له الله ﴿هذه مجموعة احتوت على ستة كتب﴾ تدهش الألباب ، ويقضي الناظر فيها بالعجب العجاب ، قد انطوت على تواريخ عديدة ، ونوادر مفيدة ، ومآثر خالدة ، وعبر شاهدة ، وغرائب واقعة ، وعجائب ساطعة ، وحوادث دامغة ، ومواعظ نابغة ، تهب للأفكار توسعا ، وللنفوس تطلعا .

فدونك مجموعة جمعت من فنون التاريخ ، وغريب الوقائع ، وعجيب النوادر ، وجوامع الكلم ، وجميل الشيم ومساويها ، ما لا يسع اللبيب جهله ، لا بعضه ولا جله ، فما شئت فيها من فوائد فلكية ، وفوائد تاريخية ، ووقائع وقتية ، وبحوث عصرية ، ونوادر مضحكة ملهية ، ومواعظ مبكية ، وما شئت فيها من قواعد فقهية ، وأحكام ضرورية ، ونكت لطيفة ، وقوانين طبية شريفة .

فالناظر فيها لا يزال في ازدياد . إما في استفادة علم ، أو تجربة في قول ، أو تشحيذ عقل ، أو توصل لمروءة ، أو صون عرض ، أو إصلاح دين ، أو مال ، أو إحياء شرف ، أو خير لا يزال نشاطه زائدا ، أو فكاهة وملح ، أو مضاحك وخرافة ، أو موعظة يرتجى نفعها أبد الآبدين .

جعلها الله خالصة لوجهه الكريم ، ونفع بها النفع العميم ، بجاه سيدنا ومولانا محمد ذي الخلق العظيم ، وبحق آله وأصحابه وأتباعه إنه حليم كريم ، وقد آن الشروع في المقصود ، طالبا من ذي الفضل والكرم والاحسان والجود ، القبول والتوفيق لعين الصواب في الصدور والورود .

محمد الموقت

الكتاب الاول
الاستبصار في ذكر حوادث الأعصار

بسم الله الرحمن الرحيم

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

حمدا لمن جعل في حوادث الليل والنهار، تذكرة واعتبارا وزجرا لأولى الأبصار، وصلاة وسلاما على سيدنا ومولانا محمد الهادى إلى سبيل الرشاد فى السر والجهار، وعلى آله وأصحابه الأخيار.

﴿أما بعد﴾ فيقول العبد الفقير إلى الله. محمد بن محمد بن عبد الله، الموقت بالحضرة المراكشية وقته، كان له الله. هذا كتاب فى حوادث الليل والنهار، على مر الأعصار. انتخبته من كتب عديدة للأئمة الكبار، يكون بفضل الله تنبيها للغافلين، وموعظة للجاهلين، وعبرة للمعتبرين، وتذكرة للمتذكرين، وسميته :

الاستبصار، في ذكر حوادث الأَعصار

والله المسئول أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وينفع به النفع العميم، بمحض فضله، وجوده وكرمه إنه حليم كريم، فأقول : طالبا منه سبحانه التوفيق والقبول .

من حوادث صدر المائة الأُولى من الهجرة

ظهور المدعى للنبوة «مسيلمة بن حبيب الكذاب» كتب إلى رسول الله ﷺ وذلك فى آخر سنة عشر. من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. أما بعد : فانى قد شوركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشا قوم يعتدون، فقدم عليه رسولان من قبل مسيلمة بهذا الكتاب، فقال: أما والله لولا أن الرسل لا يقتلون لضربت أعناقكما ثم كتب : بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين .

ولما تولى الخلافة سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه وجه له خالد بن الوليد فى جمع من المسلمين، فقاتله وفرغ من قتاله، ثم أقبل إلى ناحية البصرة، فلقى هرمز بكاظمة فى جمع أعظم

من جمع المسلمين ، ولم يكن أحد من الناس أعدى للعرب والاسلام من هرمز ، ولذلك ضربت العرب به المثل ، فقالوا أكفر من هرمز ، فخرج إليه سيدنا خالد رضى الله عنه ، ودعاه إلى البراز فخرج إليه هرمز ، فقتله خالد ، وكتب بخبره إلى الصديق رضى الله عنه فنفله سلبه ، فبلغت قلنسوته مائة ألف درهم ، وكانت الفرس إذا شرّفت الرجل فيما بينهم جعلت قلنسوته بمائة ألف درهم.

ومنها انبساط الدنيا والتنعم بمباحاتها

قال ابن خلدون فى المقدمة مانصه ، وفى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار ، وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائتا ألف دينار ، وخلف إبلا ، وخيلا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس ، وألف أمة ، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ، ومن حياة السراة أكثر من ذلك ، وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، و بلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا ، وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار ، و بنى الزبير داره بالبصرة ، وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندرية ، وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة ، وشيد داره بالمدينة و بناها بالجص والآجر والساج ، و بنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ، ورفع سمكها ، وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ، و بنى المقداد داره بالمدينة ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ماقيمته ثلاثمائة ألف درهم اه كلامه .

يقول جامعه محمد الموقت كان الله له : لا يخفى على من له مسكة من العلم أن للجسم مطالب كثيرة ، وكلها ضرورية للحياة، على شريطة الاعتدال فيها ، وقد أجمع عموم أطباء العالم على أن ملاك الصحة الانسانية ، هو الاعتدال فى الشهوات الجسمانية ، وبهذه القاعدة الرئيسة جاء الدين الاسلامى ، فلم يحرّم علينا شيئا من الطيبات ، بل أباح لنا التمتع من كل شيء ، ولكن بشرط عدم الاسراف . قال تعالى « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» ، وقال « كلوا واشربوا ولا تسرفوا» ليس الزهد فى الاسلام بالأعراض عن اتخاذ الدرر ، والتجافى عن لذائذ المآكل ، ونضيج الفواكه ، وحرمان النفس من كل ماتشتهيه . كلا . قال الله تعالى « ياأيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحبّ المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا » .

فى هذه المناسبة نقول : إنّ ديننا المحمدى كما لم يحرّم التمتع بلذيذ المآكل كذلك لم يمنع التحلى بجميل الملابس . قال عليه الصلاة والسلام «مامنع أحدكم إن وجد سعة من المال أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوب مهنته » .

ولم يكتف ديننا المحمدى بهذا ، بل رغبنا فى التجمل والتزين إذا لم يقصد به ريبة ، بل قصد به إرضاء الخالق جلّ وعلا فى إظهار نعمته ، والتحدّث بكرامته . قال عليه الصلاة والسلام « إنّ الله يحبّ كل جيد الريح ، جيد الثياب »

وجاء

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فنظر إليه رثّ الهيئة . قال ما مالك ؟ قال من كل المال قد آتاني الله تعالى ، فقال : إن الله تعالى يحبّ إذا أنعم على امرىء نعمة أن ينظر إلى أثرها عليه .

قال أبو عبد الله المنير إياكم والمبادرة إلى الانكار على من ترونه من العلماء والصالحين يلبس لباس أبناء الدنيا أولى الهيئات، ويركب على نفائس الخيل والبغال ، وينكح السرارى والمنعمات، فان ذلك جائز بالشرع ، ومن أنكره فهو جاهل مخطىء ، أو حاسد ممقوت ، فصاحب تلك الملابس يتمتع فى مال سيده باذنه ، والحاسد شقىّ محروم ، وأيضا فان لله عبادا متواضعين ذليلين فى صورة أغنياء متكبرين، جمع الله لهم بين خيرى الدنيا والآخرة ، وكم من صاحب ثياب الخزّ ، ورفيع الكتان أكبر نفسا من صاحب مرقعة .

وذكر الامام الشافعى فى رحلتـه إلى العراق . قال لما دخلت العراق اجتمعت بمحمد بن الحسن رضى الله عنه فى الجامع، فعزم علىّ أن آتى منزله ، فأجبته إلى ذلك ، فقدم إلىّ بغلة بسرج محلى بالذهب والفضة، فذكرت مافارقت عليه الامام مالـكا «رضى الله عنه» من ضيق المعيشة وبكيت فقال لى ابن الحسن لايروعك يا أبا عبد الله ما رأيت فما هو إلا من حقيقة حلال ومكسب ، وإنى أخرج زكاة مالى فى كل سنة ، وما أظنّ أن الله تعالى يطالبنى فى فرض فيه، ونعم المال للرجل يسرّ به الصديق ويصل به القريب . قال الشافعى ثم إنه كسانى حلة بألف دينار لما أردت السفر وزوّدنى ثلاثة آلاف درهم ، وعرض علىّ أن أشاطره فى جميع ماله فأبيت .

قال الشافعى ثم إنى اجتمعت بالزعفرانى فرأيته فى دنيا واسعة فأعطانى أربعين ألف درهم لما عزمت على السفر وعرض علىّ أربع ضياع له ، وقال قد سمحت لك بها، فلم أقبل ، ثم ورد علىّ جاعة من الحجاز ، فسألتهم عن الامام مالك ، فذكروا لى أن الله وسع عليه ، وأنه صار له ثلاثمائة جارية تنوب إحداهنّ منه فى السنة ليلة واحدة ، فلما سافرت إليه ودخلت المدينة المنورة وافيته فى المسجد فى صلاة العصر فصليت معه ، ثم نظرت فاذا كرسىّ من حديد عليه مخدّة من قباطى مصر مكتوب عليها بالحرير : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وحول الـكرسىّ أربعمائة نفر أو يزيدون، فبينما أنا كذلك إذ رأيت مالـكا قد دخل من باب النبى ﷺ وقد فاح عطره فى المسجد فلما وصل إلى الـكرسى قام الحاضرون كلهم ، وجلس على الـكرسى ، فألقى مسألة فى جراح العمد فما زال يتكلم فى العلم حتى نزل عن الـكرسى ، فقمت وسلمت عليه فضمنى إلى صدره ، ثم أخذ بيدى، وأتى بى إلى منزله ، فرأيت بناء غير البناء الأوّل الذى كنت أعهده قبل رحلتى إلى العراق فبكيت ، فقال مم بكاؤك يا أبا عبـد الله كأنك ظننت أننا بعنا الآخرة بالدنيا،طب نفسا وقرّ عينا هذه هدايا خراسان ، وهدايا مصر ، وقد كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ، وإن لى ثلثمائة خلعة من خراسان ، وثلثمائة من قباطى مصر ، وعندى من العبيد مثلها ، وهى كلها هدية منى إليك ، وفى صناديق تلك خمسة آلاف دينار نصفها هدية منى إليك ، فقلت أنا موروث ، وأنت موروث وما جئتك لمثل هذا ، فتبسم فى وجهى ، وقال أبيت إلا العلم ، فلما أردت السفر إلى مكة خرج معى ماشيا ، فقلت ألا تركب دابة ؟ فقال استحيى من رسول الله ﷺ أن أطأ مكان قدمه الشريف بحافر دابة . قال الشافعى: فسررت بذلك ، وعلمت أن ورعه على حاله لم ينقص ، وإن كثرة المال جال العلماء لا يضرّهم إن شاء الله ، وأعطانى مالا جزيلا ، فلما دخلت مكة فرّقته

على ابنى عمى باشارة والدتى خوفا على أن أفتخر عليهم ، فلما بلغه ذلك استحسنه منى ، وواعدنى بأن يرسل إلىّ فى كل سنة مثل ذلك ، فلما مات ضاق علىّ الحجاز ، فخرجت طالبا أرض مصر اه .

قال الشعرانى فى طبقاته وقد بلغنا عن الامام أشهب صاحب الامام مالك أنه كان فى سعة من الدنيا ، وكانت معيشته معيشة الملوك .

وكانت بلاد جزيرة مصر أقطاعا للامام الليث بن سعد ، وكان خراجها فى كل سنة مائة ألف دينار ، ولم تجب عليه زكاة قط .

وكان الفخر الرازى له ألف مملوك خلاف الجوارى والخدم ، ثم قال الامام الشعرانى بعد كلام وإياك أن تعترض ولو بقلبك على أحد من علماء زمانك إذا تشبه بمن ذكر من العلماء فى توسعة الدنيا ووظائفها وملابسها ومراكبها ، فان ذلك من الجهل بك ، فان العلماء والأولياء على أقدام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن الأنبياء من كان له مال كالسيد إبراهيم عليه السلام ، والسيد يوسف عليه السلام ، والسيد سليمان عليه السلام ، والسيد أيوب عليه السلام .

ومنهم من لامال له كالسيد نوح عليه السلام ، والسيد عيسى عليه السلام ، والسيد يحيى عليه السلام ، وممن كان فى سعة من الدنيا من الأولياء الشيخ عبد القادر الجيلانى ، والشيخ أبوالحسن الشاذلى ، والشيخ شمس الدين الحنفى ، والشيخ سيدى على وفا ، فكل واحد منهم قائم بمرتبته كامل فيها لاتضره سعة الدنيا ولا ضيقها .

وما حثّ الأكابر أصحابهم على الزهد فى الدنيا إلا خوفا عليهم من ذلّ الطمع والميل إليها لاغير ، وإلا فلو جاءت الدنيا بغير طمع ولا ميل من حلال لنبىّ كان من الأدب مع الله قبولها اه كلامه .

ومنها فتنة مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه

وكان ذلك لأسباب ، فقدم عليه أهل مصر وغيرهم ممن تمالأ على قتله ، فهجموا عليه بالمدينة ، وحاصروه أربعين ليلة ، ومنعوه الماء ، ورموه بالسهام ، وتسوّروا دار رجل من الأنصار حتى دخلوا عليه فقتلوه ، وكان المصحف بين يديه ، فنضح الدم على هذه الآية « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » والذى تولى قتله رجل من أهل مصر ، وكان ذلك يوم الأربعاء بعد العصر ، ودفن يوم السبت قبل الظهر ، وقيل يوم الجمعة لثمان عشرة ، أو سبع خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة .

ومنها فتنة مقتل الحسين بن علىّ بن أبى طالب

رضى الله عنهما

كان سيدنا الحسين رضى الله عنه جالسا فى بيته يوما من الأيام ، وإذا بفارس من الكوفة أتى إلى بابه وطرقه ، فأذن له بالدخول فدخل وسلم ، وأخرج كتابا وناوله له ، فاذا هو من أهل الكوفة يقولون فيه : يكون فى علمك ياحسين يابن بنت رسول الله ، أن يزيد بن معاوية ظلم

وجار ، وقتل الرجال ، ونهب الأموال ، وطغى وتمرّد ، وولى علينا رجلا اسمه عبيد الله بن زياد وهو ظالم جبار ، قد عمّ ظلمه سائر الأقطار ، يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ، و يشرب الخمر بيننا ، ولا يخشى الله ، وإننا قد أرسلنا إليك سابقا عدة مكاتيب ، نطلب منك أن تحضر عندنا لنستخلفك علينا ، ونعينك على قتل يزيد ومن معه ، وإن لم تحضر الآن ، فغدا بين يدى الله نخاصمك ، ونقول : ربنا ظلمنا الحسين ورضى فينا بالظلم والجور فى القضاء والحكم ، فماذا تقول وما جوابك ؟ فلما قرأه الحسين اقشعرّ جلده خوفا من الله ، وتقطعت أحشاؤه على ظلم خلق الله فقام من وقته قائما على قدميه ، ودعا بقرطاس ، فكتب فيه إلى أهل الكوفة والعراق بأنه سيقدم عليهم فى الأثر ، فخرج من المدينة بأهله وعشيرته قاصدا إلى الكوفة والعراق ، ولما وصل الخبر إلى يزيد بذلك كبر لديه ، وأرسل ساعته إلى عبيد الله بن زياد أن يتوجه بعساكره من البصرة لمقاتلة الحسين بن علىّ ، فبادر بالسير إلى أن دخل الكوفة قبل مجىء الحسين ، واستعدّ لقتاله من كل وجه ومنعه الماء إلى أن قتل رحمه الله ورضى عنه بعد ماحلت عليه الرجال من كل جانب ومكان بأرض كربلا ، وكان ذلك اليوم يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة إحدى وستين هجرية ، وله من العمر ثمانية وخمسون سنة .

وقد أظلم يوم موته المشرق والمغرب ، وأخذت الناس الصواعق ، وأمطرت السماء دما عبيطا ولقد أحصى ما فى بدنه الشريف من جراح السيوف والرماح والنبال ، فكان عدد ذلك مائة وعشرين جرحا ، ثم احتزّ رأسه ورفع على رمح ، ودفع إلى ابن زياد فوضع بين يديه ، وجعل ينكت ثناياه ، ويتكلم بكلام يغضب الله ، ثم أمر أن يطاف بالرأس جميع الكوفة ، وكتب إلى يزيد يخبره بقتل الحسين وأهل بيته ، وأمر بحمل الرأس ورأس أهله ، ومعهم الحريم والأطفال إلى دمشق ، فساروا بهم كما تسير سبايا الروم وهم على أقتاب الجمال بلاوطاء ولاغطاء ، وهم باكون ذليلون ، والرءوس على الرماح مرتفعات إلى أن أدخلوهم على يزيد بن معاوية ، وفعل فيهم مافعل ، قابله الله بما يستحقّ .

ومنها حادثة الحجاج بن يوسف الثقفى

يروى أنه لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولى النجدة من جنده ، وقال أيها الناس : إن العراق كدر ماؤها ، وكثر غوغاؤها ، وأملولح عذبها ، وعظم خطبها ، وظهر ضرامها ، وعسر إخماد نيرانها ، فهل من ممهد لهم بسيف قاطع ، وذهن جامع ، وقلب ذكىّ ، وأنف حمىّ ، فيخمد نيرانها ، و يردع غيلانها و ينصف مظلومها ، و يداوى الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد وتأمن العباد ، فسكت القوم ولم يتكلم أحد ، فقام الحجاج وقال يا أمير المؤمنين: أنا للعراق . قال ومن أنت لله أبوك . قال: أنا الليث الضمضام والهزبر الهشام أنا الحجاج بن يوسف. قال ومن أين ؟ قال من ثقيف كهوف الضيوف ، ومستعملى السيوف . قال: اجلس لا أمّ لك فلست هنالك ، ثم قال عبد الملك مالى أرى الرءوس مطرقة والألسن معتقلة فلم يجبه أحد فقام إليه الحجاج ثانيا ، وقال: أنا مجندل الفساق ومطفئ نار النفاق ، قال: ومن أنت قال قاصم الظلمة ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة وآفة الكفر والريبة .

قال إليك عني وذاك ، فلست هناك ، ثم قال من للعراق ، فسكت القوم ، وقام الحجاج ، وقال أنا للعراق ، فقال إذن أظنك صاحبها ، والظافر بغنائمها ، وإن لكل شئ يابن يوسف آية وعلامة فما آيتك، وما علامتك. قال العقوبة والعفو والاقتدار والبسط والادناء والجفاء والبر والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب ، فمن جادلني قطعته ، ومن نازعني قصمته ، ومن خالفني نزعته ، ومن دنا مني أكرمته ، ومن طلب الأمان أعطيته ، ومن سارع إلى الطاعة بجلته فهذه آياتي وعلامتي ، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني فان كنت للأعناق قطاعا ، وللأموال جاعا ، وللأرواح نزاعا ، ولك في الأشياء نفاعا ، وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين،فان الناس كثير ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل ، فقال عبد الملك أنت لها ، فما الذي تحتاج إليه . قال قليل من الجند والمال ، فدعا عبد الملك صاحب جنده ، فقال هيئ له من الجند شهوته ، وألزمهم طاعته ، وحذرهم مخالفته ، ثم دعا الخازن ، فأمره بمثل ذلك ، فخرج الحجاج قاصدا نحو العراق .

قال الراوي ابن عمير : فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذ أتاني آت ، فقال هذا الحجاج قدم أميرا على العراق ، فتطاولت الأعناق نحوه ، وأفرجوا عن صحن المسجد ، فاذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثما بها، ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة ، ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله،وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة ، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه،عليهم الخز والديباج . قال وكان في المسجد يومئذ عمير بن ضابئ التميمي، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له أسبه لكم . قال اكفف حتى نسمع مايقول،فأبى ابن ضابئ وقال: لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها ، فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما كان بشئ والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا ، فلما رأى المسجد قد غص بأهله . قال: هل اجتمعتم ، فلم يرد عليه أحد شيئا فقال إني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم فقال رجل من القوم قد اجتمعنا أصلح الله الأمير فكشف عن لثامه ونهض قائما ، فكان أول شئ نطق به أن قال والله إني لأرى رءوسا أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها ، وإني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى،والله يأهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي ، ألا إنكم طالما آثرتم الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكلن بكم في البلاد ولأجعلنكم مثلا في كل واد ولأضربنكم ضرب غرائب الابل وإني يأهل العراق لا أعد إلا وفيت ولا أعزم إلا مضيت، فاياي وهذه الزرافات والجماعات وقيل وقال وكان ويكون، يأهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها،فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا فليس مني الاهذار والاكثار إنما هو هذا السيف ثم لاينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذلل الله لأمير المؤمنين صعبكم ويقيم له أودكم ، ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ، ووجدت الفجور في النار ، وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم ، وأمرني أن أنفق فيكم ، وأوجهكم لمحاربة عدوكم ، مع المهلب بن أبي صفرة ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلا يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه ، ياغلام اقرأ كتاب أمير

المؤمنين

المؤمنين فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك بن مروان، إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيئا فقال الحجاج اكفف ياغلام ثم أقبل على الناس، فقال أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئا عليه هذا أدبكم الذى تأدبتم به . أما والله لأؤدبنكم أدبا غير هذا الأدب، اقرأ ياغلام فقرأ حتى بلغ قوله : سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ، ثم نزل بعد مافرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش، فقال: أيها الأمير إنى على الضعف كما ترى ولى ابن هو أقوى منى على الأسفار أفتقبله بديلا منى فقال نقبله أيها الشيخ ، فلما ولى قال له قائل أتدرى من هذا أيها الأمير . قال لا قال هذا عمير بن ضابئ الذى يقول :

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى ✲ تركت على عثمان تبكى حلائله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضى الله عنه وهو مقتول فوطئ فى بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال الحجاج ردوه فلما ردوه قال له الحجاج أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم الدار إن فى قتلك أيها الشيخ لصلاحا للمسلمين، ياسياف اضرب عنقه فضرب عنقه، وكان من أمر الحجاج بعد ذلك ماعرف وسطر .

قال المسعودى فى مروج الذهب : ان أم الحجاج وهى الفارعة بنت همام ولدته مشوها لا دبر له فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثدى وأعياهم أمره، فيقال إن الشيطان تصور لهم فى صورة الحارث ابن كلدة حكيم العرب فسألهم عن ذلك فأخبره مخبر من أهله فقال اذبحوا له تيسا والعقوه من دمه وأولغوه فيه ثم اطلوا به وجهه ، ففعلوا ذلك فقبل الثدى فلأجل ذلك كان لايصبر عن سفك الدماء ، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لايقدر غيره عليها . وقيل إن الحجاج تقلد الامارة وهو ابن عشرين سنة، ومات وله ثلاث وخمسون سنة وكان من عنف السياسة وثقل الوطأة وظلم الرعية والاسراف فى القتل على مالايبلغه وصف، أحصى من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله فى حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفا ، ووجد فى سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل ، وكان يحبس الرجال والنساء فى موضع واحد ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد وقيل للشعبى أكان الحجاج مؤمنا؟ قال نعم بالطاغوت وقال لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم اه فقلت وكذا قال سيدنا عمر بن العزيز لو جاءت يوم القيامة الفرس بأكاسرتها والروم بقياصرتها وجئنا بالحجاج لغلبناهم به .

وقال الحافظ الذهبى بعد نقله هذا وزاد ، ومات فى حبسه خمسون ألف رجل وكان فى حبسه ثلاثون ألف امرأة منهن ستة عشر ألفا مجردات اه .

وقال الحافظ ابن عساكر أخرج سليمان بن عبد الملك من سجن الحجاج ثلاثمائة ألف . قال ابن خلكان ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الشمس فى الصيف ولا من المطر فى الشتاء بل كان حوشا مبنيا بالرخام وكان له غير ذلك من أنواع العذاب ، وسأل يوما كاتبه فقال كم عدة من قتلنا فى التهمة فقال ثمانون ألفا، وكانت مدة ولايته على العراق عشرين سنة، ومات سنة خمس وتسعين (بواسط) ودفن بها وعفى قبره وأجرى عليه الماء .

وروى أنه ركب يوم جمعة فسمع ضجة ، فقال ما هذا فقيل المحبوسون يضجون و يشكون مما هم فيه من الجوع والعذاب ، فالتفت إلى ناحيتهم ، وقال اخسئوا فيها ولا تكلمون ، فما صلى جمعة بعدها ، وبهذا الكلام وغيره مما وقع منه كفره بعض العلماء .

وفى الكامل للمبرد،ومما كفر به الفقهاء الحجاج أنه رأى الناس يطوفون حول حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنما تطوفون بأعواد ورمة ، و إنما كفروه بهذا لأن فى هذا الكلام تكذيبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم نعوذ بالله من اعتقاد ذلك،فانه صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه «قال إن الله عزّ وجلّ حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» خرّجه أبو داود ، ومن أغرب مايسمع أن عبد الملك بن مروان لما أراد أن يجرب الحجاج أمر بأن يدخل فى سراويله عقارب ، فكانت تلدغه ولم يشتغل بها عن محادثة عبد الملك .

وكان الحجاج متوليا على الحجاز ، وأبدى فيه ماهو مسطر فى التاريخ،وسبب عزله عنه أنه وفد وفد منهم فيهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله على عبدالملك بن مروان ، فأثنوا على الحجاج وعيسى ساكت ، فلما قاموا ثبت عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك ، فقام وجلس بين يديه ، فقال ياأمير المؤمنين من أنا قال عيسى بن طلحة بن عبيد الله . قال فمن أنت ، قال عبد الملك بن مروان قال أفجهلتنا أو تغيرت بعدنا ، قال وما ذاك ، قال وليت علينا الحجاج يسير فينا بالباطل ، ويحملنا على أن نثنى عليه بغير الحق والله لئن أعدته علينا لنعصينك ، وإن قاتلتنا وغلبتنا أو أسأت إلينا قطعت أرحامنا،ولئن قوينا عليك لنغصبنك ملكك . قال فانصرف والزم بيتك ولا تذكرنّ من هذا شيئا ، فقدم إلى منزله ، وأصبح الحجاج غاديا على الوفد فى منازلهم يجزيهم الخير ، ثم أتى عيسى بن طلحة ، فقال جزاك الله عن خلوتك بأمير المؤمنين خيرا فقد أبدلنى بكم خيرا إلىّ منكم وأبدلكم بى غيرى ، وولانى العراق .

قال الماردينى خرج النعمان بن ضمرة مع ابن الأشعث ، ثم استؤمن له الحجاج فأمنه ، فلما أتاه قال له أنعمان قال نعم . قال خرجت مع ابن الأشعث قال نعم قال فمن أهل الرسّ (١) والبسّ والدهمسة والدخمسة والشكوى والنجوى ، أم من أهل المحاشد والمشاهد والمخاطب والمواقف . قال بل شرّ من ذلك إعطاء الفتنة ، واتباع الضلالة . قال صدقت ، ثم قال ولو وجدت إلى دمك أدنى سبيل لسقيته الأرض ، ثم أقبل الحجاج على أهل الشام ، فقال إن أبا هذا قدم علىّ وأنا محاصر ابن الزبير ، فرمى البيت بأحجاره ، فحفظت لهذا ما كان من أبيه .

وكما أن الحجاج رمى الكعبة بالأحجار رماها أيضا بالنار حتى احترقت إلى غير ذلك مما له من المثالب المسطرة فى التاريخ .

ومنها حادثة كانت فى أيام سليمان بن عبد الملك

وذلك أنه ورد عليه كتاب ابن هبيرة فيه أن بمدينة بخارى سمع قعقعة عظيمة فى السماء ، ودوىّ كالرعد القاصف وقت السحر أسقطت منه الحوامل فنظروا ، فاذا قد انفرج فى السماء فرجة

(١) قوله من أهل الرسّ أراد من أهل الاصلاح بين القوم ، والبسّ الرفق واللين ، وأراد بالدهمسة والدخمسة الختل والخدع ، وقوله المحاشد أراد المحافل ، وأراد بالمخاطب مواضع الخطب ، وقوله إعطاء الفتنة يريد الانقياد للفتنة .

عظيمة . ونزل أشخاص عظماء رءوسهم فى السماء ، وأرجلهم فى الأرض ، وقائل يقول : يا أهل الأرض اعتبروا بأهل السماء ، هذا صفوائيل الملك عصى الله تعالى فعذب ، فلما طلع النهار أتى الناس إلى ذلك الموضع ، فوجدوا خسفا عظيما لا يدرك له قرار يصعد منه دخان أسود ، كل ذلك مثبت على يد قاضى بخارى بأربعين عدلا .

من حوادث المائة الثانية

فتنة المأمون العباسى ، وامتحان الناس بالقول بخلق القرآن ، وسبب ذلك التوغل فى علم الكلام والتثبت بأذيال الفلاسفة ، وكان ذلك يبدو شيئا فشيئا إلى أيام هارون الرشيد ، وأتى بالامام الشافعى رضى الله عنه مقيدا فى الحديد ، فسأله بشر المريسى المعتزلى ، وقال له ما تقول ياقرشىّ فى القرآن ، فقال إياى تعنى . قال نعم . قال مخلوق فخلى عنه ، فأحسّ الامام الشافعى بالشر وأن الفتنة تشتد فى إظهار القول بخلق القرآن ، فهرب من بغداد الى مصر ، ولم يقل الرشيد بخلق القرآن ، وكان الأمر بين أخذ وترك إلى أن ولى المأمون ، وبقى يقدم رجلا ويؤخر أخرى فى دعوة الناس إلى ذلك إلى أن قوى عزمه فى السنة التى مات فيها ، وطلب الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، فأخبر فى الطريق أنه قد توفى فبقى الامام أحمد محبوسا فى الرقة حتى بويع المعتصم ولما بويع أحضر الامام أحمد إلى بغداد ، وعقد له مجلس المناظرة ، وفيه عبد الرحمن بن إسحق والقاضى أحمد بن أبى دواد وغيرهما ، فناظروه ثلاثة أيام ، ثم أمر به فضرب بالسياط إلى أن أغمى عليه ، ونخسه عجيب بالسيف ، ورمى على الأرض ، وديس عليه وهو مغشى عليه ، ثم حمل إلى منزله ولم يقل بخلق القرآن ، وكانت مدة مكثه فى السجن ثمانية وعشرين شهرا ، ولم يزل بعد ذلك يحضر الجمعة والجماعة ، ويفتى ويحدث ، حتى مات المعتصم وولى الواثق فأظهر ما أظهر من المحنة ، وقال للامام أحمد لا تجمعنّ إليك أحدا ولا تساكنى فى بلد أنا فيه ، فاستخفى الامام أحمد ، وصار لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق ، وولى المتوكل ، وهناك حكاية تدلّ على أن الواثق رجع عن الاعتقاد والامتحان بخلق القرآن ، وهى على ما تلخص من الروايات المتعددة أن الواثق أتى له بشيخ مصفود مقيد ، فأحضر له أحمد بن أبى دواد للمناظرة ، فأقبل الشيخ على ابن أبى دواد ، فقال الام دعوت الناس ودعوتنى إليه ، فقال إلى أن تقول القرآن مخلوق ، فقال الشيخ أخبرنى عن مقالتك هذه أواجبة داخلة فى عقد الدين فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه ما قلت . قال نعم . قال الشيخ أخبرنى عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله عزّ وجلّ هل ستر شيئا مما أمره الله به فى دينه . قال لا . قال الشيخ ، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى مقالتك هذه ، فسكت ابن أبى دواد ، فقال الشيخ أخبرنى عن آخر ما أنزل الله تعالى من القرآن على رسول الله ﷺ فقال «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا» فقال الشيخ أكان الله تبارك وتعالى الصادق فى إكمال دينه أم أنت الصادق فى نقصانه ، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه بمقالتك هذه ، فسكت ابن أبى دواد ، فقال الشيخ أخبرنى عن هذا الأمر الذى تدعو الناس إليه أشىء علمه النبى ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم أم شىء لم يعلموه ، ليس يخلو من أن تقول علموه أوجهلوه . فان قلت جهلوه وعلمته أنت فياسبحان الله

يجهل النبى ﷺ والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم شيئا وتعلمه أنت وأصحابك ، وإن قلت علموه فأخبرنى عنه ، أشىء دعا إليه رسول الله ﷺ قال لا . قال فشىء دعا إليه أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه قال لا . قال فشىء دعا إليه عمر رضى الله عنه بعدهما قال لا . قال فشىء دعا إليه عثمان رضى الله عنه بعدهم قال لا . قال فشىء دعا إليه علىّ رضى الله عنه بعدهم قال لا . قال الشيخ فاتسع لرسول الله ﷺ كما زعمت فلم يطالب أمته به ، واتسع لأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم ، فلم يدعوا الناس إليه أفلا وسعك ماوسعهم .

فوثب الواثق قائما ودخل الحجرة وجعل ثوبه فى فيه وهو يضحك ، ثم جعل يقول : صدق ليس يخلو من أن يقول علموه أو جهلوه ، فان قال علموه وسكتوا عنه وسعنا من السكوت ماوسع القوم ، وإن قلنا جهلوه وعلمته أنت ، فيالكع ابن لكع يجهل النبى ﷺ وأصحابه شيئا وتعلمه أنت وأصحابك ، ثم أمر برفع القيود عن الشيخ وإعطائه أربعمائة دينار ، وأذن له فى الرجوع إلى أهله ، وسقط من عينه ابن أبى دواد ولم يمتحن بعد ذلك أحدا .

ولما ولى المتوكل أحضر الامام أحمد وأكرمه وأطلق له مالا فلم يقبله وفرقه ، وأجرى على أهله وولده فى كل شهر أربعة آلاف درهم ، وفى أيام المتوكل ظهرت السنة ، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة ، وإظهار السنة ، وبسط أهلها ونصرهم ، وتكلم فى مجلسه بالسنة ، ولم يزل المعتزلة فى قوة ونماء إلى أيام المتوكل فخمدوا ، ولم يكن فى الأمة الاسلامية أهل بدعة أكثر منهم .

قال العلامة الصفدى : ومن وقف على طبقات المعتزلة للقاضى عبد الجبار علم قدر ما كانوا عليه من العدد والعدد .

ومنها

ماوقع سنة ثمان ومائتين من الخسف بأرض المغرب ، وذلك أنه خسف بثلاث عشرة قرية فيه .

وقد وقع فى خلافة المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين زلزلة مهولة بدمشق سقطت منها دور ، وهلك تحتها خلق ، وامتدت إلى أنطاكية فهدمتها ، وإلى الجزيرة فأحرقتها ، وإلى الموصل ، فيقال هلك من أهلها خمسون ألفا .

وفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين زلزلت الأرض زلزلة عظيمة بتونس وأعمالها والرىّ وخراسان ونيسابور وطبرستان وأصبهان ، وتقطعت جبال ، وتشققت الأرض بقدر مايدخل الرجل فى الشقّ وكان بين الزلزلتين عشر سنين .

وفى سنة خمس وأربعين ومائتين عمت الزلازل الدنيا ، فأخربت المدن والقلاع والقناطر ، وسقط من أنطاكية جبل فى البحر .

وفى خلافة المعتضد العباسى سنة مائتين وثمانين وقعت فى الدبيل زلزلة عظيمة هدمت عامة البلد فكان عدة من أخرج من تحت الردم مائة ألف وخمسين ألفا .

وقال السيوطى فى تاريخ الخلفاء مانصه : انه فى سنة خمس وثمانين ومائتين مطرت قرية بالبصرة حجارة سوداء أو بيضاء ، ووقع برد وزن البردة مائة وخمسون درهما .

وفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين رجمت قرية السويد بالحجارة ، ووزن حجر من الحجارة فكان عشرة أرطال .

وفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين فى أول خلافة المتوكل هبت بالعراق ريح شديدة السموم ، ولم يعهد مثلها ، أحرقت زرع الكوفة والبصرة و بغداد ، وقتلت المسافرين ، ودامت خمسين يوما ، واتصلت بهمذان ، فأحرقت الزرع والمواشى ، واتصلت بالموصل وسنجار ، ومنعت من المعاش فى الأسواق ، ومن المشى فى الطرقات ، وأهلكت خلقا عظيما .

وفى سنة ثمانين ومائتين فى شوال فى خلافة المعتضد العباسى أصبحت الدنيا مظلمة إلى العصر ، فهبت ريح سوداء ، فدامت إلى ثلث الليل ، وأعقبها زلزلة عظيمة أذهبت عامة بلد الديبل .

وفى سنة خمس وثمانين ومائتين فى خلافته هبت ريح صفراء بالبصرة ، ثم صارت خضراء ، ثم صارت سوداء ، وامتدت فى الأمصار .

وفى خلافة المقتدى العباسى جاءت ريح سوداء ببغداد ، واشتد الرعد والبرق حتى ظن أنها القيامة .

وفى خلافة المستظهر هبت ريح سوداء مظلمة أخذت الناس بالأنفاس حتى لا يبصر الرجل يده ، ونزل على الناس رمل ، وأيقنوا بالهلاك ، ثم انجلى قليلا وعاد إلى الصفرة .

وفى سنة ثلاث وخمسين ومائتين كان ببلاد العدوة والأندلس قحط شديد نضبت منه المياه ، واستمر إلى سنة ستين .

وفى سنة أربع وخمسين بعدها كسف القمر كله من أول الليل حتى أصبح ولم ينجل .

وفى سنة ستين ومائتين عم القحط والغلاء ببلاد الأندلس والمغرب وإفريقية ومصر والحجاز ، ثم كان بالمغرب والأندلس وباء عظيم مع غلاء فى الأسعار ، وعدمت الأقوات فهلك خلق كثير .

وفى سنة سبع وستين ومائتين فى يوم الخميس الثانى والعشرين من شوال منها كانت زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلها تهدمت منها القصور ، وانحطت منها الصخور من الجبال ، وفر الناس من المدن إلى البرية من شدة اضطراب الأرض ، وتساقطت السقوف والحيطان ، وفرت الطيور عن أوكارها ، وماجت فى السماء زمانا حتى سكنت الزلزلة ، وعمت هذه الرجفة جميع بلاد الأندلس سهلها وجبالها ، وجميع بلاد العدوة من تلمسان إلى طنجة ، ومن البحر الرومى إلى أقصى المغرب إلا أنها لم يمت فيها أحد لطفا من الله تعالى بخلقه .

وفى سنة ست وسبعين ومائتين طبقت الفتنة جميع آفاق الأندلس والمغرب وافريقية .

وفى سنة خمس وثمانين ومائتين كانت المجاعة الشديدة التى عمت جميع بلاد الأندلس وبلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضا ، ثم عقب ذلك وباء ومرض وموت كثير هلك فيه من الخلق ما لا يحصى فكان يدفن فى القبر الواحد عدد من الناس لكثرة الموتى ، وقلة من يقوم بهم ، وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشر شوال عام تسع وتسعين ومائتين كسفت الشمس كسوفا كليا ، وكان ذلك بعد صلاة العصر فغاب القرص كله . فظهرت النجوم ، وأذن أكثر الناس بالمساجد للمغرب ثم تجلت مضيئة بعد ذلك .

وفى تاريخ الامام أبى جعفر ابن جرير الطبرى فى حوادث سنة تسع وسبعين ومائتين فى خلافة المعتضد العباسى نودى ببغداد أن لايقعد على الطرائق ولافى المسجد الجامع قاص ، ولاصاحب نجوم ولا زاجر ، وحلف الوراقون أن لايبيعوا علم الكلام والجدل والفلسفة . قال وفى سنة أربع وثمانين ومائتين نودى فى المسجد الجامع بنهى الناس عن الاجتماع على قاص ، وبمنع القصاص عن القعود اه

وأخرج ابن الجوزى فى كتاب القصاص بسنده . قال سأل رجل محمد بن سيرين عن القصص فقال بدعة أوّل ما أحدث الحرورية القصص

من حوادث المائة الثالثة

ما وقع من القحط والغلاء ، وذلك أنه فى سنة ثلاث وثلثمائة كان بافريقية والمغرب والأندلس فتن كثيرة ومجاعة عظيمة أشبهت مجاعة سنة ستين ومائتين ، ثم وقع الموت فى الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم

وفى سنة خمس وثلاثمائة أحرقت النار أسواق مدينة فاس ، وأسواق زناتة ، وأسواق قرطبة وأرباض مكناسة ، وكان ذلك كله فى شوّال من السنة المذكورة ، فسميت سنة النار

وفى سنة سبع وثلثمائة كان بافريقية والمغرب والأندلس رخاء مفرط وطاعون ووباء كثير ، وفيها كانت الريح السوداء الشديدة الهبوب التى قلعت الأشجار ، وهدمت الدور بفاس ، فتاب الناس ، ولزموا المساجد ، وارتدعوا عن كثير من الفواحش

ومن حوادثها ظهور المتنبي

وفى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ظهر رجل متنبئ بجبال غمارة يعرف بحاميم ، واجتمع عليه كثير من الرعاع ، وأقروا نبوّته ، وشرع لهم شرائع وعبادات ، وصنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه ، فما شرع لهم صلاتان فى يوم واحدة عند طلوع الشمس ، والأخرى عند غروبها ، ثلاث ركعات فى كل صلاة ويسجدون ، و بطون أيديهم تحت وجوههم ، ومن قرآنهم الذى كانوا يقرءونه : خلنى من الذنوب يامن خلى النظر ينظر فى الدنيا ، وفرض عليهم صوم الاثنين ، وصوم الخميس إلى الظهر ، وصوم الجمعة ، وصوم عشرة أيام من رمضان ، و يومين من شوّال ، وأسقط عنهم الحج والوضوء ، والغسل من الجنابة ، وأحل لهم أكل الأنثى من الخنزير ، وحرّم عليهم أكل البيض ، وأكل الرأس من كل حيوان ، فبعث إليه عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس عسكرا ، فالتقوا بقصر مصمودة من أحواز طنجة ، فقتلوه وقتلوا أتباعه وصلبوه ، وذلك سنة خمس عشرة وثلثمائة

وفى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة فى ذى القعدة انقضت النجوم سائر الليل انقضاضا عظيما ما رؤى مثله .

وقد وقع بعد ذلك أن النجوم والشهب انقضت وقتلت ناسا .

وفى سنة سبع وعشرين وثلثمائة ظهر ببلاد المغرب غمام كثيف دام خمسة أيام لم ير الناس فيها شمسا ، وكان الشخص لايرى من الأرض فيه إلاموضع قدميه ، فتاب الناس وأخرجوا الصدقات ، فكشف الله عنهم مابهم ، وسميت سنة الغمام .

وفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة نزل برد عظيم الواحدة منـه تزن رطلا وأكثر، قتل الطير والوحش والبهائم ، وكثيرا من الناس ، وكسر الأشجار ، وأفسـد الثمار ، وكان ذلك بأثر قحط شديد وغلاء عام .

وفى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة نزل أيضا برد كثير لم يعهد مثله كثرة، قتل المواشى ، وأفسد الثمار ، وجاءت السيول العظيمة بجميع بلاد المغرب ، وكان بها رعود قاصفة ، وبروق خاطفة ودام ذلك أياما .

وفيها أيضا كانت ريح شديدة هدمت المبانى .

وفى سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والأندلس ، هلك فيـه أكثر الخلق .

وفى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة كانت ريح شـديدة قلعت الأشجار ، وهدمت الديار ، وقتلت الرجال .

وفى ليلة الثلاثاء الثامن عشر من رجب منها ظهر فى البحر شهاب ثاقب مائل كالعمود العظيم أضاء الليل لسطوع نوره .

وفى سـنة إحدى وستين وثلثمائة كان الجراد بالمغرب ، وفى سنة اثنتين وستين بعـدها دخل مغراوة المغرب وملكوه ، وتعرف هذه السنة بسنة لقمان المغراوى .

وفيها توفى الشيخ الصالح أبوميمونة دراس بن إسماعيل، وهو أوّل من أدخل مدوّنة سحنون مدينة فاس .

وفى سنة سبع وسبعين وثلثمائة عمّ الجراد بلاد المغرب كلها ، وفى سنة ثمان وسبعين بعـدها كان الفيض الذى فاضت منه جميع أودية المغرب .

وفى سنة تسع وسبعين بعـدها كانت الريح الشرقية بالمغرب ، ودامت ستة أشهر ، فأعقبت وباء عظيما ، وأمراضا كثيرة .

وفى سنة ثمانين وثلاثمائة تدارك الله عباده ، وكان الرخاء المفرط بالمغرب، فكان الزرع لايوجد من يشتريه لـكثرته ، وكان الفلاحون وأصحاب الحرث يتركونه قائما فى محاقلهم لايحصدونه لرخصه .

ومن حوادث المـائة الثالثة خروج القرمطى

كان باليمن رجل خارجى استولى على البلاد يعرف بأبى ظاهر القرمطى ، وكان ظهوره فى أيام جعفر المقتدر العباسى ، وكثر فتكه فى المسلمين ،وسفك الدماء، وكثرت طائفته ، واشتدت شوكته.

وكان يدعى مذهب القرامطة ، وينتمى إلى صاحب مصر الفاطمى ، ويتستر بالاسلام ، وقتل خلقا كثيرا ، وشقّ بطن الحوامل ، وذبح الأطفال ، وتوجه بعسكر جرار بشالات السـلاح إلى المسجد الحرام يوم التروية ، فوضع السيف فيمن بمكة وشعابها ، وقتل ما يزيد على ثمانين ألف إنسان ، وركض أبو ظاهر بسيفه راكبا فرسه ، ودخل أثر المطاف ، فبالت فرسه وراثت ، وطلع إلى باب الـكعبة وهو يقول :

أنا بالله وبالله أنا ✲ يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وأقام بمكة أحد عشر يوما ، وقلع الحجر الأسود وحمله معه ، واستمر الحجر الأسود عند القرامطة اثنين وعشرين سنة إلا أربعة أيام ، وهـذه مصيبة من أعظم مصائب الاسلام ، وابتلى أبو ظاهر بأكلة ، فصار يتناثر لحمه بالدود ، ومات شر موتة جدد الله عليـه سخطه ، وأسكنه بعدله أضيق بيت فى هاويته ، ولما مات ملك بعده ولده ، ففعل بالعباد أشد مما فعله أبوه ، وبنى على قبره قبة عظيمة صفى حيطانها بالذهب والفضة والجواهر وقناديل الذهب وستور الحرير بحيث لم يعمل مثلها ومنع أهل اليمن من الحج إلى الكعبة ، وأمرهم بالحج إلى القبة ، فكانوا يحملون إليها من الأموال فى كل سنة ما لا يحصى ويطوفون بها ، ومن لم يحمل شيئا قتله ، وأقام على الفسق والفجور ، وذبح الأطفال ، وسبى النساء ، وسفك الدماء مدة ، فكان أهل اليمن يستنجدون السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فسير إليهم أخاه شمس الدولة ، ففتح اليمن ، وقتل ابن الخارجى ، وكان اسمه عبد النبى بن المهدى ، وهدم القبة ، وأخذ مافيها من الأموال والجواهر ، وكان وسق ستمائة جمل ونبش القبر ، وأحرق عظام اللعين الخارجى .

ومن حوادث هذه المائة استيلاء الدولة العبيدية

ويقال لهم الفواطم وهم ينتسبون إلى مولاتنا فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، والذى حققه المؤرخون فى نسبهم أنهم من أولاد الحسين بن محمد بن أحمد القداح ، وكان القداح مجوسيا .

وكان ابتداء ظهورهم عبيد الله المهدى ، وثانيهم القائم بأمر الله ، وثالثهم المنصور اسماعيل ، ورابعهم المعز لدين الله : أبو تميم معد ، وهو الذى انتقل من بلاد المغرب إلى مصر ، وملكها من الأخشيديين ، وكان السبب فى ملكها أنه لما مات الملك كافور المكنى بأبى المسك الأخشيدى ، وذلك فى عشرى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة جهز المعز قائده جوهرا بعسكر عظيم ومعه ألف جمل من السلاح ، ومن الخيل ما لا يوصف فملك مصر .

وفى رواية لما مات الملك كافور المتقدم الذكر بمصر اضطربت أحوال الديار المصرية ، وطمعت أهل القرى فى الجنـد ، فكتب أعيان مصر إلى الملك المعز الفاطمى ، فأرسل إليهم كبير جيشـه جوهر الصقلى فى مائة ألف مقاتل ، فدخلوا مصر فى يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، فهرب أصحاب كافور ، وأخـذ جوهر مصر بلا ضرب ولا طعن ، فخطب للمعز يوم الجمعة على منابر الديار المصرية وسائر أعمالها ، وأمر المؤذنين بجامع عمرو بن العاص ، وبجامع ابن طولون أن يؤذنوا «بحى على خير العمل» الذى هو من شعائر الخوارج ، فشق ذلك على الناس وما استطاعوا له ردا .

وحكى الشاطبى فى الاعتصام مانصه ، وأما بعث الدجالين فقد كان ذلك جملة ، منهم من تقدم فى زمان بنى العباس وغيرهم ، ومنهم معد من العبيدية الذين ملكوا إفريقية أى وهو الملقب بالمعز لدين الله ، فقد حكى عنه أنه جعل المؤذن يقول : أشهد أن معدا رسول الله - أشهد أن محمدا رسول الله ، فهم المسلمون بقتله ، ثم رفعوه إلى معد ليروا هل هـذا عن أمره ، فلما انتهى كلامهم إليه . قال اردد عليهم أذانهم لعنهم الله اه رجع ، ولما انتظم حاله ضاقت مصر بالجند والرعية ، فاختط جوهر سور القاهرة ، وبنى بها القصور ، وسماها المنصورية ، فلما قدم المعز إلى مصر من القيروان غير اسمها ،

وسماها القاهرة، والسبب فى ذلك أن جوهرا القائد لما أراد رمى أساس السور جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس، وطالعا لرمى الحجارة، فجعلوا قوائم من خشب بعد ماحفروا الأساس بين القائمة والقائمة حبل فيه أجراس وأمروا البنائين حال تحريك الأجراس أن يرموا ما بيدهم من الطين والحجارة فوقف المنجمون لتحرير هذه الساعة وأخذ الطالع ، واتفق وقوع غراب على خشبة من ذلك الخشب ، فظن الموكلون بالأجراس أن المنجمين حركوها : فألقوا ما بأيديهم من الحجارة والطين فى الأساس ، فصاح المنجمون لا لا القاهر فى الطالع فمضى ذلك وفاتهم ماطلبوه ، وكان الغرض أن يختاروا طالعا لا تخرج البلد عن نسلهم ، فوقع أن المريخ كان فى الطالع : وهو يسمى عند المنجمين القاهر . فعلم أن الأتراك لابدّ أن يملكوا هذه البلدة و إقليمها ، فسماها القاهرة وغير اسمها الأول ويأبى الله الا ما أراد . وكان جوهر دبّر أرض مصر أربع سنين و بنى الجامع الأزهر وكان نهاية بنائه فى سابع رمضان سنة احدى وستين وثلثمائة ، وتوفى المعزّ سابع ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة،ودفن فى قصره بالقاهرة وكان تصرفه فى القاهرة ثلاث سنوات وكان المعز هذا رافضيا يبغض الصحابة ويسبهم يوم الجمعة على المنبر الا أنه كان فيه عدل للرعية حاذقا. وفى رواية أخرى أن تصرفه بمصر أربع سنين وشهر ويومان . ثم تولى بعده ابنه أبو النصر نزار فأقام فى الملك احدى وعشرين سنة ونصفا . وتوفى فى حمام بلبيس سنة ست وثمانين و ثلثمائة ، وتقدم لنا أن أول مبدأ ظهورهم بالمغرب المهدى بالله عبيد الله ، تولى بالمغرب خمسا وعشرين سنة وثلاثة أشهر . ثم القائم بأمر الله محمد ، تولى المغرب أيضا ثنتى عشرة سنة وسبعة أشهر، ثم المنصور اسمعيل صاحب افريقية ،تولى بالمغرب فأقام اثنتين وثلاثين سنة ، ثم المعزّ لدين الله معد بن المنصور ، بويع له بالمغرب بعد موت أبيه المنصور

من حوادث المائة الرابعة فتنة الحاكم العبيدى

وهو أبو على المنصور الحاكم بأمر الله العبيدى، بويع له بمصر سنة ست وثمانين وثلثمائة . وكان شر الخليقة لم يل مصر بعد فرعون أشر منه . رام أن يدعى الألوهية كما ادعاها فرعون فأمر الرعية إذا ذكر الخطيب اسمه على المنبر أن يقوموا إعظاما لذكره واحتراما لاسمه فكان ذلك فى سائر ممالكه حتى فى الحرمين الشريفين وكان كثير التلوّن فى أقواله وأفعاله له أحكام مشهورة يمجها صاحب العقل السليم ، والطبع المستقيم ، وقبائح ينكرها العرف والشرع القويم

وكانت أموره متضادة لأنه كان عنده شجاعة و إقدام ، وجبن واحجام ، ومحبة للعلماء ، وانتقام من العلماء ، وميل الى أهل الصلاح وقتلهم ، وكان عنده السخاء ويبخل بالقليل ، وقتل من العلماء مالا يحصى،وأمر بسبّ الصحابة ومنع صلاة التراويح مدّة ، ثم أباحها ، وكان يعمل الحسبة بنفسه فيدور فى الأسواق على حماره فمن وجده من البياعين وزن بخسا أو غش فى صنعته أمر عبدا أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى فى وسط السوق ،وكان أمر أن يعلق فى أعناق النصارى الصلبان وأن يكون طول الصليب ذراعا وزنته خمسة أرطال، وأمر أن يجعل فى أعناق اليهود الأجراس إذا دخلوا الحمام ليعرفوا من المسلمين وأن يلبسوا العمائم السود .

وصنف له بعض الباطنية كتابا : وكتب فيه أن روح آدم انتقلت الى على بن أبى طالب ،

وأن روح علىّ انتقلت الى الحاكم ، وقرأ هذا الكتاب فى الجامع الأزهر بالقاهرة . وأعطى الناس المال ، وأباح لهم الخمور والزنا حتى أن جماعة إلى الآن يعتقدون رجوع الحاكم وأنه لابد أن يعود ويمهد الأرض

وذكر الامام الحافظ الذهبي فى تاريخه أن الحاكم لما زاد ظلمه عنّ له أن يدعى الربوبية ، فادّعى علم المغيبات فكان إذا صعد المنبر يقول فلان فعل فى بيته كذا وكذا وأكل كذا وكذا . وكان ذلك باتفاق اعتمده مع العجائز اللواتى يدخلن بيوت الأمراء وغيرهم فرفعت اليه فى أثناء ذلك رقعة مكتوب فيها

بالجور والظلم قد رضينا ✲ وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أوتيت علم غيب ✲ بين لنا صاحب البطاقة

فلما رآها سكت عن الكلام فى المغيبات وكان هو وأسلافه بمصر يدعون الشرف ويريدون بذلك الافتخار على بنى العباس خلفاء بغداد ، ويقولون أبونا علىّ وأمنا فاطمة بنت النبى ﷺ وكان الحاكم يقول ذلك على المنبر وكانت الرقاع ترفع إليه وهو على المنبر فرفعت إليه رقعة مكتوب فيها

إنا سمعنا نسبا منكرا ✲ يتلى على السامع فى الجامع
إن كنت فيما قلته صادقا ✲ فصف لنا نفسك كالطالع
أو كان حقا كل ما تدعى ✲ فاعدد لنا بعد الأب السابع
أو فدع الأشياء مستورة ✲ وادخل بنا فى النسب الواسع

فرماها من يده ولم ينتسب فيما بعد .

توفى قتيلا فى سابع شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة وتصرف فى مملكته خمسا وعشرين سنة وشهرا ، وبنى فى مصر الجامع المعروف به بالقاهرة

وفى تاريخ ابن خلكان فى ترجمة الحاكم العبيدى أن الحاكم بأمر الله هذا كان له حمار أشهب يدعى بقمر يركبه وكان يحب الانفراد والركوب وحده ، فخرج راكبا حماره ليلة الاثنين سابع عشر شوّال سنة احدى عشرة وأربعمائة الى ظاهر مصر وطاف ليلته كلها ، وأصبح متوجها الى شرق حلوان ومعه راكبان ، فأعاد أحدهما ثم أعاد الآخر ، وبقى الناس يخرجون يلتمسون رجوعه ومعهم دواب الموكب إلى يوم الخميس السابع والعشرين من شوّال المذكور ، ثم خرج فى ثانى القعدة جماعة من الموالى والأتراك ، فأمعنوا فى طلبه وفى الدخول فى الجبل فرأوا حماره الأشهب الذى كان راكبا عليه وهو على قنة الجبل ، وقد ضربت يداه ورجلاه بسيف وعليه سرجه ولجامه ، فتبعوا الأثر فاذا أثر حمار وأثر راجل خلفه وراجل قدامه ، فقصدوا الأثر الى البركة التى فى شرقى حلوان ، فنزل فيها رجل ، فوجد فيها ثيابه وهى سبع جباب ، وفيها آثار السكاكين ، فحملت إلى القصر ، ولم يشكوا فى قتله ، غير أن جماعة من المغالين فى حبهم له السخيفى العقل يدعون حياته ، وأنه سيظهر ويحلفون بغيبة الحاكم ، ويقال ان أخته دست عليه من قتله لما همّ بارتكاب الفاحشة معها ، وكان الحاكم جوادا بالمال سفاكا للدماء ، وكانت سيرته عجبا يخترع كل يوم حكما يحمل الناس عليه ، فمن ذلك أنه أمر الناس سنة خمس وتسعين وثلثمائة بكتب سبّ الصحابة رضى الله

تعالى

تعالى عنهم فى حيطان المساجد والقياسر والشوارع ، وكتب إلى سائر الديار المصرية يأمرهم بالسبّ ، ثمّ أمر بقطع ذلك سنة سبع وتسعين،وأمر بضرب من يسبّ الصحابة وتأديبه ، وأمر بقتل الكلاب ، فلم ير كلب فى الأسواق والأزقة إلا قتل ، ونهى عن بيع الفقاع والملوخيا ، ثمّ نهى عن بيع الزبيب قليله وكثيره ، وجمع جملة كثيرة وأحرقت ، وأنفقوا على إحراقها خمسمائة دينار ، ثمّ نهى عن بيع العنب أصلا ، وألزم اليهود والنصارى أن يتميزوا فى لباسهم عن المسلمين فى الحمامات وخارجها ، ثم أفرد حماما لليهود ، وحماما للنصارى ، وألزمهم أن لا يركبوا شيئا من المراكب المحلاة ، وأن تكون ركبهم من الخشب ، وأن لايستخدموا أحدا من المسلمين ولا يركبوا حمار المكارى المسلم ، ولا سفينة فيها مسلمون ، وأمر بهدم القمامة فى سنة ثمان وأربعمائة ، وجميع الكنائس بالديار المصرية ، ووهب جميع مافيها من الآلات وجميع مالها من الأحباس لجماعة من المسلمين ، وأمر أن لايتكلم أحد فى صناعة النجوم ، وأن ينفى المنجمون من البلاد ، وكذلك أصحاب الغناء ، ومنع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع الأساكفة من عمل الأخفاف للنساء ، ولم تزل النساء ممنوعات من الخروج إلى أيام ولده الظاهر مدّة سبع سنين ، ثمّ أمر ببناء ما كان هدم من الكنائس ، وردّ ما كان قد أخذ من أحباسها اهـ

ولما توفى فى السنة المذكورة تولى من بعده ابنه الظاهر لدين الله أبو الحسن ، فأقام فى الملك ست عشرة سنة وسبعة أشهر ، وفعل أفعالا تقرب من أفعال والده ، ومات يوم الأحد سنة سبع وعشرين وأربعمائة .

ثم قام بالأمر بعده ابنه المستنصر بالله معدّ ، فأقام فى الملك ستين سنة بتقديم السين المهملة على المثناة الفوقية وأربعة أشهر ، ولم يقم هذه المدّة خليفة ولا ملك فى الاسلام قبله ، وحصل فى مدته غلاء عظيم لم يعهد مثله ، إلا ما كان فى زمن يوسف عليه السلام ، فمكث سبع سنين حتى أكل الناس بعضهم بعضا ، و بيع الرغيف الواحد بخمسين دينارا ، وخرجت امرأة بمجواهر ، وطلبت عوضه مدّ برّ فلم تجد ، فألقته وماتت جوعا فلم يوجد من يأخذه ، وتوفى المستنصر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، و بعد موته لم يبق للفواطم من الخلافة سوى الاسم اهـ من تحفة الناظرين .

ومن حوادث هذه المائة الرابعة

أنه فى ليلة الخميس ثالث وعشرى رجب الفرد سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ، ظهر نجم فى السماء كان فى رأى العين مثل الصومعة العظيمة ، طلع من جهة المشرق وتهافت جريا فيما بين المغرب والجوف ، وتطاير منه شرر عظيم فزع الناس منه ، واستغاثوا بربهم فى صرف مكروهه عنهم .

وفى سنة خمس وثمانين وثلثمائة كانت الريح الهائلة التى نظر الناس فيها إلى البهائم تمرّ بين السماء والأرض ، نعوذ بالله من سخطه .

وفى سنة أربع وتسعين وثلثمائة طلع الكوكب الوقاد ، وهو نجم عظيم فخم الجرم كثير الضياء .

وفى سنة ست وتسعين وثلثمائة طلع نجم عظيم من ذوات الأذناب شديد الارتعاد .

وفى سنة سبع وأربعمائة انقرضت دولة بنى أمية بالأندلس ، وقامت بها دولة بنى حمود فكانت مدتها نحو سبع سنين وانقرضت أيضا ، وافترق أمر الجماعة بالأندلس ، وصار الملك بها طوائف إلى

أن نسخ ذلك يوسف بن تاشفين رحمه الله .

وفى سنة إحدى عشرة وأربعمائة اشتدّ القحط ببلاد المغرب كلها وكثر الفناء فى الناس .

وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة كانت الزلزلة العظيمة بالأندلس ، واضطربت لها الأرض ، وانهدّت الجبال .

من حوادث المائة الخامسة

ماحكاه ابن الأثير فى تاريخه أنه نشأت بافريقيـة فى سنة إحدى عشرة وأربعمائة سحابة شـديدة الرعد والبرق ، فأمطرت حجارة كثيرة ، وأهلكت كل من أصابته اهـ نقلا من عجائب المخلوقات . زاد مانصه ، وأغرب من هذا ماحكاه الجاحظ أنه نشأت سحابة بأبدج وهى مدينة بين أصبهان وخوزستان تكاد تمسّ رءوس الناس ، وسمعوا منها كهدير الفحل ، ثم انها دفعت بأشدّ مطر ، ثم استقـلوا للغرق ، ثم دفعت بالضفادع والسمك العظام ، فأكلوا وملحوا وادّخروا كثيرا اهـ .

وقال الحلبى فى السيرة عصفت فى سنة أربع وخمسين وأربعمائة ريح شديدة بخراسان كريح عاد ، اضطربت منها الجبال ، وفرّت منها الوحوش ، فظنّ الناس أن القيامة قد قامت وابتهلوا إلى الله تعالى ، فنظروا وإذا نورعظيم قد نزل من السماء على جبل من تلك الجبال ، ثم تأمّلوا الوحوش فاذا هى منصرفة إلى ذلك الجبل الذى سقط فيـه ذلك النور ، فساروا معها إليه ، فوجدوا فيـه صخرة طولها ذراع فى عرض ثلاث أصابع ، وفيها ثلاثة أسطر . سطر فيه : لاإله إلاالله فاعبدوه وسطر فيـه : محمد رسول الله القرشىّ ، وسطر ثالث فيـه : احذروا وقعة المغرب إنها تكون من سبعة أو تسعة ، والقيامة قد أزفت أى قربت .

وفى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة شنق الكورانى الذى ادّعى أنه الامام المهدى ، ومن كان معه بمصر .

وحكى الحافظ الذهبى فى كتابه تاريخ الاسلام أنه ورد كتاب إلى القاهرة من السلطان محمود بن سبكتكين فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة يذكر فيه أنه أوغل فى بلاد الهند حتى جاء إلى قلعة فيها ستمائة صنم . قال وأتيت إلى قلعة ليس لها فى الدنيا نظير ، وما الظن بقلعة تسع خمسمائة فيل وعشرين ألف دابة ، وتقوم لهؤلاء بالعلوفة ، وأعان الله تعالى حتى طلبوا الأمان ، فأمنت ملكهم وأقررته على ولايته بخراج ضرب عليه ، وأنفذ هدايا كثيرة من جملتها طائر على شكل القمرى إذا حضر على الخوان ، وكان فيه شىء من السمّ دمعت عيناه وجرى منها ماء وحجر ، فيحكّ ويطلى به الجرح يبرأ على الفور ويلتحم .

وفى سنة أربعمائة وستين وقع بالرملة زلزلة هائلة خربتها حتى طلع الماء من رءوس الآبار ، وهلك من أهلها خمسة وعشرون ألفا ، وأبعـد البحر عن ساحله مسيرة يوم ، فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون ، فرجع الماء عليهم فأهلكهم .

ومن

ومن حوادث هذه المائة الخامسة

ما قد صحّ به الخبر عن غير واحد من الائمة أنه فى زمن فاطمية مصر المتقدمى الذكر كان أشخاص يجتمعون بالمدينة يوم عاشوراء فى قبة العباس ويسبون الشيخين والصحابة ، فجاء رجل وقال من يطعمنى فى محبة أبى بكر رضى الله عنه ، فخرج إليه شيخ منهم ، وأشار اليه أن اتبعنى ، فأخذه الى بيته وقطع لسانه ، ووضعه فى يده وقال : هذه بمحبة أبى بكر ، فذهب الرجل الى المسجد وسلم على رسول الله ﷺ والشيخين ، ورجع ولسانه فى يده فقعد حزينا عند باب المسجد وغلبه النوم ، فرأى النبى ﷺ فى منامه ومعه أبو بكر ، فقال لأبى بكر إن هذا قطعوا لسانه فى محبتك فردّ عليه لسانه ، قال فأخرج اللسان من يده ووضعه فى محله ، فانتبه فاذا لسانه كما كان قبل القطع فلم يخبر أحدا ورجع إلى بلاده ، فلما كان العام القابل رجع الى المدينة ودخل القبة يوم عاشوراء ، وطلب شيئا بمحبة أبى بكر رضى الله عنه ، فخرج اليه شاب وقال اتبعنى فتبعه ، فأدخله الدار التى قطع فيها لسانه ، وأكرمه الشاب ، فقال الرجل إنى تعجبت من هذا البيت ، لقيت فيه العام الماضى مصيبة ومهانة ، وهذه السنة لقيت ما أرى من الاكرام ، فقال الشاب كيف القصة ؟ فأخبره بالقصة ، فانكبّ على يديه ورجليه وقال ذلك أبى وقد مسخه الله قردا ، وكشف عن ستاره ، فأراه قردا مربوطا ، وأحسن اليه ، وتاب عن مذهبه ، وقال اكتم علىّ أمر والدى ، ذكر هذه القصة السيد السمهودى وابن حجر فى الزواجر والصواعق والقسطلانى وغيرهم .

ومن حوادثها تسلط بعض ملوك مغراوة و بنى يفرى عَلَى الرّعية

ولما ضعفت أحوالهم جاروا على رعيتهم بأخذ أموالهم ، وسفك دمائهم ، والتعرض لحرمهم ، فانقطعت عنهم الموادّ ، وكثر الخوف فى البلاد ، وغلت الأسعار ، وذلك فى دولة الفتوح بن دوناس ومن بعده .

فكان رؤساء مغراوة و بنى يفرى يلجون على الناس دورهم ، فيأخذون ما يجدون بها من الطعام ، ويتعرّضون لنسائهم وصبيانهم ، ويأخذون أموال التجار فلا يقدر أحد أن يصدّهم عن ذلك ، وكان سفهاؤهم وعبيدهم يصعدون على قنة جبل العرض ، فينظرون الى الدور التى بالمدينة فاذا رأوا دارا بها دخان قصدوها وأخذوا ما وجدوا بها من طعام أو غيره ، ومن تعرّض لهم فى ذلك قتلوه ، فلما ارتكبوا هذه العظائم سلبهم الله ما ملكه وغير ما بهم من نعمة « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فسلط الله عليهم المرابطين فمحوا آثارهم من المغرب ونفوهم عنه بالكلية وطهروه من جورهم ، وقتلوا منهم ما يزيد على العشرين ألفا ، حتى عجز الناس عن مواراتهم فرادى فاتخذوا لهم الأخاديد ، وقبروا جماعات ، وانقرضت دولتهم من المغرب ، وكانت مدة دولتهم نحو مائة سنة ، وفى أيامهم اتخذ أهل فاس المطامير فى بيوتهم للطحن والطبخ ، لئلا يسمع دوىّ الرّحى ، فيقصدهم سفهاء مغراوة ، وفيها أيضا اتخذوا غرفا لامراق لها حتى اذا كان عشىّ النهار صعد الرجل بأهله وعياله إليها بسلم ، ثم يرفع السلم معه لئلا يدخل عليه فجأة ، وكان من هذا شئ كثير

ومن حوادثها العظيمة استيلاء الفرنج عَلَى الشام و بيت المقدس وغيرهما

اعلم أن المسلمين منذ فتحوا الشام فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إنما كان قتالهم فى تلك الأراضى مع الروم ملوك القسطنطينية ، ثم صار من الخلفاء والأمراء الاسلامية غزوات وفتوحات كثيرة افتتحوا فيها كثيرا من ممالك الروم حسبما هو مسطر فى التواريخ ، ثم لما كان آخر القرن الخامس ، وظهر الضعف فى الخلفاء العباسيين ، واستولى على مصر و بعض الشام الخلفاء العبيديون ، وتغلب على كثير من الممالك الاسلامية العمال الذين فيها ، طمع فى ممالك الشام الافرنج ، واستعدوا لذلك غاية الاستعداد حتى بلغ عددهم ألف ألف مقاتل ، ثم ساروا لبيت المقدس ، وكان يومئذ بيد العبيديين ملوك مصر انتزعوه من خلفاء بنى العباس ، فلما وصل الفرنج إليه حصروه نيفا وأربعين يوما إلى أن ملكوه لسبع بقين من شعبان سنة اثنين وتسعين وأربعمائة هجرية ، وركبوا الناس بالسيف حتى قتلوا بالمسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا فضة نقرة ، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه مالا يقع عليه الاحصاء ، وجعلوا بيت المقدس دار ملكهم ثم استولى الفرنج على أكثر سواحل الشام ، فملكوا يافا وغيرها من القلاع والحصون ، وكانت محنة فاحشة على المسلمين ، و بقى بيت المقدس بأيدى الفرنج إحدى وتسعين سنة ، وكذا ماجاوره من سواحل الشام وغيرها ، وعجز ملوك الاسلام عن استرجاع ذلك إلى أن استرجع الجميع السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وكان هذا السلطان عالما صالحا حليما حسن الأخلاق عظيم الجهاد فى الكفار ، وفتوحاته تدل على ذلك * توفى رحمه الله ورضى عنه بدمشق فى سابع وعشرى صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا و بنتا واحدة ، ولم يخلف دارا ، ولا عقارا ، ولم يوجد فى خزانته غير سبعة وأربعين درهما ودينار واحد ، ولم يبال بكونه لم يترك لأولاده مايرثونه بعده ، وذلك لشدة زهده فى الدنيا ، وقوة وثوقه بالله تعالى وتوكله عليه ، ولما انقضت دولة العبيديين بمصر ، واستولى هو على مصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع مايفوت الاحصاء ففرقه جميعه ولم يأخذ لنفسه شيئا ، وكانت ولادته رحمه الله ورضى عنه سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، فكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة ، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة ، وملك الشام قريبا من تسع عشرة سنة ، وكان رحمه الله مشغولا بالانفاق فى سبيل الله تعالى ، وقد قيل ماعمل أحد فى الاسلام من استرجاع المدن الشهيرة التى استولى عليها العدو مثل ماعمل حتى قيل مات بموته الرجال ، وفات بفواته الافضال ، وغاضت الأيادى ، وفاضت الأعادى .

ومن حوادث هذه المائة الخامسة

ماذكره المقريزى فى خططه عند ذكر دمياط . قال وفى سنة ثمان وأربعمائة ظهرت سمكة

بدمياط

بدمياط طولها مائتان وستون ذراعا وعرضها مائة ذراع ، وكانت حمير الملح تدخل فى فمها محملة فتفرغ وتخرج ، ووقف خمسة رجال ومعهم المجاريف يجرفون الشحم من جوفها ، ويناولونه الناس وأقام أهل تلك النواحى مدة يأكلون من لحمها اه .

من حوادث المائة السادسة

ظهور مهدى الموحدين محمد بن تومرت ، وكان ذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وهو الذى مزق ملك اللمتونيين ، واستولى على ما كان بأيديهم من البلاد بعد أن محا أثرهم مع أن لمتونة كانوا أهل ديانة وصدق ، ونية خالصة ، وصحة مذهب ، ملكوا بالأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربى المحيط ، ومن بلاد العدوة من مدينة بجاية إلى جبال الذهب من بلاد السودان ، وخطب لهم على أزيد من ألفى منبر بالتثنية ، وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ، وكان ذلك مصحوبا بطول أيامهم ، ولم يكن فى عمل من أعمالهم خراج ، ولا معونة ، ولا تقسيط ، ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشى الزكاة والعشر ، وكثرت الخيرات فى دولتهم ، وعمرت البلاد ووقعت الغبطة ، ولم يكن فى أيامهم نفاق ، ولا قطاع طريق ، ولا من يقوم عليهم ، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدى الموحدين فى السنة المذكورة ، وسبب تمزيق ملكهم مع ماهم عليه من القيام بالوظائف الدينية ، والأخلاق المحمدية ، هو إحراق كتاب الاحياء للامام الغزالى رضى الله عنه ، وذلك أنه لما وصلت نسخة إلى بلاد المغرب تصفحها جماعة من فقهاء أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى فانتقدوا فيها أشياء على الشيخ أبى حامد الغزالى ، وأعلموا السلطان بأمرها ، وأفتوه بأنها يجب إحراقها ، ولا تجوز قراءتها بحال ، وكان على بن يوسف واقفا كأبيه عند إشارة الفقهاء وأهل العلم ، قد رد جميع الأحكام إليهم ، فلما أفتوه باحراق كتاب الاحياء كتب إلى أهل مملكته فى سائر الأمصار والأقطار بأن يبحث عن نسخ الاحياء بحثا أكيدا ، ويحرق ما عثر عليه منها ، فجمع من نسخها عدد كثير ببلاد الأندلس ، ووضعت بصحن جامع قرطبة ، وصب عليها الزيت ، ثم أوقد عليها بالنار ، وكذا فعل بما ألفى من نسخها بمراكش بالمسجد القريب من سوق الجلد النىء المتخذ اليوم زاوية للكتانيين ، وتوالى الاحراق عليها فى سائر بلاد المغرب ، وكان ذلك فى حياة الشيخ أبى حامد رحمه الله ، وبسبب ذلك دعا على المرابطين أن يمزق ملكهم ، فاستجيب له فيهم ، ولم يقع فى دولة المرابطين أشنع من هذه النازلة ، وهى إحراق كتاب الاحياء والأمر لله ، وحدث وطنينا صاحب التشوف بسنده عن أبى الحسن على بن حرزهم . قال لما وصل إلى فاس كتاب أمير المسلمين على بن يوسف بالتحريج على كتاب الاحياء ، وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة ان كتاب الاحياء ليس عندهم ذهبت إلى أبى الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوى ، وكان من أهل العلم والدين على هدى السلف الصالح مجاب الدعوة استفتيته فى تلك الأيمان ، فأفتانى بأنها لاتلزم ، وكانت إلى جنبه أسفار ، فقال لى هذه الأسفار من كتاب الاحياء ، ووددت أنى لم أنظر فى عمرى سواها ، وكان أبو الفضل قد انتسخ كتاب الاحياء فى ثلاثين جزءا ، فاذا دخل شهر رمضان قرأ فى كل يوم جزءا اه .

رجع محمد بن تومرت المعروف بالمهدى ، أصله من المصامدة ، وكان ورعا ، ناسكا ، متقشفا ،

مخشوشنا ، كثير الاطراق ، بساما فى وجوه الناس ، مقبلا على العبادة ، لايصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة ، وكان شجاعا فصيحا فى لسانى العرب والبربر شديد الانكار على الناس فيما يخالف الشرع متحملا للأذى من الناس بسببه ، وكان اطلع على بعض الجفريات عند الشيخ أبى حامد الغزالى رضى الله عنه ، ورأى فيها صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى كذا ورأى فيه أيضا أن استقامة ذلك الأمر على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه : ع ب د م و م ن ويجاوز وقته المائة الخامسة من الهجرة ، فأوقع الله فى نفسه أنه القائم بهذا الأمر ، فاستخار الله وعزم على الترحال ، فخرج قاصدا بلاد المغرب غرّة ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة ، ولازم فى طريقه درس العلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى أن اجتمع به المشار له أعلاه عبدالمومن ابن على ، فبايعه على موازرته فى الشدّة والرخاء ، ثم قدم بلاد المغرب واستقرّ بمراكش ، وكانت له فصاحة ، وعليه مهابة ، فأخذ يطعن على المرابطين ، وينسبهم إلى الكفر والتجسيم ، ويشيع عند من يثق به ، ويسكن إليه أنه المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا ، وجرى منه بمراكش من تغيير المنكر شىء كثير ، فاتصل خبره بعلى بن يوسف اللمتونى ، فأحضره وقال له ما هذا الذى بلغنا عنك ؟ فقال إنما أنا رجل فقير أطلب الآخرة وآمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأنت أيها الملك أولى من يفعل ذلك فأنت المسئول عنه ، وقد ظهرت بمملكتك المنكرات وفشت البدع وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة ، وقد عاب الله تعالى أمّة تركوا النهى عن المنكر ، فقال « كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فلما سمع أمير المسلمين كلامه تأثر له وأخذه وأطرق مفكرا ، ثم أمر باحضار الفقهاء فحضر منهم ما أغص المجلس ، ثم قال أمير المسلمين اختبروا الرجل ، فان كان عالما اتبعناه وإلا أدّبناه ، وكان المهدى فصيحا ذا معرفة بالأصول والجدل ، وكان الفقهاء الذين حضروا أصحاب حديث وفروع ، فدارت بينهم محاورة ومذاكرة أسكتهم فيها وبان عجزهم عنه فعدلوا عن المذاكرة إلى الممالأة ، وأغروا به أمير المسلمين ، وقالوا هذا رجل خارجى وإن بقى بالمدينة أفسد عقائد أهلها ، فأمره أمير المسلمين بالخروج من البلد ، وخرج إلى أن أتى تينملل ، فأقام بها ، وذلك فى شوّال سنة أربع عشرة وخمسمائة ، فعظم صيته بجبل درن ، وكثر أتباعه ، وأظهر دعوته ، ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه ، ثم بعث دعاته فى بلاد المصامدة يدعون الناس إلى بيعته ، ويزرعون محبته فى قلوبهم بالثناء عليه ، ووصفه بالزهد ، وتحرّى الحق ، وإظهار الكرامات ، فأقبل الناس عليه من كل جهة ، وسمى أتباعه الموحدين ، ولقنهم عقائد التوحيد باللسان البربرى ، وجعل لهم فيه الأعشار والأحزاب والسور ، وقال من لم يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد لاتجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته ، فاستولت محبته على قلوبهم ، وعظموه ظاهرا وباطنا حتى كانوا يستغيثون به فى شدائدهم وينوّهون باسمه على منابرهم ، ولم تزل الوفود تترادف عليه حتى اجتمع عليه جمّ غفير ، فلما علم أنّ ناموسه قد رسخ ، وسلطانه قد تمكن ، قام فيهم خطيبا وندبهم إلى جهاد المرابطين ، وأباح لهم دماءهم وأموالهم ، فانتدب الناس لذلك وبايعوه على الموت .

وكان المهدى هذا رجلا ربعة أسمر ، عظيم الهامة ، غائر العينين ، حديد النظر ، خفيف العارضين ، مقداما على الأمور العظام ، غير متوقف فى سفك الدماء ، ويهون عليه اتلاف عالم فى

بلوغ غرضه ، ومن جراءته وإقدامه ، وتهالكه على تحصيل مرامه ، ماحكاه صاحب القرطاس قال كان بين الموحدين والمرابطين حرب ، فقتل من الموحدين خلق كثير ، فعظم ذلك على عشائرهم فاحتال المهدى بأن انتخب قوما من أتباعه ودفنهم أحياء بموضع المعركة ، وجعل لكل واحد منهم متنفسا فى قبره ، وقال لهم إذا سئلتم عن حالكم فقولوا «قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، وأن مادعا إليه الامام المهدى هو الحق فجدّوا فى جهاد عدوّكم » وقال لهم إذا فعلتم ذلك أخرجتكم ، وكانت لكم عندى المنزلة العالية ، وقصد بذلك أن يثبتهم على التمسك بدعوته ويهون عليهم مالقوا من القتل والجراحات بسببه ، ثم جمع أصحابه عند السحر ، وقال لهم أنتم يا معشر الموحدين حزب الله وأنصار دينه ، وأعوان الحق فجدّوا فى قتال عدوّكم فانكم على بصيرة من أمركم ، وإن كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد اليوم من إخوانكم يخبروكم بما لقوا من الثواب عند الله ، ثم أتى بهم إلى موضع المعركة ، ونادى يامعشر الشهداء ماذا لقيتم من الله عزّ وجلّ ، فقالوا قد أعطانا من الثواب مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فافتتن الناس ، وظنوا أن الموتى قد كلموهم ، وحكوا ذلك لبقية إخوانهم ، فازدادوا بصيرة فى أمره وثباتا على رأيه ، وكان المهدى حصورا لاياتى النساء ، ويزعم أنه مأمور بنوع من الوحى والالهام ، وينكر كتب الرأى والتقليد ، وله باع بعلم الكلام ، وغلبت عليه نزعة خارجية ، وكان يقول بعصمة الامام على رأى الشيعة ، وهو أوّل من أحدث أصبح ولله الحمد فى آذان الصبح ، وبالجملة فكان له قدم فى الثرى وهمة فى الثريا ، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا ، أغفل المرابطون عقله وربطه حتى دبّ إليهم دبيب الفلق فى الغسق ، وترك فى الدنيا دويا أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم ، لكان لعزمه فيها غير مسلم ، وكان قوته من غزل أخت له فى كل يوم رغيف بقليل سمن أو زيت ، ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا ، ورأى أصحابه يوما وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ماغنموه ، فأمر بضم ذلك جميعه وأحرقه ، وقال من كان يتبعنى فليس له عندى إلا ما رأى ومن تبعنى للآخرة فجزاؤه عند الله ، وكان على خمول زيه ، وبسط وجهه ، مهيبا منيع الحجاب إلا عند مظلمة * توفى رحمه الله يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وتولى عبد المؤمن تجهيزه والصلاة عليه ، ثم دفنه بمسجده الملاصق لداره من تينملل ، ولما قام أبو العلاء المأمون بن يعقوب المنصور الموحدى بالأمر ، وذلك سنة ست وعشرين وستمائة . صعد المنبر بجامع المنصور ، وكان علامة أديبا بليغا ، فخطب الناس ، ولعن المهدى على المنبر ، وقال لا تدعوه بالمهدى المعصوم ، وادعوه بالقوى المذموم ، ألا لامهدى إلا عيسى وإنا قد نبذنا أمره النحس ، ولما انتهى إلى آخر خطبته . قال : معشر الموحدين لاتظنوا أنى أنا إدريس الذى تندرس دولتكم على يديه ، كلا إنه سيأتى بعدى إن شاء الله ، ثم نزل وأمر بالكتب إلى جميع البلاد بمحو اسم المهدى من السكة والخطبة ، وتغيير سننه التى ابتدعها للموحدين ، وجرى عليها سلفهم ، ونعى عليه النداء للصلاة باللغة البربرية ، وزيادته فى أذان الصبح أصبح ولله الحمد ، وغير ذلك من السنن التى اختصّ بها المهدى ، وأمر بتدوير الدراهم التى ضربها المهدى مربعة ، وقال كل مافعله المهدى وتابعه عليه أسلافنا فهو بدعة ولا سبيل إلى إبقائه وأبدى فى ذلك وأعاد .

قال الشاطبي فى الاعتصام بعد كلام ما نصه ، واستحلال القتل باسم الارهاب الذى يسميه ولاة الظلم سياسة وأبهة الملك ، وهو نوع من أنواع شريعة القتل المخترعة ، وقد وصف النبى ﷺ الخوارج بهذا النوع من الخصال ، فقال : إن من ضئضئ هذا قوما يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية إلى أن قال وقد وضع القتل شرعا معمولا به على غير سنة الله وسنة رسوله المتسمى بالمهدى المغربى الذى زعم أنه المبشر به فى الأحاديث ، فجعل القتل عقابا فى ثمانية عشر ضعفا ذكروا منها الكذب والمداهنة وأخذهم أيضا بالقتل فى ترك امتثال أمر من يستمع أمره وبايعوه على ذلك ، وكان يعظهم فى كل وقت ويذكرهم ، ومن لم يحضر أدب ، فان تمادى قتل ، وكل من لم يتأدب بما أدب به ضرب بالسوط المرة والمرتين ، فان ظهر منه عناد فى ترك امتثال الأوامر قتل ، ومن داهن على أخيه أو أبيه أو من يكرم أو المقدم عليه قتل ، وكل من شك فى عصمته قتل ، أو شك فى أنه المهدى المبشر به قتل ، فكان أكثر تأديبه القتل كما ترى كما أنه كان من رأيه أن لا يصلى خلف إمام أو خطيب يأخذ أجرا على الامامة أو الخطابة ، وكذلك لبس الثياب الرفيعة ، وإن كانت حلالا ، وكان من رأيه ترك الرأى ، واتباع مذاهب الظاهرية . قال العلماء وهو بدعة ظهرت فى الشريعة بعد المائتين ، ومن رأيه أن التمادى على ذرة من الباطل كالتمادى على الباطل كله .

وذكر فى كتاب الامامة أنه هو الامام وأصحابه هم الغرباء الذين قيل فيهم بدا الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء .

وقال فى الكتاب المذكور جاء الله بالمهدى وطاعته صافية نقية لم ير مثلها قبل ولا بعد ، وأن به قامت السموات والأرض ، وبه تقوم ، ولا ضد له ، ولا مثل ، ولا ند اه ، وكذب ، فالمهدى عيسى عليه السلام .

وكان يأمرهم بلزوم الحزب بعد صلاة الصبح وبعد المغرب ، فأمر المؤذنين إذا طلع الفجر أن ينادوا أصبح ولله الحمد – شعارا .

وله اختراعات وابتداعات غير ما ذكرنا ، وجميع ذلك يدل على أنه قائل برأيه فى العبادات والعادات مع زعمه أنه غير قائل بالرأى وهو التناقض بعينه ، فقد ظهر إذن جريان تلك الأشياء على الابتداع اه .

من حوادث المائة السادسة

وفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة وقعت زلزلة عظيمة وماجت بغداد نحو عشر مرات وتقطع منها جبل بحلوان .

وفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة جاءت زلزلة شديدة بمصر والشام والجزيرة ، فأخربت أملاكا كثيرة وقلاعا متعددة .

ومن

ومن حوادثها ثورة محمد بن هود السلاوى المعروف بالماسى

كان محمد بن هود بن عبد الله السلاوى رجلا من سوقة أهل سلا ، وكان أبوه سمسارا بها ، وكان هو قصارا بها مدّة ، ثم لحق بعبد المومن عنـد ماظهر وبايعه ، وشهد معه فتح مراكش ، ثم فارقه ، وظهر برباط ماسة من ناحية السوس ، ودعا لنفسه ، وتسمى بالهادى ، وتمكن ناموسه من قلوب العامة ، وكثير من الخاصة ، فأقبل إليه الشراد من كل جانب ، وانصرفت إليه وجوه الأغمار من أهل الآفاق ، وأخذ بدعوته أهل سجلماسـة ودرعة وقبائل دكالة ورجراجة وقبائل تامسنا وهوارة ، وفشت ضلالته فى جميع المغرب . قال فى القرطاس بايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن الموحدى إلا مراكش ، فسرّح إليه عبد المؤمن عسكرا من الموحدين ، فانتصر الماسى عليهم ، وعادوا مهزومين إلى عبد المؤمن ، فسرّح إليـه عبد المؤمن ثانيا جيشا عظيما ، وكان ذلك فى فاتح ذى القعدة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، فلما انتهى جيش الموحدين إلى رابطة ماسة برز إليهم محمد بن هود فى ستين ألفا من الرجالة وسبعمائة من الفرسان ، فكانت بينهم حرب شديدة ، ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموهم وقتل محمد بن هود فى المعركة مع كثير من أتباعه ، وفضت جموعه ، وكان ذلك فى ذى الحجة من السنة المذكورة ، ثم صار عبد المؤمن يعالج ماانتقض عليه من مدن المغرب إلى أن تمّ أمره وصفا مشربه .

ومن حوادثها ماذكره فى حياة الحيوان

ونصه غريبة فى تاريخ شيخنا اليافعى رحمه الله تعالى فى حوادث سنة تسع وخمسمائة . ذكر أن بعض الملوك قال له منجموه انه يموت فى الساعة الفلانية فى اليوم الفلانى فى الشهر الفلانى من سنة كذا من عقرب تلدغه ، فلما كانت الساعة المذكورة تجرد من جميع ثيابه سوى مايسـتر عورته ، وركب فرسا بعدأن غسله ونظفه وسرّح شعره ، ودخل به البحر حذرا مماذكر له منجموه ، فبينما هو كذلك عطست الفرس ، فخرج من أنفها عقرب فلدغته فمات فما أغناه الحذر عن القدر ثم حكى الدميرى بعد هذا حكاية غريبة لابأس بذكرها زيادة فى الامتاع ، وتحلية للأسماع . قال وعن معروف الـكرخى . قال بلغنا أن ذا النون المصرى خرج ذات يوم يريد غسل ثيابه ، فاذا هو بعقرب قد أقبل عليه كأعظم مايكون من الأشياء . قال ففزع منها فزعا شديدا ، واستعاذ بالله منها فكفى شرّها ، فأقبلت حتى وافت النيل ، فاذا هى بضفدع قد خرج من الماء فاحتملها على ظهره وعبر بها إلى الجانب الآخر ، فقال ذو النون فاتزرت بمئزرى ونزلت فى الماء ، ولم أزل أرقبها إلى أن أتت إلى الجانب الآخر ، فصـعدت ، ثم سعت وأنا أتبعها إلى أن أتت شجرة كثيرة الأغصان كثيرة الظل ، وإذا بغلام أمرد أبيض نائم تحتها وهو مخمور ، فقلت لاقوّة إلا بالله أتت العقرب من ذلك الجانب لتلدغ هذا الفتى ، فاذا أنا بتنين قد أقبل يريد قتل الفتى ، فظفرت العقرب به ولزمت دماغه حتى قتلته ورجعت إلى الماء وعبرت على ظهر الضفدع إلى الجانب الآخر ، فأنشد ذو النون يقول :

يا راقـدا والجليـل يحفظه ٭ من كل سوء يكون فى الظلم

كيف تنام العيون عن ملك ☆ تأتيك منـــه فوائد النعم

قال فانتبه الفتى على كلام ذى النون فأخبره الخبر فتاب ونزع لباس اللهو ولبس أثواب السياحة، ومات على تلك الحالة، رحمه الله تعالى .

من حوادثها الزلزلة العظيمة

فى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حماة هدمت ثلاث عشرة مدينـة وهى : حلب ، وحماة ، والمعرة ، وشـيزر ، وحمص ، والاكراد ، وطرابلس ، وأنطاكية وغيرها، وهلك خلق كثير حتى إنه هلك جميع مافى مدينة شيزر، ولم يبق إلا امرأة وخادم واحد.

وانشق تل حوران ، وظهرت فيـه بيوت وعمائر ونواويس ، وانشق فى اللاذقيـة موضع ، وظهر فيـه صنم قائم فى الماء ، وخربت صيدا ، و بيروت وعكا ، وجميع قلاع الفرنج ، وانفرق البحر إلى قبرس ، وقذف المراكب إلى ساحله ، وتعدى إلى ناحية الشرق ، ومات خلق كثير .

قال صاحب المرءاة : مات فى هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف إنسان ، نسأل الله العافية فى العاقبة .

وفى هذه السنة وقع وباء عظيم بين الحجاز واليمن ، وكانوا يسكنون فى عشرين قرية فبادت ثمان عشرة لم يبق فيها نافخ نار ، و بقيت أنعامهم وأموالهم فوضى ، ولا يستطيع أحد أن يسكن تلك القرى ولا يدخلها ، ومن دخل إليها هلك من ساعته ، فسبحان من بيده ملكوت كل شىء .

ومن حوادثها أيضاً

فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة طلعت سحابة على بلد الموصل ، فأمطرت نارا أحرقت مانزلت عليه ، وفى هذه السنة ظهر بالعراق عقارب طيارة قتلت خلقا كثيرا .

وفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة أمطرت السماء باليمن مطرا كله دم ، فبقى أثره فى الأرض وفى ثياب الناس .

ومن حوادثها استيلاء الفرنج عَلَى القسطنطينية

فى سنة ستمائة ملك الفرنج مدينـة القسطنطينية فى شعبان وانتزعوها من الروم وأزالوا ملك الروم عنها ، ولم تزل بأيدى الفرنج من هـذا التاريخ إلى سنة ستين وستمائة ؛ فتجمع الروم وقصدوها وقاتلوا الفرنج وانتزعوها منهم وعادت لملكهم .

من حوادث المائة السابعة

قال أبو العباس فى كتابه النطق المفهوم مانصه، واتفق فى زماننا فى سنة اثنتين وستمائة أن رجلا من أهل سفط ،قرية من أعمال البهنسا. قال كنت يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر شعبان يعنى من السنة المذكورة قبل أذان الظهر وأنا دارس ، فسمعت البقرة التى كنت أدرس بها تقول : لا إله إلا الله ،

فقلت

فقلت محمد رسول الله ، وأدركتني حالة فى الوقت .

ومن حوادثها

ما ذكره ابن الأثير فى الكامل فى حوادث سنة ثلاث وعشرين وستمائة أن صديقا له اصطاد أرنبا له أنثيان وذكر وفرج أنثى ، فلما شقوا بطنه رأوا فيه مايدلّ على ذلك . قال وأعجب من ذلك أنه كان لنا جار له بنت اسمها صفية بقيت كذلك نحو خمس عشرة سنة ، ثم طلع لها ذكر ونبت لها لحية ، وصار لها فرج رجل وفرج امرأة .

ومن حوادثها ثورة ابن أبي الطواجين

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة ثار بجبال غمارة محمد بن أبي الطواجين ، وكان أبوه ينتحل صناعة الكيمياء ، فتلقن ذلك عنه ابنه محمد هذا ، ثم ارتحل إلى سبتة ، وادّعى صناعة الكيمياء ، فتبعه الغوغاء ، ثم ادّعى النبوّة ، وشرّع الشرائع ، وأظهر أنواعا من الشعبذة وتبعه على ضلالته طغام غمارة والبربر ، فكان عدوّ الله يغص بمكان العارف الشهير القطب مولانا عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه ، فسوّل له الشيطان أنه لايتمّ أمر مخرقته إلا بقتل الشيخ رضى الله عنه ، فدسّ له جماعة من أتباعه وأشياعه ، فرصدوا الشيخ حتى نزل من خلوته فى سحر من الأسحار إلى عين هناك قرب الجبل المذكور ، فتوضأ منها وولى راجعا إلى محل عبادته وارتقاب فجره ، فعدوا عليه وقتلوه ، وذلك فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، ومن الشائع أنهم لما قتلوه ألقى عليهم ضباب كثيف أضلهم عن الطريق ودفعوا إلى شواهق تردّوا منها فى مهاوى سحيقة تمزّقت فيها ذواتهم ولم يرجع منهم مخبر ، وأما ابن الطواجن هذا فقد قتل غيلة .

وفى سنة سبع عشرة وستمائة كان الجراد والقحط والغلاء الشديد بالمغرب .

وفى هذه السنة ألف الفقيه أبو يعقوب يوسف بن يحيي التادلى المراكشى عرف بابن الزيات كتابه المسمى : بالتشوّف ، إلى رجال التصوّف .

وذكر أنه لم يتعرض لذكر أحد من أولياء زمانه الاحياء غير أنه ذكر أن من جملة أولياء زمانه الذين كانوا فى قيد الحياة الشيخ الصالح الصوفى أبا محمد صالح بن ينضارن الدكالى نزيل رباط آسفى . قال وهو الآن لايفترّ من الاجتهاد والمحافظة على الأوراد .

وفى سنة اثنتين وعشرين وستمائة حنق العدوّ على المسلمين بالأندلس وتوالت له عليهم الهزائم بمواضع متعددة ، واستولى على كثير من الحصون ، واستلحم منهم عدّة ألوف حتى خلت المساجد والأسواق .

وفى سنة أربع وعشرين وستمائة اشتدّ الغلاء بالمغرب والأندلس حتى بيع القفيز من القمح بخمسة عشر دينارا ، وعمّ الجراد بلاد المغرب .

وفى سنة ست وعشرين وستمائة كان السيل العظيم بفاس هدم من سورها القبلى نحو مسافتين ، وهدم من جامع الأندلس ثلاث بلاطات ، وهدم دورا كثيرة ، وفنادق متعددة من عدوة الأندلس .

وفى سنة ثلاثين وستمائة كان الغلاء ببلاد المغرب ، وكثر بها الجوع والوباء حتى بلغ القفيز من القمح ثمانين دينارا ، وخلت الأمصار من أهلها .

وفى سنة خمس وثلاثين وستمائة عاود الغلاء والوباء أرض المغرب ، فأكل الناس بعضهم بعضا ، وكان يدفن فى الحفير الواحد المائة من الناس .

وفى سنة ست وأربعين وستمائة وقع الحريق بأسواق فاس ، فاحترقت حارة باب السلسلة بأسرها إلى حمام الرحبة .

ومن حوادث المائة السابعة قدوم المأمون الموحدى بالفرنج لمراكش

ولما انتهى إلى أبى العلاء المأمون الموحدى صاحب الأندلس خبر أخيه العادل بمراكش وما هو فيه من الاضطراب دعا لنفسه باشبيلية فبويع بها وتلقب بالمأمون ، ثم كتب إلى الموحدين الذين هم بمراكش يدعوهم إلى البيعة ووعدهم فى ذلك ومناهم ، فكان منهم بعض توقف ، ثم أجمع رأيهم على مبايعته ، وخلع أخيه العادل ، وكان ذلك فى شوّال سنة أربع وعشرين وستمائة ، وكتبوا بيعتهم إلى أبى العلاء المأمون ، و بعثوا بها إليه مع البريد ، ثم لما انفصل البريد ببيعته من الحضرة ندم الموحدون على ذلك لما يعلمون من شهامته وتخلقه بأخلاق الحجاج بن يوسف وتخوّفوا أن يأخذهم بدم عمه عبد الواحد المخلوع ، ثم أخيه عبد الله العادل ، فاتفق رأيهم على مبايعة يحيى ابن الناصر بن المنصور ، وسنه يومئذ كانت ست عشرة سنة ، فوصلت بيعتهم إلى المأمون فسرّ بها ، ثم اتصل به الخبر أنهم نكثوا بيعته و بايعوا ابن أخيه يحيى ، فوجم لذلك وأطرق مليا ، ثم أنشد متمثلا بقول حسان رضى الله عنه :

لتسمعنّ وشيكا فى ديارهم ✫ الله أكبر يا ثارات عثمانا

ثم كتب من حينه إلى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين و يسأله أن يبعث له جيشا من الفرنج يجوز بهم إلى العدوة لقتال يحيى ومن معه من الموحدين ، فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلى بلاده يختارها هو ، وأن يبنى بمراكش إذا دخلها لجيش النصارى الذين معه كنيسة يظهرون بها دينهم و يضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم ، وأن من أسلم منهم لايقبل منه اسلامه و يردّ إلى إخوانه فيحكمون فيه بأحكامهم إلى غير ذلك من الشروط ، فأسعفه المأمون فى جميع ماطلب منه ، وكان يحيى بن الناصر صاحب مراكش لما رأى اختلال أحواله بها ومبايعة أكثر أهل المغرب لعمه المأمون خرج فارّا بنفسه إلى تينملل ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وستمائة ، ولما فرّ يحيى عن الحضرة قدم أشياخ الموحدين الذين بها واليا يضبطها للمأمون ريثما يقدم عليهم وجددوا له البيعة ، وكتبوا إليه يخبرونه بفرار يحيى إلى الجبل ويرغبون إليه فى القدوم عليهم ، واستمرّ يحيى معتصما بالجبل أربعة أشهر ، ثم بدا له ، فعاد إلى مراكش وقتل عامل المأمون الذى قدمه الموحدون بها ، واستمرّ بها نحو سبعة أيام ، ثم خرج إلى جبل جليز وعسكر به ، وأقام منتظرا لقدوم المأمون ودفاعه عن مراكش ، ثم بعث صاحب قشتالة إلى المأمون جيشا من اثنى عشر ألفا برسم الخدمة معه والمقاتلة دونه على الشروط المتقدمة ، وكان

وصولهم

وصولهم إليـه فى رمضان سنة ست وعشرين وستمائة ، ثم عبر بهم الجزيرة الخضراء إلى سبتة فى ذى القعدة من السنة المذكورة ، وهو أوّل من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب واستخدمهم بها فأراح بسبتة أياما، ثم نهض إلى مراكش حتى إذا دنا منها لقيه يحيى بجيوش الموحدين ، وذلك عشىّ يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الأول من السنة الداخلة ، فانهزم يحيى وفرّ إلى الجبل ، وقتل خلق كثير من جيشه ، ودخل المأمون حضرة مراكش وبايعه الموحدون ، وصعد المنبر بجامع المنصور ، فخطب الناس ولعن المهدى على المنبر حسبما قدمنا ، ولما فرغ من الخطبـة دخل قصره فاحتجب عن الناس ثلاثة أيام ، ثم خرج فى اليوم الرابع ، فأمر بأشياخ الموحدين وأعيانهم فحضروا بين يديه ، فقال لهم يامعشر الموحدين إنكم قد أظهرتم علينا العناد ، وأكثرتم فى الأرض الفساد ، ونقضتم العهود ، وبذلتم فى حربنا المجهود ، وقتلتم الاخوان والأعمام ، ولم ترقبوا فيهم إلاّ ولا ذمام ، ثم أخرج كتاب بيعتهم الذى بعثوا به إليـه ، واحتجّ عليهم بنكثهم الذى نـكثوا بعده ، فقامت الحجة عليهم ، فبهتوا وسقط فى أيديهم ، والتفت إلى قاضيه ، وقال له ماترى فى أمر هؤلاء الناكثين ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول « ومن نـكث فانما ينـكث على نفسه » الآية ، فقال المأمون صدق الله العظيم فانا نحكم فيكم بحكم الله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ثم أمر بجميع أشياخ الموحدين وأشرافهم ، فسحبوا إلى مصارعهم ، وقتلوا عن آخرهم ، ولم يبق على كبيرهم ولا صـغيرهم حتى إنه أتى بابن أخت له صـغير يقال إن سنه كان ثلاث عشرة سنة ، وكان قد حفظ القرآن ، فلما قدم للقتل . قال له يا أمير المؤمنين اعف عنى لثلاث قال ماهى ؟ قال صغر سنى ، وقرب رحمى ، وحفظى لـكتاب الله العزيز ، فنظر المأمون إلى القاضى وقال كيف ترى قوة جأش هـذا الغلام وإقدامه على الـكلام فى هذا المقام ؟ فقال القاضى يا أمير المؤمنين « إنك إن تذرهم يضـلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » فأمر بقتله ، ثم أمر المنحوس بالرءوس فعلقت بدائرة سور المدينة ، وكانت تنيف على أربعـة آلاف رأس ، وكان الزمان زمان قيظ ، فنتنت بها المدينـة ، وتأذى الناس بريحها ، فرفع إليه ذلك ، فقال إن هاهنا مجانين ، وإن تلك الرءوس حروز لهم لايصلح حالهم إلا بها ، وإنها لعطرة عند المحبين ، ونتنة عند المبغضين ، ثم أنشد :

أهل الحرابة والفساد من الورى ☆ يعزون فى التشبيه للذكار
ففساده فيـه الصلاح لغيره ☆ بالقطع والتعليق فى الأشجار
فرءوسهم ذكرى إذا ما أبصرت ☆ فوق الجذوع وفى ذرى الأسوار
وكذا القصاص حياة أرباب النهى ☆ والعـدل مألوف بكل جوار
لو عمّ حلم الله سائر خلقه ☆ ما كان أكثرهم من اهل النار

ثم إن المأمون أذن للنصارى القادمين عليـه فى بناء الـكنيسة فى الموضع المعروف بالسجينة ، وتوالت على المأمون الفجائع من كل جهة حتى مات أسفا بواد فى العبيـد وهو قافل من حصار سبتة ، وكانت وفاته فى آخر يوم من سنة تسع وعشرين وستمائة ، وكانت أيامه أيام شقاء وعناء ومنازعة وكان محو دولة للموحدين ، واستئصال أركانها وذهاب نخوتها على يده . ولى الخلافة والبلاد تضطرم

نارا ، والممالك قد توزعتها الثوّار ، فكان المأمون إذا فكر فى حال الثوّار ، ومآآل إليـه حال الدولة معهم وما دهاه من كثرتهم ينشد متمثلا :

تكاثرت الظباء على خراش ✡ فما يدرى خراش ما يصيد

يشير إلى حاله معهم ، وأنه لم يدر مايتلافى من ذلك ، والمراد بملك قشتالة هو طاغية الاصبنيول .

وفى سنة ست وأربعين وستمائة استولى الاسبنيول على اشبيلية إحدى قواعد الأندلس بعد منازلتها حولا كاملا وخمسة أشهر .

قال أبو العباس المقرى فى كتابه فتح المتعال نقلا عن التوزرى . قال ولد عنـدنا بتوزر ليلة غرة رجب من عام أربعة وسبعين وستمائة جدى أسود بغرة بيضاء ، وفيها مكتوب بالأسود : محمد بخط بين يقرؤه كل أحد اه .

ومنها ماحكاه ابن خلـكان

أن بعض الأمراء اصطاد حمار وحش فى سنة ستين وستمائة ، فرأى مرسوما على أذنه بهرام جور . قال وهـذا يقتضى أن هذا الحمار قريبا من ثمانمائة سنة لأن بهرام جور كان قبل البعثة بمدّة متطاولة وحمر الوحش على هـذا تعيش زمانا طويلا ، ولما أمر بطبخه لم ينضج ، ولم يؤثر فيه الوقود اه .

ومن حوادثها

ظهور رجل فى غمارة يعرف بالعباس ادّعى أنه هو المهدى المنتظر وتبعهخلق كثير من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة ، وحرق أسواقها ، وارتحل لغيرها ، فقتل غيلة ، ولم يتمّ أمره ، وكان ذلك فى عشرة التسعين والستمائة .

ومن حوادث المائة السابعة خروج التتر علَى العباد

ويبنغى لنا أن نذكر ابتداء أمر التتر وكيف كان خروجهم على أهل الاسلام

ذكر كثير من المؤرخين أن حادثة التتر حادثة عظمى ومصيبة كبرى عمت الخلائق ، وخصت المسلمين بشدّة بلائها ، فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى وقت خروج التتر لم يبتل بمثلها لصدق ، فان التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولا مايدانيها .

قال الشيخ دحلان فى الفتوحات الاسلامية : ولقد جرى لهؤلاء التتر مالم يسمع بمثله فى قديم الزمان وحديثـه ، طائفة تخرج من حدود الصين لاتنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية ويجاوزوا العراق .

قال ابن الأثير فى الـكامل ، وكان هو موجودا فى ذلك العصر مطلعا على تلك الأحوال . قال والله لاأشك أن من يجىء بعدنا إذا بعد العهد ، ويرى هذه الحادثةمسطورة ينـكرها ويستبعدها فمن استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى زماننا هـذا فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة ، وقد استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها اه .

قال

قال الشيخ دحلان ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببنى إسرائيل من القتل ، وتخريب بيت المقدس ، وما بيت المقدس بالنسبة إلى ماخرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس ، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا ، فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل ، ولعلّ الخلق لايرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام والنساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم لهذه الحادثة التى استطار شرّها ، وعمّ ضررها ، وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح ، فان قوما خرجوا من أطراف الصين وعبروا نهر سيحون ، فقصدوا بلاد تركستان ، وبلادسغون ، ثم منها إلى ماوراء النهر مثل سمرقند و بخارى وغيرهما فيملكونها و يفعلون بأهلها مالايخطر بعقل ، ثم عبروا إلى خراسان ، ففرغوا منها ملكا وقتلا وتخريبا ونهبا ثم تجاوزوها إلى الرّى ، وهمدان ، و بلد الجبل ، وما فيه من البلاد إلى حدّ العراق ، ثم قصدوا بلاد أذر بيجان وأرمينية وغيرهما ، وخربوا ، وقتلوا أكثر أهلها ، ولم ينج إلا الشريد النادر فى أقلّ من سنة هذا مالم يسمع مثله ، ثم لما فرغوا من أذر بيجان وأرمينية ساروا إلى شروان فملكوا مدنه ، وعبروا إلى اللازك ، ومن كان هنالك من الأمم المختلفة ، فأوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا ، ثم قصدوا بلاد قفجاق ، وهم من أكثر الترك عددا ، فقتلوا كل من وقف لهم ، فهرب الباقون إلى الغياض ورءوس الجبال ، وفارقوا بلادهم ، واستولى هؤلاء التتر عليها . فعلوا هذا فى أسرع زمان ، ثم قصدوا اغزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ، ففعلوا فيها مثل ما فعلوا فى غيرها وأشدّ ، هذا الذى لم يطرق الأسماع مثله ، فان الاسكندر الذى اتفق المؤرّخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة إنما ملكها فى نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحدا إنما رضى من الناس بالطاعة ، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا ، وأعدل أهل الأرض أخلاقا وسيرة فى نحو سنة ، ولم يبت أحد من أهل البلاد التى يطرقونها إلا وهو خائف يتوقعهم ، و يترقب وصولهم إليه ، ثم انهم لايحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم بل كانت معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لاغير ، وأما دوابهم التى يركبونها فانها تحفر الأرض بحوافرها ، وتأكل عروق النبات لاتعرف الشعير ، فهم إذا نزلوا منزلا لايحتاجون إلى شىء من خارج ، وأما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولايحرمون شيئا فانهم يأكلون جميع الدوابّ حتى الكلاب والخنازير والحشرات وبنى آدم ، لايعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال ، فاذا جاء الولد لايعرف أباه ، ولقد بلى الاسلام والمسلمون فى مدتهم بمصائب لم يبل بها أحد من الأمم ، فهؤلاء التتر قبحهم الله أقبلوا من المشرق ، ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بها ، وكانوا كلما ملكوا مدينة قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام ، وخربوا الجوامع ، وأحرقوا المصاحف ، وفعلوا أشياء لم يسمع بمثلها ، وفى مدتهم أيضا كان خروج الفرنج من المغرب إلى الشام ، ثم قصدوا ديار مصر ، وانتشرت الفتن فى ممالك الاسلام .

وهؤلاء التتر نوع من الترك ومساكنهم كانت جبالا من بلاد الصين وبينها وبين بلاد الاسلام مايزيد على ستة أشهر ومملكة الصين متسعة دورها ستة أشهر ، وهى منقسمة ستة أجزاء كل جزء مسيرة شهر ، وعلى كل جزء ملك ، ويقال له عندهم خان ، وواحد منهم رئيس على الجميع * ولما انتهت الرياسة إلى واحد منهم يقال له جنكز خرج على بلاد الاسلام ، وذلك سنة ست عشرة وستمائة فى خلافة الناصر لدين الله العباسى ، وسبب خروجهم أن ملكا من ملوك الاسلام كان مالكا لخراسان وما وراء النهر يقال له محمد خوارزم شاه كان بينه وبينهم فتنة فاقتتلوا معه واتسع أمرهم حتى كان منهم ما كان .

قال الجلال السيوطى فى تاريخ الخلفاء فى وصف خوارزم شاه المذكور أنه أباد الملوك ، وأخذ الممالك ، وقسم ممالكه بين أولاده ، وكانوا أربعة ، وضرب لكل منهم نوبة مثل نوبته ، وكان تحته سبعة وعشرون ملكا تضرب نوبة لكل واحد منهم فى أوقات الصلوات ، وانفرد هو بنوبة ذى القرنين تضرب وقت طلوع الشمس وغروبها ، وكانت سبعا وعشرين طبلا ، وهذه السبع والعشرون من الذهب مرصعة بأنواع الجواهر ، فلما انتهى أمر ملكه إلى هذا احتقر أمر التتر سكان الصين ، وصار يغازيهم ، ويغير على بلادهم ، وهم أيضا يغازونه ويغيرون على بلاده ، ثم انعقد صلح بينهم وبينه ومهادنة ، وصار تجارهم يأتون إلى بلاده ، ثم ان بعض عماله مما يليهم شرهت نفسه إلى أموال التجار الواردين عليه منهم ، فكتب إلى خوارزم يقول : إن هؤلاء القوم قد جاءوا بزىّ التجارة ، وما قصدهم إلا التجسس ، وإن أذنت لى فيهم قبضت عليهم ، فأذن له فى القبض عليهم وأخذ أموالهم ، ثم وقعت مكاتبات بين ملك التتر وخوارزم فى إطلاقهم ، وكتب ملك التتر لخوارزم يتهدده إن لم يطلقهم ، فغضب وأمر بقتلهم ، فقتلهم ذلك العامل ، وسير إليه ما كان معهم من الأموال ، وكان شيئا كثيرا ، ففرّقه خوارزم على تجار سمرقند وبخارى ، وأخذ منهم قيمة ذلك ، فلما بلغ الخبر جنكز أرسل جماعة إلى خوارزم يقول : أنت قتلت جماعتى فاستعدّ للحرب فأنا واصل إليكم بجمع لاقبل لكم به ، فقتل خوارزم كبير هؤلاء الجماعة ، وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم إلى جنكز ، وقال لهم قولوا له : أنا سائر إليه ولو كان فى آخر الدنيا حتى أنتقم منه وأفعل به كما فعلت بكم ، وتجهز خوارزم وسار مبادرا ليكبسهم ، وأدمن السير ، فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر ، فوصل إلى بيوتهم فلم ير منها إلا النساء والصبيان والأطفال ، فأوقع بهم ، وغنم الجميع ، وسبى النساء والذرية ، وكان سبب غيبة الكفار أنهم ساروا لمقاتلة ملك من ملوك الترك فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا ، فلقيهم فى الطريق الخبر بما فعل خوارزم بمخلفيهم ، فجدّوا السير وأدركوه قبل أن يخرج من أرضهم ، وتصافوا للحرب ، واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله ثلاثة أيام بلياليها ، وجرى الدم فى الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته ، وأحصى من قتل من المسلمين فكانوا عشرين ألفا ، وأما الكفار فلا يحصى من قتل منهم ، ثم رجع الكفار إلى بلادهم ، ورجع المسلمون إلى بخارى ، واستعدوا لمجىء جنكز إليهم ، ثم جاءهم بعد خمسة أشهر بجيوشه ، وحاصر مدينة بخارى ، وفيها خوارزم ، واقتتلوا ثلاثة أيام متتابعة ، ولم يكن لعسكر خوارزم قوة لمقاومة جنكز ، ففارق خوارزم بعساكره بخارى ، وسار إلى خراسان ، فدخل جنكز المدينة رابع ذى الحجة سنة ست عشرة وستمائة وقتل ونهب ومزّق أهل المدينة كل

ممزّق ، واقتسموا النساء ، وأصبحت بخارى هاوية على عروشها ، ولما تمّ مراده فى بخارى ارتحل هو وجنوده نحو سمرقند ، وأحاطت جنوده بها من كل جهة ، وكان فيها خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية ، وأما عامة البلد فلا يحصون كثرة ، فخرج إليه شجعانها وأهل القوّة ، واقتتلوا قتالا شديدا إلى أن قتل منهم سبعون ألفا ، فلما رأوا ذلك طلبوا الأمان فأجيبوا إلى ذلك ، ثم فتحوا أبواب البلد ، وفى اليوم الرابع ناودا فى البلد أن يخرج أهله جميعهم ، ومن تأخر قتلوه ، فخرج الجميع من الرجال والنساء والصبيان ، فأمر بقتل الجميع ، ودخل البلد وأمر بنهب ما فيه وإحراق الجوامع ، وترك باقى البلد على حاله ، وأمر بافتضاض الأبكار ، وعذب الناس بأنواع العذاب فى طلب المال ، وقتل من لم يصلح للسبى ، وكان ذلك فى المحرم سنة سبع عشرة وستمائة ، ولما ملك سمرقند سير عشرين ألف فارس ، وقال لهم اطلبوا خوارزم أين ما كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه ، فساروا وقصدوا نهر جيحون الذى تحصن به خوارزم ، فوصلوا إليه ولم يجدوا هناك سفينة ، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم ، وألقوا الخيل فى الماء وأمسكوا أذنابها ، وتلك الحياض التى من الخشب مشدودة إليهم ، فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعة واحدة ، فلم يشعر خوارزم إلا وقد صاروا معه على أرض واحدة ، وكان المسلمون قد ملئوا رعبا وخوفا منهم ، فرحل خوارزم لا يلوى على شىء فى نفر من خاصته وقصد نيسابور ، فلما دخلها اجتمع إليه بعض العسكر فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها ، وكانوا لم يتعرضوا فى مسيرهم لشىء لا لنهب ولا قتل بل يجدّون السير فى طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم جموعا ، فلما سمع بقربهم منه رحل إلى مازندران وهى له أيضا ، فرحل التتر فى أثره ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه ، فكان كلما رحل من منزلة نزلوها ، فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان ، وله هناك قلعة فى البحر ، فلما نزل هو وأصحابه فى السفن وصلت التتر ، فلما رأوا خوارزم قد دخل البحر أيسوا من لحاقه ورجعوا ، ثم لما وصل إلى هذه القلعة قدّر الله تعالى انقضاء أجله ، فتوفى بها وكان رحمه الله فاضلا عالما بالفقه والأصول وغيرهما مكرّما للعلماء ، محبا لهم ، محسنا إليهم ، يكثر مجالستهم ، ويحبّ مناظرتهم بين يديه ، وكان صبورا على التعب ، وإدمان السير ، غير متنعم ولا مقبل على اللذّات ، إنما همه فى الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه ، وكان معظما لأهل الدين ، مقبلا عليهم ، متبركا بهم ، وقد اتسعت ممالكه من جهة العراق إلى تركستان وبلاد غزنة وبعض الهند ، ولما أيس التتر من إدراك خوارزم عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوها فى أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها ، فإنها لم تزل ممتنعة فى قديم الزمان وحديثه حتى إن المسلمين لما ملكوا بلاد الأكاسرة جميعها من العراق إلى أقاصى خراسان بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج ولا يقدرون على دخول البلاد إلى أن ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين ، وهؤلاء الملاعين ملكوها صفوا عفوا لأمر يريده الله تعالى ، ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ، ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو مدينة الرّى ووجدوا فى الطريق والدة خوارزم ونساءه وأموالهم وذخائرهم التى لم يسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة ، وكان سبب ذلك أن والدة خوارزم لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ففارقت خوارزم وقصدت

مدينة الرّى لتصل إلى أصفهان وهمدان وبلاد الجبل تمتنع فيها ، فصادفوها فى الطريق ، فأخذوها وما معها قبل وصولها الرّى ، فكان فيما معها ما ملأ عيونهم وقلوبهم ، ومما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع ، والنفيس من الجوهر وغير ذلك ، وسيروا الجميع إلى جنكز بسمرقند .

وفى سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر لعنهم الله إلى الرّى ، وقد انضاف إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار الذين يريدون النهب والشر ، فوصلوا إلى الرّى على حين غفلة من أهلها فلم يشعروا إلا وقد وصلوا إليها فملكوها ونهبوها ، وسبوا الحريم ، واسترقوا الأطفال ، وفعلوا الأفعال التى لم يسمع بمثلها ، ولم يقيموا بل مضوا مسرعين ، وما مرّوا على مدينة أو قرية إلا وأحرقوا وخربوا ، ووضعوا السيف فى الرجال والنساء والأطفال ، ثم ساروا إلى قزوين ، فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم ، فقاتلوهم وجدّوا فى قتالهم ودخلوها عنوة بالسيف ، فاقتتلوا هم وأهل البلد فى داخل البلد حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين ، فقتل من الفريقين ما لا يحصى ، ثم فارقوا قزوين فعدّ القتلى من أهل قزوين فزادوا على أربعين ألف قتيل رحمهم الله تعالى ، ثم ساروا إلى أذربيجان ففعلوا فى طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدم منهم وخربوا وأحرقوا ، ثم قصدوا مدينة مراغة ، وذلك فى صفر سنة ثمان عشرة وستمائة ، وفعلوا فيها ما هو معروف من حالهم من النهب والحرق وغير ذلك ، ثم قصدوا مدينة همدان فاقتتلوا مع أهلها أشدّ القتال إلى أن دخلوها بالسيف سنة ثمان عشرة وستمائة وقاتلهم الناس فى الدروب ، وبطل السلاح للزحمة ، واقتتلوا بالسكاكين ، فقتل من الفريقين ما لا يحصى ، وقوى التتر على المسلمين فأفنوهم قتلا ، ولم يسلم إلا من كان عمل مختفى يختفى فيه ، وبقى القتل فى المسلمين عدّة أيام ، ثم ألقوا النار فى البلد فأحرقوه ، ورحلوا عنها إلى أذربيجان ، فوصلوا إلى مدينة أردويل فملكوها وأكثروا القتل فى أهلها وخربوا أكثرها وساروا منها إلى تبريز فصالحهم أهلها بمال معلوم فأخذوه ورحلوا إلى مدينة سراو فنهبوها وقتلوا كل من فيها ورحلوا منها إلى بلقان ، فنهبوا كل ما مرّوا به من البلاد والقرى وخربوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها ، فلما وصلوا إلى بلقان حصروها ، فاستدعى أهلها منهم رسولا يقرّرون معه الصلح ، فأرسلوا إليهم رسولا من أكابرهم ومقدّميهم فقتله أهل البلد ، فزحف التتر إليهم وقاتلوهم ، ثم إنهم ملكوا البلد عنوة فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة ووضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتى إنهم يشقون بطون الحبالى ، ويقتلون الأجنة ، وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها ، وكان الانسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة فيقتلهم واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمدّ أحد منهم اليه يدا ، فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب ، وساروا إلى مدينة كنجة فصالحهم أهلها فرحلوا عنها ، وساروا إلى بلاد الكرج ، وفعلوا ما هو معروف من حالهم ، ومنها إلى مدينة شماخى وقاتلوا أهلها فصبروا على الحصر ، ثم إن التتر صعدوا سورها بأن جمعوا كثيرا من قتلى الناس منهم ومن غيرهم ، وألقوا بعضه فوق بعض إلى أن صار مثل التل وصعدوا عليه ، فأشرفوا على المدينة وقتلوا أهلها إلى أن ملك التتر البلد وفعلوا ما هو معروف من حالهم ، ثم ساروا إلى مدينة قفجاف وبها من الترك أمم كثيرة مسلمون وكفار فنهبوا وقتلوا وسبوا ، ثم ساروا إلى مدينة سوادق فملكوها وقتلوا أهلها

وتفرق

وتفرّق أهلها الذين سلموا من القتل ، فمنهم من صعد الجبال بأهله وماله ، ومنهم من ركب البحر وسار إلى بلاد الروم .

ثم ساروا إلى مدينة الروس وأوقعوا بأهلها ماهو معروف من حالهم ، والروس بلاد كثيرة عظيمة وأهلها يدينون بالنصرانية .

ثم قصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستمائة ، فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم فى عدّة مواضع وخرجوا عليهم من وراء ظهورهم وأخذهم السيف من كل ناحية ، فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل ، فساروا إلى سقسين عائدين إلى ملكهم جنكز .

ذكر مافعله التتر بما وراء النهر بعد بخارى وسمرقند

قد ذكرنا مافعله التتر التى سيرها ملكهم جنكز إلى الملك خوارزم ، وأما جنكز فانه بعد أن سير هذه الطائفة إلى خوارزم ، وبعد انهزام خوارزم من خراسان قسم أصحابه عدة أقسام ، منها إلى بلاد فرغانة ليملكوها ، وسير قسما آخر إلى ترمذ ، وسير قسما آخر منها إلى كلانة ، وهى قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وأمنع الحصون ، فسارت كل طائفة إلى الجهة التى أمرت بقصدها ونازلتها واستولت عليها ، وفعلت من القتل والأسر والسبى والنهب والتخريب وأنواع العذاب مثل مافعل أصحابهم ، فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكز وهو بسمرقند فجهز جيشا آخر ، فعبروا جيحون إلى خراسان ، وقصدوا مدينة بلخ ، فطلب أهلها الأمان فأمّنوهم فسلم البلد ، وكان ذلك سنة سبع عشرة وستمائة ، ولم يتعرّضوا إليه بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة ، وساروا وقصدوا مدينة الزوزان ومدينة سمند ، ومدينة اندخوى ، ومدينة قاريات ، فملكوا الجميع ، وجعلوا فيه ولاة منهم ، ولم يتعرّضوا إلى أهلها بسوء سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا إلى الطالقان وهى ولاية تشتمل على عدّة بلاد ، وفيها قلعة حصينة لاترام علوّا وارتفاعا ، وبها رجال يقاتلون شجعان ، فحصروها ستة أشهر يقاتلون أهلها ليلا ونهارا ولا يظفرون منها بشىء ، فأرسلوا إلى جنكز يعرفونه عجزهم عن تملك هذه القلعة لكثرة مافيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها ، فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه إليهم وحصرها ومعه خلق كثير من المسلمين أسرى ، فأمرهم بمباشرة القتال وإلا قتلهم ، فقاتلوا معه ، وأقام عليهم أربعة أشهر أخرى ، وقتل من جنده عدد كثير ، فلما رأى ذلك أمر أن يجمع له من الحطب والأخشاب ماأمكن جمعه ، ففعلوا ذلك وصاروا يعملون صفا من الخشب ، وفوقه صفا من التراب ، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلاّ عاليا يوازى القلعة ، فاجتمع من بها وفتحوا بابها وخرجوا منها ، وحملوا حملة رجل واحد ، فسلم الخيالة منهم ونجوا ، وسلكوا تلك الجبال والشعاب ونجوا ، وأما الرجالة فقتلوا ، ودخل التتر القلعة ، وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال والأمتعة ، ثم إن جنكز جمع أهل البلد الذين أعطاهم الأمان ببلخ وغيرها ، وسيرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو ، وقد اجتمع بها من الأعراب والأتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين مايزيد على مائة ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو عازمين على لقاء التتر ، فلما وصل إليهم التقوا واقتتلوا ، وصبر المسلمون ، وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة ، فلما رأى المسلمون ماحلّ بهم من التتر انهزموا ووقع

فيهم السيف ، ولم يسلم إلا القليل ، ونهبت أموالهم وسلاحهم ودوابهم ، وأرسل التتر إلى ماحولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو ، فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا إلى مرو وحصروها وجدّوا فى حصارها ولازموا القتال ، وكان أهل البلد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر وكثرة القتل والأسر فيهم ، فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر إلى الأمير الذى بها متقدما على من فيها يقولون له لاتهلك نفسك وأهل البلد واخرج إلينا فنحن نجعلك أمير هذه البلد ونرحل عنك فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد فأمّنهم ، فخرج إليهم ، فخلع عليه ابن جنكز واحترمه ، وقال أريد أن تعرض علىّ أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا فنستخدمه ونعطيه أقطاعا ويكون معنا ، فلما حضروا عنده وتمكن منهم قبض عليهم وعلى أميرهم وكتفوهم ، ولما فرغ منهم . قال اكتبوا لى تجار البلد ورؤساءه وأرباب الأموال فى جريدة ، واكتبوا لى أرباب الصناعات ، والحرف فى نسخة أخرى ، واعرضوا ذلك علينا ، ففعلوا ما أمرهم ، فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهلهم فخرجوا كلهم ولم يبق فيه أحد ، ثم جلس على كرسىّ من ذهب ، وأمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم فأحضروا وضربت أعناقهم صبرا والناس ينظرون إليهم ويبكون ، وأمر بسبى النساء والأطفال ونهب الأموال وأخذوا أرباب الأموال فضربوهم وعذّبوهم بأنواع العقوبات فى طلب الأموال ، فربما مات أحدهم من شدّة الضرب ، ولم يكن بقى له ما يفتدى به نفسه ، ثم انهم أحرقوا البلد ، ونبشوا القبور طلبا للمال ، فبقوا كذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة ، وقال هؤلاء عصوا علينا ، فقتلوهم أجمعين ، وأمر باحصاء القتلى ، فكانوا سبعمائة ألف قتيل 700000 فيهم العلماء والصلحاء والزّهاد والعباد ، والأمر لله كيف شاء فعل .

ثم ساروا إلى نيسابور فحصروها خمسة أيام وبها جمع صالح من العسكر الاسلامى ، فلم يكن لهم بالتتر قوّة فملكوا المدينة وأخرجوا أهلها إلى الصحراء فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو ، وأقاموا خمسة عشر يوما يخربون ، ويفتشون المنازل عن الأموال ، وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم إن قتلاهم سلم منهم كثير لكونهم لم يتمموا قتلهم حتى تزهق أرواحهم ، وان كثيرا منهم نجوا إلى بلاد الاسلام ، فأمروا بأهل نيسابور أن تقطع رءوسهم لئلا يسلم من القتل أحد ، ففعلوا ذلك ، فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم إلى طوس ففعلوا بها كذلك أيضا وخربوها وخربوا المشهد الذى فيه علىّ الرضا بن موسى الكاظم ، والذى فيه هارون الرّشيد ، وجعلوا الجميع خرابا ، ثم ساروا إلى هراة ، وهى من أحصن البلاد فحصروها عشرة أيام ، ثم ملكوها ، وأمّنوا أهلها ، وقتلوا منهم البعض ، ثم ساروا إلى غزنة فلقيهم جلال الدين بن خوارزم لأنه كان متملكا ذلك القطر فقاتلهم وهزمهم ، فلما سمع بذلك أهل هراة وثبوا على تلك الجماعة التى خلفها التتر عندهم فقتلوها ، فلما عاد المنهزمون من التتر إلى هراة وجدوا عسكرا جاءهم مددا من جنكز لعنه الله ، فانضموا إليهم ودخلوا هراة قهرا بالسيف وقتلوا كل من فيها ، ونهبوا الأموال ، وسبوا النساء ، وخربوا المدينة جميعها وأحرقوها وعادوا إلى ملكهم جنكز وهو بالطالقان يرسل السرايا إلى بلاد خراسان ففعلوا بخراسان مثل مافعلوا بغيرها ولم يسلم من شرّهم وفسادهم شىء من البلاد ، وكان جميع مافعلوا بخراسان سنة سبع عشرة وستمائة ، وأما الطائفة من

الجيش التى سيرها جنكز إلى المدينة المسماة بخوارزم فانها كانت أكثر السرايا جيعها لعظم البلد ، فساروا حتى وصلوا إلى خوارزم ، وفيها عسكر كبير من المسلمين ، وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة ، فقاتلوهم أشدّ قتال سمع به الناس ، ودام الحصر عليهم خمسة أشهر ، فقتل من الفريقين خلق كثير ، وأرسل التتر إلى ملكهم جنكز يطلبون المدد ، فأمدّهم بخلق كثير ، فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفا متتابعا ، فملكوا طرفا منه ، فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم فى طرف الموضع الذى ملكوه ، فلم يقدروا على إخراجهم ، ولم يزالوا يقاتلونهم ، والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة ، وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون فى المحلة التى تليهم ، فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جيعه ، وقتلوا كل من فيه ، ثم إنهم فتحوا السد الذى كان يمنع ماء جيحون عن البلد ، فدخل الماء ، فغرق البلد جيعه ، وتهدمت الأبنية ، وبقى موضعه ماء كالبحر ، ولم يسلم من أهله أحد ألبتة .

قال ابن الأثير وهذا لم يسمع بمثله فى قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله من الخذلان بعد النصر ولقد عمت هذه المصيبة الاسلام وأهله ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا إلى ملكهم بالطالقان ، ثم إن جنكز جهز جيشا كثيفا إلى غزنة لقتال جلال الدين ابن الملك خوارزم ، وكان اجتمع عنده من عسكر أبيه نحو ستين ألف مقاتل غير مابيده من عساكر مملكته ، فلما وصل التتر إلى أعمال غزنة خرج إليهم المسلمون مع جلال الدين المذكور ، فالتقوا فى موضع يقال له بلق ، فاقتتلوا هناك قتالا شديدا ، وبقوا كذلك ثلاثة أيام ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، فانهزم التتر ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ، ومن سلم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان ، ثم إن جنكز جهز له عسكرا آخر أكبر من الأول مع بعض أولاده ، فهزمهم ثانيا ، وغنم المسلمون مامعهم ، وكان عظيما ، وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير ، فاستنقذوهم وخلصوهم ، ثم إن المسلمين جرى بينهم فتنة مع بعضهم لأجل الغنيمة ، فكان ذلك سببا للوهن والضعف ، فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر بأن جنكز قد وصل فى جموعه وجيوشه ، فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لأجل افتراق العسكر عزم على مفارقة غزنة ، ولم يقدر على المقام ، فسار نحو بلاد الهند ، وأما جنكز فانه وصل إلى غزنة وملكها لخلوّها من العساكر والمحامى ، فقتل أهلها ، ونهب الأموال ، وسبى الحريم ، ولم يبق أحد من العلماء والصلحاء وغيرهم وخربها وأحرقها ، وفعل كذلك بما حولها من المدائن والقرى فأصبحت تلك الأعمال جيعها خالية من الأنيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، ثم رجع جنكز إلى بلاده بجيوشه ، ثم سير جيشا كثيفا فى تطلب جلال الدين ، وساروا كلما مرّوا على بلاد أو مدينة قتلوا أهلها وخربوها ولم يزل جلال الدين ينتقل فى الهرب من موضع إلى موضع إلى أن دخل قرية من قرى ميا ، فلحقته التتر فى تلك القرية ، فهرب إلى جبل هناك فيه أكراد يتخطفون الناس ، فأخذوه وقتلوه ، وكان ذلك منتصف شوّال سنة ثمان وعشرين وستمائة .

ومما ينبغى أن يذكر فى هذه الأخبار قصة الصناديق التى كانت لأبيه محمد خوارزم ، وذلك أن خوارزم لما هرب من التتر كما تقدم أحضر كاتبا كان معه عشرة صناديق ، ثم قال إنها كلها جواهر لاتعلم

قيمتها ، ثم أشار إلى صندوقين منها ، وقال إن فيهما من الجواهر مايساوى خراج الأرض بجملتها ، ثم أمر بحمل العشرة صناديق إلى قلعة أزدهى ، وهى من أحصن قلاع الأرض ، وأخذ خط النائب بها بوصول الصناديق المذكورة مختومة ، فلما استولى جنكز على تلك البلاد حملت إليه الصناديق بختومها ، فأخذ جميع مافيها ، ولم ينتفع خوارزم الذى جمعها بشىء منها ، وقد تقدم أنه مات فى مهربه ذلك .

قال ابن الأثير فسبحان من بدل أمنهم خوفا ، وعزهم ذلا ، وكثرهم قلة ، فتبارك الله رب العالمين الفعال لمايشاء ، لايسأل عما يفعل وهم يسألون .

ثم قصدوا ديار بكر والجزيرة ، فقتلوا ونهبوا وخربوا ، ثم قصدوا مدينة آمد وأرزن وميا وأسعرد ، فنهبوا وقتلوا وخربوا ، ثم قصدوا نصيبين فنهبوا وقتلوا وخربوا ، وساروا فى البلاد يقتلون وينهبون إلى أن وصلوا إلى قرية تسمى المونسة ، قرية من الموصل فنهبوها وقتلوا كل من فيها ، ثم ساروا إلى مدينة خلاط وهى من أحصن البلاد فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها وهكذا مدينة مدينة ، وكان هذا فى ذى الحجة من سنة ثمان وعشرين وستمائة .

قال ابن الأثير ولقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم حتى قيل إن الرجل الواحد من التتر يدخل القرية أوالدرب وبه جمع كثير من الناس ، فلايزال يقتلهم واحدا بعد واحد لايتجاسر أحد يمد يده إلى ذلك الفارس ، ولقد بلغنى أن إنسانا منهم أخذه رجل من التتر ، ولم يكن معه مايقتله به ، فقال له ضع رأسك على الأرض ولاتبرح ومضى التترى ، فأحضر سيفا فقتله به . قال ابن الأثير ولقد حكى لى رجل . قال كنت أنا ومعى سبعة عشر رجلا فى طريق ، فجاءنا فارس من التتر ، وقال لنا مقالا يأمرنا فيه أن يكتف بعضنا بعضا ليقتلنا ، فشرع أصحابى يفعلون ما أمرهم به ، فقلت لهم هذا واحد فلم لانقتله ونهرب ، فقالوا نخاف ، فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله ، ولعل الله يخلصنا ، فوالله ماجسر أحد يفعل ذلك ، فأخذت سكينا وضربته به فقتلته وهربنا فنجونا ، وأمثال هذا كثير ، فهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه مايقاربها .

ثم إن العساكر الخوارزمية التى كانت عند جلال الدين بن خوارزم تفرقوا فى ديار بكر والموصل وحلب ، وأكثروا العبث والفساد ، وفعلوا مثل فعال التتر من الزنا والفواحش والقتل ، وكذلك التتر أكثروا العبث والفساد فيما استولوا عليه من البلاد ، ولم يزل الأمر يشتد بالمسلمين ، وشرح ماجرى فى تلك السنين من الخوارزمية والتتر يطول ، والقصد الاختصار .

وفى سنة ثلاث وأربعين وستمائة قصدت التتر بغداد وخرجت عساكر بغداد للقائهم . ولم يكن للتتر بهم طاقة ، فولى التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل ، ثم لما قدر الله وأنه لابد من استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية هيأ لهم أسبابا لذلك ، منها أن وزير الخليفة العباسى كان رافضيا ، ويحب نقل الخلافة من بنى العباس إلى العلويين ، فسولت له نفسه أن ذلك يسهل إذا قويت شوكة التتر ، وأنه يعقد معهم صلحا ، فصار يكاتب التتر ويظهر لهم أنه يحب استيلاءهم على بغداد ، وأن أمر المسلمين يكون تابعا لأمرهم ، وكان الخليفة المعتصم بالله مفوضا أمور الخلافة إلى وزيره هذا محمد بن محمد العلقمى منقادا له فى جميع ما يشير له به مع أن الخليفة المذكور كان صحيح

العقيدة يعتقد مذهب أهل السنة ، و يميل إلى أهل الخير والصلاح لكنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك مهملا للأمور المهمة محبا لجمع المال ، فأهمل أمر التتر وانقاد لوزيره حتى كان فى ذلك هلاكه وهلاك الرعية ، فان ابن العلقمى كتب إلى ملك التتر أنك تحضر إلى بغداد وأنا أسلمها لك ، وكان من جملة الأسباب التى حملته على ذلك وقوع فتنة فى تلك الأيام بين الرافضة وأهل السنة فى بغداد ، أدّت تلك الفتنة إلى نهب عظيم وخراب وقتل عدّة من الرافضة ، فغضب لذلك ابن العلقمى وجسر التتر على أخذ بغداد ليتشفى من أهل السنة ، فلما كتب لملك التتر بذلك أجابه بأن عساكر بغداد كثيرة ، وإن كنت صادقا فيما قلته وداخلا فى طاعتنا ففرّق عساكر بغداد ونحن نحضر فلما وصل كتابه إلى الوزير دخل على الخليفة المعتصم ، وقال إن جندك كثيرة ، وكانوا أكثر من مائة ألف ، وعليك كلفة كثيرة ، والعدوّ قد رجع ، والصواب أنك تعطى دستورا لخمسة وعشرين ألفا من عسكرك ليتوفر معلومهم ، فأجابه المعتصم لذلك ، فخرج الوزير لوقته ومحا اسم من ذكر من الديوان ، ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الاقامة بها ، ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ومحا اسم عشرين ألفا من الديوان ، ثم كتب إلى ملك التتر بما فعل ، وكان تدبير الوزير أن التتر إذا قدموا بغداد يقتلون الخليفة ويضعون شوكة بنى العباس ، ثم يعودون إلى سبيلهم فيبقى هو على ماهو عليه من العظمة والعساكر وتدبير المملكة ، فيقوم عندذلك بدعوة العلويين الرافضة من غير ممانع ، ثم يضع السيف فى أهل السنة هكذا كان قصده .

ولما بلغ ملك التتر مافعل الوزير ابن العلقمى من محو العساكر وضعف أمر الخلافة سار بجيوشه فى أول سنة ست وخمسين وستمائة ومعه خلائق لايحصون وقصد بغداد ونزل عليها وصار الخليفة المعتصم يستدعى العساكر ويتجهز لحرب التتر وقد اجتمع أهل بغداد وتحالفوا على قتال التتر ، وخرجوا إلى ظاهر بغداد ، وقاتلوا التتر قتالا عظيما ، وكثرت الجراحات والقتلى فى الفريقين إلى أن نصر الله عساكر بغداد ، وانكسر التتر أقبح كسرة ، وساق المسلمون خلفهم وأسروا منهم جماعة وعادوا بالأسرى ورءوس القتلى إلى ظهر بغداد ونزلوا بخيامهم مطمئنين بهروب العدوّ وانهزامه ، فأرسل الوزير ابن العلقمى فى تلك الليلة جماعة من أصحابه ، فقطعوا شط الدجلة فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون ، فغرقت مواشيهم وخيلهم وأموالهم ، وأرسل الوزير إلى ملك التتر يعرفه بما فعل ويأمره بالرجوع إلى بغداد ، فرجع بعساكره إلى ظاهر بغداد فلم يجدوا هناك من يردّهم ، فلما أصبحوا خرج لهم طائفة من عسكر المسلمين ، فانهزم المسلمون لقلتهم ، وأحاطت عساكر التتر ببغداد ، فقال الوزير ابن العلقمى للخليفة أقسم بالله أن تأذن لى فى الخروج لأعقد معهم الصلح ، فأذن له فى ذلك ، فخرج وتوثق لنفسه ورجع وأخبر الخليفة أن ملك التتر رغب أن يزوّج بنته بابنك ، وأن تكون الطاعة له كما كانت للملوك السلجوقية ويرحل عنك ، فخرج المعتصم فى أعيان دولته ، وأعيان العلماء ، وأكابر أهل الوقت ليحضروا العقد ، فلما حضروا عند ملك التتر أمر بالقبض عليهم وضربت أعناقهم ، وعقل الخليفة بوضعه وولده فى عدلين ، وأمر التتر برفسهما إلى أن ماتا وقيل أغرقهما ، ودخلت التتر بغداد فاقتسموها ، وكل أخذ ناحية وبقى السيف يعمل أربعة وثلاثين يوما ، وقلّ من سلم ، ولم يرحموا شيخا كبيرا لكبره ، ولا صغيرا لصغره ، ولا عالما لعلمه ، ونهبت دار الخلافة ومدينة بغداد حتى لم يبق فيها لا ماقلّ ولا ماجلّ ، ثم أمر بحرق

بغداد بعد أن قتل أهلها . قيل إن عدة من قتل من أهل بغداد يزيد على ألفى ألف وثلاثين ألف إنسان ، وانقرضت الخلافة من بغداد بقتل المعتصم هـذا ، وبقيت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سـنة ، وكانت مدة خلافة المعتصم خمس عشرة سنة وثمانيـة أشهر وأياما ، وعمره نحو سبع وأربعين سـنة ، وأما الوزير ابن العلقمى فلم يتم له ما أراد ، ولم يلبث أن أمسكه ملك التتر بعد قتل المعتصم بأيام ووبخه بألفاظ شنيعة معناها أنه لم يكن فيه خير لمخدومه ولا فى دينه ،فكيف يكون له خير فى ملك التتر ، ثم قتله شر قتلة ، جدد الله عليه سحائب الغضب والسخط ، وثبت عشـه فى الهاوية بجاه خـير البرية آمين ، وكان دخول التتر بغداد وقتلهم الخليفة المعتصم فى العشرين من المحرم سنة ست وخمسين وستمائة .

وفى تاريخ ابن كثير عن الشيخ عفيف الدين يوسف أحد الزهاد . قال كنت بمصر فبلغنى ماوقع ببغداد من القتل الذريع ، فأنكرته بقلبي ، وقلت يارب كيف هـذا وفيهم أطفال وممن لا ذنب له فرأيت فى المنام رجلا وفى يده كتاب ، فأخذته فاذا فيه :

دع الاعتراض فما الأمر لك ✲ ولا الحكم فى حركات الفلك
ولا تسأل الله عن فعـله ✲ فمن خاض لجة بحر هلك

قال الجلال السيوطى فى حسن المحاضرة بعـد ذكره ذلك . قلت أجرى الله عادته أن العامة إذا زاد فسادها ، وانتهكوا حرمات الله ، ولم تقم عليهم الحدود أرسل الله عليهم آية فى إثر آية ، فان لم ينجح ذلك فيهم أتاهم بعذاب من عنده ، وسلط عليهم من لايستطيعون له دفاعا اه .

رجع لبيان الأقاليم التى ملكها ملك التتر لعنه الله بعد تملكه لبغداد ، وهى إقليم خراسان ، وكرسيه نيسابور ، وإقليم عراق العجم ، وكرسيه أصبهان ، وإقليم عراق العرب ، وكرسيه بغداد ، وإقليم أذربيجان ، وكرسيه تبريز ، وإقليم خوزرستان ، وكرسيه ششتر ، وإقليم فارس ، وكرسيه شيراز وإقليم ديار بكر ، وكرسيه الموصل ، وإقليم الروم ، وكرسيه قونية ، وغيرها مما ليس له فى الشهرة مثل هذه الأقاليم العظيمة .

قال ابن بطوطة فى الرحلة مانصه . قال ابن جزى أخبرنا شيخنا قاضى القضاة أبو بكر بن الحجاج أعزه الله . قال سمعت الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول لقيت بمكة نور الدين بن الزجاج من علماء العراق ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث ، فقال لى هلك فى فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم ، ولم يبق منهم غيرى وابن أخى هذا اه .

وهكذا عملهم مع أهل كل مدينة عصتهم إلى أن ارتجت الأرض منهم وتزلزلت الناس فى جميع الأرض منهم ، ثم إن العساكر الاسلامية اجتمعت بمصر وسار بهم الملك المظفر قطز ملك مصر يريدون الشام لقتال التتر ، وبلغ ذلك نائب التتر على الشام ، فجمع من الشام التتر وغيرهم ، وسار إلى قتال المسـلمين ، فالتقوا عند عين جالوت واقتتلوا ، فانهزمت التتر هزيمة قبيحة ، وأخذتهم سيوف المسلمين ، وقتل مقدمهم ، وقدر الله كمال النصر للمسلمين بهذه الهزيمة ، واسترجع المسلمون دمشق وغيرها مما ملكوه من الديار الشامية بعد حصول اليأس من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسـلام ولأنهم ماقصدوا إقليما إلا فتحوه ، ولا عسكرا إلا هزموه ، وكان النصر والفتح العظيم يوم الجمعة خامس وعشرى رمضان عام ثمانية وخمسين وستمائة ، ولما أراد الملك قطز أن

يتجهز

يتجهز من مصر للخروج لقتال التتر بالشام أراد أن يأخذ من الناس شيئا من المال يستعين به على قتالهم ، فجمع العلماء وحضر الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، فقال لايجوز أن يؤخذ من الرعية شيء حتى لايبقى فى بيت المال شيء ، وتبيعوا مالكم من الحوائص والآلات ، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ، وتتساووا فى ذلك أنتم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء مافى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا ذكره جلال الدين السيوطى فى حسن المحاضرة ، وذكر أيضا عن الامام النووى أنه أفتى السلطان بيبرس المتولى بعد قطز بمثل ما أفتى به العز ابن عبد السلام ، وأرسل له الفتوى من الشام ، ونص المقصود من ذلك ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء مادام فى بيت المال شيء من نقد ، أو متاع ، أو أرض ، أو ضياع ، أو غير ذلك . قال وهؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان أعز الله أنصاره متفقون على هذا .

قال الجلال السيوطى ، فلما أراد السلطان الظاهر بيبرس الخروج إلى الشام لقتال التتر أخذ فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو ، فكتب له فقهاء الشام بذلك فقال هل بقى أحد ؟ فقيل نعم بقى الشيخ محيي الدين النووى فطلبه فحضر ، فقال اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع ، فقال ماسبب امتناعك ؟ فقال أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير بندقدار وليس لك مال ثم من الله عليك وجعلك ملكا ، وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائة جارية لكل جارية حق من الحلى ، فاذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا عن الحوائص ، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ المال من الرعية ، فغضب السلطان الظاهر بيبرس من كلامه ، وقال اخرج من بلدى يعنى دمشق ، فقال السمع والطاعة ، وخرج إلى نوى ، فقال الفقهاء إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ، وممن يقتدى به ، فأعده إلى دمشق ، فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ وقال لاأدخلها والظاهر بها ، فمات الظاهر بعد شهر .

قال الحافظ الذهبى كان الظاهر بيبرس خليقا للملك لولا ما كان فيه من الظلم . قال والله يرحمه ويغفر له ، فان له أياما بيضاء فى الاسلام ، ومواقف مشهودة ، وفتوحات معدودة .

ذكر عودة التتر إلى الشام

لما وصل الخبر إلى التتر بانهزام عساكرهم من الشام وخروجه من تحت أيديهم جهزوا جيشا من سنتهم تلك ، ووصلوا إلى حلب فى آخر سنة ثمان وخمسين وستمائة وملكوها وبذلوا السيف فى أهلها ، فأفنوا غالبهم ، وسلم القليل منهم ، واجتمع كثير من عساكر الاسلام بحمص ، وسار إليهم التتر ، فالتقوا بظاهر حمص خامس المحرم من سنة تسع وخمسين وستمائة ، وكان التتر أكثر من المسلمين بكثير ، ففتح الله على المسلمين بالنصر ، وولى التتر منهزمين وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون كيف شاءو ، وسار من سلم من التتر إلى مدينة فامية ، فقاتلهم المسلمون عندها ، فرحلوا وتوجهوا إلى الشرق فى خيبة وندامة ، واستمروا على ما بقى بأيديهم من الممالك إلى أن أسلم أحد ملوكهم ، وذلك سنة إحدى وثمانين وستمائة ، وتسمى بأحمد ، وخاطب بذلك الملوك الكثيرة فى عصره

وأرسل إلى مصر يخبرهم باسلامه ويطلب المساعدة ، وصار يأمر التتر بالاسلام ، فثارت لذلك فتنة بين التتر مع بعضهم إلى أن قتلوا أحمد المذكور سنة ثنتين وثمانين وستمائة وتملك أخاه ، وعدل عن دين الاسلام وأحب دين البراهمة من عبادة الأصنام وانتحال السحر والرياضة ، وأصابه داء الصرع وهلك سنة تسعين وستمائة ، وتملك آخر منهم وسار على سننه ، وهكذا إلى سنة ثلاث وسبعمائة فتملك خربندا ، وابتدأ أمره بالدخول فى الاسلام ، وتسمى بمحمد ، وتلقب بغياث الدين ، ثم صحب الروافض ، وساء اعتقاده ، وحذف ذكر الشيخين من الخطبة ، ونقش أسماء الأئمة الاثنى عشر على سكته ، ثم أنشأ مدينة بين قزوين وهمدان ، وسماها السلطانية ونزلها ، واتخذ بها بيتا لطيفا مبنيا بلبن من الذهب والفضة ، وأنشأ بازائها بستانا جعل فيه أشجار الذهب بثمر اللؤلؤ والفصوص ، وأجرى اللبن والعسل أنهارا ، وأسكن به الغلمان والجوارى تشبيها له بالجنة ، وأفحش فى التعرض لحرمات قومه ، وهلك مسموما سنة عشرة وسبعمائة .

﴿ تنبيه ﴾ قال الامام القرطبى فى التذكرة ان هؤلاء التتر الذين ذكرهم النبى ﷺ فى قوله « يقاتلونكم قوم صغار الأعين كأن وجوههم المجان المطرّقة » بفتح الراء المشددة .

وفى رواية : عراض الوجوه ، ذلف الأنوف ، غلاظها ، وقال إن هذا الأمر الذى أخبر عنه النبى ﷺ قد وقع كما أخبر .

قال فى حجة الله على العالمين ، ومنها قتال التتر وفتنتهم ، فقد روى الستة إلا النسائى لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين ، حمر الوجوه ، ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرّقة .

وفى رواية للبخارى : لاتقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزا وكرمان من الأعاجم ، حمر الوجوه ، فطس الأنوف ، صغار الأعين ، كأن وجوههم المجان المطرّقة نعالهم الشعر ، وفى لفظ له ، عراض الوجوه ذلف الأنوف . معنى فطس الأنوف قصارها مع انبطاح ، وقيل غلاظ أرنبة الأنف ، والمجان جمع مجن وهو الترس والمطارقة بمعنى أن وجوههم عريضة ، وخوز اجبل معروف من بلاد الاهواز من عراق العجم ، وكرمان صقع معروف بالعجم .

قال النووى هذه الأحاديث كلها معجزة لرسول الله ﷺ فقد عرف حال هؤلاء بجميع صفاتهم التى ذكرها النبى ﷺ وقاتلهم المسلمون مرّات .

وقال التاج السبكى فى طبقاته لم يكن منذ خلق الله الدنيا فتنة أكبر من فتنة التتر .

وقال السخاوى ، لم يزل بقاياهم يخرجون إلى أن كان آخرهم تيمور الأعرج وظهر بجميع ذلك مصداق قوله ﷺ « إن أوّل من يسلب أمتى ملكها بنو قنطوراء » وقنطوراء كانت جارية لابراهيم الخليل من أولادها التتر ، وقد كان خراب بغداد ، وقتل الخليفة المعتصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد على أيديهم سنة ست وخمسين وستمائة اه .

ومن حوادث هذه المائة السابعة

ماذكره الجلال السيوطى فى حسن المحاضرة . قال كان لانقراض الخلافة ببغداد وما جرى على المسلمين بتلك البلاد مقدمات نبه عليها العلماء ، منها أنه فى يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر سنة

اربع

أربع وأربعين وستمائة هبت ريح عاصفة شديدة بمكة ، فألقت ستارة الكعبة المشرفة ، فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السواد ، ومكثت إحدى وعشرين يوما ليس عليها كسوة قال الحافظ عماد الدين بن كثير ، وكان هذا فألا على زوال دولة بنى العباس ومنذرا بما سيقع بعد هذا من كائنة التتر لعنهم الله تعالى .

ومنها قال ابن كثير فى سنة سبع وأربعين وستمائة طغى الماء على بغداد حتى أتلف شيئا كثيرا من المحال والدور الشهيرة ، وتعذرت إقامة الجمعة بسبب ذلك .

وفى هذه السنة هجمت الفرنج على دمياط ، فاستحوذوا عليها وقتلوا خلقا من المسلمين ، وفى سنة خمسين وستمائة وقع حريق بحلب احترق بسببه ستمائة دار ، فيقال إن الفرنج ألقوه فيها قصدا .

وفى سنة اثنتين وخمسين وستمائة ظهرت نار فى أرض عدن فى بعض جبالها بحيث إنه يطير شررها إلى البحر فى الليل ويصعد منها دخان عظيم فى أثناء النهار ، فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد وشرعوا فى أفعال الخير والصدقات .

وفى سنة أربع وخمسين وستمائة زادت الدجلة زيادة مهولة ، فغرق خلق كثير من أهل بغداد ومات خلق تحت الهدم ، وركب الناس المراكب ، واستغاثوا بالله وعاينوا التلف ، ودخل الماء من أسوار البلد ، وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون دارا ، وانهدمت خزانة أموال المسلمين وهلك شىء كثير من خزانة السلاح .

قال السبكى فى الطبقات ، وكان ذلك من جملة الأمور التى هى مقدمة لواقعة التتر .

وفى هذه السنة فى يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة وقع بالمدينة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة ، وأقام على هذه الحالة يومين ، فلما كانت ليلة الأربعاء تعقب الصوت زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان ، واضطرب المنبر الشريف ، واستمرت تزلزل ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة خامس الشهر ، فظهر من الحرة نار عظيمة وسالت أودية منها سيل الماء ، وسالت الجبال نارا ، وسارت نحو طريق الحاج العراقى ، فوقفت وأخذت تأكل الأرض أكلا ، ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل إلى ضحوة النهار ، واستغاث الناس بالنبى ﷺ وأقلعوا عن المعاصى ، واستمرت النار فوق الشهر ، وخسف القمر ليلة الاثنين منتصف الشهر ، وكسفت الشمس فى غدوة ، وبقيت أياما متغيرة اللون ضعيفة النور ، واشتد فزع الناس ، وصعد علماء البلد إلى الأمير يعظونه ، فطرح المكس ، ورد على الناس ما كان تحت يده من أموالهم ، ولما جاء الرسول إلى بغداد بخبر هذه النار . قال له الوزير إلى أى الجهات ترى شررها ؟ قال إلى جهة الشرق .

قال السمهودى فى تاريخ المدينة وقد ظهرت هذه النار وأقبلت من قبل المدينة مما يلى المشرق فى جهة طريق السوارقية ، وهى جهة بلاد بنى سليم ، وثار من محل ظهورها فى الجو دخان متراكم غشى الأفق سواده ، فلما تراكمت الظلمات وأقبل الليل سطع شعاع النار ، فظهرت مثل المدينة العظيمة فى جهة المشرق .

وقال القرطبى وقد خرجت نار بالحجاز بالمدينة الشريفة ، وكان بدؤها زلزلة عظيمة ليلة الأربعاء

ثالث جادى الآخرة ، واستمرّت إلى ضحى يوم الجمعة ، فسكنت وظهرت النار . قل وكانت ترى بصفة البلد العظيمة عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج ، ويرى رجال يقودونها لا تمرّ على جبل إلا دكته وأذابته ، ويخرج من مجموع ذلك مثل النار أحمر وأزرق له دوىّ كدوىّ الرعد يأخذ الصخور بين يديه ، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم ، فانتهت النار إلى قرب المدينة ، ومع ذلك فكان يأتى المدينة نسيم بارد ، وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر ، وقال لى بعض أصحابنا رأيتها صاعدة فى الهواء من نحو خمسة أيام ، وسمعت أنها رؤيت من مكة ، ومن جبال بصرى اه .

وقال العماد ابن كثير ، وكانت هذه النار نعمة فى صورة نقمة ، فقد وجلت القلوب منها وأشفقت ، وأعتق أمير المؤمنين جميع مماليكه ، وردّ على الناس مظالمهم ، وأبطل المكس وهبط للنبىّ ﷺ ، وبات فى المسجد ليلة الجمعة والسبت ، ومعه جميع أهل المدينة حتى النساء والصغار وأهل النخل يتضرّعون ويبكون ، كاشفين رءوسهم ، مقرّين بذنوبهم ، مستجيرين بنبيهم ﷺ فصرف الله تعالى عنهم تلك النار العظيمة ذات الشمال ، فسالت من وادى أحيلين إلى جهة الشمال واستمرّت مدة ثلاثة أشهر على ما ذكره المؤرخون ، فطالت مدتها ليشتهر أمرها ، وينزجر عامة الخلق بها ، وعظم أمرها ليشاهد منها عنوان نار الآخرة ، وذكر القسطلانى عمن يثق به أن أمير المدينة أرسل عدة من الفرسان إليها ، فلم تجسر الخيل على القرب منها ، فترجل أصحابها وقربوا منها ، فذكروا أنها ترمى بشرر كالقصر ، ولم يظفروا بجلية أمرها ، فجرد عزمه لذلك ، فوصل بعضهم منها إلى قدر غلوتين بالحجر ، ولم يستطع أن يجاوز موقعه من حرارة الأرض وأحجار كالمسامير تحتها نار سارية ومقابله ما يتصاعد من اللهيب ، فعاين نارا كالجبال الراسيات والتلال المجتمعة السائرات تقذف بزبد الأحجار كالبحار المتلاطمة الأمواج . قال ولم تزل مارّة على سبيلها وهى تسحق ما والاها وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصى ، وقال كثير من المؤرخين انها سالت سيلا ذريعا فى واد يكون طوله مقدار أربعة فراسخ ، وعرضه أربعة أميال ، وعمقه قامة ونصف ، وهى تجرى على وجه الأرض ، والصخر يذوب كما يذوب الرصاص ، ولم يزل يجتمع منه فى آخر الوادى عند منتهى الحرم أى فى المشرق حتى قطعت فى وسط وادى الشظاء إلى جهة جبل عير فسدّت الوادى المذكور بسدّ عظيم من الحجر المسبوك بالنار .

وهذه النار قد أخبر بها النبى ﷺ وهى من معجزاته عليه السلام ، فقد روى البخارى عن أبى هريرة « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء أعناق الابل ببصرى » وروى ابن أبى شيبة وأحمد والحاكم وصححه عن أبى ذرّ رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ليت شعرى متى تخرج نار من جبل وراق تضىء لها أعناق البخت ببصرى كضوء النهار »

وروى الامام أحمد من رواية رافع بن بشر السلمى عن أبيه . قال قال رسول الله ﷺ « يوشك نار تخرج من جسر سيل تسير سير بطيئة الابل تسير النهار وتقيم الليل الحديث » .

ومن حوادث المائة السابعة

احتراق المسجد النبوى ، فى ليلة الجمعة مستهل رمضان عام أربعة وخمسين وستمائة احترق

المسجد الشريف النبوى ، وسبب ذلك أنه دخل أحد خدمة المسجد إلى خزانة هناك ومعه نار ، فعلقت فى الآلات ، واتصلت بالسقف بسرعة ، ثم دبت فى السقوف ، فأعجلت النار عن قطعها فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع ، ووقعت بعض أساطينه وذاب رصاصها ، واحترق سقف الحجرة النبوية الشريفة ، واحترق المنبر الذى كان النبى ﷺ يخطب عليه ، وعدّ ماوقع من تلك النار الخارجة ، وحريق المسجد من الآيات ، وكانت كلها منذرة لما يعقبها فى السنة الآتية من الكائنات اهـ كلام الجلال السيوطى .

وذكر السيد السمهودى فى خلاصة الوفاء زيادة إيضاح لسبب ذلك الحريق . قال احترق المسجد النبوى ليلة الجمعة أوّل شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة أوّل الليل لدخول أبى بكر ابن أوحد الفرّاش لاستخراج قناديل لمنائر المسجد ، وترك الضوء الذى كان فى يده على قفص من أقفاص القناديل ، فاشتعلت النار فيه وأعجز طفؤها ، وعلقت ببسط وغيرها ، وعلا الالتهاب حتى علقت بالسقف مسرعة ، وأعجزت الناس عن إطفائها بعد أن نزل أمير المدينة ، واجتمع معه غالب أهلها فلم يقدروا على طفئها ، وما كان إلا أقل من القليل حتى استولى الحريق على جميع سقف المسجد وما احتوى عليه من المنبر النبوى والأبواب والخزائن والمقاصير والصناديق ، ولم يبق خشبة واحدة ، وكذا الكتب والمصاحف ، ووقع السقف الذى كان على أعلى الحجرة على سقف بيت النبى ﷺ فوقعا جميعا فى الحجرة الشريفة وعلى القبور المقدّسة ، ولم يكن فى ذلك الزمن قبة على القبور المقدّسة ، وإنما كان سقف فقط ، وأوّل من جعل ذلك السقف قبة السلطان المنصور قلاوون الصالحى سنة ثمان وسبعين وستمائة ، فجعلت قبة صغيرة مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رءوس السوارى المحيطة بالحجرة الشريفة .

ولما كانت عمارة السلطان قايتباى للمسجد النبوى سنة سبع وثمانين وثمانمائة جعلت القبة المشرّفة متناهية فى العلوّ ، وجعلت من الآجر ، وأسس لها دعائم عظام بأرض المسجد اهـ .

ومن حوادث المائة السابعة

ما ذكره بعض المؤرخين . قال وفى شهر شوّال سنة أربع وعشرين وستمائة أحضرت من الاسكندرية امرأة خلقت من غير يدين ، وفى موضع ثدييها مثل الحلمتين فجىء بها بين يدى الوزير رضوان فعرّفته أنها تعمل برجليها ما تعمله النساء بأيديهنّ من خط ورقم وغير ذلك ، فأحضر لها دواة ، فتناولت برجلها اليسرى فلما لم ترض شيئا من الأقلام المبرية التى أحضروها ، فأخذت السكين وبرت لنفسها قلما وشقته وقطعته ، وأخذت ورقة فأمسكتها برجلها اليسرى وكتبت باليمنى أحسن مانكتبه الكتاب بيمينهم ، وناولت الرقعة للوزير ، فاذا فيها السؤال بالزيادة فى راتبها فزادها وأعادها إلى بلدها اهـ .

ومن حوادث المائة الثامنة

القحط الذى كان بالمغرب ، وكان ذلك سنة إحدى عشرة وسبعمائة فاستسقى الناس ، وخرج السلطان أبو سعيد المرينى ماشيا على قدميه لاقامة سنة الاستسقاء ، وذلك يوم الأربعاء رابع وعشرى

شعبان من السنة المذكورة ، وتقدمت أمامه الصلحاء والفقهاء والقراء يدعون الله تعالى وقدم بين يدى نجواه صدقات وفرق أموالا ، وفى يوم السبت بعده خرج فى جنده إلى قبر الشيخ أبى يعقوب الأشقر بجبل الكندرتين ، فدعا هنالك ، ورحم الله تعالى عباده ، وأغاث أرضه و بلاده .

وفى ذى القعدة من سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة هبت ريح شديدة بفاس ومكناسة وأحوازهما واستمر هبو بها يومين وليلتين ، فعاقت عن الأسفار ، وهدمت الدور ، وقلعت الأشجار .

وفى سنة أربع وعشرين وسبعمائة كانت المجاعة بالمغرب ، وارتفعت الأسعار فى جميع البلاد ، فبلغ المد من القمح بفاس خمسة عشر درهما ، والصحفة منه تسعين دينارا ، وغلا الادام ، وعدمت الخضر بأسرها ، ودام ذلك إلى قرب منتصف السنة بعدها .

وفى ليلة الجمعة السادس والعشرين من جمادى سنة خمس وعشرين وسبعمائة دخل السيل العظيم مدينة فاس ، وكاد يأتى عليها بحيث هدم الدور والمساجد والأسواق ، وأهلك آلافا من الخلق حتى خيف على البلد التلف .

وفى سنة ست وعشرين وسبعمائة انتهى تاريخ ابن أبى زرع المسمى «بالقرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » .

ومن حوادث هذه المائة

ماهو الغاية فى باب الاغراب . قال ابن خلدون حضر أشياخنا بمجلس السلطان أبى الحسن المرينى ، وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين ، وشاع أمرهما ، ووقع اختبارهما ، فصح شأنهما ، واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا وذكرهما أيضا الشيخ أبو عبد الله المقرى فى كتابه المسمى بالمحاضرات . قال وردت على تلمسان فى العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رندة لا تأكل ، ولا تشرب ، ولا تبول ، ولا تتغوط وتحيض ، فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ، وتلا « كان يأكلان الطعام » فأخذ الناس يشون ثقات نسائهم ودهاتهن إليها ، فكشفن عنها بكل وجه يمكنهن فلم يقفن على غير ماذكر ، وسئلت هل تشتهين الطعام ؟ فقالت هل تشتهون التبن بين يدى الدواب؟ وسئلت هل يأتيها شىء ؟ فأخبرت أنها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش فنامت ، فأتاها آت فى النوم بطعام وشراب فأكلت وشربت ، فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت فهى على تلك الحال تؤتى فى المنام بالطعام والشراب إلى الآن ، ولقد جعلها السلطان فى موضع بقصره وحفظها بالعدول ، ومن يكشف عما عسى تجىء أمهابه إذا أتت إليها أربعين يوما فلم يوقف لها على أمر ، قال المقرى وقد ذكر أن امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة ، وحدثنى غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشة الجزيرية أنها كانت كذلك .

وفى منتصف المائة الثامنة كان الوباء العظيم الذى قد عم أقطار الأرض وتحيف العمران جملة حتى كاد يأتى على الخليقة أجمع وهو وباء لم يعهد مثله قط .

ومن

ومن حوادثها المدّعى للنبوّة

وهو رجل يقال له الفازازى ، وقد استظهر عليها بأمور موهمة للكرامات والاخبار بالمغيبات ومخيلة لخوارق العادات تبعه على ذلك من العوام جملة . قال الشاطبي فى الاعتصام ، ولقد سمعت بعض طلبة ذلك البلد الذى احتله هذا البأس وهو مالقة آخذا ينظر فى قوله تعالى «وخاتم النبيين» وهل يمكن تأويله ، وجعل يطرق إليه الاحتمالات ليسوغ إمكان بعث نبيّ بعد محمد ﷺ وكان مقتل هذا المفترى على يد شيخ شيوخنا أبى جعفر بن الزبير رحمه الله ، ولقد حكى بعض مؤلفى الوقت . قال حدّثنى شيخنا أبو الحسن بن الجياب . قال لما أمر بالتأهب يوم قتله وهو فى السجن الذى أخرج منه إلى مصرعه جهر بتلاوة سورة يس ، فقال له أحد الدعرة ممن جمع السجن بينهما اقرأ قرآنك لأىّ شيء تتفضل على قرآننا اليوم ؟ فتركهما مثلا .

ومن حوادثها أيضاً

ماقله علم الدين البرزالى فى تاريخه ونصه: وفى وسط شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، ورد كتاب من حماه يخبر فيه أنه وقع فى هذه الأيام ببارين من عمل حماه برد على صور حيوانات مختلفة منها سباع وحيات وعقارب ومعز وطيور ورجال وأن ذلك ثبت بمحضر شرعى عند القاضى بالناحية المذكورة .

ومن حوادثها ظهور المدّعى للمهدوية

ظهر رجل من منتحلى التصوف يعرف بالتوزيرى ادّعى أنه المهدى المنتظر ، واتبعه الكثير من أهل السوس ومن كدالة وكزولة وعظم أمره وخلافه مع رؤساء المصامدة وعلمائهم، وكان ذلك فى عصر السلطان يوسف بن يعقوب المرينى ، فدسّ عليه من قتله بياتا وانحلّ أمره .

حدوث البارود

كان سنة ثمان وسبعمائة 708 ؛ وأما حدوث المدفع ، فكان سنة اثنتين وستين وسبعمائة 762 .

ومن حوادثها

ماذكره فى حجة الله على العالمين ، ونصه : ذكر السيوطى فى تاريخ الخلفاء أنه فى سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة فى خلافة المتوكل سادس الخلفاء العباسيين الذين كانوا بمصر ورد كتاب من حلب يتضمن أن إماما قام يصلى ، وأن شخصا عبث به فى صلاته فلم يقطع الامام الصلاة حتى فرغ وحين سلم انقلب وجه العابث وجه خنزير ، وهرب إلى غابة هناك ، وكتب بذلك محضر اه .

ومن حوادث المائة الثامنة ظهور تيمور

وفى سنة تسعين وسبعمائة كان ظهور تيمور بالديار الهندية وخراسان والعراق ، وكان ظهوره من

أشد المحن والبلايا على أمة الاسلام ، فانه أفسد فى الأرض ، وأهلك الحرث والنسل ، وسفك دماء المسلمين ، وسبى ذراريهم ، ونهب أموالهم ، وأحرق مساكنهم ودورهم ، مع أنه كان يدّعى الاسلام وكان يفعل مع المسلمين أفعالا أكثر مما تفعله الكفار : من القتل والأسر والتخريب ، وكان رافضيا شديد الرفض .

وسبب خروجه أن ملوك التتر اقتسموا الممالك ، وانتشرت الفتن بينهم مع بعضهم وكثر عليهم الثوار والخارجون ، وكان ذلك كله سببا لضعف دولة التتر ، وموجبا لقيام تيمور وغيره ، واختلفوا فى نسب تيمور ، فقيل ان نسبه ينتهى الى جنكز ملك التتر ، وكان أول ظهوره سنة سبعمائة وثلاث وسبعين ، وأرّخه بعضهم بقوله «عذاب» وهو أحد الدجالين الموعود بهم فى الأخبار النبوية فانه تغلب على الممالك الاسلامية ، وأكثر القتل ، وأفسد الأرض ، وأهلك الحرث والنسل ، وكان مبدأ أمره وأمر أبيه أنهما كانا فقيرين ، وكان أبوه إسكافيا ، ونشأ ولده تيمور جلدا قويا ذا جسم غليظ ، فكان لشدة فقره يسرق كثيرا ، فسرق فى بعض الليالى شاة ، واحتملها فشعر به الراعى ، فرماه بسهمين ، أصاب بأحدهما فخذه ، وبالآخر كتفه ، فأعابهما ، فكان أعرج ، ولذلك كان يقال له نصف إنسان ، ومع هذا لم يترك السرقة ، فما زال كذلك حتى اشتهر أمره وافساده ، فظفر به السلطان حسين ملك هراة ، فأمر بضربه ، ثم بصلبه فضرب ، ثم تشفع فى ترك صلبه الأمير غياث الدين بن السلطان حسين المذكور ، فقال له أبوه السلطان حسين : هذا أصل مادة الفساد ، لئن بقى ليهلكنّ العباد والبلاد ، فقال له ابنه غياث الدين : وما عسى أن يصدر من نصف آدمى ، وقد أصيب بالدواهى ، فما زال يراجع أباه حتى قبل شفاعته ووهبه له ، وعفا عنه ، ثم ان غياث الدين اصطحبه معه وقرّبه وأدناه ، وجعله من خواصه ، وزوّجه أخته ورقاه ، حتى صار من وزرائه ، فلما صار الملك لغياث الدين بعد موت أبيه حسين ازدادت منزلة تيمور وصار مقدما على كثير من الجند ، فطغى وبغى على مولاه غياث الدين ، ومبدأ ذلك أن زوجة تيمور وهى أخت السلطان غياث الدين وقع بينها وبين تيمور شىء أغضبه ، فقتلها ، ولم يراع حرمة لمولاه ، ثم لم يسعه الأمر إلا بالخروج على السلطان غياث الدين ، وخلع الطاعة ولزم التمرد والطغيان ، فتملك بما كان تحت يده من الجند كثيرا من الممالك ، حتى استصفى ممالك ما وراء النهر ، وذلت لأوامره ملوك الدهر ، وشرع فى استخلاص بقية البلاد ، واسترقاق العباد ، فكان يجرى فى جسد العالم ، مجرى الشيطان من بنى آدم ، ويدب فى البلاد ، دبيب السمّ فى الأجساد ، ثم أرسل الى مخدومه سلطان هراة الملك غياث الدين يطلب منه الدخول فى طاعته ، ليجازيه على إحسانه باساءته ، فيتحقق بذلك قول النبى ﷺ : « كتب الله على كل نفس خبيثة أن لاتخرج من الدنيا حتى تسىء الى من أحسن إليها » فأرسل غياث الدين يقول له : أما كنت خادما لى وأحسنت إليك ، وأسبلت ذيل نعمتى عليك ، وذلك بعد أن نجيتك من الصلب ، فان لم تكن إنسانا يعرف الاحسان ، فكن كالكلب ، فلم يصغ لذلك ، بل عبر جيحون بمن معه من الجند ، وتوجه إلى محاصرة مولاه غياث الدين بهراة ، ولم يكن لغياث الدين قوة على قتاله ، والوقوف بين يديه ، فحصن نفسه فى القلعة فحاصره وضيق عليه ، ثم أمّنه وقبض عليه وحبسه ومنع عنه الطعام

والشراب

والشراب حتى مات جوعا وعطشا ، ثم عاد إلى خراسان ، فانتقم أوّلا من أهل سجستان ، فوضع السيف فيهم وأفناهم عن آخرهم ، ثم خرب المدينة ورحل عنها ، ولم يزل هـذا دأبه حتى تخلص له جميع ممالك العجم ، ودانت لهم ملوكهم والأمم ، ووصفه بعضهم بقوله ، وكان رجلا ذا قامة شاهقة كأنه من بقايا العمالقة ، عظيم الجبهة والرأس ، شديد القوّة والبأس ، أبيض اللون ، مشرباً بحمرة عظيم الأطراف ، عريض الأكتاف ، مستكمل البنيـة ، مسترسل اللحية ، أعرج الجنبين ، وعيناه كشمعتين ، جهير الصوت ، لايهاب الموت ، وكان من أبهته وعظمته أن ملوك الأطراف ، وسـلاطين الأكناف ، مع استقلالهم كانوا إذا قدموا عليه ، وتوجهوا بالهدايا إليـه يجلسون على أعتاب العبودية والخدمة نحوا من مدّ البصر من سرادقاته ، وإذا أراد هو منهم واحدا أرسل من الخدمة نحوه قاصدا ، فينادى ذلك الواحد باسمه ، فينهض فى الحال يعدو نحوه ممتثلا أمره .

ومن عظمته أن ملوك السلجوقية دخلوا تحت طاعته ، ولما ملك أصبهان وعراق العجم والرى وفارس وكرمان بعـد حروب هلك فيها ملوكهم ، وبادت جموعهـم ، وخربت ديارهم ، وسبيت نساؤهم ، خافه السلطان أحمد بن أويس المتملك بغداد بعـد التتر ، فجمع عساكره ، وأخذ فى الاستعداد له ، ثم عدل إلى مصانعته ومهادنته فلم يغن ذلك عنـه ، ومازال تيمور يخادعه بالملاطفة والمراسلة إلى أن فتر عزمه ، وفرّق عساكره ، فنهض إليه تيمور يسرع السير فى غفلة عنـه حتى انتهى إلى الدجلة ، وسبق النذير إلى السلطان أحمد ، فأسرى بغلس ليله ، وحمل ما أقلته رواحله من أمواله وذخائره ، ومرّ بنهر الحلة ، ووافى تيمور وعساكره الدجلة فى حادى عشر شهر شوّال سنة خمس وتسعين وسبعمائة ، ولم يجد السفن ، فاقتحم بعساكره النهر ، ونازل بغداد ، وبعث عساكر فى اتباع السلطان أحمد ، فساروا إلى الحلة ، وقد قطع جسرها فخاضوا النهر ، وأدركوا السلطان أحمد بمشهد على ، واستولوا على أثقاله ورواحله ، فكرّ عليهم فى جموعه ، وقتل الأمير الذى كان عليهم ، فرجع بقيـة عسكرهم ، ونجا السلطان أحمد إلى الرحبـة من تخوم الشام فأراح بها .

ذكر تجهيز تيمور الجيوش إلى الشام

وفى سنة ثلاث وثمانمائة أخذ تيمور فى التجهيز إلى المسير إلى الديار الشامية ، فجمع عساكر كثيرة تبلغ ثمانمائة ألف ، فاجتازوا أوّلا على سويس فحاصروها وأخذها بعد أن أمنهم ، وحلف لهم أن لايضع السيف فيهم ، فلما تمكن منهم حفر لهم حفائر ، ودفنهم فيها أحياء ، وكانوا ثلاثة آلاف مسلم ، ثم حرقها وخربها ، وتوجه إلى مدينة البتين ، فوجد أهلها قد رحلوا عنها فخربها وأحرقها ثم توجه إلى ملطية ، فهرب منها من كان بها قبل أن يصلها فخربها ، ثم اجتاز على البهنسا ، فحاصرها ونصب عليها المنجنيق ، وهدم بعض قلعتها ، ثم أخذها صلحا ، ثم نازل حلب تاسع ربيع الأول من السنة المذكورة ، وكان فيها من العساكر الاسـلامية جمع كثير من دمشق وطرابلس وحماة وصفد وغزة وغـيرها ، فاختلفت آراؤهم بين قائل ادخلوا المدينـة ، وقاتلوا من الأسوار ، وقائل اخرجوا ظاهر البلد بالخيام ، وكان الأمير على حلب نائب السلطان هو الأمير دمرداش ، فلما رأى اختـلافهم أذن للناس فى إخلاء البلد والتوجه حيث شاءوا ، وكان نعم الرأى لو فعلوا به ،

فلما لم يفعلوا برأيه ضربوا خيامهم بظاهر البلد تلقاء العدو ، وحضر قاصد مرسل من تيمور ، فقتله الأمير على عسكر دمشق قبل أن يسمع كلامه وبئس مافعل ، وفى اليوم العاشر من ربيع المذكور وقع قتال يسير ، وفى الحادى عشر منه زحف تيمور بجيوشه وفيلته ، فدهم المسلمين خلق كأمواج البحر ، فولوا على أدبارهم منهزمين نحو البلد ، وازدحموا فى الأبواب : ومات منهم خلق كثير ، والعدو وراءهم يقتل ويأسر ، وتعلقت أمراء عسكر المسلمين بالقلعة ومعهم خلق كثير ، فاقتحمت عساكر تيمور المدينة ، وامتدت أيديهم فى أقطارها ، وجالت خيولهم بأرجائها سفكا ونهبا وأسرا واحتمى بالمساجد خلق كثير من النساء المخدرات والكواعب وغيرهن ، فمالوا عليهم وقضبوهم أسرى فى الحبال ، وأسرفوا فى قتل كثير من الرجال والأطفال ونهب الأموال ، وتخريب المنازل ، وافتضاض الأبكار ، واستمر الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام وهم مع ذلك مشتغلون بنقب القلعة وهدم الخندق ، وكان المسلمون قدجعلوا أكثر أموالهم بالقلعة ، ثم اعتصم بها الأمراء وخلق كثير فلما رأى دمرداش أمير حلب اشتداد الأمر نزل مع طائفة من الأمراء من القلعة يطلبون الأمان فأجابهم تيمور وخلع عليهم ، فاطمأن خاطرهم ، فنزل بقية أصحابهم من القلعة ، كل أمير مع طائفته فنظم تيمور كل رجلين فى قيد وفرقهم فى قومه ، ثم أذن لهم فى النهب .

قال ابن الشحنة أخذ القلعة بالأمان والأيمان التى ليس معها إيمان ، وفى ثانى يوم صعد تيمور بنفسه إلى القلعة ، وأقام بحلب نحوا من شهر ، وأصحابه تعدو فى نهب المدينة والقرى وتميث بقطع أشجارها وهدم أحجارها ، وأمر أن يبنى من رءوس الرجال شبه المنائر ، فبنيت مرتفعة فى الهواء نحو عشرة أذرع ، ودورها نيف وعشرون ذراعا ، وعدة تلك المنائر المتخذة من الرءوس عشر وسلم من قتله كثير من العلماء وغيرهم لكونهم اختفوا ، ثم أعطاهم الأمان . قال ابن الشحنة ولما طلع القلعة فى ثانى يوم كان طلوعه أواخر النهار ، فطلب علماء حلب ، فحضرنا إليه ، فأوقفنا ساعة ، ثم أمرنا بالجلوس ، وطلب من معه من أهل العلم ، فقال لأمير من أمراء دولتـه ، وهو المولى عبد الجبار ابن العلامة نعمان الدين الحنفى قل لهم إنى سائلكم عن مسألة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة وسائر البلاد التى افتتحتها ، ولم يوضحوا لى الجواب فلا تكونوا مثلهم ولا يجيبنى إلا أعلمكم وأفضلكم وليعرف مايتكلم به ، فانى خالطت العلماء ولى بهم اختصاص وألفة ولى فى طلب العلم طلب قديم . قال ابن الشحنة وكان قد بلغنا عنه أنه يتعنت العلماء فى الأسئلة ويجعل ذلك سببا لقتلهم أو تعذيبهم ، فقال الشيخ شرف الدين موسى الأنصارى الشافعى هذا شيخنا يعنى الشيخ محمد بن الشحنة وهو مدرس هذه البلاد ونقيبها وإليه المرجع ، سلوه والله المستعان ، فقال عبد الجبار مخاطبا ابن الشحنة مترجما مقالة تيمور : سلطاننا يقول إنه بالأمس قتل منا ومنكم فمن الشهيد قتيلنا أم قتيلكم فوجم الجميع وقالوا فى أنفسهم هذا الذى بلغنا عنه من التعنت فسكت القوم وفتح الله بالجواب على ابن الشحنة ، فاستحضر سريعا جوابا بديعا فقال : هذا السؤال سئل عنه رسول الله ﷺ وأجاب عنه ، وأنا مجيب بما أجاب به سيدنا رسول الله ﷺ .

فقال له صاحبه القاضى شرف الدين موسى الأنصارى بعد أن انقضت الحادثة ، والله العظيم إنك لما قلت هذا السؤال سئل عنه رسول الله ﷺ ، وأجاب عنه اختل عقلى . مع أن القاضى شرف الدين كان محدث زمانه ، وهو معذور بما شاهد من الأهوال فى تلك الأيام ، ومثل هـذا

السؤال لا يمكن عنه الجواب فى هذا المقام لشدة سطوة تيمور بمن خالف مرامه ، ووقع فى نفس الأمير عبد الجبار مثل ذلك .

فقال لابن الشحنة يسخر من كلامه : كيف سئل رسول الله ﷺ وكيف أجاب ؟ وألقى تيمور سمعه و بصره الى ابن الشحنة ، فقال ابن الشحنة : جاء أعرابى الى رسول الله ﷺ وقال يارسول الله ان الرجل يقاتل حمية ، و يقاتل شجاعة ، ويقاتل ليعرف مكانه ، فأينا فى سبيل الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، فمن قاتل منا ومنكم لاعلاء كلمة الله فهو الشهيد . فقال تيمور [خوب] يعنى طيب ، واستحسن ذلك الجواب ، وقال عبد الجبار ما أحسن ما قلت ، وانفتح باب المؤانسة فقال تيمور إنى رجل نصف آدمى وقد أخذت بلاد كذا وكذا وعدد سائر ممالك العجم والعراق والهند وسائر بلاد التتر . قال ابن الشحنة فقلت اجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الأمة ولا تقتل أحدا ، ثم تكررت الأسئلة منه والأجوبة من العلماء إلى أن كان آخر سؤاله ماتقولون فى على ومعاوية ويزيد ، فأسر القاضى شرف الدين إلى ابن الشحنة وكان إلى جانبه وقال اعرف كيف تجيبه فانه من الشيعة فلم يفرغ من كلامه إلا وقد قال القاضى علم الدين القفصى المالكى ان الكل مجتهد، فغضب تيمور غضبا شديدا وقال على على الحق ومعاوية ظالم ويزيد فاسق وأنتم حلبيون تبع لأهل دمشق وهم يزيديون قتلوا الحسين ، فأخذ ابن الشحنة فى ملاطفته بالاعتذار عن المالكى بأنه أجاب بشىء وجده مكتوبا فى كتاب لايعرف معناه ، فعاد إلى دون ما كان عليه من البسط ، وأخذ عبد الجبار يباسط ابن الشحنة والقاضى شرف الدين فقال عن ابن الشحنة هذا عالم مليح وقال عن القاضى شرف الدين هذا رجل فصيح ، فسأل تيمور ابن الشحنة عن عمره ، فقال مولدى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وقد بلغت الآن أربعا وخمسين سنة ، وقال للقاضى شرف الدين كم عمرك ؟ فقال أنا أكبر من هذا يعنى ابن الشحنة بسنة ، فقال تيمور أنتم فى عمر أولادى فان عمرى اليوم بلغ خمسا وسبعين سنة وحضرت صلاة المغرب فأمنا عبد الجبار وصلى تيمور إلى جانب ابن الشحنة قائما يركع و يسجد ثم تفرقوا ، وفى اليوم الثانى غدر بكل من فى القلعة وأخذ جميع ما كان فيها من الأموال والأقمشة والأمتعة مما لا يحصى حتى قيل انه لم يكن أخذ من مدينة قط مثل ما أخذ من هذه القلعة ولا ما يقاربه ، وعوقب غالب المسلمين بأنواع العقوبات وحبسوا بالقلعة مابين مقيد ومسجون ومرسم عليه ، ونزل تيمور من القلعة الى دار النيابة، وصنع وليمة حضرها سائر الملوك والنوابين من قبله ، وأدار عليهم كؤوس الخمر ، والمسلمون فى عقاب وعذاب وسبى وقتل وأسر وجوامعهم ومدارسهم و بيوتهم فى هدم وحرق وتخريب .

وفى اليوم العاشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانمائة حلت عساكر تيمور بأطراف دمشق وقبضوا على ثلاثة نوارس وجاءوا بهم الى تيمور ، فأمر بادخال اثنين منهما فى أسياخ وشواهما على النار كالغنم وأطلق الثالث فرجع وأخبر سلطان دمشق بذلك وسمعت العسكر بذلك ، فانقطعت قلوب العسكر ، وارتحل السلطان فرج إلى الديار المصرية هاربا ، وأما أهل دمشق فقد ركبوا الأسوار وأعلنوا بالجهاد فتراموا مع عسكر تيمور وقتلوا منهم ، وكانت مقاتلة هائلة ، وفى آخر النهار حضر اثنان من أصحاب تيمور ينادى أحدها بطلب الصلح ، وأن يحضر أحد ممن يعقل حتى يكلمه

الملك ، فوقع اختيار أهل دمشق على إرسال القاضى ابن مفلح الحنبلى فغاب ثم رجع وأخبر أنه اجتمع بتيمور وتلطف معه حتى قال له تيمور دمشق بلد الأنبياء وقد أعتقتها صدقة على أولادى وأخذ ابن مفلح يحل عزائم أهل البلد ، حتى صاروا فرقتين فرقة ترى ما يراه ابن مفلح من بذل الطاعة وهم الفقهاء ونحوهم ، وفرقة باقية على المحاربة وهم سواد الناس فباتوا تلك الليلة على ذلك ثم أصبحوا وقد غلب رأى ابن مفلح ، ومن عادة تيمور إذا أخذ بلدا صلحا أن يخرج إليه أهل البلد من كل نوع تسعة أشياء ، فطلب منهم تجهيز ذلك وهموا باخراجه من باب النصر فمنعهم نائب القلعة ، وهددهم باحراق البلد ، فأعرضوا عن ذلك وتدلوا من أعلى السور فباتوا فى مخيم تيمور ورجعوا لاستخراج الأموال ومعهم فرمان ومرسوم فيه تسعة أسطر يتضمن الأمان لأهل دمشق خاصة فقرىء ذلك على المنبر وفتحوا الباب الصغير وقعد أمير من أمراء تيمور ثم شرعوا فى جباية الأموال التى قرّرها عليهم وهى ألف ألف دينار وحملت اليه ، فلما وضعت بين يديه غضب وأمر أن يحمل اليه ألف الف تومان ، والتومان عشرة آلاف دينار ، فرجعوا يأخذون فى جباية الأموال فتزايد البلاء ، وفى أثناء الجباية حرقوا ما بين الجامع والقلعة بالنار ، وذلك نحو من ثلث البلد ، وجمعت الأموال التى قرّرها ثانيا ، وحضرت بين يديه فقال لابن مفلح وأصحابه هذه ثلاثة آلاف دينار ببلادنا ، وقد بقى عليكم سبعة آلاف ألف ألف أراكم عجزتم عن الاستخلاص ثم طلب منهم ما تركه العسكر من كل شىء ، ثم طلب جميع ما فى البلد من الدواب ، فكان عدتها نحو اثنى عشر ألفا ، ثم طلب جميع ما فيها من السلاح ، فلما انقضى ذلك كله أمر باستكتاب خطط دمشق ، وكتب بها أوراقا وفرّقها على أمرائه ، فحينئذ طمت الأمواج فنزل كل أمير فى خط وطلب سكان ذلك الخط ، فكان الرجل يطالب بالمال الثقيل الذى لا يقدر عليه ، فاذا امتنع عوقب بأنواع العذاب ثم تخرج نساؤه و بناته فيسوّطن بين يديه ، فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوما ، فلما علموا أنهم قد أتوا على ما فى البلد خرجوا منها ، وهجم عليهم بعد خروج الأمراء بقية عساكرهم كالجراد المنتشر فانتهبوا ما بقى وسبوا النساء والثياب والرجال وتركوا الأطفال وأطلقوا النار فى الجامع والبلد فاحترقت حتى صارت ترمى بشرر ، واستمرّ ذلك ثلاثة أيام حتى اندرست رسومها .

وفى ثالث شعبان ركب تيمور وسار نحو حلب راجعا إلى بلاده ، وكانت مدة اقامته بدمشق أربعة وسبعين يوما ثم بعد رحيله كل من بقى اعتدى عليهم أهل البادية والفلاحون وجرى عليهم منهم ما لا يجرى من تيمور .

وفى السابع عشر من شعبان وصل تيمور الى الجبول شرق حلب ، ولم يدخل حلب بل أمر المقيمين بها من جهته بتخريب القلعة واحراق المدينة وقتل كثير من الناس ففعلوا ونزلوا من القلعة قال ابن الشحنة فبقيت النار تضرم فى أرجائها ، و بعد ثلاثة أيام ارتحل عنا من كان بحلب من أصحاب تيمور ولم يبق أحد ولم يقدر منا أحد على الاقامة ببيته من النتن والوحشة ولا يمكن السلوك فى الأزقة من ذلك ، ثم عمرت حلب وتراجع الناس وجاءها أمير من السلطان .

وفى سنة سبع وثمانمائة كان هلاك تيمور بمدينة نزار وحملوه الى سمرقند ودفنوه بها جدّد الله عليه سحائب السخط الأبدى ما دام ملكه آمين . وكان عمره قد جاوز ثمانين سنة ومدة ملكه نحو ست وثلاثين سنة ، وتملك بعده حفيده خليل ، ومكث قليلا وهلك وتفرّق ملكهم بأيدى

المتغلبين

المتغلبين ، وتغلب على بغداد ملوك التركمان الى أن انتزعها منهم اسماعيل شاه سلطان العجم الآتى لنا ذكره بحول الله ثم انتزعتها منه الدولة العثمانية ، والبقاء لله وحده ، و بقى لتيمورعقب كان منهم السلاطين فى الهند .

من حوادث المائة التاسعة

الحريق الذى وقع فى المسجد الحرام ، وكان ذلك الحريق فى أواخر شوّال سنة ثمانمائة واثنتين فى مدّة سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق ، وكان الحريق من جهة الجانب الغربى ، واتصل منه بالسقف ، وعمّ الحريق الجانب الغربى و بعض الرواقين المقدمين من الجانب الشامى إلى محاذاة باب الباسطية بما كان من السقوف والأساطين ، وكانت السقوف كلها من خشب الساج .

قال النجم ابن فهد وتحدّث أهل المعرفة بأن هذا ينذر بحادث جليل يقع فى الناس ، وكان كذلك بظهور تيمور اه .

ومن حوادثها استيلاء البرتغال عَلَى مدينة سبتة

كان جنس البرتغال وهو المعروف بالبردقيز فى هذه السنين قد كثر بعد القلة ، واعتزّ بعد الذلة ، وظهر بعد الخمول ، وانتعش بعد الذبول ، فانتشر فى الأقطار ، وسما إلى تملك الأمصار ، فانتهى إلى طرف السودان بل وأطراف الصين وألحّ على سواحل المغرب الأقصى ، فاستولى فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة بعد محاصرته لها حصارا طويلا ، وسلطان المغرب يومئذ أبو سعيد عثمان المرينى ، وكان متفرغا لاستيفاء لذاته .

وذكر صاحب نشر المثانى فى كيفية استيلاء البرتغال على سبتة مانصه . قال رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعا وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين ، وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالا عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة ، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد ، وجاء أهله إلى سلطان فاس أبى سعيد مستصرخين له ، وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعال السود رجالا ونساء وولدانا ، فأنزلهم بملاح المسلمين ، ثم ردّهم إلى الفحص قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم حتى تفرّقوا فى البلاد والأمر لله وحده . قال وسمعت من بعضهم أن الذى جرّأ النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أمير سبتة على أن يفوض إليهم التصرف فى المرسى ، والاستبداد بغلتها و يبذلوا له خراجا معلوما فى كل سنة ، فكان حكم المرسى حينئذ لهم دون المسلمين ، ولو كان المسلمون هم الذين يلون حكم المرسى ماتركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون ما فيها ، ولما استولى البرتغال على سبتة اعتنى بها وحصنها ، واستمرت فى ملكهم مدّة تزيد على مائتين وخمسين سنة ، ثم ملكها منهم طاغية الاسبنيول فى سبيل مهادنة وشروط انعقدت بينهم بمدينة أشبونة فى حدود الثمانين وألف .

وفى سنة ثلاث وستين وثمانمائة استولى البرتغال على قصر مصمودة وهو الآن خراب .

ومن حوادثها رياسة اليهوديين عَلَى أهل فاس

كان السلطان عبدالحق المرينى لما نقم عليه أهل فاس ولى عليهم اليهوديين هارون وشويل : تأديبا لهم وتشفيا منهم ، فشرع اليهوديان فى أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال واعتز اليهود بالمدينـة ، وتحكموا فى الأشراف والفقهاء فمن دونهم ، وكان اليهودى هارون قد ولى على شرطته رجلا يقال له الحسين لا يألو جهدا فى العسف ، واستلاب الأموال ، واستمرّ الحال على ذلك والناس فى شدّة .

ثم إن اليهودى عمد إلى امرأة شريفة من أهل حومة البليـدة ، فقبض عليها ، والبليدة حومة بفاس ، فأنحى عليها بالضرب ، ولما ألهبتها السياط جعلت تتوسل برسول الله ﷺ ففى اليهودى ، وكاد يتميز غيظا من سماع ذكر الرسول ، وأمر بالابلاغ فى عقابها ، وسمع الناس ذلك فأعظموه ، وتمشت رجال فاس بعضهم إلى بعض ، فاجتمعوا عندخطيب القرويين الفقيه أبى فارس عبد العزيز ، وكانت له صلابة فى الحق ، وقالوا له ألا ترى إلى مانحن فيه من الذلة والصغار ، وتحكم اليهود فى المسـلمين والعبث بهم حتى بلغ حالهم إلى ماسمعت ، فأثر كلامهم فيه ، وللحين أغراهم بالفتك باليهود ، وخلع طاعة السلطان عبـد الحق المرينى ، وبيعة الشريف أبى عبد الله الحفيد ، فأجابوه إلى ذلك ، واستدعوا الشريف المذكور فبايعوه والتفت عليه خاصتهم وعامتهم ، ثم تقدم أبو فارس بهم إلى فاس الجديدة ، فصمدوا إلى حارة اليهود ، فقتلوهم واستلبوهم ، واصطلموا نعمتهم ، واقتسموا أموالهم ، وكان عبد الحق هذا هو آخر ملوك بنى مرين ، وتوفى قتيلا صبيحة يوم الجمعة سابع وعشرى رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة .

ومن حوادثها استيلاء البرتغال عَلَى طنجة

ثم فى سنة تسع وستين وثمانمائة استولى البرتغال على طنجة زحفوا إليها من سبتة فى ألوف من العساكر ، واستولوا عليها ، واستمرت بأيديهم أكثر من مائتين وخمسين سنة ، ثم بذلوها لطاغية الانجليز سنة أربع وسبعين وألف فى سبيل المهاداة والصهر الذى انعقد بينهما .

وفى سـنة ست وأربعين وثمانمائة كان الوباء العظيم بالمغرب هلك فيـه جمع من كبار العلماء والأعيان .

ومن حوادثها ما ذكره النبهانى فى حجة الله عَلَى العالمين

ونصه : ومن ذلك أنه وجد فى سنة سبع أو تسع وثمانمائة حبة عنب مكتوب عليها بخط بارع بلون أسود محمد . وفيـه ومن ذلك ما حكاه بعضهم أنه اصطاد سمكة مكتوبا على جنبها الأيمن : لا إله إلا الله ، وعلى جنبها الأيسر محمد رسول الله ، قال فلما رأيتها ألقيتها فى النهر احتراما لها .

وقال الدميرى فى حياة الحيوان حكى القزوينى فى عجائب المخلوقات عن عبدالرحمن بن هارون المغربى قال : ركبت بحر المغرب فوصلت إلى موضع يقال له البرطوم ، وكان معنا غلام صقلى معه صنارة فألقاها فى البحر فصاد بها سمكة نحو الشبر فنظرنا فاذا خلف أذنها اليمنى مكتوب لا إله إلا الله ، وفى قفاها محمد ، وخلف أذنها اليسرى رسول الله .

ومن

ومن حوادثها فتح القسطنطينية

وكان ذلك نهار الأربعاء لعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، والسبب فى ذلك أنه لما جلس السلطان مراد على تخت السلطنة العثمانية صار يغزو حتى استولى على معظم بلاد الكفار ، وسار إلى بلاد المورة ، وباقى الأقاليم المجاورة لها ، ورتب عليهم الخراج إلى أن توفى رحمه الله سنة خمس وخمسين وثمانمائة ، وعمره تسع وأربعون سنة ، ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة ، وكان ملكا صالحا جليلا يعتنى بشأن العلم والعلماء والمشايخ والعلماء ، مهد المسالك وأمن المسالك ، وأقام الشرع والدين ، وأذل الكفار والملحدين ، وأوصى ابنه محمدا قرب موته أن يهتم بفتح القسطنطينية ، ويوجه إليها جنوده إذا من الله عليه بتوليه الأمر ، فتسلطن بعد موته ، وولده هذا هو أعظم الملوك جهادا ، وأقواهم إقداما واجتهادا ، وهو الذى أسس ملك بنى عثمان ، وقنن لهم قوانين صارت كالطوق فى أجياد الزمان ، ولم يكن له همّ إلا فتح القسطنطينية فشرع فى مهماتها ومقدّماتها ، وهى من أعظم البلدان ، وأكبرها أهلا ، وأمتنها حصنا ، لأنها أحاط بها البحر من كل جهة إلا الطرف الغربى وهو طرف يسير ، وقد حصنوه بثلاثة أسوار وعدّة خنادق يجرى فيها ماء البحر ، مع ما فيها من المكاحل والمدافع ، فأظهر السلطان محمد مسالمة صاحب القسطنطينية ، وذلك فى سنة ست وخمسين وثمانمائة ، ثم طلب من طرف بلاده أرضا مقدار جلد ثور يهبها له ، فاستقلّ ذلك صاحب القسطنطينية ، وقل سبحان الله ما يفعل به فهو له ، فأرسل السلطان جماعة من البنائين والصناع ، فاجتازوا الخليج الداخل من البحر الأسود الى بحر الروم فقدوا جلد الثور قدا رقيقا ، فبسطوه على وجه الأرض على أضيق محلّ من فم الخليج فبنوا على القدر الذى أحاط به ذلك الجلد سورا منيعا شامخا فركب فيه المدافع والمكاحل الشهابية ، ثم بنى السلطان أيضا فى مقابلة ذلك السور سورا آخر فى طرف بلاده وشحنه بالآلات النارية حتى ضبط فم الخليج فلم يقدر يسلكه بعده شىء من مراكب البحر الأسود الى القسطنطينية والى بحر الروم ، ثم توجه عزمه الى مدينة أدرنة ، فأمر بانشاء دار السعادة الجديدة ، فشرعوا فى بنائها ، ثم أمر بسبك المدافع الكبار وعمل المكاحل لأجل فتح القسطنطينية فأكثروا منها ، ثم لما تكاثرت الآلات وتكاملت الأسباب المتعلقة بالقتال قدر الله أن انقضت مدة المسالمة التى كانت بينه وبين ملك القسطنطينية لأسباب جرت ، فأرسل ملك القسطنطينية يتهدده بكلام غليظ ، فكان ذلك سببا للاستعداد لقتاله ، وقوّة عزمه على ذلك ، ولما علم ملك القسطنطينية بعزمه على قتاله أرسل إلى ملوك الافرنج يستنجدهم ، ووعدهم بضم الكنيسة الرومية الشرقية ، الى الكنيسة الرومانية الغربية ، ففرح البابا بهذا الخبر وكان يتمناه وأرسل له نجدة من عساكر ملوك الافرنج فلم يجد ذلك نفعا إذ لم يكن للروم اهتمام بهذا الحرب لكراهيتهم ضم الكنيستين معا ، ومن ذلك الوقت جرت البغضاء فى قلوبهم لملك القسطنطينية ، وتخلوا عنه فى المدافعة والمحاماة ، فنهض السلطان محمد فى أوائل شهر جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة بجيش كبير يبلغ مائتين وستين ألفا بعزم صارم ، ورأى حازم ، فى أسعد أوقات الحركات ، متوكلا على فائض الخير والبركات ، نخيم على

القسطنطينية ونازلها من طرف الشمال ، وكان له أربعمائة غراب قد أنشأها هو وأبوه قبل ذلك التاريخ ، فأرساها عند السور الذى أنشأه على مقدار جلد الثور المرسوم ببغاز كيس ، فأمر بتلك الأغربة فسحبت إلى البرّ ، بعد أن جعلت تحتها دواليب تجرى عليها كالعجلة ، وشحنها بالرجال والأبطال ، ثم أمر بنشر قلاعها فنشرت فى ريح شديدة موافقة ، فساروا فى البرّ على هذه الهيئة حتى وصلوا الى الخليج الواقع شمالى البلد من طرف مدينة غلطة ، فامتلأ الخليج من تلك الأغربة ثم قرّبوا بعضها من بعض ور بطوها بالسلاسل فسارت جسرا ممدودا ، ومعبرا لطيفا ، وكان أهل البلد آمنين من هذه الجهة ولم يحصنوها وانما كان خوفهم من جهة البر ، فكانوا حصنوها وغفلوا عن هذه الجهة لأمر يريده الله تعالى، فشرع المسلمون فى الحصار والقتال من جهة البر والبحر مدّة إحدى وخمسين يوما حتى أعيا المسلمين أمرها ، وما زالوا مصابرين الحصار والقتال الى أن دخلوها وتقاتلوا بداخلها قتالا شديدا الى أن قتل ملك الروم فى المعركة وقتل معه خلق كثير ، واستولى المسلمون على جميع ما فيها ، وكان السلطان محمد أرسل وزيره أحمد باشا قبل هذا التاريخ الى العارف بالله الشيخ آق شمس الدين ، والى العارف بالله الشيخ آق بيق يدعوهما للجهاد والحضور معه فى فتح القسطنطينية فحضرا ، و بشر الشيخ شمس الدين الوزير المذكور بالنصر ، وقال ستفتح ان شاء الله تعالى على يد المسلمين فى هذا العام ، وأنهم سيدخلونها من الموضع الفلانى فى اليوم الفلانى من هذا العام وقت الضحوة الكبرى ، وأنت تكون حينئذ واقفا عند السلطان محمد ، فبشر الوزير السلطان بما بشر به الشيخ من خبر الفتح ، فلما كان ذلك الوقت الموعود به ولم تفتح المدينة حصل للوزير خوف شديد من جهة السلطان، فذهب الى الشيخ فنعه التلامذة من الدخول إليه لأنه أوصاهم أن لايدخلواعليه أحدا فرفع الوزير أطناب الخيمة فنظر فاذا الشيخ ساجد على التراب ورأسه مكشوف وهو يتضرع ويبكى ، فما رفع الوزير رأسه من أطناب الخيمة إلا وقد قام الشيخ على رجليه وكبر وقال : الحمد للهالذى منحنا فتح هذه المدينة قال الوزير فنظرت إلى جانب المدينة فاذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ، ففتح الله ببركة دعائه فى ذلك الوقت الذى كان أشار به ، وكانت دعوته تخرق السبع الطباق ، فلما دخل السلطان محمد خان المدينة نظر الى جانبه فاذا بالوزير واقف عنده ، فقال هذا ما أخبر به الشيخ ، وقال السلطان ما فرحى بهذا الفتح ، وانما فرحى بوجود مثل هذا الشيخ فى زمانى .

ولما دخل السلطان محمد المدينة سارع بالتوجه الى كنيستها العظمى فدخلها وطهرها من خبائث الكفر وصلى فيها وجعلها مسجدا جامعا للمسلمين ، وعين لها أوقافا ومرتبات .

ثم ان السلطان محمد التمس من الشيخ شمس الدين أن يريه موضع قبر أبى أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه فقال الشيخ إنى شاهدت فى موضع نورا لعلّ قبره هناك ، فجاء اليه وتوجه زمانا ثم قال اجتمعت مع روحه ، فهنأنى بهذا الفتح وقال شكر الله سعيكم الذى خلصتمونى به من ظلمة الكفر فأخبر السلطان بذلك فحضر بنفسه الى هناك وقال التمس منا يا مولانا الشيخ أن ترينى علامة أراها بعينى و يطمئن بذلك قلبى ، فتوجه الشيخ ساعة ثم قال احفروا فى هذا الموضع وهو من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين يظهر لكم رخام عليه خط عبرانى ، فلما حفروا ظهر رخام عليه

خط عبرانى، فقرأه من يعرفه وفسره، فاذا هو قبر أبى أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه فغلب على السلطان محمد حال حتى كاد يسقط، لولا أن أمسكوه، ثم أمر ببناء قبة عليه.

وقد روى الامام أحمد باسناد حسن فى مسنده والحاكم عن بشر الغنوى لتفتحنّ (بالبناء للمفعول) القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش جيشها. وهذا الحديث من معجزات النبى ﷺ وعلم من أعلام نبوّته، لأن فيه الاخبار بالغيب، ووقع كما أخبر ﷺ وهو صادق على السلطان محمد خان هذا، وعلى جيشه.

وإن كان الغزو إلى القسطنطينية وقع فى زمن الصحابة ومن بعدهم، وافتتحوا طرفا منها فى خلافة معاوية رضى الله عنه فى الغزوة التى استشهد فيها أبو أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه ثم استرجع الروم الطرف الذى افتتح فى ذلك الزمان، فالفتح التام إنما هو هذا الذى كان فى زمن السلطان محمد الفاتح، ففى الحديث منقبة عظيمة له ☆ توفى السلطان هذا المذكور ليلة الجمعة خامس عشر ربيع الأوّل من سنة ست وثمانين وثمانمائة، وعمره إحدى وخمسون سنة، ومدّة ملكه استقلالا بعد وفاة أبيه إحدى وثلاثون سنة وشهران، وكان ملكا جليلا يعجز الواصفون عن مقدار فضائله ومحاسنه، وكانت همته لا تكلّ، ولا تعجز، ولا تفتر عن الفتوحات رحمه الله تعالى ورضى عنه.

ومن حوادث المائة التاسعة

استيلاء طاغية الاسبنيول على غرناطة وسائر الأندلس، وانقراض كلمة الاسلام منها، والسبب فى ذلك أنه كانت دولة بنى الأحمر فى هذه المدّة متماسكة، والفتنة بين أعياصها متشابكة، والعدوّ فيما بين ذلك يخادعهم عما بأيديهم، ويسالمهم تارة ويحاربهم أخرى إلى أن كانت دولة السلطان أبى الحسن بن سعد، فنازعه أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد، وعظم الخطب، واشتدت الفتن بينهما، وشرق المسلمون بداء الخلاف الواقع بين هذين الأخوين وتكالب العدوّ عليهم، ووجد السبيل إلى تفريق كلمتهم، والتمكن من فسخ عهدهم وذمّتهم، وذلك أعوام الثمانين وثمانمائة ولما كان اليوم الثانى والعشرون من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدوّ بمحلاته إلى مرج غرناطة بعد ما استولى على مالقة، وعلى حصون كثيرة، وأفسد الزرع، ودوّخ الأرض وهدم القرى، وأمر ببناء موضع بالسور والحفير فأحكمه، وصار يضيق على غرناطة كل يوم، ودام القتال سبعة أشهر، واشتدّ الحصار بالمسلمين إلى أن تمكن فصل الشتاء، وكلب البرد، ونزل الثلج، فانسدّ باب المرافق، وانقطع الجالب، وقلّ الطعام، واشتدّ الغلاء، وعظم البلاء، واستولى العدوّ على أكثر الأماكن خارج البلد، ومنع المسلمين من الحرث والسبب، وضاق الحال، وبان الاختلال، وعظم الخطب، وذلك أوّل سنة سبع وتسعين وثمانمائة، وطمع العدوّ فى الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب والقتال، ففرّ منها ناس كثيرون من الجوع ثم اشتدّ الأمر فى شهر صفر من السنة المذكورة، وقلّ الطعام، وتفاقم الخطب، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم كأبى عبد الله المواق شارح المختصر وغيره، وقالوا انظروا لأنفسكم وتكلموا مع سلطانكم، فأحضر السلطان أبو عبد الله أهل دولته وأرباب مشورته، وتكلموا فى هذا الأمر إلى أن

اتفق رأيهم على إسلام البلد له بعد رضاه بمطالب وشروط فقبل العدوّ تلك الشروط كلها ، ودخلها فى ثانى ربيع الأوّل من السنة أعنى سنة سبع وتسعين وثمانمائة ، وما دخلوها حتى استوثق من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنا خوف الغدر ، وكانت الشروط سبعا وستين شرطا ، منها تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال ، وابقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعته ، وأن تبقى المساجد كما كانت ، والأوقاف كذلك ، وأن لايدخل النصارى دار مسلم ، ولا يغصبوا أحدا،وأن لايولى على المسلمين نصرانى ، أو يهودى ، وأن لا يجبر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين ، وآخر من النصارى ، فان أبى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب ، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصرانى للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ، ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه وماله ، ولا يجعل علامة ، كما يجعل اليهود ، ولا يمنع مؤذن ، ولا صائم ، ولا مصل ، ولا غيره من أمور دينه الى غير ذلك ، ثم ان النصارى بعد ذلك نكثوا العهد ، ونقضوا الشروط عروة عروة الى أن آل الحال لجلهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها عليهم،أنهم قالوا إن القسيسين كتبوا على جميع من أسلم من النصارى أن يرجع قهرا لدينه ففعلوا ذلك ، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوّة ، ثم تعدوا ذلك الى أمر آخر ، وهو أن يقولوا للرجل المسلم إن جدّك كان نصرانيا فأسلم فترجع أنت نصرانيا ، ولما تفاحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام فقتلوهم ، وهذا كان السبب الأعظم فى التنصر ، قالوا لأن الحكم خرج من عند السلطان أن من قام على الحاكم فليس الا الموت الا أن يتنصر فينجو من الموت ، وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى ، فشدد النصارى فى البحث عنهم حتى إنهم أحرقوا كثيرا منهم بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا فلم يقيض الله تعالى لهم ناصرا إلى أن كان إخراج النصارى إياهم جملة أعوام سبعة عشر وألف بعد أن ساكنوهم بغرناطة وأعمالها نحوا من مائة وعشرين سنة كانوا فيها تحت ذمّة النصارى كما رأيت ، والأمر لله وحده ، ولما أجلاهم العدوّ عن الأندلس خرجت ألوف منهم قاصدة فاس ، وألوف أخر قاصدة تلمسان ووهران ، وخرج جمهورهم بتونس ، فتسلط عليهم فى الطرقات الأعراب ، ومن لا يخشى الله تعالى من الأوباش ونهبوا أموالهم ، وانقضى أمر الأندلس وعادت نصرانية كما كانت أوّل مرة ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

ومن حوادثها ثورة عمرو بن سليمان السياف

هذا الرجل هو عمرو بن سليمان الشيظمى المعروف بالسياف ، وكان ابتداء أمره أنه كان من تلامذة الشيخ أبى عبد الله محمد بن سليمان الجزولى صاحب دلائل الخيرات ، ولما مات الشيخ

المذكور رحمه الله سنة تسعين وثمانمائة ثار عمرو المذكور مظهر الطلب بثأر الشيخ والانتقام من الذين سموه إذ كان سمه بعض فقهاء عصره ، فتتبعهم حتى قتلهم ، ثم صار يدعو الناس إلى إقامة الصلاة ويقاتلهم عليها ، فانتصر عليهم ، وشاع ذكره ، وتمكن ناموسه ، ثم تجاوز ذلك إلى أن صار يدعو الناس إلى نفسه ، ويقتل المنكرين عليه وعلى شيخه وأصحابه ، ثم جعل يتفوّه بالمغيبات ويزعم أنه مأذون ، وربما ادّعى النبوّة ، وكان قد أخرج شلو الشيخ الجزولى من قبره ، وجعله فى تابوت ، وصار يقدّمه بين يديه فى حروبه كتابوت بنى إسرائيل فينتصر على من خالفه ، وقيل إنه لم يدفنه ، وإنما أخذه بعد موته فكفنه وجعله فى التابوت ، وجمع الجموع ، وقاد الجيوش ، وسفك الدماء ، واستمرّت فتنته فى الناس عشرين سنة ، وكان عمرو المذكور إذا رجع بالشيخ من حربه وضعه فى روضة عنده يسميها الرباط ، فإذا جنه الليل أطاف الحرس بالروضة يحرسون التابوت من السراق ، ويوقد عليه كل ليلة فتيلة عظيمة فى مقدار الثوب مغموسة فى نحو مدّين من الزيت ليقوى الضوء وينتشر ويبلغ من كل الجهات الى مسافة بعيدة فتنكشف الطرق عمن يأتى عليها كل ذلك مخافة أن يؤخذ منه شلو الشيخ رضى الله عنه فينتصر به عليه .

ويقال إن ثورة عمرو المذكور وفتنته كانت أثرا من آثار دعوات الشيخ الجزولى رحمه الله ، فقد ذكر تلامذته كالشيخ التباع وغيره أن الشيخ الجزولى خرج عليهم من آخر الليلة التى قتل فى صبيحتها فقالوا له يا سيدى الناس يزعمون أنك الفاطمى المنتظر ، فقال ما يبحثون إلا عمن يقطع رقابهم ، الله يسلط عليهم من يقطع رقابهم ، وكرّر ذلك مرارا ، فكانوا يرون أن أثر دعوته ظهر فى عمرو السياف والله أعلم ، وقتل عمرو المذكور سنة تسعين وثمانمائة .

ومن حوادثها استيلاء البرتغال عَلَى سواحل السوس

لما علم طاغية البرتغال أن مرسى آكادير جيدة لمناعتها وكثرة تجارتها بسبب مجاورتها لقبائل السوس أراد الاستيلاء عليها ، وكان يظن أن ذلك لايتأتى له لحصانتها وكثرة القبائل المجاورين لها ثم خاطر وبعث إليها جيشا ، فاستولوا عليها على حين غفلة من أهلها وحصنوها ، وبنوا بها دورا وبرجا جيدا ، وأخذوا فى التجارة بها مع أهل السوس ، وكثرت أرباحهم ، ثم لما ضعفت شوكتهم خرجوا عنها وعن آسفى وآزمور ، وكان استيلاؤهم على آكادير فى حدود سنة خمس وسبعين وثمانمائة ، وارتجعه منهم السلطان سيدى محمد الشيخ السعدى بعد أن قاموا به اثنتين وسبعين سنة ، وكان فتحه إياه فى حدود سبع وأربعين وتسعمائة ، وكان له بخت عظيم فى الجهاد .

ومن حوادث المائة العاشرة

ظهور إسماعيل شاه سلطان العجم ، وكان ذلك سنة تسعمائة وخمسة ، وقد استولى على ملوك العجم ، وانتشر أمره ، وفتك فى البلاد ، وسفك دماء العباد ، وأظهر مذهب الروافض والالحاد وغير اعتقاد كثير من الخلق ، وصار يدعو الناس إلى الانحلال والفساد ، بعد الصلاح والسداد ، وأزال من قلوبهم حسن الاعتقاد ، والله تعالى يفعل فى ملكه ما أراد ، وظهر من أتباعه شيطان أهلك الحرث والنسل ، وعمّ بالفساد والقتل ، وقويت شوكته ، وعظم على المسلمين فتنته ، فأرسل

السلطان العثمانى بايزيد الثانى جيشا كثيفا لقتاله ، فقتل وانهزم من كان معه ، وذلك سنة تسعمائة وخمس عشرة .

وكان إسماعيل شاه المذكور من ذرية الشيخ صفىّ الدين الأردبيلى ، وكانوا من أهل السنة والجماعة ومن أهل الولاية والصلاح ، ولما تمكن أبوه من المشيخة ، وكثرت أتباعه ومريدوه ، واشتهر أمره صار يجاهد الكفار بمن معه من المريدين والأتباع ، ثم صار يدعو الناس إلى نفسه وتغلب على عدّة مدن إلى أن قتل ، ثم اجتمع خلق كثير على ولده إسماعيل هذا بعد ماخرج من الجسر ، وكانوا يعتقدون فيه أنه هو الوارث لسرّ أبيه ، فقصد بجموعه الأخذ بثار أبيه ، وكان قد رفض مذهب آبائه وأهل بيته ، وتمذهب بمذهب الرافضة تعلم ذلك وهو صغير حين كان محبوسا ، فقاتل بمن اجتمع معه سلطان شروان ، وكان كلما سار منزلا كثرت جنوده ، فنازلوا شروان شاه وقاتلوه ، فهزموه ثم أسروه ، فأتوا به إلى إسماعيل شاه ، فأمرهم أن يضعوه فى قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه ، ففعلوا كما أمرهم وأكلوه ، ثم قاتل بمن معه من الجند ملوك العراق وخراسان الذين كانوا متغلبين على الممالك فى تلك الأزمان من التركمان وغيرهم فما كان يهزم له جيش ، ولا يتوجه إلى بلاد إلا ويفتحها ، ويقتل جميع من فيها ، وينهب أموالهم إلى أن ملك تبريز ، وأذربيجان ، وبغداد ، وعراق العجم ، وعراق العرب ، وخراسان ، وتعاظم أمره حتى كان يدعى الربوبية ، وكان ظالما غشوما أفنى وأباد من الأمم بالقتل مالا يحصى من العدد ، وكان عسكره يسجدون له إذا خرج إليهم . قال العلامة القطبى فى تاريخه قتل خلقا لايحصون ينيفون على ألف ألف نفس بحيث لايعهد فى الاسلام ، ولا فى الجاهلية من القتلى ، ولا فى الأمم السابقة مثل ما قتله إسماعيل شاه ، وقتل من أعاظم العلماء خلقا كثيرا ، ولم يبق أحدا من علماء أهل السنة الذين كانوا فى بلاد العجم ، وأحرق كتبهم ، وكان كلما مرّ بقبر من قبور العلماء والمشايخ يأمر بنبشه ، وإخراج عظامه ، ثم يحرقها ، وإذا قتل أميرا من الأمراء أباح زوجته وأمواله لشخص آخر .

ومن جملة خرافاته المضحكة الدالة على سخافة عقله أنه جعل كلبا من كلاب الصيد أميرا ، ورتب له ترتيب الأمراء من الخدم والفراش وغيرها ، وجعل له سلاسل من ذهب ومرتبة ومستندة يستند إليها كالأمراء .

ومن تكبره وطغيانه أنه أسقط مرّة من يده منديلا إلى البحر وفعل ذلك قصدا ، وكان فى جبل شاهق مشرف على البحر المذكور ، فصار عسكره وأتباعه وخدمه يلقون أنفسهم فى البحر خلف المنديل ليأتوا به تقرّبا إليه أو ليلتمسوا بركة المنديل الذى مسته يده حتى أحصى من رمى نفسه منهم ، فكانوا نحو ألف صاروا يتخبطون فى البحر حتى غرقوا ، وكان جلهم يعتقدون فيه الألوهية إلى غير ذلك مما ذكروا من حمقه .

ولما كانت سنة عشرين وتسعمائة توجه السلطان سليم العثمانى من مقرّ سلطنته بعسكر كثيف نحو الشرق لقتال إسماعيل شاه المذكور ، فالتقيا فى مكان يقال جالدران ، وكان جيش السلطان سليم العثمانى مائة وثمانين ألفا ، ولما التقى الجيشان اشتدّ القتال بينهما ، ثم انهزم عسكر إسماعيل شاه

هزيمة

هزيمة قبيحة ، واستولى عسكر السلطان سليم على خزائنهم وأموالهم ، وأكثر القتل فيهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وفرّ إسماعيل شاه ، وتحصن بشوامخ الجبال ، واستولى السلطان سليم على خزائنه وأمواله وخيمه ونسائه ، ومنع العسكر من المسير خلف المنهزمين ، ودخل السلطان سليم مدينة تبريز ، وهى كرسى مملكة العجم وصلى فيها الجمعة ، وخطب باسمه ، والسلطان سليم بن بايزيد الثانى هذا كان قوىّ البطش ، عظيم القتل ، كثير الفحص عن أخبار الناس ، شديد التوجه إلى أهل النجدة والبأس ، عظيم التجسس عن أخبار الممالك ، عارفا بمسالك الطرق والمسالك ، وكان يغير زيه ولباسه ، ويتجسس فى الليل والنهار ، و يطلع على الأخبار ، ويستكشف الأسرار ، وله عدّة أصحاب يدورون فى البلد والجمعيات والمحافل ، ومهما سمعوا بشىء ذكروه له فى مجلس المصاحبة فيعمل بمقتضى مايسمعه بعد الوثوق منهم ، وكان مما أكرمه الله به أنه ماتوجه إلى بلاد إلا فتحها وما انهزم له جيش قط ، وله فى أعمال البرّ مناقب كثيرة ☆ توفى رحمه الله ورضى عنه سنة ست وعشرين وتسعمائة تاسع شوّال وعمره أربع وخمسون سنة ، ومدّة ملكه تسعة أعوام وثمانية أشهر ، ومع قصر هذه المدّة كانت له فيها فتوحات كثيرة لم تكن قبل لأحد من آل عثمان .

ومن حوادثها

استيلاء البرتغال على ساحل البريجة ، و بناؤهم المدينة الجديدة ، وكان ذلك سنة سبع وتسعمائة بعث سلطان البرتغال عمارة فى البحر للاستيلاء على بعض ثغور المغرب فألجأهم هيجان البحر وموجه الى ساحل البريجة فيما بين آزمور وتيط ، وكانت البريجة بناء متخذا هنالك للحراسة ، فأرسى البرتغاليون على الساحل المذكور ، ونزلت طائفة منهم الى البر فتطوّفوا بالبريجة وما حولها وأعجبهم المكان فعزموا على المقام به ، واتفق رأيهم أن يتركوا جماعة هنالك يحفظون المحلّ ويرجع باقيهم الى ملكهم ليستأذنوه فيما عزموا عليه فتركوا اثنى عشر رجلا بالبريجة بعد أن حصنوها وشحنوها بما يحتاجون اليه من عدّة وقوت ، ورجع الباقون الى الملك فأخبروه بشأنهم فأذن لهم و بعث معهم جماعة من البنائين والعملة ليبنوا لهم مايتحصنون به ، فقدموا على اخوانهم وشرعوا فى ادارة سور على قطعة من الأرض مربع على كل ربع منه برج وثيق ، ودأبوا ليلا ونهارا فلم تمض إلا مدّة يسيرة حتى فرغوا منه ، وكان بنو وطاس فى هذه المدّة مشغولين عن البرتغاليين بما هم فيه من كثرة الثور والقتال .

ومن حوادث المائة العاشرة

استيلاء البرتغال على ثغر آسفى كان ملك البرتغال قد تشوّف للاستيلاء على آسفى ، وكان أهلها فيهم شجاعة أكثر من غيرهم من أهل الثغور ، فزحف اليها هو وجنوده ، وجرى بينهم وبين أهلها قتال شديد هلك فيه عدد كبير من البرتغال وعظم عليهم أن تمتنع منهم بلدة صغيرة ليس لها حامية سوى أهلها ، ثم طاولوها بالحصار حتى قلّ القوت عند أهل آسفى وأشرفوا على الهلاك ، فحينئذ شارطوا البرتغال وأسلموها إليهم على الأمان فاستولوا عليها وحصنوها غاية لتوقعهم كرّة المسلمين

عليهم فكان كذلك ، فانهم زحفوا اليهم بعد ثلاث سنين من أخذها ، ووقع بينهم و بين البرتغال حرب شديدة كانت صفوف المسلمين تترادف فيها كأمواج البحر ، وقتل قوّاد عسكر البرتغال وكبارهم ، ثم قدمت عليهم من مادرة عسكر وزاد ، فقويت نفوس البرتغال ، وارتحل المسلمون عنها بعد أن أشرفوا على الفتح وتبعهم البرتغال لينتهزوا فيهم الفرصة ، فكرّ المسلمون عليهم واستلبوهم ،وهذا أوّل حصار كان على آسفى ، ثم بعدسنين قلائل زحف المسلمون إليها أيضا ، ومعهم عدد من المدافع ، وقاتلوا قتالا شديدا ، وزحفوا إلى السور ، فهدموا منه ثلمة كبيرة ، واشتد القتال عليها بما خرج عن العادة ، ثم رحل المسلمون من غير فتح وأعرضوا عنها مدة لم يحدثوا أنفسهم بقتال ، وعمرت آسفى بالنصارى ، وانتقل إليها التجار وبنوا بها الدور ، وكانوا يبغون منها الحب ويحملونه فى السفن إلى بلادهم ، ثم عادت للمسلمين بعد نحو ثلاث وعشرين سنة .

وذكر صاحب مرآة المحاسن أن صاحب آسفى أخرج الشيخ أبا عبد الله محمد بن سليمان الجزولى صاحب دلائل الخيرات منها ، فدعا عليهم فسئل منه العفو ، فقال بعد أربعين سنة ، فأخذها النصارى بعدها اه وهذا يقتضى أن استيلاءهم عليها كان فى حدود عشر وتسعمائة ، لأن وفاة الشيخ الجزولى رحمه الله كانت فى سنة سبعين وثمانمائة كما مرّ .

وفى سنة أربع عشرة وتسعمائة زحف السلطان أبو عبد الله محمد الوطاسى إلى آصيلا وحاصرها وطال قتاله عليها ، ثم اقتحمها المسلمون عليهم ، واقتتلوا فى وسط الأزقة والأسواق يومين ، ثم جاء المدد إلى البرتغال من طنجة وجبل طارق فقويت نفوسهم ، وخرج المسلمون عنهم لكن ماخرجوا حتى هدموها وأحرقوها ، ولم يتركوا لهم بها إلا الخراب ، ثم جدّ البرتغال فى إصلاحها ، وأقاموا بها برهة من الدهر إلى أن رجعت للمسلمين .

ومن حوادثها استيلاء البرتغال عَلَى ثغور آزمور

بعث طاغية البرتغال سنة أربع عشرة وتسعمائة إلى ثغور آزمور [شكاردره] فيها عشرون ألفا من العسكر ، وألفان وسبعمائة خيالة ، فانتهوا إلى آزمور وحاصروها بحرا ، وزحفوا إليها من الجديدة برًّا ، ووقع حرب شديدة بينهم و بين أهل آزمور وأهل البلدية ، ثم انهزم المسلمون وخرجوا من باب تركه لهم البرتغال قصدا لأنهم قالوا فى المثل : الفار منك فى الحرب اجعل له قنطرة من فضة يعبر عليها ، وكان نزول النصارى بآزمور سنة أربع عشرة وتسعمائة .

وفى أوائل محرم من هذه السنة أخذ الاسبنيول مدينة وهران ، ونكبوا أهلها ، فما منهم إلا أسير أو قتيل إلى أن أعادها الله للاسلام على يد الأتراك فى حدود العشرين ومائة ألف .

وفى سنة سبع وثمانين وتسعمائة أصاب الناس فى بعض فصولها سعال كثير قلّ من سلم منه ، وكان الرجل لايزال يسعل إلى أن تفيض نفسه ، فسمى العامة تلك السنة سنة كحيكحه .

ومن حوادثها استيلاء البرتغال عَلَى ثغور المعمورة

المعمورة من بناء يعقوب المنصور الموحدى ، ولما بلغ الطاغية أن مدينة المعمورة جيدة ، و بلادها نفاعة بعث إليها طائفة من جنده ، فوصلوا إلى ساحلها ، ونزلوا فى البرّ المقابل لها ، و بنوا هناك

برجا

برجا لحصارها ، ثم أردفهم ملكهم بعمارة تشتمل على مائتى مركب مشحونة بثمانية آلاف مقاتل وكان خروج هذه العمارة من مدينة أشبونة فى اليوم الثالث والعشرين من يونيه سنة إحدى وعشرين وتسعمائة هجرية وحاصروها ، وألحوا عليها بالقتال أياما ، وبلغ الخبر بذلك إلى السلطان أبى عبدالله الوطاسى ، فبعث أخاه الناصر صريخا فى جيش كثيف ، فوصل إليها بعد مضىّ شهرين وقاتل البرتغال قتالا شديدا ، وهزمهم هزيمة قبيحة ، ثم كانت لهم الكرّة على المسلمين فهزموهم واستولوا على المعمورة ، وثبت قدمهم بها ، وحصنوها بالسور الموجود بها الآن ، واستمرّوا بها نحو خمس سنين ، ثم استرجعها المسلمون منهم فى دولة السلطان المذكور .

وفى السنة التى استولوا على المعمورة رجعوا إلى موضع مدينة آنفى ، فشرعوا فى بنائها ، ومن يومئذ سميت الدار البيضاء ، وبقوا بها مدّة طويلة إلى زمن السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل رحمه الله .

وفى سنة ست وعشرين وتسعمائة انحبس المطر بفاس والمغرب ، واضطرّ الناس إلى استخراج الماء بالسواقى من الأودية والأنهار لسقى زروعهم وثمارهم .

وفى سنة سبع وعشرين من بعدها كان الغلاء والجوع الكبير الذى صار تاريخا فى الناس مدّة .

وفى سنة ثمان وعشرين بعدها كان الوباء بالمغرب .

ومن حوادثها امتحان أرباب الزوايا والمنتسبين

لما كانت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة أمر السلطان أبو عبد الله محمد المعروف بالشيخ السعدى بامتحان أرباب الزوايا أو المتصدّرين للمشيخة خوفا على ملكه منهم لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند إشاراتهم والتعبد بما يتأوّلونه من عباراتهم ، فامتحن جماعة منهم كالشيخ أبى محمد الكوش ، فأخلى زاويته بمراكش ، وأمر برحيله إلى فاس ، ولما امتحن زوايا المغرب قيل لأبى علىّ المصباحى دفين الدعادع من عمل القصر ألا تخشى من هذا السلطان ؟ فقال إنما الخشية من الله ، ومع هذا فالماء والقبلة لايقدر أحد على نزعهما ، والباقى متروك لمن يطلبه .

وكان هذا السلطان له سعد عظيم فى الجهاد ، ويد بيضاء فى الاسلام ، فتح حصن النصارى بالسوس بعد أن أقاموا فيه اثنتين وتسعين سنة ، وكان سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، وفتح آسفى سنة ثمان وأربعين بعدها ، وهو أوّل من اختط مرسى آكادير بالسوس الأقصى سنة سبع وأربعين وتسعمائة لما أجلى النصارى عنها .

ومن حوادثها حصار الجديدة

تقدّم لنا أن البرتغال هو البانى لمدينة الجديدة ، ولما كانت سنة تسع وستين وتسعمائة جهز إليها السلطان الغالب بالله السعدى جيشا كثيفا ، واستنفر لها قبائل الحوز ، وعقد عليهم لابنه

محمد المعروف بالمسلوخ قتيل وادى المخازن ، وكان معه من خيل المسلمين نحو ثلاثين ألفا ، والرماة ضعف ذلك ، ومعه عشرون مدفعا ، عشرة كبيرة ، وعشرة صغيرة ، وحاصرها حصارا شديدا ، وحاربها حربا هائلة ، وكانت الجديدة يومئذ فى غاية الحصانة والمناعة ، فلم يتمكن المسلمون من النصارى على ما ينبغى ، ثم صنع النصارى للمسلمين عندها مينا البارود مرتين ، ففى الأولى كانت المينا تسعة براميل نفط منها سبعة ، فأهلكت خلقا من المسلمين والنصارى ، وفى الثانية كانت تسعة عشر برميلا أمام السور ، فنفطت بالمسلمين ، وأتلفت منهم عددا ، فبعضهم طار فى الهواء ، وبعضهم ارتطم تحت التراب ، وكانت رماة المسلمين ينالون منهم نيلا عظيما ، واعترفوا لهم بجودة الرمى بحيث كانوا كلما ظهر منهم عسكرى على السور اختطفته رصاصة فى أخير موضع من بدنه من الرأس أو الصدر .

ولقد قدم فى بعض الأيام من أشبونة كبير من كبراء جندهم ، فقال لهم أرونى كيف قتالكم لهؤلاء المسلمين وكيف مصافتكم لهم ، فما ظهر برأسه على السور ليرى محلة المسلمين حتى أصابته رصاصة نثرت دماغه كأن صاحبها كان ينتظره ، وكان ذلك بنفس نزوله من البحر ، ولما لم يظفر المسلمون بهم ارتحلوا عنهم بعد أن حاصروها أربعة وستين يوما من السنة المذكورة .

ومن حوادثها أيضاً

احتيال النصارى بمكيدة البارود بجامع المنصور من مراكش

كان بقصبة مراكش جماعة من أسارى النصارى من أيام ابى العباس الأعرج ، وأخيه أبى عبد الله الشيخ ، فرأوا الجمّ الغفير من أعيان المسلمين وأهل الدولة يحضرون كل جمعة للصلاة مع السلطان بجامع المنصور من القصبة المذكورة ، فحدثتهم نفسهم بأن يصنعوا مكيدة يهلكون بها السلطان ومن معه ، فحفروا فى خفية تحت الجامع المذكور حفرة ملئوها من البارود ووضعوا فيها فتيلا تسرى فيه النار على مهل كى ينقلب الجامع بأهله وقت الصلاة ، فنفطت المينا ، وانهدّت بها القبة الواسعة من الجامع المذكور ، وانشقّ مناره شقا كبيرا ، وكفى الله المسلمين شرّ تلك المكيدة ، ولم يتمكن لهم الحال على وفق ما أرادوا ، وكان ذلك سنة إحدى وثمانين وتسعمائة .

ومن حوادثها العظيمة غزوة وادى المخازن

كان من خبر هذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبا عبد الله المتوكل محمد بن عبد الله السعدى لما فرّ من مراكش إلى السوس ومنها إلى طنجة قصد طاغية البرتغال وشكا إليه ما ناله من عمه أبى مروان المعتصم بالله ، وطلب منه الاعانة عليه كى يسترجع ملكه وينتزع منه حقه ، فلبى دعوته وشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ماوراء ذلك ، فقبل أبو عبد الله ذلك والتزمه وفى الحين جمع الطاغية جموعه ، واستوعب كبراء جيشه ووجوه دولته ، وعزم على الخروج إلى بلاد الاسلام ، فخرج من طنجة فى جيش عدده مائة ألف وخمسة وعشرون ألفا ، وكان مع محمد ابن عبد الله المتوكل نحو الثلاثمائة من أصحابه ، وكان عدد الانقاض التى يجرونها مائتين ،

وقصدوا هلاك المغرب ، وحصد المسلمين ، فعظم ذلك على الناس ، وامتلأت صدورهم رعبا ، وقلوبهم كربا ، وبلغت القلوب الحناجر ، واتقدت بها نيران الهواجر ، وكان خروج محمد بن عبدالله بجيش البرتغال من طنجة فى ربيع الثانى سنة ست وثمانين وتسعمائة ، ولما خرجوا إلى بلاد الاسلام ضربوا محلاتهم من مسيرة يوم من مدينة القصر ، فعاين أهل القصر الهلكة لقرب العدوّ منهم وقوّته التى لاطاقة لهم بها ، فلم يبق لهم تدبير إلا الفرار والتحصن بالجبال ، فقال الشيخ أبو المحاسن سيدى يوسف الفاسى رضى الله عنه ، وكان إذ ذاك بالقصر حيا لرجل من أصحابه ناد فى الناس أن الزموا بلادكم ودوركم فان عظيم النصارى مسجون حيث هو حتى يجيء السلطان من مراكش ، وأن النصارى غنيمة للمسلمين ، ومن شاء فليعط خمسين أوقية فى النصرانى يشير إلى مبلغ قيمة النصرانى فى الغنيمة ، فما انتقل النصارى من مكانهم ذلك أكثر من شهر حتى قدم السلطان أبو مروان ، وكان مريضا ، ثم كتب إلى الطاغية ، وذلك بعد ما وصل إلى القصر إنى رحلت إليك ست عشرة مرحلة أما ترحل إلىّ واحدة ، فرحل الطاغية ، ونزل على وادى المخازن بمقربة من قصر كتامة ، وكان ذلك من السلطان أبى مروان مكيدة ، ثم إن الطاغية تقدّم بجيوشه ، وعبر جسر الوادى ، فأمر السلطان بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل فهدموها ، وكان الوادى لامشرع له سوى القنطرة ، ثم زحف السلطان أبو مروان إلى العدوّ بجيوش المسلمين ، وانضاف إليه من المتطوّعة كل من رغب فى الأجر وطمع فى الشهادة ، وأقبل الناس سراعا من الآفاق ، وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل ، فكان ممن حضره من الأعيان الشيخ أبو المحاسن سيدى يوسف الفاسى رضى الله عنه وغيره ، ولما التقت الفئتان ، وزحف الناس بعضهم إلى بعض ، واسودّ الجوّ بنقع الجياد ، ودخان المدافع ، وقامت الحرب على ساق توفى السلطان أبو مروان رحمه الله ورضى عنه عند الصدمة الأولى ، وكان مريضا يقاد به فى محفة فكان من قضاء الله السابق ولطفه السابغ أنه لم يطلع على وفاته أحد إلا حاجبه وصار يختلف إلى الأجناد ، ويقول السلطان يأمر فلانا أن يذهب إلى موضع كذا ، وفلانا أن يلزم الراية ، وفلانا يتقدم ، وفلانا يتأخر ، وعلم أيضا بموته أخوه وخليفته أبو العباس أحمد بن الشيخ فكتمها ، ولم يزل الحال على ذلك والناس فى المقاتلة والاصطلاء بنار الطعان ، واحتساء كؤوس الحمام ، إلى أن هبت على المسلمين ريح النصر ، وساعدهم القدر ، فولى المشركون الأدبار ، ودارت عليهم دائرة البوار ، وقتل الطاغية عظيم البرتغال ، وقصد النصارى القنطرة فلم يجدوا إلا آثارها ، فخشعت نفوسهم ، وتهافتوا فى النهر تهافت الفراش على النار ، فكان ذلك من أكبر الأسباب فى استئصالهم وأعظم الحبائل فى اقتناصهم ، ولم ينج منهم إلا عدد قليل ، وهذه الغزوة من الغزوات العظيمة الوقائع الشهيرة حضرها جمّ غفير من أهل الله حتى إنها أشبه شيء بغزوة بدر ، ولقد كان الرجل يستبق إلى النصرانى لينتهز فيه الفرصة ، فما يصله حتى يجده ميتا ، وبحث فى القتلى عن المتوكل محمد بن عبد الله المستصرخ بهم والقائد لهم إلى مصارعهم ، فوجد غريقا فى وادى المخازن ، وذلك أنه لما رأى الهزيمة فرّ ناجيا بنفسه ، واضطر إلى عبور النهر ، فتورّط فى غدير منه وغرق فمات فاستخرجه الغوّاصون ، وسلخ وحشى جلده تبنا ، وطيف به فى مراكش وغيرها من البلاد ،

وكان التقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الأولى سنة ست وثمانين وتسعمائة ، ويوافقه من التاريخ المسيحى اليوم الرابع من غشت سنة ثمان وسبعين وخمس عشرة مائة ، وكان مقدار زمان المقاتلة خمسا وأربعين درجة ، وقيل اثنين وخمسين درجة فلكية ، وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها بالمغرب ، وبلغت قيمة النصرانى ماذكره الشيخ أبو المحاسن أولا ، وكانت عساكر المسلمين يومئذ أربعين ألفا وزيادة ، ومدافعهم أربعة وثلاثين مدفعا .

وتوفى السلطان أبو مروان فى زوال اليوم المذكور ، وحمل إلى مراكش فقبر بها ، وكانت مدة خلافته أربع سنين .

ومن حوادثها أيضاً

فى رابع شهر صفر سنة تسع وتسعين وتسعمائة حصلت زلزلة بمصر بعد ظهر اليوم المذكور فمكثت درجة وسدسا ، وسقطت منها منارات و بيوت وربوع ، وفاض الماء من حيطان الحمامات ومطاهر الجوامع ، وهدمت عقبة أيلة ، ونهب العرب جميع ما كان فيها من ذخيرة الحجاج والمحافظين وسقطت صخرات من الجبال بطريق مكة .

وفى يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى من السنة المذكورة حصلت زلزلة عند طلوع الشمس مكثت مدة يسيرة ، وانفرق جانب من المقطم ثلاث فرق ، وخرج من كل فرق عين ماء أبيض من اللبن وأحلى من العسل .

من حوادث المائة الحادية عشرة

قال فى حجة الله على العالمين ، وفى سنة ألف وقعت ببلدة لار زلزلة عظيمة هدمت منها البيوت كلها ، واندكت بحيث لايكادون يعرفون محل بيوتهم ، وكانت قبلها بأيام زلازل صغار فى كل يوم فخرجوا منها فمن خرج نجا ، ومن لم يخرج هلك .

ومن حوادثها قضية زيدان السعدى مع أهل فاس
وابن عمه المأمون مع أهل مراكش

كان السلطان زيدان بن أحمد المنصور الذهبى لما بويع بفاس ، وذلك يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول سنة اثنتى عشرة وألف ، ولما وصلت بيعته لأهل مراكش امتنعوا وبايعوا أخاه أبا فارس عبد الله لكونه كان مستخلفا بها فى حياة أبيه ، ويميل إلى المروءة والرفق وحسن السيرة ، فنهض السلطان زيدان لحربه بمراكش ، فانهزم زيدان بأم الربيع ، ثم فر إلى تلمسان ، ثم قام على أبى فارس ابن عمه محمد الشيخ المأمون ، فوجه له جيشا كثيفا صحبة ولده عبد الله ، فسار بجيوشه ، فوجد أبا فارس بمحلته فى موضع يقال له أكليم ، فوقعت الهزيمة على أبى فارس ونهبت محلته ، وفر هو بنفسه إلى بلاد مسفيوه ، ودخل عبد الله بن الشيخ مراكش ، فأباحها لجيشه فنهبت دورها ، واستبيحت محارمها ، واشتغل هو بالفساد حتى حكى أنه زنى بجوارى جده المنصور

واستمتع بخطاياه ، وأكل رمضان ، وشرب الخمر فيه جهارا ، وكان دخوله مراكش فى العشرين من شعبان سنة خمس عشرة وألف ، ثم إن السلطان زيدان لما فرّ من فاس إلى تلمسان كما مرّ أقام بها مدّة ، وكان قد بعث إلى ترك الجزائر يستمدّهم ويستعديهم على أخويه فأبطأوا عليه ، فلما يئس منهم توجه إلى سجلماسة ، ومنها إلى درعة ، ومنها إلى السوس ، فكتب إلى أهل مراكش وقد ندموا على مافرطوا فيه من أمره أن يأتيهم ولو وحده، فتوجه إليهم ، ودخل عليهم ليلا ، فلم يفجأ عبد الله بن الشيخ إلا نداء أهل مراكش بنصر السلطان زيدان وتحزبوا معه وقتلوا من قتلوا ، وخرج عبد الله بن الشيخ فارّا بجموعه ، فحاصرهم أهل مراكش بين الأسوار والجنات ، وقتلوا منهم نحو خمسة آلاف وخمسمائة ، وقتلوا جميع من تخلف بمراكش ، وكان ذلك سنة خمس عشرة وألف ، وفرّ عبد الله بن الشيخ ناجيا بنفسه حتى قدم على أبيه بفاس فى أسوأ الحالات ، ثم هيأ له عسكرا آخرا ، وجدّد له جمعا ثانيا ، وأمره بالمسير إلى مراكش ، فخرج بجموع عديدة ، وجيوش حفيلة ، ولما بلغ خبره السلطان زيدان بعث إليه جيوشا كثيرة ، وذلك فى شعبان سنة ست عشرة وألف ، فالتقى الجمعان بموضع على طريق سلا ، فوقعت الهزيمة على جيش زيدان ، وقتل من جيش مراكش نحو تسعة آلاف ، ثم توجه عبد الله إلى مراكش ، فبرز إليه أهلها فى ستة وثلاثين ألف مقاتل ، والتقى الجمعان بموضع يقال له رأس العين ، فانهزم أهل مراكش ، وتقدّم عبد الله بن الشيخ فاقتحمها بجيشه ، وفرّ زيدان إلى الجبال الشامخة ، فبقى متنقلا هناك إلى أن كان من أمره مانذكره .

ولما دخل عبد الله بن الشيخ مراكش ، واستولى عليها فعل فيها أعظم من فعلته الأولى ، وهربت شرذمة من أهل مراكش إلى جبل جليز ،واجتمع هنالك منهم عصابة من أهل النجدة والحمية ، واتفق رأيهم على أن يقدموا للخلافة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ ، وكان رجلا خيرا دينا وقورا ، فبايعه أهل مراكش هنالك ، والتفوا عليه ، فخرج عبد الله بن الشيخ لقتال من بجبل جليز والقبض على أميرهم المذكور ، ولما التقى الجمعان انهزم عبد الله وولى أصحابه الأدبار ، فخرج من مراكش منهزما سادس شوّال سنة ست عشرة وألف. وترك محلته وأنقاضه وعدّته وجلّ الجيش، وأخذ على طريق تامسنا إلى أن وصل إلى فاس فى رابع وعشرى شوّال من السنة المذكورة .

وأما محمد بن عبد المؤمن فانه لما دخل مراكش واستولى عليها صفح عن الذين تخلفوا بها من أهل الغرب من جيش عبد الله بن الشيخ ، وأعطاهم الراتب ، فلم يعجب ذلك أهل مراكش ونقموا عليه إبقاءه عليهم ، فكتبوا سرّا إلى السلطان زيدان بالجبل ، فأتاهم وخيم نازلا بظاهر البلد ، فخرج محمد بن عبد المؤمن إلى لقائه ، فانهزم ابن عبد المؤمن ، ودخل السلطان زيدان مراكش واستولى عليها ، وصفح هو أيضا عن الفئة المتخلفة عن عبد الله بن الشيخ ، ثم نهض إلى فاس فاستولى عليها بعد قتال كبير ، وأقام بها إلى أن دخلت سنة ثمان عشرة وألف ، فاتصل به خبر قيام بعض الثوّار عليه بناحية مراكش ، فنهض إليها مزعجا ، ولما سمع بذلك عبد الله ابن الشيخ زحف إلى فاس فيمن انضمّ إليه ، وقاتل قتالا شديدا حتى دخلها ، ولما سمع السلطان

زيدان بذلك وهو بمراكش نهض إلى فاس وجاء على طريق الجبل ، فما راعهم إلا السلطان زيدان قد أقبل من ناحية أدخسان ، وقد أنزل بها محلته ، وتقدم إلى جهة فاس وضرب بأنقاضه فانهزم الناس عن عبد الله ، فبعث زيدان قائده عبد الصمد لتسكين روعة أهل البلد ، وأمر المنادى أن ينادى بنصره ، فنزل المنادى إلى أن بلغ باب السلسلة ، فقام فى وجهه بعض السياب من أهل العدوة وضربه فجرحه ، ورجع المنادى وبطل الأمر ، فبلغ الخبر السلطان زيدان ، فأمر باطلاق السيل فى أهل فاس وتحكيم السيف فيهم ، وأمر بهم فسلبوا من الثياب رجالا ونساء ، فكان بعضهم ينظر إلى عورة بعض ، ودخل أصحاب زيدان فاسا ، وفعلوا فيها الأفاعيل ، ثم أمر زيدان بتسكين الروعة والأمان ، وكان ذلك كله سادس رجب سنة تسع عشرة وألف ، فلما كان اليوم الحادى عشر من الشهر المذكور نزل عبد الله بن الشيخ برأس الماء ، فخرج إليه زيدان واقتتلوا ، فانهزم زيدان وفر إلى محلته التى ترك بادخسان ، وكان ذلك آخر رجوع زيدان إلى فاس .

ومن حوادثها استيلاء الاسبنيول عَلَى العرائش والسبب فى ذلك

كان من خبر الشيخ المأمون أنه فر إلى العرائش ، ومنها ركب البحر إلى طاغية الاسبنيول مستصرخا به على أخيه السلطان زيدان ، فأبى الطاغية أن يمده فراوده الشيخ على أن يترك عنده أولاده وحشمه رهنا ، ويعينه بالمال والرجال حتى إذا ملك أمره بذل له ماشرط عليه ، ولم يزل به إلى أن شرط عليه الطاغية أن يخلى له العرائش من المسلمين ويملكه إياها ، فقبل الشيخ ذلك والتزمه ، وخرج حتى نزل بحجر باديس فى ذى الحجة سنة ثمان عشرة وألف ، ثم تقدم فنزل بلاد الريف ، ولما سمع ذلك أهل فاس خافوا من شوكته ، وذهب جمع من علمائهم وأعيانهم كالقاضى أبى القاسم بن أبى النعيم ، والشريف أبى إسحاق إبراهيم الصقلى وغيرهما لملاقاته وتهنئته بالقدوم ، فلما وصلوا إليه فرح بهم ، وأمر قبطان النصارى أن يخرج مدافعه وأنقاضه إرهابا ، وإظهارا لقوة النصارى الذين استنصر بهم ، ففعل حتى اصطكت الآذان ، وارتجت الجبال ونزل القبطان من السفينة للسلام على الأعيان ، فلما رأوه مقبلا أمرهم الشيخ بالقيام له ، فقاموا إليه أجمعون ، وجازوه خيرا على مافعل مع الشيخ من الاحسان والنصرة ، وسلم هو عليهم بنزع قلنسوته على عادة النصارى ، وأنكر الناس على أولئك الأعيان قيامهم للكافر ، وضربوا بعصا الذل حتى إنهم فى رجوعهم إلى فاس تعرض لهم عرب الحياينة ، فسلبوهم وأخذوا مامعهم وجردوهم من ملابسهم جميعا ماعدا القاضى ابن أبى النعيم فانهم احترموه ، ثم إن الشيخ انتقل إلى القصر الكبير وهو قصر كتامة ، فأقام به مدة ، وراود قواده ورؤساء جيشه أن يقفوا معه فى تمكين النصارى من العرائش ليفى له الطاغية بما وعده من النصرة ، فامتنع الناس من إسعافه فى ذلك ولم يوافقه على غرضه إلا قائده الكرنى فانه ساعده على ذلك ، فبعثه الشيخ إليها وأمره أن يخليها ولايدع بها أحدا من المسلمين ، فذهب الكرنى المذكور وكلم أهلها فى ذلك ، فامتنعوا من الخروج عنها ، فقتل منهم جماعة ، وخرج الباقون وهم يبكون ، وأقام بها الكرنى إلى أن دخلها النصارى

واستولوا

واستولوا عليها فى رابع رمضان سنة تسع عشرة وألف ، وتوفى السلطان هذا مقتولا خامس رجب سنة اثنتين وعشرين وألف .

ومن حوادثها ثورة الفقيه أبى العباس أحمد المعروف بأبى محلى

كان هـذا الرجل من تلامذة العارف بالله أبى عبـد الله سـيدى محمد بن مبارك الزعرى رضى الله عنه ، وبقى فى خدمته نحوا من ثمان عشرة سنة إلى أن فارقه عن أمره ، وصار يتردد إليه بعد ذلك ، وكان مما دعا له به فى الزورة الأخيرة ، وكانت سنة اثنتين بعد الألف : بلاك الله بأكثر مما بلانى ، وكان الفقيه المذكور يشير إلى نفسه بأنه المهدى المعلوم المبشر به فى صحيح الأحاديث ، وصار يكاتب رؤساء القبائل ، وعظماء البلدان يأمرهم بالمعروف ، ويحضهم على الاستمساك بالسنة ، ويشيع أنه الفاطمى المنتظر ، وأن من تبعه فهو الفائز ، ومن تخلف عنـه فو بق ، ولما كثرت جوعه ، وبلغه ما فعله السلطان الشيخ من إجلاء المسلمين عن العرائش وتسليمها للعدو الكافر استشاط غضبا ، وأظهر أنه غضب لله لاشىء سواه ، فخرج يؤم سجلماسة ، وكان خليفة زيدان عليها يومئذ ، فخرج عامل زيدان لمصادمتـه وهو فى أربعة آلاف ، وابن أبى محلى فى نحو أربعمائة ، فلما التقى الجمعان كانت الدائرة على جيش زيدان ، وأشاع الناس أن الرصاص يقع على أصحاب أبى محلى باردا لايضرهم ، فسكنت هيبته فى القلوب ، وتمكن ناموسه منها ، ولما دخل سجلماسة أظهر العدل ، وغير المناكر ، فأحبته العامة ، وقدمت عليه وفود أهل تلمسان والراشدية يهنئونه ، ولما بلغ خبر الهزيمة إلى زيدان جهز إليـه من مراكش جيشا ، فسمع به أبو محلى ، فسار إليه ، فكان اللقاء بينهما بدرعة ، فوقعت الهزيمة على جيش زيدان ، ومات من أصحابه نحو الثلاثة آلاف ، فقوى أمر ابن أبى محلى ، واشتدت شوكته ، وجمع بين سجلماسة ودرعة ، ثم إن زيدان بعث إليـه جيشا آخرا كثيفا ، فهزمه أبو محلى وتقدم ، فدخل مراكش ، واستولى عليها وفر زيدان إلى ثغر آسفى ، ولما دخل أبو محلى قصر الخلافة بمراكش فعل فيـه ماشاء ، وتزوج أم زيدان ، ودبت فى رأسـه نشوة الملك ، ونسى مابنى عليـه أمره من الحسبة والنسك ، ولما علم زيدان ضعفه عن مقاومته كتب إلى الفقيه أبى زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحى مستغيثا به ، ثم وفد عليـه بنفسه ، وكان يحيى بزاوية أبيـه من جبل درن ، وله شهرة عظيمة ببلاد السوس ، وله أتباع ، فأتاه السلطان زيدان ، وقال له إن بيعتى فى أعناقكم وأنا بين أظهركم ، فيجب عليكم الذب عنى ومقاتلة من ناوأنى ، فلبى أبو زكرياء دعوته ، وحشر الجيوش من كل جهة ، وخرج يؤم مراكش فى ثامن رمضان سـنة اثنتين وعشرين وألف ، ولما انتهى إلى فم تانوت موضع على مرحلتين من مراكش كتب إليه أبو محلى مانصه : بسم الله الرحمن الرحيم من أحمد بن عبد الله إلى يحيى بن عبد الله . أما بعـد : فقد بلغنى أنك جنـدت وبندت ، وفى فم تانوت نزلت ، اهبط إلى الوطاء ينكشف بيننا الغطاء ، فالذئب ختال ، والأسد صوال ، والأيام لاتستقيم إلا بطعن القنا وضرب الحسام ، والسلام .

فأجابه يحيى بما نصه : من يحيى بن عبد الله إلى أحمد بن عبد الله . أما بعد : فليست الأيام لى ولك إنما هى للملك العلام ، وقد أتيتك بأهل البنادق الأحرار من الشبانة ، ومن انتمى إليهم

من بني جرار ، ومن أهل الشرور والبؤس ، من هشتوكة إلى بني كنسوس ، فالموعد بيني وبينك جيليز ، هنالك ينتقم الله من الظالم ويعزّ العزيز ، ثم زحف يحيي إلى مراكش فى جوعه ، فنزل بقرب جيليز (جبل مطلّ على مراكش) ، وبرز إليه أبو محلى والتحم القتال بينهما ، فكانت أوّل رصاصة فى نحر أبي محلى فهلك مكانه ، واندحرت جوعه ، ونهبت محلتـه ، ، واحتزّ رأسه ، وعلق على سور مراكش ، فبقي معلقا هنالك مع رءوس جماعة من أصحابه نحوا من اثنتى عشرة سـنة ، وحملت جثته ، فدفنت بروضـة الشيخ أبي العباس السبتي رضى الله عنـه تحت المكتب المعلق هنالك عند المسجد الجامع ، ورمزوا لتاريخ ثورته ووفاته بقولهم : قام طيشا ، ومات كبشا ، ولا يخفى ما فيه بعـد إفادة التاريخ من حسن التلميح ، وبديع التورية ، ولما قتل ابن أبي محلى دخل يحيى مراكش ، واستقرّ بدار الخلافة منها ، وألقى بها عصا تسياره ، ورام أن يتخذها دار قراره ، فكتب إليـه السلطان زيدان يقول أمّا بعـد : فان كنت إنما جئت لنصرتى ، وكفّ يد ذلك الثائر عنى ، فقد أبلغت المراد ، وشـفيت الفؤاد ، وإن كنت إنما رمت أن تجرّ النار لقرصك ، وتجعل الملك من قنصك ، فأقرّ الله عينك به والسـلام ، فتجهز يحيي للعود إلى وطنـه ، وأظهر العفة عن الملك ، وانقلب إلى بلاده ، ورجع زيدان إلى مراكش ، فاسـتقرّ بدار ملـكه .

ومن حوادثها استيلاء الاسبنيول عَلَى المهدية

وكان ذلك فى أواخر جمادى الثانية سنة ثلاث وعشرين وألف .

ومن حوادثها جورشراكة وتعديهم عَلَى أهل فاس

وسبب ذلك أنه لما استبدّ عبد الله بن الشيخ بفاس بعـد موت أبيه ، وكان غالب جنده من شراكة وهم عرب بادية تلمسان وبهم كان يعتصم حتى أعطاهم أجنات الناس ودورهم ، فكان الرجل من أهل فاس يأتى بستانه ، فيجد الأعرابى بخيمته فى وسطه ، فيقول له أعطانيه السلطان ، ومدّوا أيديهم إلى حريم الناس ، ونهبوا الأسواق ، وجاهروا بالفساد ، وأظهروا السكر فى الطرقات واقتحموا على الناس دورهم حتى إن امرأة كانت تطبخ خليعا وولدها رضيع عنـدها ، فاقتحم عليها الدار أحد شراكة ، فهربت المرأة وأغلقت عليها غرفة لها ، فلم يقدر لها على شيء فراودها على النزول فأبت ، فقال لها إن لم تنزلى رميت الولد فى الطنجير ، فتمادت على الامتناع ، فرمى به فيه ، فما هو إلا أن رأت ولدها فى وسط الطنجير صاحت وألقت بنفسها عليه ، فاندقت رقبتها وماتت ، فغاظ الناس ذلك وأعظموه ، وصاروا يقتلون شراكة والتلمسانيين بفاس حيث وجدوا ، وحكم السيف فى رقابهم ونفوهم عن فاس ، وكان ذلك يوم الجمعة حادى وعشرى ربيع الأوّل سنة عشرين وألف ، وكان السلطان عبد الله بن الشيخ يوم ثورة أهل فاس وفتكهم بشراكة غائبا فى سلا .

وفى سنة ست وألف كان الطاعون العظيم بمراكش وغـيرها بحيث عمّ تلول المغرب ، ومات به جمع من الأعيان .

وفى سنة ثلاث وسبعين وألف مع السنة التى بعـدها حدثت مجاعة عظيمة بالمغرب لاسيما فاس وأعمالها، أكل الناس فيها الجيف والدوابّ والآدمى ، وخلت الدور ، وعطلت المساجد ، ثم تدارك الله عباده بلطفه .

وفى سنة نيف وستين بعد الألف أمطرت السماء حجارة سودا كثيرة عريضة قدر بيضة الدجاج وأكبر فى الصيف والسماء مصحية ببلاد الأكراد ، وكانوا يسمعون لها حسا من مسافة يوم ، والله يفعل مايشاء .

ومن حوادثها ما ذكره المقرى فى كتابه فتح المتعال

ونصه: رأيت أنا بمدينة فاس عام ست وعشرين وألف حجرا أسود قدر الكف مكتوبا فيه بقلم القدرة : لا إله إلا الله فى ناحيـة ، ومحمد رسول الله فى الناحية الأخرى ، ولون الكتابة أسود ، وقد ثقب بعض الناس للاختبار حرفا منه بآلة حديد حتى نفذت من الناحية الأخرى ، وكان ذلك زيادة فى تصحيح أنه بقلم القدرة ، وقد أعطيت فيـه مالكته وهى امرأة من فاس وزنه مرتين ذهبا لتبيعه منى بذلك فامتنعت ، فرغبتها بكل وجه ممكن فلم تفعل ، وبقى عندى أياما ورددته لها وهو مشهور بفاس يأخذه النساء الحوامل لتسهيل الولادة ، وذكرت أنه وجدته على ساحل البحر المحيط بهذه الأزمان القريبة ، فسبحان من أظهر أمره ﷺ كل الاظهار انتهت عبارته .

ومن حوادثها الغريبة

ماذكروه فى مدّة السلطان محمد الرابع العثمانى أنه ظهر يهودىّ يدّعى أنه المسيح ، ومسلم يدّعى أنه المهدى المنتظر فى عام واحد ، وهو عام ألف واثنتين وسـبعين . أما اليهودى فظهر فى أزمير زاعما أنه المسيح ، وكان جيل المنظر يزعم أنه يوحى إليـه ، فانتشر اسمه وكثر أتباعه فخرج الاذن بالقبض عليـه فقبض ، ولما وقف بين يدى السلطان . قال له هل تصنع شيئا من العجائب ؟ فقال نعم فى بعض الأوقات ، فقال له السلطان محمد إنى أريد أن أجرب فيك هـذه العجيبة ، وأمر أن يجرّد من ثيابه و يوقف فى فسحة الميدان و يرمى عليـه الرّصاص ، فان نجا ولم يهلك علم صدقه فيما يدّعيه ، فلما سمع هذا الكلام خرّ راكعا على الأرض ، وقال إن قوّتى لاتقدر على هـذه العجيبة ، فأمر السلطان بقتله ، فرمى نفسه على قدم السلطان يقبلها و يعترف بالتوبة ، وتكذيب نفسه ، والدخول فى الاسـلام ، فقبل السلطان محمد منه ذلك ، فأسلم وحسن إسلامه ، وصار يعظ اليهود فأسلم منهم خلق كثير .

وأما الرجل المسلم الذى ادّعى أنه المهدى ، وظهر فى ناحية الموصل وتبعه خلق كثير ، فقبض عليه وأتى به إلى السلطان محمد أيضا ، فأحضره وعرض عليه مثل ماعرض على اليهودى ، فأبت نفسه الشقية أن يعترف بالتوبة ويكذب نفسـه بل رضى أن العساكر ترمى عليه بالرصاص فرموا عليه فمات من ذلك .

وقد أذكرتنى هـذه القضية ماذكره ابن عسكر فى الدوحة من ترجمته للامام الصدر المجتهد

سيدى عبد الله الوريا جلى مانصه حكاية عجيبة ، وهى أن الشيخ المترجم له كان غائبا ، فلما رجع من سفرته ، ودخل المسجد للقراءة على عادته لم يجد إلا القارئ الذى يقرأ عليه بين يديه ، فسأله عن الطلبة والناس ، فقال له ياسيدى إنهم قد ذهبوا كلهم والناس معهم أجمعون إلى رجل فى مقصورة المسجد ورد وأنت غائب ، وله دعوات يدّعيها ، ويزعم أنه عيسى ابن مريم ، وتظهر على يديه خوارق وانفعالات ، وتنزل بين يديه موائد الطعام من حيث لايدرى أحد من أين تأتى فقال الشيخ اذهب بنا إليه ، فلما دخل على الرجل المذكور وجد عنده عددا من الخلق ، فجلس الشيخ ، وقال له أخبرنى عن الواجب والجائز والمستحيل فى حقّ الله تعالى وفى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام فلم يجبه بشىء ، فخاطبه بالبحث عن حاله ، فقال له أنا عيسى ابن مريم ، ثم قال وهذه الصومعة تشهد لى ، وأشار إليها فولولت الصومعة وقالت نعم ، فقام الشيخ وقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم لطم المدّعى المسيحية على وجهه وحبسه بشعر رأسه ، وأمر أصحابه بضربه وجرّه حتى ظنوا أنه مات وجرّوه إلى مزبلة وطرحوه عليها ، وتفرّق الناس عنه ، وصاروا ينتظرون وقوع المصيبة بالشيخ لأجل فعله ذلك معه ، ثم إن الشيخ أمر أن يحمل ذلك الرجل إلى السجن ، فحمل إليه وبقى به أربعة أشهر ، فأرسل إلى الشيخ ، وقال : إنى تبت إلى الله فخلّ سبيلى ، فأمر الشيخ بتسريحه وغاب عن القصر سنتين ، فبينما الشيخ يوما وهو يمشى مع أصحابه بازاء غدير البرمة خارج باب الوادى ، وإذا برجل قد طلع عليه ، فسلم على الشيخ ، وصار يقبل حافر فرسه ، وعلى عاتقه لوح القراءة ، فقال له من تكون يا أخى ؟ فقال له أنا الرجل الذى أسلمت على يديك ، فقال له الشيخ عرفنا بقضيتك ، فقال كنت مع شيطان من الجنّ ، واشترط علىّ أن أدّعى النبوّة ، ويأتينى هو بكلّ ما أريد ، ويدخل فى جدور الحيطان ، ويكلم الناس بتصديقى ، فيتوهم الناس أن الجماد قد تكلم ، ومن اليوم الذى ضربتنى فيه لم أر ذلك الجنى ، وإنى لازمت تعلم العلم وتبت إلى الله وجئتك لآخذ عنك دينى حيث منّ الله علىّ بالاسلام على يديك اه من دوحة الناشر ، لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر .

ومن حوادث المائة الثانية عشرة

وفى سنة خمسين ومائة وألف كانت المجاعة العظيمة بالمغرب والفتن ونهب الدور بالليل بفاس وغيرها ، وصار جلّ الناس لصوصا ، فكان أهل اليسار لاينامون لحراستهم دورهم وأمتعتهم ، وهلك من الجوع عدد لاحصر له حتى لقد أخبر صاحب المارستان أنه كفن فى رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألف وزيادة سوى من كفنه أهله هذا بفاس وليقس عليها غيرها .

وفى سنة ثلاث وستين ومائة وألف كان الوباء بالمغرب وانحباس المطر يلحق الناس من ذلك شدّة ، ثم تداركهم الله بلطفه .

وفى ضحوة يوم السبت السادس والعشرين من المحرّم سنة تسع وستين ومائة وألف زلزلت الأرض زلزالها شرقا وغربا ، وامتدّت نحو درج زمانى ، وفاض ماء البرك والصهاريج على البيوت وتكدّرت العيون ، ووقف ماء الأودية عن الجرى ، وتساقطت الدور ، وفزع الناس ، وتركوا حوانيتهم وأمتعتهم .

وفى

وفى أعوام التسعين بعد المائة والألف كانت المجاعة الكبيرة بالمغرب ، وانحبس المطر ، ووقع القحط ، وكثر الهرج ، ودام ذلك قريبا من سبع سنين .

ومن حوادث المائة الثانية عشرة

هجوم الدولة الفرنسية على مدينة سـلا ، وكان ذلك أواخر سنة ثمان وسبعين ومائة وألف فى زمن السلطان الأعظم سـيدى محمد بن عبـد الله العلوى ، فأقامت يوم الجمعة ، ويوم السبت بظاهر البحر فلم تفعل شيئا وفى يوم الأحد قدمت سفنها ، فرمت من البنب مائة وسبعا وسبعين 177 وهدمت الدور ، وفرّ النساء والصبيان خارج البلد ، ولم يبق بها إلا القليل ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم السبت الآتى بعـده رمت مائة وعشرين ، وفى يوم الثلاثاء بعـده رمت مائة ونيفا وثلاثين .

ومن حوادث المائة الثالثة عشرة

استيلاء الدولة الفرنسية على قطر مصر ، وكان ذلك فى شهر المحرم سـنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ، ثم انعقد الصلح على خروجهم من مصر ، وكان خروجهم منها وتسليمها للدولة العثمانيـة فى أواخر صفر سـنة ست عشرة ومائتين وألف ، وكانت مدة تملك الدولة الفرنسيـة لمصر ثلاث سنين وشهرا .

انظر تفصيل القضية فى تاريخ الجبرتى تر العجب .

ومن حوادثها

استيلاء الدولة الفرنسيـة على الجزائر ، وذلك سنة خمس وأربعين ومائتين وألف و بقيت فى حكمها إلى عصرنا هذا ، وقيل سنة ست وأربعين بعدها ، وفى هـذه السنة منتصف جمادى الثانية منها حدثت الزلزلة بقرية من قرى تلمسان تسمى البليدة ، فجعلت عاليها سافلها ، وهلك أهلها .

وفى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف كان استيلاء فرنسا على مدينة وهران .

وفى سنة تسع وخمسين ومائتين وألف كان استيلاء فرنسا على تلمسان ووجدة .

ومن حوادثها الهزيمة الهـائلة

التى حلت بالخليفة سيدى محمد بن عبد الرحمن بن هشام لما توجه لغزو العدوّ ومعه نحو الثلاثين ألف فارس ، وكانت فى الساعة العاشرة من النهار منتصف شـعبان سنة ستين ومائتين وألف ، وفى هذا العام أعنى عام الستين بعد المائتين وألف ظهرت شوكة النصارى بالمغرب ، واقتصر السلوك معهم على المداهنة .

وفى آخر العشرة بعد ذلك ازداد الأمر حيث أخـذوا تطوان وصولحوا عليها ، وفى العشر الأولى بعـد الثلثمائة والألف عظم الأمر فى ذلك واشتدّت الشوكة ، وصاروا يأمرون ويسعفون ويفعلون ولا ينهون ، ويطلبون ولا يردّون ، ويسجن من قدّر الله عليـه السجن بحكمهم ،

وضعفت شوكة الاسلام ، ولم يبق فيها من يقول و يسمع قوله ، وقلت الأموال ، وكسدت التجار وضعف الايمان ، وحلّ بأهل الاسلام ما أخبر به المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وكان دخول الاسبنيول تطاوين ، واستيلاؤه عليها ضحوة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب الفرد سنة ست وسبعين ومائتين وألف ، وذلك أوائل دولة السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن ، ورثاها الأديب الشريف السيد المفضل بقوله :

يا دهر قل لى على مه ✡ كسرت جمع السلامه
نصبته للدواهى ✡ ولم تخف من ملامه
خفضت قدر مقام ✡ للرفع كان علامه
ملكته لأعادى ✡ ليست تساوى قلامه
فالدين يبكى بدمع ✡ يحكيه صوب الغمامه
على مساجد أضحت ✡ تباع فيها المدامه
كم من ضريح ولىّ ✡ تلوح منه الكرامه
علق فيه رهيب ✡ صليبه ولجامه
ومنزل لشريف ✡ وعالم ذى استقامه
صار كنيفا لعلج ✡ ولم يراع احترامه

وفى سنة ست وستين ومائتين وألف كان الغلاء الكبير والجوع المفرط ، وكان أكثره بقبائل الحوز فأهرعت هذه القبائل إلى بلاد الغرب ، وأكلت الناس الجيف والميتة والنبات ، وصار يعرف عند أهل البادية بعام الخبيزى وعام يرنى ، وكان الرجل يأكل ولا يشبع ، وإذا تضلع فى الأكل لم تمض إلا هنيهة حتى تضرم أحشاؤه جوعا .

وفى سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف كان الوباء بالمغرب ، وهو إسهال مفرط يعترى الشخص ويصحبه وجع حادّ فى البطن والساقين ، ويعقبه اسوداد لون وبرودة ، فاذا تمادى بالشخص حتى جاوز أربعا وعشرين ساعة فالغالب السلامة وإلا فهو الحتف .

وفى سنة خمس وثمانين ومائتين وألف كان الوباء بالمغرب بالقىء والاسهال المفرطين على نحو ماوصفناه سابقا .

ومن حوادثها قيام الألمان على فرنسا

وكان ذلك سنة خمس وثمانين ومائتين وألف وفجأتها بالقتال وحاصرتها مدّة طويلة بباريز حتى ارتفعت الأسعار ، وبلغ الرطل من لحم الحمار عندهم أربعة ريالات ، ووقع بينهم الصلح على شروط منها ألف مليون ريال تدفعها دولة فرنسا للدولة الالمانية .

وقد وقع فى وقتنا هذا ضدّ ذلك فان الدولة الافرنسية قد استظهرت على ألمانيا ونصرت عليها حتى وقع الصلح على شروط منها أن تدفع ألمانيا للدولة الفرنسية قدرا كبيرا من المال .

ومن

ومن حوادثها ثورة عرب الرحامنة

وفى عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف ثار عرب الرحامنة بالحوز ، وعمدوا إلى سوق الخميس بمراكش فأغاروا عليه وانتهبوه ، وسلبوا المارّة وأرباب الحانات ، وضايقوا أهل مراكش حتى منعوهم من الارتفاق حول المدينة فانقطعت السبل ، وارتفعت الأسعار ، وقطع الرحامنة ماحول الأشجار واحتطبوها ، وحصدوا الزرع فى الأرض واغتصبوها ، واشتدّ الحصار ، وتخاذلت الأنصار ، ودام الحال إلى أن فرغ السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن من حرب الاسبنيول ، وفتنة الروكى ، فهجم عليهم وأوقع بهم وقعة سيقوا بها بعد ساعة إلى مراكش مقرنين فى الحبال حتى ضاقت بهم السجون ، وكم لهم من نظير هذه الفتنة .

ومن حوادثها ثورة الروكى الجيلانى الغربوى

وكان ذلك سنة سبع وسبعين ومائتين وألف ، وقد شاع فى الوقت خبره ، وتزايد على الناس ضرره ، وتعدّد تابعه بسبب خوارق ، افتتن بها كل مارق . منها أن الرصاص لايصيب أصحابه ، ومنها أن من اختلس شيئا من خيامه قيد بمقامه ، وكان السلطان المقدّس سيدى محمد رحمه الله إذ ذاك برباط الفتح ، فوجه له همته ، وسير إليه جيشا كثيفا إلى أن ظفر به ، فقطع رأسه ، ومحا من سماء الوجود نحسه .

ومن حوادثها هدّة البارود بمراكش

وفى سنة ثمانين ومائتين وألف ، وذلك يوم السبت الرابع عشر من شعبان كانت هدّة البارود بمراكش ، وذلك أنه كان بجامع الفناء فندق فى بعض بيوته نحو أربعمائة قنطار من البارود ، وبه أيضا شىء من فحم الريش المتخذ للبارود ، فوقعت فيه نار وسرت منه إلى البارود ، فنفض وقت الغروب من اليوم المذكور والناس كثيرون حول الفندق ، فطار الفندق بما فيه ، وكانت حيطانه عادية ، وطار من كان حوله من الناس قيل نحو الثلثمائة ، فمنهم من لم يوجد أصلا ، ومنهم من وجد بعضه من يد أو رجل ونحو ذلك ، وتهدّمت كل دار كانت متلاشية بمراكش ، وانخلعت الأقفال من الأبواب ، وصرصرت السقوف والحيطان ، وكان الحادث عظيما .

وفى سنة أربع وتسعين ومائتين وألف وفد على السلطان المقدّس محمد رحمه الله عدّة باشدورات للأجناس فى شأن بابور البرّ والتلغراف وإجرائهما بالمغرب كما هما بسائر بلاد المعمور ، وقالوا له إن فى ذلك نفعا كبيرا ، فلم يوافقهم على ذلك .

وقد ساعدت الأقدار أغراضهم فى هذه الأزمان ، بانشاء ماذكر وإجرائه على وفق مرادهم فى السرّ والاعلان ، رحمة منه سبحانه بعباده وامتنان .

ومن حوادثها ثورة أبى عزة الهبرى

وفى سنة التسعين بعد المائتين وألف كانت ثورة أبى عزة الهبرى ، وكان بحوز وجدة ساحرا

كاهنا يظهر للناس الطاعة ، فتبعه خلق كثير ، ولما علم السلطان المقدس مولانا الحسن جلية أمره قصده بجيوش لا قبل له بها إلى أن ظفر به ، فقيد وحبس مدة طويلة إلى أن مات فى السجن .

ومن حوادث المائة الثالثة عشرة

ظهور رجل بالسودان يسمى محمد أحمد يقال انه المهدى أو قائم طالب لاظهار الحق ، وكان ذلك سنة سبع وتسعين ومائتين وألف .

وكان قبل ظهوره مشهورا بالصلاح ومن مشايخ الطريق، ولما كثرت أتباعه ومريدوه وقع اختلاف بينه وبين العساكر المصرية المتملكين للسودان،ثم اتسع الأمر بينهم و بينه وجر إلى القتال وقاتلوه وقاتلهم مرارا ، وكانت الغلبة لمحمد أحمد عليهم حتى استولى على كثير من بلاد السودان وأخرجهم منها ، فلما دخل الانجليز مصر صار هو الذى يجهز عليه العساكر ويقاتله بعساكر الانجليز ومعهم عساكر مصر ، ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة والغلبة فى تلك الوقائع كلها لمحمد أحمد ، وتملك عدة مدن، وقتل منهم خلقا كثيرا لايحصى عددهم، وكان أمره معهم عجيبا يأتون إليه بالعساكر الكثيرة والمدافع والآلات الشهيرة التى لايطيق أحد مقابلتها ، فيقابلهم بجيوشه السوادنيين وليس معهم إلا السيف والرمح والسكاكين ، فيهجمون على تلك العساكر فى موضعهم ومحط جيوشهم ولا يبالون بمدافعهم وآلاتهم حتى يخالطوهم ويقاتلوا أكثرهم من قرب طعنا بالرماح ، وضربا بالسيوف والسكاكين ، ويشتتون شملهم ، ومنهم جماعة فى برارى سواكن قد ولى محمد أحمد عليهم رجلا يسمى عثمان ، فجاء بمن معه من السودان لمحاصرة سواكن ، وإخراج الانجليز والعساكر المصرية منها ، فخرجوا إليه بجيوشهم الكثيرة وآلاتهم ومدافعهم الشهيرة ، فهزمهم عثمان ومن معه من السودان هزيمة بعد هزيمة وقتل الكثير منهم حتى إنهم جاءوه فى سنة ثنتين وثلثمائة بنحو من سبعين مركبا مشحونة بالعساكر الكثيرة والآلات والاستعدادات الوفيرة ، وخرجوا لقتاله فى البر قريبا من سواكن ، فهزمهم وقتل أكثرهم ، وشتت شملهم ، وغنم أكثر أموالهم ودوابهم وذخائرهم .

ويقال إن جيوش محمد احمد تبلغ ثلثمائة ألف أو يزيدون ✲ توفى رحمه الله ورضى عنه فى العشر الأولى من القرن الرابع عشر هذا .

﴿ تنبيه ﴾ فى سابع عشر مارس سنة سبع وثمانمائة وألف مسيحية دخل الانجليز قطر مصر بحجة صيانته من الفرنسيين .

وفى سنة احدى عشرة وثمانمائة وألف خرجت حملة مصرية لقمع الوهابيين .

ومن حوادث المائة الرابعة عشرة

ثورة ابن سليمان الرحمانى ، وكان جمع جموعا من أخلاط القبائل ، واحلاف البطالة والرذائل قصد بها شن الغارة على مراكش ، وسلب أموالها ، وسبى عيالها ، وبقى على ذلك أياما حتى ضاق بأهلها الخناق ، وجرعوا كؤوس المخاوف والمشاق ، إلى أن تداركهم الله بكتائب وردت من

قبل

قبل السلطان مولاى عبد العزيز ، فانتعشت لذلك قلوبهم ، وانقشعت كروبهم ، وجعلوا يخرجون لقتال أولئك الأوغاد ، وينالون منهم كل مراد ، ثم جاء السلطان من فاس ، فأحاط بالرحامنة سيل الكتائب ، وسدّ عليهم المنافذ والمذاهب ، وساق الأسرى إلى مراكشة سوق الأغنام فى الأغلال والسلاسل ، ولما أحاطت برئيسهم البلايا ، استجار ببعض الزوايا ، فأخرج منها ووضع فى قفص من جعاب المكاحل ، وحمل على جمل ليسرّ ويعتبر به المقيم والراحل ، ولقد كان يؤمّل أن يدخل مراكشة مؤيدا منصورا ، فدخلها مقيدا محصورا ، ثم زجّ فى سجن مصباح ، وملئت له من النكال أقداح ، إلى أن مات وأبين رأسه ، ولقيت ما أسلفته نفسه ، وكان الظفر به فى رمضان عام ثلاثة عشر وثلثمائة وألف .

ومن حوادثها قيام أهل مراكشة

بسبب إلزامهم للمعاملة بالصوالد نظير الفلوس ، وتعذرت الحركة أياما بسبب ذلك ، وكان ذلك فى ثانى قعدة عام أحد وعشرين وثلثمائة وألف .

ومن حوادث المائة الرابعة عشرة

امتحان الشيخ الكتانى بحاضرة مراكش

وذلك أنه لما ظهر منه ماظهر وجه عليه السلطان المولى عبد العزيز إلى مراكش ، وجمع له جمعا من العلماء ، واختبروه فى المعتقدات الدينية ، والمسائل الفقهية والذوقية ، وسجلوا عليه الخطأ الكثير وألزموه التوبة ، فتاب والتزم عدم ذكر التصلية الأحدية ، والوقوف عند حدود الشريعة وبقى بمراكش مدّة إلى أن تشفع فيه الشيخ ماء العينين الشنكيطى ، فعفا عنه السلطان وردّه لفاس ، وكان ذلك بتاريخ عام أربعة عشرة وثلثمائة وألف .

ومن حوادثها واقعة الدّار البيضاء

وكان ذلك سنة أربع وعشرين وثلثمائة وألف ، وسببها أن تسعة من الخدمة أسبانيين وفرنسيين قتلتهم طائفة من الشاوية بتدبير من كانت له فى ذلك الوقت مقاصد ، ولمواقيت إلقاء الشرّ مراصد ، ثم هجمت قبيلة الشاوية على الثغر البيضاوى فنهبوا وسفكوا ، وانتهكوا من الحرمات ما انتهكوا وجرى على سبيلهم من تبعهم من قبيلهم ، ووقع فساد كبير ، يضيق عن تفصيله التعبير ، فوجهت كل واحدة من الدولتين باخرة حربية حمية لحقها وحماية للدور الأجنبية ، فأنزلتا عددا من العساكر وأطلتا أفواه المدافع بسبب تلك المناكر ، وتوالت زمر الناهبين ، وترادفت طلقات الضاربين على الجائين والذاهبين ، حتى امتلأت السكك أمواتا ، وأمتعة وأقواتا ، ولقد وقع الاحصاء فى عدد من قتل بها ، فكان ثلاثة وتسعين ألفا ولم تزل الدولة الفرنسية تواصل الامداد ، ويموت منها ومن تلك القبائل أعداد حتى جاست العساكر خلال ديارهم ، وتمكنت من سهولهم وأوعارهم ، فلت الشاوية وانطفأ لهبها .

ومن حوادثها واقعة أهل مراكش بالطبيب الفرنسى

وكان ذلك فى رابع صفر عام خمسة وعشرين وثلثمائة وألف ، وسببها أن طائفة من الأوباش الغمر أغوتهم الشياطين بقتل الطبيب الفرنسى ، ونهب محل مباشرته واستشرافهم إلى قتل غيره من الأجانب ، وفى الحين قوبلوا بزجر وقوة هائلة أوهنت مادتهم ، وقطعت بغيتهم .

ومن حوادثها انكسار محلة السلطان مولاى عبد العزيز

وذلك أنه لما بلغه اجتماع أهل الحل والربط من مراكش وغيرها من المدن على بيعة المولى عبد الحفيظ ، ورأى أتباعه يتسللون ، وكبراءه يتعللون ، وقدم عليه بعض الأعراب من أحواز مراكش ، فأغروه بالسفر إلى مراكش ، فأصغى إلى نصحهم ، ولم يركب متن الاضراب عن شرحهم ، فخرج بمن معه من وصفانه ، وبقية جيشه وأعوانه ، ومن تجدد تنظيمهم من وزراء ديوانه ، ولم تزل كمية جنده تزداد فى كل مرحلة ، ويد جوده لمرتاد مرسلة ، إلى أن خيم ببلاد السراغنة فسروا بمقدمه وتمنوا موطىء قدمه وصار عمالهم وأعيانهم بمنزلة خدمه وكان القائد السيد عبد المالك المتوكى مواظبا على طاعته ، فربط على أهل مراكش وساقهم خسفا ، ونسف نواحيهم نسفا ، حتى يئسوا من الأنصار ، وأيقنوا بالحصار ، وأراد الجل أن يتحول إلى طاعة الامام الأول ، ومع هذا وأبواب مراكش مغلقة والرجال بالأسوار معلقة ، والفتنة قائمة على ساق والحرب بين اصطكاك واعتناق وكتب القائد المذكور إلى السلطان بأن يمكث بمخيمه ولا يعجل بتقدمه حتى يرد عليه بأهل مراكش مبايعين ولأوامره طائعين ، فأعرض عن مراده ، وتقدم وفق مراد الله فى حاشيته وأجناده ، فصبح جيشا من ايالة الوزير المزوارى جلدا بالأشجار والأحجار متوارى ، فرماهم بقليل من القنابل فانصب إليه رصاصهم كالمطر الوابل ، ولما حمى الوطيس وعمى المرءوس عن الرئيس غدرت طائفة كانت فى لفه وحلفه ، فاشتد القتال من بين يديه ومن خلفه وأظهر البغاة فى المحلة شرا وشنارا ، وملئوا أسواقها وأطرافها فسادا ونارا ، ورأى الرجال مابين ناهب وقتيل وهارب ، فلم يسعه إلا أركاب عياله والاعراض عن أخبيته وماله ، وبقيت المحلة بأيدى المعتدين ، فدخل أرض الشاوية فأصلح الاختلال وأزاح الاعتلال وانحاز إليه من فسح له فى الأجل ، وفتح له باب السلامة فوجه على عجل نخيموا حوله ، ووالى عليهم فضله ونوله ، وقدم عليه الوزير عاريا فكساه وواساه حتى خفف عنه أساه ، ومكث السلطان بمخيمه حتى قضى بعض المآرب والأوطار ، وشاعت البيعة الحفيظية بالأقطار ، فتوجه لطنجة واتخذها مقرا ، وحلى عيشه بها بعد أن مر بعضه فى الأخطار مرا ، وكان ذلك فى حادى عشر رجب الفرد عام ستة وعشرين وثلثمائة وألف .

ومن حوادثها ثورة الجيلانى أبى حمارة

وكان قبل ذلك يتراءى بشعار العابدين ، ويظهر خشوع الزاهدين ، فلا يرى إلا فى جامع أو زاوية بطوية من الاخلاص خاوية ، وأقوال فى الطريق يلفقها وإشارات يقيدها ثم يطلقها ،

فربما تكلم فى خلالها بهواجس أفكار ، وملفقات أخبار لم يقع لها فى الوقت اعتبار تكهنا ونجامة ، فتعدّ له بعد ذلك كرامة ، ولما حل بغياثة وتمكن فيهم ناموس مكره أعلنوا بيعته ، ولما استفحل أمره جهز له السلطان المولى عبد الحفيظ جيشا ، فلم يقم معه على ساق ، فازدادت بذلك شراراته اتقاداء ، وملأ الجبال عتوّا وفسادا ، وأظهر أبهة السلطنة والمظلة والخيل المسوّمة ، ورتب الوزراء والأتباع ، ونكح من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وأقام حدودا ابتدعها اقتداء بمن مضى من الثوّار فى ارتكاب المحظور وفق الأوطار ، ثم استنفر له المخزن جيشا فكسر جنوده ونكس بنوده ، واستولى على محلته إلى أن وقع القبض عليه ، وذلك فى خامس عشر شعبان عام سبع وعشرين وثلثمائة وألف .

ومن حوادثها واقعة الشيخ الكتّانى رحمهُ الله

وذلك أنه لما كثرت الوشاية به عند السلطان المولى عبد الحفيظ لأسباب يطول ذكرها وأظلم الجوّ بينه و بين السلطان وجه عياله وأهله وخاصة أصحابه خفية إلى أتباعه من برابرة بنى مطير قرب مكناس وخرج فارّا بنفسه، فوجه السلطان فى طلبه فوقع القبض عليه وعلى جميع من معه وأتى بهم مصفدين ودخلوا فاس كذلك فى شرّ حالة يتفطر لها قلب الجماد ، واشتدّ غضب السلطان وبطشه به وبوالده وأخيه ومن معهم ، ثم بعد شفاعات عفا عن الكل عدا الشيخ سيدى محمدا الكتانى فانه قتله صبرا ، وكان ذلك فى سابع وعشرى صفر عام سبع وعشرين وثلثمائة وألف .

ومن حوادثها أيضا سريان النار فى عدة أسواق

وذلك أنه فى ليلة السادس عشر من جمادى الثانية عام ثمان وعشرين وثلثمائة وألف احترقت سبع أسواق بمراكش ، ولم يدر كيف كان سبب ذلك ، منها سوق الحرارين والعطارين وما والاهما .

وفى سنة تسع وعشرين وثلثمائة وألف جاء نصرانى من قبل السلطان بافساد البارود الذى بخزائن المخزن بالماء ، فأخرجت منه الصناديق ، وصار الماء يصبّ عليها والأمر لله .

وفى يوم الأحد ثانى وعشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة دخلت محلة فرنسا لفاس .

وأما الوقعة الهائلة التى وقعت بفاس من قبل الدولة الفرنسية ، فكانت يوم الأربعاء تاسع وعشرى ربيع الثانى عام ثلاثين وثلثمائة وألف .

وفى يوم الأربعاء المذكور من السنة المذكورة فى الساعة العاشرة والنصف من النهار انخسفت الشمس نحو ساعة بالكلية ، ولم يبق لها شعاع أصلا ، ثم بعدها أخذت ترجع لضوئها .

وفى رابع رمضان عام ثلاثين وثلثمائة وألف دخل المتثوّر هبة الشنقيطى حضرة مراكش نهارا ، وهو يوم الأحد واستولى عليها ، وبقى فيها اثنين وعشرين يوما ، وخرج منها فارّا فى اليوم السادس والعشرين منه بسبب توجه الدولة الفرنسية لحضرة مراكش ، وفى هذا اليوم استولت على مراكش ، وفى أوّل شهر رجب عام ثلاث وثلاثين وثلثمائة وألف احترق السوق المعروف بسوق الطيار بمراكش .

وفى ثالث عشر رجب عام أربع وثلاثين وثلثمائة وألف نزل مطر غزير حتى خشى الناس الغرق وتضرر به الناس ونزل معه ثلج كثير يقرب من بيضة الحمام، وأفسد الزرع والزيتون وكثيرا من الغلال ، وأظلم الجو يمينا وشمالا ، ومكث المطر ينزل قدر ساعة وربع .

وفى هذه السنة أعنى سنة أربع وثلاثين المذكورة اشتعلت نار الحرب بين فرنسا وألمانيا ، وكان الحادث هائلا .

وفى الحادى عشر من ربيع الثانى عام خمس وثلاثين وثلثمائة وألف نزل مطر غزير كأفواه القرب وتتابع نزول المطر ليلا ونهارا إلى اليوم الرابع عشر ، وفى الثالث عشر منه سقطت ديار عدة وحوانيت ، وخرجت قبله بنحو يومين أو ثلاثة محلة فرنسا قاصدة بلاد سوس مستعدة للقتال فنزل عليها المطر بالحجارة كبيض الحجلة ، ومات منها بسبب ذلك خلق كثير ، وضاعت لها من الجمال نحو المائة والستين ، ورجعت منكسرة بالمطر .

وفى عشية اليوم التاسع من رجب عام خمس وثلاثين بعدهما نزل مطر غزير خشى الناس منه الغرق ، وقوى فيه الرعد كأنه المدافع والتجأت الناس للمساجد ، واشتغلوا بقراءة الاسم اللطيف ومكث المطر قدر ساعة ونصف ، وسقط منه عدة أماكن .

ومن حوادث المائة الرابعة عشرة

أن المخزن المطاع ألزم الرعية المعاملة بالأوراق نظير السكة الفضية والذهبية ، وأخذ مابيدهم من الذهب والفضة ، وكان ذلك فى التاسع والعشرين من جمادى الثانية عام ثمان وأربعين وثلثمائة وألف ، وتسبب بذلك ارتفاع الأسعار ، وانصداع القلوب فى السر والجهار .

ومن حوادث هذه المائة

قضية ابن الخياط الكتبى الفاسى فى تبديله لبعض الكلمات من المصحف الكريم وطبعه له على ذلك وإرساله له لنواحى السودان وجرأه على ذلك حال الوقت وما ظهر فيه من أسباب المقت ، وغاب عنه أن للدين طائفة لاتزال ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة ، فهاجه جيوش كثيرة من هؤلاء ، وبينوا فضيحته وسوء قصده ، وحكموا بقتله وتصيير دمه هدرا لولا تعصب بعض من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر على أنه كان سابقا يظن الناس انه من أشرف بيت بفاس فاذا بالرجل يظهر خلاف مايبطن ، وما ذلك إلا أحبولة لمراميه ، وشباك لأغراضه .

وهذه الفتنة أدهى الفتن التى طار شررها فى الزمان ، وصيرت صاحبها كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران .

ومن حوادثها ما ذكره صاحب قمع التعصب

ونصه حدث عندنا بفاس أن جلالة السلطان نصره الله كتب إلى رئيس المجلس العلمى بالقرويين أنه ظهر تأليف فى عالم المطبوعات من المسمى محمد النظيفى السوسى المراكشى ذكر فيه

صاحبه

صاحبه المذكور أن صلاة الفاتح التى هى من أوراد الطريقة التجانية أنها من كلام الله وليست من تأليف مخلوق ، وقال فيه انها من أفضل الأذكار ، وأمر جلالة السلطان بجمع المجلس العلمى وكل من ينتمى للعلم بفاس وأحضروا التأليف المذكور ، فوجدوا فيه ماذكر ، فكتب علماء فاس فتوى أجمعوا فيها على أن الكلام المذكور ضلال مبين وإفك كبير ـ آلله أذن لكم أم على الله تفترون ـ وأن هذا المتغالى زاد احتيالا على جمع العامة واقتفائهم إياه بتشكيل عطره الفاتح على هيئة دلائل الخيرات ، لأغراض يعلمها عالم الخفيات ، وصار متهاترا متهورا من حيث لايشعر أو ماعلم أن ماتفوه به عداوة لكلام الله ، فما لقياسك أيها المتجرئ من نتيجة ولا اقتباس ، وما لفضيحتك العظيمة من شك ولا التباس ، وما لاشارتك التى أمرت بفهمها من معنى ولا إشارة ، وما لفحش قولك من نظافة ولا طهارة ، إلى أن قالوا بعد تقرير الحكم الشرعى وجلب النصوص المؤيدة لذلك ، فبان من هاته النصوص كلها وجوب تغليظ الزجر على الرجل ، وحسم مادّة تلك الكتب المحتوية على هاته المقالات المبتدعة التى ما أنزل الله بها من سلطان باحراقها ـ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ـ والفتوى مؤرخة فى تاسع وعشرى رجب عام خمس وأربعين وثلثمائة وألف ، وأوّل من أمضاها شيخ الجماعة بفاس ورئيس المجلس الشيخ أحمد بن الخياط ، ثم قضاة فاس، الفقيه العراقى ، والفقيه البنانى ، والفقيه العربى ، ثم بقية علماء فاس ، وهى مذيلة بأكثر من مائة إمضاء من سائر علماء فاس حتى من فقراء الطريقة التجانية .

وقد أتى بالنظيفى المذكور هاته الساعة للرباط للاستنطاق وإجراء اللازم فى القضية .

وهذه همة تذكر ، فنشكر لجلالة السلطان وخدمته للدين والشرع قام بها علماء فاس اهـ .

قلت وقد ظهر فى عالم المطبوعات كتاب فى هذا الموضوع يسمى : بمشتهى الخارف الجانى ، لمفتى المالكية بالمدينة المنوّرة الشيخ محمد الخضر الشنقيطى حفظه الله .

ولعمر الانصاف لقد انجلى فجره الأبلج ، فتبين به المنهج ، وزهق الباطل اللجلج ، وباء المعاند بالحرج ، تكلم بلسان صدق عن حق وعيان ، وكشف الغطاء عن حديث هيان بن بيان ، فلمؤلفه منا جزيل الشكر ، وله من الله جزيل الأجر .

ومن حوادثها ما عليه عمل تركيا اليوم

رأيت فى رحلة بعض العصريين بعد كشفه لأحوال أهل المدن ووصف ماهم عليه اليوم من الزىّ والاعتقاد ، ونصه بعد ماوصل لمدينة استانبول .

قال ومن الأمور العجيبة أن الأتراك أجمعين أكتعين لابسون البرانيط والقبعات الفرنجية فالويل لمن يتجاسر على إعادة الطربوش الأحمر إلى رأسه فى عصر تركيا هذا الجديد .

ثم قال والنساء سافرات يسرن فى الأسواق بلا حجاب . قال وسألت عن أحوال استانبول فأجابونى أنها سيئة علما وتجارة وصناعة وزراعة لانتقال مركز الأحكام والحكام منها إلى أنقرة ، ولكثرة عدد الشبان والرجال الطالبين للشغل .

ورأيت فى بعض الجرائد بتاريخ رابع ذى القعدة عام ست وأربعين وثلثمائة وألف مانصه، بريد الشرق، الحكومة الكمالية والاسلام ، لم يبق للحكومة الكمالية بعد إعلان حرية الأديان وإلغاء التعليم الدينى وإغلاق مدارسه ، وإبطال المحاكم الشرعية ، وإباحة التبرنط ، واقتران المسلمات بغير المسلمين وغير ذلك مما يسميه مصطفى كمال وعصبته الضالة بالاصلاح والتمدين إلا مرحلة واحدة قد طواها مجلس أنقرة اليوم ، وهى تقليد الغربيين فى طلاق الكنيسة .

إلى أن قالت فقد جاء فى برقية من الاستانة أن مجلس أنقرة الملى وافق بالاجماع على مشروع قانون عرضه الوزير الأكبر عصمت باشا فى نبذ الدولة التركية للديانة الاسلامية .

وان هذا القانون يقتضى أوّلا أن الاسلام لم يبق دين الدولة بتركيا . ثانيا أن نواب الأمة ومأمورى الحكومة يقسمون عند أداء يمين الاخلاص بشرفهم أوّلا ، ثم باسم الله اه .

فانظر يا أخى حال الوقت الذى عمّ فيه الغضب والمقت ، والأمر لله ، ولاحول ولا قوّة إلا بالله.

ومن حوادثها

فى يوم العنصرة من عام سبع وأربعين وثلثمائة وألف نزل مطر غزير كأفواه القرب أظلم منه الجوّ مصحوبا بالثلج والريح العاصف ، وكان ذلك وسط النهار وبقى كذلك إلى الغروب .

وفى عام متمّ سبع وأربعين وثلثمائة وألف جاءت الصابة فى القمح والشعير ، وظهر للناس من البركة فيهما وفى غيرهما من المزروعات مالم يسمع من قديم حتى إن بعضهم سمعت من لفظه أنه زرع خروبة من القمح فرفع منها أربعين خروبة بل وأزيد فى بعض الجهات الحوزية ، وهذا الخير عام فى المغرب بل حتى فى المشرق ، والحمد لله أوّلا وآخرا .

(تمّ الاستبصار ، فى ذكر حوادث الأعصار)

ويليـــه

(المعرب عن مشاهير مدن المغرب)

الكتاب الثانى

المعرب عن مشاهير مدن المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَأُمَّتِهِ

حمدا لمن جعل الأرض مهادا للعباد ، وأرساها بشوامخ الأطواد ، ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد ، وصلاة وسلاما على مولانا محمد سيد الأسياد ، وعلى آله وأصحابه البررة الأمجاد .

﴿ أمّا بعد ﴾ فيقول العبد الفقير إلى الله ، محمد بن محمد بن عبد الله ، الموقت بالحضرة المراكشية وقته كان له الله . هـذا تلخيص معرب عن جغرافية المغرب ، ممزوجا بذكر بعض الأمصار ، وما لها من المفاخر والآثار ، ليكون ذلك نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

اعلم أنه يطلق المغرب فى كلام الجغرافيين على ما يشمل المغارب الثلاثة الأدنى والأوسط والأقصى ، أى الممالك الثلاث : تونس ، والجزائر ، ومراكش ، ولـكن عند الاطلاق كما هنا إنما ينصرف إلى مغربنا الأقصى ، ويعرف عند الجغرافيين بمراكش .

حـــدوده

يحدّ شمالا بالبحر الأبيض المتوسط ، وجنوبا بالصحراء الـكبرى ، وشرقا بحكومة الجزائر ، وغربا بالبحر المحيط الاطلانطيقى .

ســـكانه

مازال الاحصاء لم يسفر عن وجه الحقيقة فى عدد سكان المغرب وما أبعد تقديرهم منها ، فمن مقلل يحطهم إلى دون الأربعة ملايين ، ومن مكثر يرفعهم إلى اثنى عشر مليونا ، والأقرب للصواب أن سكانه نحو ثمانيـة ملايين نسمة جلهم بدو من العرب والبربر حتى إن سكان الحواضر لا يصلون للمليون .

أوديتـــه

الأودية كثيرة بالمغرب ، ومنها تتكون أنهاره العظيمة : مثل نهر ملوية ، ونهر سبو ، ونهر تانسيفت ، ونهر أم الربيع ، ونهر درعة ، وجلها تنبعث من جبال الأطلس وتصب فى البحر المحيط .

جبـــاله

جباله كثيرة يشقه منها جبل درن المعروف بالأطلس يبتدئ من أقصى بلاد سوس إلى أن يدخل بلاد الجزائر وأعلى ذراه القمة العليا وسط الأطلس الكبير .

ومن جباله العظيمة جبل تينفوت البالغ علوّ قنه 4070 مترا حيث يوجد الثلج متراكما .

مواليـــده

ماشئت من حيوانات أهلية وغير أهلية على تنوعها ، ومن نباتات وأشجار مثمرة وغيرها ، وأنواع شجر اليقطين وسائر الرياحين ، ومن محصولات فلاحيـة بأصنافها ، ومن معادن كثيرة حتى الذهب والفضة ، ومن مياه معدنية فى كثير من الجهات ، ومنابع زيتية كالبترول [النفط] وغبار معدنى من نوع سماد الفسفات إلى غير هذا من المواليد الطبيعية .

تاريخـــه

كان أوّلا فى حكم ملوك البربر الأقدمين ، ثم صار تابعا للدولة الرومانية أيام عزّها ، ثم استولى عليه القائد اليون من اسبانيا ، ثم رجع للروم فى عهد أحد قياصرتهم ، ومن يدهم أخذه العرب وفتحوه فى القرن الأوّل الهجرى ، ومن هـذا الحين صار مملكة إسلامية للأسر الملوكية من الادريسيين مدّة 183 ، وآل أبى العافية وبنى زناتة نحو 100 سنة ، والمرابطين مدّة 80 سنة والموحدين مدّة 152 ، والمرينيين نحو 200 سنة ، والسعديين مدّة 148 سنة ، والعلويين الحاليين من عام 1075 إلى اليوم بل وحتى الغد ، وإلى ماشاء الله من بعد .

عواصـــمه

فاس عاصمة الشمال وقاعدة جميع ملوك المغرب، يبلغ سكانها نحو المائة والعشرين ألف نسمة .

ومراكش عاصمة الجنوب وقاعدة ملك المرابطين ، سكانها نحو المائة ألف نسمة ، ومكناس عاصمة الفتح الاسلامى الأوّل، وقاعدة ملك الدولة الاسماعيلية ، يبلغ سكانها نحو الثلاثين ألف نسمة .

ورباط الفتح وهو العاصمة المخزنية اليوم ، يبلغ عدد سكانها نحو الأربعين ألف نسمة .

ذكر أسماء المدن والمراسى المغربية

وفى سلسـلة الذهب مانصه : مدينة اغمات وريكة وهيلانة قديمتان كانتا فى الجاهليـة بينهما ثمانية وعشرون ميلا فتحهما عقبة بن نافع رضى الله عنه مع مدينة نفيس سـنة اثنتين وستين من الهجرة ، وجد فيها نصارى البربر والروم اهـ .

الدار البيضاء

وهى أعظم مرسى مغربى على ساحل البحر المحيط من بلاد تامسنا كانت تعرف فى القديم بالبيضاء ، ثم باسم آنفى ، فتحها عقبة بن نافع سنة اثنتين وستين من الهجرة ، وظهر بها صالح بن طريف البرغواطى سنة 129 فلم يزل ملوك المغرب يحاربون أتباعه بها إلى أن استأصل شأفتهم الأمير أبو بكر اللمتونى رحمه الله ، وذلك سنة 451 وفى سنة 920 ملكها البرتغال وجدّد بناءها وسماها كازة بلانكة بمعنى الدار البيضاء ولم يزل بها إلى سنة 1154 تاريخ دخولها فى حكم الدولة العلوية على يد السلطان مولاى عبد الله قدّس سرّه .

آزمــــور

مدينـة قديمة على مصب وادى أم الربيع كانت مركزا حصينا لدولة برغواطة إلى أن قدر الله إسلامها على يد الأمير أبى بكر اللمتونى بعد سنة 451 .

وفى سنة 914 استولى عليها البرتغال ولم ينجل عنها إلا بعد أن خربها أيام أبى العباس بن الأعرج الزيدانى سنة 993 ثم تداولتها ملوك الدولة العلوية .

الجـــديدة

وهى على ساحل المحيط ببلاد تامسنا ، تتصل بها قبيلة دكالة ، أسستها دولة البرتغال سنة 907 وكان محلها يدعى بالبريجة ، به برج يقال له برج الشيخ بين آزمور وتيط معدّ للحراسة.

وفى سنة 1182 فتحها السلطان سيدى محمد بن عبد الله ، وانتقل البرتغاليون عنها .

مراكش

عاصمة الجنوب موقعها فى سفح جبل الكلاوى يبعد عن البحر بنحو الستين ميلا ، أسسها يوسف بن تاشفين سنة 454 وصيرها قاعدة دولة صنهاجة اللمتونيين ، ثم تداولها ملوك الاسلام من بعده وفى أيام الدولة السعدية صارت مقرّ أمارة الزيدانيين فبنوا بها قصورهم وخلفوا آثارهم وقبورهم.

وفى سـنة 1079 دخلها السلطان مولاى الرشيد العلوى ، وصارت ضمن أملاك هذه الدولة .

رباط الفتح

على ضفة وادى أبى رقراق قرب مصبه من البحر المحيط ، كان المهدى بن تومرت هو الذى أشار على الموحدين ببنائه ، وصرح لهم بأنه فيه سيفتح الله عليهم ، فبنى عبد المؤمن قصبته سنة 545 .

ثم جاء ولده يوسف فأسس المدينة ، ولكن عاقه الأجل المحتوم عن إتمامها ، فجاء يعقوب بن يوسف وأتمها وشيد أسوارها وأبوابها سنة 593 ثم سماها رباط الفتح .

سـلا

قيل أوّل بناء بناه البربر لما دخلوا المغرب مدينة سلا ، وقيل إن الاسكندر لما دخل المغرب بناها وبنى مدينة شالة مقابلة لها .

ولم تزل تتداولها ملوك الاسلام إلى أن استولى عليها الاسبان وأوقع بأهلها سنة 658 فى غرّة عيد الفطر أيام يعقوب بن عبد الحق ، فقام فى الحين من تازة ودخلها عنوة وأثخن فى الاسبان جزاء وفاقا .

وفى سـنة 1013 ظهر بها المجاهد أبو عبد الله العياشى الشهير ، فكانت له وقائع كثيرة مع الاسبانيين والبرتغاليين والسعديين والدلائيين والأندلسيين إلى أن قتل رحمه الله سـنة 1051 فدخلت مدينة سلا من بعده فى حكم الدلائيين إلى أن انتزعها من يدهم السلطان مولاى الرشيد سنة 1079 .

القنيطـــرة

مدينة جديدة حادثة الوجود على ضفة وادى سبو، أصلها قصبة تعرف بقصبة علاوه على باسم بانيها فى عهد السلطان المقدّس المولى حسن ، كانت بها خفارة عسكرية فى القديم ، وأما اليوم فصارت نقطة تجارية مقصودة للاتجار وقبول السلع واصدارها .

مكناس

مدينة مكناس القديمة هى المدينة الأثرية التاريخية الباقية آثارها فى سفح جبل زرهون، وتعرف بمدينة وليلى نسبة إلى بانيها وليل الرومانى كما تعرف فى لسان العامة بقصر فرعون .

مدينة زرهون

غزاها عقبة بن نافع سـنة 62 وفى سنة 172 نزلها مولانا إدريس رضى الله عنه فاتح المغرب وبها كان من أمره ما كان ،ولم تزل قائمة سالمة إلى أن حاصرها عبدالمؤمن وخربها وهدم أسوارها سنة 541 .

ثم بنى بالقرب منها مدينة مكناس الحالية ، ولكن فى شكل حصن كان يعرف بتاكرارت بمعنى المحلة ، فلما جاء بنو مرين اعتنوا بتوسيع نطاقه إلى أن صار مدينة واسـعة الارجاء فتحها المولى رشيد العلوى سنة 1807 ودخلت فى حكم الدولة العلوية إلىأن صارت مقرّ إمارة المولى إسماعيل مجدّد بنائها وصاحب قصورها الضخمة التى حاكى بها قصور فرساى لما بلغه وصفها على لسان أحد سفرائه .

فاس

عاصمة الشمال الشهيرة فى التاريخ أسسها مولانا إدريس بن إدريس سـنة 192 فكانت

قاعدة ملك لبنيه ولسائر ملوك المغرب من بعده ، وكانت فى أوّل أمرها تنقسم إلى مدينتين عدوة القرويين ، وعدوة الأندلسيين مدينة تقابلها يجرى بينهما الوادى كما يجرى بين الرباط وسلا ، فلما دخلها يوسف بن تاشفين سنة 462 أمر بهدم الأسوار الحاجزة بين المدينتين وصيرهما مدينة واحدة ثم فى سنة 674 أمر يعقوب بن عبد الحق المرينى ببناء المدينة البيضاء المعروفة بفاس الجديدة جعلها ملاصقة لمدينة فاس على ضفة واديها المخترق لها ، ولم تزل دار إمارة بنى مرين إلى أن صارت مع مدينة فاس فى حوزة السعديين ثم فى حوزة العلويين .

مدينة آسفى

مدينة قديمة بناها أمراء صنهاجة لما استقرّوا بالمغرب .

مدينة شوشاوة

أسسها ملوك المصامدة سابقا كما أسس ملوك قبائل حاحة قلعة الصويرة وقلعة أكدير ، وكما أسس ملوك زناتة مدينة درعة ، وكما أسس أمراء فطواكه مدينة دمنات قبل الاسلام ، وكما أسس ملوك بنى يفرن مدينة أميلية عام 92 من الهجرة .

وأسست العرائش عام 223 والمؤسس لها البردقيز ، وأسست المهدية عام 326 والمؤسس لها أمير بنى يفرن ، وأسست مدينة تطوان عام 730 والمؤسس لها بنو مرين ، وأما وزان فقد أسس زاويتها مولانا عبد الله الشريف العلمى وذلك سنة 1012 .

وأسست الصويرة عام 1178 والمؤسس لها السلطان سيدى محمد بن عبد الله العلوى ، وأسست مدينة افضالة عام 1182 والمؤسس لها السلطان المذكور أعلاه .

تازة

مدينة قديمة من أعظم معاقل قبائل مكناسة فى سفح جبل غياثة تداولتها ملوك الاسلام من عهد الفتح الأوّل إلى أن جاء عبد المؤمن الموحدى فجدّد بناءها وشيد قصبتها وأسوارها ، وفى سنة 1075 فتحها مولاى الرشيد العلوى وصارت فى حكم الدولة العلوية من ذلك العهد إلى سنة 1321 لما دخلها الثائر الجيلانى الزرهونى وادّعى أنه المولى محمد بن السلطان المولى حسن ، وخطب له بهذا الاسم على منابرها ، وبقى بها إلى أن وقع الظفر به على يد السلطان السالف سنة 1327 .

وجدة

مدينة قديمة أحدثها بنو يفرن أمراء تلمسان أيام ملكهم بها قبل الاسلام فاندثرت ثم جدّد بناءها زين بن عطية المغراوى سنة 384 .

ثم خربت فى أيام اللمتونيين فأعاد بناءها الموحدون ، ثم هدمها يعقوب بن عبد الحق المرينى

فأعاد بناءها بنو زيان ، ثم تعاقبتها تارة إمارة الترك أهل بلاد الجزائر ، وتارة إمارة السعديين إلى أن دخلت فى حكم العلويين .

تنس

اعلم أن هـذا القطر تداولته ولاية الرومانيين والقرطاجنيين منذ قرون عديدة قبل البعثة ، وصدر من زمن الخلفاء الراشدين إلى أن افتتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه مصر ووصل أمير جيشها بالفتح إلى برقة بين طرابلس ومصر ، فأرسل يستأذنه فى فتح افريقيـة يعنى بها تنس ، فأرسل إليه يقول : إنها الغدارة المغدور بها لاتفتح مادمت حيا ، ولما ولى الخلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه أمر بفتح افريقية ، ففتحت سـنة 29 هجرية على يد عبد الله بن سعد بن أبى سرح رضى الله عنه مصحوبا بعشرين ألفا من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم .

سجلماسـة

وهى من أشهر مدن المغرب ، واسـعة الأقطار ، عامرة الديار ، كثيرة البركات ، وليس لها حصن بل قصور شاهقة وعمارات متصلة ، وبها بساتين كثيرة وثمار مختلفة ، وبها نوع من الرطب أحلى من الشهد ونواه فى غاية الصغر ، وقد أسست هذه المدينة قبل الاسلام والمؤسس لها ملوك بنى مدرار .

تارودانت

من أشهر مدن المغرب ، وبها أنهار جارية وبساتين مشتبكة وفواكه مختلفة وبقربها جبل وبأعلاه أكثر من سبعين حصنا ، وقلعة ، منها حصن منيع هو عمارة محمد بن تومرت ملك المغرب إذا أراد أربعة من الناس أن يحفظوه من أهل الأرض حفظوه لحصانته ، وقد أسست هذه المدينة قديما قبل الاسلام أسسها البربر لما استقرّ بالمغرب .

بلاد السوس الأقصى

وهو إقليم كبير فيه مدن عظيمة قديمة ، وقرى متصلة ، وعمارات متقاربة ، وبه أنواع الفواكه الجليلة المختلفة الألوان والطعوم ، وبه قصب السكر الذى ليس على وجه الأرض مثله طولا وغلظا وحلاوة إلى غـير ذلك مما له من المحاسن ، وفيما ذكر كفاية لمن له بهـذا الموضع رغبة وعناية ، وصلى الله وسلم على مولانا محمد وآله وصحبه وأمته .

(تم المعرب عن مشاهير مدن المغرب)

ويليه (نزهة المالك والمملوك فى تراجم مشاهير الملوك)

الكتاب الثالث

نزهة المالك والمملوك

فى تراجم مشاهير الملوك

بسم الله الرحمن الرحيم

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَأُمَّتِهِ

الحمد لله المنفرد بالملك والبقاء، الحاكم على جميع خلقه بالافتقار إليه والفناء، والصلاة والسلام على مولانا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

﴿ أمّا بعد ﴾ فيقول العبد الفقير إلى الله، محمد بن محمد بن عبد الله، الموقت بالحضرة المراكشية وقته كان له الله، لايخفى على كل نبيه لبيب، وأديب أريب، أن فى علم التاريخ عبرة لمن اعتبر، وموعظة لمن تفكر، وقد عنّ لى أن أذكر تراجم مشاهير ملوك الشرق والغرب على سبيل الاختصار، لما فى ذلك من الفوائد التى لاتخفى على ذوى الاستبصار، وسميته :

نزهة المالك والمملوك، فى تراجم مشاهير الملوك

جعلها الله من الأعمال المحمودة فى الحال والمآل، وأدام بها النفع بفضله إنه كريم مفضال، فأقول : طالبا من ذى القوة والكرم القبول.

مشاهير ملوك بنى أُمية

أوّلهم الصحابى الجليل سيدنا معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، بويع البيعة العامّة سنة إحدى وأربعين، وتوفى بدمشق فى نصف رجب سنة ستين، واختلف فى عمره، فقيل خمس وثمانون وقيل تسعون، وكانت خلافته منذ خاص له الأمر تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وهو أوّل من اتخذ المقصورة فى المساجد، وأوّل من خطب جالسا، وأوّل من أقام الحرس والحجاب، وأوّل من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحربة، وأوّل من وضع البريد، وأوّل من شمّ الغالية التى تتخذ من الطيب، وأوّل من تنعم فى مأكله ومشربه وملبسه، وكان رضى الله

عنه جوادا حليما ، وله فى الحلم أخبار كثيرة ، من ذلك ماذكره الحافظ الدميرى فى حياة الحيوان أنه لما تزوج بالنجدية ميسون الكلبية بنت بحدل ، وكانت ذات جمال باهر ، وحسن غامر ، أعجب بها معاوية ، وهيأ لها قصرا مشرفا على الغوطة ، وزينه بأنواع الزخارف ، ووضع فيه من أوانى الفضة والذهب مايضاهيه ، ونقل إليه من الديباج الرومى الملوّن والموشّى ماهو لائق به ، ثم أسكنها مع وصائف لها كأمثال الحور العين ، فلبست يوما أفخر ثيابها وتزينت وتطيبت بما أعدّ لها من الحلى والجوهر الذى لايوجد مثله عند غيره ، ثم جلست فى روشنها وحولها من الوصائف ، فنظرت إلى الغوطة وأشجارها ، وسمعت تجاوب الطير فى أوكارها ، وشمت نسيم الأزهار ، وروائح الرياحين والأنوار ، فذكرت نجدا وحنت إلى أترابها وأناسها ، وتذكرت مسقط رأسها ، فبكت وتنهدت فقالت لها بعض حظاياها ما يبكيك ؟ وأنت فى ملك يضاهى ملك بلقيس ، فتنفست الصعداء ، ثم أنشدت :

لبيت تخفق الأرواح فيـه * أحبّ إلىّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقرّ عينى * أحبّ إلىّ من لبس الشفوف
وأكل كسيرة فى قعر بيتى * أحبّ إلىّ من أكل الرغيف
وأصوات الرّياح بكل فجّ * أحبّ إلىّ من نقر الدفوف
وكلب ينبح الطراق دونى * أحبّ إلىّ من قطّ ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعب * أحبّ إلىّ من بغل زفوف
وخرق من بنى عمى نحيف * أحبّ إلىّ من علج عنوف

فلما دخل معاوية عرفته الحظية بما قالت ، وقيل إنه سمعها وهى تنشد ذلك ، فقال مارضيت ابنة بحدل حتى جعلتنى علجا عنوفا هى طالق ثلاثا مروها فلتأخذ جميع مافى القصر فهو لها ، ثم سيرها إلى أهلها بنجد ، وكانت حاملا بيزيد ، فولدته بالبادية وأرضعته سنتين ، ثم أخذه معاوية منها بعد ذلك .

وخطب رضى الله عنه يوما ، فقال : إن الله تعالى يقول ــ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقـدر معلوم ــ فعلام تلوموننى إذا قصرت فى عطاياكم ؟ فقال له الأحنف وإنا والله لانلومك على مافى خزائن الله ، ولـكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه فجعلته فى خزائنك وحلت بيننا و بينه .

وكلم معاوية الأحنف فى شىء بلغه عنـه ، فأنكره الأحنف ، فقال له معاوية بلغنى عنك الثقة ، فقال له الأحنف إن الثقة لايبلغ مكروها .

وذكر الامام أبو علىّ القالى ، فى كتاب الأمالى أن رجلا جاء إلى معاوية رضى الله عنـه ، فقال له سألتك بالرحم التى بينى و بينك إلا ماقضيت حاجتى ، فقال له معاوية أمن قريش أنت ؟ قال لا . قال فأىّ رحم بينى و بينك ؟ قال رحم آدم عليه السلام . قال رحم مجفوّة ، والله لأكوننّ أوّل من وصلها ، ثم قضى حاجته .

يحكى أن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قدم على معاوية بالشام ، فأنزله فى

دار عياله ، وأظهر من إكرامه مايستحقه ، فغاظ ذلك فاختة بنت قرظة زوج معاوية ، فسمعت ذات ليلة غناء عنـد عبد الله بن جعفر ، فجاءت إلى معاوية ، فقالت هلمّ فاسمع مافى منزل الذى جعلته من لحمك ودمك وأنزلتـه بين حرمك ، فجاء معاوية ، فسمع شيئا حرّكه وأطربه ، فقال والله إنى لأسمع شيئا تكاد الجبال أن تخرّ له ، ثم انصرف فلما كان فى آخر الليل سمع معاوية قراءة عبـد الله بن جعفر وهو قائم يصلى فنبه فاختـة ، وقال لها اسمعى مكان ما أسمعتنى ،هؤلاء قومى ،ملوك بالنهار ورهبان بالليل .

ثم إن معاوية أرق ذات ليلة ، فقال لخادمه اذهب فانظر من عند عبد الله بن جعفر وأخبره أنى قادم عليه فذهب وأخبره ، فأقام عبدالله كل من كان عنده ، فلما جاء معاوية لم ير فى المجلس غير عبدالله فقال مجلس من هذا؟ قال عبد الله هذا مجلس فلان ياأمير المؤمنين ،فقال معاوية مره فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد . قال مجلس من هذا ؟ قال مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين . قال إن أذنى عليلة فمره أن يرجع إلى مجلسه ، وكان مجلس بديح المغنى ، فأمره عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه ، فقال له معاوية داو أذنى من علتها ، فتناول العود وغنى وقال:

ودع سعاد فان الركب مرتحل ٭ وهل تطيق وداعا أيها الرجل

فحرّك عبد الله بن جعفر رأسه ، فقال له معاوية لم حركت رأسك يا ابن جعفر ؟ قال أريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لقيت لأبليت ، ولو سئلت لأعطيت ، وكان معاوية قد خضب ، فقال ابن جعفر لبديح هات غير هذا ، وكان عند معاوية جارية أعزّ جواريه عليه ، وكانت تتولى خضابه ، فغنى بديح وقال :

أليس عنـدك شكر للتى جعلت ٭ ما ابيض من قادمات الرأس كالحمم

وجـددت منك ما قد كان أخلقه ٭ صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طربا شـديدا ، وجعل يحرّك رجله ، فقال له ابن جعفر يا أمير المؤمنين إنك سألتنى عن تحريك رأسى فأجبتك وأخبرتك ، وأنا أسألك عن تحريك رجلك ؟ فقال كل كريم طروب، ثم قام وقال : لايبرح أحد منكم حتى يأتى له إذنى ثم ذهب ، فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كسوته ، وإلى كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب .

وقدم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما على معاوية مرّة فأهدى إليه من هدايا النوروز حللا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة ، ووجهها إليه مع حاجبه ، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها ،فقال له هل فى نفسك منها شىء ؟ قال نعم والله إن فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام ، فضحك عبد الله وقال خذها فهى لك . قال جعلت فداك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيحقد علىّ . قال فاختمها بخاتمك وسلمها إلى الخازن ، فاذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلا ، فقال الحاجب والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم .

وقال أبو جهمر بن حذيفة يوما لمعاوية أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال :

يقينا مانخاف وإن ظننا ٭ به خـيرا أراناه يقينا

نميـل على جوانبـه كأنا ٭ إذا ملنا نميل على أبينا

نقلبـه لنخبر حالتيـه ☼ فنخبر منهما كرما ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم .

ودخل عليـه الحسن بن علىّ رضى الله عنهما يوما وهو مضطجع على سريره فسلم عليـه وأقعده عند رجليه وقال له ألا تعجب من قول أمّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها تزعم أنى لست للخلافة أهلا ولا لها موضعا ، فقال الحسن أو عجبا مما قالت . قال كل العجب . قال الحسن وأعجب من هـذا كله جلوسى عند رجليك ، فاستحيا معاوية واستوى جالسا ، ثم قال أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتنى كم عليك دينا . قال الحسن مائة ألف درهم ، فقال يا غلام أعط أبا محمد ثلثمائة ألف درهم مائة ألف يقضى بها دينه ، ومائة ألف يفرّقها على مواليه ، ومائة ألف يستعين بها على نوائبه وسوغها إليه الساعة .

ويروى أن معاوية خرج حاجا فمرّ بالمدينة ففرّق على أهلها أموالا ولم يحضر الحسن بن علىّ ابن أبي طالب رضى الله عنهما ، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علىّ ، فقال له معاوية مرحبا برجل تركنا حتى نفد ماعندنا وتعرض لنا ليبخلنا ، فقال له الحسن وكيف ينفد ما عندك وخراج الدنيا يجبى إليك ، فقال معاوية إنى قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند ، فقال الحسن قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة .

يقول جامعه محمد الموقت كان الله له ، والباعث لمعاوية على ذكر نسبه لأمه فى هذا الموضوع هو الافتخار ، ولما استشعر ذلك منه مولانا الحسن رضى الله عنه أجابه بما يناقض ذلك ليعلم أن الفخر الحقيقى هو لبيت النبوّة والرسالة لا لشيء آخر فتنبه .

ولهند هـذه حكاية غريبة وهى أنها كانت تحت الفاكه بن المغيرة ، وكان الفاكه من فتيان قريش ، وكان له بيت ضيافة خارجا عن البيوت تغشاه الناس من غـير إذن فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند ، ثم نهض لحاجة ، فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه ، فلما رأى هنـدا رجع هاربا ، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضربها برجله ، وقال لها من هذا الذى خرج من عندك ؟ قالت ما رأيت أحدا قط وما انتبهت حتى أنبهتنى . قال فارجعى إلى بيت أبيك وتكلم الناس فيها ، فقال أبوها وهو عتبـة بن ربيعة يابنيـة إن الناس قد أكثروا فيك الكلام فان يكن الرجل صادقا دسيت عليـه من يقتله لينقطع كلام الناس ، وإن يك كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن ، فقالت له والله ما هو علىّ بصادق ، فقال له يا فاكه إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن ، فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج أبوها فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة ، فلما شارفوا البلاد قالوا غدا نرد على هذا الرجل فتغيرت حالة هنـد ، فقال لها أبوها إنى أرى حالك قد تغير وما هـذا إلا لمكروه عندك ، فقالت لا والله ولكن أعرف أنكم تأتون بشرا يخطىء ويصيب ولا آمنه أن يسمنى بسيما تكون علىّ سبة ، فقال لها لاتخشى فسوف أختبره ، فصفر لفرسه حتى أدلى ، ثم أدخل فى إحليله حبة حنطة وربطه فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم ، فلما تغدوا . قال له عتبة قد جئناك فى أمر وقد خبأنا لك خبيئة نختبرك بها . قال خبأتم لى ثمرة فى كمرة . قال إنى أريد أبين من هذا . قال حبة

بر فى إحليل مهر . قال فانظر فى أمر هؤلاء النسوة ، فجعل يأتى إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها ويقول لها انهضى حتى بلغ هندا ، فقال انهضى غير رسحاء ولازانية ، وستلدين ملكا اسمه معاوية ، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها فجذبت يدها من يده وقالت إليك عنى ، فوالله إنى لأحرص أن يكون ذلك من غيرك فتزوجها أبو سفيان فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه .

ويروى أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه يسأله عن الشىء ولا شىء ، وعن دين لا يقبل الله غيره ، وعن مفتاح الصلاة ، وعن غرس الجنة ، وعن صلاة كل شىء ، وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وعن رجل لا أب له ، وعن رجل لا أم له ، وعن قبر جرى بصاحبه ، وعن قوس قزح ماهو ، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها ، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة ولم يظعن قبلها ولا بعدها ، وعن شجرة نبتت من غير ماء ، وعن شىء تنفس ولا روح له ، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد ، وعن البرق والرعد وصوته ، وعن المحو الذى فى القمر ، فقيل لمعاوية لست هناك ، ومتى أخطأت فى شىء من ذلك سقطت من عينه فاكتب إلى عبد الله بن عباس يخبرك عن هذه المسائل ، فكتب إليه فأجابه : أما الشىء فالماء . قال الله تعالى ـ وجعلنا من الماء كل شىء حى ـ وأما لاشىء فانها الدنيا تبيد وتفنى ، وأما دين لا يقبل الله غيره فلا إله إلا الله ، وأما مفتاح الصلاة فالله أكبر ، وأما غرس الجنة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وأما صلاة كل شىء فسبحان الله وبحمده ، وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فآدم ، وحواء ، وناقة صالح ، وكبش إسماعيل ، وأما الرجل الذى لا أب له فالمسيح ، وأما الرجل الذى لا أم له فآدم عليه السلام ، وأما القبر الذى جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام سار به فى البحر ، وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق ، وأما البقعة التى طلعت عليها الشمس مرة واحدة فبطن البحر حين انفلق لبنى إسرائيل ، وأما الظاعن الذى ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين ، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم فأخذوا التوراة معذرين ، فرده الله تعالى إلى موضعه ، فذلك قوله تعالى ـ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ـ الآية ، وأما الشجرة التى نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التى أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام ، وأما الشىء الذى تنفس بلا روح فالصبح . قال الله تعالى ـ والصبح إذا تنفس ـ وأما اليوم فعمل ، وأمس فمثل ، وغد فأجل ، وبعد غد فأمل ، وأما البرق فمخاريق بأيدى الملائكة تضرب بها السحاب ، وأما الرعد فاسم الملك الذى يسوق السحاب وصوته زجره ، وأما المحو الذى فى القمر ، فقال الله تعالى ـ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ـ ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل .

﴿ نادرة ﴾ قال فى كنز العلوم واللغة : إن محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية

كان شديد القوة وله فى ذلك أخبار عجيبة ، منها أن ملك الروم أرسل لمعاوية رجلين أحدهما طويل جدا ، والآخر قوى جدا من باب الفاكهة والاغراب ، فوجد معاوية من هو أطول من الرومى ، ووجه إلى محمد ابن الحنفية لشهرته بالقوة ، فلما حضر . قال محمد للرومى إن شئت فاجلس وأمسك يدى فأقعدنى إن استطعت ، وإن شئت فقم وأنا أجلس فأمسك بيدك وأقعدك ، فاختار الرومى الأولى ، فجذب إليه محمدا فلم يستطع أن يقعده بل جذبه محمد فأقامه ، ثم جلس محمد ووقف الرومى فتجاذبا فجذبه محمد فأقعده ، فرجع الروميان إلى ملكهما مهزومين .

وقيل لمحمد ابن الحنفية رضى الله عنه هذا كيف كان أبوك يقحمك المهالك ويولجك المضايق دون أخويك الحسن والحسين ؟ فقال لأنهما كانا عينيه وكنت يديه ، فكان يقى عينيه بيديه ✲ ولد لسنتين بقيتا من خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وتوفى سنة ثلاث وسبعين أو ثلاث وثمانين بالمدينة اه

﴿ تتميم ﴾ سأل معاوية رضى الله عنه سعيد بن العاص عن المروءة ، فقال : العفة والحرفة .

وكان رضى الله عنه يقول : إنى لأستحى أن أظلم من لايجد علىّ ناصرا إلا الله ، وقال يوما لرجل من قريش إياك والسلطان فانه يغضب غضب الصبىّ ، ويبطش بطش الأسد .

وكان رضى الله عنه من أشدّ خلق الله فحصا وبحثا عن سرائر خاصته وعامّته ، وكانت له عيون كثيرة على الرعية حتى كان يصبح فيعلم كل شىء جرى فى دار مملكته من خير وشرّ ، ويمسى فيعلم كل شىء أصبحوا عليه اقتفاء بعمل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فان عمر رضى الله عنه كان علمه بمن نأى من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه على مهاد فلم يكن له فى قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحى أمير ولا عامل إلا وله عليه عين لايفارقه ، فكانت أخبار النواحى كلها عنده كل صباح ومساء ، وبذلك ساس الرعية ، فاقتفى معاوية فعله وطلب أثره فانتظم له أمره وطالت فى الملك مدّته .

عبد الملك بن مروان

بويع له بالخلافة سنة خمس وستين ، وتوفى فى شوّال سنة ست وثمانين ، وله ثلاث وستون سنة ، وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة عشر يوما منها ثمان سنين مزاحما لابن الزبير ثم انفرد بمملكة الدنيا إلى أن مات رحمه الله .

وهو أوّل من سمى بعبد الملك فى الاسلام ، وأوّل من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام قال مالك بن عمارة اللخمى كنت جالسا فى ظلّ الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان ، ومعه قبيصة بن ذؤيب ، وعروة بن الزبير ، وكنا نخوض فى الفقه مرة ، وفى المذاكرة مرة ، وفى أشعار العرب وأمثال الناس مرّة ، فكنت لاأجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع فى المعرفة والتصرف فى فنون العلم ، وحسن استماعه إذا حدث ، وحلاوة لفظه إذا حدث ، فخلوت معه ليلة ، فقلت له والله إنى لمسرور بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك ، وإقبالك على جليسك ، فقال إن تعش قليلا فسترى العيون طامحة إلىّ والأعناق نحوى

متطاولة ، فاذا صار الأمر إلىّ فلعلك أن تنقل إلىّ ركابك فلأملأنّ يديك ، فلما أفضت إليه الخلافة توجهت إليه فوافيته يوم الجمعة وهو يخطب على المنبر ، فلما رآنى أعرض عنى ، فقلت لعله لم يعرفنى أو عرفنى وأظهر لى نكره ، فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب فقال : أين مالك بن عمارة ؟ فقمت فأخذ بيدى وأدخلنى عليه ، فمدّ إلىّ يده وقال : إنك تراءيت لى فى موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت ، فأما الآن فرحبا وأهلا كيف كنت بعدى ؟ فأخبرته فقال لى أتذكر ما كنت قلت لك ؟ قلت نعم ، فقال والله ماهو بميراث وعيناه ولا أثر رويناه ، ولكنى أخبرك بخصال منى سمت نفسى إلى الموضع الذى ترى : ماخنت ذا ودّ قط ، ولا شمت بمصيبة عدوّ قط ، ولا أعرضت عن محدّث حتى ينتهى حديثه ، ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذا بها ، فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتى وقد فعل ، ثم دعا بغلام فقال له يا غلام بوّئه منزلا فى الدار ، فأخذ الغلام بيدى وأفرد لى منزلا حسنا فكنت فى ألذّ حال وأنعم بال ، وكان يسمع كلامى وأسمع كلامه ، ثم أدخل عليه فى وقت عشائه وغدائه فيرفع منزلتى ويقبل علىّ ويحادثنى ويسألنى مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لى عشرون ليلة ، فتغديت يوما عنده ، فلما تفرق الناس نهضت قائما ، فقال على رسلك ، فقعدت فقال : أىّ الأمرين أحبّ إليك ؟ المقام عندنا مع النصفة لك فى المعاشرة ، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة ، فقلت يا أمير المؤمنين فارقت أهلى وولدى على أنى أزور أمير المؤمنين وأعود إليهم ، فان أمرنى أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد ، فقال لا بل أرى لك الرجوع إليهم والخيار لك بعد فى زيارتنا ، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار وكسوناك وحملناك أترانى قد ملأت يديك فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعدا إذا شئت صحبتك السلامة .

قال ابن القرية دخلت على عبد الملك ، فبينما أنا عنده إذ دخل سبعة عشر ولدا ، فقلت من هؤلاء الفتية يا أمير المؤمنين ؟ فقال أولادى ، فقلت بارك الله لك فيهم كما بورك لأبيك فيك ، وبارك لهم فيك كما بورك لك فى أبيك ، فحشا فى درّا .

﴿ عجيبة ﴾ قال ابن عمير كنت بين يدى عبد الملك بن مروان بقصره ، فقلت له رأيت فى هذا القصر عجبا رأيت رأس الحسين على ترس بين يدى عبيد الله بن زياد ، ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدى المختار ، ثم رأيت رأس المختار بين يدى مصعب بن الزبير ، ثم رأيت رأس مصعب بين يديك ، فلما سمع ذلك منى أمر بهدم القصر .

وقف يهودى لعبد الملك بن مروان ، فقال يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمنى فأنصفنى منه وأذقنى حلاوة العدل فأعرض عنه ، فوقف له ثانية فلم يلتفت إليه ، فوقف له مرّة ثالثة ، وقال يا أمير المؤمنين إنا نجد فى التوراة المنزّلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه ان الامام لا يكون شريكا فى ظلم أحد حتى يرفع إليه ، فاذا رفع إليه ذلك ولم يزله فقد شاركه فى الظلم والجور ، فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث فى الحال إلى من ظلمه فعزله وأخذ لليهودى حقه منه .

تغيظ عبد الملك بن مروان على رجل ، فقال والله لئن أمكننى الله منه لأفعلنّ به كذا

وكذا ، فلما صار بين يديه . قال له رجاء بن حيوة : يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت فاصنع ما أحبّ الله فعفا عنه وأمر له بصلة .

ورفع إلى عبد الملك أعرابى يقال له حمزة سرق وقامت عليه البينة فهمّ عبد الملك بقطع يده، فكتب إليه حمزة من السجن يقول :

يدى يا أمير المؤمنين أعيذها ☆ بعفوك أن تلقى مقاما يشينها
فلا خير فى الدنيا وكانت خبيثة ☆ إذا ما شمال فارقتها يمينها

فأبى عبد الملك الاقطع يده ، فدخلت عليه أم حمزة وقالت يا أمير المؤمنين بنىّ وكاسبى وواجدى ، فقال لها عبد الملك بئس الكاسب لك هذا حدّ من حدود الله تعالى ، فقالت يا أمير المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التى تستغفر الله منها ، فقال عبد الملك ادفعوه إليها وخلى سبيله .

دخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان فوجده يتأوّه ، فقال يا أمير المؤمنين لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب و يباسطك استرحت ، فقال لست بصاحب لهو ، فقال ما الذى تشكوه يا أمير المؤمنين ؟ قال هاج بى عرق النسا فى ليلتى هذه ، فبلغ منى ما ترى ، فقال إن بديحا مولاى أرقى الخلق منه ، فأمر باحضاره ، فلما مثل بين يديه . قال له عبد الملك يا بديح ارق رجلى ، فقال يا مولاى أنا أرقى الناس لها ، ثم وضع يده عليها وجعل يقول ما لا يسمع ، فقال عبد الملك قد وجدت راحة بهذه الرقية ، أين فلانة ائتونى بها تكتبها لئلا يهيج بى الوجع بالليل فقال بديح الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جائزتى ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال يا أمير المؤمنين الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جائزتى إلى بيتى . قال تحمل فحملت ، فقال يا أمير المؤمنين الطلاق يلزمه ما رقيت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب حيث قال :

ألا إن ليلى العامرية أصبحت ☆ على البعد منى ذنب غيرى تنقم

فقال ويلك ما تقول ؟ فقال الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها ، فقال اكتمها علىّ ، فقال وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر ، فضحك حتى فحص برجليه وأعجبه هذا البسط .

ومما يحكى عن عبد الملك أنه جلس يوما وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته ، فقال أيكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه وله علىّ ما يتمناه ؟ فقام إليه سويد بن غفلة ، فقال أنا لها يا أمير المؤمنين . قال هات : فقال نعم يا أمير المؤمنين : أنف ، بطن ، ترقوة ، ثغر ، جمجمة ، حلق ، خدّ دماغ ، ذكر ، رقبة ، زند ، ساق ، شفة ، صدر ، ضلع ، طحال ، ظهر ، عين ، غبب ، فم ، قفا ، كف ، لسان ، منخر ، نغنوغ ، هامة ، وجه ، يد ، وهذه آخر حروف المعجم ، والسلام على أمير المؤمنين ، فقام بعض أصحاب عبد الملك ، وقال يا أمير المؤمنين : أنا أقولها من جسد الانسان مرتين ، فضحك عبد الملك وقال لسويد أسمعت ما قال ؟ قال أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثا ، فقال : هات ولك ما تتمناه ، فابتدأ يقول : أنف ، أسنان ، أذن ، بطن ، بنصر ، بزة ، ترقوة ، تمرة ، تينة ، ثغر ، ثنايا ، ثدى ، جمجمة ، جنب ، جبهة ، حلق ، حنك ، حاجب ، خدّ ، خنصر ، خاصرة ، دبر ، دماغ ، درادير ، ذقن ، ذكر ، ذراع ، رقبة ، رأس ، ركبة ، زند ، زردمة ، زب ، ساق ، سرّة ، سبابة ، شفة ، شفر ، شارب ، صدر ، صدغ ، صلعة ، ضلع ، ضفيرة ، ضرس ، طحال ، طرة ، طرف

ظهر ، ظفر ، ظلم ، عين ، عنق ، عاتق ، غبب ، غلصمة ، غنة ، فم ، فك ، فؤاد ، قلب ، قفا ، قدم ، كف ، كتف ، كعب ، لسان ، لحية ، لوح ، منخر ، مرفق ، منكب ، نغنوغ ، ناب ، سن ، هامة ، هيئة ، هيف ، وجه ، وجنـة ، ورك ، يمين ، يسار ، يافوخ ، ثم نهض مسرعا فقبل الأرض بين يدى أمير المؤمنين ، فضحك عبـد الملك وقال والله ما تزيدنا عليهم شيئا أعطوه ما يتمناه ، ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ فى الاحسان إليه .

وقال عبـد الملك يوما لرجل من غطفان صف لى أحسن النساء . قال خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين ، ردماء الكعبين ، ناعمة الساقين ، ضخماء الركبتين ، لفاء الفخذين ، ضخمة الذراعين ، رخصـة الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، زجاء الحاجبين ، لماء الشفتين ، بلجاء الجبين ، شماء العرنين ، شنباء الثغر ، محلولكة الشعر ، غيـداء العنق ، مكسرة البطن ، فقال ويحك وأين توجد هذه ؟ قال تجدها فى خالص العرب وفى خالص فارس .

ولما دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان . قال لها يا بثينة ما أرى فيك شيئا مما كان يقوله جميل ؟ فقالت يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إلىّ بعينين ليست فى رأسك . قال فكيف رأيتيـه فى عشقه ؟ قالت كان كما قال الشاعر :

لا والذى تسجد الجباه له ☆ مالى بما تحت ذيلها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها ☆ ما كان إلا الحديث والنظر

وحكى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قدم على عبـد الملك بن مروان ، فجلس ذات ليلة يسامره ، فتذاكرا الغناء والجوارى المغنيات والعشق ، فقال عبد الملك لعبد الله حدثنى بأمر تامّ لك فى هـذه الأغانى وما رأيت من الجوارى . قال نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم ، وكانت حاذقة مطبوعة ، فوصفت ليزيد بن معاوية ، فكتب إلىّ فى شأنها ، فكتبت إليه والله لاتخرج منى ببيع ولا هبة فأمسك عنى ، فكانت عندى على تلك الحالة لا أزداد فيها إلا حبا ، فبينما أنا ذات ليلة إذ أتتنى عجوز من عجائزنا ، فذكرت لى أن بعض أعراب المدينـة يحبها وتحبه ، ويراها وتراه ، وأنه يجىء كل ليلة متنكرا ، فيقف بالباب فيسمع غناءها ، ويبكى شغفا وحبا ، فراعيت ذلك الوقت الذى قالت عليـه العجوز ، فاذا به قد أقبل مقنعا رأسه وقعد مستخفيا ، فلم أدع بها فى تلك الليلة ، وجعلت أتأمل موضعها وموضعه ، فاذا بها تكلمه ويكلمها ، ولم أر بينهما إلا عتبا ، ولم يزالا كذلك حتى ابيضّ الصبح ، فدعوت بها وقلت لقيمة الجوارى أصلحى فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزينتها ، فلما جاءت بها قبضت على يديها وفتحت الباب وخرجت ، فجئت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعورا ، فقلت : لابأس عليك ولا خوف هى هبـة منى إليك ، فدهش الفتى ولم يجبنى ، فدنوت إلى أذنه وقلت قد أظفرك الله تعالى ببغيتك ، فقم وانصرف بها إلى منزلك فلم يردّ جوابا فحركته ، فاذا هو ميت فلم أر شيئا قط كان أعجب من أمره . قال عبد الملك لقد حدثتنى بالعجب ، فما صنعت الجارية ؟ قلت ماتت والله بعده بأيام بعد نحول عظيم وتعليل ، وماتت كمدا ووجدا على الغلام .

وذكر محمد بن واسع أن عبـد الملك بعث كتابا إلى الحجاج بن يوسف الثقفى يقول فيـه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف . أما بعد : إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسير إلى ثلاث جوار مولدات أبكارا يكون إليهن المنتهى فى الجمال ، واكتب لى بصفة كل جارية منهن ومبلغ ثمنها من المال ، فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين ، وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين ، وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض وأعطاهم المال ، وكتب لهم كتبا إلى كل الجهات ، فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلم يزالوا ينتقلون من بلد إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثيل ، وكان الحجاج فصيحا ، فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها ، فوجدهن لايقام لهن بقيمة ، وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن ، ثم كتب كتابا إلى عبد الملك ابن مروان يقول فيه : بعد الثناء الجميل وصلنى كتاب أمير المؤمنين أمتعنى الله تعالى ببقائه يذكر فيه أنى أشترى له ثلاث جوار مولدات أبكارا ، وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثمنها ، فأما الجارية الأولى فانها جارية عيطاء السوالف ، عظيمة الروادف ، كحلاء العينين ، حمراء الوجنتين ، قد أنهدت نهداها ، والتفت فخذاها ، كأنها ذهب شيب بفضة وهى كما قيل :

بيضاء فيما إذا استقبلتها دعج ☆ كأنها فضة قد شابها ذهب

وثمنها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم .

وأما الثانية : فانها جارية فائقة فى الجمال ، معتدلة القد والكمال ، تشفى السقيم بكلامها الرخيم وثمنها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم .

وأما الثالثة : فانها جارية فاترة الطرف ، لطيفة الكف ، عميمة الردف ، بديعة الجمال ، كأنها خشف الغزال ، وثمنها ثمانون ألف درهم .

﴿وحكى﴾ أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها ، فوصف للحجاج حسنها فأنفذ إليها يخطبها وبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها ، وكانت فصيحة أديبة ، فدخل عليها الحجاج فى بعض الأيام ، فسمعها تقول وهى تنظر فى المرآة :

وما هند إلا مهرة عربية ☆ سليلة أفراس تحللها بغل

فان ولدت فحلا فلله درها ☆ وإن ولدت بغلا فجاء به البغل

فانصرف الحجاج راجعا ولم يدخل عليها ، ولم تكن علمت به ، فأراد طلاقها وأنفذ إليها عبد الله ابن طاهر وأنفذ لها معه مائتى ألف درهم ، وكانت لها عليه فأخبرها بأنها طالق ، فقالت اعلم يا ابن طاهر إنا والله كنا فما حمدنا ، و بنا فما ندمنا ، وهذه المائة ألف درهم التى جئت بها بشارة لك بخلاصى من كلب بنى ثقيف ، ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك خبرها ، ووصف له جمالها ، فأرسل إليها يخطبها ، فأرسلت إليه كتابا تقول فيه : بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين أن الاناء ولغ فيه الكلب ، فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها ، وكتب إليها يقول : إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن بالتراب فاغسلى الاناء يحل الاستعمال ، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة ، فكتبت إليه بعد الثناء عليه يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط فان قلت ماهو الشرط ؟ قلت أن يقود الحجاج محملى من المعرة إلى بلدك التى أنت فيها ، ويكون ماشيا حافيا

بحليته التي كان فيها أولا ، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكا شديدا ، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك ، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز فتجهزت ، وسار الحجاج فى موكبة حتى وصل المعرة بلد هند ، فركبت هند فى محمل الزفاف وركب حولها جواريها وخدمها ، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها ، فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع خدمها ، فوقع وجهها فى وجه الحجاج بعض الأيام ، فضحكت عليه ، فأنشد يقول :

فان تضحكى منى فياطول ليلة ✲ تركتك فيها كالقباء المفرج

فأجابته هند تقول :

وما نبالى إذا أرواحنا سلمت ✲ بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والعزّ مرتجع ✲ إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تضحك عليه وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة عبد الملك فرمت بدينار على الأرض ، ونادت ياجال إنه قد سقط منا درهم فارفعه إلينا ، فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا دينارا ، فقال إنما هو دينار ؟ فقالت بل هو درهم . قال بل دينار ؟ فقالت الحمد لله سقط منا درهم فعوضنا الله دينارا ، فخجل الحجاج وسكت ولم يردّ جوابا ، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان ، فلما جلس الحجاج على مائدة الخليفة وضع فى فمه لقمة لحم ، ثم وضعها بين يدى الخليفة فسأله عن ذلك ، فقال لأنك تحب الفضلة فطلقها ولم يدخل بها .

وقال يوما عبد الملك بن مروان للشعبي لما دخل عليه جنبنى خصالا أربعا : لا تطر بنى فى وجهى ، ولا تجربن علىّ كذبة ، ولا تغتابنّ عندى أحدا ، ولا تفشينّ لى سرّا .

وفى كتاب مفاكهة الظرفاء أن ملك الروم أرسل إلى عبد الملك يطلب منه عالما من علمائهم يسأله عن مسائل فأرسل له الشعبي ، فلما وصل إلى ملك الروم سأله عن أشياء ، منها أن قال له بلغنا أن ملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون أيمكن مخلوق لا يغفل ؟ فقال الشعبي مثلهم كمثل النفس يصعد وينزل وأنت تتكلم وتأكل وتشرب . قال صدقت .

فقال له و بلغنا أن أهل الجنة يأكلون و يشربون ولا يتغوطون ولا يبولون كيف ذلك ؟ قال نعم كالجنين فى بطن أمّه يأكل ويشرب ، ولو تغوّط داخل المشيمة لاحترق . قال صدقت .

قال و بلغنا أن نعيم الجنة لاينتقص بالانفاق كيف ذلك ؟ قال نعم كالسراج تقتبس منه جميع المصابيح ولا ينقص نوره . قال صدقت فأنعم عليه .

وكتب إلى الخليفة معه عجبت منكم كيف لاتجعلون رسولكم خليفة ؟ فلما قرأ عبد الملك بن مروان ما كتب ملك الروم . قال يا شعبي انظر ما قال عنك ؟ قال يا أمير المؤمنين ما رآك ولو رآك لاستصغر منى ما استكبر ولاستحقر منى ما استعظم ، فقال لله درك كم عطاءك ؟ قال ألفين ، ثم سكت الملك لحظة ، وقال كم عطاؤك ؟ قال ألفان . قال له لم قلت أوّلا ألفين ؟ قال لما لحن أمير المؤمنين تابعته فى اللحن ، ثم لما أعرب تابعته فى الاعراب ولا يحسن أن أعرب وقد لحن أمير المؤمنين فأعجبه ذلك ، وقال املئوا فاه جوهرا فملئوه ، فقال الشعبي هذا يدخر ولا ينفق ، فأمر له بثلاثين

ألف درهم وثياب فاخرة فأخذها وانصرف اه .

حضر نصيب عند عبد الملك بن مروان فدعاه إلى الشراب ، فقال إنى لم أصل إليك بنفسى ولا بحسن صورتى ، وإنما قربت منك بعقلى ، فان رأى الأمير أن لايحول بينى وبينه فعل .

قال عبد الملك لعدىّ بن أرطاة لم لاتقول الشعر ؟ فقال كيف أقوله وأنا لا أشرب ولا أطرب ولا أغضب .

أتى عبد الملك بعود ، فقال للوليد بن مسعدة ماهذا ؟ فقال خشبة تشقق ، ثم ترقق ، ثم يعلق عليها أوتار ، ثم تنطق فتضرب الكرام رءوسها بالحيطان سرورا به وامرأته طالق إن كان فى المجلس أحد إلاوهو يعلم ما أعلمه وأنت أولهم ياأمير المؤمنين فضحك .

انقطع عبد الملك عن أصحابه فانتهى إلى أعرابىّ ، فقال أتعرف عبد الملك ؟ قال نعم جائر بائر قال ويحك أنا عبد الملك ؟ قال لاحياك الله ولا بياك ولاقربك أكلت مال الله وضيعت حرمته . قال ويحك أنا أضرّ وأنفع ؟ قال لارزقنى الله نفعك ، ولا دفع عنى ضرّك ،فلما وصلت خيله علم صدقه فقال ياأمير المؤمنين اكتم ماجرى فالمجالس بالأمانة .

غضب عبد الملك على رجل فلما أتى به قال : السلام عليك ياأمير المؤمنين ، فقال لاسلم الله عليك ، فقال ماهكذا أمر الله إنما قال تعالى ـ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها ـ وقال ـ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ـ فعفا عنه .

قال الزهرى قدمت على عبد الملك بن مروان ، فقال من أين قدمت يازهرىّ ؟ قلت من مكة قال فمن خلفت بها يسود أهلها ؟قال قلت عطاء بن أبى رباح . قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت من الموالى . قال فبم سادهم ؟ قلت بالديانة والرواية ، فقال إن أهل الديانة والرواية ينبغى أن يسودوا الناس . قال فمن يسود أهل اليمن ؟ قلت طاوس بن كيسان . قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت من الموالى . قال فبم سادهم ؟ قلت بما سادهم به عطاء . قال من كان كذلك ينبغى أن يسود الناس . قال فمن يسود أهل مصر ؟ قلت يزيد بن أبى حبيب . قال فمن العرب أم من الموالى ؟قلت من الموالى ، فقال كما قال فى الأوّلين ، ثم قال فمن يسود أهل الشام ؟ قلت مكحول الدمشقى . قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت من الموالى عبد نوبى أعتقته امرأة من هذيل ، فقال كما قال ، ثم قال فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت ميمون بن مهران . قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت من الموالى ، فقال كما قال ، ثم قال فمن يسود أهل خراسان ؟ قلت الضحاك بن مزاحم . قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت من الموالى ، فقال كما قال ، ثم قال فمن يسود أهل البصرة ؟ قلت الحسن بن أبى الحسن . قال من العرب أم من الموالى ؟ قلت من الموالى . قال ويلك فمن يسود أهل الكوفة ؟ قلت إبراهيم النخعى . قال من العرب أم من الموالى ؟ قلت من العرب . قال ويلك يازهرىّ فرجت عنى والله لتسودنّ الموالى على العرب حتى يخطب لها على المنابر وأن العرب تحتها قال قلت ياأمير المؤمنين: إنما هو أمر الله ودينه ، فمن حفظه ساد ، ومن ضيعه سقط .

وفى سراج الملوك أن عبد الملك بن مروان أرق ليلة فاستدعى سميرا له يحدثه ، فكان فيما حدثه به أن قال يا أمير المؤمنين: كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة ، فخطبت بومة الموصل إلى بومة البصرة

بنتها لابنها ، فقالت بومة البصرة لا أفعل إلا أن تجعلى لى صداقها مائة ضيعة خراب ، فقالت بومة الموصل لا أقدر على ذلك الآن ، ولكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت لك ذلك . قال فاستيقظ لها عبد الملك وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتفقد أمور الولاة .

يقول جامعه محمد الموقت كان الله له ورضى عنه وقد أذكرنى هذا مايحكى أن ملكا من ملوك النصارى أرسل راهبا من علماء ملته لمناظرة علماء المسلمين ، وكان الامام أبو حنيفه إذ ذاك صغيرا فلما جاء الراهب واجتمع عليه علماء المسلمين بالمسجد الجامع رقى المنبر ليسألهم عن مسائل ، فقام أبو حنيفة من بين العلماء ، وقال للراهب أسائل أنت أم مسئول ؟ فقال سائل ، فقال انزل مكانك الأرض ومكانى المنبر ، فصعد أبو حنيفة المنبر ، وقال سل ماشئت . قال الراهب ماذا قبل الله . قال قال أبو حنيفة هل تحسن العدد ؟ قال نعم . قال ماذا قبل الواحد ؟ قال لاشىء قبله . قال إذا كان الواحد الفانى لاشىء قبله فالله سبحانه وتعالى لاشىء قبله .

ثم قال الراهب فى أىّ جهة يكون وجه الله . قال إذا أوقدت السراج ففى أىّ جهة يكون وجهه . قال الراهب ذلك نور يملأ البيت وليس له جهة . قال أبو حنيفة إذا كان النور الزائل الحادث لاجهة له فوجه ربى جلّ وعلا منزّه عن الجهة والمكان . قال الراهب بماذا يشتغل الله . قال أبو حنيفة إذا كان عالم موحد مثلى رفعه ، وإذا كان كافر مثلك وضعه كل يوم هو فى شأن ، فخرس الراهب وتوجه مخزيا .

وفى الحديث عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ـ كل يوم هو فى شأن ـ قال من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين .

وذكر البيضاوى فى تفسير قوله تعالى ـ كل يوم هو فى شأن ـ يحدث أشخاصا ويجدّد أحوالا على ماسبق به قضاؤه .

الوليد بن عبد الملك

بويع له بالخلافة يوم توفى والده عبد الملك ، وتوفى الوليد فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين بدير مروان عن ست وأربعين سنة وترك أربعة عشر ولدا ، وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر ، ولما تمّ له الأمر أعطى الناس وفرض للمجذومين ، وقال لاتسألوا الناس وأعطى كل مقعد خادما ، وكل أعمى قائدا ، وكان يبرّ حملة القرآن ويقضى عنهم ديونهم ، وبنى الجامع الأموى بدمشق ، وأنفق عليه مائة ألف صندوق من الذهب كل صندوق أربعة عشر ألف دينار ، واجتمع فى ترخيمه اثنا عشر ألف مرخم ، وبنى بأنواع الفصوص المحكمة والمرمر المصقول ، وكانت فيه ستمائة سلسلة من الذهب للقناديل ، ومازالت إلى أيام عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فجعلها فى بيت المال واتخذ عوضها صفرا وحديدا ، وبنى المسجد النبوى ووسعه حتى دخلت الحجرة النبوية فيه ، وله آثار حسنة كثيرة جدا ، وفتحت فى أيام خلافته الفتوحات العظام مثل السند والهند والأندلس وغير ذلك من الأماكن المشهورة حتى إن الاسلام بلغ فى أيامه مشارق الأرض ومغاربها حسبما أخبر بذلك رسول الله ﷺ وذلك سنة خمس وتسعين من الهجرة ، ومع هذا كله فقد روى أن

عمر بن عبد العزيز . قال لما ألحدت الوليد ارتكض فى أكفانه وغلت يداه إلى عنقه نسأل الله السلامة والعافية ، ومن عماله فى هذه الفتوحات العظيمة موسى بن نصير وله فى ذلك أخبار غريبة ، منها حسبما ذكره ابن خلكان أن موسى بن نصير لما تولى ولاية المغرب وفد على الوليد بن عبد الملك بعد أن فتح الغرب إلى البحر المحيط إلى طليطلة فأخبر بالفتح وقدم معه بمائدة سليمان بن داود عليهما السلام التى وجدت فى طليطلة ، وكانت مصوغة من الذهب والفضة وعليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد ، وكان قد حملها على بغل قوى ، فما سار إلا قليلا حتى تفسخت قوائمه لعظمها وقدم معه أيضا بتيجان ملوك اليونان مكللة بالجواهر ، وثلاثين ألف رأس من الرقيق اه .

وقال فى مرآة الزمان لما فتحت الأندلس فى زمن الوليد بن عبد الملك وجد فى مدينة منها يقال لها مدينة الملوك أربعة وعشرين تاجا بعدد من ملكها لايدرى ما قيمة كل تاج منها على كل تاج اسم صاحبه وكم من السنين ، ووجد فيها مائدة سليمان بن داود وهى من الذهب ، وقيل من الياقوت ، وعليها أطواق الجوهر الثمين فحملت إلى الوليد بن عبد الملك ، ووجد فيها باب مقفل عليه أربعة وعشرون قفلا لايعلمون ماوراء هذا الباب ، فلما ملك لذريق وهو آخر ملوكها قال لابد لى من معرفة مافى هذا الباب ، فاجتمعت إليه الأساقفة والرهبان وسألوه أن لايفعل ذلك وأن يقتدى بمن سبقه من الملوك ولا يتعرض لفتح ذلك الباب فلم يقبل وفتحه فاذا فيه تصاوير العرب على خيولهم ونعالهم ورماحهم وسيوفهم فلم يلبث أن وصلت العرب بلده فى تلك السنة وملكوها .

ومنها ماحكاه ابن الوردى فى الخريدة أن موسى بن نصير لما قلد الغرب أخذ فى السير على ألواح الأقصى بالنجوم والانواء ، وكان عارفا بها ، فأقام سبعة أيام يسير فى رمال بين مهبى المغرب والجنوب ، فظهرت له مدينة عظيمة لها حصن عظيم بأبواب من حديد ، فرام أن يفتح بابا منها فلم يقدر وأعياه ذلك لغلبة الرمل عليها فاصعد رجالا إلى أعلاه ، فكان كل من صعد ونظر إلى المدينة صاح ورمى بنفسه إلى داخلها ولا يعلم ماذا يصيبه ولا مايراه ، فلم يجد لها حيلة فتركها ومضى اه .

روى أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة أن أخرج الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب من السجن ، وكان محبوسا واضربه فى مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط ، فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ، فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء علىّ بن الحسين رضى الله عنه فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن فقال يابن العم مالك ؟ ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك . قال ماهو يابن العم ؟ فقال : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلىّ العظيم ، سبحان ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم الحمد لله ربّ العالمين ، ثم انصرف عنه وأقبل الحسن يكررها ، فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل . قال أراه فى سحنه مظلوما أخروه وأنا أراجع أمير المؤمنين فى أمره فأطلق بعض أيام وأتاه الفرج من عند الله تعالى .

وكان الوليد بن عبد الملك يركب المركوب الحسن الجيد ، ويتقى الركوب والسفر والحرب فى هذه الأيام الآتى ذكرها ، وينهى عن ذلك عملا بما فى الوارد وهو أنه ﷺ قال توقوا اثنى

عشر يوما فى السنة فانها تذهب بالأموال ، وتهتك الأستار ، فقلنا ماهى يا رسول الله ؟ قال :

ثانى عشر المحرم	12	وثانى عشر رجب	12
وعاشر صفر	10	وسادس عشرى شعبان	26
ورابع ربيع الأوّل	04	ورابع عشر رمضان	14
وثامن عشر ربيع الثانى	18	وثانى شوّال	02
وثامن عشر جادى الأولى	18	وثامن عشر ذى القعدة	18
وثانى عشر جادى الثانية	12	وثامن ذى الحجة	08

يقول جامعه محمد الموقت كان الله له : اعلم أنهم ذكروا أن الأيام النحسة فى كل شهر سبعة وهى : اليوم الثالث من الشهر وفيه قتل قابيل هابيل ، واليوم الخامس منه، وفيه أخرج الله آدم من الجنة ، وفيه أرسل الله العذاب على قوم يونس ، وفيه طرح يوسف فى الجب ، واليوم الثالث عشر منه ، وفيه سلب الله ملك أيوب وأرسل عليه البلاء ، وفيه سلب ملك سليمان ، وفيه قتلت اليهود الأنبياء .

واليوم السادس عشر منه فيه خسف الله بقوم لوط ، وفيه مسخ ستمائة نصرانى وجعلوا خنازير ومسخت اليهود قردة ، وفيه شقت اليهود زكرياه بالمنشار .

واليوم الحادى والعشرون منه. فيه ولد فرعون ، وفيه أغرق ، وفيه أرسل الله على قوم فرعون الآيات وهى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

واليوم الرابع والعشرون منه فيه شقّ النمروذ بطن سبعين امرأة ، وطرح الخليل عليه السلام فى النار ، وفيه عقرت ناقة صالح عليه السلام .

واليوم الخامس والعشرون منه فيه أرسل الله الريح العقيم على قوم هود عليه السلام .

ضابط الأيام النحسة من كل شهر ماقاله الشاعر :

3 5 13 16 21 24 25

محبك يرعى هواك فهل ☆ تعود ليال بضدّ الأمل

فما كان نقطا بدا نحسه ☆ وماكان هملا فسعد حصل

وذكر الامام البيهقى فى كتابه المحاسن والمساوى . قال حدثنا إسماعيل بن أبى خالد قال أتى الوليد ابن عبد الملك برجل من الخوارج وعنده عمر بن عبد العزيز وخالد بن الرّيان ، فقال له الوليد ماتقول فى أبى بكر . قال صاحب نبيّ الله فى الغار وثانى اثنين رحمه الله وغفر له . قال فما تقول فى عمر . قال هو الفاروق رحمه الله وغفر له . قال فما تقول فى عثمان ؟ قال كان سنيات من خلافته ملازما للعدل . قال فما تقول فى مروان بن الحكم ؟ قال لعن الله ذاك . قال فما تقول فى عبد الملك ؟ قال ذاك ابن ذاك لعن الله ذاك . قال فما تقول فىّ ؟ قال بنى دينك ، وأنت شرّ الثلاثة ، فقال يا عمر ما تقول فيما تسمع ؟ قال يا أمير المؤمنين ما أحد أعلم بهذا منك ، وأنت أعلى به عينا فألح عليه والله لتقولنّ ، فقال أمّا إذ أبيت يا أمير المؤمنين إلا أن أقول فسب أباه كما سب أباك ،

وأن تعفو أقرب للتقوى . قال ليس إلا هذا . قال لا يا أمير المؤمنين إلا أن تدخلك جبرية ، فأمّا الحق فليس إلا هذا فالتفت إلى خالد بن الرّيان وهو قائم على رأسه ، ثم قام وهو غضبان ، فقال خالد والله يا عمر لقد نظر إلىّ أمير المؤمنين نظرة ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك قال ولو أمرك كنت تفعل ؟ قال إى والله . قال أما انه كان يكون شرّا لكما وخيرا لى ، ثم سكت عنه و بقى ذاك فى قلبه فلما قام الوليد من مجلسه دخل على امرأته أم البنين بنت عبد العزيز وهى أخت عمر ، فقال أخوك الحرورى والله لأقتلنه فمكث أياما وعمر فى منزله لا يحضر الباب ولا يلتمس المعذرة ، فأتاه رسول الوليد وقت القائلة فدعاه ، فلما دخل من باب القصر عدل به إلى بيت فأدخل فيه وطين عليه الباب فرجع صاحب دابته إلى أهله فأخبرهم فأخبروا أخته بذلك ، فبحثت عن خبره فلم تجد أحدا يخبرها بخبره وذلك يوم الثالث فقيل لها إن فلانا الخصىّ يعلم علمه فأرسلت إليه فأعلمها بموضعه ، فدخلت على الوليد فناشدته الله والرحم وقبلت يده ، فقال قد وهبته لك إن أدركته حيا . قال ففتحوا عنه الباب ، فوجدوه قد انثنى عنقه فحملوه إلى منزله وعالجوه ، فلما توفى الوليد وكان سليمان بعده فهلك ، وتولى عمر الخلافة جاء خالد بن الريان فى اليوم الذى استخلف فيه عمر رحمه الله متقلدا سيفه ، فقال له عمر يا خالد انطلق بسيفك هذا فضعه فى بيتك واقعد فيه فانه لا حاجة لنا فيك أنت رجل إذا أمرت بشىء فعلته لا تنظر لدينك اه .

سليمان بن عبد الملك

بويع له بالخلافة يوم موت أخيه الوليد ، وتوفى فى عاشر صفر سنة ثمان وتسعين ، وله تسع وثلاثون سنة ، وكانت خلافته سنتين وثمانية شهور ، رحمه الله ، ولما تمّ له الأمر كمل عمارة الجامع الأموى ، وجهز أخاه مسلمة بن عبد الملك فى سنة سبع وتسعين إلى غزو الروم ، وكان موصوفا بالشجاعة والاقدام والرأى والدهاء ، وسار فى مائة وعشرين ألفا حتى انتهى إلى القسطنطينية فنازلها أياما ثم انصرف عنها .

وكان سليمان بن عبد الملك هذا شرها فى أكله ، ولما حج سنة سبع وتسعين توجه إلى الطائف تطلبا للرطوبة ، فأتاه بعض العرب برمان من رمان الطائف ، فأكل منه مائة وسبعين رمانة ثم أتوه بزبيب فأكل منه سلتين ، ثم قال : أطعمونا من خرفان الطائف ، فأتوه بأربعة وثمانين خروفا مشوية ، فأكل من كل خروف جمجمته وكليته حتى أتى على آخرها ، ثم قعد على السماط ، وأكل مع الناس على عادته .

وذكر القزوينى فى عجائب المخلوقات أن سليمان بن عبد الملك . قال ذات يوم إن مملكتى ليست تقصر عن مملكة سليمان بن داود عليه السلام إلا أن الله تعالى سخر له الجنّ والطير والريح وليس لأحد من الملوك على وجه الأرض مثل مالى من الأموال والعدّة اه .

وقال أبو سويد حدثنى أبو زيد الأسدى . قال دخلت يوما على سليمان بن عبد الملك وهو جالس فى إيوان مبلط بالرخام الأحمر مفروش بالديباج الأخضر فى وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهنّ أحسن من صاحبتها ، وقد غابت الشمس ، وغنت الأطيار

فتجاوبت ، وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت ، فقلت السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، وكان مطرقا فرفع رأسه ، وقال أبا زيد فى مثل هذا الحين تصاحبنا ، فقلت أصلح الله الأمير أوقامت القيامة . قال نعم على أهل المحبة ، ثم أطرق مليا ورفع رأسه، وقال أبا زيد مايطيب فى ليلتنا هذه . قلت أصلح الله الأمير قهوة حمراء فى زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء مضمومة لفاء أشربها من كفها وأمسح فى بخدها ، فأطرق سليمان مليا لايردّ جوابا تنحدر من عينه عبرات بلا شهيق ، فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه ، ثم رفع رأسه ، فقال أبا زيد حضرت فى يوم فيه انقضاء أجلك ، ومنتهى مدتك ، وتصرم عمرك والله لأضربنّ عنقك أولتخبرنى بالسبب الذى أثار هذه الصفة من قلبك . قلت نعم أصلح الله الأمير كنت جالسا عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك ، فاذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص اسكندرانى يبين منه بياض بدنها ، وتدوير سرّتها ، ونقش تكتها ، وفى رجليها نعلان صرارات قد أشرف بياض قدميها على حمرة نعليها ، بذؤابتين تضربان إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان ، وحاجبان قد قوّسا على محاجر عينها ، وعينان مملوءتان سحرا ، وأنف كأنه قصبة بلور ، وفم كأنه جرح يقطر دما ، وهى تقول عباد الله من لى بدواء مالا يشتكى ، وعلاج مالا يسمى طال الحجاب ، وأبطأ الجواب ، والقلب طائر ، والعقل عازب ، والنفس والهة والفؤاد مختلس ، والنوم محتبس رحمة الله على قوم عاشوا تجلدا ، وماتوا كمدا ، ولو كان إلى الصبر حيلة ، أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمرا جميلا ، ثم أطرقت طويلا ، ورفعت رأسها ، فقلت لها أيتها الجارية إنسية أنت ، أم جنية ، سماوية أنت ، أم أرضية ، فقد أعجبنى ذكاء عقلك ، وأذهلنى حسن منطقك فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترنى ، ثم قالت اعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد فلا مساعد والمقاساة نصب معاند ، ثم انصرفت فوالله ما أكلت طعاما طيبا إلا غصصت به لذكرها ، ولا رأيت حسنا إلاسمج فى عينى لحسنها ، فقال سليمان أبا زيد كاد الجهل يستفزنى ، والصبا يعاودنى ، والحلم يعزب عنى ، لشجو ماسمعت اعلم ياأبا زيد أن تلك التى رأيتها هى الذلفاء التى قيل فيها :

إنما الذلفا ياقوته ✫ أخرجت من كيس دهقان

وقد اشتراها أخى سعيد بألف ألف درهم وهى عاشقة لمن باعها ، فان ماتت ماتت بحبه قم أبا زيد فى دعة الله تعالى ، ثم قال ياغلام نفله ببدرة فأخذتها وانصرفت ، فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه فأحبها ، وتمكن حبها من قلبه لغاية لايدرك شأوها .

وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب فى بعض جبابين الشام ، فاذا امرأة جالسة على قبر تبكى . قال سليمان فرفعت البرقع عن وجهها ، فكشفت شمسا عن متون غمامة ، فوقفنا متحيرين ننظر إليها ، فقال لها يزيد بن المهلب يا أمة الله هل لك فى أمير المؤمنين بعلا ، فنظرت إلينا ، ثم أنشأت تقول :

فان تسألانى عن هواى فانه ✫ يجول بهذا القبر يافتيان

وإنى لأستحييه والترب بيننا ✫ كما كنت أستحييه وهو يرانى

وقال سليمان بن عبد الملك بعض الأيام أكلت الطيب ، ولبست اللين ، وركبت الفاره ،

وافتضضت العذراء ، فلم يبق من لذاتى إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ .

قيل وقدم وفد من العراق على سليمان بن عبد الملك فقضوا حوائجهم وانصرفوا ، فقال رجل منهم بلغنى أن أمير المؤمنين يبرز للعامة فأنا أقيم بعدكم يوما أو يومين فلعلى أن أراه وأسمع كلامه ثم أتبعكم ، فلما كان الغد برز سليمان للناس وجلس على سريره وأذن للعامة فدخلوا وفيهم العراقى ، فجلس فى سماط سليمان إلى جنب رجل أحمق من أهل الشام ، فقال له الأحمق ممن الرجل ؟ قال من أهل العراق . قال فعل الله بك وفعل وجعل يشتمه ويذكر أباه وعرضه ، وقال مثلك يقعد فى سماط أمير المؤمنين والعراقى يناشده الله ويسأله أن يكف عنه فيأبى إلى أن قال سليمان أيكم يخبرنى من الذى يقول :

أنخن القرون فعقلنها ☆ كعطف العسيب عراجين ميلا

ويفسر لنا قوله فله جارية برحالتها ، والشامى مقبل على العراقى لا يفتر عن شتمه ويقول ياجاسوس فقال له كف عنى فانى أنفعك . قال وهل معك خير ؟ قال نعم قم فقل لأمير المؤمنين أنا أعرف من قال هذا وأفسره ، فاذا قال من قاله ؟ فقل امرؤ القيس فاذا قال ماعنى به فقل البطيخ ، فقال الشامى ياأمير المؤمنين أنا أعرف من قال هذا وأفسره ، فقال هات : قال امرؤ القيس ، فتبسم سليمان وقال فما عنى به . قال البطيخ ، فضحك سليمان حتى استلقى على فراشه ، ثم قال ويحك ممن أخذت هذا العلم ، فقال عن هذا العراقى ، فأشار سليمان إلى العراقى فأقبل إليه فقال له من أنت ؟ قال رجل من أهل العراق كنت قدمت مع فلان وفلان فقضوا حوائجهم وانصرفوا فأقمت أرقب جلوس أمير المؤمنين فقعدت إلى هذا الشامى فلم يدع سبا ولا شتما إلا استقبلنى به ، فقلت له كف عنى فانى أنفعك قل لأمير المؤمنين كذا وكذا ، فكان منه ماقد سمعته فضحك وقال أتعرف أنت من قاله . قلت كثير عزة . قال وما عنى به . قلت قرون الرأس والعسيب الخادم والعراجين قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم عناقيد الكرم ، وقال بعضهم عراجين النخل ، فأمر له بالجارية .

غضب سليمان بن عبد الملك على أبى عبيدة مولاه فشكا إلى سعيد بن المسيب ذلك فكتب إليه : أما بعد ، فان أمير المؤمنين فى الموضع الذى يرتفع قدره عن أن تعصيه رعيته ، وفى عفو أمير المؤمنين سعة للمسلمين فرضى عنه .

وقال الامام طاوس لسليمان هذا هل تدرى يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابا يوم القيامة ؟ قال سليمان قل ، فقال طاوس أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى ملكه فجار فى حكمه فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكى فما زال يبكى حتى قام عنه جلساؤه .

ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر يا سليمان اذكر يوم الأذان فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل ، فقال له ما يوم الأذان . فقال قال الله تعالى ـ فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ـ قال فما ظلامتك . قال أرض لى بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك ، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضا مع أرضه .

سير سليمان هذا أخاه مسلمة بن عبد الملك إلى القسطنطينية فى مائة وعشرين ألفا ، وكان موصوفا بالشجاعة والاقدام والرأى والدهاء ، وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين ومائة .

ومما

ومما يحكى من محاسنه رحمه الله أنه افتتح خلافته بخير واختتمها بخير افتتحها باقامة الصلاة لميقاتها الأول وختمها باستخلافه لعمر بن العزيز رضى الله عنه .

مشاهير الدولة العباسية

١ - منهم أبو جعفر عبد الله المنصور ، بويع له بالخلافة سنة تسع وثلاثين ومائة ، وتوفى سنة ثمان وخمسين ومائة وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما .

وهو ثانى خلفاء بنى العباس . ولى الخلافة بعد أخيه السفاح ، وهى فى غاية الاضطراب فنصب العيون وأقام المتطلعين وبث فى البلاد والنواحى من يكشف له حقائق الأمور والرعايا فاستقامت له الأمور ، ودانت له الجهات .

قال الحافظ البيهقى فى كتابه المحاسن وحكى عن الأوزاعى . قال بعث إلىّ المنصور ، فقال لم تبطىء عنا . قلت وما تريد منا . قال الأخذ عنكم وأقتبس منكم ، فقلت له مهلا فان عروة بن رويم أخبرنى أن نبىّ الله ﷺ قال من جاءته موعظة من ربه فقبلها شكر الله له ذلك ، ومن جاءته فلم يقبلها كانت حجة عليه يوم القيامة ، مهلا فان مثلك لا ينبغى له أن ينام إنما جعلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرعية يجبرون الكسير ، ويسمنون الهزيلة ، ويردّون الضالة ، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين ويأخذ أموالهم ، أعيذك بالله أن تقول إن قرابتك من رسول الله ﷺ تدعوك إلى الجنة إن رسول الله ﷺ كانت فى يده جريدة يستاك بها ، فضرب بها قرن أعرابىّ ، فنزل عليه جبريل عليه السلام ، فقال يامحمد إنّ الله تبارك وتعالى لم يبعثك جبارا مؤيسا مقنطا تكسر قرون أمتك ألق الجريدة عن يدك ، فدعا الأعرابى إلى القصاص من نفسه ، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين ، إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك إلى داود عليه السلام : ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ، وأوحى إليه ياداود إذا أتاك الخصمان فلا يكوننّ لأحدهما على صاحبه الفضل فأمحوك من ديوان نبوّتى ، واعلم أن ثوبا من ثياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه فكيف بمن تقمصه ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهى إلى الأرض السابعة فكيف بمن تقلدها قال .

وحدث محمد بن عبد الله قال قال المنصور لجعفر بن حنظلة عظنى . قال قلت يا أمير المؤمنين أدركت عمر بن عبد العزيز سنتين لم يتخذ مالا ولم ينشىء عينا ولم يستخرج أرضا ، ولم يضع لبنة على لبنة ، وولى هشام بن عبد الملك ثمان عشرة سنة مامنها سنة إلا وهو ينشىء فيها عيونا ويتخذ فيها أموالا ويقطع لولده القطائع ولا أعرف اليوم من ولده رجلا يشبع ، فقال والله لقد وعظت وأحسنت . قال جعفر ففرحت أن نجحت عظتى فى أمير المؤمنين . قال فأطرق ساعة ، ثم قال ياغلام ادع لى سليمان بن مجالد فدعاه ، فقال ياسليمان علق أصحاب قيليا بأرجلهم حتى يؤدّوا ماعليهم وكان قد جعلها لصالح ابنه ، فعلمت أن عظتى لم تنفع قليلا ولا كثيرا اه .

روى أن المنصور قال يوما لعبد الرحمن بن القاسم أحد الفقهاء السبعة عظنى بما رأيت قال

مات عمر بن عبد العزيز وخلف احد عشر ابنا ، فبلغت تركته سبعة عشر دينارا كفن منها بخمسة دنانير ، واشترى له موضع القبر بدينارين ، وأصاب كل واحد من أولاده تسعة عشر درهما .

ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابنا ، فورث كل واحد منهم ألف ألف درهم ، ثم إنى رأيت رجلا من أولاد عمر بن عبد العزيز حمل فى يوم واحد على مائة فرس فى سبيل الله تعالى ورأيت رجلا من أولاد هشام يسأل أن يتصدق عليه وأنشد :

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ✡ ويعديهم داء الفساد إذا فسد
يعظم فى الدنيا لفضل صلاحه ✡ ويحفظ بعد الموت فى المال والولد

قال العلماء وهذا أمر غير عجيب فان عمر وكلهم إلى ربه ، فكفاهم وأغناهم ، وهشام وكلهم إلى دنياهم فأفقرهم مولاهم .

وكان المنصور يقول الملوك تحتمل كل شيء من أصحابهم إلا ثلاثا : إفشاء السر ، والتعرض للحرم ، والقدح فى الملك .

وكان يقول سرك من دمك فانظر من تملكه .

وحكى الربيع مولى الخليفة المنصور . قال ما رأيت رجلا أربط جأشا ، وأثبت جنانا من رجل سعى به لى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبنى أمية ، فأمرنى باحضاره فأحضرته إليه ، فقال له المنصور قد رفع إلينا خبر الودائع والأموال التى عندك لبنى أمية فاخرج لنا منها وأحضرها ولا تكتم منها شيئا ، فقال يا أمير المؤمنين أنت وارث بنى أمية . قال لا . قال فوصى لهم فى أموالهم ورباعهم قال لا . قال فما مسألتك عما فى يدى من ذلك . قال فأطرق المنصور وتفكر ساعة ، ثم رفع رأسه وقال إن بنى أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين فى حقوقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه فأجعله فى بيت أموالهم ، فقال يا أمير المؤمنين فتحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما فى يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه فان بنى أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين . قال فأطرق المنصور ساعة ، ثم رفع رأسه وقال يا ربيع ما أرى الشيخ إلا قد صدق وما يجب عليه شيء وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه ، ثم قال هل لك من حاجة . قال نعم حاجتى يا أمير المؤمنين أن تجمع بينى وبين من سعى فى إليك فوالله الذى لا إله إلا هو ما فى يدى لبنى أمية مال ولا وديعة ، ولكننى لما مثلت بين يديك وسألتنى عما سألتنى عنه قابلت بين هذا القول الذى ذكرته الآن وبين ذاك القول الذى ذكرته أولا فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة ، فقال يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به ، فلما رآه قال هذا غلامى اختلس لى ثلاثة آلاف دينار من مالى وأبق منى ، وخاف من طلبى له ، فسعى بى عند أمير المؤمنين . قال فشدد المنصور على الغلام وخوفه فأقر بأنه غلامه وأنه أخذ المال الذى ذكره وسعى به كذبا عليه وخوفا من أن يقع فى يده ، فقال له المنصور سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه ، فقال قد عفوت عنه وأعتقته ووهبت له ثلاثة الآلاف التى أخذها ، وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليه ، فقال له المنصور ما على ما فعلت من مزيد . قال بلى يا أمير المؤمنين إن هذا كله لقليل فى مقابلة كلامك لى وعفوك عنى ، ثم انصرف . قال الربيع فكان المنصور يتعجب منه ، وكلما

ذكره

ذكره يقول مارأيت مثل هذا الشيخ ياربيع .

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره فى الحروب ، فقال كان رحمه الله يفعل كذا وكذا ، فقال المنصور عليك لعنة الله تطأ بساطى وتترحم على عدوى ، فقال إن نعمة عدوك لقلادة فى عنق لاينزعها الاغاسلى ، فقال له المنصور ارجع ياشيخ فانى أشهد أنك لوفى حافظ للخير ثم أمر له بمال فأخذه ثم قال والله لولا جلالة أمير المؤمنين وإمضاء طاعته لما لبست لأحد بعد هشام نعمة ، فقال له المنصور لله درك ، فلو لم يكن فى قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجدا مخلدا .

وكان المنصور مع جلالة قدره شديد البخل ، ومن شدة بخله أنه مر به مسلم الحادى فى طريقه إلى الحج فحدا له يوما بقول الشاعر :

أغر بين الحاجبين نوره ☼ يزينه حياؤه وخيره
ومسكه يشوبه كافوره ☼ إذا تغدى رفعت ستوره

فطرب المنصور حتى ضرب برجله المحمل ، ثم قال ياربيع أعطه نصف درهم ، فقال مسلم نصف درهم يا أمير المؤمنين والله لقد حدوت لهشام ، فأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقال تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم ، ياربيع وكل به من يستخلص منه هذا المال . قال الربيع فما زلت أمشى بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو فى ذهابه وايابه بغير مؤنة .

ويحكى أنه دخل عمارة بن حمزة يوما على المنصور وقعد فى مجلسه ، وكان ممن علت همته وشرفت نفسه ، فقام رجل من المجلس وقال مظلوم ياأمير المؤمنين . قال من ظلمك . قال عمارة بن حمزة غصبنى ضيعتى ، فقال المنصور يا عمارة قم فاقعد مع خصمك ، فقال ماهو لى بخصم إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها ، وإن كانت لى فقد وهبتها له ، ولا أقوم من مقام شرفنى به أمير المؤمنين ورفعنى وأقعد فى أدنى منه لأجل ضيعة .

وتحدث السفاح هو وأم سلمة يوما فى نزهة نفس عمارة بن حمزة هذا وكبره ، فقالت له ادع به وأنا أهب له سبحتى هذه فان ثمنها خمسون ألف دينار فان هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس فوجه إليه فحضر فحادثته ساعة ، ثم رمت إليه بالسبحة ، وقالت هى من الطرف ، وهى لك فجعلها عمارة بين يديه ثم قام وتركها ، فقالت لعله نسيها فبعثت بها إليه مع خادم ، فقال للخادم هى لك فرجع الخادم ، فقال قد وهبها لى فاعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه .

قيل وكان إسحاق بن مسلم العقيلى جالسا عند المنصور فمر خادم وضىء الوجه ، فقال يا أمير المؤمنين أى ولدك هذا . قال ما هو لى بولد . قال فأى إخوة أمير المؤمنين هذا . قال ما هو لى بأخ . قال فمن هو . قال فلان الخادم . قال يا أمير المؤمنين فشمة هذا أو ضمته أحب إليها من شمتك وضمتك فداخل المنصور من ذلك أمر عظيم حتى تغير وجهه وأمر بمنع الخدم من دخول دار النساء .

قلت وأذكرنى هذا ما يحكى عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أنه دخل يوما على امرأته ميسون بنت بحدل المتقدمة الذكر فى ترجمته ومعه خصى فاستترت منه ، فقال لم تستترين

منه وإنما هو بمنزلة المرأة ، فقالت كأنك ترى أن مثلتك به تحلل له ما حرم الله عليه منى .
وذكر العلماء أن فى الخصيان شرها شديدا ، وميلا عجيبا إلى النساء ولهم فى هذا الموضوع حكايات غريبة يطول ذكرها وسنذكر بعضها فى كتابنا الآتى تليين الطبع بذكر مايسر السمع .
يحكى أن المنصور كان جالسا فألح عليه الذباب حتى أضجره ، فقال انظروا من بالباب من العلماء فقالوا مقاتل بن سليمان فدعا به ، ثم قال له هل تعلم لأى حكمة خلق الله الذباب . قال ليذل به الجبابرة . قال صدقت ثم أجازه

﴿ نادرة ﴾ قيل إن بعضهم حضر مجلس المنصور ، فقال بعض الحاضرين المراد من قوله تعالى ـ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ـ أهل البيت فانهم النحل والشراب القرآن ، فقال له بعض من حضر من اللطفاء جعل الله طعامك وشرابك مايخرج من بطون بنى هاشم ، فضحك الحاضرون عليه وأبهته .

وحكى ان البعلبكى مؤذن المنصور رجع فى أذانه ليلة وجارية تصب الماء على يد المنصور ، فارتعدت حتى وقع الابريق من يديها ، فقال له المنصور خذ هذه الجارية فهى لك ولاتعد ترجع هذا الترجيع

وقال المنصور يوما من بركتنا على المسلمين أن الطاعون رفع عنهم فى أيامنا ، فقال بعض الحاضرين ما كان الله ليجمع علينا ولايتكم والطاعون

قال عبد الصمد يوما للمنصور لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو ، فقال لأن بنى مروان لم تبل رجهم ، وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم ، ونحن بين أقوام قد رأونا بالأمس سوقة ، واليوم خلفاء فليس تمهد الهيبة فى صدورهم إلا باطراح العفو ، واستعمال العقوبة

ذكر الامام البيهقى فى كتابه المحاسن أنه كان فى يد المنصور خاتم ياقوت يتقد كأنه مصباح اشتراه بأربعين ألف دينار اه فانظر يا أخى لحال هذا الخاتم الذى يشتريه المنصور بهذه الجملة فى ذلك الزمان

يحكى أن أبادلامة دخل على المنصور ، فقال يا أمير المؤمنين تأمر لى بكلب صيد ، قال أعطوه ، قال كلب بلا صقر ، قال أعطوه صقرا ، قال كلب وصقر بلا باز ، قال أعطوه بازيا ، قال كلب وصقر وباز بلا فرس ، قال أعطوه فرسا ، قال كلب وصقر وباز وفرس بلا غلام ، قال أعطوه غلاما قال فلا بدّ لهم من دار ، قال أعطوه دارا ، قال فمن أى شىء يعيشون ، قال قد أقطعتك أربعمائة جريب ، منها مائتا جريب عامر ، ومائتا غامر ، قال وما الغامر ، قال الخراب ، قال فأنا أقطعتك أربعة آلاف جريب بالدهناء غامرة ، قال قد جعلتها كلها عامرة فهل بقى لك شىء ، قال نعم تدعنى أقبل يدك ، قال ليس إلى ذلك سبيل ، فقال ما أمنعتنى شيئا هون على عيالى من هذا

بعث المنصور إلى زياد بن عبد الله مالا وأمره أن يفرقه فى القواعد والأيتام والعميان فدخل إليه أبو حمزة الرقى ، فقال أصلح الله أمير المؤمنين قد بلغنى الكبر فاكتبنى فى القاعدين . قال يغفر الله لك إنما القواعد النساء اللواتى قعدن عن الأزواج ، قال فاكتبنى فى العميان فانّ الله جلّ ذكره يقول ـ فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ـ وأنا أشهد أن قلبى أعمى ، واكتب ولدى فى الأيتام فان من كنت أباه فهو يتيم ، قال المنصور اكتبوه فى العميان واكتبوا ولده فى الأيتام

قال البيهقى فى كتابه المحاسن حدثنى أبو مالك عبد الله بن محمد . قال لما توفى أبو العباس السفاح دخل أبو دلامة على أبى جعفر المنصور والناس عنده يعزونه ، فقال يا أمير المؤمنين كان أبو العباس أمر لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض فلم أقبضها ، فقال المنصور للخازن ادفعها إليه وسيره إلى هذا الطاغية يعنى عبد الله بن علىّ ، فقال أبودلامة ياأمير المؤمنين أعيذك بالله أن أخرج معهم فانى والله مشئوم ، فقال لعله يغلب شؤمك فاخرج مع العسكر ، فقال والله ما أحبّ لك يا أمير المؤمنين أن تجرّب ذلك فانى لا أدرى على أىّ الفريقين يكون ؟ فقال أبو جعفر دعنى من هذا مانريد غير المسير ، فقال يا أمير المؤمنين والله لأصدقنك إنى شهدت تسعة عساكر كلها هزمت فأنا أعيذك بالله أن تكون العاشر ، فاستفرغ أبو جعفر ضحكا ، وأمره أن يتخلف .

﴿مستملحة﴾ لما وفد المهدى من الرىّ إلى العراق امتدحه الشعراء ، فقال أبو دلامة :

إنى نذرت لئن رأيتك قادما ✲ أرض العراق وأنت ذو وفر
لتصلينّ على النبىّ محمد ✲ ولتملأنّ دراهما حجرى

فقال المهدى صلى الله على محمد ، فقال أبو دلامة ماأسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية ، فضحك وأمر ببدرة فصبت فى حجره .

ودخل يوما على المهدى وعنده إسماعيل بن على ، وعيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ، وجماعة من بنى هاشم ، فقال له المهدى والله لئن لم تهج واحدا ممن فى هذا البيت لأقطعن لسانك قال أبو دلامة فنظرت إلى القوم وتحيرت فى أمرى وجعلت أنظر إلى كل واحد فيغمزنى بأن علىّ رضاه ، فازددت حيرة فما رأيت أسلم لى من أن أهجو نفسى ، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دلامه ✲ فلست من الكرام ولا كرامه
جمعت دمامة وجمعت لؤما ✲ كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
إذا لبس العمامة قلت قردا ✲ وخنزيرا إذا نزع العمامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه .

قال الربيع جلس المنصور يوما ، فقال من يصف صالحا ابنى وقد رشحه لأن يوليه بعض أموره ، فكلهم هاب المهدى ، فقال شبة بن عقال : لله درّه ، ما أفصح لسانه ، وأمضى جنانه ، وأبلّ ريقه ، وأسهل طريقه ، وكيف لا يكون كذلك وأمير المؤمنين أبوه ، والمهدى أخوه ، ثم أنشد :

هو الجواد فان يلحق بشأوهما ✲ على تكاليفه فمثله لحقا
أو يسبقاه على ما كان من مهل ✲ فمثل ما قدما من صالح سبقا

فقال المنصور مارأيت مثل مخلصه ، مدحه وأرضانى وسلم من المهدى .

قال المنصور يوما لجنده صدق القائل أجع كلبك يتبعك ، فقال بعضهم كلا فربما يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك ، وقد قيل منع خيرك ، يدعو إلى صحبة غيرك ، فقال صدقت .

ولما أمر المنصور الامام أبا حنيفة رحمه الله أن يتولى القضاء . قال لا أصلح لذلك ، فقال إنك

تصلح ، فقال إن كنت صادقا فلا يجوز لك أن توليني ، وإن كنت كاذبا فقد فسقت ، فقال والله لتلين ، فقال والله لا وليت ، فقال حاجبه : أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف ، فقال أمير المؤمنين أقدر على الكفارة مني .

مدينة السلام (بغداد)

والباني لها أبو جعفر المنصور العباسي ، وذلك سنة خمس وأربعين ومائة ، ونزل بها في سنة ست وأربعين ، وفي سنة تسع وأربعين تم بناؤها .

و بغدادعبارة عن سبع محال لاتفتقر محلة منها إلى غيرها وهي على شاطئ الدجلة ، وكان بها ثلاثون ألف مسجد .

ويقال ان المنصور سال راهبا كان في صومعة قريبا من مكان بغداد عند ما أراد أن يختطها قال أريد أن أبني هنا مدينة ، فقال إنما يبنيها ملك يقال له أبو الدوانيق ، فضحك وقال: أناهو وكان المنصور على جلالته يحاسب على الدانق ، فسمي أبا الدوانق .

ويحكى أن أبا جعفر المنصور بنى أربع مدن على أربع طوالع ، لا يخربون أبدا إلا بخراب الدنيا، المدينة الأولى المنصورة ، وهي مدينة طولها ميل في ميل، وبها خلق كثير وتجار ، وليس فيها إلا النخيل والقصب وهي مدينة حارة جدا ، والثانية المصيصة على بحرين ، والثالثة بأرض الجدين ، والرابعة بغداد . وقد أنفق المنصور على بغداد أموالا عظيمة ، ونقل أبواب واسط وركبها عليها، وجعلها مدينة مدورة ، وجعل دورها أثنى عشرة ألف قصبة و بنى بها قصرا عظيما بوسطها.

قال الطبري في تاريخه ، وكان بها ستون ألف حمام ، كل حمام يحتاج على الأقل الى ستة أنفار ، ومثل ليلة العيد يحتاج كل نفر إلى رطل صابون له ولأولاده ، فهذه ثلثمائة ألف وستون ألف رطل صابون ، وكانت مشحونة بالعلماء والعظماء وأرباب الصنائع الظريفة النفيسة ، والآن غالبها خراب ، وقد تغيرت أوضاعها ، وخلت من العلماء والأفاضل بقاعها اه

وكان هواؤها أغذى من كل هواء ، ونسيمها أرق من كل نسيم ، وماؤها أعذب من كل ماء، ويقال لأهلها ملائكة أهل الأرض للطافة أخلاقهم .

ولما أراد المنصور هدم إيوان كسرى ، وحمل نقضه الى مدينة السلام ، قال له وزيره خالد البرمكي : لا تهدم بناء دلّ على فخامة قدر بانيه الذى غلبته وأخذت ملكه فتعجز عنه فيدل ذلك على عجز منك ، فقال هذا لميل منك الى المجوس وأمر بهدمه فعجز عنه ، فقال يا خالد صرنا الى رأيك ، فقال الآن أشير أن لا تكف عنه ، فان الهدم أيسر من البناء ، ويتحدّث الناس أنك عجزت عن هدم بناء بناه عدوّك .

وكان طول هذا الايوان مائة ذراع ، وهو يبعد عن بغداد بمرحلة .

اجارة معن لرجل استغاث به من المنصور

روى أن أمير المؤمنين المنصور أهدر دم رجل كان يسعى بفساد دولته مع الخوارج من أهل الكوفة ، وجعل لمن دلّ عليه أو جاء به مائة ألف درهم ، ثم إن الرجل ظهر في بغداد ، فبينماهو يمشي مستخفيا

فى بعض نواحيها إذ بصر به رجل من أهل الكوفة فأخذ بمجامع ثيابه ، وقال هذا بغية أمير المؤمنين فبينما الرجل على هذه الحالة إذ سمع وقع حوافر الخيل ، فالتفت فاذا معن بن زائدة ، فاستغاث به وقال له أجرنى أجارك الله ، فالتفت معن الى الرجل المتعلق به وقال له ما شأنك وهذا ؟ فقال انه بغية أمير المؤمنين الذى أهدر دمه ، وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم فقال دعه ، وقال لغلامه انزل عن دابتك واحمل الرجل عليها ، فصاح الرجل المتعلق وصرخ واستجار بالناس وقال : حال بينى و بين بغية أمير المؤمنين ، فقال له معن اذهب فقل لأمير المؤمنين وأخبره أنه عندى ، فانطلق الرجل الى المنصور فأخبره ، فأمر المنصور باحضار معن فى الساعة ، فلما وصل أمر المنصور الى معن دعا جميع أهل بيته ومواليه وأولاده وأقاربه وحاشيته وجميع من يلوذ به وقال لهم : أقسم عليكم بأن لا يصل الى هذا الرجل مكروه أبدا وفيكم عين تطرف — ثم انه سار الى المنصور فدخل وسلم عليه ، فلم يردّ عليه المنصور السلام ، ثم ان المنصور قال له : يا معن أتجير علىّ ؟ قال نعم ياأمير المؤمنين ، فقال : ونعم أيضا ، وقد اشتدّ غضبه ، فقال معن يا أمير المؤمنين : كم من مرة تقدم فى دولتكم بلائى ، وحسن عنائى ، وكم من مرة خاطرت بدمى ، أفما رأيتم أهلا بأن يوهب لى رجل واحد استجار بى بين الناس بوهمه أنى عبد من عبيد أمير المؤمنين ، وكذلك هو ، فمر بما شئت ها أنا بين يديك ، فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقد سكن ما به من الغضب وقال له : قد أجرناكه يامعن ، فقال معن إن رأى أمير المؤمنين أن يجمع بين الأجرين فيأمر له بصلة فيكون قد أحياه وأغناه ، فقال المنصور : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم ، فقال له معن ان صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، وان ذنب الرجل عظيم فأجزل صلته ، قال قد أمرنا له بمائة ألف درهم فقال له معن عجل بها يا أمير المؤمنين ، فان خير البر عاجله ، فأمر له بتعجيلها ، فحملها وانصرف ، وأتى منزله وقال للرجل يا رجل : خذ صلتك ، والحق بأهلك ، وإياك ومخالفة الخلفاء فى أمورهم بعد هذه .

أتى المنصور برجل أذنب فقال إن الله يأمر بالعدل والاحسان ، فان أخذت فى غيرى بالعدل فخذ فىّ بالاحسان فعفا عنه .

دخل هشام بن عروة على المنصور فشكا اليه دينا فأعطاه عشرة آلاف درهم ، فقال يا أمير المؤمنين روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من أعطى عطية وهو طيب النفس بورك للمعطى والمعطى منها » أفنفسك طيبة بها ؟ قال نعم .

مقتل أبى مسلم الخراسانى

كان أبو مسلم الخراسانى ، واسمه عبد الرحمن بن مسلم ، بعد فراغه من أمر بنى أمية ينشد كل وقت :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ✿ عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى بجهدى فى دمارهم ✿ والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهمو بالسيف فانتبهوا ✿ من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ✿ ونام عنها تولى رعيها الأسد

قيل لأبي مسلم هذا : قد قت مقاما لايقصر بك عن الجنة فى إزالة دولة بنى أمية ، وإقامة شعار بنى العباس ، فقال : لخوفى من النار أولى من طمعى فى الجنة ، فانى أطفأت من بنى أمية جمرة ألهبت بها نيرانا لبنى العباس ، وسأحرق بها .

لما حج أبو مسلم قيل له : إن بالحيرة نصرانيا أتت عليه مائتا سنة ، وعنده علم من علوم الأوائل ، فقصده ، فلما نظر الى أبى مسلم قال له :قت بالكفاية ولم تأل فى العناية حتى بلغت النهاية أحرقت نفسك ، لمن لايرحم حسك ، وكأنى بك وقد عاينت رمسك ، فبكى أبو مسلم فقال لاتبك فانك لم تؤت من حزم وثيق ، ولا من رأى دقيق ، ولا من تدبير بارع ، ولا من سبب قاطع ، ولكن ما استجمع لأحد أمله ، إلا أسرع فى تقريعه أجله ، قال فتى يكون ؟ قال : إذا تواطأ الخليفتان على أمر والتقدير فى يدى من يبطل معه التدبير ، واذا صرت إلى خراسان فقد سلمت وهيهات ، فلولا أن البصر يعمى إذا نزل القدر ، لكان فى ذلك ما يبعث على الاحتيال .

قال ابن خلكان فى ترجمته : وكان أبو العباس السفاح شديد التعظيم لأبى مسلم لما صنعه ودبره فلما مات السفاح ، وولى أخوه المنصور صدرت من أبى مسلم أشياء أوغرت صدر المنصور عليه ، وهمّ بقتله ، و بقى حائرا بين الاستبداد برأيه فى أمره والاستشارة ، فقال يوما لمسلم بن قتيبة ماترى فى أمر أبى مسلم ؟ فقال يا أمير المؤمنين ــ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ــ فقال حسبك يا بن قتيبة لقد أودعتها أذنا واعية ، ولم يزل المنصور يخدعه حتى أحضره اليه ، والمنصور بالمدائن فأمر بادخاله عليه ، وكان المنصور قد رتب جماعة لقتله وقال لهم إذا رأيتمونى قد مسحت بيدى وجهى فاضربوه ، فلما أدخل عليه أخذ المنصور يقرعه بما صدر منه ، ثم مسح وجهه فبادروه فصاح : استبقنى لأعدائك ياأمير المؤمنين ، فقال له المنصور وأىّ عدوّ أعدى لى منك ياعدوّ الله، فلما قتل هاج أصحابه ، فأمر المنصور بنثر الدراهم والدنانير عليهم فسكنوا ورمى برأسه إليهم ، ثم أدرج فى بساط ، فدخل على المنصور جعفر بن حنظلة ، فرأى أبا مسلم فى البساط ، فقال يا أمير المؤمنين عدّ هذا اليوم أوّل خلافتك ، فأنشد المنصور متمثلا :

فألقت عصاها واستقرّت بها النوى ✲ كما قرّ عينا بالاياب المسافر

ثم أقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم طريح بين يديه وأنشد :

زعمت أن الدين لا يقتضى ✲ فاستوف بالكيل أبا مجرم
اشرب بكاس كنت تسق بها ✲ أمرّ فى الحلق من العلقم

وكان يقال له أبا مجرم أيضا ، وفيه يقول أبو دلامة :

أبا مجرم ما غير الله نعمة ✲ على عبده حتى يغيرها العبد
أفى دولة المنصور حاولت غدره ✲ ألا إن أهل الغدر آباؤك الكرد
أبا مجرم خوّفتنى القتل فانتحى ✲ عليك بما خوّفتنى الأسد الورد

ولما قتله المنصور خطب الناس فذكر أن أبا مسلم أحسن أوّلا وأساء آخرا ، ثم قال فى آخر خطبته وما أحسن ما قال النابغة الذبيانى للنعمان بن المنذر :

فمن أطاعك فانفعه لطاعته ✲ كما أطاعك وادلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة ✲ تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

والضمد بفتح الضاد المعجمة والميم الحقد ، وكان قتله فى شعبان سنة ست أو سبع وثلاثين ومائة ، قال ابن خلكان وغيره : وكان أبو مسلم قد سمع الحديث ، وروى عنه وأنه خطب يوما فقام إليه رجل فقال : ما هذا السواد الذى أراه عليك ؟ فقال أبو مسلم حدثنى أبو الزبير عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء ، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة يا غلام اضرب عنقه .

قيل أحصى من قتله أبو مسلم صبرا وفى حروبه فكانوا ستمائة ألف .

واختلف فى نسبه ، فقيل من العرب ، وقيل من العجم ، وقيل من الأكراد ، وروى أنه قيل لعبد الله بن المبارك رحمه الله : أبو مسلم خير أم الحجاج ؟ فقال لا أقول ان أبا مسلم كان خيرا من أحد ، ولكن كان الحجاج شرا منه .

وكان أبو مسلم فصيحا عالما بالأمور ، ولم ير قط مازحا ، ولم يظهر عليه سرور ولا غضب ولا يأتى النساء إلا مرة واحدة فى السنة ، وكان يقول : الجماع جنون ، ويكفى الانسان أن يجن فى السنة مرة واحدة .

وعرض عليه جواد لم ير مثله ، فقال لقواده : لماذا يصلح هذا الجواد ؟ قالوا للغزو فى سبيل الله ، قال لا ، قالوا ليطلب عليه العدو ، قال لا ، قالوا فماذا يصلح ، أصلح الله الأمير ؟ قال ليركبه الرجل ويفر به من المرأة السوء ، والجار السوء .

وروى أنه قيل لأبى مسلم ما كان سبب خروج الدولة عن بنى أمية ؟ قال لأنهم أبعدوا أولياءهم ثقة بهم ، وأدنوا أعداءهم تألفا لهم ، فلم يصر العدو صديقا بالدنو ، وصار الصديق عدوا بالابعاد ، وكان أبو مسلم مميت دولة بنى أمية ، ومحيي دولة بنى العباس .

استدراك

لترجمة معاوية بن أبى سفيان

ولما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد أقعده فى قبة حمراء ، وجعل الناس يسلمون على معاوية ، ثم يسلمون على يزيد ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع الى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين : اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها ، والأحنف ساكت ، فقال معاوية مالك لا تقول يا أبا بحر ؟ فقال : أخاف الله تعالى إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت ، فقال جزاك الله خيرا عما تقول ، ثم أمر له بألوف ، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب ، فقال له يا أبا بحر إنى لأعلم ان هذا من شرار خلق الله تعالى ، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال فلسنا نطمع فى إخراجها إلا بما سمعت ، فقال له الأحنف : يا هذا أمسك فان ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيها .

بعث معاوية إلى عائشة رضى الله عنها طوقا من ذهب فيه جوهرة قومت بمائة ألف دينار ، فقسمته بين أزواج النبى صلى الله عليه وسلم .

كان لأعرابى امرأتان ، فولدت إحداهما جارية ، والأخرى غلاما فرقصته أمّه يوما وقالت معايرة لضرتها :

الحمد لله الحميد العالى ✲ أنقذنى العام من الجوالى
من كل شوهاء كشنّ بالى ✲ لا تدفع الضيم عن العيال

فسمعتها ضرّتها فأقبلت ترقص ابنتها وتقول :

وما علىّ أن تكون جاريه ✲ تغسل رأسى وتكون الفاليه
وترفع الساقط من خماريه ✲ حتى إذا ما بلغت ثمانيه
أزرتها بنقبة يمانيه ✲ أنكحتها مروان أو معاويه
✲ أصهار صدق ومهور غاليه ✲

فبلغت هذه المقالة مروان فتزوّجها على مائة ألف مثقال وقال ان أمها حقيقة أن لا يكذب ظنها ولا يخان عهدها ، فقال معاوية : لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ، ولكن لا نحرم الصلة فبعث إليها بمائتى ألف درهم .

ودخل معاوية رضى الله عنه على امرأته بنت بحدل ومعه خصىّ ، فاستترت منه ، فقال معاوية انه خصىّ ، فقالت : ان مثلتك به ، لا تحل منى ما حرّمه الله .

وقال معاوية لصعصعة بن صوحان صف لى الناس فقال : خلق الناس أطوارا طائفة للسيادة والولاية ، وطائفة للفقه والسنة ، وطائفة للبأس والنجدة ، ورجرجة بين ذلك يغلون السعر ، ويكدّرون الماء ، إذا اجتمعوا ضروا ، وإذا تفرّقوا لم يعرفوا .

هارون الرشيد

بويع له بالخلافة ببغداد رابع عشر شهر ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة، ولما تمت له البيعة قلد يحي ابن خالد بن برمك وزارته ، وتوفى سنة ثلاث وتسعين ومائة بطوس ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة وهو ابن سبع وأربعين سنة ، وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وشهرا ، وكان جوادا ممدوحا غازيا مجاهدا شجاعا مهيبا مليحا أبيض طويلا .

وقال يوما لحاجبه : احجب عنى من إذا قعد أطال ، وإذا سأل أحال ، ولا تستخفن بذى الحرمة وقدم أبناء الدعوة .

وقال له رجل يوما إنى أريد أن أغلظ عليك فى المقال فهل أنت محتمل ؟ قال لا ، لأن الله تعالى أرسل من هو خير منك إلى من كان شرّا منى ، فقال ـ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى

ويحكى أنه كان له طبيب نصرانى حاذق ، فقال ذات يوم بين يديه لعلىّ بن الحسين بن واقد لماذا لم ينقل شىء فى كتابكم من علم الطب والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان ؟ فقال ابن الحسين إن الله بين علم الطب كله فى نصف آية من كتابه . قال وماهى ؟ قال هى قوله تعالى ـ كلوا واشربوا ولا تسرفوا .

فقال النصرانى ولا يؤثر عن رسولكم شىء من الطبّ ؟ فقال قد جمع رسولنا ﷺ الطبّ

فى ألفاظ يسيرة . قال وماهى ؟ قال قوله « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، وأعط لكل بدن ما اعتاد » .

فقال الطبيب الانصاف إن كتابكم ونبيكم ماتركا حاجة إلى جالينوس فى الطب، فلقد أمرا بما هو رأس حفظ الصحة وإزالة المرض وأصلهما ومدارهما .

يحكى أن هارون الرشيد قال يوما لجلسائه من أرغد الناس عيشا ؟ فقالوا أمير المؤمنين ، فقال لهم كلا إن لأعواد المنبر لهيبة ، وإن لقعقة لجام البريد لفزعة ، وإن أهنى الناس عيشا رجل له دار يسكنها وزوجة يأوى إليها فى كفاف من العيش لايعرفنا ولا نعرفه فان من عرفنا وعرفناه أفسدنا عليه دينه ودنياه .

ومما يحكى عنه أنه خرج هو وأبو يعقوب النديم ، وجعفر البرمكى ، وأبو نواس ، والأصمعى وإذا بشيخ فى الصحراء متكئ على حمار له ، فقال هارون لجعفر سل هذا الشيخ من أين هو ؟ فقال له جعفر من أين جئت ؟ قال من البصرة . قال وأين تريد ؟ قال بغداد . قال وماتصنع فيها ؟ قال ألتمس دواء لعينى ، فقال هارون مازحه ؟ فقال جعفر أخاف أن أسمع منه ما أكره ، فقال بحقى عليك إلا مازحته ، فقال جعفر للشيخ إن وصفت لك دواء ينفعك ما الذى تكافئنى به ؟ فقال الله تعالى يكافئك بما هو خير من ذلك ، فقال : اسمع هذا السر الذى لا أصفه لأحد غيرك ، خذ لك ثلاث أواق من شعاع الشمس ، وثلاث أواق من زهرة القمر ، وثلاثة أواق من هبوب الريح ، وثلاث أواق من نور السراج ، واجمع الجميع فى هون بلا قعر ، ودقها ثلاثة أشهر ، فاذا دققتها اجعها فى شقفة مشقوقة ، واجعلها ثلاثة أشهر فى الريح ، ثم اجعلها فى قصبة ساق جمل قد حفى ، واستعمل هذا الدواء فى كل يوم ثلثمائة مرة عند النوم ، ودم على ذلك ثلاثة أشهر ، فانك تعافى ان شاء الله تعالى .

فلما سمع الشيخ كلامه انبطح عن حماره ، وضرط فى وجهه ضرطة منكرة وقال خذ هذه الضرطة مكافأة لك ، فاذا استعملت هذا الدواء ، ووهب الله لى العافية أخذت لك جارية تخدمك فى حياتك خدمة يقلع الله بها عينيك ، فاذا مت وعجل الله بروحك الى النار ، سخمت وجهك بخراك ، وصارت تقول لك يا صقيع الذقن يا رقيع ، لا إله إلا الله ، ما أصقع ذقنك ، فلما سمع هارون الرشيد منه هذا ضحك حتى استلقى على قفاه ، ورسم له بثلاثة آلاف درهم .

خرج هارون الرشيد ذات يوم للصيد ، فأرسل بازا فغاب قليلا ، ثم أتى وفى فمه سمكة، فأحضر الرشيد العلماء وسألهم عن ذلك ، فقال مقاتل يا أمير المؤمنين : روينا عن جدك ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « ان الجو معمور بأمم مختلفة الخلق ، وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك لها أجنحة ليست بذوات ريش » فأجاز مقاتلا على ذلك وأكرمه .

ويحكى أن الأصمعى قال لهارون الرشيد فى بعض حديثه : يا أمير المؤمنين، بلغنى أن رجلا من العرب طلق فى يوم واحد خمس نسوة ، قال وكيف ذلك ، وانما لا يجوز للرجل غير أربع ؟ قال يا أمير المؤمنين كان متزوجا بأربع ، فدخل عليهن يوما فوجدهن متنازعات وكان شريرا ، فقال إلى متى هذا النزاع ما أظن هذا الاّ منك قبلك يافلانة ، لامرأة منهن اذهبى فأنت طالق ، فقالت له

صاحبتها عجلت عليها بالطلاق ، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصلح ، فقال لها وأنت أيضا طالق ، فقالت له الثالثة قبحك الله ، فوالله لقد كانتا اليك محسنتين ، فقال لها وأنت أيضا أيتها المعددة أياديهما طالق ، فقالت الرابعة : لما ضاق صدرك صرت تؤدب نساءك بالطلاق ، فقال لها وأنت طالق أيضا ، فسمعته جارة له فأشرفت عليه وقالت له : والله ماشهدت العرب عليك ولا على قومك بالضعف الا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم ، أبيت إلا طلاق نسائك فى ساعة واحدة ، فقال وأنت أيتها المتكلمة فيما لا يعنيك طالق ان أجازنى بعلك بنكاحك ، فأجابه زوجها قد أجزت ذلك ، فعجب هارون الرشيد من ذلك .

ادعى رجل النبوة فى أيام هارون الرشيد ، فلما مثل بين يديه قال له ما الذى يقال عنك ؟ قال إنى نبي كريم ، قال فأى شيء يدل على صدق دعواك ؟ قال سل عما شئت ، قال أريد أن تجعل هذه المماليك المرد القيام الساعة بلحى ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحى وأغير هذه الصور الحسنة ، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مردا فى لحظة واحدة ، فضحك منه هارون الرشيد وعفا عنه وأمر له بصلة .

وتنبأ فى أيامه رجل آخر زعم أنه نوح ، فقيل له أنت نوح الذى كان ؟ أم نوح آخر ، قال أنا نوح الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وقد بعثت إليكم لأفى الخمسين عاما تمام الألف سنة فأمر هارون الرشيد بضربه وصلبه فمر به بعض المخنثين وهو مصلوب ، فقال صلى الله وسلم عليك يا أبانا ماحصل فى يدك من سفينتك إلا دقلها ، وهو الذى يكون فى وسط السفينة كجذع طويل .

حكى أنه كان فى زمنه قد حصل للناس غلاء سعر وضيق حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتدادا عظيما ، فأمر هارون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء ، وأمر بكسر آلات الطرب ، ففى بعض الأيام رؤى عبد يصفق ويرقص ويغنى ، فحمل الى هارون الرشيد ، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس ، فقال ان سيدى عنده خزانة بر وأنا متوكل عليه أن يطعمنى منها ، فلهذا أنا إذن لا أبالى ، فأنا أرقص وأفرح ، فعند ذلك قال الخليفة اذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله أولى ، فسلم للناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على الله تعالى ، فجاءهم الفرج من حيث لا يحتسبون .

غضب هارون الرشيد على حميد الطوسى فدعا له بالنطع والسيف فبكى ، فقال له ما يبكيك ؟ فقال والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لابد منه ، وإنما بكيت أسفا على خروجى من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط على ، فضحك وعفا عنه ، وقال إن الكريم إذا خادعته انخدع .

وقال يزيد بن مزيد أرسل إلى الرشيد ليلا يدعونى فأوجست منه خيفة ، فقال لى أنت القائل أنا ركن الدولة والثائر لها والضارب أعناق بغاتها لا أم لك أى ركن وأى ثائر أنت ؟ قلت يا أمير المؤمنين : ماقلت هذا إنما قلت أنا عبد الدولة والثائر لها ، فأطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه ثم ضحك ، فقلت أحسن من هذا قولى :

خلافة الله فى هارون ثابتة ✲ وفى بنيه إلى أن ينفخ الصور

فقال يافضل أعطه مائتى ألف درهم قبل أن يصبح .

ولما بايع هارون الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء ، فقال

له

له هارون لم تخلفت ، فقال عاقنى عائق ، فقال اقرءوا عليه كتاب البيعة ، فقال يا أمير المؤمنين هذه البيعة فى عنق إلى قيام الساعة ، فلم يفهم هارون الرشيد ما أراد ، وظن أنه إلى قيام الساعة يوم المحشر ، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس .

ويحكى عن مسرور مولى هارون الرشيد . قال لما أمرنى هارون الرشيد بقتل جعفر بن يحيى البرمكى ، دخلت فوجدت عنده أبا بكار يغنيه ويقول :

فلا تحزن فكل فتى سيأتى ✲ عليه الموت يطرق أو يغادى

فقلت فى هذا والله قد أتيتك ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته وضربت عنقه ، فقال أبو بكار ناشدتك الله إلا ألحقتنى به ، فقلت له ، ما الذى حملك على هذا ؟ فقال أغنانى عن الناس ، فقلت حتى أستأمر الرشيد ، ثم أحضرت الرأس الى الرشيد وأخبرته بخبر أبى بكار ، فقال هذا رجل فيه مصطنع اضممه إليك وانظر ما كان يجرى عليه جعفر فادفعه اليه .

دخل رجل على هارون الرشيد فقال يا أمير المؤمنين انى هجوت الروافض، قال هات فقال :

شمسا ورغما وزيتونا ومظلمة ✲ من أن ينالوا من الشيخين طغيانا

فقال فسر ، فقال يا أمير المؤمنين أنت فى مائة ألف لا تفهم هذا فأفهمه وأنا وحدى ، فضحك وأمر له بصلة .

ويحكى أن هارون الرشيد قال للجهجاه أزنديق أنت ؟ فقال كيف أنا زنديق وقد قرأت القرآن وفرضت الفرائض وفرقت بين الحجة والشبهة ، قال والله لأضربنك حتى تقرّ ، قال هذا خلاف ما أمر الله جل وعزّ به أمر أن يضرب الناس حتى يقروا بالايمان ، وأنت تضربنى حتى أقرّ بالكفر ، فالتفت الجهجاه الى أبى يوسف القاضى ، فقال له أفته لابهلك فى دينه .

يحكى أن هارون الرشيد جمع أربعة من الأطباء عراقيا وروميا وهنديا وسواديا ، فقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لاداء فيه ، فقال الرومى: الدواء الذى لاداء فيه، حب الرشاد الأبيض، وقال الهندى : الماء الحار . وقال العراقى : الاهليلج الاسود ، وكان السوادى أبصرهم ، فقال له تكلم ، فقال : حب الرشاد يولد الرطوبة ، والماء الحار يرخى المعدة ، والاهليلج يرق المعدة ، قال فأنت ما تقول ، قال : الدواء الذى لاداء فيه ، أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه ، وتقوم عنه وأنت تشتهيه .

يحكى عن أبى نواس أنه كان يوما عند هارون الرشيد فنظر الى جارية تختلف كأنها لؤلؤة ، فقال يا أمير المؤمنين أنا ميت فى ليلتى هذه فاذا مت فمر أن أدفن فى بطن هذه الجارية ، فقال له هارون الرشيد خذها لا بارك الله لك فيها ، قال أبو نواس فأخذتها وانصرفت بمثل الشمس حسنا وفى منزلى غلام مثل القمر ، فلقينى محمد بن بشير الشاعر ، فقال أتيتك مهنئا بما حباك به أمير المؤمنين ، فقلت نعمة تتبعها نقمة ، قال ولم ذاك ؟ فقلت عندى غلام مثل القمر ، وهذه مثل الشمس ، وان جمعتهما أتخوّف ماتعلم ، وان أفردت الجارية لم آمن عليها ، وغلامى لابد منه ، قال اجعلها عند بعض إخوانك الى وقت حاجتك إليها ، قلت فلعل الحارس هو المنحرس منه ، قال فصيرها عند عجوز تثق بها ، قلت لعلى أسترعى الذئب ، ثم افترقنا فالتقى معه أبو نواس بعد ثلاثة

أيام ، فقال له يا محمد بن بشير ما على الأرض شر منك ، شاورتك فى أمر فلم تفتح علىّ فيه شيئا، فلما فارقتك ازدحم علىّ الرأى المصيب ، قال محمد فماذا صنعت ؟ قال زوّجت الشمس من القمر فحصلتهما لأقضى بهما وطرى ، قال كان الشيء عليك حلالا ، فجعلته حراما ، قال يا أحمق أشاورتك فى الحلال والحرام ؟ إنما قلت لك كيف الرأى فى تحصيلهما ، ثم أنشأ :

زوّجت ها ذاك بهذه لكى * أنكح ثنتين فثنتين
أنكح هذى مرة ثم ذا * أدير رحما بين صفين
متعت نفسى بهما لذة * يا من رأى مطلع شمسين

غنى رجل بحضرة هارون الرشيد بهذه الأبيات :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى * على كبدى من خشية أن تصدعا
فليست عشيات الحمى برواجع * عليك ولكن خل عينيك تدمعا
بكت عينى اليسرى فلما نهيتها * عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

فاستخفّ هارون الرشيد الطرب ، فأمر له بمائة ألف درهم .

وحكى عن الرشيد أنه قال يوما للفضل بن الربيع من بالباب من الندماء ؟ قال جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بنى أمية وأمير المؤمنين يشتهى سماعه قال فأذن له وحده، فدخل فقال هات أبا هاشم فغناه من شعر جميل حيث يقول :

إذا ما تراجعنا الذى كان بيننا * جرى الدمع من عينى بثينة بالكحل
فياويح نفسى حسب نفسى الذى بها * ويا ويح عقلى ما أصبت به أهلى
خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما * قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

فطرب الرشيد طربا شديدا وقال أحسنت لله أبوك ، ثم قلده عقدا نفيسا ، فلما رآه هاشم ترقرقت عيناه بالدموع ، فقال له هارون الرشيد ما يبكيك يا هاشم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن لهذا العقد حديثا عجيبا ان أذن لى أمير المؤمنين حدثته به ، قال قد أذنت لك ، قال يا أمير المؤمنين قدمت يوما على الوليد وهو على بحيرة طبرية ومعه قينتان لم ير مثلهما جمالا وحسنا ، فلما وقعت عيناه علىّ قال هذا أعرابى قد ظهر من البوادى ادعوا به فنسخر به ، فدعانى فصرت اليه ولم يعرفنى فغنت إحدى الجاريتين بصوت هولى ، فأخطأته الجارية ، فقلت لها أخطأت يا جارية ، فضحكت ثم قالت يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الاعرابى يعيب علينا غناءنا ، فنظر إلىّ كالمنكر ، فقلت يا أمير المؤمنين أنا أبين لك الخطأ ، فلتصلح وتر كذا ووتر كذا ، ففعلت وغنت شيئا ماسمع منها إلا فى هذا اليوم ، فقامت الجارية مكبة علىّ وقالت أستاذى هاشم ورب الكعبة ، فقال الوليد أهاشم بن سليمان أنت ؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين ، وكشفت عن وجهى وأقمت معه بقية يومنا ، فأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقالت الجارية يا أمير المؤمنين أتأذن لى فى برّ أستاذى ؟ فقال الوليد ذلك إليك ، فحلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها ووضعته فى عنقى وقالت هو لك ثم قرّبوا إليه السفينة ليرجع الى موضعه ، فركب فى السفينة ، وطلعت معه احدى الجاريتين واتبعتها صاحبتى فأرادت أن ترفع رجلها وتطلع السفينة ، فسقطت فى الماء ، فغرقت لوقتها، وطلبت فلم يقدر عليها،

فاشتد

فاشتد جزع الوليد عليها ، و بكى بكاء شديدا ، وبكيت أنا عليها أيضا بكاء شديدا ، فقال لى يا هاشم ما نرجع عليك بما وهبناه لك ، ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به ، فبعنى إياه فعوضنى عنه ثلاثين ألف درهم ، فلما وهبت لى العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته ، وهذا سبب بكائى ، فقال الرشيد لاتعجب ، فان الله كما ورثنا مكانهم ، ورثنا أموالهم .

وقال على بن سليمان النوفلى غنى دحمان الأشقر عند هارون الرشيد يوما فأنشده :

إذا نحن أدلجنا وأنت إمامنا ✲ كفى لمطايانا برؤياك هاديا

ذكرتك بالديرين يوما فأشرفت ✲ بنات الهوى حتى بلغن التراقيا

إذا ما طواك الدهر يا أم مالك ✲ فشأن المنايا القاضيات وشانيا

قال فطرب الرشيد طربا شديدا واستعاده منه مرات ، ثم قال له تمن على ، قال أتمنى المنيء والمرىء وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار فى كل سنة ، فأمر له بهما .

وحكى أن الرشيد فصد يوما فأرسلت إليه بعض حظاياه قدحا فيه شراب مع وصيفة لها حسنة الوجه ، جميلة الطلعة ، بديعة المحيا ، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات :

فصدت عرقا تبتغى صحة ✲ ألبسك الله به العافيه

فاشرب بهذا الكأس ياسيدى ✲ واهنأ به من كف ذى الجاريه

واجعل لمن أنفذه خلوة ✲ تحظى بها فى الليلة الآتيه

فنظر الرشيد الى الوصيفة التى جاءت بالقدح فاستحسنها فافتضها ثم أرسلها ، فعلمت مولاتها بذلك فكتبت اليه رقعة تقول فيها هذه الأبيات :

بعثت الرسول فأبطا قليلا ✲ على الرغم منى فصبرا جميلا

وكنت الخليل وكان الرسول ✲ فصرت الرسول وصار الخليلا

كذا من يوجه فى حاجة ✲ إلى من يحب رسولا جميلا

فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها أنا عندك الليلة .

وحكى عنه أنه أرق ذات ليلة أرقا شديدا فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكى إنى أرقت فى هذه الليلة وضاق صدرى ، ولم أعرف ما أصنع ، وكان خادمه مسرور واقفا أمامه ، فضحك فقال له ما يضحكك ؟ استهزاء بى أم استخفافا ؟ فقال وقرابتك من سيد المرسلين ما فعلت ذلك عمدا ، ولكن خرجت بالأمس أتمشى بظاهر القصر الى أن جئت الى جانب الدجلة ، فوجدت الناس مجتمعين فوقفت فرأيت رجلا واقفا يضحك الناس يقال له ابن المغازلى ، فتفكرت الآن فى شىء من حديثه وكلامه فضحكت ، والعفو يا أمير المؤمنين ، فقال له هارون الرشيد ائتنى به الساعة ، فخرج مسرور مسرعا الى أن جاء الى ابن المغازلى ، فقال له أجب أمير المؤمنين ، فقال سمعا وطاعة فقال له بشرط أنه إذا أنعم عليك بشىء يكون لك منه الربع والبقية لى ، فقال له بل اجعل لى النصف ولك النصف فأبى ، فقال الثلث لى ولك الثلثان فأجابه الى ذلك بعد جهد عظيم ، فلما دخل على الرشيد سلم فأبلغ ، وترجم فأحسن ، ووقف بين يديه ، فقال له أمير المؤمنين إن أنت أضحكتنى أعطيتك خمسمائة دينار ، وان لم تضحكنى أضربك بهذا الجراب ثلاث ضربات ، فقال ابن

المغازلى فى نفسه وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب وظنّ فى نفسه أن الجراب فارغ فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أفعالا عجيبة تضحك الجلمود ، فلم يضحك الرشيد ولم يتبسم فتعجب ابن المغازلى وضجر وخاف ، فقال له الرشيد الآن استحققت الضرب ، ثم إنه أخذ الجراب ولفه ، وكان فيه أربع زلاطات كل واحدة وزنها رطلان ، فضربه ضربة ، فلما وقعت الضربة فى رقبته صرخ صرخة عظيمة ، وافتكر الشرط الذى شرطه عليه مسرور ، فقال له العفو يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمتين ، قال قل مابدا لك ، قال ان مسرورا شرط علىّ شرطا ، واتفقت أنا واياه على مصلحة ، وهو أن ماحصل لى من الصدقات يكون له فيه الثلثان ولى فيه الثلث ، وما أجابنى إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم ، وقد شرط علىّ أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصبى منها واحدة ونصيبه اثنان ، وقد أخذت نصيبى ، وبقى نصيبه ، فضحك الرشيد ودعا مسرورا فضربه ، فصاح وقال : يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقى ، فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار ، فأخذ كل واحد منهما خمسمائة .

ومما يذكر من كرم هارون الرشيد أنه وصل فى يوم واحد بألف ألف وثلثمائة ألف وخمسين ألفا .

لما رجع الرشيد عن الحج نذر أن يتصدق بألف دينار على أحقّ من يجده ، فدفع يوما ألف دينار إلى بعض ثقاته وأمره أن يطلب فقيرا مستحقا فيعطيه فأخذ يطوف فى الأسواق فاذا رأى فقيرا مستحقا للاعطاء . قال لعلى أجد أفقر منه ، فانتهى بالعشى إلى عريان محلوق الرأس فى خربه ، فقال فى نفسه لاأحد أفقر من هذا ، فقال يافتى خذهذا المال واستغن به ،فقال لا حاجة لى فيه . قال أحب أن تأخذه . قال إن كان ولا بدّ فثم حجام حلق رأسى ولم يكن معى شىء فادفعه إليه . قال فقصدت الحجام فامتنع من أخذه ، فقلت هو ألف دينار ، فقال ما حلقت رأسه إلا للثواب فلا آخذ عليه أجرة . قال فمدت وما وجدت أكرم منهما وأهون منى ، فأخبرت الرشيد بأمرهما فبعثنى فى طلبهما ، فكأن الأرض ابتلعتهما ولم أظفر بهما .

وذكر الحافظ أبو العباس بن ظفر بك فى كتابه النطق المفهوم أنه كان رجل يقال له البطال يدخل أرض الروم ويلبس البرنس ، ويعلق الانجيل فى عنقه ، فاذا وجد من أهل الشرك عشرة أو أقل قتلهم ، وإن كثروا أمسك عنهم فيظنون أنه أسقف من أساقفهم فلا يتعرضون له ، فكان كذلك سنين كثيرة فى أرض الروم حتى خرج إلى أرض الاسلام فى زمن هارون الرشيد ، ثم اتصل به وسأله يوما وقال يابطال حدثنى بأعجب شىء رأيته فى أرض الروم ،قال نعم كنت فى مرج من مروجها أمشى والبرنس والانجيل فى عنق إذ سمعت خلفى وقع حوافر الدواب ، فالتفت فاذا أنا بفارس عليه سلاح شاك وبيده رمح فدنا منى وسلم علىّ فرددت عليه ، فقال هل عرفت رجلا يقال له البطال ؟ فقلت أنا البطال ، فنزل عن دابته وعانقنى وقبل رجلى ، وقال جئتك لأخدمك فدعوت له ، فبينما نحن كذلك إذ أقبل علينا أربعة فرسان ، فقال لى صاحبى ائذن لى أخرج إليهم فأذنت له فخرج إليهم فتطاردوا ساعة ثم قتلوه وأقبلوا إلىّ وحملوا علىّ ، فقلت إن أردتم محاربتى فأمهلونى ثم قلت أنتم أربعة وأنا واحد وهذا ليس بانصاف فليخرج إلىّ واحد منكم . قالوا لك ذلك فخرج

واحد

واحد فقتلته يا أمير المؤمنين ، ثم آخر فقتلته ، ثم آخر فقتلته ، فخرج الرابع فما زلنا نتطارد بالرماح حتى انكسر رمحى ورمحه ، فنزلنا عن دابتنا وأخذ ترسه وسيفه ، وأخذت ترسى وسيفى فما زلنا نتطارد حتى انكسرت ترسى وترسه ، وانقطعت ذؤابة سيفى وسيفه ، وسقطت أسيافنا على الأرض ثم تصارعنا حتى أمسينا وغربت الشمس فلم يقدر على ولم أقدر عليه ، فقلت يا هذا قد فاتتنى الصلاة فى دينى اليوم ، فقال لى مثل ذلك ، وكان أسقفا ، فقلت هل لك أن نفترق ونقضى فوائتنا ونستريح الليل ، فاذا أصبحنا عدنا . قال لك ذلك ، فوحدت الله وصليت صلاتى ، وفعل هو مافعل فلما كان عند الرقاد قال إنكم معشر العرب فيكم غدرة وعندى فى أذنى جلجلان أعلق أحدهما فى أذنك وتضع رأسك على ، فان تحركت صاحت جلجلتك فاستيقظت ، فقلت أفعل ذلك فبتنا على هذه الحال ، فلما أصبحنا وحدت الله وصليت، ثم تصارعنا فصرعته وقعدت على صدره وأردت أن أذبحه ، فقال اعف عنى هذه المرة ، فقلت لك ذلك ، ثم تصارعنا ثانيا ، فزلت رجلى وقعد على صدرى وهم بذبحى ، فقلت له أنا قد عفوت عنك أفلا تعفو عنى ؟ قال لك ذلك فتصارعنا ثالثا وقد انكسر قلبى فصرعنى وقعد على صدرى ، فقلت واحدة بواحدة تفضل على بهذه المرة ، فقال لك ذلك قم ، فتصارعنا رابعة فصرعنى ، وقال لقد عرفت الآن أنك البطال لأذبحنك ولأريحن أرض الروم منك . قلت كلا إن شاء ربى ، فقال قل لربك يمنعنى عنك ، ورفع الخنجر ليذبحنى ، فقام المقتول ياأمير المؤمنين ورفع سيفا وضرب رأسه فأطاحها ، وقرأ هذه الآية — ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا .

وعن الفضل بن الربيع أنه قال قال لى هارون الرشيد يوما أطلب منك حجاما أسكت من الحجر ، فقلت له إن لى غلاما عاقلا أديبا ظريفا ذا سكينة ووقار ، وله معرفة تامة بالحجامة ، فقال ابعثه إلى فبعثته إليه وأكدت عليه أنه يلزم السكوت مع الأدب ولا ينطق بشىء ، وأن يتأهب أحسن أهبة وأكدت عليه ، ثم بعد ذلك دخلت على هارون الرشيد ، فوجدته عبوسا منقبضا فقال يافضل إن لذلك الحجام شأنا وإنا لا نراه أبدا بعد اليوم ، ثم إنى سألت فراشا مختصا به عن خبره ، فقال يافضل لما أتى الحاجم جئت به إلى أمير المؤمنين لاخراج الدم ، فلما بدأ فى الحجامة قال يا أمير المؤمنين إنى أسألك عن شىء ، فقال له ماهو ؟ قال قدمت محمدا على المأمون والمأمون أسن منه ، فقال له أخبرك به إذا فرغت فلم يلبث إلا يسيرا حتى قال وأسألك يا أمير المؤمنين عن شىء آخر ، فقال ماهو ؟ قال لم قتلت جعفر بن يحيى البرمكى ؟ فقال له أخبرك به إذا فرغت ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى قال وأسألك عن شىء آخر ، فقال له قل ، فقال لم اخترت الرقة على بغداد و بغداد أطيب منها ، فقال له جوابك عن ذلك إذا فرغت ، فلما فرغ دعا مسرورا خادمه ، وقال له لا تشرب الماء البارد قبل أن تقتله فانه سألنى عن ثلاث مسائل لو سألنى عنها المنصور ماأجبته . قال الفضل فبينما أنا جالس إذ دخل أبو دلامة على الرشيد باكيا وقد تواطأ مع زوجته أنه يدخل على الرشيد وهى تدخل على زبيدة زوج الملك ، فلما مثل بين يديه بكى وانتحب ، فقال له الرشيد مابالك تبكى ؟ فقال :

وكنا كذى روحى قطا فى مفازة ☆ من الأمن فى عيش رخى وفى رغد

فأفردنا ريب الزمان بصرفه ✲ ولم أر شيئا قط أوحى من الفرد

ثم أعلن بالنحيب والعويل ، وقال يا أمير المؤمنين ماتت زوجتي أم دلامة وأنا محتاج إلى تجهيزها فأمر له بمال ، وكانت أم دلامة قد دخلت على زبيدة وهي باكية ، فقالت لها زبيدة ما بالك ؟ فقالت إن زوجي أبا دلامة مضى لسبيله فأعطتها مالا تجهزه به وذهبت ، فدخل الرشيد على زبيدة وهو مغضب من أسئلة الحجام وموت أم دلامة ، فقالت له زبيدة يا أمير المؤمنين مالي أراك حزينا فأخبرها الخبر فضحكت ، وقالت الآن خرجت أم دلامة من عندي لتجهيز أبي دلامة فضحك هو أيضا ، وقال والآن خرج من عندي أبو دلامة لتجهيز أم دلامة . قال الفضل فخرج علينا الرشيد مسفرا مستبشرا مستغرقا في الضحك ، فعجبت منه كيف دخل حزينا وخرج مسرورا ، فاستخبرته فأخبرني بما حصل ، فشفعت حينئذ في الحجام فقبل شفاعتي وأطلقه واستحضر أبا دلامة ، وقال له ما حملك على هذا ؟ فقال له يا أمير المؤمنين لكي يقال إنه لا يتوصل إلى عطاء أمير المؤمنين إلا بالحيلة وضحكا جميعا من ظرافة حيلهما .

وحكى أن الأصمعي قال كنت يوما عند هارون الرشيد ، فقال لي من عندك يؤانسك ، فقلت له ليس عندي أحد ، فلما ذهبت إلى منزلي أرسل لي جارية بديعة الحسن والجمال آنستني بكلامها وبهرني عذب اقتراحها من بدائع الحركات المطربة المهيجة لسواكن الشهوة التي توقظ النائم ، وتنعش الفؤاد فلاعبتها ولاعبتني حتى أمالت نفسي إليها ، ورغبت في الركوب عليها وخلعت ثيابي وسألتها أن تخلع ثيابها فخلعتها وهي تتنفس تنفس السقيم ، وتأخذ القلوب بكلامها الرخيم ، فلما أردت أن أهمّ بها اعتراني من الفتور ، وعدم الانتصاب ما كدّر خاطري ، وأفسد لي ، فتحيرت في أمري وصرت لا أدري ماذا أفعل ، فأكثرت من ملاعبتها حتى صارت تقلب ايرى بيدها فلم يزدد إلا فتورا وارتخاء ، وحصل له انكماش حتى صار كالميت الذي لا حركة فيه فعظمت حسرتي وصرت منها في حياء وخجل ، فلما أيست منه . قالت ياسيدي دع ايرك فما لنا فيه حيلة ولا نفع فانه ميت ، وقالت لي نم على ظهرك حتى أغسله وأكفنه ، فخجلت منها ولم أقدر أخالفها ونمت لها كما طلبت فمسكته بيدها وغسلته وكفنته بمنديل ، ثم قالت لي قم صلّ عليه ، فقمت أنا في غاية الخجل ، فتوضأت وصليت الصبح وسرت من وقتي إلى الرشيد ، فقال لي ماخبرك ؟ فقلت له يا أمير المؤمنين حكايتي غريبة وأخبرته بما حصل لي منها ، فضحك حتى استلقى على ظهره ، وقال لي نحن أحوج إليها منك لصغرها وفطانتها ، فأخذها مني وعوّضني جارية غيرها وعشرة آلاف درهم ، وحظيت عند الرشيد ، وسميت من يومها بالأصمعية .

قال إسحاق ابن إبراهيم كنت مع الرشيد بالكوفة في شهر رمضان ، فقال لابن عيسى القاضي حلوتنا عليك ، وكان يوجه إليه كل ليلة عشر صحاف ، فلما كان بعد عشر ليال قطعها ، فقال له هارون الرشيد لم قطعت عنا الحلواء ، فقال ماقطعها أحد غيرك إن أنصفت . قال كيف ؟ قال إن من يأخذها منا لا يردّ صحفة ولا منديلا ولا طبقا . قال بئس ماعمل إن الهدايا تستدام برد الظروف فاذا صرت المتقاضي وأنت القاضي فلا تحتشم أحدا في استرداد الظروف .

دخل

دخل بعض الأعراب على الرشيد فازدراه ، فأنشده :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ☆ وفى أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه ☆ فيخلف ظنك الرجل الطرير
لقد عظم البعير بغير لب ☆ فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبى بغير وجه ☆ ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى ☆ فلا عار عليه ولا نكير
فان أك فى شراركمو قليلا ☆ فانى فى خياركمو كثير

قال مسلم بن الوليد كنت يوما جالسا عند خياط بازاء منزلى ، فمر بى إنسان أعرفه فقمت إليه وسلمت عليه ، وجئت به إلى منزلى لأضيفه وليس معى درهم بل كان عندى زوج أخفاف ، فأرسلتهما مع جاريتى لبعض معارفى ، فباعهما بتسعة دراهم ، واشترى بها ماقلته لها من الخبز واللحم ، فجلسنا نأكل ، وإذا بالباب يطرق ، فنظرت من شق الباب ، وإذا بانسان يسأل هذا منزل فلان ؟ ففتحت الباب وخرجت ، فقال أنت مسلم بن الوليد ؟ قلت نعم ، واستشهدت له بالخياط على ذلك ، فأخرج لى كتابا ، وقال هذا من الأمير يزيد بن مزيد ، فاذا فيه قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون فى منزلك ، وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا ، فأدخلته إلى دارى وزدت فى الطعام ، واشتريت فاكهة وجلسنا فأكلنا ، ثم وهبت لضيفى شيئا يشترى به هدية لأهله ، وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة ، فوجدناه فى الحمام ، فلما خرج استؤذن لى عليه ، فدخلت فاذا هو جالس على كرسى وبيده مشط يسرح به لحيته ، فسلمت عليه ، فرد أحسن رد وقال ماالذى أقعدك عنا ؟ قلت قلة ذات اليد ، وأنشدته قصيدة مدحته بها . قال أتدرى لم أحضرتك ؟ قلت لا أدرى . قال كنت عند الرشيد منذ ليال أحادثه ، فقال لى يا يزيد من القائل فيك هذه الأبيات :

سل الخليفة سيفا من بنى مضر ☆ يمضى فيخترق الأجسام والهاما
كالدهر لا ينثنى عما يهم به ☆ قد أوسع الناس إنعاما وارغاما

فقلت والله لاأدرى يا أمير المؤمنين ، فقال سبحان الله أيقال فيك مثل هذا ولا تدرى من قاله ؟ فسألت فقيل لى هو مسلم بن الوليد فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه ، فقبلت الأرض وسلمت فرد على السلام ، فأنشدته مالى فيه من شعر ، فأمر لى بمائتى ألف درهم ، وأمر لى يزيد بمائة ألف درهم ، وقال ما ينبغى لى أن أساوى أمير المؤمنين فى العطاء ، فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم ، ولقد أحسن من قال :

الأمن والخوف أياما مدوالة ☆ بين الأنام وبعد الضيق تتسع

وقال إبراهيم الموصلى فى تهنئة الرشيد بالخلافة :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة ☆ فلما أتى هارون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه ☆ فهارون واليها ويحيى وزيرها

وغناه بهما من وراء الحجاب ، فوصله بمائة ألف دينار ، ويحيى بخمسين ألفا .

ونظير هـذا ماروى أن أعرابيا دخل على المهدى العباس ، فقال له فيم جئت ؟ قال أتيتك برسالة . قال هاتها . قال أتانى آت فى منامى ، فقال ائت أمير المؤمنين فأبلغه هذه الأبيات :

لكم إرث الخلافة من قريش ☆ تزف إليكمو أبدا عروسا
إلى هارون تهدى بعد موسى ☆ تميس وما لها أن لا تميسا

فقال المهدى ياغلام علىّ بالجواهر فحشا فاه حتى كاد ينشق ، ثم قال اكتبوا هذه الأبيات واجعلوها فى مخانق صبياننا .

الأصمعى وأحد الكرماء

حكى الأصمعى قال قصدت فى بعض الأيام رجلا كنت آتيه أحيانا كثيرة لكرمه وجوده فلما أتيت داره وجدت على بابه بوّابا فمنعنى من الدخول عليه ، وقال لى يا أصمعى ما أوقفنى على بابه لأمنع مثلك إلا رقة حاله وقصور يده وماهو فيه من الضيق ، فقلت أريد أن أكتب له رقعة أوصلها إليه ؟ فقال سمعا وطاعة ، فأحضر لى قرطاسا وقلما ودواة ، فأخذت وكتبت له شعرا :

إذا كان الكريم له حجاب ☆ فما فضل الكريم على اللئيم

ثم طويت الرقعة ودفعتها إلى الحاجب وقلت له أوصل هذه الرقعة إليه ففعل ومضى بالرقعة قليلا ، ثم عاد إلىّ بالرقعة عينها ، وقد كتبت تحت شعرى جوابا شعرا :

إذا كان الكريم قليل مال ☆ تحجب بالحجاب عن الغريم

ومع الرقعة صرّة فيها خمسمائة دينار ، فتعجبت من سخائه مع قلة ما بيده ، فقلت فى نفسى والله لأتحفنّ هارون الرشيد بهذا الخبر ، فانطلقت حتى أتيت قصر الخلافة ، فاستأذنت ودخلت فسلمت عليه بالخلافة . فلما رآنى . قال لى من أين ياأصمعى ؟ قلت من عند رجل من أكرم الأحياء من بعد أمير المؤمنين . قال ومن هو ؟ فدفعت له الصرّة وسردت عليه الخبر ، فلما رأى الصرة قال هذه من بيت مالى ولا بدّ لى من الرجل ، فقلت والله يا أمير المؤمنين إنى أستحى أن أكون سبب روعه بارسالك إليه ، فقال لايغمك ذلك ، ثم التفت إلى بعض خاصته ، وقال له امض مع الأصمعى فاذا أراك دارا فادخل وقل لصاحبه أجب أمير المؤمنين وليكن دعاؤك له بلطافة من غير أن تزعجه قال الأصمعى فمضينا ودعونا الرجل فجاء ودخل على أمير المؤمنين وسلم بالخلافة ، فقال له هارون الرشيد ألست أنت الذى وقفت لنا بالأمس وشكوت لنا رقة حالك وقلت إنك فى ضيق شديد من الاحتياج فرحمناك ووهبنا لك هذه الصرّة لتصلح بها حالك وقد قصدك الأصمعى ببيت من الشعر فدفعتها له ؟ قال نعم ياأمير المؤمنين والله ما كذبت فيما شكوته لأمير المؤمنين من رقة حالى وشدّة احتياجى ، ولكننى استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدى إلا كما أعادنى أمير المؤمنين ، فقال هارون الرشيد لله درّ بطن أتاك فما ولدت العرب أكرم منك ، ثم بالغ فى إكرامه وخلع عليه وجعله من خاصته .

ابراهيم الموصلى عند الرشيد

دخل إبراهيم الموصلى يوما على الرشيد فأنشده :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى ✲ فليس إلى ما تأمرين سبيل
فعالى فعال المكثرين تجملا ✲ ومالى كما قد تعلمين قليل
فكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ✲ ورأى أمير المؤمنين جميل

فقال لله أبيات تأتينا بها ما أحسن أصولها ، وأبين فصولها ، وأقل فضولها ، ياغلام أعطه عشرين ألفا . قال والله لاأخذت منها درهما . قال ولم ؟ قال لأن كلامك ياأمير المؤمنين خير من شعرى . قال أعطوه أربعين ألفا .

الرشيد والمفضل الضبي

قال الرشيد للمفضل الضبي : قل ما أحسن ما قيل فى النوائب ولك هذا الخاتم الذى فى يدى ، فقال قول الشاعر :

ينام باحدى مقلتيه ويتقى ✲ بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

فقال الرشيد ماألقى هذا على لسانك إلا ذهاب الخاتم ورماه إليه ، فاشترته أم جعفر بألف وستمائة دينار و بعثت به إليه ، فقالت قد كنت أراك تعجب به فألقاه إلى الضبي ، وقال خذه وخذ الدنانير فما كنا نهب شيئا ونرجع فيه .

ابن جامع والجارية والرشيد

قال ابن جامع انتقلت من مكة إلى المدينة لشدة لحقتنى ، فأصبحت يوما وما أملك إلا ثلاثة دراهم فى كمى ، فاذا أنا بجارية على كتفها جرة تسعى بين يدى وتترنم بصوت شجى وتقول :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ✲ فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذلك أن النوم يغشى عيونهم ✲ سراعا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا مادنا الليل المضر بذى الهوى ✲ جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلما ✲ نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

فأخذ الغناء بقلبي وضربت يدى إلى الدراهم الثلاثة فدفعتها إليها فأخذتها وقالت تريد منى صوتا أحسبك تأخذ به ألف دينار وألف دينار وألف دينار ، ثم غنت ففهمته ثم سافرت إلى بغداد . فآل الأمر إلى أن غنيت الرشيد بهذا الصوت ، فرمى لى بثلاثة أكياس فتبسمت ، فقال لم تبسمت ، فأخبرته خبر الجارية ، فعجب من إصابتها .

الرشيد وابن الأحنف

قال هارون الرشيد فى الليل بيتا من الشعر وأراد أن يشفعه بآخر فامتنع القول عليه ، فقال على بالعباس بن الأحنف ، فلما طرق ذعر وخاف أهله ، فلما وقف بين يدى الرشيد . قال وجهت إليك

لبيت قلته ورمت أن أشفعه ، فامتنع القول علىّ ، فقال يا أمير المؤمنين دعنى حتى ترجع نفسى إلىّ فانى قد تركت عيالى على حال من القلق عظيم ، ونالنى من الخوف مايتجاوز الحدّ والوصف فانتظر هنيهة ، ثم أنشد الرشيد :

جنان قد رأيناها ٭ فلم نر مثلها بشرا
يزيدك وجهها حسنا ٭ إذا ما زدتها نظرا

فقال الرشيد زدنى ، فقال :

إذا ما الليـل مال عليـــك بالاظلام واعتكرا
ودجّ فـلم ترقـرا ٭ فأبرها ترى قـمرا

فقال الرشـيد قد أزعجناك وأفزعناك ، وأقلّ الواجب أن نعطيك عشرة آلاف درهم ، فأمر له بها وانصرف .

الرشيد وهيلانة وابن الأَحنف

كان الرشيد شديد الحبّ لهيلانة ، وكانت ليحيى بن خالد ، فاستوهبها منه حتى غلبت على قلبه فأقامت عنده ثلاث سنين ، ثم ماتت فوجد عليها وجدا شـديدا ، وأمر العباس بن الأحنف أن يرثيها ، فقال فيها :

يا من تباشرت القلوب بموتها ٭ قصد الزمان مضرّتى فرماك
أبغى الأنيس فلا أرى لى مؤنسا ٭ إلا التردد حيث كنت أراك
ملك بكاك وطال بعدك حزنه ٭ لو يستطيع بملكه لفـداك
يحمى الفؤاد عن النساء حفيظة ٭ كى لا يحلّ حمى الفؤاد سواك

فأمر له بأربعين ألف درهم لكل بيت عشرة آلاف درهم ، وقال لو زدت لزدناك .

الرشيد وأَبو يوسف

وفى تاريخ بغداد عن أبى يوسف صاحب أبى حنيفة واسمه يعقوب أنه قال : أويت ذات ليلة إلى فراشى وإذا بالباب يدقّ دقا عنيفا فخرجت ، فاذا هرثمة بن أعين ، فقال أجب أمير المؤمنين ، فركبت بغلتى ومضيت خائفا إلى أن وصلت دار أمير المؤمنين ، فاذا أنا بمسرور فسألته من عنـد أمير المؤمنين ؟ فقال عيسى بن جعفر ، فدخلت فاذا هو جالس وعن يمينـه عيسى بن جعفر ، فسلمت عليه وجلست ، فقال الرشـيد أظنّ أننا روعناك ، فقلت أى والله ومن خلفى كذلك ، فسكت ساعة ، ثم قال : أتدرى يا يعقوب لم دعوتك؟ قلت لا. قال دعوتك لأشهدك على هذا أن عنده جارية وقد سألته أن يهبها لى فأبى ، ووالله لئن لم يفعل لأقتلنه . قال فالتفت إلى عيسى وقلت له مابلغ من قدر الجارية حتى أنك تمنعها من أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة من أجلها ثم هى ذاهبة من يدك على كل حال ، فقال : عجلت علىّ بالتوبيخ من قبل أن تعرف ما عندى . قلت وما هو ؟ قال إن علىّ يمينا بالطلاق والعتاق وصـدقة ما أملكه لا أبيع هـذه الجارية ولا أهبها ،

فالتفت

فالتفت إلىّ وقال هل لك فى هذه من مخرج ؟ قلت نعم . قال وماهو ؟ قلت يهب لك نصفها و يبيعك نصفها ، فيكون لم يهبها ولم يبعها . قال عيسى أو يجوز ذلك ؟ قلت نعم . قال فأشهد أنى وهبته له نصفها و بعته نصفها الباقى بمائة ألف دينار ، فقال الرشيد قد قبلت الهبة واشتريت النصف الثانى بمائة ألف دينار ، ثم قال علىّ بالجارية والمال ، فأتى بالجارية والمال ، فقال خذها ياأمير المؤمنين بارك الله لك فيها، فقال الرشيد :يايعقوب بقيت واحدة ، فقلت وماهى ؟ قال إنها مملوكة ولا بد أن تستبرأ أو والله لئن لم أبت معها ليلتى هذه أن نفسى تخرج ، فقلت ياأمير المؤمنين تعتقها وتتزوّجها فان الحرة لاتستبرأ . قال فانى قد أعتقتها فمن يزوّجنيها ؟ قلت له أنا ، فدعا بمسرور وحسين فخطبت وحمدت الله تعالى وزوّجته بها على عشرين ألف دينار ، ثم قال علىّ بالمال فجىء به فدفعه إليها ، ثم قال لى يا يعقوب انصرف ، وقال لمنصور احمل إلى يعقوب مائتى ألف درهم ، وعشرين تختا من الثياب فحمل ذلك إلىّ ، ونقل هذه الحكاية أيضا الحافظ الدميرى فى كتابه حياة الحيوان ، وحكم كون الحرة لاتستبرأ لعله فى المذهب الحنفى والله أعلم .

الرشيد والكسائى واليزيدى

ذكر أبو جعفر البلخى أن الرشيد جمع بين أبى الحسن الكسائى وأبى محمد اليزيدى ليتناظرا بين يديه ، فسأل اليزيدى الكسائى عن أعراب قول الشاعر :

ما رأينا قط خربا ✲ نقرعنه البيض صقر
لا يكون العير مهرا ✲ لا يكون المهر مهر

فقال الكسائى يجب أن يكون المهر منصوبا على أنه خبر كان ففى البيت على هذا أقواء ، فقال اليزيدى الشعر صواب لأن الكلام قد تم عند قوله لايكون ثم استأنف ، فقال المهر مهر ، ثم ضرب الأرض بقلنسوته ، وقال أنا أبو محمد ، فقال له يحيى بن خالد أتكتنى بحضرة أمير المؤمنين وتسفه على الشيخ ، فقال له الرشيد والله إن خطأ الكسائى مع حسن أدبه أحب إلىّ من صوابك مع قلة أدبك ، فقال ياأمير المؤمنين إن حلاوة الظفر أذهبت عنى التحفظ ، فأمر باخراجه .

واجتمع الكسائى ومحمد بن الحسن الحنفى يوما فى مجلس الرشيد ، فقال الكسائى من تبحر فى علم اهتدى لجميع العلوم ، فقال له محمد ما تقول فيمن سها فى سجود السهو هل يسجد مرة أخرى ؟ قال لا . قال لماذا ؟ قال لأن النحاة تقول المصغر لايصغر . قال فما تقول فى تعليق العتق بالملك ؟ قال لايصحّ . قال لم ؟ قال لأن السيل لايسبق المطر ، وكان الكسائى إمام وقته بعلم النحو وكان مؤدّب الأمين والمأمون ، وكانت له اليد العظمى والوجاهة التامة عند الرشيد وولديه .

توفى الكسائى ومحمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة فى يوم واحد سنة تسع وثمانين ومائة ، ودفنا فى مكان واحد ، فقال الرشيد دفن هنا العلم والأدب .

مقتل البرامكة

قال اسماعيل بن يحيى الهاشمى كنت مع الرشيد يوما من الأيام راكبا إلى الصيد ، فبينمانحن

نسير إذ نظرنا إلى موكب بالبعد اعترضنا ، فقال لى يا اسماعيل لمن هـذا ؟ فقلت لأخيك جعفر بن يحيي ، فالتفت يمينا وشمالا إلى من معه فى موكبه ، فاذا هى شرذمة يسـيرة ، ثم نظر إلى الموكب الذى فيه جعفر فلم يره ، فقال يا اسماعيل مافعل جعفر وموكبه، فقلت يا سيدى قدمضى فى طريقه ولم يعلم بموضعك ، فقال ماراًنا أهلا أن يزيننا بموكبه ويجملنا بجيشه ، قلت العفو يا أمير المؤمنين لو علم بمكانك ما تعداك وما سار إلا بين يديك واعتذرت بما حضر لى من الكلام ، ثم سرنا حتى انتهينا إلى ضيعة عامرة ومواش كثيرة ، وكان الطريق يدور عليها ، فدرنا حتى رأينا باب القرية ، فنظر الرشيد إلى البيدر وإلى كثرة الغلال والمواشي ويسار أهلها فالتفت إلىّ ، وقال : يا اسماعيل لمن هذه الضيعة ؟ قلت لأخيك جعفر بن يحيي ، فسكت ثم تنفس الصعداء ، ثم سرنا ولم يزل يمرّ بكل ضيعة أعمر من الأخرى ، وكلما مرّ وسألنى عن ضيعة قلت لجعفر بن يحيي حتى سرنا ووصلنا إلى المدينة ، فلما أردت وداعه والانصراف إلى منزلى نظر إلى من كان حواليه نظرة ، فعلموا ماأراد فتفرّقوا وبقيت أنا وهو ، فقال يااسماعيل . قلت لبيك يا أمير المؤمنين ، فقال انظر إلى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم ، فقلت فى نفسى بلية والله ، ثم قلت لماذا يا أمير المؤمنين؟ قال نظرت لهؤلاء وأغفلت هؤلاء لأنى لا أعرف لولد من أولادى ضيعة من مثل ضياعهم فانك ترى ضياع البرامكة على طريق واحد قرب هذه المدينة ، فكيف بما هو لهم غير ذلك على غير هذا الطريق فى سائر البلدان ، فقلت يا أمير المؤمنين إنما البرامكة عبيـدك وخدمك والضياع وأموالهم وكل مايملكونه لك ، فنظر إلىّ نظرة جبار عنيد ، ثم قال ماعدّ البرامكة بنى هاشم إلا عبيدهم وإنهم هم الدولة ، وأن لا نعمة لبنى العباس إلا وهم أنعموا عليهم بها ، فقلت أمير المؤمنين أبصر من غيره بخدمه ومواليه ، فقال والله يا اسماعيل إنك لتعلم أنى قلت هذا وكأنى أراك أن تعلمهم بكلامى فتتخذ لك عندهم يدا ، وإنى أودّ أن تكتم هـذا الأمر فانه ماعلم به أحد غيرك ومتى بلغهم شيء لما جرى علمت أنه ماأفشاه إلا أنت ، فقلت ياأمير المؤمنين أعوذ بالله إن يك مثلى يفشى سرّك . قال وكان هذا القول أول ماظهر من أمر البرامكة ، ثم ودعته وانصرفت متفكرا فى إيقاع الحيلة منهم ، فلما كان من الغد بكرت إليه وجلست بين يديه ، وكان فى محل يشرف على دجلة من شرق مدينـة باب السلام وبازائه ، فنزل جعفر من الجانب الغربى ، وكانت المواكب من جميع الأصناف من قائد وأمير وعامل يردون فى كل يوم إلى قصر جعفر ، فالتفت إلىّ وقال : يا اسماعيل هـذا ما كنا فيه بالأمس أنظركم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والمواكب وأنا ماعلى باب دارى أحد ، فقلت ياأمير المؤمنين ناشـدتك الله تعالى أن لاتعلق نفسك بفكرك هـذا ، وإن جعفرا إنما هو عبدك وخادمك ووزيرك وصاحب جيوشك إذا لم يكن الجيش على بابه فعلى باب من يكون ، وإنما بابه باب من أبوابك ، فقال يااسماعيل انظر إلى دوابهم ألست ترى أعجازهم إلى قصرى وتروث بازائنا ونحن ننظر إليها ، والله هـذا هو الاستخفاف بعينه والله لا أصبرنّ على ذلك ، ثم غضب غضبا شـديدا وامتلأ غيظا ، فأمسكت عن الكلام ، وقلت هـذا قضاء من الله سابق ، وحكم لامحالة واقع ، ثم استأذنته فى الانصراف وعـدت إلى منزلى ، فلقينى جعفر فى الطريق يريد الرشـيد ، فتواريت عنه حتى مضى فدخل إليه وسلم عليه فأجلسه عن يمينه وأكرمه غاية الاكرام ، وبشّ

فى وجهه ، وحادثه ساعة ، ووهب له خادما من خاصة خدمه وأنبلهم ، وأوضحهم وجها ، وأكملهم ظرفا كاتبا حاسبا لبيبا فسرّ جعفر سرورا كاملا ، ووقع فى قلبه أجل موقع ، وكان دسيسا عليه وبلية لديه يرفع أخباره إلى الرشيد ويحصى عليه أنفاسه ساعة بساعة ووقتا بوقت ، فخلا به جعفر يومه ذلك وليلته ، واحتجب من أجله عن الناس ، فلما كان بعد ثلاثة أيام سرت إلى جعفر ، فسلمت عليه ، فلما خلا مجلسه ولم يبق عنده غيرى وذلك الخادم واقف ، فعلمت أن الخادم يحصى علينا أخبارنا ، فقلت أيها الوزير نصيحة أفتأذن لى فى الكلام ؟ وكان الرشيد ولاه كورة خراسان كلها وما يضاف إليها وما ينسب لها قبل هذا الكلام بأيام وخلع عليه ، وعقد له لواء وعسكر بالنهروان ، وضرب الناس مضاربهم بها وهم متأهبون للسفر ، فقلت يا سيدى أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار عظيمة المملكة ، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده ، فلما قلت هذا نظر إلىّ مغضبا ، وقال والله يا اسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك إلا بفضلى ، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا ، أما كفى أنى تركته لايهتمّ بأمر شىء من نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت أمواله أموالا ، ولا زلت للأمور الجليلة أدبرها حتى يمدّ عينه إلى ماادّخرته وأخذته لولدى وعقبى من بعدى ، وداخله حسد بنى هاشم ، ودبّ فيه الطمع ، وقال والله لئن سألنى شيئا من ذلك ليكوننّ وبالا عليه سريعا ، فقلت والله ياسيدى ما كان مما ظننت شىء ولا تكلم أمير المؤمنين بحرف . قال فما هذا الفضول منك ؟ فجلست بعدها هنية ، ثم قمت إلى منزلى ولم أركب إليه ولا إلى الرشيد لأنى صرت بينهما فى حالة شبهة ، وقلت فى نفسى هذا الخليفة وهذا وزيره وأىّ شىء لى بالدخول بينهما ، وعلمت بعد ذلك أن الخادم الذى وهبه الرشيد لجعفر كتب إلى الرشيد بما كان بينى وبينه وما تكلم به من الكلام الغليظ ، فلما قرأ الكتاب وفهم الخبر احتجب ثلاثة أيام متفكرا فى إيقاع الحيلة على البرامكة فدخل فى اليوم الرابع على زبيدة ، فخلا بها وشكى لها مافى قلبه ، وأطلعها على الكتاب الذى رفعه إليه الخادم ، وكان بين جعفر وزبيدة شرّ وعداوة قديمة ، فلما تملكت الحجة عليه بالغت فى المكر بهم ، واجتهدت فى هلاكهم ، وكان الرشيد يتبرك بمشورتها ، فقال علىّ برأيك الموافق الرشيد ، فانى خائف أن يخرج الأمر من يدى أن تمكنوا من خراسان وتغلبوا عليها ، فقالت ياأمير المؤمنين مثلك مع البرامكة كمثل رجل سكران غريق فى بحر عميق ، فان كنت قد أفقت من سكرتك وتخلصت من غرقتك أخبرتك بما هو أصعب عليك وأعظم من هذا بكثير ، وإن كنت على الحالة الأولى تركتك ، فقال قد كان ما كان والآن أسمع منك ، فقالت إن هذا الأمر أخفاه عنك وزيرك وهو أصعب مما أنت فيه وأقبح وأشنع ، فقال لها ويحك ماهو ؟ فقالت أنا أجلّ من أخاطبك به ، ولكن تحضر أرجوان الخادم وتشدّد عليه وتوهنه ضربا فانه يعرفك الخبر ، وكان الرشيد قد أحلّ جعفرا محلا لم يحله أخوه ولا أبوه ، وفوّض له أن يرى كل جواريه سوى امرأته زبيدة ، فانه لم يكن يراها فلما فسد قلب الرشيد وعزم على هلاك البرامكة وجدت عليهم سبيلا ، ومالت على جعفر ، وكان جعفر يدخل إلى الحريم فى غياب الرشيد فلا يستترون منه ، وكان ذلك بأمر الرشيد ، وقيل كان للرشيد مجلس بالليل مع جعفر البرمكى ، فقال له يوما لايطيب لى ذلك إلا بمحضر أختى

العباسة ، ولكن لايجوز إلا أن نكتب لك عليها لاباحة النظر من غير أن تقربها ، فاتفقا على ذلك وعقد له عليها ، ثم أحضرها ، فكانت تحضر ذلك المجلس إلا أنه زاد غرامها وعشقها فيه ، وكان لجعفر البرمكي امرأة تزين له الجوارى كل ليلة ، فجاءتها العباسة ورشتها بالمال ، فزينتها له وأدخلتها عليه فظن أنها جارية ، فلما أصبحوا قالت له أنا العباسة ، وقد كنت أسألك أن تساعدنى على مودتك فتأبى ، فلما أيست منك احتلت عليك بما رأيت فى هذه الليلة وإن لم تواظب لأكونن سببا فى سلب نعمتك وهل أنت إلا زوجى ؟ فطار السكر من رأس جعفر ، وقال لها أهلكتنى وأهلكت نفسك فوالله لقد بعتنى رخيصا ، فلما بلغ الرشيد الخبر خرج واستدعى بارجوان الخادم وأحضر السيف والنطع ، وقال برئت من المنصور إن لم تصدقنى حديث جعفر لأقتلنك ، فقال الأمان يا أمير المؤمنين قال نعم لك الأمان . قال اعلم أن جعفر قد خانك فى أختك العباسة ، وقد دخل بها منذ سبع سنين ، وولدت منه ثلاث بنين . الأول له ست سنين ، والاثنان قد أنفذهما إلى مدينة الرسول ﷺ وهى حامل بالرابع ، وأنت أذنت له بالدخول على أهل بيتك وأمرتنى أن لا أمنعه فى أى وقت شاء ليلا ونهارا . قال أمرتك أن لاتحجبه فحين حدثت هذه الحادثة لم تخبرنى ، ثم أمر بضرب عنقه ، وقام من وقته ودخل على زبيدة ، وقال لها أرأيت ماعاملنى به جعفر وما ارتكب من هتك سترى ، ونكس رأسى ، وفضحنى بين العرب والعجم ، فقالت هذه شهوتك وإرادتك عمدت إلى شاب جميل الوجه حسن الثياب طيب الرائحة جابر فى نفسه أدخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله وهى أحسن منه وجها ، وأنظف منه ثوبا ، وأطيب منه رائحة ، لكنها لم تر رجلا قط غيره ، فهذا جزاء من جمع بين النار والحطب ، فخرج من عندها مكروبا ، فدعا بخادمه مسرور ، وكان قاسى القلب فظا غليظا قد نزع الله الرحمة من قلبه ، فقال يا مسرور إذا ادلهم الظلام فائتنى بعشرة من أقوياء الفعلة ومعهم خادمان . قال نعم ، فلما كان بعد العتمة جاء مسرور ومعه الفعلة والخادمان فقام الرشيد وهم بين يديه حتى أتى المقصورة التى فيها أخته ، فنظر إليها وهى حامل فلم يكلمها بشىء ولم يعاتبها على مافعلت ، وأمر الخادمين بادخالها فى صندوق كبير فى مقصورتها بعد قتلها ووضعها بحليها وثيابها كما هى وقفل عليها ، وقد علمت أنه بعد قتل أرجوان لاحقها به فلم علم أنه استوثق بها دعا الفعلة ومعهم المعاول والزنابيل ، فحفروا وسط كل تلك المقصورة حتى بلغوا الماء وهو قاعد على كرسى ، ثم قال حسبكم هاتوا الصندوق فدلوه إلى تلك الحفرة ، ثم قال : ردوا التراب عليه ففعلوا وسدوا الموضع كما كان ، ثم أخرجهم وأقفل الباب وأخذ المفتاح معه ، وجلس فى موضعه والفعلة والخادمان بين يديه ، ثم قال يامسرور خذ هؤلاء القوم وأعطهم أجرتهم ، فأخذهم مسرور وقطع رءوسهم ، وأثقلهم بالصخر والحصى ، ورماهم فى وسط دجلة ورجع من وقته ، فوقف بين يديه ، فقال يا مسرور فعلت ما أمرتك به ؟ قال نعم ، فدفع إليه مفتاح البيت ، وقال احفظه حتى أسألك عنه وامض الآن ووافنى قبل الصبح ، فلما جلس الرشيد فى مجلسه ، وكان عصر الخيس يوم موكب جعفر . قال يامسرور لا تتباعد عنى ودخل الناس فسلموا عليه ووقفوا على مراتبهم ، ودخل جعفر بن يحيى البرمكى ، فسلم عليه فرد عليه السلام أحسن رد ، ورحب به وضحك فى وجهه ، وجلس فى مرتبته ، وكانت مرتبته أقرب المراتب إلى أمير المؤمنين ، ثم حدثه ساعة وضاحكه ، فأخرج

جعفر

جعفر الكتب الواردة عليه من النواحى ، فقرأها عليه وأمر ونهى ومنع ، وأنفذ الأمور ، وقضى حوائج الناس ، ثم استأذن جعفر فى الخروج إلى خراسان فى يومه ذلك ، فدعا الرشيد بالمنجم وهو جالس بحضرته ، فقال الرشيد كم مضى من النهار ؟ قال ثلاث ساعات ونصف ، وحسب له الرشيد بنفسه ونظر فى نجمه ، فقال يا أخى هذا يوم نحوسك وهذه ساعة نحس ولا أرى إلا أنه يحدث فيها حادث ، ولكن تصلى الجمعة ، وترحل فى سعودك ، وتبيت فى النهروان ، وتبكر يوم السبت ، وتستقبل الطريق بالنهار فانه أصلح من اليوم ، فما رضى جعفر بما قاله الرشيد حتى أخذ الاضطراب من يد المنجم ، وقام وأخذ الطالع وحسبه لنفسه ، وقال والله صدقت يا أمير المؤمنين إن هذه الساعة ساعة نحس ، وما رأيت نجما أشد احتراما ، ولا أضيق مجرى من البروج فى مثل هذا اليوم ثم قام وانصرف إلى منزله والناس والقواد والخاص والعام من كل جانب يعظمونه و يبجلونه إلى أن وصل إلى قصره فى جيش عظيم وأمر ونهى ، وانصرف الناس فلم يستقر به المجلس حتى بعث إليه الرشيد مسرورا ، وقال امض إلى جعفر وائتنى به الساعة ، وقل له وردت كتب خراسان الساعة فاذا دخل الباب الأول أوقف الجند ، وإذا دخل الباب الثانى أوقف الغلمان ، وإذا دخل الباب الثالث فلا تدع أحدا يدخل معه من غلمانه بل يدخل وحده ، فاذا دخل فى صحن الدار فل به إلى القبة التركية واضرب عنقه فيها وائتنى برأسه ولا توقف أحدا من خلق الله على ما أمرتك به ولا تراجعنى فى أمره ، وإن لم تفعل ما ذكرت أمرت من يضرب عنقك ويأتينى برأسك ورأسه جملة وفى دون هذا كفاية وأنت أعلم ، وأسرع قبل أن يبلغه الخبر من غيرك ، فمضى مسرور واستأذن على جعفر ، فدخل وقد نزع ثيابه وطرح نفسه ليستريح ، فقال ياسيدى أجب أمير المؤمنين فانزعج وارتاع منه ، وقال ويلك يامسرور أنا فى هذه الساعة خرجت من عنده فما الخبر ؟ قال وردت كتب من خراسان الساعة وهو يحتاج أن تقرأها ، فطابت نفسه ودعا بثيابه فلبسها وتقلد سيفه وذهب معه ، فلما دخل من الباب الأول أوقف الجند ، وفى الثانى أوقف الغلمان ، فلما دخل من الباب الثالث التفت فلم ير أحدا من غلمانه ولا الخادم الفرد ، فندم على ركوبه تلك الساعة ، ولم يمكنه الرجوع ، فلما سار بازاء تلك القبة مال به إليها وأنزله عن دابته وأدخله القبة فلم ير فيها إلا سيفا ونطعا ، فاستحس بالبلاء ، وقال لمسرور يا أخى ما الخبر ؟ فقال له مسرور أنا الساعة أخوك وفى منزلك تقول لى ويلك أنت تدرى ما القضية وما كان الله ليهملك ولا لينفعك فقد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك إليه الساعة ، فبكى جعفر وجعل يقبل يدى مسرور ويقول يا أخى يامسرور قد علمت كرامتى لك دون جميع الغلمان والحاشية ، وإن حوائجك عندى مقضية فى سائر الأوقات ، وأنت تعرف موضعى ومحلى من أمير المؤمنين وما يوحيه إلى من الأسرار ، ولعل أن يكونوا بلغوه عنى باطلا ، وهذه مائة ألف دينار أحضرها لك الساعة قبل أن أقوم من موضعى هذا ودعنى أهيم على وجهى ، فقال لاسبيل إلى الحياة أبدا .

قال توقف عنى ساعة وارجع إليه وقل له قد فرغت مما أمرتنى به واسمع مايقول ، وعد فافعل ماتريد ، فان فعلت ذلك وحصلت لى السلامة ، فانى أشهد الله وملائكته انى أشاطرك نعمتى مما ملكته يدى وأجعلك أمير الجيش ، وأملكك أمر الدنيا ، ولم يزل به وهو يبكى حتى طمع فى الحياة

فقال له مسرور ربما يكون ذلك ، وحل منطقتـه وأخذها ، ووكل به أربعين غلاما من السودان يحفظونه ومضى مسرور ووقف بين يدى الرشـيد وهو جالس يقطر غضبا ، وفى يده قضيب الولع ينكث به فى الأرض ، فلما رآه قال له ثكلتك أمك مافعلت فى أمر جعفر ؟ فقال يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرك فيه ، فقال فأين رأسـه ؟ فقال فى القبة . قال فأتنى برأسه الساعة ، فرجع مسرور وجعفر يصلى وقد ركع ركعة فلم يمهله أن يصلى الثانيـة حتى سل سيفه الذى أخذه منـه وضرب عنقه وأخذ رأسـه بلحيته فطرحه بين يدى أمير المؤمنين وهو يشخب دما ، فنظر الرشـيد إلى الجلاد ، وقال ائتنى باثنين من الجنود فأتاه بهما ، فقال لهما اضربا عنق مسرور ، فانى لا أقدر أن أرى قاتل جعفر ، ثم تنفس الصعداء ، وبكى بكاء شديدا ، وجعل ينكث فى الأرض فى أثناء كل كلمة ويقرع أسنانه بالقضيب ويخاطبه ويقول ياجعفر ألم أحلك محل نفسى ياجعفر ما كافأتنى ولا عرفت حقى ولا تفكرت فى صروف الدهر ، ولا حسبت تقلب الأيام واختلاف أحوالها ، ياجعفر خنتنى فى أهلى وفضحتنى بين العرب والعجم ، ياجعفر أسأت إلىّ وإلى نفسك وما تفكرت فى عواقب أمرك ولم يزل على هذا الحال طورا ينكث الأرض ، وتارة يخاطب رأس جعفر إلى أن آن وقت صلاة الظهر ، فخرج إلى الجامع وصلى بالناس جماعة ، ثم التفت إلى قصور جعفر ودوره ، وأقبل على أبيه وأخيه وجمع أولاد البرامكة ومواليهم وغلمانهم ، واستباح مالهم وأمر بسلب جميع مالهم من المضارب والخيام والسلاح وغير ذلك ، فلما أصبح يوم السبت إذا هو قد قتل من البرامكة وحاشيتهم نحو ألف إنسان وترك من بقى منهم لايرجع إلى وطنه وشتت شملهم فى البلاد ، ولم يقدر أحد منهم على كسرة خبز .

ثم وجه إلى مدينة الرسول ﷺ فأتى بالصبيين ولدى جعفر من أخته العباسة فأدخلا عليه فى بيتـه ، فلما رآهما أعجب بهما ، وكانا فى نهاية من الحسن والجمال فاستنطقهما ، فوجد لغتهما مدنية ، وفصاحتهما هاشمية ، وفى ألفاظهما عذوبة وبلاغة ، فقال لكبيرهما ما اسمك ياقرة عينى قال الحسن ، وقال للصغير ما اسمك ياحبيبى ؟ قال الحسين ، فنظر إليهما ، وبكى بكاء شـديدا ، ثم قال يعز علىّ حسنكما وجمالكما لارحم الله من ظلمكما ، ولم يدر ماأراد بهما ، ثم أمر الجلاد بقتلهما ودفنهما مع أمهما فى الحفرة وهو مع ذلك يبكى بكاء شديدا ، وأمر بعد ذلك أن لا تذكر البرامكة فى مجلس لأن ذلك كان مثيرا لأشجانه ، مجددا فى قلبه عوامل الأسى ، وكان قتل جعفر بن يحيى فى ليلة الجمعة أوّل ليلة من صفر سنة سبع وثمانين ومائة ، وهو ابن سبع وثلاثين سنة .

كرم يحيى بن خالد

من مكارمه أن الرشيد لما نكب البرامكة واستأصل شأفتهم حرّم على الشعراء أن يرثوهم ، وأمر بالمؤاخذة على ذلك ، فاجتاز بعض الحرس ببعض الخربات ، فرأى إنسانا واقفا ، وفى يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة وهو ينشده ويبكى ، فأخذه الحرسى وأتى به إلى الرشيد وقص عليه الصورة فاستحضره الرشيد وسأله عن ذلك فاعترف به ، فقال له الرشيد أما سمعت تحريمى لرثائهم لأفعلنّ بك وأصنعنّ ، فقال ياأمير المؤمنين إذا أذنت لى فى حكاية حالى حكيتها ثم بعد ذلك

أنت ورأيك . قال قل . قال إنى كنت من أصغر كتاب يحيى بن خالد وأرقهم حالا ، فقال لى أريد أن تضيفنى فى دارك يوما ، فقلت يامولانا أنا دون ذلك ودارى لاتصلح لهذا . قال لابدّ من ذلك ؟ قلت فان كان لابدّ فأمهلنى مدّة حتى أصلح شأنى ومنزلى ، ثم بعد ذلك أنت ورأيك . قال كم أمهلك ؟ قلت سنة . قال كثير . قلت فشهورا ؟ قال نعم ، فمضيت وشرعت فى إصلاح المنزل وتهيئة أسباب الدعوة ، فلما تهيأت الأسباب أعلمت الوزير بذلك ، فقال نحن غدا عندك ، فمضيت وتهيأت فى الطعام والشراب وما يحتاج إليه ، فحضر الوزير فى غد ومعه ابناه جعفر والفضل وعدّة يسيرة من خواص أتباعه ، فنزل عن دابته ونزل ولداه جعفر والفضل ومن معه ، وقال يافلان أنا جائع فعجل لى بشىء ، فقال لى الفضل ابنه الوزير يحب الفراريج المشوية فعجل منها ماحضر ، فدخلت وأحضرت شيئا ، فأكل الوزير ، ثم قام يتمشى فى الدار ، وقال يا فلان فرّجنا فى دارك ، فقلت يامولانا هذه هى دارى ليس لى غيرها . قال بلى لك غيرها ؟ قلت والله لاأملك سواها ، فقال هاتوا بناء ، فلما حضر . قال له افتح فى هذا الحائط بابا فمضى ليفتح ، فقلت يا مولانا كيف يجوز أن يفتح باب إلى بيوت الجيران والله أوصى بحفظ الجار . قال لابأس فى ذلك ، ثم فتح الباب فقام الوزير وأبناؤه وأنا معهم ، فخرجوا منه إلى بستان حسن كثير الأشجار والماء يتدفق فيه وبه من المقاصير والمساكن مايروق كل ناظر ، وفيه من الآلات والفرش والخدم والجوارى كل جميل بديع ، فقال هذا المنزل وجميع مافيه لك ، فقبلت يده ودعوت له وتحققت القصة فاذا هو من يوم حادثنى فى أمر الدعوة قد أرسل واشترى الأملاك المجاورة لى وعمرها دارا حسنة ، ونقل إليها من كل شىء وأنا لاأعلم ، وكنت أرى العمارة وأحسبها لبعض الجيران ، فقال لابنه جعفر يا بنى هذا منزل وعيال فالمادّة من أين تكون له ؟ قال جعفر قد أعطيته الضيعة الفلانية بما فيها ، وسأكتب له بذلك كتابا ، فالتفت إلى ابنه الفضل وقال له يا بنى فمن الآن إلى أن يدخل دخل هذه الضيعة فما الذى ينفق ؟ قال الفضل علىّ عشرة آلاف دينار أحملها إليه ، فقال لهما عجلا له ماقلتما ، فكتب لى جعفر بالضيعة ، وحمل الفضل إلىّ المال فأثريت وارتفعت حالى وكسبت بعد ذلك معه مالا طائلا أنا أتقلب فيه إلى اليوم ، فوالله ياأمير المؤمنين ماأجد فرصة أتمكن فيها من الثناء عليهم والدعاء لهم إلا انتهزتها مكافأة لهم على ذلك فافعل مابدالك ، فرقّ الرشيد لذلك وأطلقه وأذن لجميع الناس فى رثائهم .

رثاء امرأة لجعفر

قال أبو زيد الرياحى : كنت جالسا عند خشبة جعفر بن يحيى البرمكى أفكر فى زوال ملكه وحاله التى صار إليها إذ أقبلت امرأة لها هيئة حسنة ، فوقفت على جعفر وبكت واحترقت وتكلمت فأبلغت وقالت : أما والله لئن أصبحت للناس آية ، لقد بلغت الغاية ، ولئن زال ملكك ، وخاب دهرك ، ولم يطل به عمرك ، فلقد كنت المغبوط الناعم بالا يحسن بك الملك ، فاستعظم الناس فقدك إذ لم يستخلفوا ملكا بعدك ، فنسأل الله الصبر على عظيم الفجيعة ، وجليل الرزية ، الذى لايستعاض بغيرك ، والسلام عليك وداع غير قال ولا ناس لذكرك ، ثم أنشأت تقول :

العيش بعدك مر غير محبوب ✲ ومذ صلبت ومقنا كل مصلوب
أرجو لك الله ذا الاحسان ان له ✲ فضلا علينا وعفوا غير محصوب

ثم سكتت ساعة وتأملته ، ثم أنشأت تقول :

عليك من الأحبة كل يوم ✲ سلام الله ماذكر السلام
لئن أمسى صداك برأى عين ✲ على خشب حباك به الامام
فما ملك إلى ملك برغم ✲ من الأملاك آن لك الحمام

الفضل بن يحي والأعرابى

روى الأصمعى عن الفضل بن يحي . قال خرج يوما للصيد والقنص ، وبينما هو فى موكبه إذ رأى أعرابيا على ناقة قد أقبل من صدر البرية يركض فى سيره . قال هذا يقصدنى فلا يكلمه أحد غيرى ، فلما دنا الأعرابى ورأى المضارب تضرب ، والخيام تنصب ، والعسكر الكثير الجم الغفير ، وسمع الغوى والضجة ظن أنه أمير المؤمنين ، فنزل وعقل راحلته وتقدم إليه ، وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . قال اخفض عليك ماتقول ، فقال السلام عليك أيها الأمير . قال الآن قاربت اجلس فجلس الأعرابى ، فقال له الفضل من أين أقبلت يا أخا العرب ؟ قال من قضاعة . قال من أدناها أو من أقصاها ؟ قال من أقصاها ، فقال يا أخا العرب مثلك من يقصد من ثلثمائة فرسخ إلى العراق لأى شىء ؟ قال قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قداشتهر معروفهم فى البلاد . قال من هم ؟ قال البرامكة . قال الفضل يا أخا العرب إن البرامكة خلق كثير وفيهم جليل وخطير ، ولكل منهم خاصة وعامة ، فهل أفرزت منهم لنفسك من اخترته لنفسك وأتيته لحاجتك ؟ قال أجل أطولهم باعا وأسمحهم كفا . قال من هو ؟ قال الفضل بن يحي بن خالد ، فقال له الفضل يا أخا العرب إن الفضل جليل القدر ، عظيم الخطر ، إذا جلس الناس مجلسا عاما لم يحضر مجلسه إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب والمناظرون للعلم أعالم أنت ؟ قال لا ؟ قال أوردت على الفضل بكتاب وسيلة ؟ قال لا ، فقال يا أخا العرب غرتك نفسك مثلك يقصد الفضل بن يحي وهو ما عرفتك عنه من الجلالة بأى ذريعة أو وسيلة تقدم عليه ؟ قال والله يا أمير ماقصدته إلا لاحسانه المعروف ، وكرمه الموصوف ، وبيتين من الشعر قلتهما فيه ، فقال الفضل يا أخا العرب أنشدنى البيتين ، فان كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرت عليك بلقائه ، وإن كانا لايصلحان أن تلقاه بهما بررتك بشىء من مالى ورجعت إلى باديتك ، وإن كنت لاتستحق بشعرك شيئا . قال أفتفعل أيها الأمير ؟ قال نعم . قال فانى أقول :

ألم تر أن الجود من عهد آدم ✲ تحدر حتى صار يمتصه الفضل
ولو أن أما مسها جوع طفلها ✲ غذته باسم الفضل لاغتذا الطفل

قال أحسنت ياأخا العرب ، فان قال لك هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر ، وأخذ الجائزة عليهما ، فأنشدنى غيرهما فما تقول ؟ قال أقول :

قد كان آدم حين حان وفاته ✲ أوصاك وهو يجود بالحوباء

بنيه أن ترعاهم فرعيتهم ☆ وكفيت آدم عيلة الابناء

قال أحسنت يا أخا العرب ، فان قال لك ممتحنا هذان البيتان أخذتهما من أفواه الناس فأنشدنى غيرهما فما تقول وقد رمقتك الأدباء بالأبصار وامتدت الأعناق إليك وتحتاج أن تناضل عن نفسك ؟ قال إذن أقول :

ملت جهابذ فضل وزن نائله ☆ ومل كاتبه إحصاء ما يهب

والله لولاك لم يمدح بمكرمة ☆ خلق ولم يرتفع مجد ولا حسب

قال أحسنت يا أخا العرب ، فان قال لك الفضل هذان البيتان مسروقان أنشدنى غيرهما فما تقول ؟ قال إذن أقول :

ولو قيل للمعروف ناد أخا العلا ☆ لنادى بأعلى الصوت يا فضل يا فضل

ولو أنفقت جدواك من رمل عالج ☆ لأصبح من جدواك قد نفد الرمل

قال أحسنت يا أخا العرب فان قال لك الفضل هذان البيتان مسروقان أيضا أنشدنى غيرهما ، فما تقول ؟ قال أقول :

وما الناس إلا اثنان صب وباذل ☆ وإنى لذاك الصب والباذل الفضل

على أن لى مثلا كما ذكر الورى ☆ وليس لفضل فى سماحته مثل

قال أحسنت يا أخا العرب، فان قال لك الفضل أنشدنى غيرهما فما تقول ؟ قال أقول أيها الأمير :

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد ☆ فقامت به التقوى وقام به العدل

وقام به المعروف شرقا ومغربا ☆ ولم يك للمعروف بعد ولا قبل

قال أحسنت فان قال لك قد ضجرنا من الفاضل والمفضول أنشدنى بيتين على الكنية لا على الاسم فما تقول ؟ قال إذن أقول :

ألا يا أبا العباس يا واحد الورى ☆ ويا ملكا خد الملوك له نعل

إليك تسير الناس شرقا ومغربا ☆ فرادى وأزواجا كأنهم نحل

قال أحسنت يا أخا العرب،فان قال لك الفضل أنشدنا غير الاسم والكنية والقافية ؟ قال والله لئن زادنى الفضل وامتحننى بعد هذا لأقولن أربعة أبيات ماسبقنى إليهن عربى ولا أعجمى ، ولئن زادنى بعدها لأجعن قوائم ناقتى هذه واجعلها فى فم الفضل ، ولأرجعن إلى قضاعة خاسرا ولا أبالى ، فنكس الفضل رأسه ، وقال للأعرابى يا أخا العرب أسمعنى الأبيات الأربعة قال أقول :

ولائمة لامتك يا فضل فى الندى ☆ فقلت لها هل يقدح اللوم فى البحر

أتنهين فضلا عن عطاياه للغنى ☆ فمن ذا الذى ينهى السحاب عن القطر

كأن نوال الفضل فى كل بلدة ☆ تحدر هذا المزن فى مهمه قفر

كأن وفود الناس فى كل وجهة ☆ إلى الفضل لاقواعنده ليلة القدر

قال فأمسك الفضل عن فيه وسقط على وجهه ضاحكا ، ثم رفع رأسه وقال يا أخا العرب أنا والله الفضل بن يحيى سل ما شئت ، فقال سألتك بالله أيها الأمير إنك لهو ؟ قال نعم . قال له فأعطنى الأمان ؟ قال عليك الأمان اذكر حاجتك. قال عشرة آلاف درهم. قال الفضل ازدريت بنا و بنفسك

يا أخا العرب تعطى عشرة آلاف درهم فى عشرة آلاف ، وأمر بدفع المال ، فلما صار المال إليه حسده وزير الفضل ، وقال يا مولاى هذا إسراف يأتيك جلف من أجلاف العرب بأبيات استسرقها من أشعار العرب فتجيزه بهذا المال ، فقال استحقه بحضوره إلينا من أرض قضاعة . قال الوزير أقسمت عليك إلا أخذت سهما من كنانتك وركبته فى كبد قوسك وأومأت به إلى الأعرابى فان ردّ عن نفسه ببيت من الشعر وإلا فاستعطف مالك ويكون له فى بعضه كفاية ، فأخذ الفضل سهما وركبه فى كبد قوسه وأومأ به إلى الأعرابى ، وقال له ردّ سهمى ببيت من الشعر ، فأنشأ يقول :

لقوسك قوس الجود والوتر الندى ☆ وسهمك سهم العزّ فارم به فقرى

فضحك الفضل وأنشأ يقول :

إذا ملكت كفى منالا ولم أنل ☆ فلا انبسطت كفى ولا نهضت رجلى
على الله اخلاف الذى قد بذلته ☆ فلا مخلفى بخـلى ولا متلفى بذلى
أرونى بخيـلا نال مجدا ببخله ☆ وهاتوا كريما مات من كثرة البذل

ثم قال الفضل لوزيره أعط الأعرابى مائة ألف درهم لقصده وشعره ومائة ألف درهم ليكفينا شرّ قوائم ناقته ، فأخذ الأعرابى المال وانصرف وهو يبكى ، فقال له الفضل ممّ بكاؤك يا أعرابى أإستقلالا للمال الذى أعطيناك ؟ قال لا ، ولكنى أبكى على مثلك يأكله التراب وتواريه الأرض ، وتذكرت قول الشاعر :

لعمرك ما الرزية فقد مال ☆ ولا فرس تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقـد حر ☆ يموت لموته خلق كثير

ثم انصرف الأعرابى مسرورا .

ولما دخل هارون الرشيد بلدة طوس اشتدّت علته وطبيبه بختيشوع يغدو ويروح عليه ويعطيه الأباطيل ويمنيه الأمانى ، ويقول إن علتك من حدة السفر ، فدعا الفضل يوما ، وقال أبغى رجلا عاقلا من التجّار أشاوره فى أمرى ، وأفضى إليه بسرى ، فجاءه برجل من أهل طوس فاستنطقه فرآه عاقلا ، فقال أتحفظ السرّ ؟ قال نعم ، فخلا به وقال خذ هذه القارورة واذهب بها إلى جبريل بن بختيشوع وقل هذه قارورة أبى ، فتأمله فان كان له دواء فعرفنى ، وإن لم يكن له دواء فعرفنى ليتجهز ويصلح أمره ، فذهب إليه بالقارورة ، فلما نظر إليها جبريل أقبل على أبيه ، وقال ماأشبه ماءه بماء ذلك الرجل إن هذا ميت لامحالة ، فرجع الرجل وأخبر هارون الرشيد بما قاله ، فقال ويلى على ابن الزانية يا فضل اذهب فاضرب عنقه يعنى الطبيب ، فأخذه الفضل وحبسه ، فقال اتركنى محبوسا عندك ثلاثة أيام ، فان عاش فاقتلنى وإلا فلا تتقلد دمى ففعل فمات هارون الرشيد ليلة الثالث رحمه الله .

المأمون عبد الله بن هارون الرشيد

بويع له بالخلافة البيعة العامة سنة ثمان وتسعين ومائة باجماع من الأمة على ذلك ، وكان المأمون شهما بعيد الهمة أبىّ النفس ، وكان نجم بنى العباس فى العلم والحكمة ، جوادا بالمال

عظيم العفو ، عارفا بالنجوم معرفة خاصة ، وقد أخذ من العلوم بقسط وضرب فيها بسهم وهو الذى استخرج كتاب أقليدس ، وأمر بترجمته وتفصيله ، وعقد المجالس فى خلافته للمناظرة فى الأديان والمقالات .

وكان أبيض مليح الوجه مربوعا ، طويل اللحية ، دينا عارفا بالدهاء والسياسة ، وقد غزا الروم ، وفتح فتوحات كثيرة ، وأبلى بلاء حسنا ، وتوفى بنهر بردى لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنه ثمان عشرة ومائتين وهو ابن تسع وأربعين سنة ، وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر ، ودفن بطرسوس .

وكانت له جارية من أحسن الناس وأسبقهم إلى كل نادرة فحظيت عنده ، فحسدها الجوارى وقلن لاحسب لها ، فنقشت على خاتمها حسبى حسنى ، فازداد المأمون بها عجبا ، فسمتها الجوارى فماتت ، فجزع عليها المأمون جزعا شديدا وقال :

اختلست ريحانتى من يدى * أبكى عليها آخر الأبد
كانت هى الأنس إذا استوحشت * نفسى من الأقرب والأبعد
وروضة كان بها مرتعى * ومنهلا كان بها موردى
كانت يدى كان بها قوتى * فاختلس الدهر يدى من يدى

ويحكى عنه أنه لما بنى على بنت الحسن بن سهل فرش له حصير منسوج بالذهب ، ثم نثر على على قدميه لآلىء كثيرة مختلفة .

وحكى عن أبى عبد الله النميرى أنه قال كنت يوما مع المأمون ، وكان بالكوفة ، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر ، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة فأطلق عنان جواده ، وكان على سابق من الخيل ، فأشرف على نهر ماء الفرات ، فاذا هو بجارية عربية خماسية القد ، قاعدة النهد كأنها القمر ليلة تمامه وبيدها قربة قد ملأتها ماء وحملتها على كتفها ، وصعدت من حافة النهر ، فانحل وكاؤها ، فصاحت برفيع صوتها يا أبت أدرك فاها قد غلبنى فوها لاطاقة لى بفيها . قال فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها ، فقال لها المأمون يا جارية من أى العرب أنت ؟ قالت أنا من بنى كلاب . قال وما الذى حملك أن تكونى من الكلاب ؟ فقالت والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف ويضربون بالسيف ، ثم قالت يا فتى من أى الناس أنت ؟ فقال أو عندك علم بالانساب ؟ قالت نعم . قال لها أنا من مضر الحمراء . قالت من أى مضر ؟ قال من أكرمها نسبا ، وأعظمها حسبا ، وخيرها أمّا وأبا ممن تهابه مضر كلها . قالت أظنك من كنانة ؟ قال أنا من كنانة . قالت فمن أى كنانة ؟ قال من أكرمها مولدا ، وأشرفها محتدا ، وأطولها فى المكرمات يدا ممن تهابه كنانة وتخافه ، فقالت إذن أنت من قريش ؟ قال أنا من قريش . قالت من أى قريش ؟ قال من أجلها ذكرا ، وأعظمها فخرا ممن تهابه قريش كلها وتخشاه . قالت أنت والله من بنى هاشم ؟ قال أنا من بنى هاشم . قالت من أى هاشم ؟ قال من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة ممن تهابه هاشم وتخافه . قال فعند ذلك قبلت الأرض وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين . قال فعجب المأمون وطرب طربا عظيما ، وقال والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم ، ووقف حتى تلاحقته

العساكر ، فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه ، فزوجه بها وأخذها وعاد مسرورا ، وهى والدة ولده العباس .

قال عبد الله بن طاهر كنت عند المأمون يوما ، فنادى الخادم ياغلام فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانيا وصاح ياغلام ، فدخل غلام تركى وهو يقول ماينبغى للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح ياغلام ياغلام إلى كم ياغلام ، فنكس المأمون رأسه طويلا ، فما شككت أنه يأمرنى بضرب عنقه ، ثم نظر إلىّ وقال : يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه ، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه ، وإنا لانستطيع أن نسىء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا . وكان المأمون هذا من المشهود له بالاتفاق على علمه ، والمشهور فى الآفاق بعفوه وحلمه .

ومما يحكى عنه فى هذا الموضوع أنه قال يوما ليحيى بن أكثم سر بنا نتفرج فسارا ، فبينما هو فى الطريق إذا بمقصبة خرج منها رجل بقصة للمأمون يتظلم له ، فنفرت دابته ، فألقته على الأرض صريعا ، فأمر بضرب ذلك الرجل ، فقال يا أمير المؤمنين إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم به ، ويتجاوز حدّ الأدب وهو كاره لتجاوزه ، ولو أحسنت الأيام مطالبتى لأحسنت مطالبتك ولأنت على ردّ مالم تفعل أقدر منى على ردّ ماقد فعلت . قال فبكى المأمون وقال بالله أعد علىّ ماقلت فأعاده ، فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم ، وقال أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه والنبىّ ﷺ يقول « المرء بأصغريه قلبه ولسانه » والله لاوقفت لك إلا وأنا قائم على قدمى فوقف وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه ، فلما همّ المأمون بالانصراف . قال الرجل ياأمير المؤمنين بيتان قد حضرانى ، ثم أنشد يقول :

ما جاد بالوفر إلا وهو معتذر ✿ ولا عفا قط إلا وهو مقتدر
وكلما قصدوه زاد نائله ✿ كالنار يؤخذ منها وهى تستعر

ومما وضع فى بطون الدفاتر ، واستحسنته عيون البصائر ، ونقلته الأصاغر عن الأكابر ، وتداولته الألسنة من الأوائل والأواخر ، مارواه خادم أمير المؤمنين المأمون . قال طلبنى أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لى خذ معك فلانا وفلانا وسماهما ، واذهب مسرعا لما أقوله لك فانه قد بلغنى أن شيخا يحضر ليلا إلى دور البرامكة وينشد شعرا ، ويذكرهم ذكرا كثيرا ويندبهم ويبكى عليهم ، ثم ينصرف فامض الآن أنت وعلى ودينار حتى تروا هذه الخرابات ، فاستتروا خلف بعض الجدران ، فاذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب ، وأنشد شيئا فائتونى به . قال فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات ، وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسىّ حديد ، وإذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل ، فجلس على الكرسىّ ، وجعل يبكى وينتحب ويقول :

ولما رأيت السيف جندل جعفرا ✿ ونادى مناد للخليفة فى يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفى ✿ عليهم وقلت الآن لاتنفع الدنيا

مع أبيات أطالها وردّدها ، فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له أجب أمير المؤمنين ، ففزع فزعا شديدا وقال دعونى حتى أوصى وصية فانى لاأوقن بعدها بحياة ، ثم تقدم إلى بعض الدكاكين فاستفتح

واخذ

وأخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه ، ثم سرنا به ، فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين زجره ، وقال له من أنت وبماذا استوجبت البرامكة منك ماتفعله فى خرائب دورهم وما تقوله فيها ؟ قال الخادم ونحن وقوف نسمع ، فقال يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندى أيادى خطيرة أفتأذن لى أن أحدثك حديثى معهم ؟ قال قل . قال يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال ، فلما ركبنى الدين واحتجت إلى بيع مسقط رأسى ورءوس أهلى أشاروا علىّ بالخروج إلى البرامكة ، فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبيا وصبية ، وليس معنا مايباع ولا مايوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد ، فدعوت بثويبات لى كنت قد أعددتها لأستمنح بها الناس ، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لاشىء عندهم ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة ، فاذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زىّ وزينة ، وعلى الباب خادمان ، فطمعت فى القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل منى لأنها لم تكن صناعتى ، وإذا بخادم قد أقبل ، فدعا القوم فقاموا وأنا معهم ، فدخلوا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم وإذا بيحيى جالس على دكة له فى وسط بستان فسلمنا وهو يعدّنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده ، وإذا غلام أمرد قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون فى وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل خادم مجمرة من ذهب فى كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر السلطانى ، فوضعوه بين يدى الغلام ، وجلس الغلام إلى جنب يحيى ، ثم قال يحيى للقاضى تكلم وزوّج بنتى عائشة من ابن عمى هذا ، فخطب القاضى وزوّجه ، وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا بالنثار ببنادق المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ، ونظرت فاذا نحن فى المكان مابين يحيى والمشائخ وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلا ، فخرج إلينا مائة واثنا عشر خادما مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار ، فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية ، فرأيت القاضى والمشائخ يصبون الدنانير فى أكمامهم ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدى بين يدى يحيى لا أجسر على أخذ الصينية ، فغمزنى الخادم فجسرت وأخذتها ، وجعلت الذهب فى كمى ، وأخذت الصينية فى يدى وقمت وجعلت ألتفت إلى ورائى مخافة أن أمنع من الذهاب بها ، فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ويحيى يلحظنى إذ قال للخادم ائتنى بذلك الرجل فرددت إليه ، فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان فى كمى ، ثم أمرنى بالجلوس فجلست ، فقال ممن الرجل ؟ فقصصت عليه قصتى ، فقال للخادم ائتنى بولدى موسى فأتى به ، فقال له يابنىّ هذا رجل غريب فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك ، فقبض موسى على يدى وأدخلنى إلى دار من دوره ، فأكرمنى غاية الاكرام ، وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذّ عيش وأتمّ سرور ، فلما أصبح دعا بأخيه العباس ، وقال إن الوزير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل ، وقد علمت اشتغالى فى دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وأكرمه ، ففعل ذلك وأكرمنى غاية الاكرام ، فلما كان من الغد تسلمنى أخوه أحمد ، ثم لم أزل فى أيدى القوم يتداولوننى عشرة أيام لا أعرف خبر عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء ، فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم

فقالوا لى قم فاخرج إلى عيالك بسلام ، فقلت واويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج إلى عيالى على هذه الحالة إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرفع الستر الأوّل ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم الرابع ، فلما رفع الخادم الستر الأخير . قال لى مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلىّ فانى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ، فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا ، واستقبلتنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج ، وحمل إلىّ ألف ألف درهم ، وعشرة آلاف دينار ، ومنشورين بضيعتين ، وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق ، وأقمت ياأمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لايعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعونى ، فلما جاءتهم البلية وأنزل بهم أمير المؤمنين هارون الرشيد ما أنزل أجحفنى عمرو بن مسعدة وألزمنى هاتين الضيعتين من الخراج مالايفى دخلهما بى ، فلما تحامل علىّ الدهر كنت فى أواخر الليل أقصد خرابات القوم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلىّ وأشكرهم على إحسانهم ، فقال المأمون علىّ بعمرو بن مسعدة ، فلما أتى به قال له ياعمرو أتعرف هذا الرجل ؟ قال نعم ياأمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة . قال كم ألزمته فى ضيعته ؟ قال كذا وكذا . قال ردّ له كل ما استأديته منه فى مدّته ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده . فعلا نحيب الرجل و بكاؤه ، فلما رأى المأمون كثرة بكائه . قال له ياهذا قد أحسنا إليك فلم تبك ؟ قال ياأمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة إذ لولم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين ، ففعل بى مافعل فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟ قال إبراهيم بن ميمون فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه ، وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة ، فعليهم فابك وإياهم فاشكر ، ولهم فاوف ، ولاحسانهم فاذكر .

وقال المأمون يوما للحسن بن سهل نظرت فى اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة . قال وما السبعة يا أمير المؤمنين ؟ قال خبز الحنطة ، ولحم الغنم ، والماء البارد ، والثوب الناعم ، والرائحة الطيبة ، والفراش الوطىء ، والنظر إلى الحسن من كل شىء . قال فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال ؟ قال صدقت وهى أولاهن .

ولما أراد المأمون أن يولى رجلا القضاء وصفله يحيى بن أكثم ، فاستحضره فرآه دميم الخلقة فاستحقره فعلم يحيى ذلك ، فقال يا أمير المؤمنين سلنى إن كان القصد علمى لاخلقى ، فسأله فأجابه ، فقلده القضاء .

وذكروا أنه لم يعلم أحد غلب على سلطانه فى زمانه إلا يحيى بن أكثم ، وأحمد بن أبى دواد المعتزلى ، وكان حنفيا ولم يكن على الامام أحمد رحمه الله تعالى فى محنته أشدّ منه ، وكانت كتب يحيى هذا فى الفقه أجل كتب فتركها الناس لطولها .

وكان ليحيى يوم فى الاسلام لم يكن لأحد مثله ، وهو أن المأمون كان فى طريق الشام ، فأمر فنودى بتحليل المتعة ، ولم يستطع أحد أن يحتج عليه فى تحريمها غير يحيى فقرر عنده تحريم المتعة ، فقال المأمون أستغفر الله تعالى نادوا بتحريم نكاح المتعة .

ويحكى أن المأمون أشرف يوما من قصره ، فرأى رجلا قائما وبيده فحمة وهو يكتب بها

على

على حائط قصره ، فقال المأمون لبعض خدمه اذهب إلى ذلك الرجل وانظر ما يكتب وائتنى به ، فبادر الخادم إلى الرجل مسرعا وقبض عليه وتأمل ما كتبه فاذا هو :

يا قصر جمع فيك الشؤم واللوم ✲ متى يعشش فى أركانك البوم
يوم يعشش فيك البوم من فرحى ✲ يكون أول من ينعيك مرغوم

ثم إن الخادم قال له أجب أمير المؤمنين ، فقال له الرجل سألتك بالله لاتذهب بى إليه ، فقال الخادم لابدّ من ذلك ثم ذهب به ، فلما مثل بين يدى المأمون أعلمه الخادم بما كتب ، فقال له المأمون ويلك ماحملك على هذا ؟ فقال ياأمير المؤمنين إنه لن يخفى عليك ماحواه قصرك هذا من خزائن الأموال والحلى والحلل والطعام والشراب والفراش والأوانى والأمتعة والجوارى والخدم وغير ذلك مما يقصر عنه وصفى ويعجز عنه فهمى ، وإنى ياأمير المؤمنين قد مررت الآن عليه وأنا فى غاية من الجوع والفاقة ، فوقفت متفكرا فى أمرى ، وقلت فى نفسى هذا القصر عامر عال وأنا جائع ولا فائدة لى فيه ، فلو كان خرابا ومررت به لم أعدم منه رخامة أو خشبة أو مسمارا أبيعه وأتقوت بثمنه أو ماعلم أمير المؤمنين ماقال الشاعر ؟ قال وما قال الشاعر ؟ قال :

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرئ ✲ نصيب ولاحظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض لها غير أنه ✲ يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

فقال المأمون أعطه ياغلام ألف دينار ، ثم قال له هى لك فى كل سنة ما دام قصرنا عامرا بأهله .

تظلم أهل الكوفة إلى المأمون فى وال كان عليهم ، فقال المأمون لا أعلم فى عمالى أعدل وأقوم منه ، فقام رجل وقال : إن كان عاملنا بهذا الوصف فحق أن تعدل بولايته فتجعل لكل بلد منه نصيبا لتسوّى بالعدل بينهم ، فاذا فعل أمير المؤمنين ذلك لايصيبنا منه أكثر من ثلاث سنين ، فضحك وعزله .

ويروى أن المأمون قال يوما لقارئ عنده اقرأ فقرأ ـ فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله ـ فأمر أن يجرّ برجله .

قلت ونظير هذا ماوقع للمنصور العباسى المتقدم الذكر وهو أنه دعا جماعة من القراء ، فقال لأحدهم اقرأ فقرأ ـ أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ـ فغضب .

وقال لآخر اقرأ ، فقرأ ـ كم تركوا من جنات وعيون ـ الآية ، فغضب وأخرجه .
ثم قال لآخر اقرأ، فقرأ ـ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ـ فأمر له بصلة .

﴿مستملحة﴾ قال المأمون ليحيى بن أكثم يعرّض به من الذى يقول :

قاض يرى الحدّ فى الزناء ولا ✲ يرى على من يلوط من باس

فقال ياأمير المؤمنين هو الماجى أحمد بن أبى نعيم الذى يقول :

أميرنا يرتشى وحاكمنا ✲ يلوط والرأس شر ماراس
لاأحسب الجور ينقضى وعلى الامة وال من آل عباس

فقال المأمون هذا ينبغى أن ينفى إلى السند .

ومن النوادر أنه اعترض رجل المأمون ، فقال أنا رجل من العرب ، فقال له ليس بعجيب ، فقال أريد الحج ، فقال الطريق أمامك ، قال ليس لى نفقة ، قال قد سقط عنك الفرض . قال قد جئتك مستجديا لا مستفتيا ، فضحك وبرّه بجائزة .

ومنها أن رجلا أتاه ، فقال له أنا أخوك أعطنى من بيت مال المسلمين ما يكفينى ، فقال له من أين أنت أخى ؟ فقال من قوله تعالى ـ إنما المؤمنون إخوة ـ فقال صدق الله العظيم وصدقت أعطوه درهما ، فقال ما هذا عطاء الملوك ، فقال له المأمون لو فرض أنى فرّقت بيت المال على إخوتك ربما يحصل لك أقلّ من ذلك ، فمضى الرجل ولم يظفر بشىء غير الدرهم .

يحكى أن رجلا تنبأ فى زمانه ، فقال أنا إبراهيم الخليل ، فأحضره وقال إن إبراهيم ألقى فى النار فصارت عليه بردا وسلاما فهلّ نلقيك فى النار لنعرف معجزتك ، فقال هات غير هذا ، قال ائتنى بمثل براهين موسى وعيسى عليهما السلام ، قال جئتنى بالطامة الكبرى ، قال مالك معجزة ؟ قال سألت جبريل وقلت إنك تريد أن توجهنى إلى قوم شياطين فأعطنى حجة وإلا لم أذهب فقال جبريل أخذت فى الشؤم الساعة اذهب أوّلا وانظر مايقولون ، فضحك المأمون وقال هذا هاجت به السوداء فخلوا عنه .

وتنبأ آخر فى زمانه فأحضروه فطلبه المأمون بمعجزة ، فقال أطرح لكم حصاة فى الماء فتذوب فقال رضينا فأخرج حصاة معه وطرحها فى الماء فذابت ، فقال المأمون هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا ودعها تذوب ، فقال لست أجلّ من فرعون ولا أنا أعظم حكمة من موسى ، ولم يقل فرعون لموسى لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندى تجعلها ثعبانا ، فضحك المأمون وأجازه .

وتنبأ رجل آخر فى أيامه وادّعى أيضا أنه إبراهيم الخليل ، فقال له المأمون إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين . قال وما براهينه ؟ قال أضرمت له نار وألقى فيها ، فصارت عليه بردا وسلاما ونحن نوقد لك نارا ونطرحك فيها ، فان كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك . قال أريد واحدة أخفّ من هذه ، قال فبراهين موسى ، قال وما براهينه ؟ قال ألقى عصاه فاذا هى حية تسعى وضرب بها البحر فانفلق ، وأدخل يده فى جيبه فأخرجها بيضاء . قال وهذه علىّ أصعب من الأولى . قال فبراهين عيسى . قال وما هى ؟ قال إحياء الموتى . قال مكانك قد وصلت ، أنا أضرب رقبة القاضى يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة ، فقال يحيى أنا أوّل من آمن بك وصدّق .

ويروى أن المأمون قال خمسة ملكوا الأقاليم برأيهم وشجاعتهم : الاسكندر نهض من الروم فملك الأقاليم السبعة ، وأزدشير ردّ ما انتشر من ملك إقليم بابل على حداثة سنه ، وبهرام نهض فى ثلثمائة فارس فقتل خاقان ، وأنوشروان أتى دار مملكة أبيه فملكها ، وأبو مسلم نهض لدعوتنا وهو ابن ثمانية عشرة سنة .

شاور المأمون يحيى بن أكثم ، فكان الرأى مخالفا لهوى المأمون ، فقال يحيى ما أحد بالغ فى نصيحة الملوك إلا استغشوه . قال ولم يا يحيى ؟ قال لصرفه لهم عما يحبون إلى ما لعلهم يكرهون فى

الوقت والهوى إله معبود .

والمأمون هذا هو الذى عرّب كتب اليونان ، وذلك أنه لما هادن بعض ملوك النصارى وهو صاحب جزيرة قبرص طلب منه خزانة كتب اليونان وكانت عندهم مجموعة فى بيت لا يظهر عليها أحد ، فجمع الملك خواصه من ذوى الرأى واستشارهم فى ذلك ، فكلهم أشاروا عليه بعدم تجهيزها إلا مطرانا واحدا فانه قال جهزها إليهم فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها ، فلما أخذها المأمون نقلها وعرّبها ، فزاد الشرّ شرّا ، والضرّ ضرّا ، وقويت بها حجج المعتزلة وغيرهم .

دخل إبراهيم بن المهدى على المأمون ، فقال إنك لعمّ الخليفة الأسود ، فقال إبراهيم نعم ، فتمثل المأمون ببيت نصيب فقال :

إن كنت عبدا فنفسى حرة كرما ✲ أو أسود اللون إنى أبيض الخلق

ثم قال ياعمّ أخرجنا الهزل إلى الجدّ ، فأنشد إبراهيم :

ليس يزرى السواد بالرجل الشهـم ولا بالفتى الأريب الأديب
إن يكن للسواد فيك نصيب ✲ فبياض الأخلاق منك نصيبى

روى أن رجلا استوقف المأمون ليسمع منه فلم يقف له ، فقال يا أمير المؤمنين إن الله استوقف سليمان بن داود عليهما السلام لنملة ليستمع منها وما أنا عند الله بأحقر من نملة وما أنت عند الله بأعظم من سليمان ، فقال له المأمون صدقت ووقف له وسمع له وقضى حاجته .

روى أن المأمون غضب على عبد الله بن طاهر وشاور أصحابه فى الايقاع به ، وكان قد حضر ذلك المجلس صديق له ، فكتب له كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ياموسى ، فلما فضه ووجد ذلك تعجب وبقى يطيل النظر إليه ولا يفهم معناه ، وكانت له جارية واقفة على رأسه ، فقالت له ياسيدى إنى أفهم معنى هذا ، فقال وما هو ؟ فقالت إنه أراد قوله تعالى ــ يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ــ وكان قد عزم على الحضور إلى المأمون فثنى العزم عن ذلك واعتذر للمأمون فى عدم الحضور ، فكان ذلك سبب سلامته .

قال المأمون لابن الأعرابى أخبرنى عن أحسن ماقيل فى الشراب ، فقال يا أمير المؤمنين قوله :

تريك القذى من دونها وهى دونه ✲ إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

قال أشعر منه أبو نواس الذى يقول :

فتمشت فى مفاصلهم ✲ كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت إذ مزجت ✲ مثل فعل الصبح فى الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها ✲ كاهتداء السفر بالعلم

فقلت فائدة يا أمير المؤمنين ، فقال أخبرنى عن قول هند بنت عتبة .

نحن بنات طارق ✲ نمشى على النمارق

فقال من طارق هذا ؟ فنظرت فى نسبها فلم أجده ، فقلت يا أمير المؤمنين لا أعرف طارقا فى نسبها

فقال إنما أرادت النجم فانتسبت إليه بحسنها ، من قوله تعالى ـ والسماء والطارق ـ فقلت فائدتان يا أمير المؤمنين ، فقال أنا لؤلؤ وابن لؤلؤة ، ثم رمى إلىّ بعنبرة كان يقلبها فى يده ، فبعتها بخمسة آلاف درهم .

المأمون ومحمد بن الجهم

قال محمد بن الجهم دعانى المأمون ، فقال أنشدنى بيت مدح نادرا ، فأنشدته :

يجود بالنفس إن ضنّ الجواد بها ☆ والجود بالنفس أقصى غاية الجود

فقال قد وليتك همدان ، فأنشدنى بيت هجاء نادرا ، فأنشدته :

قبحت مناظره فحين خبرته ☆ حسنت مناظره بقبح المخبر

قال قد وليتك الدينور ، فأنشدنى بيت مرثية نادرا ، فأنشدته :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوّه ☆ فطيب تراب القبر دلّ على القبر

قال قد وليتك نهاوند ، فأنشدنى بيت غزل نادرا ، فأنشدته :

حبّ مجدّ وحبيب يلعب ☆ والقلب ما بينهما معذب

تهنئة العباس للمأمون

ولما ولد جعفر بن المأمون هنؤوه بصنوف التهانى ، وكان فيمن دخل العباس بن الأحنف ، فمثل قائما بين يديه ، ثم أنشأ يقول :

مدّ الله لك الحياة مدّا ☆ حتى ترى ابنك هذا جدّا

ثم يفدّى مثلما تفدّى ☆ كأنه أنت إذا تبدّى

أشبه منك قامة وقدّا ☆ مؤزرا بمجده مردّى

فأمر له بعشرة آلاف درهم

حضر أحمد بن أبى خالد وزير المأمون يتتبع القصص فأخذ قصة ، فقرأ أحمد الثريدى وإنما هو البريدى ، فقال المأمون ياغلام أحضر لأبى العباس طعاما فانه جائع وعزم عليه ليأكل فأكل ، ثم عاد فمرّ بقصة فيها فلان الحمصى فقرأ الخبيصى ، فقال المأمون ياغلام أظنّ أن طعامه كان مبتورا عن الحلواء أحضر له خبيصا ، فأتى بجام فامتنع ، فقال عزمت عليك لتأكلنّ فأكل ثم لم يعثر بعد .

ونظر المأمون إلى بعض أولاده وفى يده كتاب ، فقال ما هذا ؟ قال بعض مايشحذ الفطنة ، ويؤنس الوحشة ، فقال الحمد لله الذى جعل فى أولادى من ينظر إليه بأدبه أكثر مما ينظر إليه بحسبه .

لما ولى المأمون يحيى بن أكثم قضاء البصرة وكان من أبناء نيف وعشرين سنة أراد بعض أهل البصرة أن يعيره بذلك ويضع منه بمحضر المأمون ، فقال كم سنّ القاضى ؟ فقال سنّ عتاب ابن أسيد حين ولاه رسول الله ﷺ مكة ، فجعل جوابه احتجاجا ، وقد أمّر رسول الله ﷺ

سعد بن أبى وقاص وسنه دون العشرين ، وولى الحجاج محمد بن أبى القاسم قتال الأكراد بفارس فأبادهم ثم ولاه السند والهند فأجد أثره، وسنه سبعة عشرة سنة ، فقال فيه الشاعر :

قاد الجيوش لسبع عشرة حجة * يا قرب ذلك سوددا من مولد

حكى أن سلمويه طبيب المأمون وكان قد أسنّ وذهب بصره كان دخل على المأمون يتكئ على صبيـة تقوده ، فلما قام المأمون قام ثم رجع سـلمويه إلى حضرته واتكأ على تلك الصبية فقال للمأمون هذه الصبية كانت بكرا وخرجت من عندى الساعة وعادت ثيبا فاستخبرها ، فقالت إن العباس ابن أمير المؤمنين دعانى إلى نفسه لما خرجت فافتضنى ، فقال له المأمون وكيف علمت ذلك ، فقال كنت أخذت مجستها فوجدتها قوية ، ثم جسستها فوجدت نقصانها فعلمت ذلك ، فتعجب المأمون من حذقه .

عشق المأمون جارية لبعض خواص مجلسه وكان يراسلها ببعض من أفشى اليه سرّه ،فقال يوما وقد بعث إليها :

ألا ليتنى كنت الرسول وكاننى * فـكان هوالمقصى وكنت أناالمدنى
بعثتك مشتاقا ففزت بنظرة * وأغفلتنى حتى أسأت بك الظنا
وأسرحت طرفا فى محاسن وجهها * ومتعت باستمتاع نغمتها الاذنا

رأى يحيى بن أكثم فى دار المأمون جماعةمن صباح الغلمان ،فقال لولا أنتم لـكنا مؤمنين ،فرفع ذلك إلى المأمون فعاتبه ، فقال إن درسى كان انتهى إلى هاهنا .

وقال عبادة عند المأمون ليحيى بن أكثم علمنى فرائض الصلب فانى أشتهيها ، فقال المأمون وتبسم ماتقول فى مسألته ، فقال قد أخطأ أما كان يجب أن يسأل عن هـذا فى الصبا أما سمع قول الشاعر :

فان من أدبتــه فى الصبا * كالعود يسقى الماء فى غرسه

إنما يعلم الحديث بشرط أن يكون وضيئا زكيا سهل الأخلاق ، فان كان له ابن بهذا الشرط علمناه فقال عبادة لو دخلت فى صناعتنا لم يقربك أحد ، فقال يحيى وأنا خارج منها وما بأحد علىّ قوّة .

غريبـــة

قال فى خريدة العجائب جبل نهاوند بقرب الرّىّ يناطح النجوم ارتفاعا ولا يفارق أعلاه الثلج لاليلا ولا نهارا ولا صيفا ولا شتاء ألبتة ولا يقدر أحد أن يعلوه . زعموا أن سليمان بن داود عليهما السلام حبس فيه صخرا المارد ، وزعموا أن افريدون الملك حبس فيه بيوراسف الذى يقال له الضحاك ، ومن صعد إلى هذا الجبل لايصل إليه إلا بمشقة شديدة ومخاطرة بالنفس . قال مسعود بن مهلهل صعدت إلى نصفه بمشقة شديدة وما أظنّ أحدا وصل إلى ماوصلت إليه ، فرأيت

هناك عين كبريت وحولها كبريت مستحجر إذا طلعت الشمس اشتعل نارا ، وسمعت من أهل تلك الناحية أن النمل إذا أكثرت من جمع الحبّ على هذا الجبل استشعر الناس بعده بجدب وقحط ، وأنه متى دامت عليهم الأمطار والانداء وتضرّروا بذلك صبوا لبن الماعز على النار فتنقطع الأمطار والانداء فى الحال والحين . قال وجرّبته مرارا فوجدته صحيحا كما قيل ، وأما دورة هذا الجبل فمتى انكشفت من الثلج وقعت فى تلك الأرض فتنة عظيمة على ممرّ الأيام لاتنخرم أبدا بل تكون الفتنة فى الجهة المنكشفة دون غيرها . قال محمد بن إبراهيم عرف والدى معدن الكبريت الأحمر فاتخذ مغارف طوالا من حديد فأدخلها فيه فذابت ، ولم يحصل على قصده وقال له أهل تلك الناحية هذا المكان لايدخل فيه حديد إلا ذاب فى وقته ، وذكروا أن رجلا جاءهم من خراسان ومعه مغارف طوال من حديد ، ولها سواعد قد طلاها بأدوية حكمية فأخرج بها من الكبريت الأحمر شيئا كثيرا لبعض ملوك خراسان ، وذكر محمد بن ابراهيم أن الأمير موسى ابن خضر كانَ واليا على الرّىّ إذ ورد عليه كتاب من المأمون بن الرشيد يأمره بالشخوص إلى هذا الجبل وتعرّف حال المحبوس به . قال فوافينا حضيض الجبل وأقمنا أياما لانرى الاهتداء لصعوده حتى أتانا شيخ مسنّ طاعن وهو ذو همة عالية فسألنا فعرفناه أمر الخليفة ، فقال أما هذا فلا سبيل إليه أصلا ، وإن أردتم صحة ذلك أريتكم عيانا ، فاستحسن الأمير موسى كلامه ، وقال هو القصد فعند ذلك صعد الشيخ بين أيدينا ونحن فى الأثر فأوقفنا على موضع فبالغنا فى حفره حتى انكشف لنا عن بيت منقور من الحجارة وفيه تمثال شخص على صورة عجيبة يضرب بمطرقة على أعلاه ساعة بعد ساعة من غير فتور ، فاستخبرنا الشيخ عن شأنه ، فقال هذا طلسم موضوع على بيوراسف الضحاك المحبوس هاهنا لئلا ينحلّ من وثاقه ، ثم أمرنا أن لانتعرّض للطلسم وأن نردّه إلى ما كان عليه ففعلنا ، ثم دعا بسلاسل وسلالم طوال ، فربط بعضها إلى بعض بالحبال وكلبها من أسافلها وأوساطها وأوثقها بالسلاسل ، فارتفعت مقدار مائة ذراع ، ونقب موضعا على رأس السلالم ، فظهر باب من حديد عليه مسامير كبار جدًا مذهبة الرءوس ، فوصلنا إلى عتبة ، فوجدنا على الأسكفة كتابة بالفارسية كأنما كتبت الآن بالذهب مدهونة بادهان التأييد تنطق الكتابة عن كلام معناه «إن على هذه القلة سبعة أبواب من حديد على كل مصراع منها أربعة أقفال من حديد وعلى العضادة مكتوب هذا سجن لهذا الحيوان المفسد وله أمد ينتهى إلى غاية فلايتعرّض أحد إلى هذه الأقفال بمكروه فانه متى فتح من أقفالها ولو قفلا واحدا هجم على هذه البلاد آفة لاتندفع أبدا» فقال الأمير موسى لاأتعرض لشىء حتى أستأذن أميرالمؤمنين فجاء الجواب بردّ البيت إلى ما كان ، وترك ذلك على حاله اهـ .

المأمون والأهرام

يحكى أن المأمون لما وصل مصر أمر بنقب أحد الهرمين ، فنقب بعد جهد شديد وغرامة نفقة عظيمة ، فوجد داخله مراقى ومهاوى يعسر سلوكها ، ووجد فى أعلاها بيت مكعب طول

كل ضلع من أضلاعه ثمانية أذرع ، وفى وسطه حوض فيه ذهب مضروب وزن كل دينار منه أوقية ، وكان ألف دينار ، فتعجب من جودة ذلك الذهب وحسن جرته ، فقال ارفعوا حساب ما أنفقتموه فى هذه الثلمة ، فوجدوه بقدر ذلك المال لايزيد ولا ينقص ، فعجب من معرفتهم بقدر ما ينفق عليه وتركهم ما يوازنه فى مكانه غاية العجب ، وكان هؤلاء القوم بمنزلة لا توازى ولا ندركها نحن ولا أمثالنا .

قال المسعودى طول كل واحد من الهرمين وعرضه أربعمائة ذراع ، وأساسهما نازل فى الأرض مثل طولهما فى العلو ، وفى كل هرم منهما سبعة بيوت على عدد الكواكب السبعة السيارة كل بيت منها باسم كوكب ورسمه ، وجعل فى جانب كل بيت منها صنم مجوف وإحدى يديه موضوعة على فه ، وفى جبهته كتابة كاهنية إذا قرئت فتح فاه وخرج منه مفتاح لذلك القفل إلى غير ذلك مما ذكره .

وروى فى أخبارها أن عليها مكتوبا : بنينا هذه الأهرام فى ستين سنة فليهدمهما من يريد ذلك فى ستمائة سنة ، فان الهدم أهون من البناء ، وكسوناهما حريرا فليلبسهما من يأتى بعدنا حصرا .

ويحكى أن جماعة فى أيام أحمد بن طولون دخلوا الهرم الكبير ، فوجدوا فى أحد بيوته جام زجاج غريب اللون والتكوين ، فحين خرجوا منه فقدوا واحدا منهم ، فدخلوا فى طلبه ، فخرج عليهم عريانا وهو يضحك ، وقال لاتتعبوا فى طلبى ورجع هاربا إلى داخل ، فعلموا أن الجن استهوته وشاع أمرهم فأحضروا عند أحمد بن طولون ، فحكوا له بالقصة فمنع الناس من الدخول فى الهرم وأخذ منهم ذلك الجام الزجاج ، فقال له إنسان عارف بأمور الأهرام وأحوالها هذا لابد فيه من سر فأخذه وملأه ماء ووزنه ، ثم صب ذلك الماء ووزنه ، فوجد زنته وهو ملآن كزنته وهو فارغ لايزيد ولا ينقص ، فتعجبوا من ذلك غاية العجب .

أبو العباس أحمد المستعين بالله

بويع له بالخلافة ليلة الاثنين لست خلون من شهر ربيع الآخر وعمره إذ ذاك ثمان وعشرون سنة ، وقتل صبرا فى أول شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وكانت خلافته سنتين وتسعة أشهر ، وعمره إحدى وثلاثون سنة ، وكان كثير الجماع مغرما بحب النساء .

قال أحمد بن حمدون النديم عملت أم المستعين بساطا على صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب ، وأعينها يواقيت وجواهر أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار ، وسألته أن يقف عليه وينظر إليه ، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته . قال أحمد بن حمدون فقال لى ولأترجة الهاشمى اذهبا فانظرا إليه ، وكان معنا الحاجب فمضينا ورأيناه ، فوالله مارأينا فى الدنيا شيئا أحسن منه ، ولا شيئا حسنا إلا وقد عمل فيه ، فمددت أنا يدى إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان ، فوضعته فى كمى ، ثم جئناه فوصفنا له حسن مارأيناه ، فقال أترجة ياأمير المؤمنين إنه قد سرق منه شيئا وغمزه على كمى ، فأريته الغزال ، فقال بحياتى عليكما ارجعا فخذا ما أحببتما فمضينا فلأنا

أكلمنا وأقيئنا وأقبلنا نمشى كالحبالى ، فلما رآنا ضحك ، فقال بقية الجلساء ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين ؟ فقال قوموا فخذوا ماشئتم ، ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك ، ونظر يزيد المهلبي سطلا من ذهب مملوءا مسكا ، فأخذه بيده وخرج ، فقال له المستعين إلى أين ؟ فقال إلى الحمام يا أمير المؤمنين فضحك من قوله وأمر الفراشين والخدم أن ينتهبوا الباقي فانتهبوه فوجهت اليه أمه تقول : سرّ الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرّقه فانى أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار ، فقال يحمل اليها مثل ذلك حتى تعيد مثله ففعلت ، ومضى حتى رآه ، وفعل به كفعله بالأول .

جعفر المقتدر بالله العباسى

بويع له بالخلافة سنة ثلاث وتسعين ومائتين ببغداد ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة وأربعين يوما ، ومن محاسنه أنه أبطل من ديوانه استخدام أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وأبطل تصرفاتهم فى الأموال ، وكان يفرّق فى يوم عرفة كل عام من الابل والبقر أربعين ألف رأس ، ومن الغنم خمسين ألفا ، وكان يصرف فى كل سنة فى طريق مكة ، ولأهل الحرمين الشريفين ثلثمائة ألف دينار وخمسة عشر ألفا ، وأنه ختن خمسة من أولاده ، فصرف فى ختانهم ستمائة ألف دينار ، وكان فى داره أحد عشر ألف غلام خصى غير الصقالبة والروم والسود ، وقدمت عليه رسل الروم فجعل مركبا لارهاب العدوّ ، وأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلاح ، وأقام بعدهم الخدم وهم ستمائة ألف خادم ، ثم الحجاب ، وهم سبعمائة حاجب ، وكانت الستور التى نصبت على الحيطان بدار الخلافة ثمانين ألف ستر من الديباج ، وكانت البسط الفاخرة التى فرشت اثنين وعشرين ألف بساط ، وكان من جملة ذلك مائة سبع فى سلاسل الذهب والفضة ، وهذا كله مع وهن الدولة العباسية وضعفها ، فكيف زينتها فى أيام قوتها ، فسبحان من لايزول ولا يزال ، ولا يفنى ملكه ، ولا يعتريه زوال ، توفى رحمه الله سنة ست عشرة وثلثمائة ، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وشهر ، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا .

وفيما ذكر كفاية فى تراجم هؤلاء الأمراء ، وان أردت أبسط من هذا بما لا مزيد عليه ، فعليك بكتابنا : ﴿ البحر الزاخر ﴾ فى ذكر ما لملوك الشرق والغرب ومعاصريهم ، من النوادر والمفاخر .

مشاهير ملوك الأدارسة

أوّلهم أبو العلاء مولانا إدريس الأكبر ابن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب رضى الله عن الجميع ، وكان السبب فى دخوله للمغرب هو أنه لما قتلت عشيرته وكثر البحث فى طلب الحسينيين من جميع الجهات فرّ بنفسه مستترا فى البلاد يريد المغرب ، فسار من مكة حتى وصل إلى مصر ، وصحبته مولاه راشد فدخلها ، ومنها إلى برقة ، ومنها إلى القيروان

ومنها

ومنها إلى المغرب الأقصى ، حتى استقرّ بمدينة وليلى قاعدة جبل زرهون ، وكانت مدينة متوسطة حصينة ، كثيرة المياه والغروس والزيتون ، وكان لها سور عظيم من بنيان الأوائل، وهى المعروفة اليوم بقصر فرعون ، فنزل بها على صاحبها ابن عبد الحميد الأوربى ، وبالغ فى إكرامه ، وكان دخوله لها ونزوله على صاحبها المذكور غرّة ربيع الأوّل سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف ، وأقام عنده بها ستة أشهر ، فلما دخل شهر رمضان من السنة المذكورة جمع ابن عبد الحميد عشيرته من أوربة ، وكانت يومئذ من أعظم قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأكثرها عددا ، وعرّفهم بنسب مولانا إدريس ، وقرابته من مولانا رسول الله ﷺ وقرّر لهم فضله ودينه وعلمه ، واجتماع خصال الخير فيه ، فبايعوه يوم الجمعة رابع رمضان سنة اثنتين وسبعين ومائة ، ثم بعد ذلك وفدت عليه قبائل زناتة ، وكافة البربر بالمغرب الأقصى ، فبايعوه أيضا ودخلوا فى طاعته ، فتمكن سلطانه ، وقويت شوكته ، ثم اتخذ رضى الله عنه جيشا كثيفا من وجوه زناتة وأوربة وصنهاجة وغيرهم وخرج غازيا بلاد تامسنا ، ثم زحف إلى بلاد تادلا ، ففتح معاقلها وحصونها ، وكان أكثر أهل هذه البلاد لا زالوا على دين اليهودية والنصرانية ، فأسلم جميعهم على يديه ، وقفل إلى مدينة وليلى مؤيدا منصورا ، فدخلها أواخر ذى الحجة سنة اثنتين وسبعين ومائة ، فأقام بها شهر محرم فاتح سنة ثلاث وسبعين ريثما استراح الناس ، ثم خرج برسم غزو من كان بقى من قبائل البربر بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية ، وكان قد بقى منهم بقية متحصنون فى المعاقل والجبال والحصون المنيعة ، فلم يزل يجاهدهم فى حصونهم ويستنزلهم من معاقلهم حتى دخلوا فى الاسلام طوعا وكرها ، ومن أبى الاسلام منهم أباده قتلا وسبيا ، وكانت البلاد التى غزاها فى هذه المرّة حصون مديونة وبهلولة وقلاع غياثة وبلاد فازز ، ثم عاد الى مدينة وليلى فدخلها فى نصف جمادى الثانية من السنة المذكورة ، وأقام بها بقية جمادى الثانية ونصف رجب التالى لها ريثما استراح جيشه ، ثم خرج منتصف رجب المذكور برسم غزو مدينة تلمسان ، ومن بها من قبائل مغراوة وبنى يفرن فانتهى اليها ونزل خارجها ، فخرج اليه صاحبها محمد المغراوى مستأمنا ومبايعا له فأمّنه مولانا إدريس وقبل بيعته ودخل مدينة تلمسان فأمّن أهلها ، ثم أمّن سائر زناتة ، وبنى مسجد تلمسان وأتقنه وأمر بعمل منبر نصبه فيه ، وذلك فى شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة .

ثم رجع لمدينة وليلى مؤيدا منصورا ، واتصل خبره بالأمير العباسى هارون الرشيد وأنه استقام له أمر المغرب وكثرت جنوده ، وقد فتح مدينة تلمسان ، وأنه عازم على غزو افريقية ، فخاف هارون الرشيد عاقبة ذلك ، وأنه إن لم يتدارك أمره ربما عجز عنه فى المستقبل، فاستشار وزيره يحيى البرمكى وقال : ان الرجل قد فتح تلمسان وهى باب إفريقية ، ومن ملك الباب ، يوشك أن يدخل الدار ، وقد هممت أن أبعث اليه جيشا ، ثم فكرت فى بعد الشقة ، وعظيم المشقة ، فرجعت عن ذلك ، فقال يحيى : الرأى يا أمير المؤمنين أن تبعث اليه برجل داهية يحتال على قتله وتستريح منه ، فأعجب هارون ذلك ، ووقع اختيارهما على رجل يعرف بالشماخ ، فقدم الشماخ على مولانا إدريس مظهرا رفض الدعوة العباسية ، فاختصه مولانا إدريس بمجالسته ، وكان الشماخ هذا ممتلئا من الأدب والبلاغة ، عارفا بصناعة الجدل ، فكان إذا جلس مولانا إدريس مع رؤساء

البربر ، ووجوه القبائل ، تكلم الشماخ ، وذكر فضل أهل البيت ، وعظيم بركتهم ويحتج لامامة مولانا إدريس ، وأنه الامام الحق دون غيره ، فاستولى بذلك عليه ، حتى صار من ملازميه ، ولا يأكل إلا معه ، إلى أن انتهز الفرصة فى مولانا إدريس ، وكانت معه قارورة من طيب مسموم فأخرجها وقال : هذا طيب كنت استصحبته معى ، وهو من جيد الطيب ، ولا يليق إلا بك ، فتناول مولانا إدريس القارورة وفتحها واشتمّ ما فيها ، فغشى عليه ، وقام الشماخ للحين ، كأنه يريد حاجة الانسان ، فخرج وأتى منزله ، فركب فرسا له عتيقا ، كان قد أعدّه لذلك ، وذهب لوجهه يريد المشرق .

واتصل خبر مولانا إدريس بمولاه راشد ، فأقبل مسرعا ، فدخل عليه وهو يحرّك شفتيه ، لايبين كلاما ، قد أشرف على الموت ، واستمرّ على حالته إلى عشىّ النهار ، فتوفى رضى الله عنه ورحمه فى مهل ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائة ،

وتفقد راشد الشماخ فلم يره ، فعلم أنه هو الذى اغتاله ، ثم جاء الخبر بأن الشماخ قد لقى على أميال من البلد ، فركب راشد فى جمع من البربر واتبعوه ، وتقطعت الخيل فى النواحى ، وطلبوه ليلتهم إلى الصباح ، فلحقه راشد بوادى ملوية عابرا ، فشدّ عليه راشد بالسيف وضربه ضربات ، قطع فى بعضها يمناه وشج رأسه ، ونجا الشماخ بنفسه ، وأعيا فرس راشد عن اللحاق به ، فرجع عنه ، ولما وصل راشد إلى منزله أخذ فى تجهيز الامام رضى الله عنه ودفنه بصحن رابطة عند باب وايلى حيث هو الآن ، رحمه الله .

مولانا إدريس الأزهر ابن مولانا إدريس الأكبر

كانت ولادته رضى الله عنه يوم الاثنين ثالث رجب سنة سبع وسبعين ومائة ، فكفله راشد مولى أبيه ، وقام بأمره أحسن قيام فأقرأه القرآن حتى حفظه وهو ابن ثمان سنين ، ثم علمه العربية والحديث والفقه ، ورواه الشعر وأمثال العرب وحكمها وأطلعه على سير الملوك وعرفه أيام الناس ودرّبه على ركوب الخيل والرمى بالسهام وغير ذلك من مكايد الحرب ، فلم يمض له من العمر مقدار إحدى عشرة سنة إلا وقد اضطلع بما جل ، وترشح للأمر واستحق لأن يبايع فبايعه البربر وأتوه صفقتهم عن طاعة منهم وإخلاص ، وكان ذلك يوم الجمعة غرّة ربيع الأوّل سنة ثمان وثمانين ومائة بعد مقتل راشد مولاه بعشرين يوما ، وله من العمر إذ ذاك احدى عشرة سنة .

ولما استقام له أمر المغرب عزم أن يبنى لنفسه مدينة يسكنها هو وخاصته وهيأ جماعة فى فحص بعض الجهات وتخيير البقاع والترب والمياه إلى أن انتهى الفحص إلى موضع مدينة فاس وهى غيضة ملتفة الأشجار ، كثيرة العيون والأنهار ، وفى جانب منها خيام من شعر يسكنها قوم من المجوسية واليهودية والنصرانية ، وكلهم أسلموا على يديه ، واشترى منهم الغيضة بستة آلاف درهم وشرع فى بناء المدينة فاختط عدوة الأندلس غرّة ربيع الأوّل سنة اثنتين وتسعين ومائة .

وفى سنة ثلاث بعدها اختط عدوة القرويين وبنى مساكنه بها ، وانتقل إليها واتخذها دار ملكه ، وأقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة ، وفى هذه السنة خرج غازيا بلاد المصامدة فانتهى

إليها

إليها واستولى عليها ، ودخل مدينة نفيس ومدينة أغمات ، وفتح سائر بلاد المصامدة وعاد إلى فاس فأقام بها إلى سنة تسع وتسعين ومائة ، فخرج فى المحرم برسم غزو قبائل نفزة من أهل المغرب الأوسط ومن بقى هناك على دين الخارجية من البربر ، فسار حتى غلب عليهم ، ودخل مدينة تلمسان ، فنظر فى أحوالها ، وأصلح سورها وجامعها ، وصنع فيها منبرا ، وأقام بها يدبر أمرها ويصلح أحوالها ثلاث سنين ، ثم رجع إلى مدينة فاس ، واستمرّ بدار ملكه إلى أن توفاه الله بها سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وعمره نحو ست وثلاثين سنة ، ودفن بمسجده بازاء الحائط الشرقى منه رحمه الله ورضى عنه .

مشاهير ملوك اللمتونيين

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتونى ، بويع له البيعة العامة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة .

وتوفى يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرّم سنة خمسمائة ، وعاش تسعين سنة . ملك منها مدّة خمسين سنة وهو البانى لمدينة مراكش ، وذلك سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، والذى بناه منها هو المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش جوفا من جامع الكتبيين منها ، ويعرف اليوم بالسجينية .

ولما دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة المذكورة جند يوسف الأجناد ، واستكثر القواد واتخذ الطبول والبنود ، ورتب العمال حتى كمل له من الجيش فى تلك السنة أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزولة والمصامدة وغيرهم ، فخرج بهم من حضرة مراكش قاصدا مدينة فاس فتلقته قبائلها فى عدد كثير فقاتلوه ، وكانت بينه وبينهم ملاحم عظام انهزموا فيها من بين يديه ثم رحل إلى فاس فنازلها بعد أن فتح جميع أحوازها ، وذلك فى آخر سنة أربع وخمسين وأربعمائة وأقام عليها أياما محاصرا لها حتى فتحها ، وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، وهذا هو الفتح الأول ، ثم فتحها مرة أخرى ، بعد ما وقع من أهلها ما وقع ، بسبب قيام بعض المغراويين ، فنزل عليها بجميع جيوشه ، وشدّد عليها الحصار حتى دخلها عنوة بالسيف .

وقتل بها من مغراوة وبنى يفرن ومكناسة وغيرهم خلقا كثيرا ، حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى ، وهذا هو الفتح الثانى لمدينة فاس ، وكان يوم الخميس ثانى جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمائة .

ولما دخل اليها أمر بهدم الأسوار التى كانت فاصلة بين المدينتين ، عدوة القرويين ، وعدوة الأندلس ، وصيرهما مصرا واحدا وحصنها ، وأمر ببنيان المساجد فى شوارعها وأزقتها ، وأى زقاق لم يوجد فيه مسجد عاقب أهله ، وأمر ببناء الحمامات والفنادق والأرجاء ، وأصلح بناءها ورتب أسواقها ، وأقام بها إلى صفر سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، ثم خرج للطواف على أعمال المغرب وتفقد أحوال الرعية ، والنظر فى سيرة ولاته وعماله فيها .

وفى سنة سبعين وأربعمائة جهز جيشا كثيفا لغزو طنجة وسبتة ، وكانتا بيد الحاجب سكوت البرغواطى ، فلما قرب من طنجة برز اليهم سكوت بجموعه ، وقال : والله لا يسمع أهل سبتة

طبول اللمتونى وأنا حىّ أبدا ، فالتقى الجمعان بوادى منى من أحواز طنجة ، والتحم القتال ، فقتل سكوت ، وفضت جموعه ، وسار المرابطون الى طنجة فدخلوها ، واستولوا عليها .

وفى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث بعض قوّاده لغزو تلمسان والمغرب الأوسط ، فسار اليها فى عشرين ألفا من المرابطين ، وكان بتلمسان يومئذ بعض رؤساء المغراويين،فدخلوا المغرب الأوسط ، وظفروا ببعض مقصودهم ، ورجعوا إلى يوسف فألفوه بمراكش .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين فيها غير يوسف السكة فى جميع عمله ، وكتب عليها اسمه ، وفى هذه السنة فتح عدّة مدن .

وفى سنة أربع وسبعين وأربعمائة زحف بجيوشه المنصورة إلى مدينة وجدة ففتحها وفتح بلاد بنى يزناس وما والاها ، ثم سار إلى تلمسان ففتحها واستلحم من كان بها من مغراوة ، وقتل أميرها العباس المغراوى وأنزل بها عامله محمد المسفيوى فى عساكر المرابطين ، فصارت ثغرا لمملكته ثم افتتح مدينة تونس ووهران وجبل واشريس والجزائر وغير ذلك ، وانكفأ راجعا إلى المغرب فدخل مراكش فى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، ثم ورد عليه بعض كتاب المعتمد بن عباد يعلمه بحال بلاد الأندلس وما آل إليه أمرها من تغلب الأجانب على أكثر ثغورها ويسأله النصر والاعانة ، فأجابه يوسف بقوله إذا فتح الله علىّ بسبتة اتصلت بكم وبذلت جهدى فى جهاد الأجانب ، وكان الفنش قد تحرّك فى هذه السنة فى جيوش لاتحصى ، فشق بلاد الأندلس شقا يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبى ، ثم يرتحل إلى غيرها إلى أن خرب قرى كثيرة من بلاد الأندلس وغيره ، وهذا هو السبب المحرّك لعزائم المسلمين بالأندلس والمغرب على الجهاد ، ولما سمع المعتمد بن عباد بفتح سبتة ورأى مارأى من أمر الفنش ركب البحر إلى المغرب لاستنفار يوسف إلى الجهاد فلقيه بفاس وأخبره بحال الأندلس وما عليه من الضعف وشدّة الخوف والاضطراب وما يلقاه المسلمون من الأجانب من القتال والأسر والحصار كل يوم ، فقال له يوسف ارجع إلى بلادك وخذ فى أمرك فانى على أثرك ، فرجع ابن عباد إلى الأندلس ونزل ليوسف عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجهاده ، ودخل يوسف سبتة فنظر فى أمرها وأصلح سفنها وقدمت عليه جنود الله من المغرب والصحراء والقبلة وغيرها ، فشرع فى إجازتها إلى الأندلس ، ولما تكاملت بساحل الخضراء عبر هو فى أثرها فى موكب عظيم من قوّاد المرابطين وأنجادهم وصلحائهم ، فلما استوى على ظهر السفينة رفع يديه ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا صلاحا للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لانعبره ، فسهل الله عليهم العبور فى أسرع وقت ، وكان ذلك يوم الخميس عند الزوال منتصف ربيع الأوّل سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، ونزل بالخضراء فصلى بها الظهر من يومه ذلك ولقيه المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وابن الأفطس صاحب بطليوس وغيرهما من ملوك الأندلس واتصل الخبر بالفنش وهو محاصر لسرقسطة ، فارتحل عنها وقصد نحو أمير المؤمنين يوسف بعد أن استنفر من سائر المجاورين له من أمم الأجانب ما لايحصى عدده ، ولما نظر الفنش لكثرة جنوده . قال بهؤلاء أقاتل الجنّ والانس وملائكة السماء ، ورأى فى نومه كأنه راكب فيلا وبين يديه طبل

صغير وهو ينقر فيه ، فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويلها ، فأحضر رجلا مسلما عالما بتفسير الرؤيا فقصها عليه فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه ، فقال تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى ـ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ـ وقوله تعالى ـ فاذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ـ وذلك يقتضى هلاك هذا الجيش الذى تجمعه فلما اجتمع جيشه ورأى كثرته أعجبه ، فأحضر ذلك المعبر ، وقال له بهذا الجيش ألقى إله محمد صاحب كتابكم فانصرف المعبر ، وقيل إنه حبسه ، ثم خرج الاذفونش إلى بلاد الأندلس ، وتقدّم السلطان يوسف نحوه أيضا بعد أن قدم بين يديه قائده أبا سليمان داود ، وكان بطلا من الأبطال فى عشرة آلاف فارس من المرابطين بعد أن قدم أمامه المعتمد بن عباد مع أمراء الأندلس وجيوشهم ، وأمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد فتكون محلة ملوك الأندلس واحدة ومحلة المرابطين أخرى فتقدّم بهم ابن عباد ، فكانوا إذا ارتحل ابن عباد من موضع نزله يوسف بمحلته فلم يزالوا كذلك حتى نزلوا مدينة طرطوشة فأقاموا بها ثلاثا ، وكتب منها يوسف إلى الفنش يدعوه إلى الاسلام أو الجزية أو الحرب كما هى السنة ، ومن جملة مافى الكتاب بلغنا يا اذفونش انك دعوت الله فى الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر إلينا فقد عبرناه إليك ، وقد جمع الله فى هذه الفرصة بيننا و بينك وسترى عاقبة دعائك وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ، فلما سمع الاذفونش ما كتب إليه يوسف جاش بحر غيظه وزاد فى طغيانه ، وأقسم أن لايبرح موضعه حتى يلقاه ، ثم ارتحل يوسف وارتحل الاذفونش حتى نزلا معا بالقرب من بطليوس ، وكان نزول يوسف بموضع يعرف بالزلاقة وتقدّم المعتمد فنزل ناحية أخرى تحجز بينه و بين يوسف ربوة و بين المسلمين والاذفونش نهر بطليوس حاجزا يشرب منه هؤلاء وهؤلاء ، فأقاموا ثلاثة أيام والرسل تختلف بينهم إلى أن وقع اللقاء على ما نذكره ، ولما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونه فى محلات الصحراويين خوفا عليهم من مكايد الاذفونش إذ هم غرباء لاعلم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من الصحراويين كان لايخرج إلى طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفا بالمحلة بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات ، ثم قامت الأساقفة والرهبان ورفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت ، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما ، وقام الفقهاء والصالحون فى الناس مقام الوعظ ، وحضوهم على الصبر والثبات ، وحذروهم الفشل والفرار ، وجاءت الطلائع تخبر أن العدوّ مشرف عليهم صبيحة يومهم وهو يوم الأربعاء ، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم ، فلما رأى الاذفونش ذلك رجع إلى أعمال المكر والخديعة ، فعاد الناس إلى محلاتهم و باتوا ليلتهم ، ثم أصبح يوم الخميس فبعث الاذفونش إلى ابن عباد يقول : غدا يوم الجمعة وهو عيدكم والأحد عيدنا ، فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت ، فعرّف المعتمد بذلك السلطان يوسف وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة ، وإنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار ، وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس كما أشار ابن عباد وبعد مضىّ جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك

أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي ، وكان فى محلة ابن عباد فرحا مسرورا يقول : إنه رأى النبيّ ﷺ تلك الليلة فى النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة فى صبيحة تلك الليلة ، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب وانتهى خبره إلى ابن عباد ، فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقا لما توقعه من غـدر العدوّ ، ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الاذفونش ، وسمعا ضوضاء الجيش وخشخشة السلاح ، ثم تلاحق بقية الطلائع محققين لتحرّك الاذفونش ، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول استرقنا السمع فسمعنا الاذفونش يقول لأصحابه ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون ، وإن كانوا ذوى شجاعة وبصيرة بالحرب فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وإنما قادهم ابن عباد ، فاهجموا عليه واصبروا له فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أراه يصبر لكم إن صدقتموه الحملة ، فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرّفه باقبال الاذفونش ويستحث نصرته فمضى ابن القصـيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرفه بجليـة الأمر ، فقال له قل له إنى سائر إليك إن شاء الله ، وأمر يوسف بعض قوّاده أن يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها نارا مادام الاذفونش مشتغلا مع ابن عباد ، وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد فلم يصله إلا وقد غشيه جنود الطاغية ، فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله ، ومال الاذفونش عليه بجموعه وأحاطوا به من كل جهة ، فهاجت الحرب وحمى الوطيس وكثر القتل فى أصحاب ابن عباد وصبر صبرا لم يعهد مثله واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه وعضته الحرب ، واشتدّ عليه وعلى أصحابه البلاء ، وساءت الظنون ، وانكشف البعض منهم وأثخن هو جراحات فى رأسه وبدنه وعقرت تحتـه فى تلك الساعة ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر ، ثم كان أوّل من وافى ابن عباد من قوّاد يوسف بن تاشـفين داود ، وكان بطلا شهما فنفس بمجيئه على ابن عباد ، ثم أقبل يوسف بعـد ذلك وطبوله قد ملأت أصواتها الجوّ ، فلما أبصره الاذفونش وجه حملته إليـه وقصده بعظيم جنوده فبادر إليهم السلطان يوسف وصدمهم صدمة ردّتهم إلى مراكزهم وانتظم به شمل ابن عباد ، واستنشق الناس ريح الظفر وتباشروا بالنصر ، ثم صـدقوا جميعا الحملة ، فزلزلت الأرض من حوافر الخيل ، وأظلم النهار بالعجاج ، وخاضت الخيل فى الدماء ، وصبر الفريقان صبرا عظيما ، ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف ، وصـدقوا الحملة على الاذفونش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم ، فولوا ظهورهم ، وأعطوا قفاهم ، والسيوف تصفعهم ، والرماح تطعنهم ، إلى أن لحقوا بربوة لجئوا إليها ، واعتصموا بها ، وأحدقت بهم الخيل من كل جهة ومامنهم من أحد إلا مكلوم ، ثم أقبل ابن عباد على السلطان يوسف وهنأه وشكره وأثنى عليه ، وفى هذا اليوم يوم الفتح والنصر وهو يوم الجمعة منتصف رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ، ولم يكن يدعى به قبل ذلك وفيه كتب بالفتح إلى جميع رؤساء مملكته ببلاد افريقية والمغرب والأندلس .

وكان رحمه الله حازما سائسا للأمور ، ضابطا لمصالح مملكته ، مؤثرا لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم .

وكان الامام حجة الاسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله لما سمع ماهو عليه من الأوصاف الجيدة

وميله

وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه ، فوصل إلى الاسكندرية ، وشرع فى تجهيز مايحتاج إليه فجاء إليه الخبر بوفاته ، فرجع عن ذلك العزم ، وكان السلطان يوسف هذا رحمه الله قد انتهى ملكه إلى مدينة أفراغة من قاصية شرق الأندلس ، وإلى مدينة أشبونة على البحر المحيط من غرب الأندلس ، وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما طولا ، وفى العرض مايقرب من ذلك ، وملك بعدوة المغرب من جزائر بنى مزغنة إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى جبال الذهب من بلاد السودان ، ولم ير فى بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا خراج لافى حاضرة ولا فى بادية إلا ما أمر الله به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والاعشار وجزيات أهل الذمة وأخماس الغنائم ، وقد جبى فى ذلك من الأموال على وجهها مالم يجبه أحد قبله ، وكان رحمه الله زاهدا فى زينة الدنيا وزهرتها ورعا متقشفا لباسه الصوف لم يلبس قط غيره ومأكله الشعير ولحوم الابل وألبانها مقتصرا على ذلك لم ينتقل عنه مدة عمره على مامنحه الله من سعة الملك وخوله من نعمة الدنيا ، وقد رد أحكام البلاد إلى القضاة وأسقط مادون الأحكام الشرعية ، وكان يسير فى أعماله بنفسه فيتفقد أحوال الرعية فى كل سنة ، وكان محبا للفقهاء وأهل العلم والفضل مكرما لهم صادرا عن رأيهم يجرى عليهم أرزاقهم من بيت المال ، وكان مع ذلك حسن الأخلاق متواضعا كثير الحياء جامعا لخصال الخير رحمه الله ورضى عنه .

أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى

لما توفى أمير المسلمين يوسف فى التاريخ المتقدم بايع الناس ابنه على المذكور بعهد من أبيه إليه وتسمى بأمير المسلمين ، وكان سنه يوم بويع ثلاثا وعشرين سنة ، وملك من البلاد مالم يملكه أبوه لأنه صادف البلاد ساكنة ، والأموال وافرة ، والرعايا آمنة بانقطاع الثوار ، واجتماع الكلمة ، وسلك طريق أبيه فى جميع أموره واهتدى بهديه .

ومن مآثره المسجد العتيق المعروف باسمه مسجد ابن يوسف ، و بنى هذا المسجد سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، وهو أول مسجد بنى بهذه الحضرة المراكشية ، وهو الذى بنى سورها ، وسببه أنه قدم عليه إمام الأئمة فى وقته ابن رشد المالكى لمراكش ، وذلك فى سنة ست وعشرين وخمسمائة فوجد الفتنة قائمة بينه و بين المهدى بن تومرت فأشار عليه بمحافظته على البلاد ، وأن يجعل سورا فشرع حينه فى ذلك ، ففى ثمانية أشهر كمل السور مع سعة البلاد وعظمها وصير عليه سبعين ألف دينار ذهبا ، وبوبها ففتح بابا مسامتا لدكالة فسمى الباب باب دكالة ، وفتح بابا مسامتا لفاس فسمى باب فاس ، وفى آخر مدة ملوك السعديين سمى باب الخميس كما فتح باب تغزوت ، وكان الناس يخرجون منه إلى الغزو فتوسع فيه فسمى بباب تغزوت ، وأما باب الدباغين فمن ذلك العصر لازال لم يتغير اسمه لانسحاب الوصف الذى سمى به من أجله . وأما باب هيلانة فلا زال الاسم هو الاسم منذ أسس الباب فى تاريخه ، وموجبه أن قبيلة هيلانة من المصامدة كانوا يخرجون منه ويدخلون ، فسمى بذلك وصار اليوم لا يعرف إلا بباب ايلان ، وأما باب اغمات فلا زال الاسم منذ أسس السور المذكور تاريخه وسمى بذلك لمسامتته باغمات وريكة ، وأما باب الرب فكان هذا الباب

منذ أسس فى التاريخ المذكور سمى بباب الشريعة لاقامة الحدود فيه ، ولهذا يقال له الآن باب الرب ، وباب أحمر أسسه السلطان سيدى محمد بن عبد الله حين أسس قصره ، وباب القصبة أسسه السلطان يعقوب المنصور الموحدى حين أسس القصبة إذ هو البانى لها فى تاريخ إحدى وتسعين وخمسمائة ، وباب اكناو أسسه يعقوب المنصور فى إحدى وتسعين وخمسمائة حين أسس القصبة ، وجعل قصره فيها محل قبور السعديين إلى الآن ، وزيد فى زماننا هذا عام أربعة وثلاثين وثلثمائة وألف . بابان إحدهما بقرب المأمونية ، والآخر بوسط حديقة المولى عبد السلام .

وفى سنة اثنتين وخمسمائة كانت غزوة حصن أفليج وبه جمع عظيم من الاذفونش ، ويقال له الفنش ، ونسميه اليوم الاصبنيول ، وكانت هذه الغزوة عظيمة الموقع بعد العهد بمثلها ، وكان النصر فيها للمسلمين ، وفى سنة ثلاث وخمسمائة جاز أمير المسلمين على بن يوسف إلى الأندلس برسم الجهاد ، فعبر البحر من سبتة منتصف المحرم من السنة المذكورة فى جيوش عظيمة تزيد على مائة ألف فارس ، ففتح عدة حصون عنوة بالسيف ، وفى سنة أربع وخمسمائة فتح قائد الأمير ابن أبى بكر مدينة شنترين وبطليوس ويابورة وبرتغال وأشبونة وغير ذلك من بلاد غرب الأندلس ، وكان ذلك فى شهر ذى القعدة من السنة المذكورة ، وكتب بالفتح إلى أمير المسلمين ، وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة تغلب الفنش على بلاد شرق الأندلس وملك قلعة أيوب التى ليس فى بلاد شرق الأندلس أمنع منها ، وألح بالغارات على بلاد الجوف ، فاتصلت هذه الأخبار بأمير المسلمين وهو بمراكش فجاز إلى الأندلس برسم الجهاد وضبط الثغور وهو جوازه الثانى فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر ، فوصل بجيوشه إلى قرطبة ونزل خارجها وأتته وفود الأندلس للسلام عليه فسألهم عن أحوال بلادهم وثغورهم بلدا بلدا ، فعرفوه بما كان ، ثم سار حتى نزل على مدينة شنتمرية ففتحها عنوة وسار فى بلاد الافرنج يقتل ويسبى ، ويقطع الثمار ، ويخرب القرى والديار حتى دوخ بلاد العدو ، وفر أمامه الافرنج ، وتحصنوا بالمعاقل المنيعة ، انظر تمام ترجمته فى « المشرب العذب » ٭ توفى رحمه الله ورضى عنه لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، وكان رجلا حليما وقورا صالحا عادلا منقادا إلى الحق والعلماء .

مشاهير ملوك الموحدين

عبد المؤمن بن على الكوفى الموحدى

بويع بعد صلاة الجمعة لعشرين يوما خلت من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمسمائة بجامع تينملل ، ولما استوثق له بعض الأمر بالمغرب توجه لفتح بلاد افريقية ، ومنها إلى برقة ، ومنها إلى بلاد الأندلس بأسرها ، وخطب له على منابر هذه الأقاليم كلها ، ثم تمادى فى غزاته إلى جبال غياثة ، ومنها إلى ملوية ، ثم إلى بلاد زناتة ، ومنها إلى تلمسان ، ثم قصد مدينة فاس سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقد تحصن بها يحيى بن أبى بكر الصحراوى من عمال المرابطين ، فنازلها عبد المؤمن مدة من سبعة أشهر ، وحاصرها حصارا شديدا حتى قطع عنها ماء النهر الداخل إليها وسده بالبناء والخشب حتى انحبس الماء فوق بسيط الأرض ، وانتهى إلى مراكزه منها ، ثم أمر

بخرق السد ، فانحدر الماء على المدينة دفعة واحدة فانهدم سورها ثم هدم من دورها ما يزيد على ألفى دار بالثنية ، وهلك بها خلق كثير ، وكاد الماء يأتى على أكثرها ، ثم دخلها عبدالمؤمن وأمّن أهلها إلا من كان بها من المرابطين فلم يبق منهم أحداً ، ثم أمر بهدم سور المدينة ، وقال إنا لانحتاج إلى سور ، وإنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا ، فلم تزل فاس لاسور لها إلى أن تداركها حفيده يعقوب المنصور فابتدأ بناءه ، ومات فأتمه ابنه الناصر سنة ستمائة ، ثم ارتحل عبد المؤمن من فاس إلى مراكش ، ووجه سرية لغزو بن غواطه ، فحلّ بهم ما لا طاقة لهم به ، ثم قام على مراكش تسعة أشهر وأميرها يومئذ إسحاق بن على بن يوسف ، ولما طال عليهم الحصار ، وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل ، فاقتحموا عليهم المدينة فى أخريات شوّال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقتل عامة اللمتونيين وامحى أثرهم ، واستولى الموحدون على جميع البلاد .

ولما كانت سنة خمسين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن باصلاح المساجد وبنائها فى جميع ممالكه وبتغيير المنكرات ما كانت ، وأمر مع ذلك بحرق كتب الفروع ، وردّ الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها .

نقل المصحف العثمانى من قرطبة إلى مراكش

وبناء جامع الكتبيين بها

كان بقرطبة مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، واستمرّ بها إلى دولة الموحدين ، فنقله عبد المؤمن إلى مراكش ، وشرع فى انتخاب كسوته . واختيار حليته ، فحشر الصناع المتقنين ممن كان بالحضرة وسائر بلاد المغرب والأندلس ، فاجتمع لذلك حذاق كل صنعة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين ، ولم يبق من يوصف ببراعة ، أو ينسب إلى الحذق فى صناعة ، إلا أحضر للعمل فيه والاشتغال بمعنى من معانيه ، فصنعت له أغشية بعضها من السندس وبعضها من الذهب والفضة ، ورصع ذلك بأنواع اليواقيت وأصناف الأحجار الغريبة النوع والشكل العديمة المثال ، واتخذ للغشاء محمل بديع مما يناسب ذلك فى غرابة الصنعة وبداعة الصبغة ، واتخذ للمحمل كرسىّ على شاكلته ، ثم اتخذ للجميع تابوت يصان فيه على ذلك المنوال ، ووصف ذلك يطول .

وفى خلال هذه المدّة أمر عبد المؤمن ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش حرسها الله ، فبدئ ببنائه وتأسيس قبلته فى العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وكمل فى منتصف شعبان من السنة المذكورة على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع ، وأفسح المساحة وأحكم البناء والنجارة ، وفيه من شمسيات الزجاج ، ودرجات المنبر ، وسياج المقصورة مالو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه ، فكيف فى هذا الأمر اليسير الذى لم يتخيل أحد من الصناع أن يتمّ فيه تقديره ، وتخطيطه فضلا عن بنائه ، وصليت فيه الجمعة منتصف شعبان المذكور .

تنبيه — وضعت أرقام صفحات الملزمة السابقة خطأ من ١٤٥ — ١٦٠ والصواب أن تكون من ١٤٥ — ١٦٠ — ١٦١ — ١٧٦

توظيف عبد المؤمن الخراج على أرض المغرب

وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد افريقية والمغرب فكسر من برقة في جهة الشرق إلى بلاد نول من السوس الأقصى في جهة الغرب بالفراسخ والأميال طولا وعرضا ، ثم أسقط من التكسير الثلث في الجبال والغياض والأنهار والسباخ والحزون والطرق وما بقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة بقسطها من الزرع والورق ، فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب عفا الله عنه .

ولما تمهد له الملك وطاعت له سائر الأقطار ، وخضعت له الرقاب في البوادي والأمصار ، تفرغ لشأنه ، وتاقت نفسه للجهاد ، فعزم على غزو بلاد الافرنج برا وبحرا ، فأمر رحمه الله في هذه السنة التي هي سنة سبع وخمسين وخمسمائة بانشاء الأساطيل في جميع سواحل ممالكه ، فأنشيء له منها أربعمائة أسطول ، ونظر في استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح والعدد وأمر بضرب السهام في جميع عمله ، فكان يضرب له منها في كل يوم نحو عشرة قناطير ، فجمع له من ذلك ما لا يحصى .

ثم لما دخلت سنة ثمان وخمسين خرج من مراكش قاصدا الجهاد ، وكان خروجه يوم الخميس خامس ربيع الأول من السنة المذكورة ، فوصل إلى رباط وسلا ، فكتب إلى جميع بلاد المغرب والقبلة وافريقية والسوس وغير ذلك يستنفرهم إلى الجهاد فأجابه خلق كثير ، واجتمع له من عساكر الموحدين وغيرها من قبائل العرب والبربر وزناتة أزيد من ثلثمائة ألف فارس ، ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس ، ومائة ألف راجل ، فضاقت بهم الأرض ، وانتشرت المحلات والعساكر في أرض سلا من عين غبولة إلى عين خميس إلى حلق المعمورة ، فلما استوفيت لديه الحشود ، وتكاملت لديه الجنود والوفود ، كان المعنى الذي أشار إليه القائل :

إذا تم أمر بدا نقصه ☆ ترقب زوالا إذا قيل تم

فابتدأ بعبد المؤمن مرضه ، وتمادى به ألمه ، إلى أن توفي رحمه الله ليلة الجمعة الثامن من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وحمل إلى تينملل ، فدفن بها إلى جنب قبر الامام المهدي .

يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي

بويع له يوم السبت العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة ، ولما تمت له البيعة وطاعت له الأمة كان أول شيء فعله أن أخرج مائة ألف دينار ذهبا من بيت المال ، ففرقها على الضعفاء من بيوت المغرب ، وكتب إلى جميع بلاده بتسريح السجون ورد المظالم التي ظلمها العمال في أيام أبيه وأكرم الفقهاء وراعى الصلحاء وأهل الفضل وأجرى على أكثرهم الانفاق من بيت المال وفرق في الموحدين وسائر الأجناد أموالا جمة .

وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة شرع في إدخال ساقية الماء إلى مراكش ، وفي هذه السنة أعني سنة خمس وثمانين وخمسمائة تحرك إلى الأندلس برسم غزو بلاد غربها وهي أولى غزواته ، فعبر من قصر المجاز إلى المدينة الخضراء يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من السنة المذكورة

ثم

ثم نهض من الخضراء حتى نزل شنترين وشنّ الغارات على مدينة اشبونة وأنحائها ، فقطع الثمار وحرق الزروع وقتل وسبا ، وأضرم النيران فى القرى ، وأبلغ فى النكاية وانصرف إلى العدوة بثلاثة عشر ألفا من السبي ، فدخل فاس فى آخر رجب من السنة المذكورة .

وفى سنة ست وثمانين وخمسمائة استولى الافرنج على مدينة شلب وباجة ويابورة من غرب الأندلس ، وذلك لما علموا أن المنصور قد أبعد عنهم ، واشتغل بأمر افريقية ، فاغتنموا الفرصة فيها ، واتصل الخبر بالمنصور فغاظه ذلك وأعظمه ، وكتب إلى قوّاد الأندلس يوبخهم ويأمرهم بغزو بلاد الافرنج ويعلمهم أنه قادم عليهم فى أثر كتابه ، فاجتمع قوّاد الأندلس إلى محمد بن يوسف والى قرطبة ، فخرج بهم فى جيش كثيف من الموحدين والعرب وأهل الأندلس حتى نزل على شلب فشدّد عليها الحصار وتابع عليها القتال حتى فتحها وفتح قصر أبى دانس ومدينة باجة ويابورة ، ورجع إلى قرطبة فدخلها بخمسة عشر ألفا من السبي وثلاثة آلاف أسير قدمهم بين يديه فى القطائر خمسون علجا فى كل قطينة ، وذلك فى شوّال سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ولما انقضت الهدنة بين يعقوب المنصور وبين الاسبنيول صاحب غرب جزيرة الأندلس وقاعدة مملكته يومئذ طليطلة ، وذلك فى أواخر سنة تسعين وخمسمائة عزم المنصور وهو يومئذ بمراكش على التوجه إلى محاربته ، فجمع جيوشا كثيرة وخرج إلى مدينة سلا ليكون اجتماع العساكر بظاهرها ، فاتفق أنه مرض مرضا شديدا حتى أيس منه أطباؤه ، فحمل إلى مراكش وهو مريض وتفرّقت جيوشه ، وطمع المجاورون له من الغرب وغيرهم فى البلاد وعاثوا فيها وأغاروا على النواحى والأطراف ، وكذلك فعل الاسبنيول فيما يليه من بلاد المسلمين بالأندلس حتى طمع فى البلاد ، وبعث رسوله إلى المنصور يتهدد ويتوعد ، ويطلب بعض الحصون من بلاد الأندلس ، وكتب إليه فى ذلك رسالة وهى : باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح ، روح الله وكلمته الرسول الفصيح ، أمّا بعد فانه لايخفى على ذى ذهن ثاقب ، ولاذى عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية كما أنى أمير الملة النصرانية ، وقد علمت الآن ماعليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل ، وإهمال أمر الرعية ، وإخلادهم إلى الراحة ، وأنا أسوقهم بحكم القهر وخلاء الديار ، وأسبي الذرارى وأمثل بالرجال ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة ، وأنتم تزعمون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لاتستطيعون دفاعا ، ولا تملكون امتناعا ، وقد حكى لى أنك أخذت فى الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاما بعد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا أدرى أكان الجبن قد أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك ، ثم قيل لى إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلا لعلة لايسوغ لك التقحم معها ، وها أنا أقول لك مافيه الراحة لك ، إنى سأجوز بجملتى إليك فأقاتلك فى أعزّ الأماكن لديك ، فان كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك ، وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وإن كانت لى كانت يدى العليا عليك ، واستحققت إمارة الملتين .

فلما وصل كتابه ليعقوب المنصور مزّقه ، وكتب على ظهر قطعة منه — ارجع إليهم فلنأتينهم

بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ـ ثم كتب بعده : الجواب ما ترى لا ماتسمع .

ثم أمر بالاستنفار ، واستدعاء الجيوش من الأمصار ، وضرب السرادقات بظاهر البلد من يومه وجمع العساكر وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبتة بريد الأندلس ، وكان خروجه من مراكش يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، وصار يوالى السير ويطوى الأراضى ، والجيوش تتابع فى أثره من سائر الأقطار ، فلما انتهى إلى قصر المجاز أخذ فى إجازة الجيوش الواردة عليه لايفرغ من طائفة إلا وقد لحقت بها أخرى ، فأجاز أوّلا قبائل العرب ، ثم زناتة ، ثم المصامدة ، ثم غمارة ، ثم المطوعة من قبائل المغرب ، ثم الاغزاز والرماة ، ثم الموحدون ثم العبيد ، ثم أجاز هو فى أثرهم فى موكب عظيم من أشياخ الموحدين وأهل النجدة والزعامة ومعه فقهاء المغرب وصلحاؤه ، واستقرّ بالجزيرة الخضراء بعد صلاة الجمعة الموفى عشرين من رجب من السنة المذكورة ، فأقام بها يوما واحدا ، ثم نهض إلى العدوّ قبل أن تخمد قرائح المجاهدين وتضعف نياتهم ، فسار حتى بقى بينه وبين حصن الارك الذى كان العدوّ نازلا بازائه نحو مرحلتين ، فنزل هنالك وذلك يوم الخميس ثالث شعبان من السنة المذكورة ، فجمع الناس ذلك اليوم وفاوضهم ووعظهم ، ثم اختصّ أهل الأندلس بمزيد المشورة ، وقال لهم إن جميع من استنفرته ، وإن كانوا أولى بأس ومعرفة بالحرب لكنهم لايعرفون من قتال الافرنج ماتعرفونه أنتم لتمرسكم بهم وتمرسهم بكم فأجابوه فى الرأى على القائد أبى عبد الله بن صناديد فعوّل المنصور رحمه الله فى ذلك على رأيه ثم إن المنصور عرض جيشه ، وأخذ فى تقريب القرب إلى الله تعالى بين يدى جهاده ، فسرح السجون وأدرّ الأرزاق وعين الصدقات ورحل فنزل الارك ، وقد خيمت بأحوازه محلات العدوّ يضيق عنها المتسع ، وقام المنصور بعد أن اجتمع الناس فتحلل من المسلمين وقال أيها الناس اغفروا لى فيما عسى أن يكون صدر منى ، فبكى الناس وقالوا منك يطلب الرضا والغفران ، وخطب الخطباء بين يديه محرّضين ومذكرين ، فنشط الناس وطابت النفوس ، ومن الغد صدع المنصور بالنداء ، وأمر بأخذ السلاح والبروز إلى اللقاء ، فكانت التعبئة تحت الغلس ، وبات المنصور تلك الليلة عاكفا بمصلاه على الركوع والسجود وانه أغفى إغفاءة ، فرأى ملكا نزل من السماء فى صورة بشر وبيده راية خضراء وبشره بالفتح وأنشده فى ذلك أبياتا بقيت على ذكر المنصور إلى أن استيقظ وقصّ رؤياه على وجوه الجند ، فازداد الناس طمأنينة وبصيرة ، فلما كان يوم السبت خامس شعبان جلس المنصور فى قبته الحمراء المعدّة للجهاد ، ثم دعا بكبير وزرائه الشيخ أبى يحى ابن أبى حفص وقدمه على ذلك الجيش وعقد له رايته وقدمه بين يديه فرفرفت على رأسه الرايات وقرعت بين يديه الطبول وسار فى قبائل هنتاتة ، وبين يديه القائد ابن صناديد فى جيش الأندلس ثم عقد المنصور لجرمون بن رياح على قبائل العرب ، ولمنديل بن عبد الرحمن المغراوى على قبائل مغراوة ، ولابن حمامة المرينى جدّ الملوك المرينيين على قبائل بنى مرين ، ولجابر بن يوسف العبد الوادى على قبائل بنى عبد الواد ، وللعباس بن عطية التوجينى على قبائل بنى توجين ، ولابن على على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ، ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة ، وعقد للفقيه الصالح يخلف

الأوربى على المتطوعة، وبقى المنصور رحمه الله فى جيش الموحدين والعبيد ، وأمر الشيخ أبا يحيى بالرحيل والتقدم أمامه إلى جهة العدو ، وكان المنصور قد اتفق مع ابن صناديد على أنه من الرأى أن يبقى هو متأخرا فى الموحدين والعبيد والحشم على مسافة يخفى بها عن العدو ويقدم الشيخ أبا يحيى ببعض الرايات والطبول فى هيئة السلطان فيلقى العدو ، فإن كانت للمسلمين فهو المطلوب ، وإن كانت عليهم كان المنصور رداء لهم ، ثم يستأنف القتال مع العدو ، وقد فل حده ولانت شوكته فسار الشيخ أبو يحيى على هذا الترتيب وابن صناديد أمامه فى فرسان الأندلس وحماتها ، فكان الشيخ أبو يحيى إذا أقلع بجيشه عن موضع صباحا خلفه المنصور فيه بجيشه مساء حتى أشرف الشيخ أبو يحيى على جموع الافرنج، وهى يومئذ إلى جنب حصن الارك قد ضربت أخبيتها على ربوة عالية ذات مهاو وأحجار كبار قد ملأت السهل والوعر ونزل الشيخ أبو يحيى بجيشه فى أبسط ضحوة يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، فعبأ الشيخ أبو يحيى عساكره تعبئة الحرب ، وعقد الرايات لأمراء القبائل ، وأوقف كل قبيلة فى مركزها الذى عين لها ، فجعل عسكر الأندلس فى الميمنة ، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب فى الميسرة ، وجعل المتطوعة والاغزاز والرماة فى المقدمة ، وبقى هو فى القلب فى قبائل هنتاتة ، ولما أخذ الناس مراكزهم من حومة القتال خرج جرمون بن رياح يمشى فى صفوف المسلمين ويحضهم على الثبات والصبر ، وبينما الناس على ذلك إذ انفصلت من جيش العدو كتيبة عظيمة من نحو عشرة آلاف فارس كلهم مدجج فى الحديد ، وكانت هذه الكتيبة هى شوكة ذلك الجيش وحده، كان الاسبنيول قد انتخبهم وصلت أقسته عليهم صلاة النصر ورشوهم بماء المعمودية وتحالفوا عند الصلبان أن لا يبرحوا حتى يقتلوا المسلمين أو يهلكوا دونهم ، فلما برزت هذه الكتيبة نادى منادى الشيخ أبى يحيى ، معشر المسلمين اثبتوا فى مصافكم ، وأخلصوا لله تعالى نياتكم ، واذكروا الله عز وجل فى قلوبكم ، وبرز عامر الزعيم من أمراء العرب ، فحث الناس على الصبر وثبتهم ، وحملت كتيبة العدو حتى اندقت رماح المسلمين فى صدور خيلها ، ثم تقهقرت قليلا ، ثم عاودت الحملة ، فكانت كالأولى ، ثم تهيأت للحملة الثالثة فدفعت حتى خالطت صفوف المسلمين وخلصها البعض منها إلى الشيخ أبى يحيى يظنونه المنصور ، فاستشهد رحمه الله بعد ما أحسن البلاء ، وقاتل قتالا شديدا ، واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتاتة والمطوعة وغيرهم ، وأظلم الجو بالغبار ، واختلطت الرجال بالرجال ، وانفرد كل قرن بقرنه ، وأقبلت العرب والمتطوعة فأحاطوا بالكتيبة التى دفعت إلى الشيخ أبى يحيى ، وزحفت زناتة والمصامدة وغمارة إلى الربوة التى فيها الفنش وجموعه ، وكانت على ما قيل تنيف على ثلثمائة ألف بين فارس وراجل ، فتوغل المسلمون فى تلك الأوعار إليهم وخالطوهم بها واشتد القتال ، واستحر القتل فى الكتيبة التى دفعت أولا ، وانقضت عليهم العرب والمتطوعة وهنتاتة ، فطحنوهم طحنا ، وانكسرت شوكة الفنش بهلاكهم إذ كان اعتماده ومعوله عليهم ، وأسرعت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين المنصور فأعلموه بأن الله تعالى قد كسر شوكة العدو وأشرف على الانهزام فعندها أمر المنصور بالرايات فرفعت ، وبالطبول فقرعت ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير ، وتسابقوا لقتال العدو ، وخفقت البنود ، وزحف أمير المؤمنين نحو

المعركة ، فلم يرع الفنش إلا الرايات قد أقبلت تخفق من كل جهة ، وزعقات الطبول ، وأصوات المجاهدين بالتكبير حتى صارت الأرض كأنها تتزلزل بذلك، فقال الفنش ماهذا ؟ فقيل هذا المنصور قد أقبل فى جيشه وما قاتلك سائر اليوم إلا طلائعه ومقدماته ، فقذف الله الرعب فى قلبه ، وخشعت نفوس جموعه ، وزلزلت بهم الأرض زلزالها ، فولوا الأدبار لايلوون على شيء ، وأسعدهم يومئذ من وجد فى فرسه بقية تنجيه واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وأحاط بعضهم بحصن الارك يظنون أن الفنش قدتحصن به ، وكان قد دخل على باب وخرج على آخر من الناحية الأخرى ، واقتحم المسلمون الحصن عنوة ، وأضرموا النيران فى أبوابه واحتووا على جميع ما كان فيه ، وفى محلة الفنش من الأموال والذخائر وأنواع السلاح التى تفوت الحصر ، وكان عدد من قتل من الافرنج أزيد من مائة ألف ، وغنم المسلمون منها شيئا كثيرا ، فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا ، ومن الخيل ثمانون ألفا ، ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير أربعمائة ألف جاءوا بها لحمل أثقالهم لأنهم لاإبل لهم ، وأما الجواهر والأموال فلا تحصى ، وبيع الأسير بدرهم ، والسيف بنصف درهم ، والفرس بخمسة دراهم ، وقسم المنصور الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ، واستشهد من المسلمين نحو العشرين ألفا ، ثم تقدم المنصور بجيوشه إلى بلاد الافرنج ، وأخذ يخرب المدن والقرى ، ويفتح الحصون والمعاقل ، ويقتل ويسبي ويأسر حتى وصل إلى جبل سليمان ، ثم ثنى عنانه راجعا ، وقد امتلأت أيدى المسلمين من الغنائم ، ولم يعارضه من الافرنج معارض ، وكم له من مثل هذه الغزوة انظر كتابنا « المشرب العذب »

﴿ لطيفة ﴾ قال الشيخ محيي الدين بن العربى الحاتمى رحمه الله فى كتابه « الفتوحات المكية » مانصه : ولقد كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد عبرت إلى الأندلس لقتال العدو حين استفحل أمره على الاسلام ، فلقيت رجلا من رجال العدو لاأزكى على الله أحدا ، وكان من أخص أودائى ، فسألنى ماتقول فى هذا الجيش هل يفتح له وينصر فى هذه السنة أم لا ؟ فقلت له ماعندك فى ذلك ، فقال إن الله تعالى قد ذكره فى كتابه ووعد نبيه ﷺ بهذا الفتح فى هذه السنة ، وبشر نبيه ﷺ بذلك فى كتابه الذى أنزله عليه وهو قوله ـ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ـ فموضع البشرى فتحا مبينا من غير تكرار الألف فانها لاطلاق الوفوق فى تمام الآية ، فانظر أعدادها بحسب الجمل . قال ابن العربى فنظرت فوجدت الفتح يكون فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، ثم جزت إلى الأندلس وقد نصر الله جيش المسلمين ، وفتح الله قلعة رباح والأركو وكركرا وما انضاف إلى هذه القلاع من الولايات . هذا عاينته من الفتح الالهى لهذا الشخص اه .

ذكر ماشيده المنصور رحمه الله من الآثار بالمغرب والأندلس

كان يعقوب المنصور رحمه الله لما عزم على المسير إلى الأندلس بقصد الجهاد . أوصى إلى نوابه وكلائه ببناء قصبة مراكش والاعتناء بتشييد قصورها فمن آثاره الباقية بها إلى الآن بابها المعروف بباب اكناو ولا مزيد على ضخامته وارتفاعه ، وأمرهم ببناء الجامع الأعظم بها المنسوب إليه إلى اليوم، وتشييد منارة الماثل به ومنار جامع الكتبيين المضروب به المثل فى الارتفاع وعظم الهيكل .

ولما

ولما اجتاز المنصور فى سفره هذا بأرض سلا أمر أيضا ببناء مدينة رباط الفتح فأسست سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، وأكمل سورها ، وركبت أبوابها ، وأمر ببناء المسجد الاعظم بطالعة سلا ومدرسته الجوفية منه ، وأمر ببناء جامع حسان ومناره الاعظم المضروب به المثل فى الصخامة وحسن الصنعة ولم يتم بناؤه ، ولما فرغ المنصور من وقعة الارك ، واحتل مدينة اشبيلية أخذ فى إتمام بناء جامعها الأعظم وتشييد مناره المشاكل للمنارين المتقدمين ، ويقال إنه ليس فى بلاد الاسلام منار أعظم منه ، ولما رجع إلى مراكش وجد كل ما أمر به من البناآت قد تم على أكمل حال وأحسنه مثل القصبة والقصور والجامع والصوامع ، وأنفق على ذلك كله من أخماس الغنائم ، وكان قد تغير على الوكلاء والصناع الذين تولوا بناء ذلك لأنه سعى إليه بأنهم احتجنوا الأموال وصنعوا للجامع سبعة أبواب على عدد أبواب جهنم ، فلما دخله المنصور وتطوّف به أعجبه ، فسأل عن عدد أبوابه ، فقيل إنها سبعة أبواب ، والثامن هو الذى يدخل منه أمير المؤمنين ، فقال المنصور عند ذلك : ✡ لا بأس بالغالى إذا قيل حسن ✡

واتخذ المنصور رحمه الله فى جامعه هذا لمصلاه به مقصورة عجيبة كانت قد وضعت على حركات هندسية ترتفع لخروجه وتنخفض لدخوله يعنى تنتصب إذا استقرّ المنصور ووزراؤه بمصلاه ، وتختفى إذا انفصلوا عنها ، ولما رجع المنصور من الأندلس إلى مراكش أخذ البيعة لولده أبى عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله ، فبايعه كافة الموحدين وسائر أهل الأمصار والأقطار ، فلما تمت البيعة للناصر المذكور ، وجلس فى محل الخلافة ، وجرت الأحكام والأوامر باسمه وعلى يديه فى حياة أبيه دخل المنصور قصره ، فلزمه إلى أن توفى به رحمه الله ورضى عنه ، وذلك فى الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ودفن بمجلس سكناه من مراكش ، وكذب العامة بموته ولوعا وتمسكا به ، فادّعوا أنه ساح فى الأرض وتجرد حتى انتهى إلى بلاد الشرق وهو مستخف لا يعرف ومات خاملا ، وما تزعمه عامة المغرب فى حمة أبى يعقوب التى بقرب مدينة فاس أنها منسوبة ليعقوب المنصور هذا ، وأنه رصد لها عفريتين يوقدان عليها النار إلى الابد ، وأن حرارة مائها بسبب ذلك الايقاد ، وأن الشفاء الذى يحصل للمستحمين بها إنما هو ببركة يعقوب المنصور كله باطل ، وإنما حرارة العين لخاصية أودعها الله فى أصلها ومنبعها ، وكذا الشفاء الحاصل بها إنما هو بخاصية فى ذلك الماء وهى وجود الكبريت ، والمعروف عند الاطباء أن التلطخ بالكبريت نافع لاصحاب الجرب عياذا بالله .

كان المنصور رحمه الله ذا رأى وحزم ودين وسياسة ، وهو واسطة عقد ملوك الموحدين الذى أضخم الدولة وشرفها ، وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وبهجة ، صنع الله عزّ وجل فى أيامه الامن بالمشرق والمغرب والاندلس ، فكانت الظعينة أى المرأة التى تكون فى الهودج تخرج من بلاد نول فتنتهى إلى برقة وحدها لا ترى من يتعرض لها ، ولا من يسومها بسوء ، ضبط الثغور ، وحصن البلاد ، وبنى المساجد والمدارس فى بلاد افريقية والمغرب والأندلس ، وبنى المارستانات للمرضى والمجانين ، وأجرى عليهم الانفاق فى جميع أعماله ، وأجرى المرتبات على الفقهاء وطلبة العلم كل على قدر مرتبته ، وبنى الصوامع والقناطر ، وحفر الآبار للماء فى البرية . واتخذ

عليها المنازل من الموس الأقصى إلى سويقة بن مصكوك فكانت أيامه زينة للدهر، وشرفاللاسلام وأهله ، وكان من أصدق الناس لهجة ، وأحسنهم حديثا ، وأكثرهم اصابة بالظن مجرّبا للأمور ولى وزارة أبيه فبحث عن الأحوال بحثا شافيا وطالع مقاصدالعمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور ، فلما مات أبوه اجتمع رأى أشياخ الموحدين على تقديمه ، فقام بالأمر أحسن قيام ، ورفع راية الجهاد ،ونصب ميزان العدل ، و بسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ، ونظر فى أمور الدين والورع ، وأقام الحدود حتى فى أهله وعشيرته الاقربين كما أقامها فى سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال فى أيامه ، وعظمت الفتوحات ، وكان ملكا جوادا عادلا متمسكا بالشرع المطهر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغى من غير محاباة ، ويصلى بالناس الصلوات الخمس ويلبس الصوف ، ويقف للمرأة والضعيف ، ويأخذ لهم بالحقّ ، وكان رحمه الله يشدد فى إلزام الرعية باقامة الصلوات الخمس ، وقتل فى بعض الأحيان على شرب الخمر ، وقتل العمال الذين تشكوهم الرعايا ، وأمر برفض فروع الفقه وإحراق كتب المذاهب ، وان الفقهاء لايفتون إلامن الكتاب والسنة النبوية ، ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين بل تكون أحكامهم بما يؤدّى إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والاجماع والقياس ، فجزاه الله عن هذا الصنيع خيرا .

وكان يعاقب على ترك الصلوات ويأمر بالنداء فى الأسواق بالمبادرة إليها ، فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزره تعزيرا بليغا ، وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته حتى إنه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو فى طاعته وداخل فى ولايته إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس ، وكان محسنا محبا للعلماء مقرّبا للأدباء مصغيا إلى المدح مثيبا عليه ، وكان ممن يضرب به المثل فى حسن التوقيع وإجادته ، وقد تقدّم لنا ماوقع به على كتاب الفنش .

ومن ذلك أيضا أنه طلب يوما من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولد ، وضبط أمر، فعرّفه برجلين . قال فى أحدهما وهو بحر فى علمه ، وقال فى الآخر وهو برّ فى دينه ، ولما خرج المنصور أحضرهما واختبرهما فقصرا بين يديه وأكذبا الدعوى ،فوقع المنصور على رقعة القاضى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ ظهر الفساد فى البرّ والبحر ـ قال ابن الخطيب وهذا من التوقيع العريق فى الاجادة والصنعة ، وكان مجلس المنصور رحمه الله مجلس الفضلاء والأدباء وأرباب المعارف والفنون .

ويحكى أن الرئيس الفقيه الوزير أبا بكر بن زهر ، وكان من أعيان وزراء المنصور أنشأ أبياتا بمراكش يتشوّق إلى ولد له صغير تركه باشبيلية وهى :

ولى واحد مثل فرخ القطا ✲ ة صغير تخلف قلبى لديه
نأت عنه دارى فياوحشتى ✲ لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوّقنى وتشوّقته ✲ فيبكى علىّ وأبكى عليه
لقد تعب الشوق مابيننا ✲ فمنه إلىّ ومنى إليه

فلما بلغ خبرها يعقوب المنصور رحمه الله أرسل المهندسين إلى اشبيلية من غير علم من ابن زهر

وأمرهم أن يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته ، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش ، ففعلوا ما أمرهم به فى أقرب مدة وفرشها بمثل فرشه وجعل فيها مثل آلته ، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع فرآه أشبه شىء ببيوته وحارته ، فاحتار لذلك وظنّ أنه نائم وأن ذلك أحلام ، فقيل له ادخل البيت الذى يشبه بيتك ، فدخله فاذا ولده الذى يتشوّق إليه يلعب فى البيت فحصل له من السرور مالا مزيد عليه ولا يعبر عنه : هكذا وإلا فلالا .

مشاهير ملوك بنى مرين

يعقوب بن عبد الحق المرينى الملقب بالمنصور بالله

هو سيد بنى مرين على الاطلاق ، وستسمع من أخباره الحسنة مايستغرب معه الوصف ، ويستوقف السمع والطرف ، وهو رابع الاخوة الذين ولوا الأمر بالمغرب من بنى عبد الحق ، وكانت أمه وهى بكر رأت كأنّ القمر خرج من قبلها حتى صعد إلى السماء وأشرق نوره على الأرض ، فقصت رؤياها على أبيها ، فسار إلى بعض صلاح وقته فقصها عليه ، فقال إن صدقت رؤياها فستلد ملكا عظيما ، فكان كذلك .

بويع له سنة ست وخمسين وستمائة ، وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من يد الاسبنيول ، ثم اشتغل بقتال الخارجين عليه من عشيرته وغيرهم ، ولما تمّ له أمر المغرب وجه عزمه إلى افتتاح سجلماسة وانتزاعها من أيدى بنى عبد الواد المتغلبين عليها ، فنهض إليها فى رجب سنة اثنتين وسبعين وستمائة فى جموع بنى مرين وقبائل المغرب من العرب والبربر ونازلها ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وغير ذلك . قال ابن خلدون ونصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة تردّ الأفعال إلى قدرة بارئها . قال الناصرى وفيه فائدة أن البارود كان موجودا فى ذلك التاريخ ، وأن الناس كانوا يقاتلون به ويستعملونه فى محاصراتهم وحروبهم يومئذ ، وأقام السلطان يعقوب على حصار سجلماسة حولا كاملا ، وكان سفهاؤها يصعدون فوق الأسوار ويعلنون بالسبّ والفحش إلى أن هتك المنجنيق ذات يوم بعضا من سورها ، فدخلت من هنالك عنوة بالسيف ، وعاث الجند فى أهلها فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية ، وكان فتحها آخر صفر سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، وكمل بفتحها للسلطان يعقوب فتح بلاد المغرب وتمت طاعته فى أقطاره ، فلم يبق أهل حصن يدينون بغير دعوته ، ولا جماعة تتحيز إلى غير فيئه .

أخباره فى الجهاد

وذلك أنه لما اتصل الخبر بالسلطان يعقوب أن العدوّ قد أخذ فى الاستعداد وعزم على الخروج إلى بلاد المسلمين بعدما استولى على جلّ مدن الأندلس الشهيرة مثل قرطبة واشبيلية وغيرهما بكثرة عزم على الغزو بنفسه ، ثم استنفر الكافة ، واحتشد القبائل والجموع ودعا المسلمين إلى جهاد

عدوّهم وخاطب فى ذلك سائر أهل المغرب ، فوفدت عليه من كل جهة ، وشرع فى عبور البحر فأجازهم من فرضة قصر المجاز فى صفر سنة أربع وسبعين وستمائة ، واحتل بساحل طريف ، فملأت كتائبه ساحة الأرض مابينها وبين الجزيرة الخضراء ، ثم نهض إلى العدوّ قبل أن يسبق إليهم الخبر ، فدخل دار الحرب وانتهى إلى الوادى الكبير ، فعقد هنالك لولده الأمير يوسف على خمسة آلاف من عسكره قدّمها بين يديه ثم تبعه على أثره وسرح كتائبه فى البسائط وخلال المعاقل تنسف الزرع وتحطم الغروس وتخرب العمران وتنتهب الأموال وتقتل المقاتلة وتسبى النساء والذرية حتى انتهى إلى حصن المدور ، واقتحم حصن بلمة عنوة ، وأتى على سائر الحصون فى طريقه ، فطمس معالمها واكتسح أموالها ، وقفل السلطان يعقوب رحمه الله والأرض تموج سبيا إلى أن عرّس بقرب دار الحرب ، وجاءه النذير باتباع العدوّ آثاره لاستنقاذ أسراه واسترجاع أمواله ، وأن زعيم الافرنج وعظيمهم نونه خرج فى طلبهم فى أمم النصرانية من المحتلم إلى الشيخ ، فقدّم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفا من الفرسان أمامها ، وسار يقتفيها من خلفها حتى إذا أطلعت رايات العدوّ من ورائهم كان الزحف ، ورتب المصاف وجرد السيف ، وذكر اسم الله وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها ، وتحرّكت هممها ، وأبلت فى طاعة ربها والذب عن دينها ، وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها فى مقاماتها ومواقفها ، فلم يكن إلا كلا ولا حتى هبت ريح النصر وظهر أمر الله وانكشفت جموع النصرانية وقتل الزعيم نونه ، وكان هذا زعيم النصرانية بالأندلس قد قدّمه الفنش على جيوشه واستعمله على حروبه وفوض له فى جميع أموره ، وكان النصارى قد سعدوا بطائره وتيمنوا بنقيبته لأنه لم تهزم له قط راية ، وكان وبالا على بلاد الاسلام كثير الغارات عليها حتى جمع الله بينه وبين السلطان يعقوب فأراحه من تعب الحرب وكدّ الغارات وألحقه بما استحقه ، ومنح المسلمين رقاب الفرنج ، واستحرّ فيهم القتل حتى بلغت قتلاهم عددا كثيرا من الألوف ، واستشهد من المسلمين مايناهز الثلاثين ألفا وبدا للعدوّ إما لم يكن يحتسبه بمحاماة هذه العصبة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة ، وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه إلى جزيرة خضراء منتصف ربيع من السنة المذكورة فقسم فى المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوّهم وسباياهم بعد الاستئثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه فى مصارفه ، ويقال كان مبلغ الغنائم فى هذه الغزاة مائة ألف من البقر ، وأربعة وعشرين ألفا من السبى ، ومن الأسارى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثين ، ومن الكراع أربعة عشر ألفا وستمائة ، وأما الغنم فاتسعت عن الحصر كثرة ، وأقام السلطان يعقوب بالجزيرة أياما ، ثم نهض فى جمادى الأولى من السنة المذكورة غازيا اشبيلية فجاس خلالها ، وتقرّى نواحيها وأقطارها ، وأثخن بالقتل والنهب فى جهاتها ، وعاث فى عمرانها ، وأوغل فى مسيره حتى وقف على بابها ، وزعقت طبوله فى جوّها وخفقت ألويته على جنباتها ، ولجأت الافرنج إلى الأسوار ، واعتمدوا على الحصار ، ولم يخرج إليه منهم أحد ، ثم ارتحل إلى شريش فأذاقها من وبال العيث والاكتساح مثل ذلك أو أكثر ، ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته ودخل فصل الشتاء ، فنظر السلطان يعقوب فى اختطاط مدينة بفرضة المجاز لنزول عسكره لما يلحق الرّعية من ضرر العسكر فأمر ببنائها ثم أجاز البحر إلى المغرب فى رجب

من

من سنة أربع وسبعين وستمائة ، واحتل بقصر مصمودة ، وأمر ببناء السور على بادس ، ثم رحل إلى فاس فدخلها فى النصف من شعبان من السنة المذكورة ، ورأى أن يختط بلدا ينسب إليه ويتميز بسكناه ، وينزل فيه بحاشيته وأوليائه الحاملين لسرير ملكه ، فأمر ببناء المدينة البيضاء ملاصقة لمدينة فاس على ضفة واديها المخترق لها من جهة أعلاه ، وشرع فى تأسيسها ثالث شوال من سنة أربع وسبعين وستمائة ، وركب السلطان بنفسه فوقف عليها حتى خطت مساحتها ، وأسست جدرانها ، وجمع الأيدى عليها وحشر الصناع والعملة لبنائها ، وأحضر لها أهل النجامة والمعدلين لحركات الكواكب فاختاروا لها من الطالع ما يرضون أثره ، ويحمدون سيره ، وأسست فيه ، وكان فى أولئك المعدلين إمامان شهيران أبو الحسن بن القطان ، وأبو عبد الله بن الحباك المقدمان فى الصناعة فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم رحمه الله وكما رضى ونزلها بحاشيته وذويه سنة أربع وسبعين المذكورة واختط الناس بها الدور والمنازل ، وأجريت فيها المياه إلى القصور ، وكانت من أعظم آثار هذا الدولة وابقائها على الأيام . قال ابن أبى زرع ومن سعادة طالعها أنه لا يموت فيها خليفة ولم يخرج منها لواء قط إلا كان منصورا ، ولا جيش إلا كان ظافرا ، ثم أمر رحمه الله ببناء قصبة مكناسة فشرع فى بنائها وبناء جامعها فى السنة المذكورة ، ولما كانت سنة ست وسبعين وستمائة خاطب السلطان قبائل المغرب كافة بالنفير إلى الجهاد ، ثم تقدم فى حاشيته حتى انتهى إلى قصر المجاز وقد تلاحق به الناس من كل جهة فاجاز بهم البحر واحتل بطريق آخر المحرم من السنة المذكورة ثم ارتحل إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى زندة ، ثم ارتحل منها حتى انتهى إلى اشبيلية فعرس عليها يوم المولد النبوى ، وكان بها يومئذ ملك الجلالقة ابن الادفونش فلم يجد بدا من الخروج إليه بعد أن تأخر عن اللقاء أولا ، فبرز فى جوعه وصفها على ضفة الوادى الكبير من ناحية السلطان وأظهر من أبهة الحرب ما قدر عليه ، فكانت جيوشه كلها فى الدروع السوابغ ، والبيض اللوامع ، والسيوف البواتر ، وغير ذلك من آلات الحرب التى يكاد شعاعها يدهش البصر ، وزحف إليه السلطان يعقوب رحمه الله بعد أن صلى ركعتين ، ودعا الله تعالى ووعظ الناس وذكرهم ، فرتب مصافه ، وجعل ولده الأمير يوسف فى المقدمة ، وزحف على التعبئة فاقتتلوا مليا ، ثم انهزمت الافرنج ، فتساقط بعضهم فى الوادى وانحدر آخرون مع ضفته وتصاعد آخرون كذلك ، واقتحم المسلمون عليهم وسط الماء ، وقتلوهم فى لجته حتى صار الماء أحمر ، وبات السلطان والمسلمون تلك الليلة على ظهور خيولهم يقتلون ويأسرون ، وأضرموا النيران بساحة اشبيلية حتى صار الليل نهارا ، وبات الافرنج على الأسوار ينفخون فى القرون ويحترسون طول ليلتهم ، ثم ارتحل السلطان من الغد إلى جبل الشرف ، وبث السرايا فى نواحيه ، فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها ، وطمس معالمها ، وتوجه لعدة حصون ففتحها عنوة ، وأثخن فى القتل والسبى ، ثم ارتحل بالغنائم والأثقال إلى الجزيرة الخضراء ، فدخلها فى الثامن والعشرين من ربيع الأول المذكور ، فأراح بها وقسم الغنائم فى المجاهدين ، ثم خرج غازيا مدينة شريش منتصف ربيع الآخر فنازلها وأذاقها نكال الحرب ووبال الحصار ، وقطع سائر الأشجار ، وأباد خضراءها ، وحرق ديارها ، وأثخن فيها بالقتل والاسر ، وفعل مثل ذلك بعدة حصن بها ، وانكفأ راجعا بالغنائم والسبى إلى الجزيرة الخضراء ، فأراح بها أياما ، وقسم فى المجاهدين غنائمهم ، ثم جمع أشياخ القبائل وندبهم إلى غزو قرطبة ، وقال يا معشر

المجاهدين إن اشبيلية وشريش وأحوازهما قد ضعفت و بادت ، ولم يبق لكم بها كبير نفع ، ولا نكاية ، و إن قرطبة وأعمالها بلاد حصينة عامرة وعليها اعتماد الافرنج ، ومنها معاشهم ومادتهم فان غزوتموها واستأصلتم خضراءها مثل مافعلتم باشبيلية وشريش كان ذلك سبب ضعف النصرانيـة بهذا القطر فأجابوا بالسمع والطاعة فدعا لهم وفرق فيهم الأموال والخلع ، ثم نهض إليها فاتح جمادى الأولى من سنة ست وسبعين المذكورة ، فنزل حصن بنى بشير فدخله عنوة ، وقتلت المقاتلة ، وسبيت النساء ونقلت الأموال ، وهدم الحصن حتى لم يبق له أثر ، ثم بثّ السلطان رحمه الله السرايا والغارات فى البسائط فاكتسحها وامتلأت الأيدى وأثرى العسكر ، وفاض عليهم من الغنم والبقر والمعز والخيل والبغال والحمير والقمح والشعير والزيت والعسـل ما لايوصف ، ثم ساروا يتقرون المنازل والعمران فى طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة ، فنازلوها وخفقت ألوية السلطان فى نواحيها ، وزعقت طبوله فى فضائها ، وتقدم فى أبطاله وحماته حتى وقف على بابها ، ثم دار بأسوارها ينظر كيف الحيلة فى قتالها وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم فى نواحى قرطبة وقراها فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها وترددوا على جهاتها ، ودخلوا حصن الزهراء بالسيف ، وأقام السلطان على قرطبة ثلاثا ، ثم ارتحل عنها إلى حصن بركونة فدخله عنوة ، ثم أرجونة كذلك ، ثم قدم بعثا إلى مدينة جيان فقاسمها حظها من الخسف والدمار ، وتأخر الطاغية عن اللقاء ، وأيقن بخراب عمرانه ، وإتلاف بلاده ، فجنح إلى السلم وخطبه من السلطان يعقوب ورغب فيـه إليه ، وبعث الاقسة والرهبان للوساطة فى ذلك ، وقالوا نحن قد جئناك لنعقد معك صلحا مؤبدا لايعقبـه غدر ولا حرب ، وأقسموا له بصلبانهم إن لم يرضه الفنش لنخلعنه فأجابهم إلى ذلك وانعقد السلم فى آخر شهر رمضان من السنة المذكورة ، وقبل السلطان يعقوب من غزاته هذه ، وجعل طريقه على غرناطة ، ومنها إلى الجزيرة الخضراء ، ثم خرج منها لمالقة ، فدخلها سادس شوّال من السنة المذكورة ، ثم رجع للجزيرة الخضراء ، ثم أجاز منها إلى المغرب فاتح سنة سبع وسبعين وستمائة ، وقد اهتزت الدنيا لمقدمه وامتلأت القلوب سرورا بما هيأه الله له من نصر المسلمين ، وعلوّ راية الاسلام على كل راية .

ولما كانت سـنة إحدى وثمانين وستمائة قدم عليـه كتاب طاغية الاسبنيول مع وفد من بطارقته وزعماء دولته مستصرخا له على ابنه الخارج عليه فى طائفة من النصارى زاعمين بأنه شاخ وضعف عن تدبيرهم ، ولم يقدر على القيام بنصرتهم فاستنصره عليهم ودعاه لحربهم وأمّله لاسترجاع ملكه من يدهم ، فاغتنم السلطان يعقوب هـذه الفرصة فى الحال ، وجعل جوابه نفس النهوض والارتحال ، فسار معهم حتى أتى قصر المجاز وهو قصر مصمودة ، فعبر منه واحتلّ لوقته بالجزيرة الخضراء فى ربيع الثانى من السنة المذكورة ، وقد اجتمعت عليـه أهل الثغور بالأندلس والمغرب وسار حتى نزل صخرة عباد وهناك قدم عليه الطاغية ذليلا لعزة الاسـلام مؤملا صريخ السلطان فأكرم وفادته .

وذكر ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما من الاثبات أن هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده إعظاما لقدره وخضوعا لعزّه ، فدعا السلطان رحمه الله بماء ، فغسل يده من تلك القبلة بمحضر من كان هناك من جموع المسـلمين والافرنج ، ثم التمس الطاغيـة من السلطان أن

يمده بشىء من المال ليستعين به على حربه ونفقاته ، فأسلفه السلطان مائة ألف دينار من بيت مال المسلمين رهنه الطاغية فيها تاجه الموروث عن سلفه . قال ابن خلدون و بقى هـذا التاج بدار بنى يعقوب بن عبد الحق فخرا للأعقاب لهـذا العهد ، ثم إن السلطان يعقوب رحمه الله تقدم مع الطاغية ، ودخل دار الحرب غازيا حتى نازل قرطبـة ، وبها يومئذ ابن الطاغيـة الخارج عليه مع طائفته فقاتلها أياما ، ثم أفرج عنها وتنقل فى جهاتها ، و بعث سراياه إلى جيان فأفسدوا زروعها ، ثم ارتحل إلى طليطلة ، فعاث فى جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر ، فامتلأت أيدى المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التى استاقوها ، فقفل السلطان من أجل ذلك إلى الجزيرة ، فاحتل بها فى شعبان ، وأقام بها إلى آخر السنة المذكورة ، وكانت غزوة لم يسمح الدهر بمثلها .

ثم استأنف السلطان الغزو بنفسه إلى طليطلة ، فخرج من الجزيرة غازيا غرة ربيع الثانى من سنة اثنتين وثمانين وستمائة حتى انتهى إلى قرطبة فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون ثم قفل السلطان إلى المغرب فاتح شعبان ، فأراح بطنجة ثلاثا ، ثم نهض إلى فاس فدخلها آخر شعبان ، ثم ارتحل إلى مراكش ، فأقام برباط الفتح شهرين ، ثم نهض منها إلى مراكش ، فدخلها فاتح ثلاث وثمانين وستمائة ، انظر تمام غزواته العظيمة فى كتابنا « المشرب العذب * فى أخبار ملوك الغرب »

توفى رحمه الله ورضى عنـه بقصره من الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس فى ضحى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من المحرم فاتح سـنة خمس وثمانين وستمائة ، وحمل إلى رباط الفتح من بلاد العدوة ، فدفن بمسجد شالة ، وكان رحمه الله أبيض اللون تام القـد معتدل الجسم حسن الوجه ، واسع المنكبين ، كامل اللحية معتدلها ، أشيب ، نقى البياض ، حليما ، متواضعا ، جوادا مظفرا ، منصور الراية ، ميمون النقيبة ، لم يقصد جيشا إلا هزمه ، ولا عـدوا إلا قهره ، ولا بلدا إلا فتحه ، صوّاما قوّاما ، دائم الذكر ، لا تزال سبحته فى يده ، مقربا للعلماء ، مكرما للصلحاء ، صادرا فى أكثر أموره عن رأيهم .

ولما استقام له الأمر بنى المارستانات للمرضى والمجانين ، ورتب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال ، وكذا فعل بالجذمى والعمى والفقراء رتب لهم مالا معلوما يقبضونه فى شهر من جزية اليهود ، و بنى المدارس لطلبـة العلم ، ووقف عليها الأوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات . كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى نفعه الله بقصده .

أبو الحسن على بن عثمان المرينى

هذا السلطان من أفخم ملوك بنى مرين ، وأضخمها ملكا ، وأبعدها صيتا ، وأعظمها أبهة ، وأكثرها آثارا بالمغربين والأندلس ، و يعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لأن أمه كانت حبشية فكان أسمر اللون * بويع له سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ، ولما استقام له ملك المغرب ، ونصر الله جنده على الطاغيـة بالأندلس تفرغ لشأن تلمسان والانتقام من صاحبها أبى تاشفين ، فتوجه

إليه فى جيوش كثيفة إلى أن خيم بجواره ، فاختط بغربى تلمسان البلد الجديد لسكناه ، ونزول عسكره ، وأحيا معالم المنصورة التى كان اختطها عمه يوسف بن يعقوب ، وخربها بنو زيان من بعده . فأدار عليها سياجا من السور ، ونطاقا من الخندق ، ونصب المجانيق وآلات من وراء خندقه ، وجعلت رماته تنضح رماة العدو بالنبل وينقلونهم بأنفسهم حتى شيد برجا يقرب منهم وترتفع شرفاته فوق خندقهم ، ورتب المجانيق لرجها ، وأحكم عملها لدكها ، واتصل الحصار مدة من ثلاث سنين حتى إذا كان السابع والعشرون من رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة اقتحم السلطان أبو الحسن مدينة تلمسان عنوة ، واشتمل على مافيها من نفيس الحلى وثمين الذخيرة وفاخر المتاع، وخطير العدة ، وبديع الآلة ، وصامت المال، وضروب الرقيق ، وصنوف الأثاث والماعون ورفع القتل عن بنى عبد الواد أعدائه ، وشفا نفسه بقتل سلطانهم وعفا عنهم وأثبتهم فى الديوان ، وفرض لهم العطاء ، واندرجوا فى جلته ، واتسع نطاق مملكته ، وأصبح أبو الحسن ملك بنى عبد الواد وسائر زناتة بعد أن كان ملك بنى مرين وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب فقط - وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين -

قلت وقد أذكرتنى هذه القضية الأخيرة لتلمسان ما صنعه بها أولا السلطان الناصر لدين الله يوسف بن يعقوب المرينى ، وذلك أنه لما وقع بينه وبين صاحب تلمسان السلطان عثمان بن يغمراس ما أوجب العداوة بينهما عزم يوسف على غزو تلمسان ، ونهض إليها من مراكش فى صفر سنة تسع وثمانين وستمائة فى عساكر عديدة ، وقبائل متعددة ، وسار حتى نازل تلمسان فتحصن منه عثمان وقومه بأسوارها فحاصره السلطان يوسف وضيق عليه ، ونصب عليه المجانيق ، ثم أفرج عنها وسار فى نواحيها ينسف الآثار ، ويخرب القرى ، ويحطم الزروع ، ثم انكفأ راجعا لما وافاه الخبر بأن الطاغية سانجة قد نقض العهود وأغار على الثغور . فنهض إليه السلطان يوسف بن يعقوب إلى أن دخل دار الحرب غازيا ، وضيق عليه ، وبث السرايا فى أرض العدو إلى أن بلغ فى النكاية والاثخان غرضه ، وقضى من الجهاد وطره ، وهجم عليه فصل الشتاء فانكفأ راجعا إلى المغرب وذلك سنة إحدى وتسعين وستمائة ، ولما كان نازلا على تازوطا . قدم عليه رجل من جنوة بهدية جليلة فيها شجرة مموهة بالذهب عليها أطيار تصوت بحركات هندسية ، وفى سنة سبع وتسعين وستمائة خرج غازيا تلمسان فنزل بساحتها ، وأحاطت عساكره بها احاطة الهالة بالقمر ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل اخترعها المهندسون والصناع ، وكانت تحمل على أحد عشر بغلا ، ولما امتنعت عليه أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة ، ورجع للمغرب ثم نهض إليها ثالثا فى شهر رجب من السنة المذكورة ، وأحاط بجميع جهاتها ، وتحصن ابن يغمراس وقومه بالجدران ، وعوّلوا على الحصار ، ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار عليها سورا عظيما وما اتصل بها من العمران ، وصيرها فى وسطه ثم أردف ذلك السور بحفير بعيد المهوى ، وفتح فيه مداخل لحربها ، ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرسه ، وأوعد بالعقاب من يختلف إلى تلمسان برفق أو يتسلل إليها بقوة ، وأخذ بمخنقها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص إليها الطير واستمر مقيما عليها كذلك مائة شهر ، ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة اختط إلى جانب ذلك

السور

السور بمكان فسطاطه وقبابه قصرا لسكناه، واتخذ به مسجدا لصلاته، وأدار عليهاسورا يحرزهما ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة، والمنازل الرحيبة، والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين، وأجروا المياه، وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والمرستانات، وابتنى مسجدا جامعا، وشيد له منارا رفيعا، وجعل على رأسه تفافيح من ذهب صير عليها سبعمائة دينار، ثم أدار السور على ذلك كله. فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها، ونفقت أسواقها، ورحل إليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق وسماها المنصورة فكانت من أعظم أمصار المغرب، ثم ان أهل تلمسان نالهم فيها من الجهد والشدة مالم ينل أمة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران حتى إنهم أكلوا فيها أدوات الموتى من الناس، وخربوا السقوف للوقود، وغلت أسعار الأقوات والحبوب بما تجاوز حد العادة فكان ثمن الفأرة عشرة دراهم، والحية بمثل ذلك والرطل من الهر والكلب بمثقال ونصف، واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم وهلكت حاميتهم، فاعتزموا على الالقاء باليد والخروج للاستماتة، فهيأ الله لهم الصنع الغريب، ونفس عن مخنقهم بهلاك السلطان يوسف على يد خصى من مواليه وأذهب الله العناء عنهم، وخرجوا كأنما نشروا من القبور، وكتبوا بعد هذه الحادثة فى سكتهم ما أقرب فرج الله. استغرابا لها، ولما قضى أبوالحسن المرينى من أمر تلمسان ماقضى، واستولى على المغربين كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف، وصنع لها وعاء مؤلفا من الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة، وغشى بصفائح الذهب، ورصع بالجوهر والياقوت، واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب، ومن فوقها غلائق الحرير والديباج، وأخرج من خزائنه أموالا عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء فيها، وأرسل صحبتها هدية لصاحب مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومن جملتها أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن وعددها ثمانمائة وخمسة وعشرون، ومن الزمرد مائة وثمانية وعشرون، ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرون، ومن الجوهر النفيس الملوكى ثلثمائة وأربعة وستون، ومن أوجه اللحف المذهبة عشرون، وفرش جلد مخزوز بالذهب اثنا عشر، وحنابل مائة كلها حرير، ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجوهر عشرة، ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك، وشياشة ذهب مكللة بالجوهر، وعشر رايات مذهبة، وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة لها أربعة أبواب، وقبة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة وهى من حرير أبيض ومرابطها حرير ملون وعهودها عاج وأبنوس، وأكبارها من فضة مذهبة، وخمسمائة من عتاق الخيل بسروج الذهب والفضة، ولجامها خالص ومغشى ومموه، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وماعونه، ومن نسج الصوف المحكم ثيابا وأكسية وبرانس وعمائم، وأزرا معلمة وغير معلمة، ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملونا وغير ملون وساذجا ومنمقا، ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الدبغ إلى غير ذلك مما يبهر العقول ✡ توفى السلطان أبو الحسن هذا رحمه الله فى الثالث والعشرين من ربيع الثانى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، ودفن بمراكش قبلى جامع المنصور من القصبة بالموضع الذى به اليوم قبور الملوك السعديين، ثم نقل بعد ذلك إلى شالة فدفن بها.

وله رحمه الله بمراكش وفاس ومكناس وغيرها من بلاد المغرب آثار كثيرة . منها بمراكش المدرسة العظمى قبلي جامع ابن يوسف ، ومنها المدرسة العظمى بطالعة سلا قبلي المسجد الأعظم منها وغير ذلك بكثرة .

مشاهير ملوك السعديين

أبو العباس أحمد المنصور بالله السعدى المعروف بالذهبي

كانت ولادته بفاس سنة ست وخمسين وتسعمائة و بويع له بوادى المخازن يوم الاثنين منسلخ جمادى الأولى سنة ست وثمانين وتسعمائة بعد الفراغ من قتال النصارى ثم لما قفل من غزوته تلك ودخل حضرة فاس يوم الخميس عاشر جمادى الأخيرة من السنة المذكورة جددت له البيعة بها وأذعن الكل لطاعته ، وكان قليل الأسفار ملازما لقصره بمراكش متفرغا لملذاته ، واستيفاء شهواته وكان له قصر من عود مسمر بمسامير ومخاطيف وحلق وصفائح مفضضة على هيئة عظيمة ، وقد أحدق بذلك كله سرادق كالسور من نسج الكتاب كأنه حديقة بستان وزخرفة بنيان ، وفى داخل القصر المذكور القباب الملونة بيضاء وسوداء وحمراء وخضراء كأنها أزاهير الرياض قد نقش ذلك أحسن النقش ، وملئ بأبهى الفرش وللسرادق الذى هو كالسور أبواب كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ، ثم ينتهى منها إلى القصر الذى فيه القباب ، وهذا القصر كأنه مدينة تنتقل بانتقاله ، وهو من الابهات الملوكية التى لم يوجد مثلها عند الملوك الماضين ، وكان المنصور على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظف على الرعية أموالا طائلة يلزمهم بأدائها ، وكان غير متوقف فى الدماء ولا هياب للوقيعة فيها ، وكان يتردد فى غزو السودان إلى أن كانت سنة سبع وتسعمائة وتسعين فقوى عزمه ، واشتغل بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج إليه الجيش من آلة السفر ومهماته ، وأمر القواد أن يقوموا حصص القبائل وما يحتاجون إليه من إبل وخيل و بغال ، ومن أتى بحمل ضعيف يعاقب ، واشتغل هو بتقويم آلة من المدافع والعجلات التى تحملها والبارود والرصاص والكور وتقويم الخشب واللوح والحديد للسفن والفلك والقلوع والبراميل والروايا لحمل الماء وألف النجارون ذلك فى البر إلى أن تألف ، ثم خلعوه وشدوه أحمالا ، واستمر الحال إلى أن استوفى المنصور أمر الغزو فى ثلاث سنين ، ثم أمر بإخراج المضارب والمبانى لوادى تانسيفت ، فخرجت الأحمال والأثقال من مراكش فى اليوم السادس عشر من ذى الحجة سنة ثمان وتسعين وتسعمائة ، ونزلت العساكر وضربت أبنيتها خيلا ورجلا وجملتها عشرون ألفا ، ومعهم من المعلمين البحرية والطبجية ألفان ، بالمجموع اثنان وعشرون ألفا ، وعقد على ذلك الجيش من يعلم نجدته و يعرف كفايته ، وتخير من الابل أحسنها ، ومن الخيل أعتقها ، ثم نهضوا فى زى عظيم ، وهيئة لم ير مثلها ، وذلك فى محرم فاتح سنة تسع وتسعين وتسعمائة ، ولما نهضوا من تانسيفت جعلوا طريقهم على ثنية الكلاوى ثم على درعة ، ودخلوا القفر والفيافى فقطعوها فى مائة مرحلة ، ولم يضع لهم عقال بعير ولا نقص منهم أحد ، فنزلوا على مدينة تنبكتو ثغر السودان فاراحوا بها أياما ، ثم صاروا قاصدين دار السلطان إسحاق سكينة ، ولما سمع بقدومهم احتشد أمم السودان وقبائلها وقبائل الملثمين ، وخرج من

مدينة كاغور بجر الشوك والمدر ، يقال إنه جمع مائة ألف مقاتل ، وأربعة آلاف مقاتل ، ولم يقنع بالجيوش التى جمعها حتى أضاف إليها أشياخ السحرة ، وأهل النفث فى العقد ، وأرباب العزائم والسيميا ظنا منه أن ذلك يغنيه شيئا ، وهيهات ، ولما تقارب الجمعان دارت بهم عساكر السودان من كل جهة ، وعقلوا أرجلهم مع الابل ، وصبروا من الضحى إلى العصر ، وكان سلاحهم الرماح والسيوف ، ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن رماحهم مع البارود شيئا ، ولما كان آخر النهار هبت ريح النصر وانهزم السودان فولوا الأدبار ، وحق عليهم الدمار ، وفر ملكهم إسحاق فى شرذمة من قومه ، ولم يدخل قلعة ملكه فدخلتها العساكر المنصورة ، وتتبعوا أثر إسحاق إلى أن دخل القفر فهلك فيه ، ولما فتح الله عليه ممالك البلاد السودانية حمل إليه من التبر مايعيي الحاسبين ويحير الناظرين ، يروى أن ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة لضرب الدينار الوافى دون ماهو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلى وشبه ذلك ، ولأجل هـذا لقب بالذهبي لفيضان الذهب فى أيامه ، وكانت كلمته نافذة فيما بين بلاد النوبة إلى البحر المحيط من ناحية المغرب ، وهـذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله ، والله يؤتى ملكه من يشاء .

وفى سنة إحدى وألف أتى بالفيلة من بلاد السودان إلى المنصور ، وكان يوم دخولها بمراكش يوما مشهودا ، برز لرؤيتها كل من بالمدينة من رجال ونساء وشيوخ وصبيان ، ثم حملت إلى فاس فى رمضان سنة سبع وألف ، وكان دخول الفيل إلى فاس يوم الاثنين سادس عشر رمضان من السنة المذكورة ، وخرج أهل فاس فى ذلك اليوم للقاء الفيل بنحو مائة ألف نفس ، وبسبب دخول هذه الفيلة إلى المغرب ظهرت هـذه العشبة الخبيثة المسماة بتابغ لأن أهل السودان الذين قدموا بالفيلة يسوسونها قدموا بها معهم يشربونها ويزعمون أن فيها منافع ، فشاعت منهم فى بلاد درعة ومراكش وغيرها من بقاع المغرب ، وتعارضت فيها فتاوى العلماء رضوان الله عليهم ، فمن قائل بالتحريم ، ومن قائل بالتحليل ، ومتوقف ، والعلم عند الله فيها سبحانه . لكن من تأمل أدنى تأمل فى قواعد الشريعة وآدابها علم يقينا أن تناول هـذه العشبة حرام لأنها من الخبائث وأنت لاتجد أخبث ولا أقذر من رائحة أفواه شربة الدخان ولا أنتن ولا أعفن من نكهات المستفين لغبار تابغ ، وهذا النتن من أقبح العيوب فى نظر الشرع حتى إنه جعل الخيار لأحد الزوجين إذا كان صاحبه أبخر ، فاذن لانشك أن استعمال هذه العشبة الخبيثة فى الفم أو الانف من أعظم المحظورات لأنها تصدم غرضا كبيرا من أغراض الشرع وتضاده وتنفيه ، ولو كان نتنها يعلق بعضو من الأعضاء غير الوجه لكان هينا لكنه يعلق بالفم والأنف اللذين وضعهما الحكيم العليم فى وسط الوجه الذى هو أشرف الأعضاء ، فأى مضمضة وأى استنشاق ، وأى سواك يزيل ذلك النتن الذى يرسخ فى أنفاس أهلها وأفواههم وخياشيمهم رسوخا لايماثله شيء ؟ ولقد أفصح العامة عن شدة نتن هذه العشبة ، وصادفوا الصواب حيث قالوا إن فضلة الدخان المسماة عندهم بالقير تنجس النجاسة ، هـذا إلى ما يتبع ذلك من المفاسد المتعددة من تغيير عقل متعاطيها حتى إنه إذا انقطعت عنه صار كالمجنون لايبالى بما صدر منه ، ومن دخول الشك فى صيامه لأن بقايا ذلك الدخان أو ذلك الغبار قد تمكث فى حلقه إلى طلوع الفجر وما بعده ، لأن جلهم إذا قرب الفجر والوا استعماله حتى يكون هو خاتمة

سحورهم ، وبالجملة فلا يستعمل ذلك إلا من لاخلاق له ، ولا يكترث بمروءة ولا دين، وهو قادح فى الشهادة والامامة أفاده الناصر رحمه الله .

ومن عجائب المنصور بالله السعدى هذا أنه كان لا يكلم أحدا الا من وراء حجاب الى أن وقعت له مجادلة مع الفقيه العلامة السودانى المعروف ببابا حسبما أشار لها الافرانى المراكشى فى نزهة الحادى ، ومحصلها أن السلطان المذكور وجه خليفته محمودا لبلاد السودان فى جيش عظيم فقبض على الامام المذكور أبى العباس أحمد بابا وعلى أهل بيته ، فحملوا مصفدين فى الحديد لمراكش ومعهم حريمهم ونهبت أموالهم وذخائرهم وكتبهم . قال فى بذل المناصحة سمعته يقول : أنا أقل عشيرتى كتبا نهبت لى ستة عشر مائة مجلد ، وكان القبض عليهم أواخر المحرم عام اثنين وألف ، ووصلوا لمراكش فى رمضان من العام بعده ، واستقروا مع عيالهم فى حكم الثقاف إلى وقت انصراف المحنة عنهم فسرحوا يوم الأحد الحادى والعشرين من رمضان عام أربعة وألف ، ففرحت بذلك قلوب المؤمنين، ولما أدخل أبو العباس المذكور بعد التسريح من السجن على المنصور وجده يكلم الناس من وراء حجاب و بينه و بينهم شملة مسدولة ، فقال له إن الله تبارك وتعالى يقول ـ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ـ وأنت قد تشبهت برب الأرباب ، فان كانت لك حاجة فى الكلام فانزل إلينا وارفع عنا الحجاب ،فنزل المنصور ورفع الأستار ، فقال له أبو العباس أى حاجة لك فى نهب متاعى ، وضياع كتبى ، وتصفيدى من تنبكت إلى هنا حتى سقطت من فوق ظهر الجمل واندقت ساقى ، فقال له المنصور أردنا كى تجتمع الكلمة وأنتم فى بلادكم من أعيانها ، فان أذعنتم أذعن غيركم ، فقال له أبو العباس هلا جمعت الكلمة بترك تلمسان وما يليها من البلدان فانهم أقرب إليك منا ، فقال له المنصور . قال النبى ﷺ « اتركوا الترك ما تركوكم » فامتثلنا الحديث ،فقال أبو العباس ذاك زمان ، و بعده قال ابن عباس : لا تتركوا الترك ولو تركوكم ، فسكت المنصور ولم يجد جوابا ، وانفض المجلس ، ولما سرح أبو العباس تصدى لنشر العلم وهرع الناس للأخذ عنه ، ولم يزل بمراكش إلى أن مات المنصور لأنه ما سرحهم من السجن حتى شرط عليهم سكنى مراكش ولما مات المنصور أذن لولده زيدان فى الرجوع إلى بلاده ، فرجع إليها وكان يتشوق لرؤيتها ويسكب العبرات عند ذكرها ، ولم ييأس من روح الله فى العود إليها اه .

ومما يعد من باب المفاكهة أن السلطان المنصور سافر إلى تارودانت ومعه جماعة من الأعيان كالفقيه القاضى أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى الفاسى وأبى العباس المنجور وغيرهما ، فخيم المنصور بباب تارودانت ، وضرب الناس أخبيتهم فمر رجل عليه أطمار بالية وهيئة رثة ، ويقال إن هذا الرجل هو أبو عثمان الهلالى الروداني ، فوطئ على طنب من أطناب خباء القاضى الحميدى ، فصاح القاضى من هذه البقرة التى قوضت على خيمتى متهكما بالرجل ؟ فألقى إليه الرجل قرطاسا فيه أبيات ، وقال البقرة من لايجيب عن هذه ، ونص الأبيات :

إلى بابك العالى مسائل ترتقى ✲ تفطن لهن يا حميدى واصدق
فما الحكم فى الأوزاغ هل ساغ أكلها ✲ وما الحكم فى موتى المجانين فانطق
وهل جاز للمسبوق بعد تشهد ✲ دعاء إذا مارام إكمال ما بقى

وما

وما وزن ليس يا أديب وأصله * وما جمع قـــلة لصاع تحقق
وما وزن شمر ولائن وائتنا * بجمع سواء والمقيـــد الطلق
وبين لنا من فى أعوذ بربنا * من إبليس والتخمير فى الكل فائق

فبدا للحميدى مالم يكن يحتسب ، وتوقف عن الجواب ، فرفعت القضية إلى المنصور ، فاستفربها وقال هذا رجل من أهل البادية فضح قاضى قضاة الحواضر ، وأمر المنجور فأجاب عنها يقال بعد أربع سنين ، وبعد موت السائل * ونص الجواب :

جوابك فى الأولى إباحة أكلها * بمذهبنا فاجزم بذاك وصدق
كذا ابن حبيب فى الخشاش أباحه * لمحتاجه مثل العقارب فاسبق
وقد قيل فى الأوزاغ بحرم أكلها * وذلك فى الكافى ليوسف فائق
ومستقذر يحكى المخالف منعه * وأنكره التنبيـه فافهم ودقق
ورجح مايحكى المخالف بعض من * له العزو للتحقيق لا للتشدق
وميت بجنون جرى خلف حكمه * بعلم كلام لاتكن غـير متق
وتحقيقها أن الجنون الذى طرا * يصـير كموت فصل الحق يعبق
فآونة بعـــد البلوغ طروه * وحينا يرى قبل البلوغ فطبق
وآونة أثر الصـــلاح وقوعــه * وحينا بعصيان الكبيرة يلتق
وحينا بدوم للممات وتارة * يفيق فخذ حكم الجميع ووثق
ويندب للمسبوق دعوى تشهد * وفاق إمام فى المناجاة فارتق
وليس له فعل كقال وأصــله * بكسر لياء فاكسر العين ترتق
وجمعك صاعا فى القليل بأصوع * وأصوع بهمز الواو فانهج ونمق
وإن شئت فاقلبه فيرجع آصعا * لضابط تصريف فللعلم شــوق
وصاع كصام عينه فرع ضمة * وتحريكه فتح فزنه وحقق
وجمع سواء فالذى منـــه جامد * بأسوية عـــلم يقاس ففرق
ومشتقه وزن الخطايا قياســه * سواسية نقل فبالحق فانطق
ومقصـــد من فى العوذ بده لغاية * فابليس مبـدا العوذ عند الموفق

توفى السلطان المنصور رحمه الله ليلة الاثنين خامس عشر ربيع الأول سنة اثنتى عشرة وألف بفاس ثم نقل بعد دفنه فيها إلى مراكش ، فدفن بها فى قبور الأشراف السعديين قبلى جامع المنصور من القصبة وقبره هنالك شهير عليه بناء حفيل .

مشاهير ملوك العلويين

المولى إسماعيل بن الشريف

بويع لهسنة اثنتين وثمانين وألف ، وتوفى رحمه الله يوم السبت الثامن والعشرين من رجب سـنة تسع وثلاثين ومائة وألف ، وكان خليفة ونائبا عن أخيـه المولى الرشيد سبع سنين وسلطانا

وملكا مستقلا سبعا وخمسين سنة ، وهـذه المدّة التى استوفاها مولانا إسماعيل فى الملك والسلطان لم يستوفها أحد من خلفاء الاسلام وملوكه سوى المنتصر العبيدى صاحب مصر فانه أقام فى الخلافة ستين سـنة لكن لاسواء ، فان المولى إسماعيل رحمه الله استوفى مدّة الخلافة بثمرتها ، وظفر بكمال لذّتها لأنه وليها فى إبان اقتداره عليها بعد سنّ العشرين لا فى مدّة النيابة ، ولا فى مدّة الاستقلال ، ولم يكن عليه استبداد لأحد ، ولا نغص عليه فى دولته منغص سوى ما كان من ثورة ابن محرز وابنه المولى محمد ، ومن سلك سننهم من القرابة ، ولم يحصل منهم كبير ضرر للدولة، بخلاف المستنصر العبيدى فانه ولى وهو ابن سبع سنين ، فكان فى صدر دولته تحت الاستبداد ، وحدث فى أيامه الغلاء العظيم وهو غلاء لم يعهد مثله بمصر منذ زمان يوسف عليه السلام ، واستمرّ سبع سـنين حتى أكل الناس فيها بعضهم بعضا ، وبيع رغيف واحد بخمسـين دينارا ، وكان المستنصر فى هـذه الشدّة يركب وحده ، وكل من معه من الخوّاص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها ، وكانوا إذا مشوا يتساقطون فى الطرقات من الجوع إلى غير ذلك ، فلذا قلنا لا يستوى حال ملك المولى إسماعيل ، وملك المستنصر رحمهما الله ، وحسبك من ضخامة ملكه أنه استولى على بلاد المغرب كلها سهلها ووعرها ، واستولى على تخوم السودان ، وانتهى منها إلى ما وراء النيل وانتشرت دولته فى عمائرها ، وبلغ من ذلك مالم يبلغه المنصور السعدى ، وامتدّت مملكته فى جهة الشرق إلى بسكرة من بلاد الجريد ونواحى تلمسان مع كون أيامه أيام الأمن والعافية ، وتمام الضبط حتى لم يبق لأهل الفساد محل يأوون إليـه ، ويعتصمون به سائر أيامه ، وكان فى سـجونه من الأسارى خمسـة وعشرون ألفا ، كانوا يعملون فى بناء قصوره ، منهم الرخامون والنقاشون والنجارون والحدّادون والمنجمون والمهندسون والأطباء ، ولم تسمح نفسه قط بفداء أسـير ، وكان فى سجونه من أهل الجرائم كالقاتل والمحارب والسارق نحو الثلاثين ألفا تظلّ فى العمل مع أسرى الكفار ، ويبيتون فى السجون والأهراء تحت الأرض ، ومن مات منهم دفن فى البناء حتى لم يبق بالمغرب من أهل الفساد عرق ، وكان له من الولد على ما تواتر به الخبر خمسمائة ولد ذكر ، ومن البنات مثل ذلك أو قريب منه ، وقد اتخذ مكناسة الزيتون دار ملكه ، وكانت من الأمصار القديمة بأرض المغرب ، بناها البربر قبل الاسلام ، ولما جاءت دولة الموحدين حاصروا مكناسـة سبع سنين ، ثم افتتحوها عنوة أواسط المائة السادسـة وخربوها ، ثم بنوا مكناسـة الجديدة ، واعتنى بها بنو مرين من بعدهم فبنوا قصبتها ، وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا والربط ، وكانت يومئذ هى كرسى الوزارة كما أن حضرة فاس الجديدة هى كرسى الامارة ، واستمرّ السلطان المولى إسماعيل رحمه الله بمكناسـة قائما على بناء حضرتها بنفسـه ، وكلما أكمل قصرا أسس غيره ، ولما ضاق مسجد القصبة بالناس أسس الجامع الأخضر أعظم منه ، وجعل له بابين بابا إلى القصبة وبابا إلى المدينة ، وجعل لهـذه القصبة عشرين بابا عادية فى غاية السعة والارتفاع مقبوّة من أعلاها ، وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الاجرام ، والمهاريس الحربية الهائلة الأشكال ما يقضى منه العجب ، وجعل فى هـذه القصبة بركة عظيمة تسـير فيها الفلك والزوارق المتخذة للنزهة والانبساط ، وجعل بها هريا عظيما لاختزان الطعام من

قح وغيره مقبو القنانيط يسع زرع أهل المغرب وجعل بجواره سواقى للماء فى غاية العمق مقووا عليها ، وجعل فى أعلاها برجا عظيما مستدير الشكل لوضع المدافع الموجهة إلى كل جهة ، وجعل بها اصطبلا عظيما لربط خيله وبغاله مسيرة فرسخ فى مثله مسقف الجوانب بالبرشلة على أساطين وأقواس عظيمة فى كل قوس فرس مربوط ، وبين الفرس والفرس عشرون شبرا يقال إنه كان مربوطا بهذا الاصطبل اثنا عشر ألف فرس مع كل فرس سائس من المسلمين وخادم من أسرى النصارى يتولى خدمته ، وفى هـذا الاصطبل ساقية من الماء دائرة عليه مقبوة الظهر ، وأمام كل فرس منها ثقب كالمعدة لشربه ، وفى وسط هذا الاصطبل قباب معدة لوضع سروج الخيل على أشكال مختلفة ، وفيـه أيضا هرى عظيم مربع الشكل مقبو الاعلى على أساطين عظيمة وأقواس هائلة لوضع سلاح الفرسان أصحاب الخيل ، وينفذ إليه الضوء من شبابيك فى جوانبه الأربعـة كل شباك ينيف وزنه على قنطار من حديد ، وفوق هـذا الهرى من أعلاه قصر يقال له المنصور ولا يقصر ارتفاعه عن مائة ذراع خمسون فى الأسفل وخمسون فى الأعلى ، وفيه عشرون قبة فى كل قبة طاق عليه شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة من الجبل إلى الجبل ، وكل قبة مسقفة بالبرشلة والقرمود وغير ذلك ، ثم أربع قباب منها متقابلة سعة كل واحدة منها سبعون شبرا فى مثلها ، ويجاوز هـذا الاصطبل بستان على قدر طوله فيـه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب طوله فرسخ وعرضه ميلان إلى غير ذلك مما لا يحيط به الوصف. قال صاحب البستان وقد شاهدنا آثار الأقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك فى دولهم ولا شاهدناه فى آثارهم بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الاسلام لرجح بها ما بناه السلطان الاعظم المولى إسماعيل رحمه الله فى قلعة مكناسة دار ملكه ، وقد فتح رحمه الله عـدّة مدن من يد النصارى . منها المهدية فانه افتتحها عنوة بعـد أن حاصرها مدّة ، وكان فتحها يوم الخميس رابع عشر ربيع الثانى سـنة اثنتين وتسعين وألف ، ومنها العرائش ، وكان فتحها يوم الاربعاء الثامن عشر من المحرم سـنة إحدى ومائة وألف ، ووجد بها ما لا يحصى كثرة من البارود والعـدّة ، ومن المدافع نحو مائة وثمانين . منها اثنان وعشرون من النحاس والباقى من الحديد ، ومنها مدفع يسمى العصاب طوله خمسـة وثلاثون قدما بالحساب ، ووزن كرته خمسة وثلاثون رطلا بحيث حلق عليه بقرب خزانته أربعة رجال ، ومنها مدينة آصيلا وكانت فى يد الاسبنيول ، وكان فتحها سنة اثنتين ومائة وألف ، وفى سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف أمر رحمه الله بهدم قبـة ضريح مولانا إدريس الاكبر رضى الله عنه بزاوية زرهون وشراء الاصول المجاورة له من جهاته الاربع وهدمها وزيادتها فيه ، فهدمت القبة وجميع ماحولها ، وأعيدت على هيئة بديعة كما هى الآن ، وفى هذه السنة أيضا أمر بتجديد بناء مقام مولانا إدريس الازهر بانى فاس حيث ضريحه بها ، وأمر ببناء قبته التى هى عليه الآن بما اشتملت عليه من المحاسن التى يعزّ وجودها ، وأمر بتوسعة صحن المسجد على ماهو عليه اليوم من الهيئة التى لانظير لها بفاس إلى غير ذلك مما له من الآثار رحمه الله ورضى عنه .

السلطان سيدى محمد بن عبد الله العلوى

بويع له سنة إحدى وسبعين ومائة وألف ، وتوفى بقرب رباط الفتح فى محفته على نصف يوم

فى يوم الأحد رابع عشر رجب سنة أربع ومائتين وألف ، ودفن برباط الفتح ، وكان رحمه الله من عظماء الملوك ، وهو أول من غرس شجرة الملك العلوى بمراكش واتخذها كرسيا لهم وخلد آثارا كثيرة ، فمن ذلك بمراكش تجديد ضريح الشيخ أبى العباس السبتى رضى الله عنه ومسجده ومدرسته ، وضريح الشيخ التباع ومسجده ، وضريح الشيخ الجزولى ومسجده ، وضريح الشيخ الغزوانى ومسجده ، وضريح الشيخ ابن صالح ومسجده ، وضريح المولى على الشريف ، وضريح الشيخ ميمون الصحراوى ، ومسجد الملوك ببريمة ومدرستاه ، وتجديد جامع المنصور ، والمسجد الأعظم بباب دكالة ، والمسجد الأعظم بباب هيلانة ، والمسجد الأعظم بالرحبة ، ومسجد القصبة ومدارسها الست ، ومسجد زاوية الشرادم ، ومسجد رباط شاكر ، ومدينة الصويرة بمساجدها ومدارسها وصقائلها وأبراجها وكل ما فيها ، ومسجد آسفى ومدرسته ، ومسجد مدينة تيط ومدينة الدار البيضاء ومسجدها ومدرستها وحمامها وصقائلها وأبراجها ، ومدينة فضالة ومسجدها ومدرستها ، والمنصورية ومسجدها ، وجامع السنة برباط الفتح ، ومساجد أكدال السنة وأبراجه والصقالتين الكبيرتين بسلا والرباط ، ومسجد العرائش ومدرسته وصقائلها وأبراجها وسوقها وصقائل طنجة وأبراجها ، ومسجد مكناسة ومدرستها ، ومسجد البردعيين بها ، وضريح الشيخ ابن عيسى ، وضريح الشيخ أبى عثمان سعيد ومسجده ، وضريح الشيخ على بن حرزهم ، وضريح الشيخ دراس بن إسماعيل ، وضريح الشيخ التاودى ، ومدرسة باب الجيسة ، ومسجد تازا ومدرسته ، وضريح المولى على الشريف بسجلماسة وقصبة الدار البيضاء بها ومسجدها ومدرستها ، ومسجد الريصانى ومدرسته وأوقافه على المارستان بفاس ومراكش ، فهذه الآثار كلها مما سمت إلى تخليد همته الشريفة بعضها أنشأها و بعضها أصلحه وجدده ، ورتب للأشراف بتافيلالت فى كل سنة مائة ألف مثقال سوى ماينعم به عليهم فى أيام السنة متفرقا ، ورتب لأهل الحرمين الشريفين وشرفاء الحجاز واليمن مائة ألف مثقال أيضا فى السنة ، ولشرفاء المغرب مائة ألف مثقال * وأما الطلبة والمؤذنون والقراء وأئمة المساجد فكانت تأتيهم صلاتهم فى كل عيد * وأما ما كان ينفقه فى الجهاد على رؤساء البحر وطبجيته وما يصيره على المراكب الجهادية والآلات الحربية التى ملأ بها بلاد المغرب فشىء لايحصيه الحصر ، وأما ما أنفقه من الأموال فى فكاك أسرى المسلمين فأكثر من ذلك كله حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير لامن المغرب ولا من المشرق ، ولقد بلغ عددهم فى سنة مائتين وألف ثمانية وأربعين ألف أسير وزيادة ، وأوقافه بالحرمين الشريفين وكتبه العلمية المحبسة بهما لازالت قائمة العين والأثر إلى الآن * وأما اعتناؤه بالمراكب القرصانية فقد بلغ عددها فى دولته عشرين مركبا ، وأما الفراكط فثلاثون ، و بلغ رؤساء البحر عنده ستين رئيسا كلها بمراكبها و بحريتها و بلغ عسكر البحرية ألفا من المشارقة ، وثلاثة آلاف من المغاربة ، ومن الطبجية ألفين ، وكانت له هيبة عظيمة فى مشوره وموكبه يتحدث الناس بها ، وهابته ملوك الافرنج وطواغيتهم ، ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف يطلبون مسالمته فى البحر ، ووظف على الأجناس الوظائف فالتزموها وكانوا يؤدونها كل سنة ، واستمر ذلك من بعده إلى أن انقطع فى هذه السنين المتأخرة والأمر لله ولاحول ولا قوة إلا بالله .

ومن

ومن عجيب سيرته رحمه الله أنه كان يرى اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات فى فن الفقه وغيره واعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة تضييعا للأعمار فى غير طائل ، وكان ينهى عن ذلك غاية ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما ويبالغ فى التشنيع على من اشتغل بشىء من ذلك حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل ، وإنما كان يحض على كتاب الرسالة والتهذيب وأمثالهما حتى وضع فى ذلك كتابا مبسوطا أعانه عليه أبو عبد الله الغربى ، وأبو عبد الله المير وغيرهما من أهل مجالسه .

ولما أفضى الأمر إلى السلطان العادل مولانا سليمان رحمه الله صار يحض الناس على التمسك بالمختصر ويبذل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة والكل مأجور على نيته ، وقصده غير أن الرأى ماراه السلطان سيدى محمد رحمه الله ، وقد نص جماعة من أكابر الأعلام النقاد مثل الامام الحافظ أبى بكر بن العربى ، والشيخ النظار أبى اسحاق الشاطبى ، والعلامة الواعية أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون وغيرهم أن سبب نضوب ماء العلم فى الاسلام ونقصان ملكة أهله فيه اكباب الناس على تعاطى المختصرات الصعبة الفهم وإعراضهم عن كتب الأقدمين المبسوطة المعانى الواضحة الأدلة التى تحصل لمطالعها الملكة فى أقرب مدة ولعمرى لايعلم هذا يقينا إلا من جربه وذاقه ، وقد تقدم لنا أن ملوك بنى عبد المؤمن كانوا يحملون الناس على الرجوع فى الأحكام إلى الكتاب والسنة ونعم ماصنعوا ، فجزاهم الله عن الاسلام خيرا .

المولى سليمان بن محمد رحمه الله

بويع له يوم الاثنين سابع عشر رجب سنة ست ومائتين وألف ، وكان رحمه الله موصوفا بالعدل معروفا بالخير مرفوع الذكر عند الخاصة والعامة ، واتفق له فى أواسط دولته من السعادة والأمن والعافية ورخاء الأسعار وابتهاج الزمان ماجعله الناس تاريخا وتحدثوا به دهرا طويلا ، ولما بويع رد الفروع إلى أصولها ، وأجرى الخلافة على قوانينها باقامة العدل والرفق بالرعية والضعفاء والمساكين ، ومن وفور عقله وعدله إسقاط المكوس التى كانت موظفة على حواضر المغرب فى الأبواب والأسواق وعلى السلع والغلال وعلى الجلد وعشبة الدخان ، فقد كان يقبض فى ذلك أيام والده سيدى محمد رحمه الله خمسمائة ألف مثقال معلومة مثبتة فى الدفاتر مبينة فى ذمم عمال البلدان وقواد القبائل كل مدينة وما عليها ، ومن ذلك المكس كان صائر العسكر فى الكسوة والسروج والسلاح والعدة وسائر تعلقات السلطان ، فكان ذلك المكس كافيا لصوائر الدولة كلها ولا يدخل بيت المال إلا مال المراسى وأعشار القبائل وزكواتهم ، وكان مستفاد هذا المكس يعادل مال المراسى وأعشار القبائل فزهد فى هذا كله السلطان مولانا سليمان ، وعوضه الله أكثر منه من الحلال المحض الذى هو الزكوات والاعشار من القبائل ، وزكوات أموال التجار والعشر المأخوذ من تجار النصارى وأهل الذمة بالمراسى .

ومن آثاره الباقية ، وبناءاته العادية ، بفاس المسجد الأعظم بالرصيف كان حفر أساسه المولى يزيد واشتغل عنه وتركه ، فافتتح هو عمله ببنائه وتشييده وأبقاه دينا على الملوك ، وبنى مسجد

الديوان كان صغيرا فهدمه ، وزاد فيه أملاكا وجعله مسجدا جامعا تقام فيه الجمعة ، وبنى مسجد الشرابليين زاد فيه ووسعه وجعله مسجدا جامعا كذلك ، وبنى مسجد الشيخ أبى الحسن بن غالب وضريحه ، وبنى ضريح الشيخ أبى محمد عبد الوهاب التازى ، وهدم مدرسة الوادى ومسجدها لتلاشيهما وجددهما على شكل آخر وجدّد مدرسة العناية وأصلح مسجد القصبة البالية وبيضه بالجص وزلجه ، وبنى باب الفتوح على هيئة ضخمة ، وبنى باب مسافر والباب الجديد على براح أبى الجلود ، وبنى القنطرة على الوادى بينهما وجدد قنطرة الرصيف مرتين ، وأصلح قنطرة وادى سبوا ، وأصلح طرقات فاس الجديدة كلها من داخل وخارج ورصفها بالحجارة وأصلح أبواب فاس الجديدة كلها ورمم ماتثلم منها وجدد قصور الملك الخربة بها وزادغيرها ، وأمر بتبييض مساجد الخطب وتبليط أرضها ، وبنى مسجد صفروا ، وجدّد أسواره وبنى لأهله حماما به ، وبنى مسجد المنزل ببنى يازغة ، وبنى مسجد وجدة وحماما بها ، وأصلح قلعتها ودار إمارتها ، وبنى مسجد وزان ومسجد تطاوين ، وأخرج أهل الذمة من جواره ، وبنى لهم حارة بطريق المدينة ، وبنى الصقائل والأبراج بطنجة وجدّد مسجد آصيلا وأسوارها ، وجدّد قصور الملك بمكناسة بعد تلاشيها وأصلح القناطر التى بين فاس ومكناسة ، وبنى قنطرة على وادى سيدى حرازم بخولان ، وبنى مسجد الجزارين بسلا ووقف عليه أوقافا تقوم بمصلحته ، وأخرج يهودها من وسط البلد من حومة باب حسين ، وبنى لهم حارة على حدتها غربى البلد ، وبنى المسجد الأعظم بحومة السويقة من رباط الفتح ، وبنى دار البحر لنزوله ، وبنى قنطرة وادى حصار بتامسنا ، وبنى مسجد أبى الجعد بتادلا ، وبنى قنطرة وادى أم الربيع وقنطرة تانسيفت بمراكش بعد سقوطها ، وبنى المسجد الأعظم الذى كان أسسه على بن يوسف اللمتونى بمراكش وبناه بناء ضخما وأزال منارته التى كانت به قديما وشيد منارة أخرى بديعة الحسن رائقة الصنعة ، وأكمل مسجد الرحبة بها الذى كان أسسه والده رحمه الله تعالى ومات قبل تمامه ، وجدّد قصور والده بمراكش وأصلحها وصان القصبة وعمرها إلى غير ذلك من مآثره السنية .

توفى رحمه الله ورضى عنه فى ثالث عشر ربيع الأول عام ثمان وثلاثين ومائتين وألف ، ودفن بضريح جدّه المولى على الشريف بباب إيلان من مراكشة .

المولى عبد الرحمن بن هشام رحمهُ اللهُ

بويع له فى أواخر ربيع الأوّل سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف ، وهو الذى قوّم صلب هذه الدولة العلوية بعد اشرافها على الاختلال ، وردها إلى شبابها بعد أن حان منها الزوال والارتحال فعلى التحقيق أن المولى عبد الرحمن هو المولى اسماعيل الثانى ، ولقد قام رحمه الله بأعباء الملك وعالج حلوه ومرّه حتى ردّ الفرع إلى أصله وأحلّ عزه فى محله ، وأقام بناء الملك الاسماعيلى على أساسه ، وردّ روحه إلى الجسد بعد خمود أنفاسه ، ولما صفا له أمر المغرب شرع فى غرس أكدال غربى مراكش ، وهو بستان عظيم جدا يشتمل على جنات كثيرة معروفة بحدودها وأسمائها ، وتشتمل كل واحدة منها على نوع أو أنواع من الأشجار المثمرة النفاعة من زيتون ورمان وتفاح

وليمون

وليمون وعنب وتين وجوز ولوز وغير ذلك ، وكل نوع منها يغل مائة ألف ريال وزيادة فى السنة ، وفى خلال هذه الجنات من قطع الازهار والرياحين والبقول المختلفة اللون والطعم والرائحة والخاصية مالا يأتى عليه الحصر حتى إن منها مالا يعرفه جل أهل المغرب ولا رأوه قط لكونه جاب من أقطار أخرى ، وفى وسطه برك عظام تسير فيها القوارب والفلك ، وتصب فيه العيون كأمثال الأنهار لسقى تلك الجنات وتلك البرك . منها ماضلعها الواحد يكون مائتى خطوة وأقل وأكثر ، وفى داخله أيضا من المتنزهات الكسروية والقباب القيصرية والمقاعد المروانية مايستوقف الطرف ويستغرق الوصف ، مثل دار الهناء ، والدار البيضاء والصالحة والزاهرة ، وغير ذلك ، ويتصل به جنان رضوان الفائق بحسنه وقبابه ومقاعده البهية على ذلك كله ، والحاصل أن هذا البستان جنة من جنان الدنيا يفوق متنزهات مراكش العجيبة التى أنشأتها هذه الدولة فى إبان الاقبال والشبيبة .

ولما شرع السلطان رحمه الله فى غرس هذا البستان جلب له العين الآتية من بلاد مسفيوة المسماة بتاسلطانت ، وهى من أعذب العيون ماء وأخفها وأنفعها للبدن .

وفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف طاف رحمه الله على ثغور المغرب ومراسيه لأجل إحياء سنة الجهاد فى البحر ، وأمر بانشاء الأساطيل زيادة على مابقى من آثار جده سيدى محمد ابن عبد الله .

ومن آثاره رحمه الله بالمغرب ما افتتح به ولايته من بناء ماتهدم من مرسى طنجة ، وصير عليه مالا عظيما حتى أعاده أحسن وأحصن مما كان ، ومن ذلك تجديد الحرم الادريسى بفاس ، وبناء مسجده وتوسعته وتنميقه ، ومن ذلك البرجان العظيمان بسلا وأشبار الكبير المواجه للبحر منها ، والمارستان الكبير بضريح الشيخ ابن عاشر ، والمنار الشهير بالمسجد الأعظم منها ، وخزين البارود بالقليعة وغير ذلك ، وأشبار الكبير برباط الفتح ، وبنى بأعمالها لحفظها وتأمين طرقها قصبتين كبيرتين إحداهما الصخيرات ، والأخرى قصبة أبى زنيقة فأمن الناس بهما وجدد ما تهدم من ابراج الصويرة واعتنى بها ، وصير عليها أموالا ثقالا فجاءت فى غاية الاتقان والحصانة ، ومن آثاره بمراكش آجدال الشهير ، وتجديد جامع المنصور بالقصبة بعد أن لم يبق منه إلا الاسم فأعاده إلى حالته الأولى على ضخامته وانفساحه ، وعلو بنائه ، وتجديد جامع الكتبيين مرتين ، وإصلاح قبة الشيخ أبى العباس السبتى رضى الله عنه ، والزيادة فى جامع الشيخ أبى إسحاق البلفيقى بسوق الدقاقين منها ، وهدم جامع الوسطى وإعادته على شكل آخر ، وبناء جامع أبى حسون وإقامة الجمعة به كما كانت أولا ، وبناء جامع القنارية والزيادة فيه .

ومن آثاره بحضرة فاس العليا تجديد بستان آمنة المرينية ، وكان هذا البستان خرابا تألفه الوحوش إلى أن عطف عليه هذا السلطان المبارك فأعاد بعد الممات محياه ، وأبرز من ظلمات العدم جيل محياه إلى غير ذلك من مآثره .

وكانت وفاته رحمه الله ورضى عنه بمكناسة يوم الاثنين تاسع وعشرى محرم الحرام فاتح سنة ست وسبعين ومائتين وألف 1276 * ودفن بين العشاءين أول ليلة من صفر بضريح السلطان الأعظم مولانا إسماعيل رحم الله الجميع بمنه .

سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله

بويع له سنة ست وسبعين ومائتين وألف ، وكان رحمه الله بانيا أمره على الشرع لايشذ عنه طرفة عين حازما فى أمره عالى الهمة راميا بها الغرض الأقصى إلا أن الزمان لم يساعده كل المساعدة فكانت همته أجل من دهره ، وكان ذا سياسة وسكينة وتأن فى الأمور وتبصر بالعواقب ، وكان له فى كل بلد عيون يكتبون له بما يقع من الولاة ، فمن دونهم فكانت الرعية كأنها فى كف يده فاستقامت أحوال الرعية لذلك ، وفى سنة خمس وثمانين ومائتين وألف أمر بضرب الدرهم الشرعى وحاول ضبط السكة به ، وحمل الناس على أن لا يذكروا فى معاملتهم وأنكحتهم وسائر عقودهم إلا الدرهم الشرعى ، وشدد فى ذلك وكتب فيه إلى ولاة الأمصار .

وفى هذه السنة أعنى سنة خمس وثمانين ومائتين وألف كان ابتداء سوق عام بمدينة باريس وهى عاصمة الدولة الافرنسية ، وذلك أن سلطانها نابليون الثالث لما بلغ من ضخامة الدولة ونفوذ الكلمة ماقل اتفاقه لغيره من الأجناس حاول أن يتجاوز ذلك إلى أن يجلب إلى رعيته ودار ملكه كل أمر غريب فى العالم حتى يجتمع عنده ما افترق عند غيره ، فكتب إلى ملوك الآفاق يقول إنه قد عزم على إقامة سوق بباريس فى وقت معلوم ، وطلب منهم أن يبعثوا بتجارتهم لحضورها وجلب سلعهم وغرائبهم إليها ، وقصده بذلك عموم النفع وتعدى الصنائع والحرف من أمة إلى أخرى فأجاب الملوك داعيه بمقتضى العرف الجارى بين الدول ، والعادة المقررة من عهد الملوك الأول ، ولم يبق إلا من بعث تجارته ونفائسه وغرائبه من الجليل إلى الحقير ، وكان السلطان سيدى محمد رحمه الله قد بعث بعض أعيان التجار ممن لهم الخبرة باللسان الافرنجى ، وبعث معه السلطان رحمه الله كل شىء غريب مما اختص به قطر المغرب من سروج مذهبة ومناطق مزخرفة وقطائف منمقة وغير ذلك من الأعلى إلى الأدنى حتى الزليج الفاسى والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه فى محاله وحضر هذا السوق الملوك فمن دونهم من كل إقليم حتى السلطان عبد العزيز العثمانى رحمه الله فكان الحال كما قال أبو الطيب المتنبى :

تجمع فيه كل لسن وأمة ☆ فما تفهم الحداث إلا التراجم

وأقامت عمارتها ثلاثة أشهر ، ثم انفض الناس إلى بلادهم .

توفى السلطان هذا رحمه الله ورضى عنه فى زوال يوم الخميس الثامن عشر من رجب الفرد الحرام سنة تسعين ومائتين وألف بداره بحضرة مراكش فى البستان المسمى بالنيل ولم يمرض إلا يوما أو بعض يوم . قيل إنه شرب دواء مسهلا فكان فيه أجله ، ودفن ليلا بضريح جده المولى على الشريف قرب ضريح القاضى عياض ، وله رحمه الله آثار بالمغرب منها ماخلده أيام خلافته فى حياة والده ومنها مافعله بعد ولايته ، فمن آثاره فى أيام أبيه اجراء الأنهار وتفجير العيون التى عجز الملوك المتقدمون عنها ، وتكملة غرس أكدال بحضرة مراكش ، ومن آثاره بعد ولايته اعتناؤه باصلاح الثغور ، ومنها برج الفنار الذى على ساحل البحر بقرب طنجة يسرج فيه ضوء كثير يظهر للسيارة فى البحر ليلا من مسافة بعيدة ، وصير عليه مالا له بال ، وكانت المراكب تنشب بذلك

الساحل

الساحل كثيرا إذ لم يكن لها علامة تهتدى بها فى البحر ، ولما اتخذ السلطان رحمه الله هذا الفنار أمنت من تلك الآفة ، ومنها بمراكش دار فابريكة السكر بأكدال منها ، وصير عليها أموالا طائلة ، وجاءت على عمل متقن وهيئة ضخمة إلا أنها اليوم معطلة لقلة المادة ، ومنها دار فابريكة البارود بأسجينة من مراكش أيضا إلى غير ذلك مما يطول ذكره .

السلطان المولى حسن بن محمد رحمه الله

بويع له رحمه الله ورضى عنه أثر وفاة أبيه بمراكش عام تسعين ومائتين وألف ، وذلك لما توفر فيه من شروط الامامة ، وتكامل فيه من النجدة والشهامة والزعامة ، ولما اتصف به من الفضل والدين ، وسائر خصال الخير وأسباب اليقين ، ولما استخلف لم تشغله شئون الخلافة المترادفة آناء الليل وأطراف النهار ، ولامافى قصوره السلطانية من الحدائق والأزهار عن وظائف الدين وأسباب اليقين من نوافل الخير من صلاة وصيام وتلاوة ، ثم إنه مالبث بعد أن بويع البيعة العامة أن قام لتدويخ قبائل المغرب من عرب وبربر ، ففى كل وقت وحين له غزوة لناحية من النواحى لم يهدأ قط من الحركة لتمهيد الأقطار وقمع الثوار بل كانت حركاته وغزواته فى مرآها أشبه شىء بسلسلة متتابعة الحلقات أو كالحلقة المفرغة التى لايدرى أين طرفاها ، ومع ذلك ففى عهده رحمه الله تأكدت المواصلة بدول أوروبا وعظمت التجارة وكثرت الأموال بين الناس ، فتأنقوا فى المصانع والأبنية ، وبلغ اهل المغرب فى الرفاهية مبلغا لم يبلغه أسلافهم ، وكانت تلك الأيام على مافيها من كثرة الغزوات والحركات كلها خيرات ومبرات وبركات ، إلى أن توفى رحمه الله وهو بتادلة ثالث ذى الحجة سنة إحدى عشرة وثلثمائة وألف ، وحمل إلى رباط الفتح حيث دفن ضجيع جده السلطان سيدى محمد بن عبد الله عليهما رحمة الله .

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ، وكان رحمه الله من خيار الملوك العلوية وأفاضلهم بما نشر من العدل وأصلح من الرعايا وأبقى من الآثار بالمغرب وثغوره .

مولانا يوسف ابن مولانا الحسن رحمه الله

بويع له فى فاتح شوال عام ثلاثين وثلثمائة وألف ، وتوفى رحمه الله ورضى عنه بفاس فى الساعة العاشرة من يوم الخميس الثانى والعشرين من جمادى الأولى عام ستة وأربعين وثلثمائة وألف ، ودفن ضجيع جده الأعلى مولاى عبد الله بن إسماعيل رحمه الله من فاس الجديدة .

واقد أنام رعاياه فى ظل أمانه ، وأذاقهم رفاهية العيش بحسن إحسانه .

وله رحمه الله مآثر على ألسنة أهل العصر تذكر ، وحق لجلالته عليها أن يشكر .

سلطان العصر أمير المؤمنين سيدى محمد ابن السلطان المقدس

السلطان الأعظم ، والهمام الأفخم ، فريد الزمان ، وبهجة الأوان ، وارث رتب المجد كابرا عن كابر ، سلالة المفاخر ، بايعه عامة أهل مدن المغرب وخاصته وسائر أحوازها فى التاريخ المتقدم

ولم يتوقف عن بيعته أحد منهم واستبشروا بولايته ، وبان لهم مصداق يمنه وسعادته ، بتوالى الأمطار ، ورخص الأسعار والعافية آناء الليل وأطراف النهار ، وحسبك من مناقبه الأمن والعافية وحسن الحال والرفاهية ، ولقد حق فيه قول القائل :

حوى العلويون المعالى كلها ✡ ومامنهم إلا ذرى المجد صاعد

ولكن أمير المؤمنين محمد ✡ هوالبدر فى العلياء وهى الفراقد

يقول جامعه محمد الموقت كان الله له وهذا آخر ما وفقنا الله لجمعه فى هذا الموضوع ، وهو بفضل الله بغية لمن له بهذا الشأن اعتناء وولوع ، وكان الفراغ منه عشية الخميس خامس محرم الحرام فاتح عام ثمانية وأربعين وثلثمائة وألف ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

تم نزهة المالك والمملوك ، فى تراجم مشاهير الملوك

ويليه

إرشاد الشيخ والشارخ ، لملخص بعض التواريخ

الكتاب الرابع

إرشاد الشيخ والشارخ

لملخص بعض التواريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

حمدا لمن تفضل بمعرفة عدد السنين والحساب ، وجعلها من أعظم معين على ضبط تواريخ الوقائع فى الذهاب والاياب ، وصلاة وسلاما على الناطق بالصواب ، وعلى آله وأصحابه ما دام العمل بالسنة والكتاب .

﴿ أما بعد ﴾ فيقول العبد الفقير إلى الله محمد بن محمد بن عبد الله الموقت بالحضرة المراكشية وقتـه كان له الله ، لا يخفى على كل ذى ذوق سليم ، وفهم رائق مستقيم ، أن فى التاريخ من فاكهة المفاكهة الغاية القصوى ، ونهاية الشأن فى الطلاوة والجدوى ، لأنه توقيع وقائع الزمان ، وتدوين الحوادث الدائر بها الدوران ، وحسبك أن بمطالعته يطلع الشاهد على ما كان فى الغائب مخبأ ، ويودع السمع أسماء أسمار كان لرؤية أهلها محيا .

وقد عنّ لى ذكر جملة منه باهرة تسرّ الجوارح الباطنة والظاهرة ، وسميتها :

(إرشاد الشيخ والشارخ ، لملخص بعض التواريخ)

جعلها الله خالصة لوجهه الكريم ، ونفع بها النفع العميم بمنه انه حليم كريم .

فأقول : اعلم أوّلا أن التاريخ عبارة عن بيان الزمن الذى مضى بين حصول ذلك الشىء وبين حادثة قبله مشهورة جعلت مبدأ يحسب منها الزمن ، وقد يذكر شهر حصول الشىء ويومه وساعته لزيادة البيان مثلا يقال فى تاريخ مبدأ تقويمنا [تاج التقاويم] انه كان ابتداؤه فى الساعة الثامنة من يوم الخميس التاسع من رمضان عام سبعة وأربعين وثمانمائة وألف .

ملخص أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

قال الاسحاق فى كتابه أخبار الأول مانصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا خلق الله آدم طوله ستون ذراعا فى عرض سبعة أذرع ، وعلمه سبعين ألف باب من العلم ، ولم يمت حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا ، وكانت وفاته يوم الجمعة بعد أن عاش ألف سنة ، وعاشت حواء بعده سنة ثم ماتت ، فدفنت مع آدم عليه السلام واختلف فى موضع قبره ، فقيل بمكة فى غار أبى قبيس وقيل ببلاد الهند وقيل ببيت المقدس .

شيث عليه السلام نبىّ مرسل ،وهو أوّل من بنى الكعبة بالطين والحجر ، وعاش سبعمائةسنة ، وعنه أخذت الشريعة .

إدريس عليه السلام نبىّ مرسل ، وهو أوّل من خطّ بالقلم ، وأوّل من خاط الثياب ، وأوّل من بنى الهياكل ،وسجد لله فيها ، وفى عصره انتهت إليه الرياسة فى علم النباتات وأسرار الحروف وغير ذلك من الحقائق الحكمية ، والأدوار الفلكية .

وهو أوّل من رتب الناس على ثلاث طبقات كهنة وملوك ورعية ، ورفع إلى السماء وهو ابن ثلثمائة سنة وعشرين سنة .

نوح عليه السلام نبىّ مرسل بعد إدريس وهو ابن خمسين سنة ، وهو أوّل من قسم الأرض بين أولاده . فأمّا سام فأعطاه بلاد الحجاز واليمن والشام ، وهو أبو العرب والفرس والروم .

وأمّا حام فأعطاه بلاد المغرب وهو أبو السودان والبربر والقبط .

وأمّا يافث فأعطاه بلاد المشرق وهو أبو يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما .

وكان طول سفينته ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسين ذراعا ، وسمكها ثلاثين ذراعا ، ومن معجزاته فى نفسه عليه السلام أنه عمر ألف سنة ولم ينقص له سنّ ، ولم تنقص له قوّة ، ولم يبالغ أحد من الرسل فى الدعوة مثل ما بالغ ، وكان يدعو قومه ليلا ونهارا ، وإعلانا وأسرارا ، ولم يلق نبىّ من أمته من الضرب والشتم وأنواع الأذى والجفاء ما لقى نوح عليه السلام .

هود عليه السلام نبىّ مرسل بعثه الله إلى عاد وثمود فكذبوه فأهلكهم الله بالصواعق والزلازل ، وعاش ثمانمائة وخمسين سنة .

حنظلة بن صفوان عليه السلام نبىّ مرسل بعثه الله إلى أصحاب الرسّ فقتلوه وأحرقوه بالنار فسخهم الله حجارة .

إبراهيم الخليل عليه السلام نبىّ مرسل بعثه الله إلى النمروذ فأهلكه الله ببعوضة ، وهو أوّل من قاتل بالسيف ، وأوّل من اختتن ، وأوّل من لبس السراويل ، وأوّل من جزّ شاربه ، وأوّل من قص أظافيره ، وأوّل من رأى الشيب ، وأوّل من أضاف الضيوف ، وأوّل من ثرد الثريد وعاش مائة وخمسا وتسعين سنة .

ذو القرنين كان فى زمن إبراهيم عليه السلام واختلف فيه هل كان نبيا أو عبدا صالحا ؟ وكان الخضر وزيره وابن خالته .

وكان له مربع مائة فى مائة موضوع على لوائه ، وبه افتتح أقاليم البلاد .

يقول جامعه محمد الموقت كان الله له ، ولنا معرفة تامة بهذا المربع المثنى ولله الحمد .

توضيح

الاسكندر اثنان : رومى وهو ذو القرنين صاحب الخضر ، ويونانى وهو صاحب ارسطو .

ودانيال اثنان : الأكبر وهو الذى حفر الدجلة والفرات ، وكان أنفه ذراعا وهو بعد نوح عليه السلام ، ودانيال الأصغر وهو بعد سليمان .

ولقمان اثنان : العمادى وهو فى زمن ذى الحكم ، ولقمان الثانى وهو فى زمن داود عليه السلام .

روى أنه لما هلكت عاد بقى لقمان بالحرم ، فقال يارب أعطنى عمر سبعة أنسر ، وكان يعيش النسر ثمانين سنة ، فلما مات النسر السابع مات لقمان .

وموسى اثنان : موسى بن يشار ، وموسى بن عمران ، وهو صاحب فرعون .

لوط عليه السلام نبى مرسل بعثه الله إلى أهل سدوم فكذبوه فأهلكهم الله بحجارة من سجيل ، وعاش ثمانين سنة .

إسماعيل عليه السلام نبى مرسل بعثه الله إلى العمالقة ، وهو أول من ركب الخيل عاش مائة وثمانين سنة .

إسحاق عليه السلام نبى مرسل ولد بعد إسماعيل عليه السلام بثلاث عشرة سنة ، وعاش مائة وثمانين سنة .

يعقوب بن إسحاق المذكور عليه السلام نبى مرسل عاش مائة وسبعا وعشرين سنة .

يوسف عليه السلام نبى مرسل ، وهو أول من صنع القرطاس عاش مائة وعشرين سنة بمصر

أيوب عليه السلام نبى مرسل ، وكان من أغنياء الرسل أهلا ومالا حتى كان فى ضياعه أربعون ألف وكيل .

شعيب عليه عليه السلام نبى مرسل بعثه الله إلى أهل مدينته فكذبوه فأهلكهم الله بالصيحة عاش مائة وأربعين سنة ، وقبره بالمسجد الحرام قبالة الحجر الأسود .

موسى عليه السلام نبى مرسل أرسله الله تعالى وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون فكذبهم فأغرقه الله وجنوده فى اليم عاش موسى مائة وعشرين سنة وقبره عند الكثيب الأحمر بفلسطين ، وعاش هارون مائة وعشرين سنة ، ومات قبل موسى بثلاثين سنة فى التيه .

يوشع بن نون عليه السلام نبى مرسل بعثه الله بعد موسى عليه السلام ، وقد رد الله له الشمس فى قتال الجبارين على مدينة أريحاء ، وهو الذى أرسل الله تعالى على قومه ظلمة ، فمات منهم فى ساعة واحدة سبعون ألفا ، وعاش مائة وعشرين سنة .

الياس عليه السلام نبى مرسل بعثه الله إلى بنى إسرائيل وأعطاه قوة سبعين نبيا وقطع عنه لذة المطعم والمشرب ، وكان انسيا ملكيا أرضيا سماويا .

اليسع بن عدى عليه السلام بعثه الله بعد الياس إلى بنى إسرائيل ، وعاش خمسا وسبعين سنة .

داود عليه السلام نبى مرسل أنزل الله عليه الزبور بالعبرانية وألان له الحديد ، ولم يعط أحدا من الخلق مثل صوته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يده ، وهو أول من قال : أما بعد ، وكان عمره مائة سنة ، وشيع جنازته أربعون ألف راهب ، وكان الانس والجن يستمعون لحسن قراءته إذا قرأ الزبور ، وكذلك الوحوش والطيور يستمعون ، وكان يحمل من مجلسه فى بعض الأوقات أربعمائة جنازة ممن قد مات فى مجلسه من لذة سماع صوته وحسن قراءته .

سليمان بن داود عليه السلام نبى مرسل ، وكان لعسكره من الانس مائة فرسخ وخمسة وعشرون فرسخا ومثلها للجن ومثلها للوحوش ومثلها للطير وهو أول من كتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، وأول من دخل الحمام ، وأول من صنع له النورة ، وكان عدد حراس سليمان ستمائة ألف ، وكان له ألف بيت من قوارير على خشب فيها ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية .

وكان فى مطبخه مائة ألف رجل ، وكان يذبح له كل يوم ألف شاة وثلاثون ألف بقرة ، وكان يأكل الشعير ، ويلبس الصوف ، وعاش ثلاثا وخمسين سنة ، فبينما هو متكئ على عصاه إذ مات فدفن على ساحل بحيرة طبرية .

لقمان الحكيم عاش خمسمائة وخمسين سنة ، واختلف فى نبوته ، فقيل كان نبيا وقيل كان عبدا صالحا ، وقيل كان قاضيا فى بنى إسرائيل ، وكان عبدا أسود نوبيا من سودان مصر ، وقد أخذ الحكمة عن ألفى نبى ، وقبره ما بين مسجد الرملة وسوقها وفيه قبر سبعين نبيا .

وكان داود عليه السلام يقول له : يالقمان لقد أوتيت الحكمة وصرفت عنك النقمة .

يونس عليه السلام نبى مرسل بعثه الله تعالى إلى أهل نينوى قرية بفلسطين وهو ابن أربعين عاما فالتقمه الحوت ، فمكث فى بطنه سبعة أيام أو أربعين يوما .

شعياء عليه السلام بعثه الله إلى بنى إسرائيل وهو الذى بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام .

ارمياء عليه السلام نبى بعثه الله إلى بنى إسرائيل فكذبوه فسلط عليهم بختنصر فخرب بيت المقدس وأحرق التوراة ، وقتل من بنى إسرائيل سبعين ألفا وأسر سبعين ألف غلام ، وذهب بهم إلى بابل وفيهم دانيال وحزقيل عليهما السلام وسبعة آلاف من آل داود عليه السلام .

عزير عليه السلام أماته الله وهو ابن أربعين سنة فأماته مائة عام ، ثم بعثه وهو ابن مائة وأربعين سنة ، وأحيا حماره .

دانيال عليه السلام نبى مرسل بعثه الله إلى بنى إسرائيل وهو ممن آتاه الله الحكمة والنبوة وألقاه بختنصر فى أتون الحمام فلم يحترق وبه انقذ الله بنى إسرائيل من أرض بابل ، وقبره بالسويس

زكرياء عليه السلام بعثه الله إلى بنى إسرائيل فقتلوه ، وكان نجارا .

يحيى عليه السلام فهم التوراة وهو ابن سبع سنين ، وقتل بدمشق قتلته امرأة اسمها أرميل وقد قتلت سبعين نبيا وآخرهم يحيى عليه السلام .

عيسى عليه السلام نبى مرسل بعثه الله على رأس ثلاثين سنة من عمره فكذبوه فرفعه الله إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وأنزل عليه الانجيل باللغة السريانية .

وقد بعث الله بين موسى وعيسى ألف نبى من بنى إسرائيل .

قال

قال كعب الأحبار ، ومن زمن هبوط آدم عليه السلام من الجنة إلى رفع عيسى عليه السلام خمسة آلاف وخمسمائة وخمسون سنة .

وكانت الفترة التي لم يبعث فيها رسول أربعمائة وأربعا وثلاثين سنة اه .

ومنهم القائم بأمر هذه الأمة نبينا ومولانا محمد ﷺ بعثه الله على فترة من الرسل رحمة للعالمين فبلغ الرسالة وجاهد فى الله حق جهاده ونصح الأمة وعبد ربه حتى أتاه اليقين .

ولد ﷺ عام الفيل فى شهر ربيع الأول يوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت منه عند طلوع الفجر .

والتحقيق أنه ولد يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق عشرين من إبريل سنة إحدى وسبعين وخمسمائة مسيحية .

وبعث ﷺ على رأس الأربعين من عمره ، ونزل عليه جبريل بالوحى ، وأقام بمكة بعد مبعثه ثلاث عشرة سنة ، ثم هاجر إلى المدينة فأقام بها عشر سنين .

ثم توفى ﷺ بعد أن أكمل الله تعالى به الدين فى وسط يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وله ﷺ ثلاث وستون سنة .

وقدر مدة أيام الدنيا من لدن خلق الله آدم إلى وقت هجرة نبينا مولانا محمد ﷺ خمسة آلاف سنة وتسعمائة سنة واثنان وتسعون سنة وأشهر هكذا 5992

وكان الطوفان لمضى ستمائة سنة من عمر نبى الله نوح عليه السلام ولتتمة ألفى سنة ومائتى سنة وست وخمسين سنة هكذا 2256 من لدن أهبط آدم إلى الأرض .

وكان بين الطوفان ومولد سيدنا إبراهيم خليل الرحمن ألف سنة وتسع وسبعون سنة هكذا 1079 .

تنبيـــــــه

قال الدمامينى فى عين الحياة ان أبرهة ملك الحبشة حضر إلى الكعبة يريد هدمها فى المحرم سنة اثنين وثمانين وثمانمائة من تاريخ الاسكندر الثانى الملقب بذى القرنين ، ومبدؤه من السنة التى خرج فيها من مقدونية ، وطاف الأرض وهى السنة السابعة من ملكه وطريق معرفة سنيه أن تزيد على سنى القبط التامة خمسمائة وتسعين سنة يحصل سنو الروم المطلوبة وبينه وبين السنة التى هاجر فيها نبينا ومولانا محمد ﷺ من مكة إلى المدينة تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة وخمسة وخمسون يوما هكذا : 55 — 933

وأول سنى الروم

تشرين الأول : ومدخله فى رابع بابه .	نيسان : أوله سادس برموده
تشرين الثانى : أوله خامس هاتور .	إيار : أوله سادس بشنس
كانون الأول : أوله خامس كيهك	حزيران : أوله سابع بؤنه
كانون الثانى : أوله سادس طوبه	تموز : أوله سابع أبيب
شباط : أوله سابع أمشير	آب : أوله ثامن مسرى
أذار : أوله خامس برمهات	أيلول : أوله رابع توت

التاريخ العربى

والذى أنشأه هو سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك يوم الأربعاء فى عشرين من جمادى الآخرة سنة سبع عشرة من الهجرة ، وكانت هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأوّل الموافق عشرين من شتنبر سنة اثنين وعشرين وستمائة ميلادية حسب الحساب القديم ، وأوّل تلك السنة هو يوم الخميس الموافق خمسة عشر يوليه سنة اثنتين وعشرين وستمائة ميلادية ، فالمحرم سنة الهجرة أوّله يوم الخميس ولا مراء فيه ، وسنو هذا التاريخ بسائط وكبائس ، فعدد أيام السنة البسيطة 354 يوما ، والكبيسة 355 يوما .

وشهور هذا التاريخ اثنا عشر شهرا فى الكبيسة واثنا عشر شهرا فى البسيطة ، وهى : شهر المحرم ، وصفر ، وربيع الأوّل ، وربيع الثانى ، وجمادى الأولى ، وجمادى الثانية ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوّال ، وذو القعدة ، وذو الحجة .

ثم اعلم أن عدد أيام الشهور العربية الافراد أعنى الأوّل والثالث والخامس والسابع والتاسع والحادى عشر كل شهر منها ثلاثون يوما لأن كسرها أكثر من النصف .

وأيام شهورها الأزواج أعنى الثانى والرابع والسادس والثامن والعاشر كل منها تسعة وعشرون يوما إلا ذا الحجة فانه ثلاثون يوما فى الكبيسة فقط مع أنه زوج .

ثم اعلم أيضا أنه قد يوافق أوّل الشهر بالحساب أوّله بالهلال ، وقد يتقدّم الحساب عن الهلال وقد تتوالى أربعة أشهر ثلاثون ثلاثون يوما وثلاثة أشهر تسعة وعشرون تسعة وعشرون يوما بالهلال ولا يتوالى أكثر من ذلك .

وأما بالحساب فدائما شهر ثلاثون وشهر تسعة وعشرون لاتتغير .

واليوم عبارة عن المدّة التى من غروب الشمس أو شروقها أو زوالها إلى مثله ، فابتداء اليوم عند الحساب من وصول الشمس إلى دائرة نصف النهار فى ذلك البلد إلى مثل ذلك ، فأهل المغرب يعتبرونه من نصف النهار ، و بلاد الافرنج تعتبره من نصف الليل ، وأما أهل المشرق فأكثرهم يجعل الهلال مبدأ الشهر ، فابتداء اليوم عندهم من غروب الشمس إلى غروبها فليلة اليوم قبل نهاره وعند غيرهم كالقبط والأروام والفرس من طلوع الشمس إلى طلوعها ثانية فنهار الليل قبل ليله ، والنهار فى كل بلد من جميع بلاد الأرض هو الزمن الذى من ابتداء طلوع الشمس لذلك البلد إلى تمام غروبها عنه ، وفى الشرع من الفجر الصادق إلى تمام الغروب متمكنا والليل مقابله .

أيام الأسبوع والجمعة

كل سبعة أيام تسمى أسبوعا ، ويقال لها عند العامة جمعة ، وأسماء الأيام عند العرب :

1	2	3	4	5	6	7
الأحد ،	الاثنين ،	الثلاثاء ،	الأربعاء ،	الخميس ،	الجمعة ،	السبت .

وهذه الأيام مستعملة من قديم الزمان ، فقد اختار هذا التفسير السريانيون والعبرانيون

والعرب

والعرب والهنود والصينيون ، ووصل إلينا منهم فهو الأثر القديم الذى بقى إلى الآن من المعارف الفلكية القديمة .

ما يتعلق بالشهور العربية

فشهر المحرم تاسعه يسمى تاسوعاء ، وعاشره يسمى عاشوراء ، ومن المطلوب المستحب صومهما وأن يوسع صاحب البيت على عياله فى يوم عاشوراء .

وشهر صفر فى آخره تعود قافلة الحجاج المسافرين .

وشهر ربيع الأول يعمل فيه مولد النبى ﷺ وانتهاؤه فى ليلة الثانى عشر منه ، ويجتمع الناس فيه لقراءة المولد الشريف وهى الليلة التى ولد فيها النبى ﷺ على المشهور .

وشهر ربيع الثانى يعمل فيه مولد سيدنا الحسين ابن الامام سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وشهر رجب فى ليلة السابع والعشرين منه كان الاسراء بالنبى ﷺ من المسجد الحرام وهو مسجد مكة إلى المسجد الاقصى وهو بيت المقدس والمعراج إلى السماء ، وفيها يحتفل الناس بالاجتماع فى المساجد الشهيرة لقراءة قصة المعراج ، وشهر شعبان فى ليلة النصف منه يحتفل الناس بالاجتماع فى المساجد بعد المغرب للعبادة كالصلاة وقراءة القرآن .

وشهر رمضان هو المفروض صيامه على المكلفين العقلاء وتؤمر الصبيان بصيامه متى أطاقوه وفيه ليلة القدر وهى ليلة السابع والعشرين منه على ماعليه عمل الناس .

وشهر شوال أول يوم منه عيد الفطر ، ويقال له العيد الصغير ، وفى صبيحته يخرج الناس زكاة الفطر ، ويصلون صلاة العيد ، وفى آخر الشهر يتوجه الحجاج المسافرون إلى الحجاز ، وهذا الشهر ، وشهر ذى القعدة ، وشهر ذى الحجة هى الاشهر المعلومات المذكورة فى قوله تعالى ـ الحج أشهر معلومات ـ

وشهر ذى الحجة تاسعه يوم عرفة وهو الذى يقف به الحجاج على جبل عرفات ، ويسن صومه وعاشره عيد الاضحى ويقال له العيد الكبير ، وفى صبيحته تخرج الناس لصلاة العيد ، ثم يرجعون إلى بيوتهم لذبح الضحايا ، وفى يومى العيدين يندب لبس أحسن الثياب ولو غير أبيض ، ومقابلة بعض الناس بعضا بالتهنئة .

والايام الثلاثة بعد عيد الاضحى تسمى أيام التشريق وأيام منى ، وهى الايام المعدودات المذكورة فى قوله تعالى ـ واذكروا الله فى أيام معدودات ـ ويحرم صومها وصوم يومى العيدين .

وشهر المحرم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة هى الاشهر الحرم المرادة بقوله تعالى ـ منها أربعة حرم ـ وهى أفضل الاشهر .

القرن والسنة

القرن عبارة عن مضى مائة سنة ، والسنة هى المدة التى تتم الشمس فيها دورة كاملة مبتدئة من نقطة حتى ترجع إليها ، وتسمى بالسنة المدارية وبالسنة الأرضية وهى 365 يوما و 5 ساعات

و 48 دقيقة و 75 ثانية ، وتنقص قليلا عن السنة النجمية إلى الدورة الكاملة للأرض وهى 365 يوما و 9 ساعات و 10 ثوان .

السنة الافرنجية

وهى من ابتداء ميلاد المسيح عليه السلام ، وقد اختلف فى ميلاده ، فاتفقت الطوائف المسيحية من نحو ألف وسبعمائة سنة أن ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام حصل فى اليوم الخامس والعشرين من شهر دجنبر ، وجعلوا ذلك اليوم عيدا تذكارا لميلاده وهو المشهور الآن .

ثم اعلم أن الفرق بين التاريخ القديم والجديد على رأى بطليموس فى كل ثلثمائة سنة افرنجية يوم ، وعلى رأى أبى عبد الله محمد بن جابر فى كل ثلثمائة وستين سنة يوم ، وعلى رأى الأستاذ ابن الشاطر الدمشقى فى كل مائة وإحدى وثلاثين سنة يوم ، وعلى رأى الأستاذ الشيخ حسين زائد المصرى فى كل مائة وخمس وأربعين سنة افرنجية يوم .

وقد بلغ الفرق اليوم ثلاثة عشر يوما ، وكان ذلك عام 1315 هجرية الموافق لسنة 1897 وأربعة أشهر وثمانية أيام افرنجية على مذهب الرصد الجديد المصرى ، وهذه السنة شمسية وهى اثنا عشر شهرا ، وتختلف فى عدد الأيام بعضها ثلاثون يوما ، و بعضها واحد وثلاثون إلا الشهر الثانى منها فانه ثمانية وعشرون يوما .

وأيام السنة ثلثمائة وخمسة وستون يوما ، وهى السنة البسيطة ، وفى كل أربع سنين يكون الشهر الثانى تسعة وعشرين يوما وتصير السنة ثلثمائة وستة وستين يوما ، وهى السنة الكبيسة ، وتعرف السنة إن كانت بسيطة أوكبيسة بأن يقسم تاريخها على أربعة فان قبل القسمة بدون باق فهى كبيسة وإلا فهى بسيطة .

وهنا طرق أخر تعرف بها السنة القمرية أو الشمسية أهى كبيسة أم لا فانظرها فى تقويمنا المراكشى الكبير .

الشهور الافرنجية وعدد أيامها

يناير	31	ابريل	30	يوليه	31	اكتوبر	31
فبراير	28 أو 29	مايو	31	غشت	31	نونبر	30
مارس	31	يونيه	30	شتنبر	30	دجنبر	31

فصول السنة

السنة أربعة فصول ، وهى : فصل الربيع ، وفصل الصيف ، وفصل الخريف ، وفصل الشتاء

ففصل الربيع : يبتدئ فى الواحد والعشرين من شهر مارس

وفصل الصيف : يبتدئ من الواحد والعشرين من شهر يونيه

وفصل الخريف : يبتدئ من الثالث والعشرين من شهر شتنبر

وفصل الشتاء : يبتدئ من الثانى والعشرين من شهر دجنبر

تنبيهان

تنبيهان : الأول

مدّة فصل الربيع 92 يوما ، و 19 ساعه ، و 27 دقيقه
مدّة فصل الصيف 93 يوما ، و 15 ساعه ، و 00 دقيقه
مدّة فصل الخريف 89 يوما ، و 18 ساعه ، و 58 دقيقه
مدّة فصل الشتاء 89 يوما ، و 00 ساعه ، و 31 دقيقه

الثانى

اعلم أن فى فصل الربيع يتساوى الليل والنهار ويأخذ النهار بعد ذلك فى الازدياد والليل فى النقص حتى تنتهى زيادة النهار ونقصان الليل فى أوّل فصل الصيف فيكون أطول نهار فى السنة اليوم الثانى والعشرين من شهر يونيه وليلته أقصر ليلة ، ثم يأخذ النهار فى النقصان والليل فى الازدياد إلى أوّل فصل الخريف فيتساوى الليل والنهار ثانيا ، ويأخذ الليل فى الازدياد والنهار فى النقص إلى أوّل فصل الشتاء فتكون أطول ليلة فى السنة ليلة الحادى والعشرين من شهر دجنبر ونهارها أقصر نهار فى السنة ، ثم يأخذ النهار فى الزيادة حتى يتساوى الليل والنهار فى أوّل الربيع كما ذكر .

وفى فصل الصيف يشتدّ الحر ، وفى فصل الشتاء يشتدّ البرد ، وفى فصل الربيع والخريف يعتدل الهواء .

جدول مواسم وأعياد الافرنج فى السنة الافرنجية

دجنبر	25	عيد الميلاد
يناير	12	الزفر
يناير	13	الرماد للصوم
يناير	17	أوّل أحد فى الصوم
يناير	30	عيد السيدة مريم
فبراير	1	تذكار القديس
فبراير	10	الأحد الدسيم
فبراير	13	ابتداء الصوم
فبراير	15	دخول المسيح الهيكل
مارس	24	أحد الشعانين الكبرى
مارس	25	عيد البشارة
مارس	29	الجمعة المقدّسة
مارس	30	السبت المقدس
مارس	31	عيد الفصح
ابريل	7	حدّ الحدود
ابريل	23	تذكار القديس
مايو	9	خميس الصعود
مايو	13	عيد التضرع
مايو	17	عيد العود
مايو	19	عيد العنصرة
مايو	20	ثانى يوم العنصرة
مايو	26	التثليث
مايو	30	العيد الالهى

جدول مواسم وأعياد اليهود فى السنة الافرنجية

رأس السنة العبرية يومان		
مارس	25	صوم استير
مارس	26	عيد النور يوم
ابريل	23	عيد الخميرة
ابريل	25	عيد الفصيح
يوليه	05	صوم سابع عشر
شتنبر	17	صوم كداليا
شتنبر	24	صوم الكبور
شتنبر	29	عيد المظلة يومان
دجنبر	08	عيد حنوكه
دجنبر	23	صوم عاشر صبت

التاريخ القديم والجديد

روى ابن عسكر فى تاريخه باسناده إلى الزهرى والشعبى . قال لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة وانتشر ولده أرّخ بنوه من هبوط آدم عليه السلام حتى بعث الله تعالى نوحا فأرّخوا بمبعثه إلى أن حصل الطوفان فأرّخوا به حتى جاءت حادثة نار إبراهيم عليه السلام فأرّخوا بها ، ثم اجتمع رأى كل أمة ، فأرّخ الروم واليونان بظهور اسكندر الرومى ، وأرّخ المسيحيون بميلاد عيسى عليه السلام ، وأرّخ بنو اسحاق من مبعث نبى إلى مبعث نبى آخر ، وأرّخ بنو اسماعيل من بنيان البيت حين بناه ابراهيم واسماعيل حتى تفرقوا ، فكان كلما خرج قوم من تهامة أرخوا بخروجهم ومن بقى بتهامة منهم أرّخ بخروج سعد ونهد وجهينة بنى زيد من تهامة حتى مات كعب ابن لؤى فأرّخوا من موته ، وما زالوا يؤرخون ما كان من الحوادث حتى أتى عام الفيل فجعلوه تاريخا إلى أن حصلت الهجرة فأرّخوا بها ، و بقيت مبدأ للتاريخ الاسلامى إلى الآن ، والمشهور أن أوّل من أرّخ بالهجرة هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته سنة سبع عشرة هجرية ويقابله مانقله صاحب جواهر السلوك فى تاريخ الملوك من أن التاريخ سنة ماضية أمر به رسول الله ﷺ حين كتب كتابه لنصارى نجران ، فقال لعلىّ رضى الله عنه اكتب أنه كتب لخمس من الهجرة ، ونقل عن الطبرى أن رسول الله ﷺ أمر بالتاريخ حين قدم المدينة ، ولم يزالوا يؤرّخون بالشهر والشهرين من مقدمه حتى أمر عليا أن يؤرّخ بالهجرة فالمؤرخ بالهجرة إذا هو رسول الله ﷺ وتبعه فى ذلك عمر رضى الله عنه .

التاريخ عند العرب

ان من تتبع أخبار العرب القدماء واستقرأها وسبر غور أحوالهم المنقولة عنهم واستقصاها بين له أىّ تبيين غموض تاريخهم وتضارب أخبارهم وتناقضها واختلاف معقولها من منقولها لكن من تأملها بعين الناقد البصير وجد جلها مجموع غرائب ومبالغات تناقلها الخلف عن السلف منهم ، وأعظم أخبار العرب تناقضا واضطرابا أخبار العرب البائدة من العمالقة ، وما كان لهم من الدولة والسلطان بالعراق ومصر وعاد وثمود وطسم وجديس والانباط وغيرهم ، وكذلك أخبار

التبابعة من العرب القحطانيـة وما كان لهم من الدول وتعاقبها وتناسخها والسبئيين أهل سبأ وغـيرهم إلا ماتضمنه القرآن المجيد الذى لايأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من بعض سيرهم والألماع بشىء من أخبارهم ، وذلك لأنهم لم يكن عندهم فى ذلك العهد تاريخ ينطبق عليه حد هـذا اللفظ ، ولم يكونوا يعرفون الـكتابة والتدوين وتسجيل الحوادث على طريقة تتضمن حفظها ، فبقيت تفاصيل اخبارهم منبوذة فى زوايا النسيان أجيالا متطاولة وأحقابا متواصلة .

وطالما حاول جماعة من المؤرخين الخوض فى هـذا فلم يجدوا لطريق اليقين سبيلا ، وجل ماذكروه من أخبارهم إنما هو فصول قصار فى مقدمات تواريخهم العامة قليلة الجدوى متضاربة المعنى ، وقد قام فى هذا العصر جماعة من الباحثين وشمروا عن ساعد الجد والاهتمام ونقبوا عن تاريخ العرب القدماء ، وكشفوا عـدة أحجار ونقوش مدفونة تحت الرمال فى بلاد العرب واليمن وأضيف إلى ذلك ما وجد فى آثار بابل وأشور ومصر وفينيقية فانجلى بذلك تاريخهم بعض الشىء وكلما زيد فى الـكشف ازداد تاريخ العرب وضوحا و بيانا ، و بالجملة فان أخبار العرب القـدماء مقتبسة من عدة مصادر كالآثار الحيرية المردومة تحت طبقات الأرض والخط المسند لأنه كان يقرأ فى صدر الاسـلام وماعثر عليه من كتب السريان والفرس بكنائس النصارى بالعراق وترجمه المسلمون أيام ازدهار مدنيتهم وما تضمنته التوراة فى سفر التـكوين ، وما وردمن ذكر بعض ملوك العرب وقبائلهم فى سفر الأيام وغير ذلك ، وإن كان ما ألمت به هذه الأسفار نزرا قليلا جدا .

العرب المستعربة

وخصوصا ما كان منها قريبا من عصر الاسـلام فان تاريخهم أبين وأوضح لأنهم كان لهم ولوع بالأحاديث والاسمار والجولان والأسفار وتناقل الأخبار ، وكان فيهم ميل لنقل حوادثهم وما وقع لهم إلى غيرهم ، وحفظ أخبار من جاورهم من الأمم واستملاحها بقصد الاعتبار بها والتبصر فيما احتوت عليه من تقلبات الدهر حتى أدوا إلينا كثيرا من ذلك ، وربـما ضمنوه بعض خطبهم واشعارهم ، فكانوا يدخلون البلاد تجارا ويتعرفون بالناس و يتبادلون رواية الاخبار ، فمن سكن الحيرة منهـم خالط الأعاجم ، واتجر ببلاد الفرس وحدث عنهم وعـما رآه فى بلادهم من عوائد وأحوال مختلفة ، ومن دخل بلاد الحبشـة نقل عن أهلها وأخبر بمـا شاهده فيها ، ومن سكن الشام خالط الروم و بنى إسرائيل واليونان ونقل حوادثهم ورواها ببلاده لغيره وهكذا حتى وصل ذلك إلينا ولا يستغرب هذا فى حقهم لأنهم أصحاب حفظ ورواية كما هو المعروف من شأنهم ، وأمّا علومهم التى كانت عندهم وآدابهم وعاداتهم وأيامهم وحروبهم وانسابهم فقد سجلوها فى أشعارهم وخطبهم ومسامراتهم ، ولذلك قيل الشعر ديوان العرب ، وقال بعضهم :

الشعر يحفظ ما يودى الزمان به ☆ والشعر أخفر ماينبى عن الـكرم

ولهم بذلك فضل جليل على التاريخ فيما يخص أمتهم ، فمن شعرهم دون الناس ماعرف من أيامهم وحروبهم .

أخلاق العـــرب

العرب أخلاقهم فى البادية واحدة فى الغالب من قديم الزمان فهم أهل صـدق ووفاء وشهامة وشجاعة وكرم شديدو الغيرة على نسائهم ولا قيمة للحياة فى نظرهم إلا مع العزّة يأنفون من العار ويحفظون الجوار ، ويدفعون عمن دخل فى حمايتهم ، وإذا بغى بعضهم على شخص ، فقال لهم أنا فى حى فلان يعنى رجلا من قبيلتهم ولو فى غيبته رجعوا عنه واحترموا حماية صاحبهم يعرفون المعروف لصاحبه ، ولا تأخذهم فى الحق لومة لائم وهم أبعد الناس عن الرياء والنفاق ، وكلامهم كله صراحة وليس فيه من ألفاظ التفخيم وجل التعظيم ما تضيع معه الحقيقة ، فهم ينادون أمير مكة وهو فى منزلة الملك منهم بقولهم يا شريف كما كانوا ينادون الرسول بقولهم يا محمد ، ضمائرهم تسيل على ألسنتهم ، وسلاحهم أقرب الأشياء إلى أيديهم ، الربيع عندهم خير الأيام ، واللحم سيد الطعام ، وهم أبعـد الناس عن التأنق فى المأكل والملبس يغير قويهم على ضعيفهم ، ويكثرون من غزو بعضهم لبعض ، ولا يترك الرجل منهم ثأره مهما كان ضعيفا ، وإذا لم يتيسر له أن يحصل على حقوقه من غريمه نفسـه ، كان له فى عرفهم أن يغير على شخص من قبيلته يتصل معه فى نسبه إلى الجدّ الخامس ، وإذا قتل شخص آخر ولم يتمكن صاحب الدم أن يقتصّ من القاتل قتل به أباه أو خاله أو عمه أو أحد بنيهم وبه يسقط القصاص ، وبعضهم يرضى بالدية فى قتله وهى عندهم ثمانمائة ريال فى العبد ، وألف ريال فى الحر ، وعشرة آلاف فى الرجل الشريف ، وإذا قتل أحدهم أوقفوه فى قبره حتى يأخذوا بثأره ، وعنـدها يفتحون جدثه وينيمونه فى فراشه الأخير مرتاحا على زعمهم مما صنعوا إلى غير ذلك مما لهم فى هذا الموضوع .

الأمة العربيـــة

من أبعد الأمم وجودا ، وأطولها عمرا ، وأوسعها سلطانا ، بل من أقدم الأمم مدنية وعمرانا وهى على ثلاثة أقسام : القسم الأول : العماليق ، أو العرب البائدة . القسم الثانى : العرب القحطانية . القسم الثالث : العرب العدنانيـة ، وفى كل قسم من هؤلاء الأقسام الثلاثة فروع كثيرة يضيق حصرها .

العـــماليق

العماليق : هم أولاد عمليق بن لاوذ بن سام ، وكانوا يسكنون على حالة بداوة فى الصحراء التى بين العراق والعقبـة ، وكانوا ينقسمون إلى فصائل صـغيرة تنتقل من جهـة إلى أخرى وراء الكلأ ، وكانت لهـذه الفصائل مشيخات منها تقوم بتدبير أمورهم ، وكان ذوو العصبية منهم يشتغلون بنقل التجارة بين بابل ومصر ، وما زالوا على هـذه البداوة حتى كبرت عصبيتهم ، وتغلبوا على بابل وأقاموا بها دولة ، وكان ذلك قبل المسيح عليه السلام ، واستمرّت هـذه الدولة حاكمة مدّة أربعـة قرون تقريبا ، وقد عثر المنقبون على كثير من آثارهم الدالة على رقيهم فى المدنية .

القحطانية

القحطانيـــة

القحطانيون هم بنو قحطان بن سبأ الأكبر بن نوح ، وكانوا يسكنون فى شمال جزيرة العرب وترحلوا إلى بلاد اليمن وانتهى أمرهم بالتغلب عليهم إلى أن أقاموا فى اليمن دولة جديدة يسميها مؤرخو العرب بسبأ الأولى .

العدنانيـــة

لما أتى إسماعيل عليه السلام إلى مكة تزوج بها وولد له اثنا عشر ولدا ، ومازال نسله يتكاثر وكانوا يسمونهم بالاسماعيلية حتى أنتج بعد نحو عشرين بطنا حفيده عدنان ،فولد له معد ، وولد لمعد نزار ، فأنجب أنمار ومضر وقضاعة وربيعة واياد ، وبارك الله فى نسله ، فكان منهم العرب العدنانية ، وكانت منازل هذه البطون الخمسة حول مكة فى مبدأ أمرها ، ثم اضطرتهم الحالة المعاشية إلى طلب الرزق فى جهات جزيرة العرب ، وقد تفرعت هذه البطون الخمسة إلى بطون كثيرة كانت أمهات لقبائل كبيرة ، وكانوا يغيرون على بلاد الفرس فأجلاهم أنو شروان ، ولم تقم من العدنانية قبل الاسلام دول تستحق الذكر ، ولكن كانت ملوك اليمن تعطى لقب ملك لبعض سادات العرب وتوليهم الزعامة على القبائل .

ومن هؤلاء الملوك : زهير بن جناب الكلبي ولاه أبرهة الأشرم على قبائل العرب ، فخرجت عليه بكر وتغلب ، فسار إليهم وغزاهم وأسر وجوههم ، ومنهم وائل بن ربيعة المشهور بكليب وأخوه مهلهل وعاد بهم إلى بلاده ، وكان زهير قد أسن وعجز ، وقام عليه عبد الله ابن أخيه حكيم ، ولما رجع كليب إلى قومه أخذ يستميل إليه العرب ، ويعمل فيهم بكمال درايته وحسن ادارته وكثير كرمه وجوده ، وجمع إليه معدا وأفهمهم مقدار مايصيبهم من تبعيتهم لملوك اليمن وسار بهم ، وحارب ابن حكيم فانتصر عليه فى واقعة عظيمة ، وكان ذلك فى أواخر القرن الخامس للميلاد وبذلك خرج العدنانية من تبعيتهم لملوك اليمن ، ونادوا بكليب ملكا على العرب، ومازال أمر كليب يكبر حتى قتل ناقة لامرأة اسمها البسوس كانت نزيلة على ابن عمه جساس ، فقتله بها غيرة على جواره .

وقامت لذلك حروب هائلة بين بكر وتغلب مكثت أربعين سنة ، ويسمونها حرب البسوس ، ومن ملوك العرب أيضا قيس بن زهير العبسى وله حروب مشهورة ، وفى آخر أيامه اعتزل الملك وذهب إلى عمان وترهب فيها ومات بها وكان له ولد اسمه فضالة وفد على رسول الله ﷺ وعقد له على من معه من قومه .

وأمّا قريش فقد كانت لهم فى جزيرة العرب الزعامة الدينية العامة لاستيلائهم على الكعبة ، وكان لهم بذلك فى العرب منزلة إجلال واعظام لاتقل عن منازل الملوك إن لم تزد عليها ، ومازالت القبائل العدنانيـة على بداوتها حتى ظهر خاتم النبوّة مولانا محمد ﷺ من قريش ونشر دين الاسلام فى قومه ، ثم هاجر إلى المدينة ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر فى قبائل بلاد العرب كلها ، وما لبث أن تجاوزها شرقا وشمالا وغربا ، واستولى العرب فى حكم الخلفاء الراشدين الذين كان

مركزهم المدينة المنورة على بلاد فارس والشام وأرمينية والقوقاز ومصر و بلاد المغرب ، وفى مدّة الأمويين انتقل مركز الخلافة إلى دمشق ، ووصلت فتوحاتهم إلى المحيط الاطلانطى ، ودخلت جنودهم إلى أوروبا من بوغاز جبل طارق ، ومازالت تفتح فى بلادها حتى وصلت إلى قلب فرنسا بل نفذت سراياهم إلى قلب أوربة لتوطيد عرش كان يطلب حمايتهم من ملوكها .

وفى ذلك العهد كنت ترى تجار المسلمين يسيرون بتجارتهم من بغداد إلى القسطنطينية ، ومنها إلى شمال أوربة ، وكانوا يتقابلون مع إخوانهم من التجار الأندلسيين ، فيتبادلون التجارة ثم يعودون فى أمان الله وحماية حكوماتهم إلى بلادهم ، وبقيت العرب فى الأندلس ثمانية قرون ، وكانت لهم بها دولة راقية جدًّا كانت سببا فى رقىّ المدنية الأوربية الحالية فى أخلاقها وعلومها وصناعتها .

وحكم العرب فى الأندلس يبتدىء من سنة اثنتين وتسعين بعد الهجرة ، وهى التى دخل فيها طارق إلى بلادها من مضيق الزقاق بوغاز «جبل طارق» ، ثم تبعه موسى بن نصير ، ومازالا يفتحان فى البلاد حتى خافهما الوليد بن عبد الملك فاستدعاهما ونكبهما ، وما زالت الأندلس تابعة للدولة الأموية ، وكانوا يولون عليها ولاة بلقب أمير إلى سنة ثمان وثلاثين ومائة هجرية .

وفيها استولى عليها عبد الرحمن بن معاوية الأموى واستقلّ بها ، والسبب فى ذلك أنه لما سقطت دولة الأمويين بدمشق ، وقامت دولة العباسيين على يد السفاح أخذوا يتعقبون الأمويين بالقتل ، ولم يفلت منهم إلا القليل ، ومنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، فدخل إلى الأندلس ولذلك يسمونه بالداخل ، فاجتمع عليه الناس وبايعه أهل اشبيلية وقرطبة وغيرهما وتمّ استيلاؤه على الأندلس فى سنة إحدى وأربعين ومائة ، فجعل عاصمته قرطبة ، وقطع الخطبة عن العباسيين ، وبنى بها القصر والمسجد الجامع ، ومازال بنوه بها حتى إذا تربع ثامنهم عبد الرحمن الناصر فى دست الامارة سنة ثلثمائة لقبوه بأمير المؤمنين ، وبه ابتدأت الخلافة العربية بالأندلس ، وأقام الناصر فى الملك خمسين سنة ، واستفحل بها ملك بنى أمية ، وارتقت فيها العلوم والآداب والصناعات وخصوصا بقرطبة التى صارت تناظر بغداد فى فخامتها وضخامتها ، وبنى عبد الرحمن مدينة الزهراء ، وأنشأ بها من القصور ما لا يصل إليه الوصف . وبالجلة فقد كانت مدته كلها نورا وعرفانا وعزّة وسعادة ، وتولى بعده ابنه الحكم سنة خمسين وثلثمائة ، وكان محبا للعلوم وقد شيد دارا للكتب لم يشيد مثلها أحد من الملوك . قالوا إن عدد كتبها نيف وأربعمائة ألف مجلد ، وخلفه ابنه هشام سنة ست وستين وثلثمائة ومازالت الخلافة تنتقل فى بنيه حتى تولاها أمية بن عبد الرحمن فى سنة اثنين وعشرين وأربعمائة ، وكانت الفتنة قد كثرت فى البلاد ، واشتدت فى مدته فهرب ومات فى هربه وهو آخر خلفاء بنى أمية بالأندلس ، وعددهم ستة عشر خليفة كانت دولتهم من أحسن الدول شأنا ، وأضخمها سلطانا ، وأعلاها ذكرا ، وأكثرها ثروة ، ولا زال من آثار العرب قصر الحمراء فى غرناطة ، والقصر المشهور بالكازار ، وبجانبه المنارة التى كانوا يرصدون عليها الكواكب فى اشبيلية والمسجد الجامع فى قرطبة ، وكلها آثار حية تفوق حدّ الاتقان فى صناعتها وزخرفها وفخامتها مما لا تصل إلى تصويره مقدرة الواصفين ، ويقف أمامه الحاضر باهتا لقدرة

الانسان

الانسان الغابر فى ذلك الزمان الزاهر ، فسبحان من بيده الملك وهو القوىّ القاهر

وقامت بعدها بالأندلس دولة العلويين فى سنة سبع وأربعمائة ، واستمرّت إلى سنة ستين وأربعمائة ، وأوّل ملوكها على بن حمود الادريسى ، ولما بايعوه تلقب بالناصر لدين الله ، وضعفت الخلافة فى مدّتهم حتى صارت لاهيبة لها ، فكان ذلك سببا لانقسام ملك الأندلس بين ملوك الطوائف .

فقام باشبيلية محمد بن عباد وبنوه من بعده ، وقام ببطليوس محمد بن عبد الله المعروف بالأفطس وأولاده من بعده ، وقام بطليطلة ابن يعيش ، ثم إسماعيل بن ذى النون ، وقام بسرقسطة سليمان ابن هود الجذامى ، وقام بطرطوشة بيب العامرى ، وقام فى بلنسية المنصور المعافرى ، وقام بسهلة عبود بن زيد البربرى ، وقام بدانيـة الموفق العامرى ، وقام بمرسية بنو طاهر ، ثم استولى عليها ابن عباد ، وقام بالمرية خيران العامرى ، وقام بمالقة بنو حمود ، وقام بغرناطة جسوس الصنهاجى إلا أن الافرنج وهم الاسبانيون ابتدءوا يستعملون هؤلاء الرؤساء أسلحة بعضهم فى نحور البعض الآخر ، ثم أخذوا بعد هذا الانشقاق يستولون على الأندلس بلدا بلدا حتى استولوا على اشبيلية فى سنة خمس وأربعين وستمائة ، فانحازت العرب إلى غرناطة والمرية ومالقة ، وضاق الملك بهم بعد اتساعه وكانت هذه البقية الباقية يتدافع عليها ابن هود مع محمد بن الأحمر ، وفى أثناء ذلك كان عدوهم ينقض على أطرافها شيئا فشيئا حتى أخرجهم إلى سيف البحر ، وهناك اجتمع عليهم جموع من المسلمين ، وزحف إليهم رجال من البربر ، فاستولوا على بعض النواحى ، ولكنهم ما لبثوا أن استولى الاسبانيون على غرناطة عاصمة ملكهم صلحا فى سنة سبع وتسعين وثمانمائة بعد أن أمّنوا المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، ولكنهم خفروا عهدهم وأذاقوهم صنوف العذاب ، وقتلوا النفوس ، وسلبوا الأموال ، وهدموا الآثار ، وأحرقوا القصور والمساجد ، وتشتت المسلمون إلى بلاد المغرب ، ولم يبق فى الأندلس منهم إلا المستضعفون الذين قعدبهم حالهم عن الهجرة وما زالو يسومونهم سوء العذاب حتى دانوا بدين البلاد ، وهذا ما كان من أمر الدولة العربية المغربية .

ملخص سيرة الخلفاء الراشدين وغزواتهم

١ — ابو بكر الصديق رضى الله عنه

فى مبدأ خلافته ارتدّ كثير من قبائل العرب ، ومنع آخرون الزكاة ، وظهر قوم بادّعاء النبوّة وعظم الخطب على المسلمين ونجم النفاق فى قلوب البعض وأشرأبت المشركون لولا أن تدورك هذا الخطب الجسيم بحزمه وهمته وثباته وقوّته ، فانه رضى الله عنه أسرع فى تلافى الأمر ، وأمر بتجهيز الجيوش لقتال أهل الردة ، ولم يزل يقاتلهم حتى رجعوا إلى الاسلام ، وقاتل مانعى الزكاة حتى أدّوها وحارب المتنبئين حتى قتل من قتل وهرب من هرب ، وخرج رضى الله عنه فى مبدأ الأمر بنفسه يريد المقاتلة ومضى حتى وصل إلى الربذة ، ثم أرجعوه إلى المدينة فرجع وعقد أحد عشر لواء لعظماء المسلمين وأبطالهم فغزوا وانتصروا على أعدائهم ونالوا مرادهم منهم ، وعاد الأمر كما كان فى عهد النبى ﷺ وكان ممن ادعى النبوّة الأسود العنسى باليمن وطليحة وخويلد الأسدى بنجد

ومسيلمة بن حبيب الحنفى باليمامة وسجاح بنت الحرث التميمية .

أما الأسود العنسى فان الله قد سلط عليـه من قتـله ، وكان النبى ﷺ أخبر بذلك قبل موته ، فوردت الأخبار لأبى بكر بأنه قد قتل فى الوقت التى أخبر النبى ﷺ أنه يقتل فيه .

وأما طليحة الأسدى فبعد أن عظم أمره واجتمعت عليه قبائل طى وأسد وغطفان وغيرهم أرسل له أبو بكر جيشا تحت إمرة خالد بن الوليد فأخضع قبائل طى و بنى أسد وغطفان وهوازن وسليم، وهزم طليحة وفرّ هاربا إلى الشام ، وأما مسيلمة الكذاب فانه قد اجتمعت عليـه سجاح ومن تبعها من بنى تميم وتغلب وبنى ربيعة وغيرهم من اتباع طليحة الذين انضموا إليها ، فوافقها مسيلمة على دعواها ، فلم يكترث أبو بكر الصديق رضى الله عنه بهـذه الجموع الكثيرة ، وأرسل خالد بن الوليد لغزو مسيلمة وسجاح وأتباعهما ، فقتل مسيلمة الكذاب والذى قتله هو وحشى قاتل حمزة فى جاهليته بالحربة التى قتل حمزة بها ، وأما سجاح فانها لما اشتدّ بها الضيق فرّت هاربة إلى الشام ، وبقيت بها إلى أن أسلمت فى زمن معاوية رضى الله عنـه ، واستشهد من الصحابة نحو سبعمائة رجل أكثرهم من القراء ، وقتل من أتباع مسيلمة نحو سبعة عشر ألفا أغلبهم من بنى حنيفة ، وأعطى أبو بكر من سبى بنى حنيفة علىّ بن أبى طالب جارية فاستولدها محمد ابن الحنفية.

وخاف أبو بكر رضى الله عنـه على ضياع القرآن فجمعه وكتبه فى مصحف واحد وحفظه عند حفصة بنت عمر بن الخطاب زوج النبىّ ﷺ و بقى عندها إلى أن رأى عثمان رضى الله عنه اختلاف الناس فى القرآن ، فأمر بأن تكتب من هذا المصحف عدّة مصاحف فكتبت وسيرها للأمصار للسير على مقتضاها .

ولما هدأ الوقت وانقطعت القلاقل ، وخضع الكل لأمر الخليفة أبى بكر رضى الله عنـه ، ورجع الناس لاتباع الدين الحنيف والشرع القويم تفرغ إلى الفتوحات الخارجة لتعميم عـدل الاسلام فى سائر الأنام ، فجهز خالد بن الوليـد فى جيش كثيف إلى بلاد العراق ، وكانت تابعة للفرس ، وكان ذلك فى شهر المحرم من السنة الثانيـة عشرة من الهجرة ، وفى الثالثة عشرة جهز أبا عبيدة بجيش عرمرم إلى بلاد الشام ، وكانت تابعة للروم ، وصار يسير إليها الجيش بعد الجيش وقال لهم إذا اجتمعتم فأمير الناس أبو عبيـدة ، ولما وصل خالد إلى العراق أخذ يفتح فى بلاده ، ففتح الحيرة والانبار وغيرهما من المدائن ، ولم يزل مجتهدا فى الفتح منصورا فى غزواته حتى كتب إليه أبو بكر يأمره بالانصراف عنها ، وأن يستخلف عليها المثنى بن حارثة ، ويتوجه بمن معه إلى الشام لمساعدة الجنـد هناك ، وجعله أميرا على جيوش الشام بدل أبى عبيـدة فانصرف عنها إلى الشام .

واقعة اليرموك

توجه خالد رضى الله عنه مسرعا إلى الشام إجابة لأمر الخليفة ومرّ باروكة وتدمر وحوران ففتحها ، وصالح أهلها على الجزية ، ولم يزل سائرا محفوفا بالنصر العظيم ، والفتح المبين حتى اجتمعت عساكره بعساكر أبى عبيـدة باليرموك ، والتحم القتال بينهم وبين الروم ، واشـتدّت

الحرب

الحرب ، فانهزمت الروم شرّ هزيمة ، وكان هرقل بمدينة حمص ، فلما بلغه انتصار المسلمين رحل عنها ، وجعلها بينه و بين المسلمين ، ثم حاصر خالد وأبو عبيدة مدينة دمشق ، فدافع أهلها عن أنفسهم دفاعا شديدا ،وأتى جيش أثناء الحصار من الروم لمساعدة المحاصرين نحو سبعين ألف مقاتل ، فهزمه المسلمون شرّ هزيمة عند مدينة اجنادين ،وكان جيش المسلمين نحو عشرين ألف مقاتل ، وغنموا من الروم غنائم كثيرة ، وافتتحوا بصرى واجنادين من بلاد فلسطين ، وحصلت بينهم و بين الروم عدة وقائع كان النصر فيها للمسلمين ،وكان ممن حضر من الشجعان المشهورين عند العرب فى هذه الغزوة عمرو بن معديكرب ، وهو الذى قتل رئيس جيش الفرس رستم الشجاع بعد أن ضرب الفيل الذى ركب عليه رستم بضربة واحدة أحاطت به أجمع ، وخرّ رستم صريعا على اليدين والرجلين .

وجعت الفرس رجلى الفيل الأربع ، وعلقتها بالكنيسة العظمى ، فاذا قيل لهم كيف غلبتكم العرب مع قلتهم ؟ تقول وجدنا فيهم من يفعل هذا .

و بينما المسلمون على حصار دمشق إذ جاء الخبر بوفاة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فكتموه ومضوا فى القتال ، ولم يشعروا أحدا به مخافة أن يحصل اضطراب أو وهن فى العزيمة ، وكانت وفاته رضى الله عنه فى ثالث عشر جادى الآخرة من السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، ومدّة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشر ليال ، وعمره ثلاث وستون سنة ، ودفن بجوار رسول الله ﷺ .

٢ — عمر بن الخطاب رضى الله عنه

هو الخليفة الثانى بعد النبى ﷺ بويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه أبو بكر رضى الله عنه ولقب بأمير المؤمنين فرارا من قولهم خليفة خليفة رسول الله ، وأوّل عمل بدأ به أنه ردّ سبايا أهل الردّة إلى عشائرهم ، ولما تمّ له أمر الخلافة أرسل إلى أبى عبيدة يخبره بوفاة أبى بكر وولاه الشام والجند ، وعزل خالد بن الوليد ، وكان خالد ومن معه فتحوا مرج الصفر ، وكانوا على حصار دمشق ، ثم إن صاحبها طلب الصلح ، فدخل أبو عبيدة من باب بالأمان ، ودخل خالد عنوة من الجهة الأخرى ، وكان فتحها فى السنة الرابعة عشرة ، ووجه أبو عبيدة عمرو بن العاص إلى الأردن وفلسطين ففتح الاردن عنوة ، وفى السنة الخامسة عشرة فتحت بعلبك وغيرها من المدن على يد خالد ، وحوصرت حمص ، ثم طلب أهلها الصلح ، و بثّ أبوعبيدة عماله فى نواحى حمص وفتحت اللاذقية وجبلة وانطرسوس ، ولما رأى هرقل تقدّم المسلمين السريع أفاق من غفلته ، وسير ثمانين ألفا إلى أنطاكية وقيسارية ، وكان جبلة بن الأيهم الغسانى على مقدّمة الروم فى جيش من قومه يبلغ عشرين ألف مقاتل ، واجتمع كثير من جوع أهل الشام للمدافعة عن أوطانهم ، ولما علم أبو عبيدة بهذه الجوع رجع إلى دمشق ، وكتب بذلك إلى عمر ، فأمده بثمانية آلاف من الجند ، فهزم الروم شرّ هزيمة .

ثم توجه أبو عبيدة إلى بيت المقدس فحاصرها أربعة أشهر ، فطلب بطريقها من أبى عبيدة أن يكون الخليفة هو المصالح لهم ، فأخذ عليهم المواثيق بذلك ، وكتب إلى عمر ، فخرج من المدينة ولما وصل إلى دمشق نزل الجابية من أرضها ، وجعل خالدا على مقدمته وأدناه منه وأمّره ، ثم

سار إلى بيت المقدس فافتتحها صلحا ، وكتب لهم بذلك كتابا هـذه صورته : بسم الله الرحمن الرحيم هـذا كتاب كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم لاتسكن ولا تخرب إلا أن تحدثوا حدثا عاما وأشهد شهودا ، ثم إنه دخل المدينة ، وزار كنيسة القمامة ، وأقام هناك عشرة أيام ألقى فى أثنائها أساس مسجد على شكل هيكل سليمان عليه السلام وهو المسمى بمسجد عمر ، وكان ذلك سنة ست عشرة ، وفى سـنة سبع عشرة هجرية حجّ عمر بالناس وعمر المسجد الحرام وزاد فيه ، وفيها حصل قحط بالمدينة ، وصارت القوّاد ترسل الأقوات إليها حتى خفّ الضيق ، وأراد قوم احتكار الأقوات فنهاهم عمر رضى الله عنه عن ذلك.

و بعد فتح بيت المقدس انقسمت عساكر الاسلام إلى قسمين قسم بقى فى فلسطين صحبة عمرو ابن العاص والآخر وهو الأكبر ذهب إلى انطاكية ، وحلب صحبة أبى عبيدة وخالد وقاسوا أهوالا شديدة فى حصار حلب ، ثم استولى المسلمون عليها بعد حصارها خمسة شهور ماعدا قلعتها، وكان بها بطريق شجاع ذو مكانة عالية فى الدولة الرومانية ، فأراد أبو عبيـدة تركها فلم يرض عمر بذلك ، وبقيت محاصرة إلى أن فتحت على يد دامس الشجاع من موالى ملوك كندة .

وفتحوا أيضا مرعش وقنسرين ، ثم فتحوا أنطاكية صلحا بعد قتال قليل ، وكانت مدينة عظيمة اتخذها خلفاء الأسكندر مقرّا لهم ، وكذا خلفاء ملوك الروم فى المشرق ، وكان فتحها سنة ثمانى عشرة هجرية ، وفتحت قيسارية أم ولايات قسطنطين الثلاث ، وكان على حصارها معاوية ابن أبى سفيان ، وكان بها وقت الحصار قسطنطين بن هرقل ، ومعه أربعون ألف جندى ، ففرّ إلى القسطنطينية ، وترك هرقل بلاد سورية كلها للمسلمين لما رأى بطشهم وقوّتهم ، وأيقن أنهم لا يغلبون ، و بعد أن تملك المسلمون لبنان استولوا على طرابلس وصور بغاية السهولة ، ووجدوا فى مرساهما خمسين سفينة محملة ذخائر وأقواتا وأموالا وكانت للروم .

وصارت غزة وعسقلان والرملة ونابلس وعكة وصيدا للمسلمين ،ودخلت سورية بأجمعها فى قبضة المسلمين ، وفى سنة ثمانية عشر هجرية أيضا حصل طاعون عمواس ، ومات به من المسلمين خمس وعشرون ألفا ، ومات أبو عبيدة رضى الله عنه ، وكان عمر رضى الله عنـه قد حضر بلاد الشام عند منصرفه من الحج، فلما بلغه تزايد الطاعون رجع وكلمه أبو عبيدة بقوله : أفرارا من قدر الله ياعمر ؟ قال نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله .

ومات خالد رضى الله عنه بعد أبى عبيدة بن الجراح بثلاث سنين ، وكان من أشهر الشجعان الاسـلامية ، ومن تأمل فتح المسلمين بلاد الشام فى ست سنين أخذه العجب والاندهاش مع ان تلك البلاد كانت تابعة لدولة الروم القوية البطش العريقة فى الحضارة ، وكانت مدنها مملوءة بآلات الدفاع غاية فى المنعة ـ وما النصر إلا من عند الله ☆ إن ينصركم الله فلا غالب لـكم و إن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ـ

افتتاح بلاد الفرس وغيرها

لم تكن المسلمون تكتفى ببلاد الاسلام وحدها فانه بينما كانت جيوشهم تتقدم منصورة ببلاد سوريا وفلسطين كانت لهم كذلك عدة جيوش ببلاد الفرس والعراق والجزيرة لأن عمر رضى الله

عنه لما جلس على كرسى الخلافة أرسل سعد بن أبى وقاص لتجديد الحرب على الفرس بثلاثين ألف جندى ، فسار حتى نزل بسهول القادسية بجوار المكان الذى شيدت فيه مدينة الكوفة ، واقتتل مع الفرس قتالا شديدا عدّة أيام ، وكان جيشهم يزيد على مائة ألف جندى تحت قيادة رستم أحد مشاهير قوادهم ، وكان ذلك فى عهد يزد جرد ، فصدم المسلمون الفرس فى اليوم الرابع ، وكانت الريح شديدة ، وغشى الغبار أعين الفرس فتشتتوا ، وقبض على رستم فى أثناء فراره ، وقتل ومات من الفرس فى تلك الوقائع نحو أربعين ألفا ، ومن أهل الاسلام ثمانية آلاف وجرح مثلهم وكان ذلك سنة خمس عشرة هجرية ، ووقع تاج كسرى ومنطقته ودرعه فى يد المسلمين ، وكانت مكللة بالجواهر ، واستولوا على بساطه ، وكان طوله ستين ذراعا فى مثلها ، وكان على هيئة روضة رسمت عليها الزهور ، وأنواع الطير بالجواهر على قضبان من الذهب ، فبعث به سعد إلى الخليفة عمر ففرقه على المسلمين ، وأصاب على بن أبى طالب قطعة ، فباعها بعشرين ألف درهم ، ثم وقعت بلاد العراق كلها فى يد المسلمين ، وأسسوا هناك مدينة البصرة عند ملتقى الدجلة والفرات ، ثم قطع سعد الفرات وتملك المدائن ، وكانت عاصمة الفرس ، وكانت من أعظم مدن العالم ، ولم يبق منها الآن إلا قبو قائم فى الصحراء ، وتقدم جيش المسلمين نحو جولاء ، وكان بها يزد جرد ملك العجم ، فرحل عنها وأخذها المسلمون ، وفتح المسلمون أيضا تكريت والموصل والأهواز ، وفى سنة سبع عشرة هجرية اختطت الكوفة ، وتحوّل سعد إليها ، ووجدوا بالمدينة أموالا لا تحصى كثرة ، و بعد أن استولوا على بلاد العجم لم يبق بينهم و بين الترك غير جيحون فعبروه وفتحوا ما وراءه ، وقصد بعض قوادهم بلاد الهند وأخضعوا سواحلها ، وكان عقبة بن غزوان يغزو البلاد التى بين جيحون وشط العرب ، ودخلت بخارى وسمرقند وغيرهما فى الاسلام ، واستمرّ المسلمون يفتحون و يتقدمون ببلاد الفرس تحت قيادة عمار بن ياسر حتى تقابل ببلاد نهاوند مع جيش فارسى نحو مائة ألف جندى وخمسين ألف جندى ، فهزمه المسلمون شر هزيمة ، وكان ذلك سنة إحدى وعشرين هجرية ، وفيها أيضا فتحت اصفهان وهمذان ، وتوفى خالد بن الوليد رضى الله عنه ، وفى سنة اثنين وعشرين هجرية فتحت أذربيجان والرى وجرجان وقزوين وطبرستان وغزا الأحنف بن قيس خراسان وحارب يزد جرد ، وافتتح هراة عنوة ومع هذا كله فان يزد جرد لم تزل فيه روح الأمل فى استرجاع دولته ، ولذلك قد طلب المساعدة من ملك الترك وملك الصين فأمداه بجيوش عظيمة ، ومع ذلك فان جيوش الاسلام قد هزمته ، ولم يحصل على طائل غير أنه ولى مدبرا بمن معه من خواصه ، و بقى إلى أن قتله أحدهم عند نهر مرغ آب و بمقتله انتهت دولة آل ساسان ، وكانت هذه الفتوحات الكثيرة فى هذه المدة القصيرة تعد من خوارق العادات ومن الغرابة بمكان .

فتوح مصر وافريقية

وكان ذلك من سنة ثمانى عشرة إلى سنة عشرين هجرية ، لما رأى هرقل ما حل بسورية وغيرها من ممالكه خاف على ما بقى منها ولاسيما مصر فعقد بينه و بين عمر رضى الله عنه معاهدة

مضمونها أنه يدفع جزية سنوية معلومة فى أوقات معينة من السنة فى مقابلة ترك المسلمين مصر ولما لم تكن هذه الجزية تدفع فى أوقاتها وبالقدر المعين اعتبر الخليفة تلك المعاهدة لاغية ، وكان عمرو ابن العاص يرغبه فى فتحها كثيرا ويقول له أنك إذا فتحت مصر كانت عونا للمسلمين وقوة لهم وهى أكثر الأرض أموالا ، وأعجز عن القتال ولم يزل به حتى رضى وأذن له بالمسير فسار ومعه أربعة آلاف رجل كلهم أقوياء أشداء ، وقال له الخليفة سر وأنا مستخير الله فى سيرك ، وسيأتى إليك كتابى سريعا إن شاء الله تعالى ، فان أدركك وكنت قد دخلت مصر أو شيئا من أرضها فامض لوجهك ، وإن لم تكن قد دخلتها أو شيئا من أرضها فانصرف عنها ، فسار عمرو بن العاص فى جوف الليل ، ولم يشعر به أحد من الناس حتى وصل رفح قرية قرب العريش ، فأدركه رسول الخليفة فتخوف عمرو إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول وسار يدافعه ، وأمر بجد السير حتى أمسى ، فسأل أين نحن ؟ فقيل فى العريش ، فقال وفى أى أرض هى ؟ فقيل له فى أرض مصر ، فحمد الله وأمر بالمبيت ، وتناول الكتاب حينئذ وقرأه ، ولما أصبح الصباح تلاه على الجنود بصوت عال وهو : بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته أمّا بعد فان أدركك كتابى هذا وأنت لم تدخل مصر فارجع عنها ، وإن أدركك وقد دخلتها أو شيئا من أرضها فامض لوجهك واستنصر الله ينصرك واعلم أنى ممدك ، ثم قال هلمّ بنا اطاعة لأمير المؤمنين وكان جيشه يزداد بمن ينضمّ إليه من المسلمين فى أثناء سيره ، وأوّل مدينة قاتل فيها هى مدينة الفرما قاتلت الروم قتالا شديدا نحو شهر ، ثم فتحها الله عليه ، وكان على ميمنة عسكره عبد الله بن سعد منذ خروجه من قيسارية إلى أن قرب من أرض مصر ، ثم سار عمرو بن العاص ، ولم يكن يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى مدينة بلبيس ، فحاصرها نحو شهر ، ثم فتحها ، وكان بها بنت المقوقس ارمانوسة ، ولما استولى على المدينة سيرها إلى أبيها استجلابا للمودة ، ففرح أبوها بذلك غاية الفرح ، ثم سار عمرو ، ومازال حتى مرّ بجانب المقطم ، فأشرف على حصن بابل ، وكان على ضفة النيل الشرقية ومكانه الآن مكان قصر الشمع ، وكان حصنا منيعا ويزيده النيل منعة وامامه جزيرة الروضة وبينهما جسر من الخشب ، فأمر عمرو بنصب الخيام فيما بين الحصن والمقطم ولما رأى أن ذلك المكان مناسب أقام هناك جامعا لايزال للآن وعادت مضارب المسلمين بيوتا والقلعة مدينة ودعيت الفسطاط ، وصارت فيما بعد عاصمة البلاد المصرية ، وكان فى ذلك الحصن جنود الروم ، وقد تأهبوا للدفاع ومعهم المقوقس ، وكان عاملا من قبل الروم على مصر العليا ، واتخذ هذا الحصن مركزا حربيا ، فأخذ عمرو فى المهاجمة مدّة فأبطأ عليه الفتح ، فكتب للخليفة يستمده فأمدّه بأربعة آلاف عليهم أربعة من كبار القوّاد وهم : المقداد بن الأسود ، والزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، وقيل إن الرابع هو خارجة بن حذافة ، ومعهم كتاب من الخليفة يقول فيه : قد أنفذت إليك أربعة آلاف على كل ألف منهم رجل مقام ألف ، فصار معك اثنا عشر ألفا لأنه كان أمدّه بأربعة آلاف أخرى بعد فتح بلبيس ، ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة ، وكان الروم قد خندقوا عليهم ، وألقوا بالخنادق حسك الحديد ، فصارت

المسلمون

المسلمون تهاجم الأعداء حتى اضطروهم إلى الاتجاه إلى داخل الحصن ، وصارت المسلمون محيطة به من ثلاث جهات ، واستمرّ الرمى بالسهام مدّة ، وشدّد المسلمون الحصار ، وسلطوا المنجنيق على الحصن ، وتخابروا مع المحصورين فى شأن التسليم ، ويقال إن المقوقس كان ممن يريدون الصلح إلا أنه ليس من وظيفته الاستقلال بذلك بدون مشاورة عظماء الروم ، وكانت الأقباط يكرهون الروم لما هو حاصل بينهما من المناقشات الدينية والخلافات المذهبية ، ولما تضايق المحصورون تركوا الحصن وعبروا الجسر ليلا وأبقوا به من يقوم بالمدافعة حتى ينظروا لهم أمرا بدون أن يعلم المسلمون بذلك ، ولما أبطأ الفتح قال الزبير بن العوام انى أهب نفسى لله وأرجو أن يفتح الله علينا ووضع سلما طويلا قويا إلى جانب الحصن ، وصعد عليه وتبعه القوم إلى أن وقف فوق بعض أسواره هو وعدد من الشجعان ، فعند ذلك هرب من كان باقيا به من عظماء القبط والروم والجند ، واستولى المسلمون عليه وكان مكثهم على أبوابه حتى فتحوه سبعة أشهر وفرّ من بقى منهم إلى مدينة منف ، وكانت عاصمة مصر العليا ، وكسروا بعد مرورهم الجسر الخشب الذى بين الروضة والضفة الغربية ، وأرسل المقوقس كتابا إلى عمرو بن العاص يهدّده فيه ويخوّفه بأس الروم ، وأنهم تجهزوا لقتاله بالعدّة والسلاح وينصحه بالرجوع إلى بلاده ، فأرسل عمرو إلى المقوقس كتابا يقول فيه : إنا لا نقبل إلا إحدى ثلاث : الاسلام ، أو الجزية ، أو القتال حتى يحكم الله ، ثم إن المقوقس أرسل يطلب من عمرو رسلا ليتخابروا فى أمر الصلح ، فأرسل عمرو عشرة رجال أحدهم عبادة بن الصامت ، وكان هائل المنظر أسود اللون ، وجعله متكلم القوم ، وبعد أن تكلم مع المقوقس بفصاحة تامّة ، وأظهر له مطلوبهم رجع ثانيا مع أصحابه بعد جدال طويل مع المقوقس كانت نهايته أنه رضى بدفع الجزية هو وأصحابه حيث لامقدرة لهم على ردّ المسلمين ، ثم اجتمع المقوقس مع عمرو فى مكان معين لامضاء شروط الصلح ، ومضمونها الأمان لأهل مصر على أنفسهم وعيالهم وأموالهم وكافة متعلقاتهم ، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا أجمعوا رأيهم على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم ، وكذلك من دخل فى صلحهم من الروم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، وأنهم لايمنعون من تجارة صادرة أو واردة إلى آخر العهد ، ولما تمّ الصلح كتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه فلم يقبل وكتب إليه يقبح رأيه ويقول : إنما أتاك من المسلمين اثنا عشر ألفا وبمصر من القبط ما لايحصى ، فان كان القبط قد فضلوا أهل الاسلام علينا أو كرهوا قتالهم فان عندك من بمصر والاسكندرية من الروم أكثر من مائة ألف ، وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا لمن بمصر من الروم. أمّا المقوقس فلم يرض أن ينقض عهده وأخبر عمرا بذلك قائلا إنى نصحت لهم فاستغشونى فلا تجبهم إلى ما أجبتنى إليه وإنما سلطانى على نفسى وعلى من أطاعنى وتمّ صلح القبط ، وكتب عمرو بذلك للخليفة ، ثم سار عمرو إلى الاسكندرية للاستيلاء عليها ، وكانت فى غاية المنعة والتحصين ومحاطة بالبحر ، وكانت المسلمون تهجم على السور والقلاع هجوما غريبا ما رؤى مثله ، وكان عمرو يعرض نفسه للخطر مرارا حتى دخل هذه المدينة فى إحدى هجماته وبعد حصارها أربعة عشر شهرا ، وكان دخوله إليها سنة عشرين هجرية الموافقة سنة ستمائة وأربعين ميلادية ، ولما فتحت الاسكندرية أرسل عمرو إلى الخليفة يقول له : لقد فتحت

مدينة المغرب العظيمة ولا يقدر على تعداد ما فيها من الأموال ، وبالاختصار انها تحتوى على أربعة آلاف حمام ، وقد أخذناها عنوة دون شروط ، وأرسل عمر إلى عمرو بمنع النهب والسلب وبأن تؤخذ الجزية ، وبعد هذا بقليل مات هرقل وقيل إنه مات غما ، وهاج شعب القسطنطينية لانقطاع الأقوات التى ترد إليهم من الاسكندرية ، وحكم المجلس بتجديد الحرب على المسلمين ، وأرسلوا جيوشا كثيرة ، فلم يتمكنوا من شىء وطردوا بعد أن حصلت لهم خسائر كثيرة ، ولما تم الأمر لعمرو بن العاص بمصر أجرى فيها مناهل العدل ، ورفع المكوس والمظالم ، ووصل النيل بالبحر الأحمر تسهيلا لنقل البضائع إلى بلاد العرب ، ثم صار عمرو نحو برقة فصالحه أهلها وتقدم إلى طرابلس الغرب وفتحها عنوة .

وفى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه اتسع نطاق الاسلام ، وخضعت الفجرة اللئام ، وقويت شوكته بما فتحه من الجهات حتى سامى السماء رفعة وشرفا .

وكانت خلافته زهرة تاريخ الاسلام حتى قال بعض المؤرخين إن المسلمين قد افتتحوا فى مدّته ستة وثلاثين ألف مكان مابين مدن وقرى وقلاع وحصون ، وهدموا أربعة آلاف هيكل ، وأقاموا ألفين ومائتى جامع ، وكان رضى الله عنه من أعظم أهل السياسة ، وأحكم رجال الرياسة ، وكان صاحب فضل وزهد وعدل وشفقة على الرعية ، وكان كريما محسنا للفقراء ، وهو أوّل من لقب بأمير المؤمنين ، وأول من أرّخ بالسنة الهجرية على المشهور ، وأوّل من عس بالليل ، ودوّن الدواوين واستقضى القضاة ، وكانت وفاته يوم السبت سلخ ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين هجرية ، ومات رضى الله عنه شهيدا بطعنة من أبى لؤلؤة فيروز عبد المغيرة بن شعبة .

وكانت مدّة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام ، ودفن عند النبى ﷺ .

وانظر ترجمته فى كتابنا « البحر الزاخر ، فى ذكر ما للملوك الشرق والغرب ومعاصريهم من النوادر والمفاخر » تر العجب .

٣ — عثمان بن عفان رضى الله عنه

وهو الخليفة الثالث بعد وفاة النبىّ ﷺ ، بويع له بالخلافة لثلاث ليال مضت من المحرم سنة أربع وعشرين هجرية .

ثم أقرّ عمال ابن الخطاب سنة تنفيذا لوصيته ، ثم إنه عزلهم بعد ذلك وغيرهم بمن يريد ، فعزل عمرو بن العاص عن مصر وعوّضه بعبد الله بن سعد العامرى أخاه فى الرضاعة سنة ست وعشرين ، وجهزه عثمان بأربعين ألفا حين وجهه إلى مصر ، وأمره بالسير إلى بلاد المغرب ، فسار إليها وبعد مدّة وصل إلى نواحى طرابلس ، وافتتحها سنة ست وعشرين ، وكانت قد اجتمعت هناك أهالى البلاد بأموالهم ، وجاءته عساكر الروم فغزاها وظفر بها ، ثم قدم عليه البطريق جرجس ، وكان واليا على الأقطار التى بين طرابلس وطنجة من طرف ملك الروم ، ومعه مائة وعشرون ألفا وعدد عظيم من الأهالى وتجدد القتال ، ودام أياما متوالية كل يوم من الصباح إلى الظهر حتى تشتدّ الحرارة ، وكان عبد الله تنحى عن الحرب ، وترك إمرة الجنود إلى غيره ، ولما

طال أمر الحرب أمر عثمان عبد الله بن الزبير أفرس أهل زمانه بالمسير إلى تلك الجهات ومعه اثنا عشر ألفا ، ولما وصل إلى الجنود الاسلامية تقابل مع أميرهم الذى اعتذر عن تنحيه بتحالف العدوّ على قتله .

وفى اليوم الثانى صدم ابن الزبير بعسكره عسكر البطريق فهزمهم وقتله ابن الزبير نفسه ، ولما قتل هربت بقية عساكره إلى مدينة سبيطلة فى تونس ، وكانت مدينة جيلة واسعة قوية ، فحاصرها ابن الزبير حتى فتحها ، وصار بين المسلمين و بين قرطاجة نحو مائة وخمسين ميلا ، ولم يمنعهم عن فتحها إلا مالحقهم من التعب وموت كثير منهم بالحرب ، ولما رأى الافريقيون قوّة المسلمين صاروا يتواردون عليهم إما لطلب الصلح على دفع جزية معينة أو الدخول فى دين الاسلام ، ثم رجع المسلمون إلى مصر بالأموال الكثيرة والغنائم العظيمة بعد أن غابوا عنها خمسة عشر شهرا .

واستأذن معاوية بن أبى سفيان عثمان رضى الله عنه سنة سبع وعشرين بغزو الروم فى البحر فأذن له ، وجهز عبد الله بن كريز لمدينة نيسابور ففتحها عنوة سنة ثلاثين ، وفتحت كذلك هراة ومرو والرود وجرجان والطالقان والفاريان وطخارستان حتى نهر بلخ وأرمينية .

وبلغ عثمان رضى الله عنه ماوقع فى أمر القرآن من أهل العراق ، وأنهم يقولون قرآننا أصح من قرآن أهل الشام لأننا قرأنا على أبى موسى الأشعرى ، فأمر باحضار المصاحف التى بأيدى الناس وحرقها ، وقيل سلقها بالماء الحار ، ثم أمر باحضار المصحف الذى كان عند حفصة حيث أجمع الصحابة عليه ، ونسخ منه عدّة مصاحف وسيرها إلى الأمصار للسير على مقتضاها .

وفى السنة الثانية والثلاثين عصت خراسان واجتمع أهلها وخلق كثير ، فسار إليها المسلمون وفتحوها ثانيا ، و بينما أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه مشتغل بالفتح مكللة جيوشه بالنصر والظفر إذ نقم الناس عليه وكثرت أضداده ، وتكلموا فيه بزعم أنه آثر أقاربه وقدّم ذوى رحمه و بنى الدار واتخذ الضياع والأموال من بيت مال الله والمسلمين وغير ذلك مما هو مسطر ، فاجتمع عدد من الناس على قتله وجدّوا فى ذلك إلى أن قتل وهو صائم وهو يتلو القرآن فى المصحف ، وكان مقتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، ومدّة خلافته ثنتا عشرة سنة إلا اثنى عشر يوما .

فتح المغرب زيادة عَلَى ما ذكرنا سابقاً

فى سنة إحدى وعشرين هجرية ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن العاص وسيره إلى فتح برقة وطرابلس بعد أن فتح مصر والاسكندرية .

وفى سنة ست وعشرين ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه عبد الله بن سعد بن أبى سرح وسير معه جيشا وفيه عبد الله بن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير ، ثم ساروا إلى طرابلس بعد أن لقوا عقبة بن نافع ببرقة فيمن معه من المسلمين ، وكان ملك طرابلس إذ ذاك جرجير الافرنجى يملك مابين طنجة وطرابلس تحت ولاية هرقل ، فافتتح المسلمون ذلك كله .

وفى سنة خمس وأربعين ولى معاوية رضى الله عنه معاوية بن خديج الكندى الصحابى على المغرب و بعث ابن الزبير إلى سوس فافتتحها ، ثم بعث عبد الملك بن مروان إلى جلواء فافتتحها ، وفى سنة اثنتين وأربعين فتح عقبة بن نافع الفهرى غدامس من تخوم السودان .

وفى سنة ثلاث وأربعين افتتح ودان وكورا من كور السودان وأثخن فى تلك النواحى ، وكان له فيها جهاد وفتوح ، فلما كانت سنة أربع وأربعين ولاه معاوية على افريقية استقلالا فاختطّ القيروان و بنى بها الجامع الأعظم ، وجعل دور سورها اثنى عشر ميلا ، ثم عزله معاوية عنها وولى أبا المهاجر النيار سنة خمس وخمسين هجرية ، وفتح تونس وتلمسان ، وهذا هو المغرب الأوسط .

ثم لما ولى يزيد بن معاوية عزل أبا المهاجر وولى عقبة بن نافع مرة ثانية وفتح المغرب الأقصى سنة اثنتين وستين ، ثم لما أتمّ الفتوحات أرسل العساكر تباعا إلى القيروان ، فلما وصل إلى تهاوند فى قليل من جيشه نظر إليه الافرنج فطمعوا فيه ، وكان كيسلة الأوربى كبيرهم ، فأغاروا عليه ، وكان معه من الصحابة نحو الثلثمائة فأبلوا بلاء حسنا وقتلوا عن آخرهم رضى الله عنهم وهم بمصرع واحد من أرض الزاب .

ولما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة كان زهير بن قيس البلوى مقيما ببرقة منذ مهلك عقبة بن نافع فبعث إليه عبد الملك المدد لحرب البربر واستنقاذ القيروان من كيسلة الأوربى ، وكان ذلك سنة تسع وستين ، فنصره الله عليه واسترجع القيروان من يده .

ثم ارتحل قاصدا المشرق ، فلما وصل إلى برقة وجد أسطول الروم على قتالها من قبل قيصر فصمد إليهم مع أصحابه وقاتل حتى قتل رضى الله عنه ، ولما رحل زهير المذكور إلى المشرق اضطربت بلاد المغرب بعده واضطرمت بها نار الفتنة ، فبعث اليهم عبد الملك حسان بن النعمان فى جيش كثيف فخرب قرطاجنة وكانت من عجائب مدن الدنيا.

ولاة المغرب

كانت ولاية موسى بن نصير على المغرب وفتحه الأندلس وطنجة سنة سبع وسبعين ، وقيل سبع وثمانين ، ولاه الوليد بن عبد الملك .

ولاية محمد بن يزيد ، وكانت ملاحم مع المخالفين بثغور المغرب، ولاه سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين .

ولاية إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر وهو الذى تمّ إسلام البربر على يديه ، ولاه عمر ابن عبد العزيز على رأس السنة المتممة للمائة .

ولاية بشر بن صفوان وهو الذى مهد المغرب وسكن أرجاءه ، ولاه يزيد بن عبد الملك سنة ثلاث ومائة .

ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى على المغرب والأندلس ، ولاه هشام بن عبد الملك سنة عشر ومائة .

ولاية

ولاية كلثوم بن عياض على المغرب وهو الذى قتله خوارج البربر ، ولاه هشام بن عبد الملك سنة ثلاث وعشرين ومائة .

ولاية حنظلة بن صفوان الكلبى على المغرب،وهو الذى غزا هوارة وكانوا خوارج على الدولة وعلى مذهب الصفرية، وأثخن فيهم ، فأحصيت القتلى فى تلك الوقعة فكانت مائة وثمانين ألفا و بقى فى محله إلى أن ظهر الضعف فى الخلافة بالمشرق ، فظهر صا البرغواطى المتنبى، و برغواطة بطن من المصامدة وهم مابين سلا وآسفى ، وقد ادّعى النبوّة بعد أن كان من أهل العلم والخير وبقيت ضلالته منتشرة من بعده إلى أواسط المائة الخامسة ، وكان للدول فيهم ملاحم شديدة إلى أن جاءت دولة المرابطين فمحوا أثر بدعتهم .

تغلب آل عقبة بن نافع عَلَى المغرب

أوّلهم عبد الرحمن بن حبيب ، وكان ذلك سنة سبع وعشرين ومائة ، وقتل على فراشه سنة سبع وثلاثين ومائة ، وقام بعده إلياس بن حبيب ، وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين ومائة ، و بنى جامع قرطبة ، ومهد الدولة بالأندلس ، ثم قام عليه حبيب بن عبد الرحمن ، وكان ذلك سنة تسع وثلاثين ومائة .

وفى هذه السنة ظهر عاصم بن جميل المتنبى ، وقتل سنة أربعين ومائة ، وفى هذه السنة قام عبد الملك بن أبى الجعد على حبيب المذكور واستحلّ المحرمات كعاصم بن جميل .

وفى سنة إحدى وأربعين ومائة قام عليه عبد الأعلى بن السمح واستولى على المغرب ، وفى هذه السنة ظهرت الطائفة الصفرية من آل مدرار المكناسيين ، وهم الذين بنوا مدينة سجلماسة .

وفى سنة اثنتين وأربعين ومائة وجه أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الخزاعى إلى المغرب وولاه عليها ، ثم ثار عليه بعض جنده ، وقفل راجعا سنة ثمان وأربعين ومائة .

فعاضده المنصور بالأغلب بن سالم التميمى وعقد له على المغرب وهو جدّ الأغالبة من ملوك افريقيا ، وكان ذلك سنة خمسين ومائة .

ثم عزله المنصور وولى على المغرب عمر بن حفص سنة إحدى وخمسين ومائة ، ثم ثار عليه البربر سنة أربع وخمسين ومائة ، فقاتل حتى قتل .

ثم تولى على المغرب يزيد بن حاتم ، فدخل القيروان ومهدها ، وكان شجاعا كريما فى السنة المذكورة ، وتوفى بها سنة سبعين ومائة .

ثم تولى على المغرب أخوه روح بن حاتم سنة إحدى وسبعين ومائة فكانت أيامه أيام هدنة وأمن ، والذى ولاه هو هارون الرشيد ، وتوفى سنة أربع وسبعين ومائة .

ثم تولى بعده فى التاريخ المتقدّم حبيب بن نصر المهلبى ، ولاه الرشيد ، ثم عزله سنة سبع وسبعين ومائة .

ثم تولى بعده فى التاريخ المتقدّم الفضل بن روح بن حاتم إلى أن قتل سنة ثمان وسبعين ومائة وانقرضت بانقراضه دولة آل المهلب من المغرب .

ثم ولى الرشيد على المغرب هرثمة بن أعين فبنى القصر الكبير بالمنستير ، وبنى السور على طرابلس، ولما رأى مابالمغرب من كثرة الثوّار استعفى الرشيد فأعفاه لسنتين ونصف من ولايته .

ثم ولى الرشيد على افريقية محمد بن مقاتل المكى ، وكان رضيعا له فاضطربت افريقية ، وبلغ الرشيد ذلك ، وطلب أهل افريقية إبراهيم بن الأغلب ، وكان من عمال محمد بن مقاتل فولاه عليهم سنة أربع وثمانين ومائة فضبط البلاد واستراحت من الفتن وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان ، وانتقل إليها بجملته وأورث بافريقية ملكا لبنيه من بعده .

وفى هذه المدّة انقسم المغرب إلى ثلاث ممالك :

فكان بنو الأغلب بافريقية والقيروان .

وبنو خزر المغراويون بالمغرب الأوسط وتلمسان .

وبنو إدريس بالمغرب الأقصى .

ملخص تاريخ المغرب الأقصي

ولا بأس بتكراره زيادة فى الفائدة والايضاح . لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية سنة عشرين ، وفتح طرابلس سنة اثنتين وعشرين هجرية واستأذنه فى التقدم إلى افريقية فأبى عليه ، وقال تلك المفرقة وليست بأفريقية ، فرجع إلى مصر وبقى عليها إلى أن كانت خلافة عثمان رضى الله عنه فعزله ، وولى مكانه عبد الله بن سعد ابن أبى سرح وأمره بغزو افريقية ، فخرج إليها سنة ست وعشرين وصالح أهلها على الجزية ، ثم كرّ إليها فى السنة المذكورة بجيوش جرارة والتقى مع البربر قرب سبيطلة ، فاشتبك القتال بين الفريقين أياما ، ثم انكشف عن انهزام الافريقيين ، وحاصر ابن أبى سرح سبيطلة وفتحها عنوة ثم صالحوه بمال على أن يخرج بجيش العرب من بلادهم فأجابهم على ذلك ورجع إلى مصر ، ثم فى خلافة معاوية رضى الله عنه بعث إليها معاوية بن خديج سنة خمس وأربعين ، ففتح سوسة وبنزرت وفشا الاسلام فى البربر ثم عزله واستعمله على مصر ، وولى عليها عقبة بن نافع الفهرى سنة خمسين فأثخن فى البربر واختطّ مدينة القيروان فى السنة المذكورة ، ثم عزله واستعمل على مصر وافريقيا معا مسلمة بن مخلد الأنصارى ، فولى مسلمةمولاه أبا المهاجر على افريقيا سنة خمس وخمسين ، ثم فى خلافة يزيد بن معاوية أعاد عقبة إليها ، وذلك فى سنة اثنتين وستين ففتح وصالح ثم تقدّم إلى المغرب الأقصى ، ولما وصل إلى طنجة حاصرها فصالحه أهلها ، ثم أوغل فى تلك الأراضى الشاسعة وعبر جبال درن إلى سوس ودرعة وأثخن فى البربر حتى أذعنوا للاسلام ، ثم عطف على الساحل يؤمّ القيروان ، ولما وصل إلى آسفى أدخل قوائم فرسه فى البحر ، ثم رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إنى قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لذهبت فى البلاد أقاتل فى سبيلك حتى لايعبد أحد من دونك ، ولما وصل لأرض الزاب قدّم جيوشه ثقة بما دوّخ من البلاد وبقى فى نفر قليل ، وكان صحبته كسيلة يظهر الاسلام ، فراسل إخوانه من البربر فوافوه واستلحموا عقبة بن نافع ومن معه ، وبلغ ذلك أهل القيروان فنفروا إلى برقة وبقى المغرب فى

يد كسيلة إلى أن استنقذه منه عبد الملك بن مروان سنة تسع وستين وتوالت عليه من يومئذ أمراء بنى أمية ، ومنهم موسى بن نصير وطارق فاتح الأندلس .

ثم لما خفت صيت الخلافة الأموية انتهز الفرصة آل عقبة بن نافع ووثبوا على ملك المغرب ، وكان ذلك سنة ست وعشرين ومائة غير أن ما دب إليهم من داء الغيرة والتنافس لم يسمح لدولتهم بطول العمر فلم ينشب المغرب أن سقط فى أيدى البربر سنة أربعين ومائة ، إلى أن استنقذه منهم أبو جعفر المنصور ، وذلك سنة أربع وأربعين ومائة ، وتوالت عليه عمال آل العباس إلى أن أجاز إليه المولى إدريس بن عبد الله رضى الله عنه سنة اثنتين وسبعين ومائة ، وأسس فيه الدولة الادريسية ، وانفصل من يومئذ عن نظر الخلفاء بالمشرق .

٤ — على بن ابى طالب رضى الله عنه

هو الخليفة الرابع بعد وفاة النبى ﷺ تولى الخلافة يوم الجمعة لخمس باقية من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين هجرية ، وقتل رضى الله عنه ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة أربعين هجرية ودفن بالكوفة أو بالبقيع ، وعمره ثلاث وستون سنة ، ومدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ، وكان من العلماء العاملين ، والأبطال المشهورين .

وشهرة إبلائه يوم بدر وأحد وخيبر وأكثر المشاهد قد بلغت حد التواتر حتى صارت شجاعته رضى الله عنه معلومة لكل أحد بحيث لا يمكنه دفع ذلك عن نفسه .

منها حسبما ذكره الطبرى فى كتابه الرياض النضرة عن صعصعة بن صوحان قال : خرج يوم صفين رجل من أصحاب معاوية يقال له كريز بن الصباح الحميرى فوقف بين الصفين ، وقال من يبارز ؟ فخرج إليه رجل من أصحاب على فقتله فوقف عليه ، ثم قال من يبارز ؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم قال من يبارز ؟ فخرج إليه الثالث فقتله وألقاه على الآخرين ، وقال من يبارز؟ فأحجم الناس عنه وأحب من كان فى الصف الأول أن يكون فى الآخر ، فخرج على رضى الله عنه على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فشق الصفوف ، فلما انفصل منها نزل عن البغلة وسعى إليه فقتله على ، وقال من يبارز؟ فخرج إليه رجل فقتله ووضعه على الأول ثم قال من يبارز؟ فخرج إليه رجل فقتله ووضعه على الآخرين ، ثم قال من يبارز؟ فخرج إليه رجل فقتله ووضعه على الثلاثة ، ثم قال يأيها الناس إن الله عز وجل يقول — الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص — ولو لم تبدءوا بهذا لما بدأنا ثم رجع إلى مكانه . انظر تمام ترجمته « فى البحر الزاخر » تر العجب

تتميم لهذا الموضوع الفخيم (١)

لما توطد الملك لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه شرع فى إتمام فتح افريقية ، وكان الافريقيون هم الذين دعوه إلى ذلك ليتخلصوا من جور حكامهم ، وكان على جيش افريقية عقبة بن نافع ، وكان قد فتح غدامس سنة اثنتين وأربعين وكورا من كور السودان فأرسل إليه معاوية عشرة آلاف فارس ، فدخل بهم افريقية وانضم إليه جموع كثيرة من البربر ، فكثر

(١) المراد به فتح بلاد المغرب كما يتضح من المقام .

جمعه وعظم جيشه ، ثم لما رأى عقبة أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلوهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد ، فقصد موضع القيروان ، وكان أجة كثيرة الأشجار وبعد قطعها أمر ببناء المدينة سنة خمسين فبنيت وبنى المسجد الجامع ووضع به خمسمائة عمود من الصوان ، وبنى الناس دورهم ومساجدهم ، وكان محيط المدينة ثلاثة آلاف وستمائة باع ، وجعل لها سورا عظيما من الحجر ، وفى أثناء البناء كان يرسل السرايا فتغير وترجع غانمة ، ودخل كثير من البربر فى الاسلام ، واتسعت بذلك خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود وأمنوا واطمأنوا ومازال عقبة يفتح فى بلاد المغرب حتى وصل إلى المحيط ، وكان المسلمون لايفترون عن مقاتلة الروم كل سنة صيفا وشتاء برا وبحرا لاضعاف قوتهم وكسر شوكتهم ولايرجعون إلابالغنائم الوافرة ، ولما نظروا أن لاشيء يرد امتداد فتوحاتهم ولا يصدهم عن قصدهم سير معاوية رضى الله عنه سنة ثمانية وأربعين جيشا عظيما إلى القسطنطينية مع سفيان بن عوف فأوغلوا فى بلاد الروم حتى وصلوا إليها وألقوا الحصار عليها ، وكان فى الجيش ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وأبو أيوب الأنصارى رضى الله عنهم ، وتوفى أبو أيوب الأنصارى ، ودفن قريبا من سورها ، ولم يتمكن المسلمون من فتحها ، وقاومهم الروم أشد المقاومة ، ومكث العسكر الاسلامى على حصار هذه المدينة مدة ست سنوات يحاصرونها صيفا ويرجعون عنها شتاء ويأوون إلى خليج صغير هناك .

وفى أيام الوليد بن عبد الملك فتحت الأندلس حيث أرسل إلى عامله ببلاد افريقية وهو موسى ابن نصير بفتحها فسار إليها ولم تنجح مساعيه فى أول الأمر ، فأرسل من قبله طارق بن زياد ومعه خمسمائة رجل يختبرون حال تلك البلاد ، وأمره بخمسمائة أخرى فنزل طارق بهذا الجيش الصغير فى جون قلبة الخاط بصخر منيع وقاتل ثلاثة أيام حتى فتحه ، ومن يومئذ سمى باسمه فقيل جبل طارق ، وأنه كان قد انضم إلى المسلمين جموع من أهل تلك البلاد لأنهم كانوا متضررين من جور ملكهم رودريق ، ولم يزل طارق يحارب حتى قتل رودريق ، ثم سار طارق بن زياد قاصدا مدينة طليطلة ليمنع كبار المملكة والأساقفة أن يجتمعوا بهذه المدينة التى هى قاعدة بلادهم ليتخيروا ملكا آخر فبمجرد وصوله إليها فتحت له أبوابها فأبقاها على ما كانت عليه ، ثم سار هذا القائد المنصور إلى جبال البرينات من غير أن يعارضه أحد فى طريقه فأراد موسى بن نصير أن يكمل فتحها ويحوز هذا الفخر العظيم لنفسه من غير أن يشرك معه طارقا ، فاجتاز البوغاز بتسعة عشر ألفا ، وفتح البلاد من غير أن يلحقه أدنى مشقة ، ثم جاوز جبال البرينات ، وفتح الجزء الجنوبى من فرنسا ، ولما رأى هذا الفاتح العالى الهمة أن الدهر سالمه عزم على فتح أوروبا لكن منعه من تنفيذ هذا الغرض انحطاط درجته عند الخليفة ، وذلك أنه حملته الغيرة من طارق على أن يسلك معه مسلك الاذلال بقدر ما تقتضيه الغيرة غير أن طارقا وجد فى دولة الخليفة أصحابا وأصدقاء مانعوا عنه وصاروا من حزبه حتى أوغروا صدره عليه ، فأرسل يطلب موسى بن نصير فحضر إلى الشام ومعه من الأسارى عدد كثير فدخل دمشق بموكب حافل ، وكان هذا آخر مسراته ، فان الخليفة أهانه ، وأمر بضربه أمام الحاضرين وطرده إلى مكة ، فذهب إليها وبقى بها إلى أن مات .

وفتحت فى أيام الوليد فتوحات كثيرة غير الأندلس ، من ذلك أنهم فتحوا ماوراء النهر ، وتغلغل الحجاج فى بلاد الترك ، وتغلغل مسلمة بن عبد الملك فى بلاد الروم ففتح وسبى ، وفتح محمد ابن القاسم بلاد الهند ، وفى أيامه توفى الحجاج الثقفى وأراح الله الناس من شره .

وبعد موت عبد الملك وتولية سليمان أخيه خرج غازيا فى سنة سبع وتسعين هجرية بجيوش عظيمة ، ونزل بمرج دابق ، وبعث أخاه مسلمة إلى القسطنطينية ، وقال أقم عليها حتى تفتحها ، وأقام مسلمة قاهرا لها حتى جاء الخبر بموت أخيه سليمان ، وذلك فى سنة تسع وتسعين هجرية .

وفى أيام هشام بن عبد الملك غزا المسلمون بلاد الترك فانتصروا وغنموا كثيرا وقتلوا من الأتراك كثيرا ، انتهى ما أردناه من ملخص هذه السيرة .

الدولة العباسية بالمشرق

فقد كانت فى صدر الخلافة العباسية فى أعز أيامها وأرفع أعلامها وخصوصا فى مدة الرشيد وولده المأمون اللذين قاما بكل مافيه رقى الأفكار ، ونشر العرفان ، وتنشيط الصناعات حتى صارت الدولة الاسلامية فى مدتهم يستنير بها العالم الشرقى فى حين كانت الدولة الغربية الاسلامية بالأندلس نبراسا يضىء ماحوله من الكائنات .

فلما كانت خلافة المعتصم العباسى فى سنة ثمان عشرة ومائتين جمع كثيرا من المماليك إلى خدمته حتى بلغ عنده من التركمان والجركس مايزيد على خمسين ألفا واتخذ منهم حراسا لنفسه وولاهم محافظة الثغور فأخذت شوكتهم تزداد يوما فيوما حتى تغلبوا على الدولة ، وصارت الخلفاء ألعوبة فى أيديهم يولون من يشاءون ويعزلون من يريدون ، حتى إذا كانت خلافة المعتز بالله استولى أحمد بن طولون على مصر سنة أربع وخمسين ومائتين ، ثم أخذت عمال النواحى تتغلب على أطراف الدولة شيئا فشيئا حتى إذا كانت سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ضعف أمر الخلافة العباسية جلة ، فكانت فارس فى يد بنو بويه ، والموصل وديار بكر فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد الاخشيديين والأندلس فى يد بنى أمية ، والمغرب وافريقية فى يد الفاطميين ، والبصرة فى يد ابن رائق ، وماوراء النهر فى يد بنى سامان ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، وجهة البحرين واليمامة فى يد القرامطة ولم يبق فى يد الخليفة إلا بغداد وضواحيها ، وبذلك أصبحت الخلافة كأن لاوجود لها بالمرة ، وفى خلافة الطائع لله ظهرت الدولة الغزنوية سنة ست وستين وثلثمائة .

وفى خلافة المقتفى لأمر الله قامت الدولة الغورية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم ظهر أمر الغز سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وفى سنة ست وخمسين وستمائة استولى التتار على بغداد ، وقتلوا الخليفة المستعصم العباسى ومن ثم انقطعت الخلافة العباسية ثلاث سنوات ، وفى سنة ست وأربعين وستمائة وصل من فر من العباسيين إلى مصر فاستقبلهم الملك الظاهر بيبرس أحسن استقبال وأقام بها الخلافة باسمهم ، ومات هلاكو سنة اثنتين وستين وستمائة بعد أن ملك الشام والعراق وفارس وماوراء النهر وانقسمت مملكته بين بنيه وإخوته ومازالوا حتى انقرض حكم ملكهم بتغلب تيمورلنك التترى على بغداد فى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ، ولما مات سنة ثمان وثمانمائة

اقتسم بنوه مملكته فاستقلت بلاد فارس والتركستان ، وأخذ ملوك بنى عثمان الذين كان لهم الحكم فى آسيا الصغرى كلها فى التغلب على ما دونها شيئا فشيئا حتى إذا دخلت الشام فى حكم السلطان سليم سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة سار إلى مصر من سنته ودخلها فاتحا ومكث بها حتى رتب أمورها ونظم حكومتها ، ثم سافر إلى بلاده وأخذ معه محمدا المتوكل على الله الخليفة الثامن عشر العباسى ثم تنازل له المتوكل عن الخلافة الاسلامية ، ومن هذا الوقت وهى فى أيدى ملوك بنى عثمان ومن ثم انحصر ملك العرب فى بلاد المغرب ، والله غالب على أمره .

تتميم لهذا الموضوع الفخيم

طرابلس : كانت أولا فى يد البربر ، ثم دخلت تحت الحكم الرومانى حتى افتتحها العرب سنة اثنتين وعشرين ، وتولاها الأغالبة ، ثم العبيديون ، ثم الصنهاجيون ، ثم استولى عليها صاحب صقلية واستردها منه الموحدون ، ثم استولى عليها الاسبانيون ، وفى سنة خمسين وتسعمائة حضرت الأساطيل العثمانية وطردوهم منها ، واستولوا على البلاد وهى فى قبضتهم إلى الآن .

بلاد الجزائر

أهل هذه البلاد من قبائل زناتة وصنهاجة من البربر ، وفتحها الرومان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ميلادية ، ثم فتحها المسلمون فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان ، وفى مدة العباسيين قامت بها الدولة الزيدية من سنة إحدى وستين وثلثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم استظهر عليها صاحب صقلية روجير الثانى النورماندى ، وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة استولت عليها دولة الموحدين المراكشية إلى سنة تسع وستين وستمائة حيث تغلب عليها بنو زيدان من الصنهاجيين وجعلوا تلمسان عاصمة لملكهم ثم استولى عليها الاسبانيون سنة خمس عشرة وتسعمائة وطردهم منها أهل البلاد سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة بمساعدة القرصان الذين كانت مراكبهم تغدو وتروح فى البحر الأبيض المتوسط متعقبة مراكب الاسبانيين موقعة بهم كلما عثرت على شئ منهم ، وكان رئيس القرصان يسمى بربروس ، وكان على جانب عظيم من الشجاعة فظهر أمره وهابته دولة الافرنج ، وما زال حتى مات سنة تسع عشرة وتسعمائة ، وتولى عمله أخوه خير الدين ، وكانت مدينة الجزائر فى يد الافرنج مع بعض السواحل الغربية فحاربهم خير الدين وأجلاهم عنها ، وصارت له الكلمة فى كل بلاد الجزائر ، وكثرت فتوحاته ، واتسع ملكه إلى داخل افريقيه .

وفى هذا الوقت كانت الدولة العثمانية قد استولت على الشام ومصر و بلاد الحرمين فبادر خير الدين وأرسل بالهدايا الفاخرة مع مفاتيح البلاد إلى السلطان سليم فأقره عليها ، ومن هذا الوقت أخذت تزداد مكانته ويعظم سلطانه ، وسافر خير الدين إلى الاستانة فى مدة السلطان سليمان فأكرمه كل الاكرام ، وأنعم عليه بلقب باشا ، وفى مدة إقامته بها قام شارلكان ملك فرنسا بجيش عظيم ومعه كثير من أهل اسبانيا ، وهجم على بلاد الجزائر فقابلهم حسن أغا نائب خير الدين على البلاد بجأش رابط وحاربهم وهزمهم شر هزيمة فنزلوا إلى البحر منهزمين إلى بلادهم بعد أن غرق أغلب

سفنهم ، وفى تلك الأثناء أصدرت الارداة السنية بتعيين خير الدين باشا رئيسا للبحرية العثمانية ، ومن ثم أخذت الدولة العلية تعين ولاتها على الجزائر ، ومازالت فى يدها حتى استولى عليها الفرنساويون سنة سبع وأربعين ومائتين وألف هجرية يوافقها سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية وهى فى أيديهم إلى الآن .

تونس

هذه الولاية كانت قديما فى يد البربر ، واستولى عليها الفنيقيون وأسسوا فيها مدينة قرطاجنة فى القرن التاسع الميلادى ، ولا تزال تشاهد آثارها قرب مدينة تونس ، وكانت لهم بها دولة راقية ثم استولى عليها الرومانيون إلى أن فتحها العرب سنة سبع وعشرين هجرية ، وكانت هذه البلاد أوّلا فى إدارتها تابعة لولاية مصر حتى قامت بها دولة بنى الأغلب فى سنة أربع وثمانين ومائة فاستقلوا بها واستمرّت فى يدهم إلى سنة ست وتسعين ومائتين هجرية ، وفيها قامت دولة العبيديين ، وما زالوا بها حتى استولوا على مصر سنة خمس وخمسين وثلثمائة فى مدّة المعزّ لدين الله ، وسار المعزّ إليها سنة إحدى وستين وثلثمائة وجعلها مقرّه، ونزل بالقاهرة التى اختطها جوهر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وجعل على إفريقية يوسف بن بلكين الصنهاجى ، واستمرّت فى يد الصنهاجيين إلى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وفيها استولى ملك صقلية على أغلب ثغور تونس ، فسار إليها الأمير يوسف بن عبد المؤمن صاحب مراكش بجيوش الموحدين فطردهم منها ، واستولى على تونس فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ومازالت فى يد خلفائه إلى سنة ثلاث وستمائة وفيها قامت بها دولة الحفصيين ، ومازالوا عليها إلى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ، وفيها استولت عليها أساطيل الدولة العثمانية ، ومازالت تولى عليها ولاتها حتى صارت الولاية للمولى الحسن بن على باشا رأس الدولة الحسينية الحالية سنة سبع عشرة ومائة وألف ومازالت فى بنيه حتى تولى عليها منهم الباى محمد الصادق باشا سنة ست وسبعين ومائتين وألف ، وفى مدّته أخذت الدولة الفرنسية تعمل لضمّ بلاده إلى حكومة الجزائر ، واستعملت لهذا الغرض وزيره مصطفى بن إسماعيل ، وكانت أملته ان هو سعى جهده فى وضع تونس تحت الحماية الفرنسية اقامته بابا عليها فأخذ هذا الدنىء فى خلق القلاقل ، وبذر بذور الفتن فى البلاد ، وما زال يخيف الصادق من الدولة العثمانية من جهة ومن أهل البلاد من أخرى حتى طلب حماية فرنسا ، وعملت بينه وبينها معاهدة وأمضاها فى ثانى عشر مايو سنة إحدى وثمانين وثمانمائة وألف، وفى الثامن والعشرين من اكتوبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف مات الصادق ، وتعين مكانه ولى عهده المولى على باى ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ملخص تاريخ ملوك العجم

دولة بنو بويه ، وهم من الديلم ، قاموا بدولة ملكت العراقين وفارس والاهواز على يد عماد الدولة ابن بويه سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة فساسها أحسن سياسة ، وأدارها بعقل وحكمة حتى

عظم شأنه ، واستولى على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، ثم استولى على كثير من الجهات ومنها جرجان وخوزستان وأصفهان ، وخطب له على المنابر فى بغداد وغيرها ، وكان وزيره الصاحب ابن عباد ، وما زال الملك فى بنيه إلى سنة سبع وأربعين وأربعمائة حيث نزعه منهم طغرل السلجوقى واستمرّت الدولة السلجوقية إلى سنة تسعين وخمسمائة ، وفيها ظهرت الدولة الخوارزمية ، وأوّل من قام بها محمد خوارزم شاه الذى بعد أن تغلب على السلاجقة استولى على بغداد ومازال خلفاؤه بها حتى تغلب عليها التتار .

دولة بنى حمدان : ظهرت فى الموصل سنة ثلاث وتسعين ومائتين ولقد عظم شأن هذه الدولة حتى امتدّ سلطانها على الجزيرة والشام ، وبلغ من أمر ملوكها أنهم استبدوا بالدولة العباسية وصارت لهم فيها الكلمة النافذة ، وأشهر ملوكها سيف الدولة الذى كان حكمه من سنة ثلاثين وثلثمائة إلى سنة ست وخمسين وثلثمائة ، وفيها مات ولكن مناقبه بقيت منشورة .

دولة بنى سامان : كانوا ولاة من العجم على ماوراء النهر للعباسيين ، فلما ضعفت الخلافة العباسية استقلوا بها حتى غلبتهم عليها الدولة الغزنوية فى سنة تسع وتسعين وتسعمائة .

دول القرامطة : نسبة إلى رجل يقال قرمط ، قام بالبحرين ودعا قوما من أهل البادية إلى دين جديد ذهب فيه إلى أن عيسى المسيح إنما هو أحمد بن محمدا بن الحنفية ، وكانت الصلاة عندهم أربع ركعات ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين بعد غروبها ، وكانت كلمة توحيدهم : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن إبراهيم رسول الله ، وأن أحمد بن محمدا بن الحنفية رسول الله ، وأن الصلاة إلى بيت المقدس ، وأن الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شىء ، وأن يصام يومان فى السنة يوم المهرجان ويوم النوروز ، وأن النبيذ حرام والخمر حلال ولا غسل من جنابة ، وأن الوضوء كوضوء الصلاة ، وأن يؤكل كل ذى ناب وذى مخلب ، وظهر أمر القرامطة سنة ثمان وسبعين ومائتين هجرية ، ثم استفحل ملكهم حتى استولوا على مكة والبصرة والكوفة وزاحموا الخليفة فى بغداد ، وفى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ضعفت شوكتهم وانحصرت سلطتهم فى بلاد هجر حتى تلاشى أمرهم .

دولة الغزنوية أسسوا دولة فى شرق بلاد العجم سنة ست وستين ومائة على يد محمود بن سبكتكين غلام إسحاق صاحب جيش غزنة واتخذ غزنة عاصمة له ، وفتح بلادا كثيرة فى الهند ، واستمرّ الملك فى بنيه إلى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وقامت بالملك بعدها الدولة الغورية .

الدولة الغورية : قامت بالملك بعد الدولة الغزنوية وامتدّ ملكهم إلى الهند والسند ، واستمرّ حكمهم إلى سنة أربع وستمائة ، ومن أحسن ملوكها غياث الدين الذى كان يلقب بأمير المؤمنين .

دولة الغز : وهم طائفة من الترك كانوا فيما وراء النهر ، ثم خرجوا إلى خراسان ، وكانوا كفارا ومن أسلم منهم كان ترجمانا بينهم وبين المسلمين ، فلما أسلموا سموا بالتركمان وحاربهم السلطان سنجر السلجوقى ، فكسروه وهزموه شرّ هزيمة ، واستوى على خراسان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

دولة التتار : يطلق على مجموع قبائل كثيرة فى أواسط آسيا ، واشتهر أمرهم فى القرن السابع والثامن والتاسع للهجرة ، وأوّل من اشتهر من ملوكهم جنكيز خان ، وكان يدخل فى مملكته :

خوارزم

خوارزم وخراسان وكرمان وفارس وأذربيجان والعراقين العربي والعجمي والجزيرة وبعد وفاته انقسمت مملكته بين بنيه، وفي مدة ملكهم سار هلاكو أحدهم إلى بغداد، فكان من أمرها ما كان. انظر قضيته في كتابنا «الاستبصار» وفيما ذكرناه في هذا الموضوع كفاية لمن له به رغبة وعناية والله الموفق.

ملخص تاريخ ملوك المغرب

أولهم مولانا إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وسبب دخوله المغرب أنه لما قتلت عشيرته وكثر البحث في طلب الحسينيين من جميع الجهات فر بنفسه مستترا في البلاد يريد المغرب، فسار من مكة إلى أن وصل مصر ومعه مولى له اسمه راشد فدخلها، ومنها إلى برقة، ومنها إلى القيروان، ومنها إلى المغرب الأقصى، وكان راشد من أهل النجدة والحزم والدين والنصيحة لآل البيت، فعمد إلى مولانا إدريس حين خرجا من القيروان فألبسه مدرعة صوف خشنة وعمامة كذلك، وصيره كالخادم له يأمره وينهاه كل ذلك خوفا عليه وحياطة له، ثم وصلا إلى مدينة تلمسان فأراحا بها أياما، ثم ارتحلا نحو بلاد طنجة فسارا حتى عبرا وادي ملوية ودخلا بلاد السوس الأدنى، وتقدما إلى مدينة طنجة وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب الأقصى فأقاما بها أياما، فلما لم يجد بها مراده خرج مع مولاه راشد حتى انتهيا إلى مدينة وليلي قاعدة جبل زرهون، وكانت مدينة متوسطة حصينة كثيرة المياه والغروس والزيتون وكان لها سور عظيم من بنيان الأوائل يقال إنها المسماة اليوم بقصر فرعون، فنزل بها على صاحبها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوروبي، فأقبل عليه ابن عبد الحميد، وبالغ في إكرامه وبره، فعرفه مولانا إدريس بنفسه وأفضى إليه بسره فوافقه على مراده وأنزله معه في داره، وكان دخول مولانا إدريس للمغرب ونزوله على ابن عبد الحميد بمدينة وليلي غرة ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ومائة.

ولما دخل شهر رمضان من السنة المذكورة جمع ابن عبد الحميد عشيرته من أوروبة وعرفهم بنسب مولانا إدريس وقرابته من رسول الله ﷺ وقرر لهم فضله ودينه وعلمه واجتماع خصال الخير فيه، فقالوا الحمد لله الذي أكرمنا به وشرفنا بجواره وهو سيدنا ونحن العبيد فما تريد منا؟ قال تبايعونه. قالوا ما منا من يتوقف عن بيعته فبايعوه بمدينة وليلي يوم الجمعة رابع رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين ومائة 172، وكان أول من بايعه قبيلة أوروبة على السمع والطاعة والقيام بأمره والاقتداء به في صلواتهم وغزواتهم وسائر أحكامهم، وكانت أوروبة يومئذ من أعظم قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأكثرها عددا، ثم بعد ذلك وفدت عليه قبائل زناتة وكافة البربر بالمغرب الأقصى فبايعوه أيضا ودخلوا في طاعته فتمكن سلطانه وقويت شوكته، وصار يغزو القبائل بأرض المغرب التي لازالت على دين اليهودية والنصرانية، ولما فرغ من أرض المغرب قصد مدينة تلمسان فأمن أهلها، ثم رجع لمدينة وليلي مؤيدا منصورا.

ولما حصل من التمكين والظهور ما حصل اتصل خبره بالخليفة ببغداد وهو هارون الرشيد

العباسى فوجه إليه من قتله بغتة ، وكان ذلك فى مهل ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائة ،ودفن بمدينة وليلى المذكورة .

وقام بالأمر بعده ولده مولانا إدريس الأزهر ، وكان ذلك يوم الجمعة غرة ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائة ، وهو يومئذ ابن إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر ، وكانت ولادته يوم الاثنين ثالث رجب سنة سبع وسبعين ومائة 177

وظهر من وفور عقله ونباهته وفصاحته فى هذه السن ما بهر العقول .

ولما استقام له أمر المغرب وتوطد ملكه وعظم سلطانه هيأ جماعة فى فحص بعض الجهات وتخير البقاع والتراب والمياه إلى أن انتهى الفحص إلى موضع مدينة فاس وهى غيضة ملتفة الأشجار مطردة العيون والأنهار ، وفى جانب منها خيام من شعر يسكنها قوم بعضهم على دين المجوسية ، وبعضهم على دين اليهودية ، وبعضهم على دين النصرانية ، فاشترى تلك الغيضة بستة آلاف درهم وشرع فى بنائها ، وكان ذلك غرة ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وتوفى رضى الله عنه بها فى ثانى جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وعمره نحو ست وثلاثين سنة

وقام بالأمر بعده ابنه محمد بعهد منه إليه مستوطنا بدار ملك أبيه من فاس إلى أن توفى بها فى ربيع الثانى سنة إحدى وعشرين ومائتين ، ودفن مع أبيه .

وقام بالأمر بعده ابنه علىّ المعروف بحيدرة بعهد منه إليه ، وكان سنه يوم بويع تسع سنين وأربعة أشهر ، فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب والبربر ، وكانت أيامه خير أيام قال ابن زرع ظهر لعلىّ هذا من الذكاء والفضل مايقتضيه شرفه وسار بسيرة أبيه وجده فى العدل فكان الناس فى أيامه فى أمن ودعة إلى أن توفى فى شهر رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين ، وعهد بالأمر لأخيه يحيى بن محمد .

قال ابن خلدون قام يحيى بن محمد بن إدريس بالأمر وامتدّ سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه واستبحر عمران فاس وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار ، وبنيت خارجها الارباض ، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية .

بناء مسجد القرويين بفاس

وكان الشروع فيه يوم السبت فاتح رمضان سنة خمس وأربعين ومائتين والبانى له امرأة اسمها فاطمة بنت محمد الفهرى رحمها الله .

وقام بالأمر بعده ابنه يحيى فأساء السيرة وكثر عيثه فى الحرم ، ودخل على جارية من بنات اليهود فى الحمام ، وكانت بارعة الجمال فراودها عن نفسها فاستغاثت بالناس وبادروا إليه بالانكار ، واستخفى حياء ، فمات من ليلته أسفا على ماصنع بنفسه ، ثم استولى بعده على فاس عبد الرحمن ابن أبى سهل الجذامى ، وقام بأمرها إلى أن نزعها من يده على بن عمر بن ادريس ، واستقام له الأمر ، ثم ثار عليه عبد الرزاق الفهرى ، وكان من الخوارج فدخل مدينة فاس وملك عدوة الأندلس وخطب له بها وامتنع منه أهل عدوة القرويين ، وبعثوا إلى يحيى بن القاسم الزاهد ،فلما

وصل إليهم بايعوه وولوه على أنفسهم ، ولما استقل بالأمر قاتل عبد الرزاق حتى أخرجه من عدوة الأندلس فدخلها و بايعه أهلها وخرج إلى قتال الخوارج الصفرية ، فكانت له معهم حروب ووقائع كثيرة ، ولم يزل أميرا على فاس وأعمالها إلى أن اغتاله بعضهم سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده يحي بن ادريس بن عمر بن ادريس وامتد ملكه على جميع أعمال المغرب وخطب له على سائر منابره ، وكان يحي هذا واسطة عقد البيت الادريسى وأعلاهم قدرا وأبعدهم ذكرا وأكثرهم عدلا وأغزرهم فضلا وأوسعهم ملكا ، وكان فقيها حافظا للحديث ذا فصاحة و بيان بطلا شجاعا حازما ذا صلاح ودين وورع ، واستقام له أمر المغرب زمانا إلى أن ثار عليه مصالة بن حبوس المكناسى صاحب المغرب الأوسط ، فزحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلثمائة وانتهى إلى فاس ، فبرز إليه يحي بن ادريس لمدافعته فى جوع العرب والبربر والموالى ، والتقوا بقرب مكناسة ، فانهزم يحي وعاد مفلولا إلى فاس ، ثم تقدم مصالة إلى فاس وحاصرها إلى أن صالحه يحي على مال يؤديه إليه وعلى البيعة لعبيد الله المهدى ، فقبل يحي الشرط وخرج عن الأمر ، وأنفذ بيعته إلى المهدى وأبقى عليه مصالة فى سكنى فاس وعقد له على عملها خاصة ، وعقد لابن عمه موسى بن أبى العافية المكناسى على ماسوى ذلك من بلاد المغرب ، وكان موسى هذا صاحب تسول و بلاد تازا ، وكان كبيرمكناسة بالمغرب الأقصى على الاطلاق ، وكان قد خدم مصالة حين قدم المغرب ، وتعرف إليه وهاداه ، وقاتل معه فى جميع حروبه بالمغرب فحسنت منزلته لديه ، وولاه بلاد المغرب كلها عدا فاس وأعمالها فانه تركها للأمير يحي كما قلنا ، وصار المغرب الأقصى فى ملكة العبيديين من الشيعة واندرجت دولة الادارسة فى دولتهم ، فكان موسى بن أبى العافية بعد ذهاب مصالة كلها أراد الظهور بالمغرب والاستبداد به غمره يحي بن إدريس بحسبه ونسبه ، وفضله ودينه فتقطع به كل ما كان يريده ، فكان على قلب موسى منه حمل ثقيل ، فلما قدم مصالة المغرب فى كرته الثانية ، وذلك سنة تسع وثلثمائة سعى موسى بن أبى العافية عنده بيحي بن إدريس أوغر صدره عليه ، فلما قرب مصالة بن فاس خرج إليه يحي للقائه والسلام عليه فى جماعة من وجوه دولته ، فقبض مصالة عليهم وقيد يحي بالحديد ، وتقدم إلى فاس فدخلها ويحي بين يديه موثقا على جمل ، ثم عذبه بأنواع العذاب حتى استصفى أمواله وذخائره ، ثم نفاه إلى نواحى آصيلا وقد ساءت حاله وانفض جمعه ، فأقام عند بنى عمه ببلاد الريف مدة ، فأعطوه مالا ووصلوه بما يقيم به أوده و يستعين به على أمره فلم يرض ذلك وارتحل عنهم يريد افريقية فعرض له موسى بن أبى العافية فى طريقه فقبض عليه وسجنه بمدينة آلكاى قريبا من عشرين سنة ، ثم أطلقه بعد ذلك ، فخرج من السجن إلى افريقية وهو فى فقر وذلة قد بلغ سوء الحال منه كل مبلغ ، فوصل إلى المهدية على تلك الحال فوافق بها فتنة أبى يزيد اليفرنى وحصاره إياها ، فمات بها جائعا غريبا سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، رحمه الله .

عود المغرب الأقصى إلى الادارسة

ولما قبض مصالة على يحي بن إدريس استعمل على فاس ريحان الكتامى وعاد إلى القيروان فأقام ريحان عاملا على فاس وأحوازها نحو ثلاثة أشهر وثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم

ابن إدريس المعروف بالحجام ، وعرف بذلك لأنه كان لا يطعن فى مقاتلته إلا فى موضع المحاجم ، وكانت ثورة الحجام على ريحان سنة عشر وثلثمائة أتى إلى فاس فى جمع من شيعته وأنصاره ، وكان مقداما شجاعا فدخلها على حين غفلة من أهلها ، فاستولى عليها ، وقتل ريحان ، واجتمع الناس على بيعته ، ودخل فى طاعته أكثر قبائل البربر بالمغرب ، وملك عدة مدن ، واستقام له الأمر بالمغرب إلى أن دخلت سنة إحدى عشرة وثلثمائة فخرج لقتال موسى بن أبى العافية فالتقى معه على مقربة من تازا ، فأوقع الحجام بابن أبى العافية وقعة عظيمة لم يقع فى دولة الادارسة مثلها ، ثم كانت العاقبة لموسى على الحجام فانفض عسكر الحجام ، وعاد مفلولا إلى فاس ، فعجل الحجام ودخل فاس وحده ، وترك عسكره خارج المدينة فغدر به عامله عليها فقيده وأخذه إليه ، وأغلق المدينة فى وجه الجند ، وطير إلى موسى بن أبى العافية يستدعيه إلى فاس فبادر ابن أبى العافية فدخل عدوة القرويين ، واستولى عليها ، ثم قاتل أهل عدوة الأندلس حتى ملكها ، فلما ملك المدينتين معا طالب العامل باحضار الحجام ليقتل ، فكره العامل ذلك وسوّفه ، وندم على مافعل ، فلما جنّ الليل فك عنه قيده وأرسله فتدلى الحجام من السور فسقط وانكسرت ساقه فتحامل حتى انتهى إلى عدوة الأندلس فاختفى بها إلى أن مات لمضى ثلاث سنين من سقطته ، وذلك سنة ثلاث عشرة وثلثمائة .

وكانت دولة الحسن الحجام بفاس نحو سنتين ، وانقرضت دولة آل إدريس من فاس وأعمالها وصفت فاس وأعمالها لابن أبى العافية وملك معها كثيرا من أعمال المغرب وبايعته القبائل والأشياخ وهو فى ذلك كله متمسك بدعوة الشيعة وهو النائب عنهم بالمغرب ، ولما استولى على فاس والمغرب شمر ساعده لطرد الادارسة عنه فأخرجهم من ديارهم ، وأجلاهم عن بلادهم التى كانت فى أيديهم ، ولجئوا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزهم التى أسسها سلفهم ، وكانت قلعة حجر النسر حصنا منيعا شامخا فى عنان السحاب ، بناه محمد بن إبراهيم بن القاسم ابن إدريس فنزل عليهم موسى بن أبى العافية وشدد عليهم الحصار وأراد استئصالهم ، وقطع دابرهم فعذله على ذلك أكابر دولته وقالوا له أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتخليه عنهم هذا شئ لا نوافقك عليه ، ولا نتركك له ، فاستحيا عند ذلك ، وارتحل عنهم إلى فاس وخلف على حصارهم قائده أبا الفتح التسولى فى ألف فارس يمنعهم من التصرف ، وكان ذلك سنه سبع عشرة وثلثمائة ، ثم نهض ابن أبى العافية إلى تلمسان سنة تسع عشرة وثلثمائة فملكها وأعمالها ، وكانت بيد الحسن بن أبى العيش الادريسى ، وزحف إلى مدينة نكور فملكها أيضا ، ثم عاد إلى فاس وقد دوّخ البلاد والأقطار ، وانتظم المغربان الأقصى والأوسط فى ملكه إلى أن قتل ببعض بلاد ملوية ، وذلك سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، ولما أجلى موسى بن أبى العافية إلى الصحراء أقام بنو ادريس بريفهم يتداولون رياسته تحت نظر الشيعة تارة وتحت نظر المروانيين أخرى إلى أن انقرضت دولتهم وذهبت رياستهم من المغرب بالكلية ، والله غالب على أمره .

فأولهم القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس وقد قام بالأمر وملك أكثر بلاد المغرب الا فاس فانه لم يملكها ، وكان سكناه بقلعة حجر النسر ، واستمر على إمارته مقيما لدعوة الشيعة إلى أن توفى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، فولى بعده ابنه أبو العيش أحمد بن القاسم كنون ، وكان فقيها

ورعا حافظا للسير عارفا بأخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر شجاعا جوادا ، وكان يعرف فى بنى إدريس بأحمد الفاضل ، وكان مائلا إلى بنى مروان ، ولما ولى بعد أبيه قطع دعوة العبيديين فى جميع عمله ، وبايع لعبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس وخطب له على جميع منابر عمله ، ومات أبو العيش رحمه الله شهيدا فى جهاد بعض الدول سنة ثمان وأربعين وثلثمائة وقام بالأمر بعده أخوه الحسن بن كنون وهو آخر ملوك الأدارسة بالمغرب ، ولم يزل مواليا للروانيين متمسكا بدعوتهم إلى أن اتصل بخليفة الشيعة وهو المعزّ لدين الله معد بن إسماعيل العبيدى غلبه الناصر على بلاد العدوة وأن جميع من بها من قبائل زناتة والبربر رفضوا دعوتهم ودخلوا فى دعوة بنى أمية فعظم عليه الأمر ، و بعث قائده جوهر بن عبد الله الرومى المعروف بالكاتب فى جيش كثيف يشتمل على عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة وغيرهم وأمره أن يطأ بلاد المغرب ويذللها ويستنزل من بها من الثوار و يشدّ وطأته عليهم، فخرج جوهر من القيروان سنة سبع وأربعين وثلثمائة يؤمّ بلاد المغرب فاتصل خبره بصاحب طنجة خليفة الناصر على بلاد العدوة ، فحشد قبائل زناتة ، ونهض إلى جوهر والتحم الحرب بين الفريقين واشتدّ القتال فكانت العاقبة لجوهر ، ثم سار بعد أن قتل خلقا كثيرا من عدّة مدن إلى أن نزل على فاس ، وكان سنة تسع وأربعين وثلثمائة فحاصرها وأدار بها القتال من كل جهة قريبا من نصف شهر ، ثم اقتحمها عنوة بالسيف ونهبها وقتل حماتها وشيوخها وسبى أهلها وهدم أسوارها ، وكان الحادث بها عظيما ، وكان دخول جوهر إياها ضحوة يوم الخميس الموفى عشرين من رمضان سنة تسع وأربعين وثلثمائة ، ثم سار جوهر فى بلاد المغرب يقتل أولياء المروانيين ويسبى ويفتح البلاد والمعاقل وخافته البربر وفرّت أمامه قبائلها ، فأنفذ الأمر فى المغرب الأقصى فى ثلاثين شهرا وانتهى إلى البحر المحيط وصاد من سمكه وجعله فى قلال الماء وأرسله إلى مولاه المعز ، ثم انصرف راجعا بعد أن دوّخ البلاد وأثخن فيها وقتل حماتها ، وقطع دعوة المروانيين منها وردها إلى العبيديين ، فخطب لهم على جميع منابر المغرب وانتهى إلى المهدية دار المعز لدين الله ، وقد حمل معه كبراء المغرب ودخل بهم أسارى بين يديه فى أقفاص من خشب على ظهور الجمال ، وجعل على رءوسهم قلانس من لبد مستطيلة منبتة بالقرون فطيف بهم فى بلاد افريقية وأسواق القيروان ، ثم ردّوا إلى المهدية وحبسوا بها حتى ماتوا فى سجنها ، وكانت مدّة ملك الادارسة بالمغرب من يوم بويع مولانا إدريس ابن عبد الله رضى الله عنه إلى أن قتل الحسن بن كنون ، وذلك فى جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلثمائة مائتى سنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريبا ، وكان عملهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران ، وقاعدة ملكهم مدينة فاس ، وكانوا يكابدون دولتين عظيمتين دولة العبيديين بافريقية ، ودولة بنى أمية بالأندلس .

دولة زناتة من مغراوة وبنى يَفْرَنْ

وأولهم زيرى بن عطية بن عبد الله المغراوى ، فقام فى المغرب بدعوة هشام المؤيد بالله وحاجبه المنصور بن أبى عامر ، واستقام له أمر المغرب فقوى سلطانه وارتفع شأنه وهو فى ذلك

متمسك بدعوة بنى مروان أصحاب الأندلس ، ولما كانت سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة استدعى المنصور بن أبى عامر زيرى بن عطية أن يقدم عليه بقرطبة ، فاستخلف على المغرب ولده المعز ابن زيرى وسار إلى الأندلس وقدم بين يديه هدية عظيمة من جلتها طائر فصيح يتكلم بالعربية والبربرية ودابة من دواب المسك ومهاة وحشية تشبه الفرس وحيوانات غريبة وأسدان عظيمان فى قفصين من حديد وشيء كثير من التمر فى غاية الكبر الواحدة منه تشبه الخيارة عظما ، وحمل معه من قومه وعبيده ثلثمائة فارس وثلثمائة راجل ، فاحتفل المنصور لقدومه احتفالا عظيما وعجل بسراحه إلى عمله بعد أن جدد له عهده على المغرب وعلى جميع ماغلب عليه منه .

وكان ابن يعلى اليفرنى مضاهيا لزيرى فى الرياسة على مدن من المغرب ، وكان بين زيرى وابن يعلى منافسات ومنازعات على الرياسة بالمغرب ، فكان ابن يعلى إذا غلب على زيرى دخل مدينة فاس واستولى عليها وإذا غلب عليه زيرى أخرجه منها وملكها ، وكانت الحرب بينهما سجالا ، وسئمت الرعية بفاس كثرة تعاقبهم عليها ، ثم لما سافر زيرى بن عطية إلى الأندلس انتهز ابن يعلى الفرصة فى غيبته، فزحف إلى فاس ودخل منها عدوة الأندلس بالسيف فى ذى القعدة سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، وقتل بها خلقا كثيرا من مغراوة ، فلما نزل زيرى بن عطية بطنجة اتصل به خبر ابن يعلى اليفرنى واستيلاؤه على فاس فأسرع السير نحوه حتى نزل قريبا من فاس فكانت بينهما حرب شديدة هلك فيها خلق كثير من القبيلتين مغراوة وبنى يفرن إلى أن هزمه زيرى واقتحم عليه فاس عنوة فقتله ومثل به وبعث برأسه إلى المنصور بن أبى عامر بقرطبة ، وذلك سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة .

بناء مدينة وجدة

لما قتل زيرى بن عطية بن يعلى اليفرنى صفا له أمر المغرب ولم يبق له به منازع وهابته الملوك وبقى الأمر مستقيما بينه وبين المنصور فى الظاهر فسمت همته إلى بناء مدينة تكون خاصة به وبقومه وأرباب دولته فبنى مدينة وجدة وشيد أسوارها وأحكم قصبتها وركب أبوابها وسكنها بأهله وحشمه ، ونقل إليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدة ملكه لكونها واسطة البلاد وثغرا للعمالتين المغرب الأقصى والأوسط ، وكان اختطاطه إياها فى شهر رجب سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، ولم يزل زيرى بن عطية فى علو سلطان وارتفاع شأن إلى سنة ست وثمانين وثلثمائة ، ثم حدثت نفرة بينه وبين المنصور بن أبى عامر لكونه بلغه عنه أنه يتكلم فيه بالقبح وينقصه فأنفذ إليه المنصور جيوشا لا طاقة له بها فانهزم شر هزيمة وانصرف فارا بنفسه إلى الصحراء ، فنزل بلاد صنهاجة ، وبينما هو يحاول أمر الرياسة إذ صدمته المنية ، وذلك سنة إحدى وتسعين وثلثمائة .

ولما هلك زيرى بن عطية اجتمع كافة مغراوة على ابنه المعز بن زيرى فبايعوه وضبط أمرهم وصالح المنصور بن أبى عامر وقام بدعوته ورجع إلى طاعته ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفى المنصور وولى ابنه بعده عبد الملك المظفر فبايعه المعز أيضا ودعا له على منابره فكتب المظفر إلى المعز بن زيرى بعهده على فاس وسائر أعمال المغرب حواضره وبواديه ، وذلك سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة

وشرط

وشرط على المعز أن يؤدى إليه فى كل سـنة مالا معلوما وخيلا ودرقا يوصل ذلك إلى قرطبة ، ولم تزل بلاد المغرب أيام المعز فى غاية الهدنة والعافيـة والرخاء والأمن إلى أن توفى فى جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده ابن عمه حمامة على عمل فاس والمغرب واستفحل ملكه وقصده الأمراء والعلماء وأتته الوفود ومدحه الشعراء ، وكانت الدولة بالأندلس قد تداعت إلى الاختلال ، فكان ذلك من أسباب استفحال الدولة المغراوية بفاس والمغرب واستقلالها بالأمر ، فكان لحمامة من الظهور ما ذكرناه إلى أن أصابته عين الكمال بمنازعة أبى الكمال ، وذلك أن بنى يفرن كانوا قد تحيزوا إلى نواحى سلا فاستولوا عليها وعلى مدينة شالة ، ثم ملكوا تادلا وما والاها من البلاد ، ثم لما كانت سنة أربع وعشرين وأربعمائة كان الأمير على بنى يفرن أبا الكمال تميم بن زيرى بن يعلى بن محمد اليفرنى فزحف من سـلا إلى فاس فى قبائل بنى يفرن ومن انضاف إليهم من زناتة ، وبرز إليه حمامة فى جموع مغراوة ومن انضاف إليهم فكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن هزيمة حمامة ، ومات من مغراوة أمم ، واستولى تميم على فاس وأعمال المغرب ودخلها فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة واستباح يهود فاس فقتل منهم أكثر من سـتة آلاف يهودى وسبا حرمهم واصطلم نعمتهم بالمرة ، ولحق حمامة بوجدة ، فاستمد من كان هنالك من قبائل مغراوة وزناتة وأنجاد قبائل ملوية وانتهى إلى تنس فاستنفر من هنالك من زناتة وبعث الحاشـدين فى قياطينهم إلى بلاد المغرب الأوسط ، وكاتب من بعـد عنه من رجالاتهم فاجتمع له من ذلك جمّ غفير ، ثم زحف إلى فاس سـنة تسع وعشرين وأربعمائة فأفرج عنها أبو الكمال ، ولحق ببلده ومقرّ ملكه من شالة ، وأقام بها إلى أن هلك سنة ست وأربعين وأربعمائة ، وكانت مدة استيلائه على فاس وأعمالها خمس سنين وقيل سبع سنين .

وأقام حمامة فى سلطان فاس والمغرب إلى أن توفى سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة .

وقام بعـده ابنه دوناس بن حمامة ويكنى أبا العطاف واسـتولى على فاس وسائر ما كان لأبيه من مدن المغرب وأعماله واستقامت دولته وانفسـحت أيامه ، وصار الناس فى هدنة ودعة ورخاء كثير ، وفى أيامه عظمت فاس وعمرت وأدار دوناس السور على أرباضها وبنى بها المساجد والحمامات والفنادق ، ولم يشتغل دوناس من يوم ولى إلى أن توفى الا بالبناء والتشييد ، وكانت وفاته فى شوّال سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة .

وقام بعده ابنه الفتوح بن دوناس ونزل بعدوة الأندلس ونازعه الأمر أخوه الأصغر واسمه عجيسـة ، وكان شهما مجربا فاستولى على عدوة القرويين واستبد على أخيـه ، وافترق أمر فاس وأعمالها بافتراقهما ، وقامت الحرب بينهما على ساق ، وبنى الفتوح بعـدوة الأندلس قصبة منيعة بالموضع المعروف بالكذّان ، وبنى عجيسة أيضا قصبة مثلها برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين وكثرت العداوة بينهما واستحكمت فكانا لا يفترّان عن القتال ليلا ونهارا ، وعظم الخوف بالمغرب وكثر الهرج وغلت الأسعار واشتدّت المجاعة ، وظهرت لمتونة على أطراف البلاد فملكوها والأمر لا زال والحال ما حال ، وليس لأهل فاس شغل الا القتال ، واستمرّ الأمر على ذلك ثلاث سنين الى أن

بيت الفتوح عجيسة فاقتحم عليه عدوة القرويين ليلا فقتله واستولى على العدوتين معا ، والفتوح ابن دوناس هذا هو الذى بنى باب الفتوح من مدينة فاس بسورها القبلى ، وبه عرف إلى الآن وأخوه عجيسة هو الذى بنى باب عجيسة برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين من ناحية الجوف وبه عرف أيضا إلى الآن ، ولم يزل الفتوح مستوليا على فاس إلى أن دهم المغرب مادهمه من أمر المرابطين من لمتونة ، وخشى الفتوح مغبة ذلك فأفرج عن فاس وتخلى عنها وعن أعمالها ، ولما تخلى عنها قام بالأمر بعده قريبه معنصر بن حماد المغراوى ، فبايعته قبائل مغراوة الذين بفاس وأحوازها وذلك فى رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، وكان معنصر ذا حزم ورأى وشجاعة وإقدام وشغل بحرب لمتونة ، ثم غلب يوسف بن تاشفين على فاس وخلف عليها عامله وارتحل إلى غمارة ، وفتح الكثير من بلادها حتى أشرف على طنجة ، ثم رجع إلى حصار قلعة فازاز ، فخالفه معنصر إلى فاس وملكها ، وقتل العامل ومن معه من لمتونة ومثل بهم بالحرق والصلب ، واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز ، فأمر بتوجيه عساكر لمتونة إلى حصار فاس ، فأخذوا بمخنقها وقطعوا المرافق عنها ، وألحوا بالقتال عليها حتى اشتدّ بأهلها الحصار ومسهم الجهد وبرز معنصر للقتال ، فكانت الدائرة عليه وفقد فى الملحمة ذلك اليوم سنة ستين وأربعمائة ، فلم يدر ما فعل الله به سبحانه وتعالى .

ولما فقد معنصر بن حماد فى الملحمة بايع أهل فاس من بعده لابنه تميم بن معنصر ، فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلاء ، وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد غمارة حتى إذا كانت سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، وفرغ من فتح غمارة صمد إلى فاس فحاصرها أياما ، ثم اقتحمها عنوة وقتل من بها من مغراوة وبنى يفرن فى أزقتها وجوامعها ما يزيد على العشرين ألف رجل ، وهلك تميم بن معنصر فى جملتهم حتى عجز الناس عن مواراتهم فرادى ، فاتخذوا لهم الأخاديد وقبروا جماعات ، وانقرضت دولة مغراوة من المغرب والبقاء لله وحده ، وكانت مدّة دولتهم نحو مائة سنة ، ولما ارتكبوا العظائم من الجور سلبهم الله ملكه ، وسلط عليهم المرابطين فمحوا آثارهم من المغرب .

الخبر عن دولة المرابطين وأوليتها

اعلم أن المرابطين وهم لمتونة إحدى قبائل صنهاجة وموطن هؤلاء لمتونة أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولا فى أربعة عرضا وفيهم قوم لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا فاكهة ، وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزا إلا أن يمرّ ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق ، وإنما قيل لهم الملثمون لأنهم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم أصلا ، واللثام سنة لهم يتوارثونها خلفا عن سلف ، وسبب ذلك على ماقيل أن قوما من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحى فيأخذون المال والحريم ، فأشار عليهم بعض مشائخهم أن يبعثوا النساء فى زى الرجال إلى ناحية ويقعدون هم فى البيوت متلثمين فى زى النساء ، فاذا أتاهم العدوّ

وظنوهم

وظنوهم نساء خرجوا عليهم ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم فلزموا اللثام تبركا به بما حصل لهم من الظفر بالعدوّ .

الخبر عن رياسة يحيى بن إبراهيم الكدالى

قام يحيى هذا بأمر صنهاجة وحربهم لأعدائهم إلى أن كانت سنة سبع وعشرين وأربعمائة فاستخلف على صنهاجة ابنه ابراهيم وارتحل الى المشرق برسم الحج ، فلما قضى حجه وزيارته قفل الى بلاده فمرّ فى عوده بالقيروان ، فلقى بها الشيخ أبا عمران الفاسى وحضر مجلس درسه وتأثر بوعظه فرآه الشيخ أبو عمران محبا فى الخير فأعجبه حاله وسأله عن اسمه ونسبه و بلده فأخبره بذلك كله وأعلمه بسعة بلاده وما فيها من كثرة الخلق ، فقال له الشيخ وما ينتحلون من المذاهب قال انهم قوم غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم فاختبره الشيخ وسأله عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيئا إلا أنه حريص على التعلم ، فقال له الشيخ ومايمنعك من تعلم العلم ؟ فقال ياسيدى عدم وجود عالم بأرضى وليس فى بلادى من يقرأ القرآن فضلاعن العلم ،ومع ذلك فأهل أرضى يحبون الخير و يرغبون فيه لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم و يفقههم فى دينهم فلو رغبت فى الثواب من الله تعالى لبعثت بعض طلبتك يعلمهم ما ذكر ، فكتب الشيخ لبعض تلامذته ببلاد نفيس من أرض المصامدة واسمه واجاج بن زلو اللمطى من أهل سوس الأقصى أن يبعث معه من طلبته من يوثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ، فسار يحيى بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبى عمران حتى وصل إلى الفقيه واجاج بمدينة نفيس فسلم عليه ودفع إليه الكتاب ، وكان ذلك فى رجب سنة ثلاثين وأربعمائة فنظر الفقيه واجاج فى الكتاب ، ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشيخ أبو عمران ، فانتدب لذلك رجلا منهم يقال له عبد الله بن يس الجزولى ، وكان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة مشاركا فى العلوم ، فخرج مع يحيى ابن إبراهيم إلى الصحراء فتلقاه قبائل كدالة ولمتونة وفرحوا بمقدمهما وتيمنوا بالفقيه وبالغوا فى إكرامه وبرّه ، فشرع يعلمهم القرآن ويقيم لهم رسم الدين ويسوسهم بآداب الشرع ووجدهم يتزوّجون أكثر من أربع حرائر ، فقال لهم ليس هذا من السنة وإنما سنة الاسلام أن يجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر فقط ، وله فيما شاء من ملك اليمين سعة ، وجعل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن كثير من مألوفاتهم الفاسدة وشدّد فى ذلك فاطرحوه واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه لما قابلهم من مشاق التكاليف ، فلما رأى عبدالله بن يس إعراضهم عنه واتباعهم لأهوائهم عزم على الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا فى دين الاسلام يومئذ فلم يتركه يحيى بن إبراهيم لذلك ، وقال له إنما أتيت بك لأنتفع بعلمك فى خاصة نفسى وما علىّ فيمن ضلّ من قومى ، وكان قومه ليس عندهم من الاسلام إلا الشهادة دون ماعداها من أركان الاسلام ، ثم قال يحيى ابن إبراهيم لعبد الله بن يس هل لك فى رأى أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة . قال وما هو ؟ قال إن هاهنا جزيرة فى البحر وفيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر ندخل فيها ونقتات من حلالها ونعبد الله تعالى حتى نموت ، فقال عبد الله بن يس إن هذا الرأى حسن فهلمّ

بنا فلندخلها على اسم الله فدخلاها ودخل معهما سبعة نفر من كدالة وابتنى عبد الله رابطة هناك وأقام فى أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر فتسامع الناس بهم وأنهم اعتزلوا بدينهم يطلبون الجنة والنجاة من النار فكثر الواردون عليهم والتوابون لديهم ، فأخذ عبد الله بن يس يقرئهم القرآن و يستميلهم إلى الخير ويرغبهم فى ثواب الله ويحذرهم ألم عقابه حتى تمكن حبه من قلوبهم فلم تمرّ عليهم إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة ، ولما اجتمع له هذا العدد سماهم المرابطين للزومهم رابطته ، ولما تفقهوا ورسخ فيهم الدين قام فيهم خطيبا ووعظهم وشوّقهم إلى الجنة وخوّفهم من النار وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأخبرهم بما فى ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم جزائه ، ثم ندبهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة ، وقال لهم معشر المرابطين إنكم اليوم ألف رجل ولن يغلب ألف من قلة وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم بأن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، وتجاهدوا فى الله حقّ جهاده ، فقالوا له أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين لك مطيعين ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا ، فقال لهم اخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله و بلغوهم حجته ، فان تابوا فخلوا سبيلهم وان أبوا عن ذلك وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الاقلاع عما هم بسبيله فلم يرفعوا لذلك رأسا ، فخرج إليهم عبد الله بن يس بنفسه ، وجمع أشياخ قبائلهم ووجوهها ، وقرأ عليهم حجة الله ودعاهم إلى التوبة ورغبهم فى الجنة وخوّفهم من النار ، وأقام ينذرهم سبعة أيام وهم فى ذلك كله لايلتفتون إلى قوله ولا يزدادون إلا فسادا ، فلما يئس منهم . قال لأصحابه قد أبلغنا فى الحجة وأنذرنا وأعذرنا ، وقد وجب علينا الآن جهادهم فاغزوهم على بركة الله ، فبدأ أوّلا بقبيلة كدالة فغزاهم فى ألف رجل من المرابطين فانهزموا بين يديه وقتل منهم خلقا كثيرا وأسلم الباقون إسلاما جديدا وحسنت حالهم وأدّوا مايلزمهم من كل فرض لله عليهم ، وكان ذلك فى صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ، ثم سار إلى قبيلة لمتونة ، فنزل عليهم وقاتلهم حتى أظهره الله عليهم ، وأذعنوا إلى الطاعة وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة ، ثم سار إلى قبيلة مسفوبة فقاتلهم حتى أذعنوا له و بايعوه على مابايعته لمتونة وكدالة ، فلما رأى ذلك سائر صنهاجة سارعوا إلى التوبة والمبايعة وأقروا له بالسمع والطاعة ، فكان كل من أتاه تائبا منهم يطهره بأن يضربه مائة سوط ثم يعلمه القرآن وشرائع الاسلام ، وكان يأمرهم بالصلاة والزكاة وأداء العشر ، واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه مايرفع إليه من ذلك ، ثم أخذ فى اشتراء السلاح وأركاب الجيوش من ذلك المال وجعل يغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء وذلل قبائلها ، ثم جمع أسلاب القتلى فى تلك المغازى وجعلها فيئا للمرابطين و بعث بمال كثير مما اجتمع لديه من الزكوات والاعشار والاخماس إلى طلبة العلم ببلاد المصامدة فاشتهر أمره فى جميع بلاد الصحراء وما والاها من بلاد السودان و بلاد القبلة و بلاد المصامدة وسائر أقطار المغرب ، وأنه قام رجل بكدالة يدعو إلى الله و إلى الصراط

المستقيم

المستقيم ويحكم بما أنزل الله وأنه متواضع زاهد فى الدنيا وطار له ذكر فى العالم ، وتمكن ناموسه من القلوب وأحبته الناس ، ثم توفى يحيى بن إبراهيم الكدالى على أثر ذلك .

رياسة يحيى بن عمر اللمتونى

ولما مات يحيى جمع عبد الله بن يس رءوس القبائل من صنهاجة وولى عليهم يحيى بن عمر اللمتونى وعبد الله بن يس هو الأمير على الحقيقة لأنه هو الذى يأمر وينهى ويعطى ويمنع وعن رأيه يصدرون ، فكان يحيى بن عمر يتولى النظر فى أمر الحرب ، وعبد الله بن يس ينظر فى أمر الدين وأحكام الشرع ويأخذ الزكوات والاعشار ، وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن يس واقفا عند أمره ونهيه فمن حسن طاعته له أنه قال له يوما قد وجب عليك أدب . قال يحيى فيما ذا ياسيدى قال لا أعرّفك به حتى آخذه منك ، فكشف له يحيى عن بشرته فضربه عشرين سوطا ، ثم قال له إنما ضربتك لأنك باشرت القتال واصطليت بنار الحرب بنفسك وذلك خطأ منك فان الأمير لا يقاتل ، وإنما يقف ويحرّض الناس ويقوى نفوسهم فان حياة الجند بحياة أميره وهلاكه بهلاكه ، واستقام الأمر ليحيى بن عمر ، وملك جميع بلاد الصحراء وغزا بلاد السودان ففتح كثيرا منها ، وكان من أهل الزهد والدين والصلاح .

الخبر عن غزو عبد الله بن يس ويحيى بن عمر سجلماسة

لما نال ما نال أهل سجلماسة من جور بنى خزرون المغرويين ، وكان ذلك سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وقد انتشر ذكر عبد الله بن يس وأصحابه المرابطين فى العالم اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة ، وكتبوا إلى عبد الله بن يس ويحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغبون إليهم فى الوصول إلى بلادهم ليطهروها مما هى فيه من المنكرات وشدّة العسف من الأمراء وعرفوهم بما فيه أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار مع أميرهم مسعود المغراوى ، فلما وصل الكتاب إلى عبد الله بن يس جمع رؤساء المرابطين وقرأه عليهم وشاورهم فى الأمر ، فقالوا أيها الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله فدعا لهم بخير وحضهم على الجهاد وخرج بهم فى عشرين من صفر سنة سبع وأربعين وأربعمائة فى جيش كثيف من المرابطين ، فسار حتى وصل إلى بلاد درعة فوجد بها عامل مسعود فنفاه عنها ووجد بها خمسين ألف ناقة لمسعود المذكور وكانت ترعى فى حمى حماه لها هنالك ، فاكتسحها عبد الله بن يس ، واتصل الخبر بمسعود فجمع جيوشه وخرج نحوه ، فالتقى الجمعان فيما بين درعة وسجلماسة ، فكانت بينهما حرب عظيمة منح الله فيها المرابطين النصر على مغراوة ، فقتل أميرهم مسعود وأكثر جيشه وفرّ الباقون ، واستولى عبد الله بن يس على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم مع الابل التى كان اكتسحها فى درعة فأخرج الخمس من ذلك كله وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائها ، وقسم أربعة الأخماس على المرابطين وارتحل من فوره إلى سجلماسة فدخلها وقتل من وجد بها من مغراوة ، وأقام بها حتى أصلح شأنها وغير ما وجد بها من المنكرات وقطع المزامير وآلة اللهو وأحرق الدور التى كانت تباع

بها الجور ، وأزال المكوس ، وأسقط المغارم المخزنية ، ومحا ما أوجب الكتاب والسنة محوه ، واستعمل على سجلماسة عاملا من لمتونة ، وانصرف إلى الصحراء ، ثم توفى الأمير أبو زكرياء يحيى بن عمر فى بعض غزواته ببلاد السودان سنة سبع وأربعين وأربعمائة .

الخبر عن رياسة أبي بكر بن عمر اللمتوني وفتح بلاد السودان

لما توفى الأمير يحيى بن عمر اللمتونى ولى عبد الله بن يس مكانه أخاه أبا بكر بن عمر ، وذلك فى المحرم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وقلده أمر الحرب والجهاد ، ثم ندب المرابطين إلى غزو بلاد السوس والمصامدة ، فزحف إليها فى جيش عظيم فى ربيع الثانى من السنة المذكورة ، وكان أبو بكر بن عمر رجلا صالحا ورعا على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى ، ثم سار حتى انتهى إلى بلاد السوس فغزا جزولة من قبائلها ، وفتح مدينة ماسة وتارودانت قاعدة بلاد السوس وكان بها قوم من الرافضة ، فقاتلهم حتى رجعوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، وأظهر الله المرابطين على من عاداهم ، ففتحوا معاقل السوس وخضعت لهم قبائله ، وفرّق عبد الله بن يس عماله بنواحيه وأمرهم باقامة العدل وإظهار السنة ، وأخذ الزكوات والاعشار واسقاط ماسوى ذلك من المغارم المحدثة ، ثم ارتحل عبد الله بن يس إلى بلاد المصامدة ، ففتح جبل درن ومدينة شفشاوة بالسيف ، ثم فتح مدينة نفيس وسائر بلاد كدميوه ، ووفدت عليه قبائل رجراجة وحاحة ، فبايعوه ، ثم ارتحل إلى مدينة اغمات ، فحاصرها حصارا شديدا إلى أن فرّ من كان فيها من المغراويين ، وكان ذلك سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، فأقام بها عبد الله بن يس نحو الشهرين ريثما استراح الجند ، ثم خرج إلى تادلا ، ففتحها وقتل من وجد فيها من بنى يفرن ملوكها ، ثم تقدم إلى بلاد تامسنا ، ففتحها واستولى عليها ، ثم أخبر بأن بساحل تامسنا قبائل برغواطة فى عدد كثير وجمع عظيم ، فلما سمع عبد الله بن يس بحال برغواطة وما هم عليه من الكفر رأى أن الواجب تقديم جهادهم على جهاد غيرهم ، فسار إليهم فى جيوش المرابطين ، فكانت بينه وبينهم ملاحم عظام مات فيها من الفريقين خلق كثير وأصيب فيها عبد الله بن يس ، فكانت فيها شهادته رحمه الله ، ولما حضرته الوفاة قال لهم : يامعشر المرابطين إنى ميت من يومى هذا لامحالة وإنكم فى بلاد عدوّكم فاياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وكونوا أعوانا على الحقّ وإخوانا فى ذات الله وإياكم والتحاسد على الرياسة ، فان الله يؤتى ملكه من يشاء من خلقه ، ويستخلف فى أرضه من أراد من عباده ، وتوفى رحمه الله عشية ذلك اليوم وهو يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، ودفن بموضع يعرف بكريفلة ، وبنى على قبره مسجد وهو مشهور بها إلى الآن .

وكان عبد الله بن يس رحمه الله شديد الورع فى المطعم والمشرب ، إنما يتعيش من لحوم الصيد ونحوها لم يأكل شيئا من لحوم صنهاجة ولا من ألبانها مدة إقامته فيهم ، وكان مع ذلك كثير النكاح يتزوج فى كل شهر عددا من النساء ثم يطلقهن ، ولا يسمع بامرأة جميلة إلاخطبها .

ومن حسن سياسته أنه أقام فى صنهاجة السنة والجماعة حتى إنه ألزمهم أن من فاتته صلاة

فى

فى جماعة ضرب عشرين سوطا ، ومن فاتته ركعة منها ضرب خمسة أسواط .

ومن كراماته رضى الله عنه أن المرابطين خرجوا معه فى بعض غزواته ببلاد السودان فنفد ماءمعهم من الماء حتى أشرفوا على الهلاك ، فقام عبد الله فتيمم وصلى ركعتين ، ودعا الله تعالى ، وأمّن المرابطون على دعائه ، فلما فرغ من الدعاء . قال لهم احفروا تحت مصلاى هـذا ، فحفروا فصادفوا الماء على نحو شبر من الأرض عذبا باردا واستقوا وملئوا أوعيتهم ، ومن تقواه وورعه أنه لم يزل صائما من يوم دخل بلاد صنهاجة إلى أن توفى رحمه الله .

واستمرّ الأمير أبو بكر بن عمر على رياسته وجددت له البيعة بعـد وفاة عبد الله بن يس ، فكان أوّل مافعله بعد تجهيزه إياه ودفنه أن زحف إلى برغواطة مصمما على حربهم متوكلا على الله فى جهادهم ، فأثخن فيهم قتـلا وسبيا حتى تفرقوا فى المكامن والغياض ، واستأصل شأفتهم وأسلم الباقون إسـلاما جديدا ، ومحا أبو بكر بن عمر أثر دعوتهم من المغرب ، وجمع غنائمهم وقسمها بين المرابطين وعاد إلى مدينة اغمات ، وأقام إلى صفر من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة وخرج غازيا بلاد المغرب فى أمم لاتحصى من صنهاجة وجزولة والمصامدة ، ففتح جبال فازاز ،وسائر بلاد زناتة ، وفتح مدائن مكناسة ، ثم نزل على مدينة لواتة ،فحاصرها حتى اقتحمها عنوةبالسيف وقتل بها خلقا كثيرا من بنى يفرن وخربها فلم تعمر بعـد إلى الآن ، وكان تخريبه إياها فى آخر يوم من ربيع الثانى من السنة المذكورة ، ثم رجع إلى مدينة إغمات ، فأقام بها نحو ثلاثة أشهر ، ثم ورد عليه رسول من بلاد القبلة فأخبره باختلال أمر الصحراء ووقوع الخلاف من أهلها فعظم عليه ذلك ، وسافر إلى الصحراء بعد أن استخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب ، وكان ذلك فى ذى القعدة سـنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، ولما وصل إليها أصلح شأنها ورتب أحوالها وجمع جيشا كثيفا وغزا به بلاد السودان ، فاستولى منها على تسعين مرحلة ، وكان يوسف بن تاشـفين قد استفحل أمره أيضا بالمغرب واستولى على أكثر بلاده ، فلما سمع الأمير أبو بكر بن عمر بما آل إليه أمر يوسف بن تاشفين وما منحه الله من النصر أقبل من الصحراء ليختبر أحواله ويقال انه كان مضمرا عزله وتولية غيره ، فأحسّ يوسف بذلك فشاور زوجته ، فقالت له إن ابن عمك متورع عن سفك الدماء ،فاذا لقيته فاترك ما كان يعهده منك من الأدب والتواضع معه وأظهر أثر الترفع والاستبداد حتى كأنك مساوله ، ثم لاطفه مع ذلك بالهدايا من الأموال والخلع وسائر طرف المغرب واستكثر من ذلك فانه بأرض صحراء وكل من جلب إليـه من هنا فهو مستطرف لديه ، فلما قرب أبو بكر بن عمر من أعمال المغرب خرج إليه يوسف بن تاشفين فلقيه على بعـد وسلم عليه وهو راكب سـلاما مختصرا ، ولم ينزل له ولم يتأدّب معه الأدب المعتاد ، فنظر أبو بكر إلى كثرة جيوشـه ، فقال له يايوسف ماتصنع بهـذه الجيوش ؟ قال أستعين بها على من خالفنى ، فارتاب أبو بكر به ، ثم نظر إلى ألف بعير قد أقبلت موقرة ، فقال ماهـذه الابل الموقرة ؟ قال أيها الأمير إنى قد جئتك بكل مامعى من مال وأثاث وطعام وإدام لتستعين به على بلاد الصحراء ، فازداد أبو بكر تعرّفا من حاله وعلم أنه لايتخلى له عن الأمر ، فقال له يا بن عم انزل أوصيك فنزلا معا وجلسا ، فقال أبو بكر إنى قد وليتك هذا الأمر وإنى مسئول عنه فاتق الله تعالى فى المسلمين

واعتقني واعتق نفسك من النار ، ولا تضيع من أمور رعيتك شيئا فانك مسئول عنه ، والله تعالى يصلحك ويمدك (١) ويوفقك للعمل الصالح والعدل فى رعيتك وهو خليفتى عليك وعليهم، ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء ، فأقام بها مواظبا على الجهاد فى كفار السودان إلى أن استشهد رحمه الله ورضى عنه من سهم مسموم أصابه فى شعبان سنة ثمانين وأربعمائة بعد أن استقام له أمر الصحراء كافة إلى جبال الذهب من بلاد السودان والله غالب على أمره .

الخبر عن دولة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى

لما عزم الأمير أبو بكر بن عمر على السفر إلى بلاد الصحراء حين بلغه بعض الاختلال بها كما تقدم دعا ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتونى ، فعقد له على بلاد المغرب وفوّض إليه أمره ، وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة ، وبنى يفرن ، وسائر زناتة ، والبربر ، واتفق على تقديمه أشياخ المرابطين لما يعلمون من فضله ، ودينه ، وشجاعته ، ونجدته ، وعدله ، وورعه وسداد رأيه ، ويمن نقيبته فعاد يوسف من سجلماسة بنصف جيش المرابطين بعد ارتحال أبى بكر ابن عمر بالنصف الآخر ، وذلك فى ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، ولما انتهى يوسف ابن تاشفين إلى ملوية ميز جيوشه فوجدها أربعين ألفا من المرابطين ، فاختار منهم أربعة من القواد ، وعقد لكل قائد منهم على خمسة آلاف من قبيلته ، وجعلهم مقدمة بين يديه لقتال من بالمغرب من مغراوة ، وبنى يفرن ، وسائر قبائل البربر القائمين به ، ثم سار هو فى أثرهم يتقرى بالمغرب بلدا بلدا ، ويتتبع أهله قبيلة قبيلة ، فقوم يقاتلونه ثم يظفر بهم ، وقوم يفرّون بين يديه ، وقوم يلقون إليه السلم ويبذلون الطاعة حتى دوّخ بلاد المغرب ، ثم سار حتى دخل مدينة اغمات ولما استقرّ بها تزوّج زينب بنت إسحاق النفراوية ، وكانت من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة ، وهى عنوان سعده ، والقائمة بملكه ، والمدبرة لأمره ، والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب ، ومن ذلك إشارتها عليه فى أمر أبى بكر بن عمر ، وكيفية ملاقاته معه حسبما ذكرناه آنفا ، وكانت وفاتها سنة أربع وستين وأربعمائة .

بناء مدينة مراكش

لما دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة . كان أمر يوسف بن تاشفين قد استفحل بالمغرب جدّا ، ورسخت قدمه فى الملك ، وعظم صيته . فسمت همته إلى بناء مدينة يأوى إليها بحشمه وجنده ، وتكون حصنا له ولأرباب دولته ، فاشترى موضع مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة بالمال الذى خرج به من الصحراء ، وكان لعجوز منهم ، وقيل كان مزرعة لأهل نفيس ويعرف الموضع بمراكش ، ومعناه بلغة المصامدة أمش مسرعا . انظر بسط الكلام عليه فى تاريخنا لمراكش ، ولما ملك الموضع المذكور اتخذه لنزوله ، ونزول عسكره ، وللتمرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم منها فى جبل درن إذ لم يكن فى قبائل المغرب أشدّ منهم قوّة ، ولا أكثر جمعا ، وبنى به القصور والمساكن الأنيقة ، ولم يبن على ذلك سورا ، ولما شرع فى بناء مسجد مراكش

(١) الميد : الأعطاء اه مصححه .

كان

كان يحتزم ، ويعمل فى الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعا منه لله تعالى ، والذى بناه يوسف بمراكش هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش جوفا من جامع الكتبيين منها ، ويعرف اليوم بالسجينة ، ولم يكن بالموضع ماء فحفر الناس آبارا فظهر لهم الماء على قرب فاستوطنوها وبنوا بها ، ولم تزل مدينة مراكش لاسور لها إلى أن توفى يوسف بن تاشفين رحمه الله وولى بعده ابنه علىّ بن يوسف ، ومضى معظم دولته ، فأدار عليها السور سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وكان ذلك باشارة القاضى أبى الوليد محمد بن رشد الفقيه المشهور فانه كان قد قدم على السلطان بمراكش ،فأشار عليه بذلك عند مانبغ محمدبن تومرت مهدى الموحدين بجبال المصامدة ، وكانت مدّة البناء ثمانية أشهر ، وكان الانفاق على السور سبعين ألف دينار ، وبنى على بن يوسف أيضا الجامع الأعظم المنسوب إليه إلى اليوم والمنار الذى عليه ، وأنفق عليه ستين ألف دينار أخرى ، ثم لما جاءت دولة الموحدين وكان منهم يعقوب المنصور الشهير الذكر اعتنى بمدينة مراكش واحتفل فى تشييدها وبالغ فى تنميق مساجدها وتجديد مصانعها ومعاهدها ، ولم تزل مراكش دار مملكة المرابطين ثم الموحدين من بعدهم سائر أيامهم ، ثم لما جاءت دولة بنى مرين من بعدهم اتخذوا كرسى مملكتهم بمدينة فاس وبنوا بها المدينة البيضاء ، ثم جاءت الدولة السعدية من بعدهم ، فنقلوا الكرسى إلى مراكش وبنوا بها قصر البديع المشهور ، ثم جاءت الدولة العلوية فاتخذ المولى إسماعيل كرسى ملكه بمكناسة الزيتون ، واحتفل فى بنائها احتفالا عظيما ، ثم لما كانت دولة سيدى محمد بن عبد الله ردّ كرسى الملك إلى مراكش وبنى بها قصوره ومصانعه ، واستمرّت كرسيا لمملكتهم إلى الآن .

فتح مدينة فاس وغيرها من سائر بلاد المغرب

وفى سنة أربع وخمسين وأربعمائة المذكورة جند يوسف بن تاشفين الأجناد ، واستكثر القوّاد ، وفتح كثيرا من البلاد ، واتخذ الطبول والبنود ، ورتب العمال وكتب العهود ، وجعل فى جيشه الاغزاز والرماة ،كل ذلك ارهابا لقبائل المغرب ، فكمل له من الجيش فى تلك السنة أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة والاغزاز والرماة ، فخرج بهم من حضرة مراكش قاصدا مدينة فاس فتلقته قبائلها فى خلق عظيم فقاتلوه فكانت بينه وبينهم ملاحم عظام وانهزموا فيها من بين يديه ، ثم رحل إلى فاس فنازلها بعد أن فتح جميع أحوازها ، وذلك فى آخر سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وأقام عليها أياما محاصرا لها حتى فتحها وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، وهذا هو الفتح الأوّل ثم فتحها مرة أخرى بعد ماوقع من أهلها ما وقع بسبب قيام بعض المغراويين ، فنزل عليها بجميع جيوشه ، وشدّد عليها الحصار حتى دخلها عنوة بالسيف ، وقتل بها من مغراوة وبنى يفرن ومكناسة وغيرهم خلقا كثيرا حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى ، وهذا هو الفتح الثانى لمدينة فاس ، وكان يوم الخميس ثانى جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، ولما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس أمر بهدم الأسوار التى كانت فاصلة بين المدينتين : عدوة القرويين وعدوة الأندلس وصيرهما مصرا

واحدا وحصنها ، وأمر ببنيان المساجد فى شوارعها وأزقتها ، وأىّ زقاق لم يوجد فيه مسجد عاقب أهله ، وأمر ببناء الحمامات والفنادق والارحاء ، وأصلح بناءها ورتب أسواقها ، وأقام بها إلى صفر سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، ثم خرج للطواف على أعمال المغرب وتفقد أحوال الرعية والنظر فى سيرة ولاته وعماله فيها ، وفى سنة سبعين وأربعمائة جهز جيشا كثيفا لغزو طنجة وسبتة ، وكانت بيد الحاجب سكوت البرغواطى ، فلما قرب من طنجة برز إليهم سكوت بجموعه ، وقال والله لايسمع أهل سبتة طبول اللمتونى وأنا حىّ أبدا ، فالتقى الجمعان بوادى منى من أحواز طنجة ، والتحم القتال فقتل سكوت وفضت جموعه ، وسار المرابطون إلى طنجة ، فدخلوها واستولوا عليها ، وفى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث بعض قوّاده لغزو تلمسان والمغرب الأوسط ، فسار إليها فى عشرين ألفا من المرابطين ، وكان بتلمسان يومئذ بعض رؤساء المغراويين فدوّخوا المغرب الأوسط ، وظفروا ببعض مقصودهم ، ورجعوا إلى يوسف فألقوه بمراكش ، ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين، فيها غير يوسف بن تاشفين السكة فى جميع عمله وكتب عليها اسمه،وفى هذه السنة فتح عدّة مدن ، وفى سنة أربع وسبعين وأربعمائة زحف يوسف بن تاشفين إلى مدينة وجدة ففتحها وفتح بلاد بنى يزناس وماوالاها ، ثم سار إلى تلمسان ففتحها واستلحم من كان بها من مغراوة ، وقتل أميرها العباس المغراوى ، وأنزل بها عامله محمد المسفيوى فى عساكر المرابطين ، فصارت ثغرا لمملكته ، ثم افتتح مدينة تونس ووهران وجبل وانشريس وجميع أعمال شلف إلى الجزائر ، وانكفأ راجعا إلى المغرب ، فدخل مراكش فى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، ثم ورد عليه بها كتاب المعتمد بن عباد يعلمه بحال بلاد الأندلس وما آل إليه أمرها من تغلب الأجانب على أكثر ثغورها ويسأله النصر والاعانة ، فأجابه يوسف بقوله : إذا فتح الله علىّ سبتة اتصلت بكم ، وبذلت جهدى فى جهاد الأجانب ، وكان الفنش قد تحرك فى هذه السنة فى جيوش لاتحصى ، فشقّ بلاد الأندلس شقا ويقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبى ، ثم يرتحل إلى غيرها إلى أن خرب قرى كثيرة من بلاد الأندلس وغيره وهذا هو السبب المحرك لعزائم المسلمين بالأندلس والمغرب على الجهاد ، ولما سمع المعتمد بن عباد بفتح سبتة ، ورأى ما رأى من أمر الفنش ركب البحر إلى المغرب لاستنفار يوسف بن تاشفين إلى الجهاد فلقيه بفاس وأخبره بحال الأندلس وما هى عليه من الضعف وشدّة الخوف والاضطراب وما يلقاه المسلمون من الأجانب من القتل والأسر والحصار كل يوم ، فقال له يوسف ارجع إلى بلادك وخذ فى أمرك فانى على أثرك ، فرجع ابن عباد إلى الأندلس ، ونزل ليوسف عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجهاده، ودخل يوسف سبتة فنظر فى أمرها وأصلح سفنها وقدمت عليه جنود الله من المغرب والصحراء والقبلة وغيرها ، وكان من أمره ما كان حسبما أثبتناه فى ترجمته من كتابنا « نزهة الممالك والملوك » فانظره هناك .

توفى يوسف بن تاشفين رحمه الله ورضى عنه يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة وعاش تسعين سنة ، ملك منها مدّة خمسين سنة ، ولم يزل رحمه الله على حاله وسلطانه إلى أن توفى فى التاريخ المذكور ، وكان حازما سائسا للأمور ضابطا لمصالح مملكته مؤثرا لأهل العلم والدين كثير

المشورة لهم ، وكان الامام حجة الاسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله لما سمع ماهو عليه من الأوصاف الجيدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه ، فوصل إلى الاسكندرية وشرع فى تجهيز مايحتاج إليه ، فجاء إليه الخبر بوفاته فرجع عن ذلك العزم .

وكان السلطان يوسف رحمه الله قد انتهى ملكه إلى مدينة افراغة من قاصية شرق الأندلس وإلى مدينة أشبونة على البحر المحيط من غرب الأندلس ، وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما طولا وفى العرض ما يقرب من ذلك ، وملك بعدوة المغرب من جزائر بنى مزغنة إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى جبال الذهب من بلاد السودان ، ولم ير فى بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا خراج لا فى حاضرة ولا فى بادية إلا ما أمر الله به ، وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والاعشار وجزيات أهل الذمة وأخماس الغنائم ، وقد جبى فى ذلك من الأموال على وجهها مالم يجبه أحد قبله ، وكان رحمه الله زاهدا فى زينة الدنيا وزهرتها ورعا متقشفا لباسه الصوف لم يلبس قط غيره ، ومأكله الشعير ولحوم الابل وألبانها مقتصرا على ذلك لم ينتقل عنه مدة عمره على مامنحه الله من سعة الملك وخوّله من نعمة الدنيا ، وقد ردّ أحكام البلاد إلى القضاة وأسقط مادون الأحكام الشرعية ، وكان يسير فى أعماله بنفسه فيتفقد أحوال الرعية فى كل سنة ، وكان محبا للفقهاء وأهل العلم والفضل مكرما لهم صادرا عن رأيهم يجرى عليهم أرزاقهم من بيت المال ، وكان مع ذلك حسن الأخلاق متواضعا كثير الحياء جامعا لخصال الخير . رحمه الله تعالى ورضى عنه .

وقام بالأمر بعده ابنه على بن يوسف فى التاريخ المتقدم بعهد من أبيه إليه ، وتسمى بأمير المسلمين ، وكان سنه يوم بويع ثلاثا وعشرين سنة ، وملك من البلاد مالم يملكه أبوه لأنه صادف البلاد ساكنة ، والأموال وافرة ، والرعايا آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة ، وسلك طريق أبيه فى جميع أموره ، واهتدى بهديه . راجع ترجمته فى كتابنا «نزهة الممالك والمملوك»

توفى رضى الله عنه ورحمه فى سابع رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، وكان رجلا حليما وقورا صالحا عادلا منقادا إلى الحق والعلماء ، تجبى إليه الأموال من البلاد ولم يزعزعه عن سريره قط حادث ولا طاف به مكروه عدا قيام محمد بن تومرت مهدى الموحدين .

وقام بالأمر بعده ابنه أبو المعز تاشفين فى التاريخ المتقدم بعهد من أبيه إليه وكان أمر عبد المؤمن ابن على يومئذ قد استفحل بتينملل وسائر بلاد المصامدة أهل جبل درن ، واستقدمه أبوه على بن يوسف من بلاد الأندلس لمدافعة أصحاب محمد بن تومرت فلم ينجح أمره بخلاف ما عوّده الله فى بلاد الأندلس من النصر لما قضاه الله من الادبار على دولتهم ، ولما توالت عليه وقائع الموحدين ، ولم يبق له فى مقاومتهم سبيل أجمع الرحلة إلى وهران ، وذلك سنة تسع وثلاثين وخمسمائة فأقام بها شهرا فزحف إليه عبد المؤمن ، وفض جموع المرابطين الذين بها ، ولجأ تاشفين إلى رابية هناك ، فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى إذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكبا على فرسه فتردى من بعض حافات الجبل وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وأحاط العسكر بوهران وحصروا أهلها ، ومن كان معهم من المرابطين حتى جهدهم العطش ونزلوا

جيعا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة فأمر بقتلهم جيعا رحمهم الله، وأما تاشفين فانه لما تردى من ذلك الجبل الشامخ ، وكان ذلك فى ليلة مظلمة ممطرة وهى ليلة السابع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة آنفا وجد من الغد بازاء البحر ميتا فاحتز رأسه وحمل إلى تينملل ، فعلق على شجرة هناك ، وذلك بعد ملازمة الحرب مع الموحدين فى البيداء لم يأو إلى ظل قط من يوم بويع إلى أن مات ، وكانت مدة ولايته سنتين وشهرا ونصف شهر .

ومن ذلك الوقت توجه عبد المؤمن إلى تلمسان ، ثم توجه منها إلى فاس فحاصرها واستولى عليها سنة أربعين وخمسمائة ، ثم قصد مراكش سنة إحدى وأربعين بعدها فحاصرها أحد عشر شهرا ، وأمير اللمتونيين يومئذ فيها اسحاق بن علىّ بن يوسف ، ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين ، فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل واقتحموا عليهم المدينة فى آخريات شوّال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقتل عامة اللمتونيين ، ونجا إسحاق فى جملته ، وأعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين فقتلوا جيعا وامحى أثر اللمتونيين واستولى الموحدون على جيع البلاد ، والله غالب على أمره ، وكانت لمتونة أهل ديانة وصدق ونية خالصة وصحة مذهب ، ملكوا بالأندلس من بلاد الافرنج إلى البحر الغربى المحيط ، ومن بلاد العدوة من مدينة بجاية إلى جبال الذهب من بلاد السودان ، وخطب لهم على أزيد من ألفى منبر بالتثنية ، وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ، وكان ذلك مصحوبا بطول أيامهم ، ولم يكن فى عمل من أعمالهم خراج ، ولا معونة ولا تقسيط ، ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر ، وكثرت الخيرات فى دولتهم ، وعمرت البلاد ، ووقعت الغبطة ، ولم يكن فى أيامهم نفاق ، ولا قطاع طريق ، ولا من يقوم عليهم ، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدى الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة ❊ وسبب تمزيق ملكهم مع ماهم عليه من القيام بالوظائف الدينية ، والأخلاق المحمدية . على ماقيل هو إحراق كتاب الاحياء للامام الغزالى ، وذلك أنه لما وصلت نسخة منه إلى بلاد المغرب تصفحها جماعة من فقهاء أمير المسلمين علىّ بن يوسف ، فانتقدوا فيها أشياء على الشيخ أبى حامد رحمه الله ، وأعلموا السلطان بأمرها ، وأفتوه بأنها يجب إحراقها ، ولا تجوز قراءتها بحال، وكان علىّ بن يوسف واقفا كأبيه عند إشارة الفقهاء وأهل العلم قد ردّ جيع الأحكام إليهم ، فلما أفتوه باحراق كتاب الاحياء كتب إلى أهل مملكته فى سائر الأمصار والأقطار بأن يبحث عن نسخ الاحياء بحثا أكيدا ، ويحرق ماعثر عليه منها ، فجمع من نسخها عدد كثير ببلاد الأندلس ، ووضعت بصحن جامع قرطبة ، وصبّ عليها الزيت ثم أوقد عليها بالنار ، وكذا فعل بما بقى من نسخها بمراكش بالمسجد القريب من سوق الجلد النبىء المتخذ اليوم زاوية للطائفة الكتانية ، وتوالى الاحراق عليها فى سائر بلاد المغرب ، وكان ذلك فى حياة الشيخ أبى حامد رحمه الله ورضى عنه فدعا على المرابطين بتمزيق ملكهم فاستجيب له فيهم ، ولم يقع فى دولة المرابطين أشنع من هذه النازلة ، وهى إحراق كتاب الاحياء ، والأمر لله وحده .

وحدّث وطنينا التادلى صاحب [التشوف] عن أبى الحسن علىّ بن حرزهم قال : لما وصل إلى

فاس

فاس كتاب أمير المسلمين على بن يوسف بالتجريح على كتاب الاحياء ، وأن يحلف الناس بالايمان المغلظة أن كتاب الاحياء ليس عندهم ذهبت إلى أبى الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوى ، وكان من أهل العلم والدين على هدى السلف الصالح مجاب الدعوة أستفتيته فى تلك الايمان ، فأفتانى بأنها لا تلزم ، وكانت إلى جنبه أسفار ، فقال لى هذه الأسفار من كتاب الاحياء ، ووددت أنى لم أنظر فى عمرى سواها ، وكان أبو الفضل قد انتسخ كتاب الاحياء فى ثلاثين جزءا ، فاذا دخل شهر رمضان قرأ فى كل يوم جزءا اه

الدولة الموحدية

وقيامها على يد محمد بن تومرت المعروف بالمهدى ،وقد استوفينا ترجمته فى كتابنا « الاستبصار فى ذكر حوادث الأعصار » فراجعه هناك .

توفى المهدى هذا يوم الاربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وقام بالأمر بعده عبد المؤمن بن على الكومى ، واستولى على المغرب بأسره ، وفتح بلاد افريقية إلى برقة ، وبلاد الأندلس بأسرها ، وخطب له على منابر هذه الأقاليم كلها .

ثورة محمد بن هود السلاوى المعروف بالماسى

كان محمد بن هود بن عبد الله السلاوى رجلا من سوقة أهل سلا ، وكان أبوه سمسارا بها ، وكان هو قصارا بها مدة ، ثم لحق بعبد المؤمن عند ما ظهر وبايعه وشهد معه فتح مراكش ، ثم فارقه وظهر برباط ماسة من ناحية السوس ، ودعا لنفسه وتسمى بالهادى ، وتمكن ناموسه من قلوب العامة ، وكثير من الخاصة . فأقبل إليه الشراد من كل جانب وانصرفت إليه وجوه الأغمار من أهل الآفاق ، وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة ، وقبائل دكالة ، ورجراجة ، وقبائل تامسنا وهوارة ، وفشت ضلالته فى جميع المغرب . قال فى القرطاس بايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن إلا مراكش ، فسرح إليه عبد المؤمن عسكرا من الموحدين ، فانتصر الماسى عليهم ، وعاد مهزوما إلى عبد المؤمن ، فسرح إليه عبد المؤمن ثانيا جيشا عظيما ، وكان ذلك فى فاتح ذى القعدة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، فلما انتهى جيش الموحدين إلى رابطة ماسة برز إليهم محمد بن هود فى ستين ألفا من الرجالة ، وسبعمائة من الفرسان ، فكانت بينهم حرب شديدة ، ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموهم ، وقتل محمد بن هود فى المعركة مع كثير من أتباعه وفضت جموعه وكان ذلك فى ذى الحجة من السنة المذكورة ، ثم صار عبد المؤمن يعالج ما انتقض عليه من مدن المغرب إلى أن تم أمره ، وصفا مشربه . انظر تمام ترجمته فى كتابنا « نزهة الممالك والمملوك » توفى رحمه الله ليلة الجمعة الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده يوسف بن عبد المؤمن ، وبويع بيعة الجماعة يوم الجمعة ثامن ربيع الأول سنة ستين وخمسمائة ، وذلك بعد وفاة والده عبد المؤمن بسنتين لأنه لما بويع بعد وفاة والده توقف عن بيعته ناس من أشياخ الموحدين ، وامتنع من بيعته إخوان أبو محمد صاحب بجاية وأبو عبد الله

صاحب قرطبة فكف عنهم ، ولم يطالبهم ببيعة ، وتسمى بالأمير ولم يتسم بأمير المؤمنين حتى اجتمع عليه الناس ، وكان أوّل شيء فعله بعد البيعة أن سرح الجيوش المجتمعة للجهاد فى حياة أبيه إلى بلادهم وقبائلهم ، وكتب إلى البلاد بتسريح السجون وتفريق الصدقات فى جميع عمله ، ثم ارتحل إلى مراكش فدخلها وأقام بها وانتشر خبره فى أقطار البلاد ، ودان له من بالعدوتين من العباد ، وفرّق الأموال فى القبائل والأجناد ، وفى سنة خمس وستين وخمسمائة وجه أخاه أبا حفص إلى الأندلس برسم الجهاد ، فعبر البحر من قصر المجاز إلى طريف فى عشرين ألفا من الموحدين والمتطوّعة فدوّخوا العدوّ ، وفى سنة ست وستين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ببناء قنطرة تانسفت ، وكان الشروع فى بنائها يوم الأحد ثالث صفر من السنة المذكورة ، ولما اتصل به ما اتفق لشقيقه أبى حفص من ظهور المسلمين على عدوّهم تاقت نفسه إلى العبور إلى بلاد الأندلس بقصد إصلاح حالها وجهاد العدوّ بها ، وقد توافت لديه وهو بمراكش أيضا جموع العرب من إفريقية ، وكان يوم قدومهم عليه يوما مشهودا ، ونهض إلى الأندلس فى مائة ألف من العرب والموحدين ، واستخلف على مراكش أخاه أبا عمران ، فاحتلّ قرطبة سنة سبع وستين وخمسمائة ثم ارتحل بعدها إلى اشبيلية ، ومنها خرج غازيا بلاد العدوّ ، فنزل على مدينة له تسمى وبذة ، فأقام محاصرا شهورا إلى أن اشتدّ عليهم الحصار وعطشوا ، فراسلوه فى تسليم المدينة ، وأن يعطيهم الأمان على أنفسهم فامتنع من ذلك ، فلما اشتدّ بهم العطش سمع لهم فى بعض الليالى لغط عظيم وأصوات هائلة ، وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى ، فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج ، فارتووا وتقوّوا على المسلمين ، فانصرف عنهم إلى اشبيلية بعد أن هادنهم مدّة سبع سنين .

فليعتبر الواقف على هذه القضية ، وليعلم أن هؤلاء كفار جاحدون ينسبون إلى الله ما لا يليق به من التثليث وأنواع الكفر ، ومع ذلك لما انقطع رجاؤهم ورجعوا إلى الله تعالى بالاضطرار الصادق رحمهم الله سبحانه وهو أرحم الراحمين ، فلا ينبغى بعد هذا للمؤمن الموحد إذا حصل له شدّة أن ييأس من رحمة الله فانه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، والسرّ فى الاضطرار فانه عند أرباب البصائر هو اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

توفى أمير المؤمنون يوسف بن عبد المؤمن شهيدا يوم السبت العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة قرب الجزيرة الخضراء ، فحمل إلى تينملل ، فدفن بها إلى جنب قبر أبيه ، وكان رحمه الله حريصا على الجمع بين علمى الشريعة والحكمة فقيها حافظا متفننا حلو الألفاظ حسن الحديث طيب المجالسة بعيد الهمة ضابطا لخراج مملكته عارفا بسياسة رعيته ، ولم يزل يجمع إليه العلماء من كل فج من جميع الأقطار ، ومن جلتهم القاضى أبو الوليد بن رشد المعروف بالحفيد وكان سخيا جوادا قد استغنى الناس فى أيامه .

وقام بالأمر بعده ابنه المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقد استوفينا ترجمته فى كتابنا « نزهة الممالك والمملوك » فراجعها هناك .

ولما رجع المنصور من الأندلس إلى مراكش أخذ البيعة لولده أبى عبد الله محمد الملقب بالناصر

لدين

لدين الله ، فبايعه كافة الموحدين وسائر أهل الأمصار والأقطار ، فلما تمت البيعة للناصر المذكور وجلس فى محل الخلافة وجرت الأحكام والأوامر باسمه وعلى يديه فى حياة أبيه دخل المنصور قصره فلزمه إلى أن توفى رحمه الله ورضى عنه ، وذلك فى الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ودفن بمجلس سكناه من مراكش ، وكذب العامة بموته ولوعا وتمسكا به فادعوا أنه ساح فى الأرض وتجرد حتى انتهى إلى بلاد الشرق وهو مستخف لايعرف ومات خاملا .

وما تزعمه عامة المغرب فى حمة أبى يعقوب التى بقرب مدينة فاس أنها منسوبة ليعقوب المنصور هـذا وأنه رصد لها عفريتين يوقدان عليها إلى الأبد وأن حرارة مائها بسبب ذلك الايقاد ، وأن الشفاء الذى يحصل للمستحمين بها إنما هو ببركة يعقوب المنصور كله باطل ، وإنما حرارة العين لخاصية أودعها الله فى أصلها ومنبعها ، وكذا الشفاء الحاصل بها إنما هو بخاصية فى ذلك الماء وهى وجود الكبريت ، والمعروف عند الأطباء أن التلطخ بالكبريت نافع لأصحاب الجرب عياذا بالله .

وقام الناصر لدين الله بعد وفاة أبيه بمراكش بقية ربيع الأول وجمادى الثانية ، ثم نهض فى فاتح جمادى الأولى إلى فاس ، فأقام بها بقية السنة المذكورة ، ثم غزا جبال غمارة من أجل الثائر بها ففتحها ، ثم رجع إلى فاس فأتم بناء سورها الذى كان خربه عبد المؤمن وبنى قصبتها ورتب أمورها ، وأقام بها إلى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، فعاد إلى مراكش ، وأقام بها إلى أن قوى أمر يحيى بن إسحاق المسوفى المعروف بابن غانية بافريقية وغيرها من بلاد الجريد وتونس ، واتصل بالناصر وهو بمراكش ماآل إليه أمره ، فامتعض لذلك ، وشاور الموحدين فى أمر افريقية ، فأشاروا عليه بمسالمة ابن غانية فلم يرض ذلك ، ونهض إليها سنة ستمائة ، ولما قرب الناصر من افريقية خرج ابن غانية من تونس إلى القيروان ثم إلى قفصة ثم إلى جبل بنى دمّر فتحصن به ووصل الناصر إلى تونس ، ثم سار فى اتباع ابن غانية إلى قفصة ثم إلى قابس ، ثم عاد إلى المهدية ، فعسكر عليها واتخذ الآلة لحصارها ، وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد لقتال ابن غانية فى أربعة آلاف من الموحدين سنة اثنتين وستمائة ، فلقيه بجبل تاجورة من نواحى قابس وأوقع به ، وأما الناصر فانه استمر محاصرا للمهدية إلى أن فتحها فى السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة اثنتين وستمائة ، وولى عليها محمد بن يغمور وارتحل عنها فى عشرين من جمادى الثانية فدخل تونس غرة رجب ، وأقام بها بقية السنة وقفل الناصر إلى المغرب فدخل مراكش فى ربيع الأول سنة أربع وستمائة ، ثم اتصلت الأخبار به وهو بمراكش أن الفنش قد استطال على ثغور المسلمين بالأندلس وأنه يغير على قراها ، وينتهب الأموال ، ويسبى النساء والذرية ، فأهمه ذلك وأقلقه ، وكتب إلى عامله الشيخ عبد الواحد صاحب افريقية يستشيره فأبى عليه نخالفه ، وأخذ فى الحركة للجهاد ، وكان الناصر معجبا برأيه مستبدا بأموره ، ففرق الأموال على القواد والأجناد ، وكتب إلى جميع بلاد افريقية والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار ، فأجابه خلق كثير وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجالة تخرج للجهاد فقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار وتسارع الناس إليه خفافا وثقالا من البوادى والأمصار ، فلما تكاملت لديه الحشود ، وتوافت بحضرته الجنود ، خرج

من مراكش فى تاسع عشر شعبان سنة سبع وستمائة فانتهى إلى قصر المجاز فأقام به وشرع فى اجازة الجيوش من أوائل شوّال إلى آخر ذى القعـدة من السنة المذكورة ، ثم عبر فى آخرهم واحتل بطريف يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذى القعدة المذكور ، فتلقاه هنالك قواد الأندلس وفقاؤها ورؤساؤها ، وأقام بطريف ثلاثا ، ثم نهض إلى اشبيلية فى أمم لاتحصى وجيوش لاتستقصى قد ملأت السهل والوعر .

حكى بعض الثقات من مؤرخى المغرب أنه اجتمع مع الناصر فى هذه الغزوة من أهل المغرب والأندلس ستمائة ألف مقاتل ، وكان الناصر قد أعجبه ما رأى من كثرة جنوده ، وأيقن بالظفر ، فقسم الناس خمس فرق : فجعل العرب فرقة ، وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب فرقة ، وجعل المتطوّعة فرقة ، وجعل جند الأندلس فرقة ، والموحدين فرقة ، وأمر كل فرقة أن تنزل ناحية ، واهتزّت جميع بلاد الفرنج لجوازه وتمكن رعبه من قلوبهم ، فأخذوا فى تحصين بلادهم وإخلاء ماقرب من المسلمين من قراهم وحصونهم ، وكتب إليه أكثر أمرائهم يسألونه السلم ويطلبون منه العفو ، ووفد عليه منهم ملك بنبلونة مستسلما خاضعا طالبا للصلح ، فيقال إنه قدم بين يديه كتاب النبىّ ﷺ الذى كتبه إلى هرقل ملك الروم يستشفع به ، وقد كان هـذا الكتاب وقع إليه وراثة من بعض سلفه ، فاحتفل الناصر لقدومه وصف له الجيوش من باب مدينـة قرمونة إلى باب اشبيلية أربعين ميلا ، ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين وصرفه إلى بلاده مكرّما مسعفا بجميع مطالبه ، ثم خرج الناصر من اشبيلية غازيا بلاد قشتالة فى أوائل صفر سـنة ثمان وستمائة ، فسار حتى نزل حصن سلبطرة ، وهو حصن منيع وضع على قنة جبل وقد تعلق بأكناف السحاب ليس له مسلك إلا من طريق واحد فى مضايق وأوعار ، فنزل عليـه الناصر وأدار به الجيوش ونصب عليه أربعين منجنيقا فهتك أرباضه ، ولم يقدر منه على شىء .

قالوا وكان وزيره ابن جامع قد تمكن من الناصر فأقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوى الرأى منهم عن بساطه ، فكان يشير على الناصر فى غزوته هـذه بآراء كانت سبب الضعف والوهن ، وجلبت الكرة على المسلمين ، من ذلك أن الناصر لما أعياه أمر الحصن عزم على النهوض عنه إلى غيره ، فأشار عليه ابن جامع بأن لايتجاوزه حتى يفتحه ، فيقال انه أقام على ذلك الحصن ثمانية أشهر فنيت فيها أزواد الناس ، وقلت علوفاتهم ، ونفدت نفقاتهم ، وكلت عزائمهم ، وفسدت نياتهم ، وانقطعت الأمداد عن المحلة ، فغلت بها الأسعار ، ودخل فصل الشتاء فاشتدّ البرد ، وأصاب المسلمين كل ضرّ ، واتصل بالفنش ما آل إليه أمر المسلمين من الضجر وقلة المادّة وتشوش الباطن واختلاف الرأى ، فاغتنم الفرصة ، وبعث الحاشرين فى مدائنه ، ودعا كل من قدر على حمل السـلاح من رعيتـه ، فاجتمع له من ذلك ما لاحصر له ، ثم خالف الناصر إلى قلعة رباح فنازلها وبها يومئذ أبو الحجاج يوسف بن قادس من قواد الأندلس وزعمائها كان قد ترتب فى ذلك الحصن فى جماعة من الخيل لحمايته وضبطه ، فحاصره الفنش وبالغ فى التضييق عليه ، فكان ابن قادس يكتب لأمير المؤمنين الناصر يعلمه بحاله ويستمدّه على عدوّه وهو على حصن سلبطرة ، فكان الوزير ابن جامع إذا وصلت إليـه كتب ابن قادس أخفاها عن الناصر لئلا يرحل عن الحصن قبل فتحه ، فلما

طال الحصار على ابن قادس وفنى ما عنده من الأقوات والسلاح ، ويئس من امداد الناصر إياه ، وخشى على من فى الحصن من النساء والذرية صالح الفنش على تسليم الحصن له وخروج المسلمين آمنين على أنفسهم ففعل واستولى الفنش على قلعة رباح ، وسار ابن قادس إلى الناصر ليجتمع به ويعلمه بالأمر على وجهه ، وسار معه صهرله بعد أن عزم ابن قادس عليه أن يرجع فأبى ، وقال إن قتلت قتلت معك ، ولما وصلا إلى الوزير ابن جامع أمر بحبسه وحبس صهره معه ، ثم دخل على الناصر ،فقال له إن ابن قادس قد دفع الحصن إلى العدوّ ثم قدم عليك وأراد الدخول عليك ، وكان الناصر قد تغير باطنه على أهل الأندلس واتهمهم بكتمان أمر العدوّ عنه حين كان بمراكش ، فلما قدم ابن قادس فى هذه المرة ، وقال له ابن جامع ما قال أمر بقتله فقتل هو وصهره قطعا بالرّماح رحمهم الله ، فحقدت جيوش الأندلس على ابن جامع ، وفسدت نياتهم على الناصر ، وأحسّ ابن جامع بذلك ، فأمر باحضار قوادهم فحضروا بين يديه ، فقال اعتزلوا جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم كما قال الله تعالى ـ لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ـ وسننظر بعد هذا فى أمر كل فاجر ، ولما علم الناصر بحال الفنش وما هو عليه من القوّة وكثرة الجموع واستيلائه على قلعة رباح التى هى أمنع ثغور المسلمين شق ذلك عليه ، وامتنع من الطعام والشراب حتى مرض من شدّة الوجد ، ثم شدّد فى قتال سلبطرة ، وبذل الأموال الجليلة حتى فتحها صلحا ، وذلك فى أواخر ذى الحجة من سنة ثمان وستمائة ، ثم زحف الفنش إلى الناصر ، ونهض الناصر إليه فالتقى الجمعان بموضع يعرف بحصن العقاب فضرب المصاف ، وضرب للناصر قبته الحمراء المعدّة للقتال على رأس ربوة ، وقعد أمامها على درقته وفرسه قائم بازائه ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ، ومعهم السلاح التام ، ووقفت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع ، وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر ، فتقدمت إليهم المتطوعة ، وحملوا عليهم أجمعون ، وكانوا مائة وستين ألفا ، فغابوا فى صفوفهم ، وانطبقت عليهم جموع الفرنج فاقتتلوا قتالا شديدا ، فاستشهد المتطوعة عن آخرهم ، هذا وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم لم يتحرّك إليهم منهم أحد ، ولما فرغ الفرنج من المتطوّعة حملوا بأجمعهم على عساكر الموحدين والعرب حملة منكرة ، فلما انتشب القتال بين الفريقين فرّت قواد الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع فى قتل ابن قادس أوّلا ، وتهديدهم وطرده لهم ثانيا ، فجروا الهزيمة على المسلمين ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله ، وتبعهم قبائل البربر والموحدين والعرب ، وركبتهم الافرنج بالسيف ، وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا إلى الدائرة التى دارت عليه من العبيد والحشم فألفوها كالبنيان المرصوص لم يقدروا منها على شئ ، ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد ، وهى مشرعة إليهم ، فدخلوا فيها والناصر قاعد على درقته أمام خبائه يقول صدق الرحمن وكذب الشيطان حتى كادت الفرنج تصل إليه ، وحتى قتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف ، ثم أقبل إليه بعض فرسان العرب على فرس له أنثى ، فقال له إلى متى قعودك ياأميرالمؤمنين وقد نفذ حكم الله وتمّ أمره وفنى المسلمون ، فعند ذلك قام الناصر إلى جواد له سابق كان أمامه فأراد أن يركبه ، فترجل العربى عن فرسه ، وقال له اركب هذه الحرّة فانها لاترضى بعار ، فلعلّ

الله ينجيك عليها فان فى سلامتك الخير كله ، فركبها الناصر وركب العربى جواده ، وتقدم أمامه فى كبكبة عظيمة من العبيد محيطة بهم ، والفرنج فى أعقابهم تقتلهم ، ونادى منادى الفنش يومئذ ألا لا أسر إلا القتل ، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره ، فحكمت سيوف الفرنج فى المسلمين إلى الليل ، وكانت هذه الرزية العظيمة يوم الاثنين خامس عشر صفر سنة تسع وستمائة ، فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والأندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية مع الفرنج إلى أن تدارك الله رمق الأندلس بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المرينى رحمه الله .

ثم رجعت الفرنج إلى الاندلس بعد الكائنة للاغارة على بلاد المسلمين ، فلقيهم السيد أبو زكرياء بن أبى حفص قريبا من اشبيلية فهزمهم ، وانتعش المسلمون بها ، واتصلت الحال على ذلك .

وفاة الملك الناصر

لما قدم الناصر إلى مراكش منصرفا من وقعة العقاب أخذ البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر فبايعه كافة الموحدين ، وخطب له على جميع منابر المغرب والأندلس فى العشر الأواخر من ذى الحجة سنة تسع وستمائة ، ولما تمت له البيعة دخل الناصر قصره واحتجب فيه عن الناس ، وانغمس فى لذاته إلى شعبان من سنة عشر وستمائة ، فمات مسموما بتدبير وزرائه عليه فى ذلك وكانت وفاته يوم الاربعاء الحادى عشر من شعبان المذكور .

وبويع ولده هذا وهو ابن خمس عشرة سنة ، واشتغل عن تدبير الامر والجهاد بما يقتضيه الشباب ، وفى دولته فشل أمر الموحدين وذهبت ريحهم وأشرفت دولتهم على الهزم ، واستولى الفنش على المعاقل التى أخذها المسلمون ، وعمت الفتنة بالاندلس والمغرب أجمع . أما الاندلس فبتكالب العدوّ عليها وفناء حاتها ، وأما المغرب فبجلاء كثير من قراه وأمصاره من وقعة العقاب ثم ظهرت بنو مرين بجهة فاس سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وكانوا موطنين بصحراء فيجيج وما والاها فاقتحموا المغرب فى هذه السنين لخلائه من الحامية ، واكتسحوا بسائطه بالغارات وانحازت رعاياه إلى المعاقل والحصون ، وكثرة الشكايات بهم إلى المنتصر وهو مقيم بمراكش ، فكتب إلى عامله بفاس يأمره بغزوهم ، فخرج إليهم وهم ببلاد الريف ، فأوقعوا به وقعة شنعاء كانت باكورة فتحهم وعاد العامل مفلولا إلى فاس وأصحابه عراة بين يديه يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف بالمشعلة ، فسميت السنة سنة المشعلة ، ثم عمدت بنو مرين بعدها إلى تازا ففلوا حاميتها وعظمت شوكتهم بالمغرب على ما نذكره بعد إن شاء الله .

وفى سنة أربع عشرة وستمائة هزم المسلمون بقصر أبى دانس من الاندلس ، وهى من الهزائم الكبار التى تقرب من هزيمة العقاب لانّ العدو كان قد نزل قصر أبى دانس وحاصره فخرج إليه جيش اشبيلية ، وجيش قرطبة ، وجيش جيان ، وحشود بلاد غرب الاندلس لاستنقاذ قصر أبى دانس ، وكان ذلك بأمر المنتصر فساروا يؤمون العدو فلم تقع عينهم على عينه إلا وقد خامر قلوب المسلمين الرعب ، وولوا الادبار لما كان قد رسخ فى نفوسهم من بأسه يوم العقاب

فتكالب

فتكالب العدوّ بعدها على المسلمين ، وتمرس بهم ، وهان عليه أمرهم ، وخشعت نفوسهم له ، ولما فروا منه فى هذه الخرجة ركبهم بالسيف وقتلهم عن آخرهم ، ورجع الفنش إلى قصر أبى دانس فحاصره حتى اقتحمه عنوة ، وقتل جميع من به من المسلمين ، وأما يوسف المنتصر فانه استمر مقيما بمراكش على لذاته إلى أن توفى ، وكان من خبر وفاته أنه كان مولعا باتخاذ الحيوان واستنتاجه فكان يؤتى إليه بأصناف البقر من الأندلس فيرسلها فى بستانه الكبير من حضرة مراكش ويحمل بعضها على بعض للتناسل ، فخرج ذات يوم للتطوف على تلك البقر والنظر إليها ، فتوسط قطيعا منها فأنكرته بقرة شرود كانت فى ذلك القطيع فطعنته فى صدره طعنة أتت عليه من حينه ، وذلك فى عشىّ يوم السبت الثانى عشر من ذى الحجة سنة عشرين وستمائة .

ولما هلك المنتصر فى التاريخ المتقدم اجتمع الوزير بن جامع والموحدون وبايعوا لعبد الواحد ابن يوسف وهو أخو المنصور بقبة المنصور من قصبة مراكش وهو يومئذ فى سنّ الشيخوخة ، وكان عالما فاضلا متورعا ، فاستقام له الأمر نحو شهرين ، وخطب له فى جميع أعمال الموحدين ما عدا مرسية فانها كانت بيد ابن أخيه عبدالله الملقب بالعادل ، وكان يحاول الملك فكتب إلى أشياخ الموحدين الذين بحضرة مراكش يدعوهم إلى بيعته ، وخلع عبد الواحد ووعدهم على ذلك الأموال الجزيلة والمنازل الرفيعة والولايات الجليلة فسارعوا إلى ذلك ، ودخلوا على عبد الواحد وتهددوه بالقتل إلا أن يخلع نفسه ويبايع للعادل فأجابهم إلى ذلك فخرجوا عنه ووكلوا بالقصر من يحفظه وكان ذلك يوم السبت الحادى والعشرين من شعبان سنة إحدى وعشرين وستمائة ، فلما كان يوم الأحد بعده دخلوا على عبد الواحد القصر ، وأحضروا القاضى والفقهاء والأشياخ ، فأشهد على نفسه بالخلع وبايع للعادل ، ثم دخلوا عليه بعد مضى ثلاث عشرة ليلة من خلعه فخنقوه حتى مات ، وانتهبوا قصره ، واستولوا على أمواله وحريمه ، فكان عبد الواحد هذا أوّل من خلع وقتل من بنى عبد المؤمن ، وصار أشياخ الموحدين لخلفائهم كالأتراك لبنى العباس ، فكان فعلهم ذلك سببا لذهاب ملكهم وانقراض دولتهم ، والله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وكانت وفاة عبد الواحد المخلوع خامس رمضان سنة إحدى وعشرين وستمائة .

ولما خلص الأمر لعبد الله العادل ابن المنصور وبايعه كافة الموحدين ، وخطب له بحضرة مراكش أواخر شعبان من السنة المذكورة بادر إلى مراكش ، وقاسى فى طريقه إليها من العرب شدائد ثم دخلها ، وعاث أهل البوادى فى نواحى مراكش ، واضطربت الأحوال على العادل ، ولما انتهى إلى أبى العلاء صاحب الأندلس خبر أخيه العادل بمراكش وما هو فيه من الاضطراب دعا لنفسه باشبيلية فبويع بها ، وأجابه أكثر أهل الاندلس ، وتلقب بالمأمون ، ثم كتب إلى الموحدين الذين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ، ويعلمهم باجتماع أهل الاندلس والموحدين الذين بها عليه ووعدهم فى ذلك ومناهم ، فكان منهم بعض توقف ، ثم أجمع رأيهم على مبايعته وخلع أخيه العادل ، فدخلوا عليه قصره ، وسألوه أن يخلع نفسه فامتنع ، فوثبوا عليه ودسوا رأسه فى خصة ماء كانت هناك ، وقالوا لا نفارقك أو تشهد على نفسك بالخلع ، فقال اصنعوا ما بدا لكم ، والله لا أموت إلا أمير المؤمنين ، فوضعوا عمامته فى عنقه وخنقوه ورأسه فى الخصة حتى فاض ،

وكانت وفاته فى الحادى والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة ، وكتبوا ببيعتهم إلى أبى العلاء المأمون وبعثوا بها إليه مع البريد ، ثم بدا لهم فى بيعة المامون بعد انفصال البريد عنهم فنكثوها ، وبايعوا يحيى بن الناصر بن المنصور واضطربت الأحوال بالمغرب والأندلس وطما عباب الفتن بهما ، انظر تمام هذا فى كتابنا [الاستبصار ، فى ذكر حوادث الأعصار]

توفى المأمون هذا آخر يوم من سنة تسع وعشرين وستمائة ، وكانت أيامه أيام شقاء وعناء ، ومنازعة ، وكان محو دولة الموحدين واستئصال أركانها ، وذهاب نخوتها على يده .

وقام بالأمر بعده ابنه عبد الواحد فى يوم الاحد فاتح محرم سنة ثلاثين وستمائة ، وسنه يومئذ أربع عشرة سنة ، وقدم عليه بعض الموحدين طالبين منه إعادة ما كان أزاله المأمون من رسوم المهدى وسننه فأعيدت .

وفى سنة ست وثلاثين وستمائة كان استيلاء العدو على مدينة قرطبة قاعدة بلاد الاندلس ودار مملكتها ، وذلك يوم الاحد الثالث والعشرين من شوّال من السنة المذكورة ، وفى سنة سبع وثلاثين بعدها انتشر بنو مرين ببلاد المغرب ، واشتدّت شوكتهم به وزحف إليهم عبد الواحد فهزموه ، ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه ، وأقام فى محاربتهم سنتين ، ورجع عنهم إلى مراكش فاشتدّ عدوانهم بالمغرب

وتوفى عبد الواحد هذا غريقا فى بعض صهاريج بستانه بحضرة مراكش ، وذلك يوم الخميس سنة أربعين وستمائة غرق فى البركة الكبرى التى بدار الهناء من أجدال اليوم ، ويقال لها البحر الاصغر لانّ ملوك بنى عبد المؤمن الذين أنشؤها كانوا يرسلون فيها الزوارق ، والفلك الصغار بقصد النزهة والفرجة .

وقام بالامر بعده على بن المأمون فى التاريخ المتقدم ، وكان يدعى بالسعيد ، وكان شهما حازما يقظا بعيد الهمة ، فنظر فى اعطاف دولته ، وفاوض الملأ من الموحدين فى تثقيف اطرافها وتقويم أودها ، وحرك هممهم ، وأثار حفائظهم ، وأراهم كيف اقتطع عنهم الامر ، فحشد الجنود ، وجهز العساكر ، وأزاح عللهم ، واستنفر عرب المغرب وما يليه ، واحتشد كافة المصامدة ، ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبنى مرين أوّلا ، ثم تلمسان ثانيا ، ثم افريقية ، وقضى بعض أربه إلى أن توفى مقتولا ببعض الجبال ، وذلك منسلخ صفر سنة ست وأربعين وستمائة .

ولما توفى السعيد هذا كان عمر المرتضى واليا من قبله بقصبة رباط الفتح من سلا فاجتمع الموحدون بجامع المنصور من قصبة مراكش ، وعقدوا له البيعة ، وبعثوا بها إليه ، ونهض هو متوجها إلى مراكش ، واستقام أمره ، وتلقب بالمرتضى ، واستولى أبو بكر بن عبد الحق أمير بنى مرين بعد مهلك السعيد على رباط تازا ومكناسة ، ثم استولى سنة سبع وأربعين وستمائة على فاس وأعمالها ، فاقتطع على المرتضى بلاد الغرب كلها ، ولم يبق له إلا بلاد الحوز من سلا إلى السوس ولاوّل دولة المرتضى كان استيلاء العدوّ على اشبيلية إحدى قواعد الاندلس ، فان طاغية قشتالة وهو الاصبنيول حاصرها سنة خمس وأربعين وستمائة ، وفى يوم الاثنين الخامس من شعبان من السنة بعدها ملكها صلحا بعد منازلتها حولا كاملا وخمسة أشهر ، وانتقل كرسى المملكة الاسلامية

بالاندلس

بالاندلس إلى غرناطة ، وذلك فى دولة بنى الاحمر ، وفى سنة تسع وأربعين وستمائة ملك الامير أبو بكر المرينى سلا ورباط الفتح ، وفى سنة خمسين وستمائة استرجع المرتضى سلا ورباط الفتح من يد بنى مرين ، وفى سنة ثلاث وخمسين وستمائة خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس وأعمالها من يد بنى مرين المتغلبين عليها واحتفل فى الاحشاد ، وبالغ فى الاستعداد ، فكان جيشه ثمانين ألف فارس من الموحدين والعرب والاغزاز وأهل الاندلس والفرنج ، فسار حتى نزل جبل بنى بهلول قبلة فاس ، وكانت هيبة بنى مرين وناموسهم قد تمكن من قلوب جيش المرتضى فكانوا منذ قربوا من أحواز فاس لاينامون إلا غرارا ، فانطلق ذات ليلة فرس لبعض الجنديين ، وجرى بين الاخبية ، وجرى الناس خلفه ليأخذوه ، فظنّ أهل المحلة أن بنى مرين قد أغاروا عليهم، فركبوا خيولهم ، وماج بعضهم فى بعض، وانقلبوا منهزمين لايلوون على شئ ، واتصل الخبر بأبى بكر بن عبد الحق وهو بفاس فخرج للوقت ، واحتوى على جميع ما فى محلة الموحدين من الاخبية والاثاث والسلاح والمال ، ومرّ المرتضى على وجهه فدخل مراكش فى جمع قليل من الاشياخ والفرنج ، وأقام بها وأعرض عن بنى مرين وتسلى عنهم سائر أيامه ، وازدادت شوكة الموحدين ضعفا ، وفى سنة اثنتين وستين وستمائة أقبل الامير يعقوب بن عبد الحق فى جموع بنى مرين حتى نزل على مراكش ، واتصلت الحرب بينه و بين الموحدين بظاهرها أياما هلك فيها عبد الله ابن يعقوب بن عبد الحق فبعث المرتضى إلى أبيه يعقوب بالتعزية ولاطفه وضرب على نفسه قدرا من المال يبعثه إليه فى كل سنة فرضى يعقوب وارتحل عنها ، ولما ارتحل بنو مرين عن مراكش فرّ من الحضرة قائد حروب المرتضى وابن عمه وهو أبو العلاء إدريس الملقب بأبى دبوس لسعاية تمكنت فيه عند المرتضى وأنه يطلب الامر لنفسه ، فأحس أبو دبوس بالشر ولحق بيعقوب بن عبد الحق ، فأدركه عند مقدمه إلى فاس قافلا من منازلة مراكش ، فأقبل عليه الامير يعقوب و بالغ فى اكرامه فطلب منه أبو دبوس الاعانة على حرب المرتضى ، وكان بطلا مجربا، وضمن له فتح مراكش واشترطت له المقاسمة فيما يغلب عليه من السلطان وما يستفيده من الذخيرة والمال ، فأمدّه الامير يعقوب بخمسة آلاف من بنى مرين و بالكفاية من المال و بالمستجاد من آلة الحرب من طبول و بنود ونحو ذلك ، وكتب له مع ذلك إلى عرب جشم أن يكونوا معه يدا واحدة ، فسار أبو دبوس حتى وصل إلى سلا ، فكتب منها إلى العرب وأشياخ الموحدين والمصامدة الذين فى طاعة المرتضى يدعوهم إلى بيعته و يعدهم ويمنيهم فتلقته وفود العرب والهساكرة وصنهاجة وآزمور ببعض الطريق فبايعوه وساروا معه حتى نزل بلاد هسكورة ، ثم كتب إلى خاصته من وزراء المرتضى أن يعلموه بحال البلد والدولة فراجعوه أن أسرع السير وأقبل ولا تخش شيئا فانا قد فرقنا الجند فى أطراف البلاد ، وهذا وقت انتهاز الفرصة ، فزحف أبو دبوس إلى مراكش حتى انتهى إلى اغمات فوجد بها الوزير أبا يزيد فى جيش من حاميتها فناجزه الحرب ، فانهزم أبو يزيد وقتل عامة أصحابه ، وسار أبو دبوس يؤمّ مراكش ومعه عرب سفيان و بنى جابر وكبيرهم يومئذ علوش السفيانى ، فلما دنوا من مراكش أغار علوش على باب الشريعة منها والناس فى صلاة الجمعة حتى ركز رمحه بمصراع الباب ، ودخلت سنة خمس وستين وستمائة والمرتضى بمراكش

غافل عن شأن أبي دبوس والأسوار خالية من الحامية والحراس ، فقصد أبو دبوس باب اغمات وتسور البلد من هنالك ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها وصمد إلى القصبة فاقتحمها من باب الطبول واستولى عليها ، وكان دخول أبي دبوس مراكش من باب الصالحة ، وذلك ضحى يوم السبت الثاني والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة ، والصالحة التي أضيف إليها هذا الباب هي بستان كبير من جملة بساتين أجدال دار الخلافة بمراكش ، ولا زال هذا البستان مشهورا بهذا الاسم إلى الآن وهو من إنشاء عبد المؤمن بن علي رحمه الله ، وطول هذا البستان ثلاثة أميال وعرضه قريبا منها فيه كل فاكهة تشتهى وجلب إليه الماء من اغمات واستنبط له عيونا كثيرة ، وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن كان يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار في كل سنة على رخص الفاكهة بمراكش ، وكان هذا القدر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ولشهرة هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون :

يا جرادة مالحه ☆ أين بت سارحه ☆ في جنان الصالحه

في أسجاع غير هذه تجري على ألسنة الصبيان . قلت وأما مدخوله اليوم فيبلغ الثلثمائة ألف ريال أو نحوها .

رجع إلى خبر أبي دبوس : لما اقتحم أبو دبوس مراكش سار حتى وقف بباب البنود من القصبة ، فغلقت الأبواب دونه ، وقام عبيد المخزن عليها يقاتلونه ، ولما رأى المرتضى أن أبا دبوس قد التحق معه كساء دار الملك خرج من القصر ناجيا بنفسه من باب الفاتحة ومعه الوزير أبو زيد ابن يعلو وأبو موسى بن عزوز الهنتاتي ، فلحق بهنتاتة ، ثم انتقل منها إلى كدميوة ثم إلى قشتالة ثم لحق آخرا بآزمور ، ونزل على صهر له من بني عطوش كان واليا عليها من قبله ، وكان ابن عطوش هذا قد أسره العدو ففتكه المرتضى بمال جسيم وزوّجه ابنته وولاه آزمور ، فلما وقعت عليه الكائنة بمراكش ذهب إليه مستجيرا به ومطمئنا إليه ، فكان من جزائه له أن قبض عليه وقيده ، وكتب إلى أبي دبوس يعلمه ، فكتب أبو دبوس إليه يستكشفه في شأن الذخيرة ، فأنكر المرتضى أن يكون قد اذخر شيئا ، وحلف على ذلك واستعطف جناب أبي دبوس في العفو عنه فأغراه خاصته به، فوجه إليه من قتله وأتى إليه برأسه ، وصار ابن عطوش بفعلته هذه أظلم من الخيفقان ، وكان مقتل المرتضى في العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة ، وكان رحمه الله ينتمي إلى التصوّف والزهد والورع ، وتسمى بثالث العمرين ، وكان مولعا بالسماع لا يكاد يخلو منه ليلا ونهارا ، وكان في أيامه رخاء مفرط لم ير أهل مراكش مثله .قال ابن الخطيب كان المرتضى فاضلا خيرا عفيفا مغمد السيف مائلا إلى المهدنة رحمه الله تعالى .

ولما اقتحم أبو دبوس حضرة الخلافة على المرتضى حسبما قدمنا بايعه كافة الموحدين وأهل العقد والحل ، وكان ذلك بجامع المنصور يوم الأحد الثالث والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة واستقل أبو دبوس بمملكة مراكش وأعمالها ، وتلقب بالواثق بالله وبذل العطاء ونظر في الولايات ورفع المكوس عن الرعية ، ولما اتصل بالأمير يعقوب بن عبد الحق ما كان من أبي دبوس واستيلائه على المملكة كتب إليه يهنئه بالفتح ويطلب منه أن يمكنه من الشرط الذي شرط

له ، فلما وصل إليه الكتاب أدركته النخوة وغلب عليه الكبر ، وقال للرسول قل ليعقوب بن عبد الحق يغتنم سلامته ويبعث إلىّ بيعته حتى أقره على مابيده وإلا غزوته بجنود لاقبل له بها ، فعاد الرسول إلى الأمير يعقوب وأبلغه الخبر ودفع إليه كتاب أبى دبوس فاذا هو يخاطبه مخاطبة الخلفاء لعمالهم والرؤساء لخدمهم ، فتحقق الأمير يعقوب نكثه وغدره ، فنهض إليه فى جموع بنى مرين وعساكر المغرب ، فلما أشرف على مراكش خام أبو دبوس عن اللقاء ، وتحصن بداره ولجأ إلى أسواره ، فتقدم الأمير يعقوب حتى نزل على مراكش وحاصرها أياما ، وعاث فى نواحيها وانتسف ماحولها ، ولما رأى أبو دبوس مانزل به منه كتب إلى قريعة يغمراس بن زيان صاحب تلمسان يطلب منه أن يشغل عنه الأمير يعقوب بما وراءه من أعمال فاس والمغرب وأسنى له الهدية فى ذلك وأكد العهد فى الموالاة والمناصرة ، فأجابه يغمراس إلى ذلك ، ونهض من حينه ، فشن الغارات على ثغور المغرب وأضرم نار الفتنة بها ، واتصل ذلك بالأمير يعقوب وهو محاصر لمراكش فرجع عوده على بدئه ، وسار إلى يغمراس فناجزه الحرب وانتصف منه على ماينبغى وحسم مادة فساده ، ثم كرّ راجعا إلى مراكش فى شعبان من سنة ست وستين وستمائة ، ولما عبر وادى أم الربيع شنّ الغارات على النواحى وبث السرايا فى الجهات وطال عيثه فى البلاد وأبدأ فى ذلك وأعاد حتى ضاقت صدور بنى عبد المؤمن بمراكش وتكدر عيشهم فحرضهم أولياؤهم من عرب جشم وأغروهم باستنهاض أبى دبوس لمدافعة عدوّه ووعدوهم النصرة من أنفسهم ، فتحرك أبو دبوس لذلك واشرأبت نفسه إلى القتال فحشد وأبلغ وبرز من الحضرة فى جيوش ضخمة وجموع وافرة ، ولما علم الأمير يعقوب بخروجه ودنوّه منه أظهر من نفسه العجز عن لقائه وكرّ راجعا إلى جهة بلاده يستجرّه بذلك ليبعد عن الحضرة ومددها وتمادى أبو دبوس فى اتباعه حتى انتهى إلى وادى ودغفوا ، فكرّ عليه الأمير يعقوب والتحم القتال ، وقامت الحرب على ساق ، فلم تمض إلا ساعة حتى انهزم الموحدون ، وأطلق أبو دبوس عنانه للفرار يريد مراكش ، فأدركته خيل بنى مرين وتناولته رماحهم ، وخرّ صريعا لليدين وللفم واحتزّ رأسه وجىء به إلى الأمير يعقوب ، فسجد شكرا لله تعالى ، ثم بعث به إلى فاس ، وتقدم هو إلى مراكش ، فاستولى عليها فى أوائل محرم سنة ثمان وستين وستمائة ، وفرّ الموحدون الذين كانوا بمراكش إلى جبل تينملل فبايعوا إسحاق ابن إبراهيم أخا المرتضى فبقى ذبالة هنالك إلى سنة أربع وسبعين وستمائة ، فقبض عليه وجىء به إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق هو وابن عمه ابن أبى الربيع ووزيره وأولاده فقتلوا جميعا ، وانقرضت دولة بنى عبد المؤمن من الأرض ، والبقاء لله وحده .

الدولة المرينيــــة

سبب دخول بنى مرين لهذا القطر المغربى هو أنه لما كانت وقعة العقاب بالأندلس سنة تسع وستمائة ، وهزم الناصر وهلك الجمهور من حاميـة المغرب ورعاياه حتى خلت البلاد من أهلها ، ثم حدث عقب ذلك الوباء العظيم الذى تحيف الناس إلا قليلا ، وهلك الناصر سنة عشر بعدها ، فبايع الموحدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذ صبىّ حدث لايحسن التدبير وشغلته مع ذلك أحوال

الصبا ولذات الملك عن القيام بأمر الرعية ، فتضافرت هذه الأسباب على الدولة الموحدية فأضعفتها لحينها وأمرضتها المرض الذى كان سببا لحينها ، وكان بنو مرين يومئذ موطنين ببلاد القبلة من افريقية إلى سجلماسة يتنقلون فى تلك القفار والصحارى لايدخلون تحت حكم سلطان ولا تناولهم الدولة بهضيمة ولا يؤدون إليها ضريبة كثيرة ولا قليلة ولا يعرفون تجارة ولا حرثا إنما شغلهم الصيد وطراد الخيل ، والغارات على أطراف البلاد ، وكانت طائفة منهم ينتجعون تخوم المغرب وتلوله زمان الربيع والصيف فيكتالون من أطراف البلاد ما يحتاجون إليه من الميرة ويرعون فيها تلك المدّة أنعامهم وشاءهم حتى إذا أقبل فصل الشتاء اجتمع نجعهم ، ثم شدّوا الرحلة إلى بلادهم ، فكان ذلك دأبهم على مرّ السنين ، فلما كانت سنة عشر وستمائة أقبل نجعهم على عادته للارتفاق والميرة حتى إذا أطالوا على المغرب من ثناياه ألفوه قد تبدلت أحواله ، وبادت خيله ورجاله ، وفنيت حماته وأبطاله ، وعريت من أهله أوطانه ، وخفّ منها سكانه وقطانه ، ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت خصيبة المرعى غزيرة الماء واسعة الاكناف فسيحة المزارع متوافرة العشب لقلة راعيها مخضرة التلول والربا لعدم غاشيها ، فأقاموا بمكانهم ، وبعثوا إلى إخوانهم فأخبروهم بحال البلاد وما هى عليه من الخصب والأمن وعدم المحامى والمدافع ، فاغتنموا الفرصة وأقبلوا مسرعين بنجعهم وحللهم ، وانتشروا فى نواحى المغرب وأوجفوا عليها بخيلهم وركابهم ، واكتسحوا بالغارات والنهب بسيطها ، ولجأت الرعايا إلى حصونها ومعاقلها ، وتمّ لهم ما أرادوا من الاستيلاء على بسيط المغرب وسهله .

الخبر عن رياسة الأمير أبى محمد عبد الحق المرينى

لما دخل بنو مرين المغرب كان الأمير عليهم يومئذ عبد الحق بن محيو بن أبى بكر المرينى . فكثر عيثهم وضررهم بالمغرب ، وأعضل داؤهم ، وتضاعف على الرعية بلاؤهم . فرفعت الشكايات بهم إلى الخليفة بمراكش وهو يومئذ يوسف المنتصر بن المنصور فجهز لهم جيشا كثيفا من عشرين ألفا ، واتصل الخبر ببنى مرين وهم فى جهات الريف ، فتركوا أثقالهم وعيالهم بحصن تازوطا من أرض الريف ، وصمدوا إلى الموحدين ، فالتقى الجمعان بوادى نكور ، فكان الظهور لبنى مرين على الموحدين فهزموهم وقتلوهم ، وامتلأت الأيدى من أسلابهم وأمتعتهم ، ورجع الموحدون إلى فاس يخصفون عليهم من ورق النبات حسبما قدمنا ، وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وستمائة ثم زحف الأمير عبد الحق فى ذى الحجة من السنة المذكورة بجموع بنى مرين إلى رباط تازا حتى وقف بازاء زيتونها فخرج عاملها لحربه فى جيش كثيف من الموحدين ، والعرب ، والحشد من قبائل تسول ومكناسة وغيرهم ، فقتلت بنو مرين العامل المذكور ، وهزموا جيوشه ، وجمع عبد الحق الاسلاب والخيل والسلاح ، وقسم ذلك كله فى قبائل بنى مرين . ولم يمسك منها لنفسه شيئا ، وقال لبنيه إياكم أن تأخذوا من هذه الغنائم شيئا فانه يكفيكم منها الثناء والظهور على أعدائكم .

وكان عبد الحق هذا مشهورا فى قومه بالتقى والفضل والدين ، موسوما بالصلاح وصحة اليقين ، معروفا بالورع والعفاف ، موصوفا فى سيرته بالعدل والانصاف ، يطعم الطعام ، ويكفل الأيتام ،

ويؤثر المساكين ، ويحنو على المستضعفين ، وكانت له بركة معروفة ، ودعوة مستجابة موصوفة ، وكانت قلنسوته ، وسراويله يتبرك بها فى جميع احياء زناتة ، وكانوا يحملون فضلة وضوئه فيستشفون بها لمرضاهم ، وكان يسرد الصوم فلا يزال صائما طول عمره فى الحر والبرد لايرى مفطرا إلا فى أيام الأعياد ، كثير الذكر والأوراد ، لا يفترعنها فى سائر الحالات ، متحريا لأكل الحلال لا يقتات إلا من لحوم ابله وألبانها أومايعانيه من الصيد معظما فى بنى مرين مطاعا فيهم يقفون عند أمره ، ولا يصدرون إلا عن رأيه لم يحلف بالله قط بارا ولا حانثا ، ولم يشرب مسكرا قط ، ولا ارتكب فاحشة تضع الحوامل ببركة إزاره متى عسرت عليهن الولادة ، وكان يقوم أكثر الليل ، وإذا سمع برجل صالح أو عابد قصد لزيارته ، واستوهب منه الدعاء ، شديد الخوف من الصالحين متواضعا لهم ، وكان مع ذلك سما لأعدائه قاهرا لهم . قلوا وكان فى ابتداء أمره قليل الأولاد ، فرأى ذات ليلة فى منامه كأن شعلا أربعا من نار خرجن منه فعلون فى جوّ المغرب ، ثم احتوين على جميع أقطاره فكان تأويلها تملك بنيه الأربعة من بعده .

حرب بنى مرين مع عرب رياح ومقتل الأمير عبد الحق

لما انتصر بنو مرين على أعدائهم الموحدين حصل فى نفوس بنى عسكر بن محمد من عشيرتهم نفاسة عليهم وضاقت صدورهم من استقلال بنى عمهم مرين بالرياسة دونهم ، فخالفوا الأمير عبد الحق وعشيرته إلى مظاهرة الموحدين وأوليائهم من عرب رياح ، وكانت رياح يومئذ أشد قبائل المغرب قوة وأقواهم شوكة وأكثرهم خيلا ورجالا ، فأغراهم الموحدون يومئذ ببنى مرين لينتصفوا لهم منهم ، واتفقت كلمتهم عليهم ، وسمعت بنو مرين باقبال العرب والموحدين وبنى عسكر إليهم ، فاجتمعوا إلى أميرهم عبد الحق ، فقالوا له ما ترى فى أمر هؤلاء العرب المقبلين إلينا ؟ فقال يا معشر مرين أما مادمتم فى أمركم مجتمعين ، وفى آرائكم متفقين ، وكنتم على حرب عدوكم أعوانا ، وفى ذات الله إخوانا ، فلا أخشى أن ألقى بكم جميع أهل المغرب ، وإن اختلفت أهواؤكم وتشتت آراؤكم ظفر بكم عدوكم ، فقالوا له إنا نجدد لك الآن بيعة على السمع والطاعة ، وأن لانختلف عليك ، ولا نفر عنك أو نموت دونك ، فانهض بنا اليهم على بركة الله فنهض الأمير عبد الحق فى جموع بنى مرين فكان اللقاء بمقربة من وادى سوا على أميال من تافرطاست ، فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها ، وقتل فيها الأمير عبد الحق وكبير أولاده ادريس ، ولما رأت بنو مرين ما وقع بأميرها وابنه جيت وغضبت وأقسمت بأيمانها أن لا يدفن حتى يأخذوا بثأره فصمموا العزم لقتال رياح والموحدين ، واستأنفوا الجد لقراعهم وصبروا صبرا جيلا ، فنصرهم الله على عدوهم ، فهزموا رياحا ومن معهم من الموحدين ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا وشردوهم فى الشعاب والأودية ورءوس الهضاب ، واحتووا على ما كان فى محلتهم من السلاح والخيل والاثاث ، وقام بأمر بنى مرين بعد هلاك عبد الحق ابنه عثمان على ما نذكره ان شاء الله .

وكانت وفاة الأمير عبد الحق المرينى فى حدود الثلاثين وستمائة .

الخبر عن رياسة الأمير أبى سعيد عثمان بن عبد الحق المرينى

لما فرغ بنو مرين من حرب رياح ، ورجعوا من اتباعهم اجتمعوا إلى الأمير أبى سعيد عثمان ابن عبد الحق ، وكان أكبر بنى أبيه بعد إدريس فعزوه بمصاب أبيه وأخيه ، وبايعوه عن رضا منهم فاجتمعت عليه كلمتهم ، ولما فرغ من تجهيز أبيه وأخيه ودفنهما أقسم أن لايرجع عن عرب رياح حتى يثأر بمائة شيخ منهم فسار اليهم وأثخن فيهم حتى شفا نفسه ، وأذعنوا إلى الطاعة ، ولاذوا بالسلم فسالمهم على قدر يؤدّونه إليه كل سنة ، ثم ضعفت شوكة الموحدين وتداعى أمرهم إلى الاختلال ، وأشرف ملكهم على ربوة الاضمحلال ، فلما رأى الأمير أبو سعيد ما عليه أمر الموحدين من الضعف ، وما نزل برعايا المغرب من الجور والعسف جمع أشياخ مرين ، وندبهم إلى القيام بأمر الدين ، والنظر فى مصالح المسلمين ، فأسرعوا إلى إجابته ، وبادروا لتلبية دعوته ، فسار بهم أبو سعيد فى نواحى المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه ، ويتتبع تلوله ودروبه ، ويدعو الناس إلى طاعته ، والدخول فى عهده وحمايته ، فمن أجابه منهم أمّنه ووضع عليه معلوما من الخراج ومن أبى عليه نابذه وأوقع به فبايعه من قبائل المغرب هوارة ، وزكارة ثم تسول ومكناسة ثم بطوية وفشتالة ثم سدراتة وبهلولة ومربونة ، ففرض عليهم الخراج وفرق فيهم العمال ، ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس ومكناسة ونازة وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها على رأس كل حول على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم ، ثم لما كانت سنة عشرين وستمائة غزا بلاد فازاز ومن بها من ظواعن زناتة ، فأثخن فيهم حتى أذعنوا للطاعة وقبض أيديهم عن إذاية الناس بالغارات والنهب فى الطرقات ، ثم فى سنة إحدى وعشرين بعدها غزا عرب رياح أهل أزغار وبلاد الهبط فأثخن فيهم حتى كاد يأتى عليهم ، ولم يزل دأبه ذلك من تدويخ بلاد المغرب وأقطاره حتى هلك باغتيال علج له كان رباه صغيرا فشب وسوّل له الشيطان الفتك به فترصد غرته وطعنه بحربة فى نحره ففات لوقته سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وكان ذا نجدة وشجاعة وعزم وكرم وإيثار مكرما للفقهاء وأهل الصلاح سالكا فى ذلك سنن أبيه رحمه الله .

ثم قام بالأمر بعده أخوه محمد بن عبد الحق فى التاريخ المتقدم فاقتفى سنن أخيه فى تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم من باديته ، ثم توفى محمد هذا مقتولا فى الحرب الذى كان بينه وبين الموحدين عشية يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وستمائة .

وقام بالأمر بعده أخوه أبو بكر بن عبد الحق فى التاريخ المتقدم ، وهذا الأمير هو الذى رفع من راية بنى مرين وسما بها إلى مرتبة الملك وكنيته أبو يحيى ، وهو أوّل من جند الجنود منهم وضرب الطبول ، ونشر البنود ، وملك الحصون والبلاد ، واكتسب الطارف والتالد .

وأوّل ما ذهب إليه بعد بيعته ورآه من النظر لقومه أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين بنى مرين وأنزل كلا منهم بناحية منه سوّغهم إياها سائر الأيام طعمة لهم ، وأمر كل واحد من أشياخ بنى مرين أن يستركب الرجل ويستلحق الاتباع ، فحسنت حالهم ، وكثرت غاشيتهم ،

وتوافرت

وتوافرت جوعهم ، واستقام له أمر المغرب ، وقدمت عليه الوفود ، وأمنت الطرقات ، وتحركت التجار ، ورخصت الأسعار ، وصلح أمر الناس واغتبطوا بولايته .

انتقاض أهل فاس عليه ومحاصرته إياهم

لما استولى الأمير أبو بكر على المغرب وملك مدينة فاس ، وكان ذلك زوال يوم الخميس السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وأربعين وستمائة بعد موت السعيد الموحدى صاحب مراكش بشهرين واستبق من كان فيها من عسكر بنى عبد المؤمن ، وكان من جلتهم طائفة من النصارى نحو المائتين وعليهم قائد منهم ، فوقعت بينهم وبين شيعة الموحدين من أهل فاس مداخلة ، وعزم الفاسيون على الفتك بعامل المرينى بها ، فاجتمعوا إلى القاضى أبى عبد الرحمن المقيلى ، وفاوضوه فى ذلك فوافقهم على رأيهم ، فقتلوا العامل بها صبيحة يوم الثلاثاء الموفى عشرين من شوّال سنة سبع وأربعين وستمائة واحتزّوا رأسه ورفعوه على عصا ، وطافوا به فى أسواق البلد ونصبوا قائد النصارى لضبط البلد ، وبعثوا ببيعتهم إلى المرتضى الموحدى بمراكش واتصل الخبر بالأمير أبى بكر وهو منازل بلاد فازاز فأفرج عنها واستعجل السير إلى فاس ، فأناخ عليها بعساكره وشمر لحصارها وقطع المادة عنها ، وبعث أهل فاس إلى المرتضى بالصريخ فلم يرجع إليهم قولا ولا ملك لهم ضرّا ولا نفعا ولا وجد لكشف ما نزل بهم حيلة ولا وجها سوى أنه استعان على الأمير أبى بكر بصاحب تلمسان يغمراس بن زيان وأمّله لكشف هذه النازلة فأجابه يغمراس إلى ذلك ، وطمع أن يكون ذلك سببا له فى تملك المغرب فاحتشد لحركته ونهض من من تلمسان لقطع الأمير أبى بكر عن فاس وأهلها واتصل بالأمير أبى بكر خبر نهوضه إليه فقصده قبل فصوله عن تخوم بلاده ، فلقيه بوادى ايلى من بسيط وجدة ، فالتقى الجمعان وكانت ملحمة عظيمة انهزم فيها يغمراس وترك محلته بما فيها ، فاحتوى عليها الأمير أبو بكر وانكفأ راجعا إلى فاس للأخذ بمخنقها ، فوصل إليها فى جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وأناخ عليها بكلكله ، واستأنف الجد ، وشدّد فى الحصار وأيس أهل فاس من اغاثة المرتضى وسقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، ولم يجدوا وليجة من دون مراجعة طاعة بنى مرين ، فسألوا الأمير أبا بكر الأمان فبذله لهم على غرم ما أتلفوا له بالقصر من المال يوم الثورة وقدره مائة ألف دينار فتحملوها وأمكنوه من قيادة البلد ، فدخلها فى الثالث والعشرين من الشهر المذكور .

ولما كانت سنة خمس وخمسين وستمائة نهض الأمير أبو بكر إلى محاربة يغمراس بن زيان صاحب تلمسان ، فسمع به يغمراس فنهض إليه أيضا ، فكان اللقاء بأبى سليط ، فاقتتلوا وانهزم يغمراس ، واعتزم الأمير أبو بكر على اتباعه ، فثناه عن رأيه أخوه يعقوب لعهد تأكد بينه وبين يغمراس فرجع ، ولما انتهى إلى أحواز فاس بلغه أن يغمراس قصد سجلماسة ودرعة لمداخلة كانت له من بعض أهلها وعورة أطمعته فى ملكها ، فأسرع الأمير أبو بكر فى السير بجموعه إلى سجلماسة فدخلها قبل وصول يغمراس إليها بيوم واحد ، ثم جاء يغمراس حتى نزل خارجها بباب تحصنت وسقط فى يده ويئس من غلبة الأمير أبى بكر عليها ، ودارت بينهما حرب تكافأ

الفريقان فيها وانقلب يغمراس إلى بلده ، وعقد الأمير أبو بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة لبعض أقاربه وانكفأ راجعا إلى فاس وأقام بها أياما ، ثم نهض إلى سجلماسة أيضا متفقدا لثغورها فانقلب منها عليلا ووصل إلى فاس فتوفى بقصره من قصبتها أواسط رجب سنة ست وخمسين وستمائة ، ودفن داخل باب الجيزيين من أبواب عدوة الأندلس بازاء الشيخ أبى محمد الفشتالى حسبما أوصى بذلك .

وقام بالأمر بعده ابنه أبو حفص عمر وبايعته العامة من بنى مرين ونصبوه للأمر وتبادروا فى خدمته ، ومالت المشيخة وأهل العقد والحل إلى عمه يعقوب بن عبد الحق ، وكان غائبا عند مهلك أخيه بتازا ، فلما بلغه الخبر أسرع للحاق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر وأحسن عمر بميل الناس إلى عمه يعقوب فقلق لذلك وأغراه أتباعه بالفتك بعمه فاعتصم بالقصبة ثم سعى الناس فى الاصلاح بينهما ، فانسلخ يعقوب من الأمر ودفعه إلى ابن أخيه على أن تكون له بلاد تازا وبطوية وملوية التى كان أقطعه إياها أخوه من قبل فانفصلوا على ذلك ، وخلص الأمر لعمر ، واستمرّ بفاس أشهرا ، ثم اجتمع إلى يعقوب كافة بنى مرين وعذلوه فيما كان منه من التخلى عن الملك وحملوه على العود فى الأمر ، ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والنصر إلى أن يتمّ أمره فأجاب وبايعوه وقصد فاس ، فبرز الأمير عمر إلى لقائه ، ولما تراءى الجمعان خذل عمر جنوده وأسلموه ، فرجع إلى فاس مفلولا ووجه الرغبة إلى عمه أن يقطعه مكناسة وينزل له عن الأمر ، فأجابه إلى ذلك ، ودخل السلطان يعقوب مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستمائة ، ونفذت كلمته فى بلاد المغرب ، واقتصر عمر على إمارة مكناسة فتولاها أياما ، ثم اغتاله بعض عشيرته فقتلوه لنحو سنة من إمارته ، فكفى الأمير يعقوب أمره ، واستقام سلطانه ، وذهب التنازع والشقاق عن ملكه .

وكان يغمراس بن زيان لما سمع بموت قرنه الأمير أبى بكر جمع قومه من بنى عبد الواد وغيرهم ونهض إلى المغرب ، فقصده الأمير يعقوب فرده على أعقابه ، وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدى نصارى الاسبنيول ، فكان لهما أثر وذكر خالد رحمه الله انظر تمام ترجمته فى كتابنا [نزهة المالك والمملوك]

توفى رحمه الله ورضى عنه بقصره من الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس فى ضحى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من المحرم فاتح سنة خمس وثمانين وستمائة ، وحمل إلى رباط الفتح من بلاد العدوة ، فدفن بمسجد شالة .

وقام بالأمر بعده ولده يوسف بن يعقوب الملقب بالناصر لدين الله ، وبويع غرّة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة ، فاستتب ملكه ، واستقام أمره ، ففرق الأموال ، وأجزل الصلات ، وسرح السجون ، ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر ، ووكلهم فيها إلى أمانتهم ، وكف أيدى الظلمة والعمال عن الناس ، وأزال المكوس ، ورفع الانذال عن دور الرّعية ، وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة ، نخضعت مرين تحت قهره ، وصلح أمر الناس فى أيامه ، وقدم عليه وفد الطاغية سانجة مجددين عقد السلم الذى عقده لهم السلطان يعقوب رحمه الله .

ولما تمهد له أمر الأندلس عقد لأخيه أبي عطية العباس بن يعقوب على الثغور الغربية ، وأوصاه بضبطها وعقد للشيخ المجاهد علي بن يوسف على مسلحتها وجعل إليه أمر الحرب وأعنة الخيل، ثم عبر البحر إلى المغرب يوم الاثنين سابع ربيع الآخر من السنة المذكورة ، فنزل بقصر المجاز ، ثم سار إلى حضرة فاس ، فدخلها ثاني عشر جمادى الاولى منها ثم ارتحل منها في رمضان إلى مراكش فدخلها في شوال وأقام بها إلى رمضان القابل من سنة ست وثمانين وستمائة ، فنهض من مراكش لغزو عرب معقل بصحراء درعة لانهم كانوا قد أضروا بالرعايا وأفسدوا السابلة ، فأثخن فيهم بالقتل والسبي وقفل من غزوه آخر شوّال من السنة المذكورة إلى مراكش وعقد على مراكش وأعمالها لمحمد ابن عطوا وترك معه ابنه أبا عامر عبد الله ، ثم ارتحل السلطان يوسف إلى فاس فدخلها منتصف ربيع من السنة المذكورة ، ولما قفل من مراكش إلى فاس ثار أبو عامر المذكور بها وخلع طاعة أبيه ودعا إلى نفسه وساعده ابن عطوا على ذلك ، واتصل الخبر بالسلطان يوسف وهو بفاس فأسرع السير إلى مراكش . وبرز إليه ابنه أبو عامر فاقتتلوا ثم انهزم أبو عامر فعاد إلى مراكش واكتسح بيت المال بها وفرّ إلى تلمسان ومعه ابن عطوا المذكور . فقدمها سنة ثمان وثمانين وستمائة فآواهم عثمان بن يغمراس ومهد لهم المكان ، فلبثوا عنده مليا ، ثم عطف السلطان على ابنه فرضي عنه ، وطالب عثمان بن يغمراس أن يسلم إليه ابن عطوا الناجم في النفاق مع ابنه فأبى من إضاعة جواره وخفر ذمته ، وأغلظ له الرسول في القول فسطا به عثمان واعتقله فثارت من السلطان يوسف الحفائظ الكامنة ، فاعتزم على غزو تلمسان ، ونهض إليها من مراكش في صفر من سنة تسع وثمانين وستمائة بعد أن عقد عليها لابنه الامير أبي عبد الرحمن يعقوب ، ثم نهض من فاس إليها آخر ربيع الآخر من سنته في عساكره وجنوده ، وحشد القبائل وكافة أهل المغرب ، وسار حتى ناهز تلمسان فتحصن منه عثمان وقومه بأسوارها ، فحاصره السلطان يوسف وضيق عليه ، ونصب عليه المجانيق ، وكان حصاره إياها في رمضان من السنة المذكورة ، ثم سار في نواحيها ينسف الآثار ، ويخرب القرى ، ويحطم الزروع ، ثم نزل بذراع الصابون من ناحيتها ، ثم انتقل منه إلى تامّت ، وحاصرها أربعين يوما ، وقطع أشجارها ، وأباد خضراءها ، ولما امتنعت عليه أفرج عنها ، وانكفأ راجعا إلى المغرب ، فوافاه الخبر وهو بتازا أن الطاغية سانجة قد نقض العهد . وتجاوز التخوم . وأغار على الثغور ، فأمر السلطان يوسف قائده بالاندلس أبا الحسن عليّ بن يوسف بالدخول إلى دار الحرب ومنازلة شريش وشنّ الغارات على بلاد الطاغية . فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين وستمائة ، وجاس خلالها ، وتوغل في أقطارها وأبلغ في النكاية ، ثم فصل السلطان يوسف من تازا غازيا على أثره في جمادى الاولى من السنة المذكورة ، واحتل قصر مصمودة وهو قصر المجاز ، واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفروا وشرع في اجازتهم البحر . فبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق يحجزهم دون الاجازة فأشار السلطان يوسف . إلى قواد أساطيله بالسواحل بعمارتها لمقابلة أساطيل العدوّ . ففعلوا وقدمت فالتقت مع أساطيل العدوّ ببحر الزقاق في شعبان من السنة المذكورة ، فاقتتلوا في البحر وانكشف المسلمون رحمة الله عليهم . فأمر السلطان باستئناف العمارة ثم غزاهم ثانية . فخافت أساطيل العدوّ من اللقاء

وانحرفوا عن الزقاق فملكته أساطيل السلطان فأجاز أخريات رمضان من السنة المذكورة ، واحتل بطريف ، ثم دخل دار الحرب غازيا ، فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر وضيق عليهم ، وبث السرايا فى أرض العدوّ ، وردّد الغارات على شريش واشبيلية ونواحيها إلى أن بلغ فى النكاية والاثخان غرضه ، وقضى من الجهاد وطره ، وهجم عليه فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر ، فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة الخضراء ، ثم عبر إلى المغرب فاتح سنة إحدى وتسعين وستمائة .

ولما كان السلطان نازلا على تازورطا قدم عليه رجل من فرنج جنوة بهدية جليلة فيها شجرة مموهة بالذهب عليها أطيار تصوت بحركات هندسية .

وفى سنة سبع وتسعين وستمائة خرج السلطان من فاس غازيا تلمسان ومرّ فى طريقه بمدينة وجدة فأمر ببنائها ، وكان أبوه السلطان يعقوب قد هدمها وبنى بها قصبة ودارا لسكناه وحماما ومسجدا ، ثم سار إلى تلمسان فنزل بساحتها وأحاطت عساكره بها إحاطة الهالة بالقمر ، ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار اخترعها المهندسون والصناع وتقربوا إلى السلطان بعملها فأعجبته وكانت تحمل على أحد عشر بغلا .

ولما امتنعت تلمسان عليه أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة ، ومرّ فى عوده إلى المغرب بوجدة ، فأنزل بها الحامية من بنى عسكر وأمرهم بشنّ الغارات على أعمال تلمسان مع الساعات والأحيان ففعلوا واستولوا على أكثر تلك الجهات .

ثم نهض السلطان يوسف إليها ثالثا فى شهر رجب من السنة المذكورة بعد أن استكمل حشده ونادى فى قومه وعرض عسكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عللهم وسار فى التعبية حتى نزل بساحة تلمسان ثانى شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة ، فأناخ عليها بكلكله وأنزل محلته بفنائها ، وأحاط بجميع جهاتها ، وتحصن ابن يغمراس وقومه بالجدران وعولوا على الحصار ، ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سورا عظيما جعله محيطا بتلمسان وما اتصل بها من العمران وصيرها فى وسطه ، ثم أردف ذلك السور بحفير بعيد المهوى ، وفتح فيه مداخل لحربها ، ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرسه وأوعد بالعقاب من يختلف إلى تلمسان برفق أو يتسلل إليها بقوة وأخذ بمخنقها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص إليها الطير لابل الطيف ، واستمرّ مقيما عليها كذلك مائة شهر .

ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة . اختط إلى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه وقبابه قصرا لسكناه ، واتخذ به مسجدا لصلاته ، وأدار عليها سورا يحرزهما ، ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة ، والمنازل الرحيبة ، والقصور الأنيقة ، واتخذوا البساتين ، وأجروا المياه ، وأمر السلطان باتخاذ الحمامات ، والفنادق ، والمارستانات ، وابتنى مسجدا جامعا أقامه على الصهريج الكبير ، وشيد له منارا رفيعا ، وجعل على رأسه تفافيح من ذهب صير عليها سبعمائة دينار ، ثم أدار السور على ذلك كله فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها ، ونفقت أسواقها ، ورحل إليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق وسماها المنصورة فكانت من أعظم أمصار المغرب واحفلها إلى أن خربها آل يغمراس عند مهلك السلطان يوسف وارتحل جيوشه عنها ، ولما تمكن السلطان يوسف

من حصار تلمسان سرح كتائبه وسراياه فى أعمالها وحصونها ، فاستولى فى مدة قريبة على وهران ومستغانم والبطحاء ووانشريس ومليانة والقصبات ومازونة وتنس وهنين وندرومة وتاملوت وبرشك وجميع بلاد بنى عبد الواد و بلاد بنى توجين و بلاد مغراوة ، و بايعه صاحب الجزائر ، وأخذ رعبه بملوك النواحى وتقربوا إليه بالهدايا والتحف ، وصار السلطان يوسف فى ذلك الوقت ملك المغرب على الحقيقة والاطلاق ، والله غالب على أمره .

ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعمائة توفى عثمان بن يغمراس فى الحصار عقب شربة لبس يقال إنه جعل فيها سما و شربه فعل ذلك بنفسه تفاديا من معرة غلبة عدوه عليه ، فاجتمع بنو عبد الواد لحينهم و بايعوا ابنه محمد بن عثمان واجتمعوا عليه ، ثم برزوا إلى قتال عدوهم على العادة حتى كأن عثمان لم يمت ، و بلغ الخبر إلى السلطان يوسف فتفجع على عثمان وعجب من صرامة قومه من بعده ، وفى سنة ثلاث وسبعمائة بعث السلطان يوسف وهو محاصر لتلمسان ركب الحاج المغربى إلى الحرمين الشريفين واعتنى بشأن هذا الركب ، فبعث معهم حامية من زناتة تناهز خمسمائة فارس من الأبطال وخاطب صاحب الديار المصرية لعهده وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى واستوصاه بحاج أهل المغرب وأتحفه بهدية عظيمة من طرف المغرب وبعث معهم إلى حرم مكة مصحفا ضخما اعتنى به واستكتبه ، وجعل له غشاء مكللا بنفيس الدر وشريف الياقوت ورفيع الأحجار وفصلوا من تلمسان فى شهر ربيع الأول من سنة أربع وسبعمائة .

وفى شعبان من هذه السنة قدم الركب ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان يوسف لما كان صاحب مصر قد آسفهم بالقبض على إخوانهم ، وكان ذلك شأنهم متى غاظهم السلطان ، وأهدوا إلى السلطان يوسف ثوبا من كسوة الكعبة أعجب به ، فاتخذ منه ثوبا لملبوسه فى الجمع والأعياد ، وأما الملك الناصر صاحب مصر فانه كافأ السلطان يوسف على هديته بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله من الثياب والحيوانات ونحو ذلك مثل الفيل والزرافة ونحوهما وأوفد به مع عظماء دولته وفصلوا من القاهرة آخر سنة خمس وسبعمائة ، ووصلوا إلى السلطان يوسف وهو بالمنصورة فى جمادى الآخرة سنة ست بعدها ، واهتز لقدومهم وأركب الناس للقيهم وأكرم وفادتهم و بعثهم إلى المغرب للتطوف به على العادة فى مبرة أمثالهم ، ومات السلطان يوسف فى أثناء ذلك ، وأفضى الأمر إلى حافده أبى ثابت فأحسن منقلبهم وملأ حقائبهم ، وفصلوا من المغرب إلى بلادهم فى ذى الحجة من سنة سبع وسبعمائة ، ولما انتهوا إلى بلاد بنى حسن فى ربيع من سنة ثمان بعدها اعترضتهم الأعراب بالقفر فانتهبوهم ، وخلصوا إلى مصر صفر اليدين ، وكانت وفاة السلطان يوسف آخر نهار يوم الأربعاء سابع ذى القعدة من سنة ست وسبعمائة ، وسبب موته أنه كان له خصى اسمه سعادة لا يحجب عن حرمه وعياله ، فحدث له أن يفتك بالسلطان ، فعمد إليه وهو فى بعض حجر قصره ، فاستأذن عليه فأذن له ، فألفاه مستلقيا على فراشه مختضبا بحناء ، فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هاربا ، فقبض عليه وقتل وقبر السلطان هنالك ، ثم نقل بعد ما سكنت الهيعة إلى مقبرتهم بشالة ، و بموت السلطان يوسف انقضت مدة الحصار عن آل يغمراس وقومهم من بنى عبد الواد وسائر أهل تلمسان ، وكانت المدة فى ذلك

مائة شهر كما قدمنا نالهم فيها من الجهد والشدة مالم ينل أمة من الأمم ، واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران حتى إنهم أكلوا فيها ذوات الموتى من الناس وخربوا السقوف للوقود ، وغلت أسعار الأقوات والحبوب بما تجاوز حد العادة ، وعجز وجدهم عنها حتى كانت أثمان اللحم من الجيف والهر ولكلب والفأر والحية بثمن غريب إلى غير ذلك مما يستغرب وقوعه ، واستهلك الناس أموالهم وضاقت أحوالهم ، واعتزموا على الالقاء باليد والخروج للاستماتة ، فهيأ الله لهم الصنع الغريب ونفس عن مخنقهم بمهلك السلطان يوسف على يد الخصى ، وأذهب الله العناء عنهم ، وخرجوا كأنما نشروا من القبور ، كتبوا بعد هذه الحادثة فى سكتهم «ماأقرب فرج الله» استغرابا لها .

الخبر عن دولة السلطان أبى ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف المرينى

لما هلك السلطان يوسف رحمه الله بالمنصورة كما تقدم كان حافده أبو ثابت هذا فى جلته ، وكان له فى بنى وزناجى من أهل تلك البلاد مودة ، فلحق بهم ودعا لنفسه فبايعوه وقاموا معه فى فى أمره ، وبايعه معهم أشياخ بنى مرين والعرب بظاهر المنصورة يوم الخميس ثانى يوم وفاة جده يوسف ، وبادر الحاشية والوزراء ومن شايعهم بداخل المنصورة إلى بيعة الأمير أبى سالم ابن السلطان يوسف ، وكاد أمر بنى مرين يفسد وكلمتهم تفترق ، فبعث السلطان أبو ثابت لحينه ، وكان شهما مقداما إلى صاحب تلمسان أبى زيان بن عثمان بن يغمراس ، فعقد له عهدا على أن يرحل عنه بجموعه وأن يمده بالآلة و يضمه إليه إن خاب أمله ،ولم يتم له أمر ، فأجابه إلى ذلك ، وشرط عليه السلطان أبو ثابت أن لايتعرض لمدينة جده المنصورة بسوء ، وأن يتعاهد مساجدها وقصورها بالاصلاح وأن من أراد الاقامة بها من أهلها فما لأحد عليه من سبيل لأن الناس كانوا قد استوطنوها وألفوها وطاب مقامهم بها ،فقبل ذلك كله،وتفرغ السلطان أبو ثابت لشأنه وجمع كلمة قومه ، واختل أمر أبى سالم فلم يتم ، وكتب السلطان أبو ثابت إلى حامية بنى مرين وحصصها التى كانت متفرقة فى الثغور الشرقية التى استولى عليها السلطان يوسف أيام حياته فأقبلوا إليه ينسلون من كل حدب وأسلموا البلاد إلى أهلها من بنى عبد الواد ، وقتل السلطان أبو ثابت عمه أبا سالم ابن يوسف ثم أتبعه بعم أبيه أبى بكر فى آخرين من القرابة وغيرهم ممن يتوقع منه الشر ، ثم ارتحل السلطان أبو ثابت قاصدا حضرة فاس فى جموع لاتحصى وأمم لاتستقصى ، فعيد عيد الأضحى من سنة ست وسبعمائة فى طريقه بين تلمسان ووجدة ، ثم نهض إلى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وسبعمائة ، ثم نهض بعد ذلك إلى مراكش ، ولما علم بنو يغمراس أن أبا ثابت قد أبعد عنهم وأنه توغل فى البلاد المراكشية ، واشتغل بحروب الثائرين بها عمدوا إلى المنصورة فجعلوا عاليها سافلها وطمسوا معالمها ومحوا آثارها ، فأصبحت كأنها لم تغن بالأمس .

وفى أثناء ذلك مرض السلطان مرض موته ، وتوفى يوم الأحد الثامن من شهر صفر سنة ثمان وسبعمائة ، ودفن بظاهر طنجة ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة .

وهو الذى أسس مدينة تطاوين لنزول عسكره وللأخذ بمخنق سبتة قبل موته بشىء قليل .

ولما تصدى السلطان أبو ثابت للقيام بالأمر على عمه على بن يوسف وخلص الملأ من بنى مرين

أهل الحل والعقد إلى أبي الربيع سليمان بن أبي عامر أخي أبي ثابت فبايعوه واستقام أمره فقبض على عمه على وسجنه بطنجة فبقي مسجونا بها إلى أن هلك سنة عشر وسبعمائة ، وبثّ السلطان أبو الربيع العطاء فى الناس ، وأجزل الصلات فأرضى الخاصة والعامة وصفا له الأمر ، وكان فى أيامه غلاء إلا أن الناس انفتحت لهم فيها أبواب المعاش والترف حتى تغالوا فى أثمان العقار ، فبلغت قيمتها فوق المعتاد وتنافس الناس فى البناء ، فاتخذوا القصور المشيدة ، وتأنقوا فيها بالزليج والرخام وأنواع النقوش ، وتناغوا فى لبس الحرير ، وركوب الفاره وأكل الطيب واقتناء الحلى من الذهب والفضة ، واستبحر العمران ، وظهرت الزينة ، والأمور كلها بيد الله .

توفى السلطان أبو الرّبيع رحمه الله بتازا بين العشاءين من ليلة الأربعاء منسلخ جمادى الأخيرة من سنة عشر وسبعمائة ، ودفن من ليلته تلك بصحن الجامع الأعظم بها .

وقام بالأمر بعده أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، وكان من أهل العلم والحلم والعفاف ولما تمّ أمره واستوثق له الملك فرق الاعطيات ، وأسنى الجوائز ، وتفقد الدواوين ، ورفع الظلامات وحط المغارم والمكوس ، وسرح السجون ، ورفع عن أهل فاس ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية فى كل سنة فصلح حال الناس فى أيامه ، ولما استوثق ملكه ، ودوّخ الجهات المراكشية ، وفرغ من شأن المغرب اعتزم على غزو تلمسان فنهض إليها سنة أربع عشرة ، ولما انتهى إلى وادى ملوية قدّم ابنيه الأميرين أبا الحسن على وأبا على فى عسكرين عظيمين فى الجناحين وسار هو فى ساقتهما فدخل بلاد بنى عبد الواد على هذه التعبية . فأكتسح نواحيها ، واصطلم نعمتها ، ثم نازل وجدة فقاتلها قتالا شديدا فامتنعت عليه ، ثم نهض إلى تلمسان فنزل بساحتها ، وتحصن مالكها أبو الأجر بالأسوار ، وغلب السلطان أبو سعيد على معاقلها ، وسائر ضواحيها فحطمها ونسفها نسفا ودوّخ جبال بنى يزناس ، وأثخن فيهم ، وانتهى فى قفوله إلى وجدة .

ولما قفل السلطان أبو سعيد من تلمسان أواخر سنة أربع عشرة وسبعمائة أقام بتازا ، وبعث والديه إلى فاس ، فلما استقرّ الأمير أبو علىّ بها حدّثته نفسه بالقيام على أبيه ، وخلع طاعته ودعا لنفسه ، فأطاعه الناس ولم يتوقفوا عنه ، وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو أبيه فبرز السلطان أبو سعيد من تازا فى عسكره يقدّم رجلا ، ويؤخر أخرى ، وكان الأمير أبو الحسن قد لحق بأبيه متبرئا مما صنع أخوه ، ولما تراءى الجمعان بالقرمدة مابين فاس وتازا اختل مصاف السلطان وانهزم جريحا إلى تازا فتبعه ابنه أبو علىّ ، وحاصره بها ثم سعى الخواص بين السلطان وابنه أبى علىّ بالصلح على أن يخرج له السلطان عن الأمر ويقتصر على تازا وجهاتها فقط فرضى السلطان بذلك وشهد الملأ من مشيخة العرب وزناتة ، وأهل الامصار ، واستحكم العقد بينهما ، وانكفأ الامير أبو علىّ راجعا إلى حضرة فاس مملكا على المغرب ، وتوافت إليه بيعات الامصار ووفودهم ، واستقام أمره ثم تدارك الله السلطان أبا سعيد بلطفه وردّ عليه حقه من حيث لايحتسب ، وذلك أن الأمير أبا على اعتلّ عقب وصوله إلى فاس ، واشتدّ وجعه حتى أشرف على الهلاك ، وخشى الناس على أنفسهم اختلال الامر بموته ، فتسللوا إلى والده السلطان أبى سعيد بتازا ولحق به سائر خواص الدولة وحملوه على تلافى الأمر وانتهاز الفرصة ، فنهض من تازا واجتمع إليه كافة بنى مرين

والجند وعسكر على البلد الجديد ، وأقام محاصرا له وابتنى دارا لسكناه ، وجعل لابنه الأمير أبى الحسن ما كان لأخيه ابن على من ولاية العهد وتفويض الامر ، ولما تبين للأمير أبى على اختلال أمره بعث إلى أبيه فى الصلح على أن يعوض بسجلماسة وما والاها ، فأجيب إلى ذلك ، ووفى له السلطان بما اشترط ، وارتحل إلى سجلماسة سنة خمس عشرة وسبعمائة ، فأقام بها دولة نخيمة ، واستولى على بلاد القبلة ودوّن الدواوين واستلحق واستركب واستخدم ظواعن العرب من بنى حقل ، وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وغيرها ، وأما السلطان أبو سعيد فانه دخل إلى فاس الجديد ونزل بقصره وأصلح شئون ملكه ، وأنزل ابنه الامير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره وفوض إليه فى سلطانه تفويض الاستقلال ، وأذن له فى اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة على كتبه وسائر ما كان لاخيه ، ووفدت عليه بيعات الامصار بالمغرب ورجعوا إلى طاعته .

وفى هذه الفترة التى وقعت بين السلطان وابنه الثائر عليه اهتبل الطاغية الفرة فى الاندلس وزحف فى جوعه إلى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، وأراد استئصال ما بقى من المسلمين بأرض الاندلس ، ولما رأى أهلها ذلك بعثوا صريخهم إلى السلطان أبى سعيد فقدم عليه وفدهم بحضرة فاس ، فاعتذر إليهم بمكان عثمان بن أبى العلاء من دولتهم ومحله من دار ملكه ، وشرط عليهم أن يمكنوه منه ليتأتى له العبور إلى تلك البلاد وجهاد العدوّ بها من غير تشويش .

وابن أبى العلاء هذا هو أحد أمراء بنى مرين ، وكانت له منازعة ومقاتلة مع السلطان أبى ثابت عامر وكذا من بعده ، انظر بسط هذا الموضوع فى كتابنا [الانيس المطرب ، فى أخبار ملوك المغرب]

رجع وقال لهم مهما تم أمر الجهاد نردّه عليكم حياطة على المسلمين وخشية من تفريق كلمتهم ، فاستصعب أهل الاندلس هذا الشرط لما يعلمونه من صرامة عثمان و إدلاله ببأسه و بأس عشيرته ، فأخفق سعيهم ورجعوا منكسرين وأطالت الفرنج المقام على غرناطة ، وطمعوا فى الظفر بها ، ثم إن الله تعالى نفس عن مخنقهم ، ودافع بقدرته عنهم وهيأ لعثمان بن أبى العلاء واقعة . كانت من أغرب الوقائع .

وذلك أنه لما كان يوم المهرجان وهو الخامس من جادى الاولى من سنة تسع عشرة وسبعمائة عمد عثمان بن أبى العلاء إلى جماعة جنده ، واختار من أنجاد بنى مرين منهم نحو المائتين وتقدم بهم نحو جيش الفرنج فظن النصارى أنهم إنما خرجوا لأمر غير القتال من مفاوضة أو ابلاغ رسالة أو نحو ذلك حتى إذا سامتوا موقف الطاغية ، وأعيانه قصدوه حتى خالطوه فى مراكزه فصرعوه فى جملة من الحاشية ، وانهزم ذلك الجمع من حينه ، وولوا الادبار ، واعترضهم من ورائهم مشارب الماء للشرب على نهر شنيل ، فتطارحوا فيها ، وهلك أكثرهم ، واكتسحت أموالهم ، وتبعهم المسلمون يقتلون و يأسرون ثلاثة أيام ، وخرج أهل غرناطة لجمع الاموال ، وأخذ الاسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب ثلاثة وأربعون قنطارا ، ومن الفضة مائة وأربعون قنطارا ، ومن السبى سبعة آلاف نفس ، ومن جملة الأسارى امرأة الطاغية وأولاده . قالوا وزادت عدة القتلى فى هذه الغزوة على خمسين ألفا ، وهلك منهم بالوادى مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطريق ، وأمّا الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون ، وقتل الملوك جميعهم الذين كانوا معه

واستمر البيع فى الاسرى والسبي والدواب ستة أشهر ، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد .

ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين سوى ثلاثة عشر نفسا ، وسلخ الطاغية وحشى جلده قطنا وعلق على باب غرناطة و بقى معلقا سنين ، وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم .

توفى السلطان أبو سعيد ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة بفاس . ودفن ببعض قبابه رحمه الله . وكانت أيامه أعيادا ومواسم .

وقام بالامر بعده ولده أبو الحسن على المنصور بالله فى التاريخ المتقدم وهذا السلطان هو أفخم ملوك بنى مرين دولة وأضخمهم ملكا وأبعدهم صيتا وأعظمهم أبهة وأكثرهم آثارا بالمغربين والأندلس ، ويعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لأن أمه كانت حبشية وكان هو أسمر اللون ، وقد بسطنا ترجمته فى [نزهة الممالك والمملوك] فراجعها هناك ، وأبسط منها مافى كتابنا [الأنيس المطرب] وكانت وفاته رحمه الله فى الثالث والعشرين من ربيع الثانى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة ودفن بمراكش من القصبة بالموضع الذى به اليوم قبور السعديين ، ثم نقل بعد ذلك إلى شالة فدفن بها ولا زال ضريحه قائم العين والأثر .

وقام بالأمر بعده أبو عنان فارس بن أبى الحسن ، وقد بويع له فى حياة والده يوم ثار عليه بتلمسان ، وذلك يوم الثلاثاء منسلخ ربيع الأول سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، ولما هلك والده السلطان أبو الحسن بجبل هنتاتة ارتحل السلطان أبو عنان إلى فاس ، وقد استتب أمره وخلا له الجو فاحتل بدار ملكه وأجمع أمره على غزو بنى عبد الواد لارتجاع مابأيديهم من الملك الذى تطالوا إليه .

ولما دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة نادى بالعطاء ، وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد وعرض جيشه ، ثم نهض يريد تلمسان ، واتصل خبره بسلطانها أبى سعيد عثمان الزيانى . فجمع له قومه ومن شايعهم من زناتة والعرب ، ثم نهض إليه ومعه أخوه ووزيره أبو ثابت ، فكان اللقاء بسيط انكاد آخر ربيع الثانى من السنة المذكورة وأجمع بنو عبد الواد على صدمة المرينيين وقت القائلة وعند ضرب الأبنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر فى حاجاتهم فحملوا عليهم وأعجلوهم عن ترتيب المصاف ، وركب السلطان أبو عنان لتلافى الامر وخاض بحر القتال ، وقد أظلم الجو بالغبار حتى إذا خلص إليهم وخالطهم فى صفوفهم ولوا الادبار واتبع بنو مرين آثارهم ، فاستولوا على معسكرهم واستباحوهم قتلا وسبيا وصفدوهم أسرى ، ولم يزالوا فى اتباعهم إلى الليل وقبضوا على سلطانهم أبى سعيد فساقوه إلى السلطان أبى عنان فاعتقله ، وتقدم على التعبئة إلى تلمسان فدخلها فى ربيع المذكور واستوت فى ملكها قدمه وأحضر أبا سعيد فوبخه وأراه أعماله حسرات عليه ، ثم أحضر الفقهاء وأرباب الفتيا فأفتوا بحرابته وقتله فأمضى حكم الله فيه فذبح فى محبسه لتاسعة من اعتقاله و بعده قبض على أخيه أبى ثابت فحمل على جمل وطيف به فى البلد ، ولما فرغ السلطان أبو عنان من شأن المغرب الاوسط ، وبث عماله فى نواحيه وثقف أطرافه سمى إلى تملك افريقية واستولى على بجاية منها وانكفأ راجعا إلى تلمسان فدخلها غرة جمادى الاولى من

سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، وتوافت لديه الوفود فأجزل صلاتهم .

قال ابن خلدون وكنت يومئذ فى جلتهم لجلس السلطان للوفد وعرض ماجلب إليه من الجياد والهدايا ، وكان يوما مشهودا وانصرفوا إلى مواطنهم فاتح شعبان من السنة المذكورة .

وفادة الوزير أبى عبد الله محمد بن الخطيب على السلطان أبى عنان المرينى

بعثه سلطان الأندلس ابن الأحمر محمد بن يوسف سفيرا عنه إلى السلطان أبى عنان مستمدا له على عدوّه الطاغية على عادة سلفه فى ذلك ، ولما حضر بين يديه أكرم وفادته إكراما بليغا ، فمدحه بقصيدة يقول فى أوّلها :

أبدى لداعى الفوز وجه منيب ✲ وأفاق من عذل ومن تأنيب

ويقول فى أثنائها

يا ناصر الدين الحنيف وأهــله ✲ انضاء مسغبة وفل خطوب
حقق ظنون بنيــه فيك فانهم ✲ يتعللون بوعـدك المرقوب
ضاقت مذاهب نصرهم فتعلقوا ✲ بجناب عز من عـلاك رحيب
ودجا ظلام الـكفر فى آفاقهم ✲ أو ليس صبحك منهم بقريب
فانظر بعين العز من ثغر غدا ✲ حذر العدا يرنو بطرف مريب
نادتك أندلس ومجدك ضامن ✲ ألا يخيب لديك ذو مطلوب   وهى طويلة

رحلة السلطان أبى عنان إلى سلا بقصد زيارة أبى العباس بن عاشر رضى الله عنه

كان لبنى مرين عموما وللسلطان أبى عنان خصوصا جنوح إلى الخير ومحبة فى أهله وتعرض ممن يشار إليــه بالصلاح واستمطار لطله ووبله ، وكان الشيخ الأشهر أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسى قد استوطن فى هــذا التاريخ مدينة سلا ، وكان من الأفراد الجامعين بين العلم والعمل المتمسكين بالـكتاب والسنة فتحركت همة السلطان أبى عنان لزيارته فارتحل إليه سنة سبع وخمسين وسبعمائة وحرص على الاجتماع به ووقف ببابه مرارا فلم يأذن، ثم أرسل إليه ولده راغبا ومستعطفا فأجابه بما قطع رجاءه من لقائه غير أنه كتب إليه كتابا وعظه فيه فسرّ السلطان بذلك .

وتوفى السلطان أبو عنان رحمه الله مقتولا ، خنقه بعض وزارئه يوم السبت الثامن والعشرين من ذى الحجة متمّ سنة تسع وخمسين وسبعمائة ، وسنه يوم توفى ثلاثون سنة .

وكان رحمه الله فقيها عالما عارفا بالمنطق وأصول الدين حافظا للقرآن عارفا بناسـخه ومنسوخه حافظا للحديث عارفا برجاله فصيح القلم كاتبا بليغا حسن التوقيع شاعرا ، من ذلك قوله :

وإذا تصدّر للرياســة خامل ✲ جرت الأمور على الطريق الأعوج

وقال ابن الأحمر كنت يوما جالسا معه بمقعد ملكه من المدينة البيضاء ، فدخل عليه رجل يتصلح فلما نظر إليه قال بديهة :

تراهم

تراهم فى ظواهرهم كراما ☆ ويخفون المكيدة والخداعا

وكان رحمه الله فارسا شجاعا يقوم فى الحرب مقام جنده ، وله آثار دينية من بناء المدارس والزوايا وغير ذلك ومدرسته العنانية بفاس مشهورة إلى الآن .

وقام بالأمر بعده فى التاريخ المتقدم ابنه أبو بكر الملقب بالسعيد بالله ، وكان محجوبا لوزيره حسن بن عمر لا يملك معه ضرا ولا نفعا ، لما سمع حسن المذكور بظهور السلطان أبى سالم واستفحال أمره نبذ دعوة سلطانه المذكور وبعث بطاعتـه إلى أبى سالم ووعده بالتمكين من دار الملك ان قدم عليه ، فكان الأمر كذلك وخلع السعيد يوم الثلاثاء الثانى عشر من شعبان سنة ستين وسبعمائة ثم قتل بعد ذلك غرقا فى البحر ، فان السلطان أبا سالم بعثه فى جملة الأبناء المرشحين إلى الأندلس ووكل بهم من يحرسهم ، ثم بعد ذلك بعث إلى الموكل بهم فحملهم فى سفينة كأنه يريد بهم المشرق ثم غرقهم فى البحر ، والأمر لله وحده .

وأبو سالم اسمه إبراهيم بن أبى الحسن المرينى ، وكان بعد مهلك والده السلطان أبى الحسن قد استقر بالأندلس بعثـه إليها أخوه أبو عنان ، ولما مات أبو عنان المذكور وولى ابنـه الصبى طمع أبو سالم هـذا فى الملك فتوجـه للمغرب ، ووافق اختلاف الكلمة بفاس ، ومحاصرة منصور ابن سليمان للمدينة البيضاء ، فتسامع الناس به فتسايلوا إليه من كل وجه ، وانفض الناس من حول منصور ، ومشى أهل معسكره بأجمعهم إليه فلحقوا بالسلطان أبى سالم ، واستعدوه على دار ملكه فأسرع السير إليها ، وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد بالله من الأمر لتسعة أشهر من خلافته ، وأسلمه إلى عمه فخرج إليه وبايعه ، ودخل السلطان أبو سالم البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين وسبعمائة ، واستولى على ملك المغرب وتوافت وفود النواحى بالبيعات واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق ، وجعل إلى أبى زيد عبد الرحمن ابن خلدون صاحب التاريخ توقيعه وكتابة سره . قال وكنت نزعت إليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرائش لما رأيت من اختلال أحواله ومصير الأمر إلى السلطان أبى سالم فأقبل على وأنزلنى بمحل التنويه واستخلصنى لكتابته .

توفى السلطان أبو سالم مذبوحا يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، ودفن بالقلعة خارج باب الجيسة من فاس .

وقام بالأمر بعـده تاشفين بن أبى الحسن المرينى ، وكان هذا السلطان محجوبا لوزيره عمر ابن عبد الله لا يملك معـه ضرا ولا نفعا ، وكان فارسا بطلا قوى الساعد إلا أنه كان ناقص العقل ولما ثار عمر بن عبد الله بالسلطان أبى سالم ، وسعى فى هلاكه إلى أن قتل استبد بأمر الدولة ونصب تاشفين هذا يموه به على الناس فبويع ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذى القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، ولما راجع الوزير عمر بن عبد الله بصـيرته فى تقديم تاشـفين للأمر علم أن الأمر لا يستقيم له بذلك ، وبادر باستقدام أبى زيان محمد بن أبى عبـد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبى الحسن ، وخلع الوزير المذكور سلطانه تاشفين يوم الاثنين الحادى والعشرين من صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، فكانت دولته ثلاثة أشهر ويومين ، ومات وسنه ستون سـنة ، وكان نقصان

عقل تاشفين من أجل الأسر الذى أصابه بوقعة طريف أيام والده السلطان أبى الحسن إلى أن افتدى وبقى ناقص العقل مختلّ المزاج .

وكان السلطان أبو زيان هذا محجوبا للوزير عمر بن عبد الله أيضا ، وكان قبل ولايته عند الطاغية بالأندلس، فرّ إليه خوفا على نفسه ، ولما التبست الأمور على عمر بن عبد الله طلبه من الطاغية فسمح به بعد اشتراط واشتطاط وفصل من اشبيلية فى المحرم فاتح سنة ثلاث وستين وسبعمائة ونزل بسبتة ثم منها لحضرة فاس ، وكان دخوله إليها ليلة الجمعة .

ولما طال استبداد وزيره عليه وحجره إياه إذ كان وضع عليه الرقباء والعيون حتى من حرمه وأهل قصره عزم على الفتك بالوزير المذكور وتناجى بذلك مع بعض ندمائه ، وأعدّ له طائفة من العبيد كانوا يختصون به ، فنمى ذلك إلى الوزير بواسطة بعض الحرم كانت عينا له عليه ، فعاجله الوزير قبل أن يعجل به ، وكان قد بلغ من الاستبداد عليه أن كان الحجاب مرفوعا له عن خلوات السلطان وحرمه فدخل عليه وهو فى وسط حشمه فطردهم عنه ثم غطه حتى خرجت روحه وأمر به فألقى فى بئر بروض الغزلان واستدعى الخاصة فأراهم مكانه بها وأنه سقط عن دابته وهو سكران ، وذلك فى محرم فاتح سنة ثمان وستين وسبعمائة ، ودفن بجامع قصره ، فكانت دولته أربع سنين وعشرة أشهر ويوما واحدا .

وقام بالأمر بعده أبو فارس عبد العزيز بن أبى الحسن رحمه الله ، وهذا السلطان هو الذى أنعش دولة بنى مرين بعد تلاشيها ، وأعاد إليها شبابها بعد هرمها وتقاضيها وأزال عنها وصمة الحجر والاستبداد ، وأعادها من الضرّ إلى حالها المعتاد، وهو الذى ذكره ابن خلدون فى أوّل تاريخه الكبير وألفه برسمه ، وحلى ديباجته باسمه ، وكان متمسكا بالدين محبا فى الخير وأهله لم يشرب خمرا ولا وقع فى فاحشة قط ، وبالجملة فقد كان من صالحى الملوك رحمه الله ، ولما كان من الوزير عمر ابن عبد الله إلى السلطان أبى زيان ما كان من الخنق والالقاء فى البئر استدعى عبد العزيز بن أبى الحسن هذا ، وكان فى بعض الدور من القصبة بفاس محتاطا عليه من قبل الوزير المذكور ، فأحضره بالقصر وأجلسه على سرير الملك وبايعه وفتحت الأبواب لبنى مرين وسائر الخاصة والعامة فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة بطاعته فتمّ أمره وثبت ملكه ، وذلك يوم الأحد الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة ، ثم إن الوزير عمر جرى معه على عادته من الاستبداد ومنع التصرف فى شىء من أمور الملك فأنف السلطان عبد العزيز من ذلك ، ودارت بينه وبين الوزير أمور إلى أن عمل السلطان على الفتك به ، فأعدّ له جماعة من الخصيان بزوايا داره ثم أحضره ووبخه وثار به أولئك الخصيان ، فتناولوه هبرا بالسيوف ، وصاح الوزير المذكور صيحة أسمع بها بطانته خارج الدار فوثبوا على الأبواب فكسروها واقتحموا الدار فاذا صاحبهم مضرج فى دمائه قد فرغ منه فولوا الأدبار هاربين ، ثم تتبع السلطان عبد العزيز حاشية الوزير بالاعتقال والقتل حتى أتى على الجميع واستبدّ بملكه وأدار الأمور فيه على ماينبغى .

توفى السلطان أبو فارس هذا ليلة الخميس الثانى والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة بظاهر تلمسان بين أهله وولده وسيق إلى فاس ، فدفن بجامع قصره ، وسنه

يومئذ

يومئذ أربع وعشرون سنة ، وكانت دولته ست سنين وأربعة أشهر .

وقام بالأمر بعده ابنه أبو زيان محمد بن عبد العزيز ، بويع له بعد وفاة أبيه فى التاريخ المتقدم وكان هذا السلطان ممن ولى الأمر وهو صبى وفيه ألف ابن الخطيب كتابه المسمى [بأعلام الاعلام بمن بويع من ملوك الاسلام قبل الاحتلام] وكان محجوبا لوزيره أبى بكر بن غازى ، فكان الابرام والنقض للوزير المذكور والصبى كالعدم إذ لم يكن فى سن التصرف ، ثم ارتحل الوزير بالناس وجد السير ، فدخل حضرة فاس وأجلس الصبى لبيعة العامة فبايعوا واستبد الوزير أبو بكر واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفصل واشتغل بأمر المغرب إبراما ونقضا .

ولما فصل بنو مرين عن تلمسان عاد إليها سلطانها أبو حمو الزيانى والتفت عليه بنو عبد الواد من كل جانب ومحا دعوة بنى مرين من ضواحى المغرب الأوسط وأمصاره ، واتصل الخبر بالوزير أبى بكر فهم بالنهوض إليه ، ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمن بناحية بطوية ، فان السلطان ابن الأحمر كان قد سرحه من الأندلس صحبة وزير له لطلب ملك المغرب تشغيبا على الوزير ابن أبى بكر ، ثم أتبعه بالأمير أبى العباس أحمد بن السلطان أبى سالم ، فزحف الأمير أبو العباس المذكور إلى فاس وظاهره ابن عمه الأمير الرحمن فحاصروا الوزير أبا بكر وسلطانه أبا زيان ابن عبد العزيز وضربوا على فاس الجديد سياجا بالبناء للحصار وأنزلوا به أنواع القتال ، فاستمر الحال على حصار فاس إلى أن أذعن الوزير أبو بكر لخلع سلطانه أبى زيان ومبايعة الأمير أبى العباس فخلعه يوم الأحد السادس من محرم فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة وغرب إلى الأندلس ، فكانت دولته سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما .

وبويع أبو العباس أحمد بالمدينة البيضاء بفاس بعد استيلائه عليها يوم الأحد السادس من محرم سنة ست وسبعين وسبعمائة .

محنة الوزير ابن الخطيب ومقتله رحمه الله

لما لجأ ابن الخطيب إلى بنى مرين وأصاب عندهم دارا وقرارا عز ذلك على ابن الأحمر صاحب الأندلس وصار يدبر الحيلة فى قتله وتتبع أعداؤه كلمات زعموا أنها صدرت منه فى بعض تآليفه فأحصوها عليه ورفعوها إلى قاضى غرناطة أبى الحسن فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة وبعث ابن الأحمر برسم الشهادة مع هدية لم يسمع بمثلها إلى السلطان عبد العزيز وطلب منه إقامة الحد على ابن الخطيب أو إسلامه إليه فصم السلطان عبد العزيز عن ذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يؤذى ، وقال للوفد هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ، وأما أنا فلا يخلص إليه أحد بذلك ما كان فى جوارى ، ثم وفر الجراية والاقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس فى جلته فاستكثر ابن الخطيب بفاس القديمة من شراء الضياع وتأنق فى بناء المساطب واغتراس الجنات وحفظت عليه رسومه السلطانية وتوقيراته ، وأقام مطمئنا بخير دار عند أعز جار ، إلى أن ولى الأمر السلطان أبو العباس المذكور ، فبعث إليه ابن الأحمر فى ذلك ، فأحضر السلطان أبو العباس ابن الخطيب بالمشور فى مجلس الخاصة ، وأهل الشورى من الفقهاء ، وعرضوا

عليه بعض كلمات وقعت له فى بعض كتبه فعظم عليه النكير فيها فوبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ ، ثم حبس وتفاوضوا فى قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، فأفتى بعض الفقهاء بقتله ، فقتل خنقا فى محبسه ، وأخرجوا شلوه من الغد فدفن فى مقبرة باب المحروق ، ثم أصبح من الغد طريحا على شافة قبره ، وقد جمعوا له أعوادا فأضرموها عليه نارا فاحترق شعره واسود بشره ، وأعيد إلى حفرته ، وكان فى ذلك انتهاء محنته ، وكان ابن الخطيب رحمه الله أيام مقامه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكى نفسه ، فما قال فى ذلك :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ✲ وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة ✲ كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما ✲ وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلى ✲ غربنا فناحت عليها السموت
فكم جدلت ذا الحسام الظبى ✲ وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر فى خرقة ✲ فتى ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ✲ وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له ✲ فقل يفرح اليوم من لا يموت

وكانت نكبته رحمه الله أوائل سنة ست وسبعين وسبعمائة ، وعند الله تجتمع الخصوم .

نهوض السلطان أبى العباس إلى تلمسان وفتحها وتخريبها

لما نهض السلطان أبو العباس إلى مراكش وحاصر بها عبد الرحمن الثائر عليه خالفه إلى المغرب أبو حمو الزيانى فى جمع كثير باغراء عبد الرحمن المذكور فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها ثم عمدوا إلى مدينة تازا فحاصروها سبعا وخربوا قصر الملك هنالك ومسجده ، وبيناهم على ذلك إذ بلغهم الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الامير عبد الرحمن فأجفلوا من كل ناحية ، ووصل السلطان أبو العباس إلى فاس فأراح بها أياما ، ثم أجمع النهوض إلى تلمسان ، فانتهى إلى تاوريرت وبلغ الخبر إلى أبى حمو فاضطرب رأيه واعتزم على الحصار وجمع أهل البلد عليه فاستعدوا له ثم بداله ، فخرج فى بعض تلك الليالى بولده وأهله وخاصته وأصبح مخيما بالصفيصيف ، فأهرع أهل البلد إليه بعيالهم وأولادهم متعلقين به تفاديا من معرة هجوم العسكر عليهم فلم يردّه ذلك عن قصده ، وارتحل ذاهبا إلى البطحاء ، ثم قصد بلاد مغراوة ، فنزل بحصن هناك ، وجاء السلطان أبو العباس إلى تلمسان فملكها ، واستقرّ بها أياما ، ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها جزاء بما فعله أبو حمو فى تخريب قصر الملك بتازا وغيره ، ثم خرج من تلمسان فى اتباع أبى حمو ، ونزل على مرحلة منها وهنالك بلغه الخبر باجازة موسى بن أبى عنان من الأندلس إلى المغرب ، وأنه استولى على سبتة ، وتقدم إلى فاس فدخلها ، واستقرّ قدمه بها ، فجاء أبو العباس مبادرا حتى نزل بتازا ، فأقام بها أربعا ، ثم تقدم إلى الموضع المعروف بالركن فانتقض عليه رؤساء جيشه وتسللوا عنه إلى موسى طوائف وأفرادا ، ولما رأى ما نزل به رجع إلى تازا بعد أن انتهب معسكره ، وأضرمت النار فى

خيامه

خيامه ، وذلك يوم الاحد الموفى ثلاثين من ربيع الاوّل سنة ست وثمانين وسبعمائة ، ثم بعث موسى بن أبي عنان من أتاه بالسلطان أبي العباس فى الامان فقدم عليه وقيده ، وبعث به إلى ابن الاحمر فبقى عنده محتاطا عليه إلى أن كان من أمره ما نذكره ، وكانت دولته هذه عشر سنين وشهرا وأربعة وعشرين يوما .

وقام بالامر بعد القبض عليه السلطان موسى بن أبي عنان المرينى وبويع يوم الخميس الموفى عشرين من شهر ربيع الاوّل سنة ست وثمانين وسبعمائة ، وقام بأمر دولته وزيره مسعود ابن ماساى مستبدا عليه من قبل ابن الاحمر واستنكف موسى من ذلك ، وداخل بطانته فى الفتك به فنمى ذلك إليه ، وحصلت بينهما نفرة إلى أن توفى السلطان مسموما يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، وله إحدى وثلاثون سنة ، فكانت دولته سنتين وأربعة أشهر .

وبويع بعده لمحمد بن محمد بن أبي العباس بن أبي سالم فى التاريخ المتقدّم وسنه خمس سنين وخلع يوم الجمعة الخامس عشر من شوّال من السنة المذكورة وغرّب إلى الاندلس مع أبيه فكانت دولته ثلاثة وأربعين يوما تحت استبداد الوزير مسعود ، ثم بويع لمحمد بن أبي الفضل فى التاريخ المتقدّم ، وقام بأمره الوزير مسعود ، ثم حدثت فتنة بين الوزير المذكور وابن الاحمر ، فسرح ابن الاحمر السلطان أبا العباس من اعتقاله وبعثه إلى المغرب لطلب ملكه وللتشغيب على ابن ماساى الجاحد لاحسانه بزعمه ، فعبر السلطان أبو العباس البحر إلى المغرب ، فاحتلّ سبتة واستولى عليها ، ثم تقدّم إلى فاس فحاصرها وضيق على ابن ماساى وسلطانه محمد بن أبي الفضل ، وأهرع الناس إلى الدخول فى طاعته حتى من مراكش ، فاستمرّ الحصار على فاس الجديد ثلاثة أشهر ، ثم أذعن الوزير مسعود للطاعة على شرط أن يبقى وزيرا ، ويغرب سلطانه إلى الاندلس ، فأجيب ، ثم خرج إلى السلطان أبي العباس فبايعه ، وتقدّم أمامه فدخل دار ملكه يوم الخميس خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، ولحين دخوله قبض على المخلوع محمد بن أبي الفضل فقيده ، وبعث به إلى طنجة ، وقتل بها بعد ذلك وسنه يوم قتل ثمان وثلاثون سنة وبها قبر ، ولما دخل السلطان أبو العباس حضرة فاس الجديد فى التاريخ المتقدّم بويع البيعة العامة فى اليوم الثالث من دخوله وهو يوم السبت السابع من رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة لمضىّ ثلاث سنين وخمسة أشهر وستة أيام من خلعه .

ولما ملك أمر نفسه قبض على الوزير مسعود ، وعلى إخوته وحاشيته وامتحنهم امتحانا بليغا فهلكوا من العذاب ، ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام مالا يعبر عنه .

وتوفى السلطان أبو العباس بتازا ليلة الخميس السابع من محرّم فاتح سنة ست وتسعين وسبعمائة وحمل إلى فاس فدفن بالقلعة وسنه يومئذ تسع وثلاثون سنة .

وقام بالامر بعده ابنه أبو فارس عبد العزيز فى التاريخ المتقدّم ، وتوفى يوم السبت ثامن صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، ودفن مع أبيه بالقلعة ، فكانت دولته ثلاث سنين وشهرا .

وقام بالامر بعده شقيقه أبو عامر عبد الله بن أبي العباس بويع له بعد أخيه عبد العزيز فى

التاريخ المتقدم ، وكان التصرف والنقض والابرام فى هذه المدة كلها للوزراء ، وتوفى السلطان المذكور بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء الموفى ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمائة ، فكانت دولته سنة وخمسة أشهر سوى أيام .

وقام بالامر بعده شقيقه أبو سعيد عثمان بن أبى العباس بويع له فى التاريخ المتقدم وسنه يومئذ ست عشرة سنة، وكان النقض والابرام وسائر التصرفات فى دولته للوزراء والحجاب، والسلطان متفرغ لاستيفاء لذاته ، وتوفى سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه عبد الحق وهو آخر ملوك بنى مرين وأطولهم مدة وأعظمهم محنة وشدة بويع له بعد أبيه فى التاريخ المتقدم ، وقد ذكرنا توليته لليهوديين على أهل فاس وما آل إليه أمرهما فى كتابنا [الاستبصار . فى ذكر حوادث الأعصار] فانظره إن شئت .

ولما خلع أهل فاس طاعة السلطان عبد الحق وبايعوا الشريف أبا عبد الله الحفيد ، وكان عبد الحق يومئذ غائبا فى حركة له ببعض النواحى ، واتصل به الخبر انفض مسرعا إلى فاس ، واضطرب عليه أمر الجند وفسدت نياتهم وتنكرت وجوههم ، وصاروا فى كل منزلة تنفض عنه طائفة منهم فأيقن عبد الحق بالنكبة ، وعاين أسباب المنية ، ولما قرب من فاس استشار هارون اليهودى فيما نزل به ، فقال اليهودى له لانقدم على فاس لغليان قدر الفتنة بها وإنما يكون قدومنا على مكناسة الزيتون لانها بلدنا وبها قوادنا وشيعتنا وحينئذ يظهر لنا مايكون ، فما استتم اليهودى كلامه حتى انتظمه بالرمح رجل من بنى مرين وعبد الحق ينظر، وقال أو مازلنا فى تحكم اليهود واتباع رأيهم والعمل باشارتهم ، ثم تعاورته الرماح من كل جانب وخر صريعا لليدين والفم ، ثم قالوا للسلطان عبد الحق تقدم أمامنا إلى فاس فليس لك اليوم اختيار فى نفسك فأسلم نفسه وانتهبت محلته وفنيت أمواله وحلت به الاهانة ، وجاءوا به إلى أن بلغوا عين القوادس خارج فاس الجديد فاتصل الخبر بأهل فاس وسلطانهم الحفيد ، فخرج إلى عبد الحق وأركبه على بغل بالبردعة وانتزع منه خاتم الملك وأدخله البلد فى يوم مشهود ، حضره جمع كبير من أهل المغرب وأجمعوا على ذمه ، وشكروا الله على أخذه ، ثم جنب إلى مصرعه فضربت عنقه صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ، ودفن ببعض مساجد البلد الجديد ، ثم أخرج بعد سنة ونقل إلى القلعة فدفن بها ، وانقرضت بمهلكه دولة بنى عبد الحق المرينى من المغرب .

والحفيد هذا هو أبو عبد الله محمد بن على الادريسى الجوطى العمرانى من بيت بنى عمران فرقةمن أدارسة فاس ، وكان قبل مبايعةأهل فاس له يلى نقابة الأشراف بفاس ، وبويع فى العشر الأواخر من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ، وتم أمره واستمر بها إلى سنة خمس وسبعين وثمانمائة ، فعزل عن الامامة ، وكان الذى خلعه أبو الحجاج يوسف الوطاسى .

الدولة الوطاسية

اعلم أن بنى وطاس فرقة من بنى مرين ليسوا من عبد الحق ، ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله كان لبنى وطاس هؤلاء بلاد الريف ، فكانت ضواحيها لنزولهم ورعاياها لجبايتهم

وكانوا

وكانوا يرومون الرياسة والخروج على بنى عبد الحق ، ثم أذعنوا إلى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة فاستعملهم بنو عبد الحق فى وجوه الولايات واستظهروا بهم على أمور دولتهم فحسن أثرهم لديها وتعدد الوزراء منهم فيها .

الخبر عن دولة السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ بن أبى زكرياء الوطاسى

كان السلطان عبد الحق المتقدم الذكر قد أوقع ببنى وطاس وفر محمد الشيخ إلى جهة الصحراء ، وجعل يتردد فيما بينها وبين البلاد الهبطية حتى ملك آصيلا ، وذلك قبل استيلاء البرتغال عليها ، ولما ملك محمد الشيخ آصيلا واستفحل أمره بها تشوفت إليه الأعيان من أهل فاس والرؤساء من أهل دولة السلطان عبد الحق ، وصاروا يكاتبونه سرا على أن يبذلوا له من الطاعة والنصرة ماشاء ، فاستمر الحال على ذلك إلى أن قتل عبد الحق وبويع الحفيد ، فحينئذ أرهف الشيخ حده ، واستفرغ فى المطالبة جهده ، واستتبع القبائل وحاصر فاس وقتا بعد وقت إلى أن دخلت فى طاعته فى رمضان سنة ست وسبعين وثمانمائة وخرج عنها الحفيد ، ودخلها محمد الشيخ المذكور فى أوائل شوال من السنة المذكورة ، وتوفى محمد الشيخ هذا سنة عشر وتسعمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه محمد بن محمد الشيخ فى التاريخ المتقدم ، وكان نصارى سبتة وطنجة وآصيلا قد استحوذوا على بلاد الهبط وضايقوا المسلمين ، وكان السلطان محمد هذا قد عنى بجهادهم وترديد الغزو إليهم والاجلاب عليهم حتى شغل بذلك عن البلاد المراكشية وسواحلها ، فكان ذلك سببا لظهور الدولة السعدية بها سنة خمس عشرة وتسعمائة .

أخبار السلطان أبى عبد الله الوطاسى مع الشيخ أبى محمد الغزوانى

أصل الشيخ أبى محمد عبد الله الغزوانى دفين حومة القصور من مراكش من غزوان قبيلة من عرب تامسنا ، وكان فى ابتداء أمره يقرأ العلم بفاس فحصلت له إرادة ، فسار إلى مراكش ولازم الشيخ أبا فارس عبد العزيز التباغ وتخرج به ، ثم انتقل إلى بلاد الهبط ، واجتمع عليه الناس واشتهر أمره وعظم صيته ، فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله ، وكان يومئذ ببلاد الهبط قد خرج إليها بقصد الغارة على نصارى آصيلا ، وكان معه فى هذه الحركة الشيخ أبو عبد الله محمد ابن غازى الامام المشهور ، فتوهم السلطان المذكور من أمر الشيخ الغزوانى ، وخشى على الدولة عاقبة أمره وأغراه به مع ذلك بعض الفقهاء ، فبعث إليه السلطان فحضر وأمر بالقبض عليه وجعله فى سلسلة وبعث به إلى فاس ، وكان الشيخ ابن غازى قد مرض فى هذه الغزوة ، وأمر السلطان بحمله إلى منزله من فاس ، فلما وصل إلى قرب عقبة المساجين اشتد به الحال ، وأمر أصحابه أن يريحوا به هنالك ، فبينما هو كذلك إذ مر به الشيخ الغزوانى فى سلسلة ، فسأل الموكلين به أن يذهبوا به إلى الشيخ ابن غازى كى يعوده ويؤدى حقه ، فلما وقف عليه طلب ابن غازى منه الدعاء فدعا له بخير وانصرف ، فلما غاب عنه قال ابن غازى لأصحابه احفظوا وصيتى فانى راحل عنكم إلى الله تعالى بلاشك . قالوا له ياسيدى ماعندك بأس ، فقال إن الله وعدنى أن

لايقبض روحى حتى يرينى وليا من أوليائه وقدأرانيه الساعة فدلنى ذلك على انقضاء الأجل فحملوه من حينه إلى منزله ، فكان آخر العهد به ، وكانت وفاة ابن غازى أواخر جمادى الأولى سنة تسع عشرة وتسعمائة ، ولما حل أبوعبد الله الغزوانى بفاس امتحن بين يدى السلطان ، ثم بعد ذلك ظهر لهم صدق دعوته فى الولاية ، وقال له نحن نريد قربك وأن تكون معنا فى هذه المدينة ، فقال له على بركة الله ، فانتقل إلى فاس القديم وبنى خارج باب القليعة داخل باب الفتوح ، وأقام هنالك سبع سنين إلى أن كانت سنة تعذر فيها المطر وأخذ الناس فى استخراج السواقى للحرث ، فأخرج الشيخ من وادى اللبن ساقيـة لم يكن فى سواقى السلطان وغيره مثلها ، فبعث إليه أخو السلطان الناصر، وقال له نحن أحق بتلك الساقية، فقال له الشيخ خذها، وأخذ فى الرحيل إلى مراكش ولما توجه تلقاءها أخذ خنيفه فى يده وهو نوع من البرانس السود ، وجعل يشير به من جهة فاس إلى جهة مراكش ويقول أيا يا سلطنة إلى مراكش يشير إلى انتقال السلطنة عن بنى وطاس ملوك فاس إلى الشرفاء السعديين ملوك مراكش يومئذ .

نهوض السلطان أبى عبد الله الوطاسى إلى مراكش ومحاصرته أبا العباس الأعرج السعدى بها

كان ظهور الدولة السعدية ببلاد السوس سنة خمس عشرة وتسعمائة ، وما زال أمرهم فى الزيادة إلى أن كانت دولة أبى العباس الأعرج منهم ، فاستفحل أمره وبعد صيته وفتك بنصارى السوس فكاتبه أمراء هنتاتة أصحاب مراكش ودخلوا فى طاعته فانتقل إليها وملكها فى حدود الثلاثين وتسعمائة ، ولما اتصل خبره بالسلطان أبى عبد الله الوطاسى وهو يومئذ بفاس قامت قيامتـه ، وأقبل بجموع عديدة ، ولما رأى أبو العباس السعدى مالا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة ، فتقدم السلطان أبوعبد الله الوطاسى ونصب الانفاط على مراكش ، ودام الحصار عليها أياما ، فيحكى أنه قيل للشيخ أبى محمد الغزوانى ، وكان قد استوطن مراكش يومئذ إن أهل مراكش سئموا الحصار ، فركب الشيخ فى جماعة من أصحابه ، وخرج من باب فاس المعروف بباب الخميس فوجد رماة السلطان أبى عبد الله يرمون من على الأسوار من أهل البلد فوقف الشيخ ينظر فجاءت رصاصة ضربت صدره ، وخرقت الجبة التى عليـه ، والتصقت بلحمه كأنها وقعت فى صخرة صماء فقبض عليها بيده وقال هذه خاتمة حربهم ، ثم رجع إلى منزله فوردت الانباء على السلطان أبى عبد الله فى تلك الليلة بأن بنى عمه قد قاموا عليه بفاس ونبذوا دعوته ، فأصبح من الغد راحلا إلى فاس ، وظهر مصداق ماقال الشيخ الغزوانى رضى الله عنه ولم يعد لبنى وطاس وصول بعدها إلى مراكش ولا إلى أعمالها .

وكانت وفاة السلطان أبى عبد الله الوطاسى سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ، وولى الأمر من بعده أخوه أبو حسون بولاية عهده إليه ، وأبو حسون هذا هو أبو الحسن على بن محمد الشيخ الوطاسى ، ويعرف بأبى حسون البادسى ، بويع بفاس سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، ثم قبض عليه ولد أخيه أبو العباس أحمد بن محمد وخلعه ، وأشهد عليه بالخلع آخر ذى الحجة من السنة المذكورة

وبويع

وبويع أبو العباس هذا يوم خلع عمه أبى حسون آخر ذى الحجة متم سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ولما تم أمره توجه لمقاتلة أبى العباس الأعرج فتلاقى معه بتادلا وأحوازها ، وكانت بينهما معركة بموضع يقال له آنماى ، وذلك فى ذى القعدة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فافترقا على اصطلاح ، وآنماى موضع قرب مراكش به زاوية الشيخ أبى العزم سيدى رحال الكوش ، ولما رأى أهل المغرب ما وقع بين السلطان أبى العباس أحمد الوطاسى صاحب فاس ، وأبى العباس أحمد السعدى المعروف بالأعرج صاحب مراكش من التقاتل على الملك ، والتهالك عليه ، وفناء الخلق بينهم دخلوا فى الصلح بينهم ، والتراضى على قسمة البلاد ، وحضر لذلك جماعة من العلماء والصلحاء ، منهم أبو جعفر عمر الخطاب ، دفين جبل زرهون ، وأبو الرواين المحجوب دفين مكناسة الزيتون ، وكان صاحب حال وجذب فجعل الناس يوصونه بالسكوت مخافة أن يفسد عليهم أمرهم ، فلما دخلوا على أبى العباس الأعرج ، وأخيه وزيره محمد الشيخ ، وتكلموا فيما جاءوا لاجله ، وجدوا فيهما شدة وغلظة ، وامتنعا من مساعدتهم على ما أرادوا ، فحلف أبو حفص الخطاب لادخلوا فاس مادمت على وجه الأرض فما دخلوها حتى مات بعد مدة فكان بعضهم يقول : لو كان بنو وطاس يعرفون شيئا ما دفنوا أبا حفص الخطاب ، يعنى لتركوه فى تابوت على وجه الأرض لأنه حلف لايدخلوها مادام على وجه الأرض ، ثم إن الصلح انبرم بين الطائفتين على أن للاشراف من تادلا إلى السوس ، ولبنى وطاس من تادلا إلى المغرب الأوسط ، ثم بعد هذا لما طمى عباب السعديين على بلاد الحوز وكادوا يلجون على الوطاسيين دار ملكهم من فاس نهض إليهم السلطان أبو العباس الوطاسى أواخر سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة يجر الشوك والمدر فى جمع كثيف من الجند ، وقبائل العرب فى حللها وظعنها ، وجاء أبو العباس السعدى فى قبائل الحوز بحللها وظعنها كذلك فكان اللقاء بمشرع أبى عقبة من تادلا فنشبت الحرب ، وتقاتل الناس حتى أفنى بعضهم بعضا إلا قليلا ، ودامت الحرب أياما إلى أن كانت الهزيمة على الوطاسيين عشية يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة

وفى قرب سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة تغلب السلطان محمد الشيخ السعدى الملقب بالمهدى على أخيه أبى العباس الأعرج وانتزع منه الملك وسجنه ، ولما غلب على أخيه أبى العباس واستولى على مراكش طمحت نفسه للتوغل فى بلاد المغرب وقراه ، فتفرغ لحرب بنى وطاس ونكث ما كان بينه وبينهم من الصلح وردد إليهم البعوث والسرايا وأكثر فيهم من شن الغارات ، وصار يستلبهم البلاد شيئا فشيئا إلى أن استولى عليها ، وكان أول ما ملك من أمصار الغرب مكناسة الزيتون افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار ومقاتلة ، ثم تقدم إلى فاس فألح عليها بالقتال وضايقها بالحصار مدة قريبة من السنة ، ثم استولى عليها بعد ان أسر سلطانها أبا العباس الوطاسى وصار فى قبضته ، وكان دخوله أياها أوائل سنة ست وخمسين وتسعمائة ، ولما دخلها قبض على الوطاسيين أجمع ، وبعث بهم مصفدين إلى مراكش عدا أبا حسون المخلوع فانه فر إلى الجزائر إلى أن كان من أمره ما نذكره ، ثم ان السلطان السعدى أمر بقتل أبى العباس الوطاسى بمراكش فقتل مذبوحا قرب الستين وتسعمائة .

ولما فر أبو حسون هذا إلى ثغر الجزائر حقنا لدمه استجار بالأتراك على السعدى ، وكانت

الترك قد استولوا على المغرب الأوسط وانتزعوه من يد بنى زيان فلم يزل أبوحسون عندهم يحسن لهم بلاد المغرب الاقصى ويعظمها فى أعينهم ويقول إن المتغلب عليها قد سلبنى ملكى وملك آبائى فلو ذهبتم معى لقتاله لكنا نرجو الله تعالى أن يرزقنا الظفر به ولا تعدمون أنتم مع ذلك منفعة من ملء أيديكم غنائم وذخائر، ووعدهم بمال جزيل فأجابوه إلى ماطلب وأقبلوا معه فى جيش كثيف تحت راية باشاهم صالح التركمانى إلى أن اقتحموا حضرة فاس بعد حروب عظيمة ومعارك شديدة وفرّ عنها محمد الشيخ السعدى إلى منجاتة ، وكان دخول السلطان أبو حسون الوطاسى إلى فاس ثالث صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة ، ولما دخلها فرح به أهلها فرحا شديدا وترجل هو عن فرسه ، وصار يعانق الناس كبيرا وصغيرا وشريفا ووضيعا ويبكى على ما دهمه وأهل بيته من أمر السعديين واستبشر الناس بمقدمه وتيمنوا بطلعته واطمأنت به الدار ، ثم لم يلبث السلطان أبوحسون إلا يسيرا حتى كثرت شكاية الناس إليه من الترك وأنهم مدّوا أيديهم إلى الحريم وعاثوا فى البلاد فبادر بدفع ما اتفق معهم عليه من المال وأخرجهم عن فاس وتخلف بها منهم نفر يسير .

مجىء السلطان محمد الشيخ السعدى إلى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل السلطان أبى حسون

لما فرّ السلطان محمد الشيخ السعدى من وقعة الأتراك بفاس وصل إلى مراكش فاستقرّ بها وصرف عزمه لقتال أبى حسون ، فأخذ فى استنفار القبائل وانتخاب الأبطال وتعبئة العساكر والأجناد ، فاجتمع له من ذلك ما اشتدّ به أزره وقوى به عضده ، ثم نهض بهم إلى فاس ، فخرج إليه السلطان أبوحسون فى رماة فاس وما انضاف إليهم من جيش العرب ، فكانت الهزيمة على أبى حسون فرجع إلى فاس وتحصن بها ، فتقدّم الشيخ السعدى وحاصره إلى أن ظفر به فى وقعة كانت بينهما بالموضع المعروف بمسلة فقتله واستولى على حضرة فاس وصفا له أمرها ، وكان استيلاؤه عليها يوم السبت الرابع والعشرين من شوّال سنة إحدى وستين وتسعمائة .

وبمقتل السلطان أبى حسون انقرضت الدولة المرينية بالمغرب ـ والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

كيفية انقراض أواخر ملوك تلمسان

كانت دولة بنى زيان على ما علمت من الاضطراب سائر أيام بنى مرين ، وكان منهم فى صدر المائة التاسعة السلطان الواثق بالله من أمثل ملوكهم ، وغلبهم على تلمسان فى تلك المدّة السلطان أبو فارس عبد العزيز الحفصى فأخذوا بطاعته ثم بعد موته سنة سبع وثلاثين وثمانمائة اعتزوا بعض الشىء إلى أن كانت دولة السلطان أبى عمرو الحفصى ، فغزا تلمسان أعوام السبعين وثمانمائة مرتين ، وفى الثانية هدم أسوارها وعزم على استئصال أهلها إلى أن تشفع إليه علماؤها وصلحاؤها فعفا عنهم ، وبقيت حال بنى زيان متماسكة إلى أن ظهر جنس الاصبنيول فى صدر المائة العاشرة بعد ماتمّ له ملك الاندلس وعظمت شوكته فطمح للتغلب على ثغور المغربين الادنى والاوسط ،

فاستولى على بجاية سنة عشر وتسعمائة ثم على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة وفعل بأهلها الأفاعيل ثم سما لتملك الجزائر وشره لالتهامها ، وضايق المسلمين فى ثغورهم ، وضعف بنو زيان عن مقاومته .

وكان الشيخ الفقيه الصالح أبو العباس أحمد الزواوى ممن له الشهرة والوجاهة الكبيرة فى بسائط المغرب الأوسط وجباله ، وكانت دولة العثمانية من الترك فى هذه المدّة قد زخر عبابها وملكت أكثر المسكونة ، وظهر من قوّاد عساكرها البحرية قائدان عظيمان ، وهما خير الدين باشا وأخوج عروج باشا ، وكانا قد تابعا الغزو على بلاد الكفر برّا وبحرا ، وأوقعا بأهل دول أوربا وقائع شهيرة ، وطار لهم ذكر فى أقطار البلاد ، وتمكن ناموسهم من قلوب العباد ، فكاتبهم الفقيه أبو العباس المذكور ، وعرّفهم بما المسلمون فيه من مضايقة العدوّ الكافر ، وقال إن بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو للذئب ، فأقبل الترك نحوه مسرعين ، واستولى عروج باشا على ثغر الجزائر بعد ما كاد العدوّ يملكه فتخلصه منه ، ثم استولى على تلمسان وغلب بنى زيان على أمرهم ، وذلك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ثم إن أهل تلمسان أنكروا سيرة الترك ، وسئموا ملكتهم ، ويقال إن الترك عسفوهم وصادروهم على أموالهم ، وكان عروج قد أغرى بالفقيه أبى العباس المستدعى له ، فقتل شهيدا بعد الثلاثين وتسعمائة ، ورأى عروج أن أمر المغرب الأوسط لا يصفو له مع وجود الفقيه المذكور ، فدسّ عليه من قتله ، ثم نهض عروج إلى بنى زيان ، فكانت الكرّة عليه وقتل هنالك مع جماعة من وجوه عسكره وتفرّقت جموعه ، وعادت تلمسان إلى بنى زيان ، فجدّدوا بها رياستهم إلى أن عاود الترك غزوها بعد حين وانتزعوها من يد صاحبها أبى العباس أحمد بن عبد الله بن أعقاب يغمراس بن زيان ، وكان ذلك أواسط شعبان سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة ، واستمرّت تلمسان فى يد الترك إلى أواسط المائة الثالثة عشر ، فاستولت عليها الدولة الفرنسية .

الخبر عن دولة السعديين

وأوّلهم الأمير أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله ، نشأ على عفاف وصلاح وحج البيت الحرام وكان مجاب الدعوة ، ولقى جماعة من العلماء الأعلام ، وسبب قيامه أن أهل السوس أحاط بهم العدوّ الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة حتى أظلم الجوّ ، واستحكمت شوكة البرتغال وبقى المسلمون فى أمر مريج لعدم أمير تجتمع عليه كلمة الاسلام لأن بنى وطاس فشلت ريحهم يومئذ فى بلاد السوس ، وإنما كان لهم الملك فى حواضر المغرب ، ولم يكن لهم منه بالسوس إلا الاسم مع ما كانوا فيه من قتال العدوّ بطنجة وآصيلا وغيرهما من بلاد الهبط ، فلما رأى قبائل السوس مادهمهم من تفاقم الأحوال ، وكثرة الأهوال ، وطمع العدوّ فى بلادهم ذهبوا إلى الشيخ الصالح أبى عبد الله محمد بن مبارك الأقاوى ، فذكروا له ماهم فيه من افتراق الكلمة ، وانتشار الجماعة ، وكلب العدوّ على مباكرتهم بالقتال ، وطلبوا منه أن يعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه ، فامتنع من ذلك ، ودلهم على ابن عبد الله القائم بأمر الله ذلك سنة خمس عشرة وتسعمائة لما اجتمعت كلمة القبائل

السوسية عليه ندب الناس إلى مقارعة البرتغال وجهاده ونفيه عن ثغور المغرب و بلاده ، وكانت معه يومئذ جموع حافلة من المسلمين فقصدوا النصارى وناوشوهم الحرب ، فأتاح الله للأمير أبى عبد الله الفتح والنصر ، ونثر أشلاء الكفار بمخالب الظفر ، وأخرج حية البغى من جحرها ، وأعاد كلمة الاسلام إلى مقرّها ؛ فلما رأى المسلمون ذلك تيمنوا بطلعته ، وتفاءلوا بطائره الميمون ونقيبته وزادهم ذلك محبة فى جانبه ، وتعظيما فى مكانته .

ولما فصل من جهاده ارتحل إلى درعة فلم يزل مقيما بها إلى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، ثم ارتحل إلى بلاده تيدسى ، وندب الناس إلى بيعة أكبر ولديه ، وهو الأمير أبو العباس أحمد المعروف بالأعرج فبايعوه ، وذلك سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، ثم إن أبا عبد الله القائم وفد عليه أشياخ حاحة والشياظمة لما بلغهم من حسن سيرته ونصرة لوائه فشكوا إليه أمر البرتغال ببلادهم وشدّة شوكته ، وطلبوا منه أن ينتقل إليهم هو وولده ولىّ العهد المذكور ، فأجابهم إلى ذلك ، ونهض معهم هو وابنه أبو العباس إلى الموضع المعروف بافغال من بلاد حاحة ، وترك ولده الأصغر أبا عبد الله الشيخ بالسوس يرتب الأمور ، ويمهد الكلمة ، و يباكر العدوّ بالقتال و يراوحه ، واستمر الأمير أبو عبد الله القائم بمكانه من افغال مسموع الكلمة متبوع العقب إلى أن توفى به سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ودفن هنالك بازاء ضريح الشيخ أبى عبدالله محمد بن سليمان الجزولى رضى الله عنه إلى أن انتقل إلى مراكش بنقل الشيخ المذكور .

وقام بالأمر بعده ابنه أبو العباس أحمد الأعرج السعدى ، واجتمع الناس على بيعته من سائر الأفق عن رضا منهم ، فاستقام أمره وصرف عزمه إلى تمهيد البلاد ، واقتناء الأجناد ، وتعبئة الجيوش إلى الثغور ، وشنّ الغارات على العدوّ فى الآصال والبكور فى أحواز آسفى وغيرها ، وكان النصارى قد خيموا على شاطئ البحر ، وعاثوا فى تلك السواحل فأجلاهم عنها ، وطهر تلك البقاع من رجسهم ، وأراح أهلها من شؤمهم ونحسهم ، ثم انتقل إلى مراكش ، فدخلها فى فى حدود الثلاثين وتسعمائة واستولى عليها ، ولما صفا له أمرها اتصل خبره بصاحب فاس أبى عبد الله الوطاسى ، فكان معه ما ذكرناه سابقا .

حدوث النفرة بين الأخوين السلطان أبى العباس الأعرج ووزيره أبى عبد الله الشيخ

كان السلطان أبو العباس رحمه الله من الشهامة بالمحل الاقصى ، وكان أخوه أبو عبد الله الشيخ أصغر منه سنا ، وكان تحت طاعته ، واقفا عند إشارته ، وكان السلطان أبو العباس يستشيره فى أموره ، ويفاوضه فى مهماته ، ويستعين بنجدته فى الزحوف والمعارك ، ويستضىء برأيه فى الحوادث الحوالك ، وكان الشيخ ثاقب الذهن ، نافذ البصيرة ، مصيب الرأى ، حازما شهما ، فكانت كلمتهما واحدة وأمرهما جميعا ، إلى أن دخل الوشاة بينهما ، فأفسدوا قلوبهم ، وأفضى الحال إلى المقاتلة ، وانقسم الجند حزبين ، وانصرفت كل طائفة إلى متبوعها وتقاتلا مدة وكان جلّ القبائل السوسية صاغية إلى الشيخ لما كان نشأ بين أظهرهم ، وعلموا من نجابته منذ

تركه أبوه عندهم عند انتقاله إلى أفغال حسبما مرّ ، فاستفحل أمره ، وغلب على أخيه أبى العباس فقبض عليه واستولى على مابيده ، واجتمعت كلمة أهل السوس عليه ، ثم أودع أخاه وأولاده السجن ، ووسع عليهم فى الجرايات والنفقات ، وأصبح ملكا مستقلا بعد أن كان وزيرا ، وكان ذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة ، ولم يزل السلطان أبو العباس وأولاده فى حكم الثقاف إلى أن قتل ، وكانت دولته من يوم بويع إلى أن قبض عليه أخوه ثلاثا وعشرين سنة .

الخبر عن دولة السلطان أبى عبد الله محمد المعروف بالشيخ السعدى

كانت ولادته سنة ست وثمانمائة، نشأ فى عفاف وصيانة ، وعنى بالعلم فى صغره ، وتعلق بأهدابه فأخذ عن جماعة من الشيوخ ، وبلغ فيه إلى درجة الرسوخ ، ولما استقل بأمر السوس ، واجتمعت كلمته عليه صرف عزمه إلى جهاد العدوّ الذى بثغوره وحصونه فانتصر عليهم وقطع من تلك النواحى دابرهم ، وكان له سعد عظيم فى الجهاد ويد بيضاء فى الاسلام ، فتح حصن النصارى بالسوس بعد ان أقاموا فيه اثنتين وتسعين سنة ، وكان سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، وفتح آسفى سنة ثمان وأربعين بعدها ، وهو أوّل من اختطّ مرسى آكادير بالسوس الأقصى سنة سبع وأربعين وتسعمائة لما أجلى النصارى منها .

استيلاؤه عَلَى مراكش وتجديد البيعة له بها

لما قبض على أخيه واستقلّ بالأمر مقيما بالبلاد السوسية على جهاد العدوّ إلى أن قلع عروق مفسدته منها ، وكانت مراكش فى هذه المدّة قد توقفت عن بيعته ، وتربصت عن الدخول فى دعوته ، اتقاء للوطاسيين وارتياء فى أمره إلى ماذا يؤول ، واستمرّ الحال إلى سنة إحدى وخمسين وتسعمائة ، فانقادت له حينئذ وبايعه أهلها فقدمها واستولى عليها ، وخلص له جميع ما كان بيد أخيه المخلوع .

نهوضه لحرب بنى وطاس واستيلاؤه عَلَى مكناسة وغيرها

لما استولى على مراكش وصفت له أعمالها طمحت نفسه للاستيلاء على بقية بلاد المغرب وأمصاره ، وقطع جرثومة الوطاسيين من سائر أقطاره ، فجمع الجموع وتقدم بها إلى أعمال فاس ، فلم يزل يستفتحها بلدا بلدا إلى أن أتى عليها أجمع ، وكان أوّل ماملك منها مكناسة الزيتون فانه افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار وقتال كبير .

حصاره حضرة فاس ومقتل الشيخ عبد الواحد الوانشريسى رحمهُ الله

كان السلطان أبو عبد الله الشيخ قد ألحّ على فاس بالقتال وحاصرها حصارا طويلا ، ولما عسر عليه أمرها بحث عن ذلك ، فقيل له لاسبيل لك إليها ، ولا يبايعك أهلها إلا إذا بايعك الوانشريسى ، فبعث إليه السلطان سرّا ووعده ومناه ، فقال له الشيخ عبد الواحد بيعة هذا السلطان يعنى أبا العباس الوطاسى فى رقبتى ، ولا يحلّ لى خلعها إلا لموجب شرعى وهو غير

موجود ، فكتب السلطان إلى أهل فاس يقول لهم : إن دخلت فاس صلحا ملأتها عدلا ، وإن دخلتها عنوة ملأتها قتلا ، فأجابه الونشريسى بقوله :

كذبت وبيت الله ماتحسن العدلا ✲ ولا علم الرحمن من قولك الفصلا
وما أنت إلا جاهــل ومنافــق ✲ تمثل للجهال فى الســنة المثلى

ولما بلغ ذلك السلطان أباعبدالله الشيخ حقدعلى الونشريسى ، ودسّ إلى جماعة من المتلصصة بأن يأخذوه و يأتوا به إلى محلته محبوسا من غير قتل ، وكان الشيخ عبد الواحد يقرأ صحيح البخارى بجامع القرويين بين العشاءين ، فقال له ابنه يا أبت إنى قد سمعت ان اللصوص أرادوا الفتك بك فى هذه الليلة فلو تأخرت عن القراءة ، فقال له الشيخ أين وقفنا البارحة ؟ قال على كتاب القدر. قال فكيف نفرّ من القدر إذن ؟ اذهب بنا إلى المجلس ، فلما افترق المجلس خرج الشيخ عبد الواحد من باب الشماعين أحد أبواب المسجد المذكور ، فثار به اللصوص وأرادوا حمله ، فأخذ باحدى عضادتى الباب ، فضرب أحدهم يده فقطعها وأجهز عليه الباقون فقتلوه بباب المسجد المذكور فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة خمس وخمسين وتسعمائة ، ثم إن السلطان أبا عبد الله الشيخ جدّ فى حصار فاس وألحّ عليها بالقتال إلى أن ملكها واحتوى عليها ، ولما ألحّ عليها بالحصار جاءه الشيخ أبو الرواين العيساوى ، وقال له اشتر منى فاس بخمسمائة دينار، فقال له السلطان ما أنزل الله بهذا من سلطان ، هذا شىء لم تأت به الشريعة ، فقال والله لادخلتها هـذه السنة ، فبقى أشهرا ولا يزداد الأمر إلا شدّة ، فقال ابن السلطان وهو الأمير أبو محمد عبد القادر لأبيه يا أبت افعل ما قال لك الشيخ أبو الرواين فانه رجل مبارك من أولياء الله تعالى ، ولم يزل به حتى أذن له فى الكلام معه فكلمه الامير عبد القادر ، فقال له ادفع المال فدفعه إليه ، فقال له عند تمام السنة يقضى الله الحاجة وأمرى بأمره سبحانه وتعالى ، ثم إن الشيخ أبا الرواين فرّق المال من يومه ، ولم يمسك منه لنفسه حبة ، ومن ذلك اليوم والسلطان المذكور فى الظهور إلى أن انقضت السنة ، فدخل فاس كما قال صاحب ممتع الاسماع ، والشيخ أبو الرواين هو السبب فى تمكن السلطان المذكور من الملك واخراج بنى وطاس عنه ، فانه لما رأى اضطراب أمر الناس وهيجان النصارى على المسلمين جعل ينادى يا حرّان جىء فانى قد أعطيتك الغرب ، وذلك قبل ظهور السعديين ، ولم يكن الناس يدرون مايقول حتى ظهر الحران وهو أبو عبد الله الشيخ هذا ، وكان دخوله إلى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة ، ولما دخلها قبض على الوطاسيين أجمع ، و بعث بهم مصفدين إلى مراكش عدا أبا حسون حسبما قدّمنا .

وضع الوظيف المسمى فى لسان العامة بالنائبة

أوّل من وضع الخراج على أرض المغرب عبد المؤمن بن على الموحدى وتبعه بنوه على ذلك وقفا نهجهم بنو مرين ، ولما جاء السعديون من بعـدهم سلكوا هذا السبيل أيضا ، وأوّل من أحدثها على هذا الوجه منهم السلطان أبو عبد الله الشيخ ، وذلك حين صفا له أمر المغرب ففرض على قبائل المغرب الضريبة ، ولم ينزه عنها شريفا ولا مشروفا حتى أرباب الزوايا والمنتسبين ، وكان

قدر هذه الضريبة صحفة من الشعير وعشرين مدّا من القمح لكل ضريبة ، وصاعا من السمن وكبشا لكل أربع ضرائب ، وكانت تفرض فى زمان الشيخ على الكوانين وتوظف على حسب السكان وتدفع بأعيانها ، وجرى على ذلك ولده الغالب بالله وأخوه المعتصم ، ولما جاء المنصور من بعدهم قوّم تلك الأعيان بسعر الوقت ، وصارت تدفع دراهم ، ثم ازداد ذلك إلى أن خرج الأمر عن القياس ، واتسع الخرق على الراقع .

سبب مقتل أبي عبد الله الشيخ رحمهُ الله

كان السلطان الشيخ يقول: لابدّ لى أن أغزو مصر وأخرج الترك من أجحارها ، وكان يطلق لسانه فى السلطان سليمان العثمانى ، فأنهى ذلك إلى السلطان سليمان ، فبعث إليه رسوله يهنئه بالملك ويلتمس منه الدعاء له على منابر المغرب ، ولما وصل إليه أنزله على كبير الأتراك فى محلته صالح باى وكان هؤلاء الأتراك قد انحاشوا إلى الشيخ من بقايا القادمين مع أبي حسون الوطاسى فضمهم إليه وجعلهم جندا على حدة ، ولما قرأ السلطان أبو عبد الله الشيخ كتاب السلطان سليمان ووجد فيه أنه يدعو له على منابر المغرب ، ويكتب اسمه على سكته كما كان بنو وطاس حمى وأبرق وأرعد ، وأحضر الرسول وأزعجه ، فطلب منه الجواب ، فقال لا جواب لك عندى حتى أكون بمصر إن شاء الله ، وحينئذ أكتب لسلطان القوارب ، فخرج الرسول من عنده مذعورا يلتفت وراءه إلى أن وصل إلى القسطنطينية ، فاجتمع بالصدر الأعظم ، وأخبره بما لقى من سلطان المغرب ، فأنهى الصدر ذلك إلى السلطان سليمان ، فأمره أن يهيئ العمارة والعساكر لغزو المغرب ، فاجتمع أهل الديوان وكرهوا توجيهها ، واتفق رأيهم على أن يعينوا اثنى عشر رجلا من فتاك الترك ، وبذلوا لهم قدرا كبيرا من المال ، وكتبوا لهم كتابا إلى صالح باى كبير عسكر الشيخ ، ووعدوه بالمال والمنصب إن هو نصح فى اغتيال الشيخ وتوجيه رأسه مع القادمين عليه ، ثم دخل الصدر على السلطان سليمان ، واعتذر إليه عن توجيه العمارة ، وقال هذا أمر سهل لايحتاج فيه إلى تقويم عمارة ، وهذا المغربى الذى أساء الأدب على السلطان يأتى رأسه إلى بين يديك ، فاستصوب رأيهم وشكر سعيهم ، وأمر بتوجيه الجماعة المعينة فى البحر إلى الجزائر ، ومنها يتوجهون إلى مراكش فى البرّ ففعلوا ، ولما وصلوا إلى الجزائر هيئوا أسبابا واشتروا بغالا ، وساروا إلى فاس فى هيئة التجار ، فباعوا بها أسبابهم ، وتوجهوا إلى مراكش ، ولما اجتمعوا بصالح باى أنزلهم عنده ، ودبر الحيلة فى أمرهم ، فدخل على السلطان أبي عبد الله الشيخ ، وقال يا مولاى ان جماعة من أعيان جند الجزائر سمعوا بمقامنا عندك ومنزلتنا منك ، فرغبوا فى جوارك ، والتشرف بخدمتك وليس فوقهم من جند الجزائر أحد ، وهم إن شاء الله السبب فى تملكها ، فأمره بادخالهم عليه ، ولما مثلوا بين يديه رأى وجوها حسانا وأجساما عظاما فأكبرهم ثم ترجم له صالح كلامهم فأفرغه فى قالب المحبة والنصح والاجتهاد فى الطاعة والخدمة حتى خيل إلى الشيخ أنه قد حصل على ملك الجزائر فأمره باكرامهم ، وأن يعطيهم الخيل والسلاح ، ويكونوا يدخلون عليه معه كلما دخل فكانوا يدخلون عليه كل صباح لتقبيل يده على عادة الترك فى ذلك ، وصار الشيخ يبعث بهم إلى أشياخ السوس مناوبة فى الأمور المهمة ليتبصروا فى البلاد ويعرفوا الناس ، وكان يوصى الأشياخ

باكرام من قدم عليهم منهم ، واستمرّ الحال إلى أن أمكنتهم فيه الفرصة وهو فى بعض حركاته بجبل درن بموضع يقال له آكلكال بظاهر تارودانت ، فولجوا عليه خباءه ليلا على حين غفلة من العسس ، فضربوا عنقه بشاقور ضربة أبانوا بها رأسه واحتملوه فى مخلاة ملئوها نخالة وملحا ، وخاضوا به أحشاء الظلمات ، وسلكوا طريق درعة وسجلماسة كأنهم أرسال تلمسان لئلا يفطن بهم أحد من أهل تلك البلاد ، ثم أدركوا ببعض الطريق ، فقاتلت طائفة منهم حتى قتلوا ، ونجا الباقون بالرأس ، ولما شاع الخبر بأن الترك قتلوا السلطان ، واستراب الناس بجميع من بقى منهم بالغرب أغلق إخوانهم الذين كانوا بتارودانت أبوابها ، واقتسموا الأموال ، واستعدوا للحصار ، إلى أن قتلوا جميعا .

وأما الذين نجوا بالرأس فانتهوا إلى الجزائر وركبوا البحر منها إلى القسطنطينية ، فأوصلوا الرأس إلى الصدر الأعظم ، وأدخله على السلطان سليمان ، فأمر به أن يجعل فى شبكة نحاس ، ويعلق على باب القلعة فبقى هنالك زمانا ، وكان مقتل الشيخ رحمه الله يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة .

ولما بلغ خبر مقتله إلى خليفته بمراكش القائد أبى الحسن آزناك بادر بقتل أبى العباس الأعرج المخلوع وأولاده ذكورا وإناثا كبارا وصغارا خشية أن يخرجه أهل مراكش فيبايعوه ، ولما قتلوا لم يتجرأ أحد على دفنهم ، فبقوا مصرعين حتى دفنهم الشيخ أبو عمرو القسطلى الولىّ الشهير بمقربة من ضريح الشيخ الجزولى ، وهى القبة التى قرب الضريح المذكور تسمى قبور الأشراف وأما السلطان أبو عبد الله الشيخ فانهم حملوا جثته إلى مراكش ، فدفنت بها قبلى جامع المنصور بروضة السعديين ، وقبره شهير بها الآن .

وقام بالأمر بعده ابنه أبو محمد عبد الله الغالب بالله السعدى ، وكانت ولادته فى رمضان سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، واستقام له أمر المغرب ، وتمهد له ملك أبيه ، وكان ذلك كله فى المحرم سنة خمس وستين وتسعمائة .

وفى جمادى الأولى من هذه السنة غزاه حسين بن خير الدين باشا التركى صاحب تلمسان فى جيش كثيف من الأتراك ، فخرج إليه السلطان الغالب بالله ، فالتقيا بمقربة من وادى اللبن من عمالة فاس ، فكانت الدائرة على حسن ، فرجع منهزما يطاب صياصى الجبال إلى أن بلغ إلى باديس ، وكانت يومئذ للترك ، ورجع الغالب إلى فاس .

بناء جامع المواسين بحضرة مراكش والسقاية المتصلة به

قال الافرانى وفى عشرة السبعين وتسعمائة أنشأ السلطان الغالب بالله جامع الأشراف بحومة المواسين من مراكش والسقاية المتصلة به التى عليها مدار الحومة المذكورة ، وهذا السلطان هو الذى جدّد أيضا بناء المدرسة التى بجوار جامع ابن يوسف اللمتونى ، وليس هو الذى أنشأها بل الذى أنشأها هو السلطان أبو الحسن المرينى رحمه الله .

وفادة السلطان الغالب بالله عَلَى الشيخ أَبى العباس

سيدى أَحمد بن موسى السِّملالى

حكى صاحب الممتع أن السلطان أبا محمد عبد الله الغالب بالله قال للاستاذ أبى عبد الله الترغى انى أجد فى نفسى إرادة وطلبا للشيخ فامض فاطلب لى شيخا ، فذهب يطوف على مشايخ المغرب ، وكانوا إذ ذاك متوفرين حتى أتى على الشيخ أبى العباس سيدى أحمد بن موسى الجزولى السملالى، فوجده شيخا جليلا سنيا متواضعا زاهدا ظاهر الورع ، حسن الأخلاق ، باهر الكرامات واضح الطريقة ، فرجع إليه ، وجعل يصف له كل من رأى من المشايخ بما ظهر له فيه حتى أتى على الشيخ المذكور ، فقال وهو ولىّ ثم ولىّ ثم ولىّ سبعا ، فقال له كأنك تدلنى عليه وأنه مطلوبى وأنه لمقدم على غيره ، فقال له لا أدلك عليه ولا عندى ما أعرف به تقديمه غير أن هذا الذى ظهر لى ، فأزمع السلطان الغالب بالله الرحلة اليه ، فلما بلغ الشيخ المذكور مجىء السلطان إليه خرج يتلقاه وقد هيأ له النزل وما يصلح له ، وأعدّ له ما يناسبه من الأطعمة الرفيعة النفيسة ، وقدم إليه التمر الجيد واللبن الحليب وخرج للقائه ، فلما لقيه رجع به معه وأنزله عنده ، فمكث فى ضيافته ثلاثة أيام ، ثم طلب منه أن يتخذه وسيلة إلى الله تعالى ، وسأله مع ذلك تمهيد الملك ، واعتذر إليه بأنه لايمكنه العيش بدونه ، ولا يأمن على نفسه ، ولا تؤويه أرض إذا هو تخلى عنه ، فقال الشيخ يا عرب يا بربر يا سهل يا جبل أطيعوا السلطان مولاى عبد الله ولا تختلفوا عليه ، ثم بعد الثلاث انصرف السلطان إلى محله ، فبقى مدّة وهو مسكن ممهد الملك فى عافية ، ثم أتى الترك إلى بوغاز طنجة وسبتة ، فخافهم وتشوّش منهم كثيرا ، ولم يهنأ له عيش ، فجعلت حاشيته يهوّنون عليه أمرهم ، فقال دعونى منكم حتى أستقى من رأس العين ، ثم وجه رسولا إلى الشيخ ، فلما انتهى إليه سمعه يقول : ياترك ارجعوا إلى بلادكم ، ويا مولاى عبد الله هناك الله فى بلادك بالعافية فتقدم الرسول وسلم على الشيخ وبلغه سلام السلطان ، ثم انقلب من فوره بعد ما أرخ وقت سماع مقالته ، فلما بلغ إلى السلطان أخبره بما كان من الشيخ من تلك المقالة ، وما كان منه من التاريخ، وأقاموا ينتظرون ما يكون ،فاذا الخبر قد ورد على السلطان بأن الترك قد ارتحلوا وانصرفوا إلى بلادهم ، وإذا ارتحالهم كان وقت مقالة الشيخ المذكور .

ثم إن الشيخ قدم مراكش فى بعض الأيام زائرا من كان بها من أهل الله تعالى ، فرغب إليه السلطان الغالب بالله أن يدخل داره هو وأصحابه ، ويصنع لهما طعاما ، وشرط على نفسه أن لايطعمهم إلا الحلال، ولا يطعمهم مافيه شبهة ، وحلف للشيخ على ذلك فأسعفه ، ولما حضر الطعام وضع الشيخ يده عليه ولم يأكل منه ، فلما خرج قيل له مالك لا تتناول من طعام السلطان وقد حلف أن لايطعمكم إلا الحلال ؟ فقال له من أكل طعام السلطان وهو حلال أظلم قلبه أربعين يوما ، ومن أكله وفيه شبهة مات قلبه أربعين سنة اه .

توفى السلطان أبو محمد عبدالله الغالب بالله رحمه الله يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان سنة إحدى وثمانين وتسعمائة بسبب غمّ كان يعتريه ، وهذا الغم هو الداء المسمى عند العامة

بالضيقة ، أعاذنا الله منه ، ودفن عند ضريح أبيه بقبور الأشراف وقبره معروف .

وقام بالأمر بعده أبو مروان عبدالملك المعتصم بالله بن محمد الشيخ فى التاريخ المتقدم ، وتوفى فى زوال يوم الاثنين منسلخ جمادى الأولى سنة ست وثمانين وتسعمائة بغزوة وادى المخازن من بلاد الهبط ، وحمل إلى مراكش فقبر بها ، وكانت مدة خلافته أربع سنين .

وغزوة المخازن هذه قد بسطنا الكلام عليها فى كتابنا [الاستبصار ، فى ذكر حوادث الأعصار]

وقام بالأمر بعده أبو العباس أحمد المنصور بالله السعدى المعروف بالذهبى ابن السلطان أبى عبد الله الغالب بالله ، وبويع بعد الفراغ من قتال النصارى بوادى المخازن يوم الاثنين منسلخ جمادى الأولى سنة ست وثمانين وتسعمائة ، وتوفى ليلة الاثنين من ربيع النبوى سنة اثنتى عشرة وألف ، وقد استوفينا ترجمته فى [نزهة المالك والمملوك]

وقام بالأمر بعده ولده زيدان بن أحمد المنصور ، وذلك يوم الاثنين السادس عشر ربيع الأول سنة اثنتى عشرة وألف بحضرة فاس ، ولما وصلت البيعة لأهل مراكش امتنعوا وبايعوا أخاه أبا فارس لكونه كان مستخلفا بها فى حياة أبيه ، وكانت بيعته بمراكش يوم الجمعة أواخر ربيع الأول من سنة اثنتى عشرة وألف ، واسم أبى فارس هذا عبد الله وتلقب بالواثق بالله ، وكان أكولا عظيم البطن مصابا بمس الجن ، ويقال انه لذلك ابتنى المسجد الجامع بجوار ضريح الشيخ أبى العباس السبتى رضى الله عنه ، وشيد مناره ، وشحن الخزانة التى بقبلى الجامع المذكور بمنتخب الكتب ونفيس الدفاتر ، كل ذلك رجاء أن تعود عليه بركة الشيخ بالبرء من تلك العلة ، وكان مع ذلك يميل إلى المروءة والرفق وحسن السيرة رحمه الله ، ثم إن السلطان زيدان نهض لحرب أبى فارس فانهزم بأم الربيع ، ثم فرّ إلى تلمسان ، ثم قام عليه بعده ابن عمه محمد الشيخ المأمون ، وكان عدد جيشه ثمانية آلاف ، وأمّر عليه ولده عبد الله ، فسار بجيوشه فوجد أبا فارس بمحلته فى موضع يقال له اكليم ، فوقعت الهزيمة على أبى فارس ونهبت محلته ، وفرّ هو بنفسه إلى بلد مسفيوة ، ودخل عبد الله ابن الشيخ مراكش ، فأباحها لجيشه ، فنهبت دورها ، واستبيحت محارمها ، واشتغل هو بالفساد ☆ ومن يشابه أبه فما ظلم ☆ حتى حكى أنه زنى بجوارى جده المنصور واستمتع بحظاياه ، وأكل فى رمضان ، وشرب الخمر فيه جهارا ، وكان دخوله مراكش فى العشرين من شعبان سنة خمس عشرة وألف ، ثم إن السلطان زيدان لما فرّ من فاس إلى تلمسان أقام بها مدة ، وكان قد بعث إلى ترك الجزائر يستمدهم ويستعديهم على أخويه فأبطئوا عليه ، فلما يئس منهم توجه إلى سجلماسة فدخلها من غير قتال ، ثم انتقل عنها إلى درعة ، ومنها إلى السوس فكتب إليه أهل مراكش وقد ندموا على مافرطوا فيه من أمره والدخول فى طاعته أن يأتيهم ولو وحده فتوجه إليهم ودخل عليهم ليلا ، فلم يفجأ عبد الله ابن الشيخ إلا نداء أهل مراكش بنصر السلطان زيدان ، وتحزبوا معه ، وقتلوا من قتلوا ، وخرج عبد الله فارًا بجموعه من أهل فاس والغرب ، فحاصرهم أهل مراكش بين الأسوار والجنات ، وقتلوا من أصحاب عبد الله بموضع يعرف بجنان بكار نحو الخمسة آلاف وخمسمائة ، وأمر زيدان بقتل كل من تخلف عن عبد الله

من

من جيشه ، فأتى القتل على جميع من وجد بمراكش من جيش أهل فاس ، وذلك فى أواخر سنة خمس عشرة وألف ، وفرّ عبد الله بن الشيخ ناجيا بنفسه حتى قدم على أبيه بفاس فى أسوأ الحالات ، فلما رأى أبوه ذلك قامت قيامته ، ورأى أن يهيئ عسكرا آخر ويجدّد جمعا ثانيا ، فهيأ ولده عبد الله للمسير إلى مراكش ، فخرج بجموع عديدة وجيوش حفيلة ، ولما بلغ خبره السلطان زيدان بعث إليه جيوشا كثيرة ، وذلك فى شعبان سنة ست عشرة وألف ، فالتقى الجمعان بموضع على طريق سلا ، فوقعت الهزيمة على جيش زيدان ، وقتل من جيش مراكش نحو القمعة آلاف ، ثم توجه عبد الله إلى مراكش ، فبرز إليه أهلها فى ستة وثلاثين ألف مقاتل ، والتقى الجمعان بموضع يقال له رأس العين ، فانهزم أهل مراكش ، وتقدم عبد الله ابن الشيخ فاقتحمها بجيشه ، وفرّ زيدان إلى الجبال الشامخة ، فبقى متنقلا هنالك إلى أن كان من أمره ما نذكره .

ولما دخل عبد الله ابن الشيخ مراكش واستولى عليها فعل بها أعظم من فعلته الأولى ، وهربت شرذمة من أهل مراكش إلى جبل جيليز ، واجتمع هنالك منهم عصابة من أهل النجدة والحية ، واتفق رأيهم على أن يقدموا للخلافة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد ابن الشيخ وكان رجلا خيرا دينا وقورا ، فبايعه أهل مراكش هنالك والتفوا عليه ، فخرج عبد الله ابن الشيخ لقتال من بجبل جيليز والقبض على أميرهم المذكور ، ولما التقى الجمعان انهزم عبد الله وولى أصحابه الأدبار ، فخرج من مراكش منهزما سادس شوّال سنة ست عشرة وألف ، وترك محلته وأنفاضه وعدته وجلّ الجيش ، وأخذ على طريق تامسنا إلى أن وصل إلى فاس فى الرابع والعشرين من شوّال من السنة المذكورة .

وأما محمد بن عبد المؤمن فانه لما دخل مراكش واستولى عليها صفح عن الذين تخلفوا بها من من أهل الغرب من جيش عبد الله ابن الشيخ وأعطاهم الراتب فلم يعجب ذلك أهل مراكش ونقموا عليه إبقاءه عليهم ، وكانوا نحو الألف ونصف ، فكتبوا سرّا إلى السلطان زيدان بالجبل فأتاهم وخيم نازلا بظاهر البلد ، فخرج محمد بن عبد المؤمن إلى لقائه ، فانهزم ابن عبد المؤمن ، ودخل السلطان زيدان مراكش ، واستولى عليها وصفح هو أيضا عن الفيئة المتخلفة عن عبد الله ابن الشيخ ، ثم نهض إلى فاس فاستولى عليها بعد قتال كبير ، وأقام بها إلى أن دخلت سنة ثمان عشرة وألف ، فاتصل به خبر قيام بعض الثوّار عليه بناحية مراكش ، فنهض إليها مزعجا ، ولما سمع بذلك عبد الله ابن الشيخ زحف إلى فاس فيمن انضمّ إليه ، وقاتل قتالا شديدا حتى دخلها ، ولما سمع السلطان زيدان بذلك وهو بمراكش نهض إلى فاس ، وجاء على طريق الجبل ، وكان نصارى الاسبنيول يومئذ قد نزلوا على العرائش ، وحاولوا الاستيلاء عليها ، فلما سمع عبد الله ابن الشيخ بنزول النصارى على العرائش استنفر الناس وحضهم على الجهاد فتهيئوا لذلك ، وعزموا على النهوض إليها ، فما راعهم إلا السلطان زيدان قد أقبل من ناحية أدخسان وقد أنزل بها محلته ، وتقدم إلى جهة فاس وضرب بأنفاضه ، فانهزم الناس عن عبد الله ، فبعث زيدان قائده عبد الصمد لتسكين روعة أهل البلد ، وأمر المنادى أن ينادى بنصره ، فنزل المنادى إلى أن بلغ باب السلسلة ، فقام فى وجهه بعض السياب من أهل العدوة وضربه فجرحه ورجع المنادى

وبطل الأمر ، فبلغ الخبر السلطان زيدان ، فأمر بإطلاق السبيل فى أهل فاس وتحكيم السيف فيهم ، وأمر بهم فسلبوا من الثياب رجالا ونساء ، فكان بعضهم ينظر إلى عورة بعض ، وكان عدد السلب نحو عشرة آلاف كسوة ، ودخل أصحاب زيدان فاس وفعلوا فيها الأفاعيل ، ثم أمر زيدان بتسكين الروعة والأمان ، وكان ذلك كله سادس رجب سنة تسع عشرة وألف ، فلما كان اليوم الحادى عشر من الشهر المذكور نزل عبد الله ابن الشيخ برأس الماء ، فخرج إليه زيدان واقتتلوا ، فانهزم زيدان ، وقتل من أصحابه نحو الخمسمائة ، وفر إلى محلته التى ترك بادخسان ، وكان ذلك آخر رجوع زيدان إلى فاس ، فانه لما أعياه أمر المغرب أعرض عنه ، وصرف عنايته إلى ضبط ماخلف وادى أم الربيع إلى مراكش وأعمالها ، وتوارث بنوه سلطنته على ذلك النحو من بعده ، وبقى عبد الله ابن الشيخ يقطع الأيام بفاس إلى أن هلك ، وقام بأمر فاس من بعده ثوارها وسيابها على ما نذكره بعد .

وفى كتاب [ابتهاج القلوب . فى أخبار الشيخ المجذوب] مانصه : تكلم الشيخ سيدى كدار يوما فى ملوك وقته ، فقال أما الشيخ معطى العرائش فان أهل الله قد دقوا أوتاده هنالك حتى يموت فلم يتجاوز محله إلى أن قتل به حوز تطاوين ، وأما زيدان فانه لما أطلق السبيل فى أهل فاس ضربه مولاى إدريس بن كلة ضربة صيرته وراء أم الربيع فلم يتجاوزه بعد ذلك اهـ .

ثورة محمد ابن الشيخ عَلَى أخيه عبد الله ابن الشيخ

لما رأى أهل بلاد الهبط ماوقع من افتراق الكلمة وتوقد الفتن بايعوا محمد ابن الشيخ على ضريح الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه ، فلما بلغ خبره أخاه عبد الله خرج لقتاله فالتقى الجمعان بوادى الطين واقتتلوا ، فانهزم عبد الله وتقدم محمد إلى فاس فدخلها واستولى عليها فى شعبان سنة ثمان وعشرين وألف ، وفى آخر شعبان المذكور وقعت الحرب بينهما أيضا بمكناسة ، فانهزم محمد ودخل عبد الله فاسا فى مهل رمضان من السنة ، وأظهر العفو عن الخاص والعام .

وفى هذا التاريخ كان بين أهل عدوة الأندلس واللمطيين القاطنين بفاس حرب كبير ، وكانت النصرة فى كل حرب للمطيين ، فقال الشيخ العارف أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسى لايغلب أحد اللمطيين مادامو مواظبين على قراءة الحزب الكبير للامام الشاذلى رضى الله عنه ، وكانت طائفة من اللمطيين يقرءونه كل صباح بزاوية سيدى رضوان الجنوى من عدوة اللمطيين ، فسمع ذلك أهل عدوة الأندلس ، فاحتالوا على إبطال قراءة ذلك الحزب بأن بعثوا أحدا فاحتال على أولئك الذين يقرءونه فاستضافهم فباتوا عنده جميعا فى منزله ، فلما طلع الفجر أو كاد زعم أن مفتاح الدار قد سقط منه وتلف ، ولم يزل يعانى فتحها إلى أن طلعت الشمس فخرجوا ولم يقرءوا الحزب ذلك اليوم ، وأخبر أهل الأندلس بذلك فحملوا على أهل عدوة اللمطيين فهزموهم وتحكموا فيهم مع أنهم كانوا لم يجدوا إليهم سبيلا قبل ذلك ببركة حزب الشاذلى رضى الله عنه .

وذكر بعضهم أن سبب هذه الفتن ماحكى أن عبد الله ابن الشيخ عزم على التنكيل بأهل فاس

فى بعض غلباته عليهم أيام خروجهم عليه فاستشفعوا إليه بالصالحين المجذوبين سيدى جلول بن الحاج وسيدى مسعود الشراط وكانا من الملامتية ، فلما وقفا بين يديه قال : أما وجد أهل فاس شفيعا غير هؤلاء الخرّابين فى ثيابهما ، فغضب سيدى جلول وقال والله لاتصرّف فى فاس أحد أربعين سنة ، وانصرفا ، فيقال إن عبد الله ابن الشيخ انقلبت معدته فخرج غائطه من فمه أياما إلى أن أتى بالشيخين فاسترضاهما فكان أمر فاس كما قال سيدى جلول ، ولم يزل عبد الله فى محاربة أهل فاس القديم من سنة عشرين وألف إلى أن توفى يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وثلاثين وألف بسبب مرض اعتراه من إسرافه فى الخمر وإدمانه عليه ، وكان لايفارقه ليلا ولا نهارا ، ويتعاطاه سرّا وجهرا .

وقام بالأمر بعده أخوه عبد الملك فى التاريخ المقدّم ، ولم يزل مقتصرا على ما كان قد صفا لأخيه إلى ان توفى فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين وألف .

وفاة زيدان بن أحمد المنصور

كان السلطان زيدان من لدن مات أبوه المنصور ، وبويع هو بفاس فى محاربة مع إخوته وأبنائهم ومقاتلة مع القائمين عليه من الثوّار ، ولم يخل قط فى سنة من سنى دولته من هزيمة عليه أو وقيعة بأصحابه ووقعت بينه وبين إخوته معارك يشيب لها الوليد ، وكان ذلك سبب خلاء المغرب وخصوصا مدينة مراكش ، وكانت وفاته رحمه الله فى المحرم فاتح سنة سبع وثلاثين وألف ، ودفن بجانب قبر أبيه من قبور الأشراف قبلى جامع المنصور من قصبة مراكش .

وقام بالأمر بعده ابنه أبو مروان عبد الملك فى التاريخ المتقدّم ، ولما تمت له البيعة ثار عليه أخوه الوليد وأحمد فوقعت بينه وبينهما معارك وحروب إلى أن هزمهما ، واستولى على ما كان بيدهما من العدّة والذخيرة ، وكان فاسد السيرة مطموس البصيرة ، وبلغ من قلة ديانته أنه تزايد له مولود ، فأظهر أنه أراد أن يحتفل لسابعه ، فبعث إلى نساء أعيان مراكش ونساء خدامه أن يحضرن وصعد هو إلى منارة فى داره ، فنظر إلى النساء وهنّ متنشرات قد وضعن ثيابهنّ فأيتهنّ أعجبته بعث إليها ، وكان مدمنا على شرب الخمر إلى أن قتله العلوج بمراكش وهو سكران يوم الأحد سادس عشر شعبان سنة أربعين وألف ، ودفن إلى جنب قبر أبيه .

وقام بالأمر بعده أخوه الوليد بن زيدان فى التاريخ المتقدّم ، فلم يزل مقتصرا على ما كان لأخيه وأبيه من قبله لم يجاوز سلطانه مراكش وأعمالها ، وعظمت الفتن بفاس حتى عطلت الجمعة والتراويح من جامع القرويين مدّة ، ولم يصلّ به ليلة القدر الارجل واحد من شدّة الهول والحروب التى كانت بين أهل المدينة ، وكان الوليد متظاهرا بالديانة لين الجانب حتى رضيته الخاصة والعامة . وكان مولعا بالسماع لاينفكّ عنه ليلا ولا نهارا . وكان محبا فى العلماء مائلا إليهم بكليته متواضعا لهم * توفى رحمه الله مقتولا يوم الخميس الرابع عشر من رمضان سنة خمس وأربعين وألف .

وقام بالأمر بعده أخوه محمد الشيخ فى التاريخ المتقدّم . وسار فى الناس سيرة حميدة وألان الجانب للكافة . وكان متواضعا فى نفسه . صفوحا عن الهفوات . متوقفا عن سفك الدماء . مائلا

إلى الراحة . متظاهرا بالخير ومحبة الصالحين * توفى قتيلا سنة ثلاث وستين وألف . ودفن بقبور الأشراف بمراكش .

وقام بالأمر بعده ابنه أبو العباس أحمد . وقام مقام أبيه فى جميع ما كان بيده إلا أن حى الشبانات وهم أخواله قويت شوكتهم فى أيامه وغلظ أمرهم عليه ووثبوا على الملك وراموا الاستبداد به فضايقوه وحاصروه بمراكش أشهرا . ولما رأت أمه أن الأمر لايزيد إلا شدة كلمته فى أن يذهب إلى أخواله ويأخذ بقلوبهم ويزيل ما فى نفوسهم عليه فذهب إليهم . فلما تمكنوا منه قتلوه غيلة وأقبلوا إلى مراكش مسرعين . وبايعوا فيها لأميرهم عبد الكريم بن أبى بكر الشبانى، وكان مقتل السلطان أبى العباس رحمه الله سنة تسع وستين وألف .

ولما دخل عبد الكريم مراكش دعا الناس إلى بيعته فبايعوه بها سنة تسع وستين وألف وانتظمت له مملكة مراكش ونواحيها . وسار فى الناس سيرة جيدة . وكان فى أيامه الغلاء المؤرخ بعام سبعين وألف . وهو غلاء مفرط ، بلغ الناس فيه غاية الضرر حتى أكلوا الجيف . ولم يزل مستقيم الرأى بمراكش إلى أن توفى بها سنة تسع وسبعين وألف قبل أن يدخلها المولى الرشيد بأربعين يوما . ولما توفى بايع الناس ولده أبا بكر بن عبد الكريم . فبقى إلى أن قدم المولى الرشيد وقبض عليه وعلى عشيرته فقتلهم . ثم تتبع الشبانات فأفناهم قتلا . وأخرج عبد الكريم من قبره فأحرقه بالنار . وانقرضت دولة الشبانات ، والبقاء لله وحده .

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى الرشيد بن الشريف رحمهُ اللهُ

كانت بيعته يوم الجمعة التاسع من المحرم سنة خمس وسبعين وألف ، ولما اجتمعت الكلمة عليه تقدم إلى تازا ، فافتتحها بعد محاربة طويلة ، وبايعه أهلها والقبائل التى حولها ، ثم توجه إلى فاس محكم السيف فى رؤسائها وأفناهم قتلا ، فتمهدت البلاد ، واجتمعت الكلمة ، وكان دخوله حضرة فاس القديمة صبيحة يوم الاثنين أوائل ذى الحجة سنة ست وسبعين وألف وبويع بها يومئذ ذلك ، ولما تمت له البيعة أفاض المال على علمائها ، وغمرهم بجزيل العطاء ، وبسط على أهلها جناح الشفقة والرحمة ، وأظهر إحياء السنة ونصر الشريعة ، فحل من قلوبهم بالمكان الأرفع ، وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة ، ثم توجه إلى مراكش فى الثانى والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين وألف ، فاستولى عليها وقتل رئيسها أبا بكر بن عبد الكريم الشبانى وجماعة من أهل بيته كما تقدم وأقام بها شهرا ، ثم رجع إلى فاس فدخلها يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الثانى من السنة المذكورة ، وفى هذه السنة أمر بضرب السكة الرشيدية ، وأقرض تجار فاس وغيرها اثنين وخمسين ألف مثقال بقصد التجارة إلى أن ردوها بعد سنة ، وفى هذه السنة أيضا حاز طاغية الاسبنيول مدينة سبتة ، وهى فى يده إلى الآن .

وفى يوم السبت الرابع عشر من ذى القعدة سنة تسع وسبعين وألف أمر ببناء قنطرة نهر سبوا .

وفى جمادى الأخيرة سنة إحدى وثمانين وألف أمر بضرب فلوس النحاس المستديرة ، وكانت

قبل مربعة ، وفى أوّل شعبان منها شرع فى بناء مدرسة الشراطين من فاس ، وكان قد أمر ببناء مدرسة عظيمة بإزاء مسجد الشيخ أبى عبد الله محمد بن صالح من حضرة مراكش .

وتوفى رحمه الله بمراكش يوم الخميس ثانى يوم النحر سنة اثنتين وثمانين وألف ، ودفن بمراكش بالقصبة منها ، ثم نقل إلى ضريح الشيخ أبى الحسن على بن حرزهم بفاس لوصية منه بذلك .

وفى أيامه رحمه الله كثر العلم واعتزّ أهله ، وظهرت عليهم أبهته ، وكانت أيامه أيام سكون ودعة ورخاء عظيم .

وقام بالأمر بعده أخوه وخليفته على بلاد المغرب أمير المؤمنين المولى إسماعيل بن الشريف فى التاريخ المتقدم فضبط الأمور وأحسن السيرة ،وقد استوفينا ترجمته فى [نزهة المالك والمملوك]

وكنت وقفت على رسالة جليلة كتبها له عارف زمانه ، وعلامة عصره وأوانه ، أبو على اليوسى رحمه الله ، ولا بأس بذكرها تذكرة لمن بيدهم الحلّ والربط ، ونصها :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، قطب المجد ومركزه ، ومحاز الفخار ومآرزه ، وأساس الشرف الباذخ ومنبعه ، ومناط الفضل الشامخ ومجمعه ، السلطان الأعظم الأجلّ الأفخم ، مولانا إسماعيل ابن مولانا الشريف ، لازالت أعلامه منصوره ، وأيامه على العزّ واليمن مقصوره ، سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته ، هذا ولا زائد عندنا ، سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والاجلال ، والدعاء لسيدنا بصالح الأحوال ، وذلك بعض ما أوجبته يده المنبسطة علينا بالبرّ والاحسان ، والتفضل والامتنان ، والتوفير والاحترام ، والانعام والاكرام ، مع ماله علينا وعلى غيرنا من الحقوق التى أوجبتها منزلته السلطانية ، ومثابته العلوية الفاطمية ، فكتبنا هذه البطاقه ، وهى فى الوقت منتهى الطاقه ، وكنا كثيرا مانرى من سيدنا التشوّف إلى الموعظة والنصح ، والرغبة فى استفتاح أبواب الربح والنجح ، فأردنا أن نرسل إلى سيدنا ماإن وقف إلى النهوض إليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة ، والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة ، ورجونا وإن لم نكن أهلا لأن نعظ ، أن يكون سيدنا أهلا لأن يتعظ ، وأن يحتمى من جميع المذامّ ويتحفظ ، فليعلم سيدنا أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى لاشريك له ، والناس عبيد له سبحانه وإماء له ، وسيدنا واحد من العبيد ، وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحانا ، فان قام عليهم بالعدل والرحمة والانصاف والاحلام فهو خليفة الله فى أرضه ، وظلّ الله على عبيده ، وله الدرجات العالية عند الله تعالى ، وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والافساد ، فهو متجاسر على مولاه فى مملكته ومتسلط ومتكبر فى الأرض بغيرالحق ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه ، ولايخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يدوم تملكهم بغير إذنه كيف يفعل يوم يتمكن منه .

ثم نقول إن على السلطان حقوقا كثيرة لاتفى بها البطاقة ، ولنقتصر منها على ثلاثة هى أمهاتها : الأوّل جمع المال من حق وتفريقه فى حق. الثانى إقامة الجهاد لاعلاء كلمة الله ، وفى معناه تعمير الثغور بما يحتاج إليه من عدد وعدّة . الثالث الانتصاف من الظالم للمظلوم ، ومعناه كفّ يد عادية عليهم منهم ومن غيرهم ، وهذه الثلاثة كلها قد اختلت فى دولة سيدنا ، فوجب علينا

تنبيه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع أو الغفلة فان تنبه وفعل فقد فاز ، وفي ذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة وإلا فقد أدّينا الذى علينا * أمّا الأمر الأوّل فليعلم سيدنا أن المال الذى يجبى من الرعيـة قد أعدّه الله للمصالح التى ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من أهل البيت والعلماء والقضاة والأئمة والمجاهدين والأجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من المصالح ، ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن قبضها الابوكيل، ومثال الرعية مثال المديان ، والسلطان هو الوكيل ، فان استوفى الوكيل الدين بلا زيادة ولا نقصان وأدّاه إلى اليتامى بحسب ما يجب له فقد برئ من اللوم ولم تبق عليـه تباعة للمديان ولا لليتيم ، وحصل له أجران أجر القبض وأجر الدفع ، وإن هو زاد على الدين الواجب بغير رضا المديان فهو ظالم لليتيم ، وكذا إن استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لأربابها فهو ظالم ، فلينظر سيدنا فان جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعيـة ، فأكلوا اللحم ، وشربوا الدم ، وامتشوا العظم ، وامتصوا المخ ، ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا . أمّا الدنيا فقد أخذوها ، وأمّا الدين فقد فتنوهم عنه ، وهـذا شيء شهدناه لاشيء ظننّاه ، ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم ، فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكفّ أيديهم عن الظلم ، ولا يغترّ بكل من يزين له الوقت ، فان كثيرا من الدائرين به طلاب الدنيا لايتقون الله تعالى ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب ، وفى أفضل منهم . قال جدّ أمير المؤمنين مولانا عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه [المغرور من غررتموه] اه ، وأن يتفقد المصالح ، ويبسط يد الفضـل على خواص الناس من أهل الفضـل والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم ، وليعلم سيدنا أن السلطان إذا أخذ أموال الرعيـة العامة ونشرها فى الخاصة ، وشيد بها المصالح ، فالعامّة يذعنون ويعلمون أنه سلطان وتطيب قلوبهم بما يرون من إنفاق أموالهم فى مصالحهم وإلا فالعكس ، وأيضا السلطان متعرّض للسهام الراشقة من دعوات المظلومين من الرعية ، فاذا أحسن إلى الخاصة دعوا له بالخير والسـلامة والبقاء فيقابل دعاء بدعاء والله الموفق * وأمّا الأمر الثانى فقد ضاع أيضا ، وذلك أنه لم يتأتّ فى الوقت إلا عمارة الثغور وسيدنا قد غفل عنها فقد ضعفت اليوم غاية ، وقد حضرت بمدينـة تطاون أيام مولانا الرشـيد رحمه الله تعالى إذا سمعوا الصريخ تهتزّ الأرض خيـلا ورماة ، وقد بلغنى اليوم أنهـم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصا والمقاليع ، وهـذا وهن فى الدين وغرر على المسلمين وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة وتـكليفهم الحركات وإعطاء العدّة كسائر الناس ، فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من القليعة إلى ماسة ويحرّضهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم ويترك لهم خيلهم وعدّتهم ويزيدهم مايحتاجون إليه فهم حماة بيضة الاسلام ويتحرّى فيمن يوليه تلك النواحى أن يكون أشدّ الناس رغبة فى الجهاد ونجدة فى المضايق وغيرة على الاسلام وأهله، ولا يولى منها من همته ملء بطنـه والاتكاء على أريكته والله الموفق * وأمّا الأمر الثالث فقد اختلّ أيضا لأن المنتصبين للانتصاف بين الناس وهم العمال فى البلدان وخدامهم هم المشتغلون بظلم الناس فـكيف يزيل الظلم من يفعل ، ومن ذهب يشتكى سبقوه إلى الباب فزادوا عليـه فلا يقدر أحد أن يشتكى

فليتق

فليتق الله سيدنا وليتق دعوة المظلوم فليس بينها و بين الله حجاب ، وليجتهد فى العدل فانه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا ، وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور لايثبت معه الملك ولا يستقيم ، وإن العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر ، وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين فى الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا عليه من العدل فى الرعية استصلاحا لدنياهم فكيف بمن يرجو إصلاح الدنيا والدين .

وليعلم سيدنا أن أوّل العدل أن يعدل فى نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال إلا بحق ويسأل العلماء عما يأخذ وما يعطى وما يأتى ومايذر ، وقد كان فى بنى إسرائيل يكون الأمير على يد نبىّ ، فالنبىّ يأمر والأمير ينفذ لاغير ، ولما كانت هذه الأمّة المرحومة انقطعت النبوّة بنبيها خاتم النبيين ﷺ فلم يبق إلا العلماء يقتدى بهم . قال ﷺ [علماء أمّتى كأنبياء بنى إسرائيل] فكان حقا على خلفاء هذه الأمّة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذا وعطاء .

وهذه طريقة النجاة إن شاء الله تعالى نسأل الله تعالى أن يرزق سيدنا توفيقا وتسديدا وإرشادا وتأييدا ، وأن يصلح بوجوده البلاد والعباد ، وأن يحسم بسيفه أهل الزيغ والعناد ، آمين اه .

توفى السلطان المولى إسماعيل رحمه الله يوم السبت الثامن والعشرين من رجب سنة تسع وثلاثين ومائة وألف ، وكانت أيامه أيام الأمن والعافية ، وتمام الضبط حتى لم يبق لأهل الدعارة والفساد محلّ يأوون إليه ويعتصمون به سائر أيامه وكان خليفة ونائبا عن أخيه المولى الرشيد سبع سنين ، وسلطانا وملكا مستقلا سبعا وخمسين سنة .

وقام بالأمر بعده ابنه أبو العباس المولى أحمد فى التاريخ المتقدم ، ولما بويع طاف على بيوت الاموال ومخازن السلاح والكسى ، فأمر باخراج ذلك وتفرقته على العبيد وقوّاد الجيش وأعطى من ذلك فوق الكفاية ، وعمّ العلماء والأشراف والطلبة بالنوال ، فاغتبط الناس به وبجوده ، وأفضى به الأمر إلى أن ضيع الحزم حتى سقطت هيبته من قلوب الولاة فى النواحى إلى أن توافقوا على عزله وتولية أخيه المولى عبد المالك .

وكان ذلك فى شعبان سنة أربعين ومائة وألف ، ولما تمت له البيعة تفقد أخاه المولى أحمد المخلوع فأمر به إلى سجلماسة كى يسجن بها ، وكتب إلى عامله بها أن يسمل عينيه بوفور بلوغه ، فنمى ذلك إلى المولى أحمد ففرّ إلى زاوية الشيخ أبى عثمان سيدى سعيد آحنصال ، وكان مقدم الزاوية يومئذ السيد يوسف ابن الشيخ سعيد المذكور ، وكان يتكلم فى الحدثان ، فقال للمولى أحمد إنك سترجع إلى الملك فكان كما قال ، ورجا الناس أن يكون السلطان المولى عبد المالك كأبيه المولى إسماعيل وأن يسير فيهم بسيرته ويسدّ مسده ، فخاب الظنّ ، وأمسك الله يده عن العطاء فلم يسمح للعسكر ولا للوفود بدرهم ، فكان ذلك من أكبر الأسباب فى اختلال أمره وتفسخ دولته ، فأطبق الناس على عزله ، وردّ أخيه المولى أحمد للملك لسخائه وبسط يده ، وكان ذلك فى الحجة سنة أربعين ومائة وألف .

ولما تمت له البيعة وصفا له الأمر تتبع أخاه وضايق عليه إلى أن ظفر به فأمر بسجنه ، ولما

أحس من نفسه بالموت أمر بخنق أخيه المحبوس المولى عبد المالك ، فخنق ليلة الثلاثاء أول يوم شعبان ، ثم توفى السلطان المولى أحمد يوم السبت رابع شعبان المذكور سنة إحدى وأربعين ومائة وألف فكان بين وفاتهما ثلاثة أيام .

وقام بالأمر بعده المولى عبد الله بن إسماعيل فى التاريخ المتقدم ، وفى سنة سبع وأربعين ومائة وألف نقضوا بيعته وأعلنوا بنصر أخيه المولى أبى الحسن على بن إسماعيل المعروف بالأعرج

وفى سنة تسع وأربعين ومائة وألف قويت الفتن ، وارتفعت الأسعار ، وانحبست الأمطار ، وقاسى الناس الشدائد من الغلاء ، وقل الادام ، وانقطع اللحم ، وهلكت رقاب كثيرة ، ولم يزل الأمر فى شدة إلى أن ورد الخبر بأن السلطان المولى عبد الله قد أقبل من وادى نول ووصل إلى تادلا ، فاهتز الناس له وتحدثوا برده إلى الملك ، ولما سمع بذلك السلطان أبو الحسن فر من مكناسة إلى عرب الأحلاف فأناخ بديارهم ، واجتمعت الكلمة على بيعة السلطان المولى عبد الله فبايعوه وهو بتادلا ، ولما أقبل منها خرج للقائه أهل فاس وفيهم الأشراف والعلماء ، وكذلك أهل مكناسة فوافوه بقصبة أبى فكران ، ولما مثلوا بين يديه عاتبهم وعدد ماسلف منهم ، ثم أمر بأعيانهم فقتلوا وفعل مثل ذلك بأعيان مكناسة واستباحهم ، وأقام منكمشا بقصبة أبى فكران ، ولما رأى أهل فاس ما نزل بهم اجتمعوا وتحالفوا على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى محمد ابن عريبة فمشوا إليه وأخذوا عليه العهود ثم بايعوه فى عاشر جمادى الأولى سنة خمسين ومائة وألف وهيئوا له كل مايحتاج إليه من خيل وسلاح وآلة حرب .

ولما رأى السلطان المولى عبد الله أن أمر أخيه قد تم فر إلى جبال البربر وأقام هنالك ، ثم فتحت أبواب فاس ، وانتقل السلطان المولى محمد إلى فاس الجديد ، ومن الغد نهض إلى مكناسة فاحتل بها ، وقدمت عليه الوفود من سائر الأقطار بهداياهم فأجازهم ، وفرق ما كان عنده من المال على العبيد ولم يقنعهم ذلك فأطلق أيدى النهب فى أموال المسلمين ، وأخذ هو فى استخراج الحبوب والأقوات من دور أهل مكناسة غصبا وبحث عنها فى الأهراء والمطامير ، وكل من ذكر له أن عنده قمحا أو شعيرا قبض عليه إلى أن يظهر ما عنده ، وكل من جلب من أهل البادية حبا أخذ منه كرها فكثر الهرج ، وعمت الفتنة ، وحل بالناس غلاء آخر ، وفروا من مدينتهم ، وعم النهب خارجها ، وانقطعت السبل ، ووقع الناس فى حيص بيص ، وبالجملة فقد كانت أيام المولى محمد بن عريبة هذا أيام نحس ووبال على المسلمين ، وكذا أيام أخيه عبد الله ، وكذا أيام أخيه المولى المستضىء الذى إليه يساق الكلام ، ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة ألف والناس فى شدة .

وفى الرابع والعشرين من صفر منها ثار العبيد على السلطان المولى محمد بن عريبة فقبضوا عليه ووضعوا فى رجليه قيدا وأخرجوه وعياله من دار الملك ووكلوا به جماعة منهم يحرسونه وكتبوا إلى أخيه المولى المستضىء بن إسماعيل بتافيلالت يستدعونه للقدوم عليهم ليملكوه فأقبل مسرعا إليهم وساعدهم الناس من جميع الآفاق على بيعته ، وأول مابدأ به أن بعث بأخيه المولى محمد بن عريبة مقيدا إلى فاس ومنها إلى سجلماسة فسجن بها ثم وظف على أعيان أهل فاس مالا ثقيلا لم يقوموا به وافتقرت الدولة فى أيام هذا السلطان واحتاج إلى المال ليقطع عنه لسان العبيد فأخذ

فى

فى البحث عما فى المخازن الاسماعيلية التى لم يلتفت إليها الملوك قبله ، فوقع على خزين من الحديد فاستخرجه وباعه ووقع على الخزين الكبير وفيه آلاف من قناطير الكبريت فباعها أيضا ووجد شيئا كثيرا من ملح البارود والشب وغير ذلك مما كان يجلب إلى الحضرة من غنائم أجناس الفرنج فباع ذلك كله، ثم اقتلع سراجم القبة الشنطرجية وكانت من نحاس مذهب واقتلع الدرابيز التى عن يمينها وشمالها من الحديد المنتخب ودفعها لأهل الذمة وألزمهم أداء ثمنها فأجحف بهم ، ثم أنزل المدافع النحاسية التى كانت بأبراج الحضرة فكسرها وضربها فلوسا فما أغنى ذلك شيئا ، وفعل بأهل فاس ومكناس مالا يطاق سماعه وأسرف فى القتل والعسف وبقى على هذا الحال إلى أن كان منتصف ذى القعدة من سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف إذ شغب العبيد بمكناسة على السلطان المستضىء، وتوافقوا على عزله ومراجعة طاعة أخيه المولى عبد الله .

ولما أحس المستضىء بما اجتمعوا عليه خرج من مكناسة فى شيعته وأنصاره قاصدا ضريح الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه فتبعه المولى عبد الله فى جمع من العبيد ، فأدركوه ببعض الطريق ، فكرّ عليهم وقاتلهم حتى رجعوا عنه ومضى لوجهه إلى أن وصل إلى طنجة ومنها توجه لمراكش وأقام بها إلى سنة خمس وخمسين ومائة وألف ، وبويع السلطان المولى عبد الله البيعة الثانية ، وكانت أوائل سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف ، وفى خامس عشر رجب من السنة المذكورة قدم السلطان المولى عبد الله على مكناسة وقبض على بعض أعيانها ونكل بهم النكال الشديد ، ثم قال للعبيد من أراد منكم دارا بمكناسة فليأخذها فامتدت أيدى العبيد فى الناس حتى صاروا يقفون بالأبواب ويقول العبد لصاحب الدار إن سيدى قد أعطانى دارك أو أعطانى ابنتك ، فيفتدى منه بالمال ، ولحقهم من العبيد فوق مايوصف ، ومن شكا منهم عوقب وسجن .

ولما كان شهر ربيع الأول من سنة أربع وخمسين ومائة وألف اتفق العبيد على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى زين العابدين ، ولما استقرّ السلطان زين العابدين بحضرة مكناسة وتمّ أمره أقام بها نحو الشهرين ، ثم تهيأ لغزو الودايا وأهل فاس الذين تخلفوا عن بيعته فنهض إليهم فى جيش العبيد منتصف جمادى الأولى سنة أربع وخمسين ومائة وألف .

ولما بات جيشهم بسيدى عميرة بقصد حصار فاس اختلفت كلمتهم ومن الغد ارتحلوا إلى مكناسة وكفى الله الودايا وأهل فاس شرهم ، وطالبوا السلطان فى الراتب وشددوا عليه فى ذلك فلم يكن عنده مايرضيهم به فتمردوا فى طاعته ، هذا والسلطان المولى عبد الله مقيم بجبال البربر مطلّ على الحضرة ومتحفز للوثبة ، فلما علم بما لزين العابدين ماهو فيه من الاضطراب نزل من الجبل وتقدم حتى دخل فاسا الجديد ، وذلك فى سادس عشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، فلقيه الودايا وأهل فاس واهتزّوا لمقدمه وطاروا به سرورا وبقى فى الملك إلى أن توفى بفاس يوم الخميس فى السابع والعشرين من صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف ، ودفن بقبور الأشراف منها .

وكانت فيه شدة وبطش وبسببهما نفرت قلوب الجند والرعية عنه ، وبقى مهملا بدار الدبيغ بفاس سنين لايأتيه أحد ، وبيعته فى أعناق الناس وهم فارّون منه لكثرة ماسفك من الدماء بغير

سبب ظاهر ، واستمرت حالته على ذلك مدة اثنتى عشرة سنة من سنة تسع وخمسين إلى سنة إحدى وسبعين ومائة وألف .

الخبر عن هؤلاء العبيد

اعلم أن السلطان المولى إسماعيل رحمه الله كان قداعتنى بجمع العبيد وتربيتهم وتهذيبهم إلى أن بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا ، وبلغوا فى أيامه من العز والرفاهية وتشييد الدور والقصور وارتباط الجياد ، وانتخاب السلاح ، واقتناء الأموال ، والزى مالم يبلغه غيرهم ، ولما ولى بنوه من بعده واتصلت الفتن بينهم أهملوا أمر هؤلاء العبيد ، ولم يلتفتوا إليهم فضعفت مادتهم وتلاشى أمرهم ، وانتشروا فى القبائل التى كانوا مجاورين لها للتكسب على أنفسهم وأولادهم ، ولم يزالوا فى تلاش واضمحلال ، وتناثر واختلال ، إلى أن كانت دولة السلطان الأعظم المولى محمد بن عبد الله رحمه الله فأدرك منهم صبابة يسيرة ، وعصابة حقيرة ، فاعتنى بهم وجمعهم من القبائل بعد الانتشار ، وأحيا رسمهم بعد الاندثار ، وأظهرهم بعد الخمول ، وأركبهم المسومة من الخيول ، ورفع لهم الأعلام والبنود ، وصيرهم من أعز الجنود ، وهو الذى جدد هذه الدولة الاسماعيلية بعد تلاشيها ، وأحياها بعد خمود جمرتها ، وتمزيق حواشيها ، بحسن سيرته ، ويمن نقيبته ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ، والعبيد جمع عبد ، ويطلق على كل أسود سواء كان مملوكا أو حرا طارئا أو حرا أسود ، ويقال لهم عبيد البخارى ، وسبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخارى أن السلطان الأعظم المولى إسماعيل لما جمعهم وظفر بمراده بعصبيتهم واستغنى بهم عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وجمع أعيانهم ، وأحضر نسخة من صحيح الامام البخارى وقال لهم : أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله ﷺ . وشرعه المجموع فى هذا الكتاب ، فكل ماأمر به نفعله ، وكل مانهى عنه نتركه ، وعليه نقاتل ، فعاهدوه على ذلك ، وأمر بالاحتفاظ بتلك النسخة وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمام حروبهم كتابوت بنى إسرائيل وما زال الأمر على ذلك إلى هذا العهد ، فلهذا قيل لهم عبيد البخارى .

رجع ، ولما توفى السلطان المولى عبد الله فى التاريخ المتقدم قام بالأمر بعده ابنه السلطان سيدى محمد رحمه الله ، وقد بسطنا ترجمته فى [نزهة المالك والمملوك] فراجعها إن شئت .

وكانت وفاته يوم الأحد الرابع والعشرين من رجب الفرد سنة أربع ومائتين وألف ، ودفن برباط الفتح .

وقام بالأمر بعده المولى يزيد فى التاريخ المتقدم ، وبويع بالحرم المشيشى ثم بايعه أهل فاس ، ثم قدمت عليه قبائل الحوز كله من عرب وبربر ، لم يختلف عن بيعته أحد ، وقدم أهل مراكش وأعمالها ببيعتهم ، ولما ظهر لهم منه بعض التجافى ساءت ظنونهم به ، وانفسدت قلوبهم عليه ، ولما رجعوا إلى بلادهم اتفقت كلمتهم مع أهل مراكش وعبدة وسائر قبائل الحوز ، فى أن يقدموا أخاه المولى هشام بن محمد للقيام بأمرهم وأتوه ببيعتهم وطاعتهم ، ولما اتصل خبر ذلك بالمولى يزيد وهو محاصر لسبتة أقلع عنها بعدأن أشرف على فتحها ، وسار إلى الحوز فشرد قبائله ، ووصل إلى

مراكش فدخلها عنوة ، وكان دخوله إليها من الباب المعروف بباب يغلى فاستباحها ، وقتل وسمل وكان الحادث بها عظيما ، ثم استجمع المولى هشام جيشا كثيفا من قبائل دكالة وعبدة وقصده بمراكش فبرز إليه المولى يزيد ، ولما التقى الجمعان بموضع يقال له تازكورت انهزم جمع المولى هشام وتبعهم المولى يزيد فأصيب برصاصة فى خدّه فرجع إلى مراكش يعالج جرحه ، فكان فى ذلك موته ، وذلك أواخر جمادى الثانية سنة ست وثمانين ومائتين وألف ، ودفن بقبور الأشراف قبلى جامع المنصور من قصبة مراكش .

وقام بالأمر بعده ظل الله فى أرضه السلطان مولانا سليمان بن محمد فى التاريخ المتقدّم الأعظم، ولما استقام له الأمر ردّ الفروع إلى أصولها، وأجرى الخلافة على قوانينها، باقامة العدل والرّفق بالرعية والضعفاء والمساكين ، ومن وفور عقله وعدله إسقاط المكوس التى كانت موظفة على حواضر المغرب فى الأبواب والأسواق ، وعلى السلع والغلل ، وعلى الجلد وعشبة الدخان ، فقد كان يقبض فى ذلك أيام والده سيدى محمد رحمه الله خمسمائة ألف مثقال معلومة مثبتة فى الدفاتر مبيعة فى ذمم عمال البلدان وقوّاد القبائل كل مدينة وما عليها ، ومن ذلك المكس كان صائر العسكر فى الكسوة والسروج والسلاح والعدّة ، وسائر تعلقات السلطان ، فكان ذلك المكس كافيا لصوائر الدولة كلها ، ولا يدخل بيت المال إلا مال المراسى ، وأعشار القبائل وزكواتهم ، وكان مستفاد هذا المكس يعادل مال المراسى وأعشار القبائل فزهد فيه هذا السلطان العادل فعوّضه الله أكثر منه من الحلال المحض الذى هو الزكوات والأعشار من القبائل ، وزكوات أموال التجار والعشر المأخوذ من تجار النصارى وأهل الذمّة بالمراسى . انظر تمام ترجمته فى كتابنا [نزهة المالك والمملوك] .

وكانت وفاته رحمه الله ورضى عنه فى ثالث عشر ربيع الأوّل وهو الثانى من العيد النبوى عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف ، ودفن بضريح جدّه المولى على الشريف بباب إيلان من مراكش .

وقام بالأمر بعده المولى عبد الرحمن بن هشام فى التاريخ المتقدّم بعهد منه إليه ، فقام بأعباء الملك ، وعالج حلوه ومرّه حتى ردّ الفرع إلى أصله ، وأحلّ عزّه فى محله . انظر تمام ترجمته فى [النزهة] ، وكانت وفاته رحمه الله يوم الاثنين التاسع والعشرين من محرّم فاتح سنة ست وسبعين ومائتين وألف ، ودفن بين العشاءين أوّل ليلة من صفر بضريح السلطان المولى إسماعيل رحم الله الجميع .

وقام بالأمر بعده ولده السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن فى التاريخ المتقدّم، وتوفى رحمه الله فى زوال يوم الخميس الثامن عشر من رجب الفرد الحرام سنة تسعين ومائتين وألف بداره بحضرة مراكش بضريح جدّه المولى على الشريف .

وكان رحمه الله بانيا أمره على الشرع لا يخرج عنه طرفة عين . انظر [النزهة] .

وقام بالأمر بعده ولده المولى حسن فى التاريخ المتقدم ، وتوفى رحمه الله بعد خروجه من مراكش بوادى العبيد من أرض تادلا فى الساعة الحادية عشرة من ليلة الخميس ثالث ذى الحجة الحرام متمّ عام أحد عشر وثلاثمائة وألف ، وحمل فى تابوت إلى رباط الفتح ، ودفن بازاء جدّه

الأعلى سيدى محمد بن عبد الله ، وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر . انظر [النزهة] .

وقام بالأمر بعده ابنه المولى عبد العزيز فى التاريخ المتقدم ، وقام عليه أخوه المولى عبد الحفيظ فى حادى عشر شوال سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف ، وبقى فى الملك إلى فاتح شوال عام ثلاثين وثلثمائة وألف فخلع نفسه عن الملك وطوقه لأخيه مولانا يوسف ابن مولانا الحسن قدس سره ، وتوفى رحمه الله بفاس فى الساعة العاشرة من يوم الخميس الثانى والعشرين من جمادى الأولى عام ستة وأربعين وثلثمائة وألف ، ودفن ضجيع جده الأعلى المولى عبد الله بن إسماعيل، رحمه الله من فاس الجديد . انظر [النزهة] .

وقام بالأمر بعده ابنه السلطان الأعظم ، والهمام الأفخم ، فريد زمانه ، وبهجة عصره وأوانه من جل قدره ، وسار مسير الشمس ذكره ، من أظهره الله لفضل يعلى مناره ، وعلم يحيى آثاره أبو عبد الله سيدى محمد ، أيد الله ملكه اهـ .

ملوك الشرق وتواريخ جلوسهم ووفاتهم

أول قائم بأمر هذه الأمة نبينا مولانا محمد ﷺ بعثه الله على فترة من الرسل رحمة للعالمين فبلغ الرسالة وجاهد فى الله حق جهاده ونصح الامة وعبد ربه حتى أتاه اليقين ❋ ولد ﷺ عام الفيل فى شهر ربيع الاول يوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت منه عند طلوع الفجر ، وبعث على رأس الاربعين من عمره ونزل عليه جبريل بالوحى ، وأقام بمكة بعد مبعثه ثلاث عشرة سنة ، ثم هاجر إلى المدينة فأقام بها عشر سنين ، ثم توفى ﷺ بعد أن أكمل الله تعالى لنا ديننا ، وأتم علينا نعمته فى وسط يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الاول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وله ﷺ ثلاث وستون سنة .

وقام بعده بأمر المسلمين خليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه فتولى عامين وثلاثة أشهر وثمانية أيام ، وتوفى ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادى الأخيرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وله رضى الله عنه ثلاث وستون سنة .

وقام بعده بأمر المسلمين خليفته عمر بن الخطاب رضى الله عنه باستخلافه فبقى واليا عشر سنين وستة أشهر ونصف شهر ، وهو أول من سمى أمير المؤمنين ، وتوفى فى ذى الحجة لأربع عشرة ليلة مضت منه فى سنة ثلاث وعشرين من الهجرة عن ثلاث وستين سنة .

وقام بعده بأمر المسلمين عثمان بن عفان رضى الله عنه بحكم الشورى فبقى واليا اثنى عشر عاما غير عشرة أيام ، وقتل شهيدا يوم الأربعاء بعد العصر لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وهو ابن ثمانين سنة ، وقيل ثمان وثمانين سنة .

وقام بعده على بن أبى طالب رضى الله عنه فبايعه أهل العراق والحجاز ومصر واليمن وتخلف عن بيعته أهل الشام فبايعوا معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، إذ كان أميرا بالشام أيام عمر وعثمان إلى أن وقع ماوقع ، واجتمع ثلاثة من الخوارج واتفقوا على قتل على ومعاوية وعمرو بن

العاص

العاص ، فقتل علىّ رضى الله عنه عام تسع وثلاثين ، وقيل عام أربعين بالكوفة لأنه رحل من المدينة إليها واستقرّ بها ، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ، وقتل فى شهر رمضان وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وتولى الخلافة يوم موته ابنه أبو محمد الحسن رضى الله عنه فبقى ستة أشهر ، وخرج لحرب معاوية ، ثم وقع الصلح على تسليم الحسن الأمر لمعاوية كراهية فى سفك الدماء ، وتوفى فى شهر ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين ، وقيل سنة خمسين .

وتولى الخلافة أبو عبد الرحمن معاوية بن أبى سفيان عشرين سنة ، وتوفى سنة ستين من الهجرة .

وبويع بعده ولده يزيد ولم يبايعه سيدنا الحسين رضى الله عنه ولا ابن الزبير، فبقى فى الملك ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وتوفى سنة أربع وستين ، وعلى يديه قتل سيدنا الحسين هذا عام ستين .

وبويع بعد اليزيد ولده معاوية الزاهد ، فأقام فى الملك ستين يوما وخلع نفسه وبقى أياما، ومات بعد ستة أشهر من ملكه .

وبايع أهل الحجاز والعراق واليمن عبد الله بن الزبير .

وبايع أهل الشام ومصر مروان بن الحكم ، ومات مروان هذا عام خمس وستين .

وبويع بعده ولده عبد الملك ووجه لحرب ابن الزبير الحجاج بن يوسف الثقفى فحاصره إلى أن قتله ، وملك الحجاز والعراق واليمن ، ومات عبد الملك سنة ست وثمانين بدمشق .

وبويع ولده الوليد سنة سبع وثمانين ، وفى أيامه فتحت الأندلس ، ومات عام خمس وتسعين بدمشق .

وبويع بعده أخوه سليمان بن عبد الملك ، ومات عام ثمان وتسعين .

وبويع بعده عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بوصيته ، ومات عام إحدى ومائة .

وبويع بعده يزيد بن عبد الملك ، ومات عام خمس ومائة .

وبويع بعده أخوه هشام بن عبد الملك ومات عام خمسة وعشرين ومائة ، وبويع بعده الوليد الفاسق ، وقتل عام ستة وعشرين ومائة ، وكانت خلافته سنة واحدة ، وبويع بعده أخوه إبراهيم ولم يثبت له أمر إلى أن قتله مروان بن محمد وصلبه ، وكانت ولايته شهرين وعشرة أيام ، وبويع مروان بن محمد يوم قتل إبراهيم ، ومات سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، وبموته انقرضت دولة بنى أمية.

الدولة العباسية

وبويع أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما بالكوفة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وأقام فى الملك أربع سنين وثمانية أشهر ، ومات عام تسع وثلاثين ومائة،وبويع بعده أخوه أبو جعفر المنصور،وكان أكبر سنا من السفاح فى التاريخ المتقدم ، وأقام ببغداد وكان قد بناها وجعلها قاعدة ملكه وسماها مدينة السلام وأقام فى الملك اثنتين وعشرين سنة ، وتوفى سنة ثمان وخمسين ومائة وهو متوجه إلى الحج ودفن قريبا من مكة ، وبويع ولده

المهدى فى التاريخ المتقدم ، وأقام فى الملك عشر سنين وشهرا وأياما ، وتوفى سنة تسع وستين ومائة
وبويع بعده ولده موسى الهادى فى التاريخ المتقدم ، وأقام فى الملك عاما واحدا وشهرا واحدا ،
ومات عام سبعين ومائة ، وفى أيامه فرّ مولانا إدريس بن عبد الله من وقعة فج ، ولحق بالمغرب
فبويع به ، وبويع أخوه هارون الرشيد فى التاريخ المتقدم ، وأقام فى الملك ثلاثا وعشرين سنة
وتوفى عام ثلاث وتسعين ومائة ، وفى أيامه فرّ يحيى بن عبدالله لبلد الديلم وعظم أمره بها ، وبويع
بعده ولده محمد الأمين فى التاريخ المتقدم فأقام فى الملك أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام ،
وقتل ليلة الأحد لخمس بقين من محرّم سنة ثمان وتسعين ومائة ، وبويع بعده أخوه عبد الله
المأمون بن هارون الرّشيد فى التاريخ المتقدم ، وأقام فى الملك عشرين سنة وخمسة أشهر ، وتوفى
غازيا فى أرض الروم فى رجب سنة ثمانية عشر ومائتين ، ودفن بطرسوس ، وبويع بعده أخوه
المعتصم بالله محمد بن هارون فى التاريخ المتقدم ، وكان لايقرأ ولا يكتب ، وهو الذى جعل جنده
من الأتراك ، وأقام فى الملك ثمانية أعوام وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وتوفى سنة عشرين ومائتين ،
وبويع بعده ولده الواثق بالله هارون فى التاريخ المتقدم . وأقام فى الملك خمس سنين وشهرا .
وتوفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . وبويع بعده أخوه جعفر المتوكل على الله فى التاريخ
المتقدم وأقام فى الملك أربع عشرة سنة وستة أشهر وسبعة أيام ، وقتل غرّة شوّال سنة سبع
وأربعين ومائتين ، وبويع بعده ابنه المنتصر بالله محمد بن جعفر فى التاريخ المتقدم ، وأقام فى
الملك ستة أشهر ، ومات عام ثمانية وأربعين ومائتين ، وبويع بعده ابن عمه المستعين بالله أحمد
ابن محمد ، فأقام فى الملك ثلاث سنين وتسعة أشهر ، وخلع سنة اثنتين وخمسين ومائتين وقتل ، وبويع
بعده ابن عمه المعتز بالله محمد بن المتوكل ، وأقام فى الملك ثلاث سنين وسبعة أشهر ، وقتل سنة
خمس وخمسين ومائتين ، وولى بعده ابن عمه المهتدى بالله محمد بن الواثق بالله ، فأقام أحد عشر
شهرا . وقتل سنة ست وخمسين ومائتين ، وولى بعده ابن عمه أحمد بن جعفر المتوكل على الله ،
فأقام فى الملك سنتين ، وتوفى سنة تسع وخمسين ومائتين ، وبويع بعده جعفر بن هارون ، ومات
عام خمس وستين ومائتين ، وبويع بعده ابن عمه المعتمد على الله ، ومات سنة تسع وسبعين ومائتين
وبويع بعده المعتضد بالله أبو العباس ، ومات عام تسعين ومائتين ، وبويع بعده ابنه على
المكتفى بالله ، ومات عام ثلاث وتسعين ومائتين ، وبويع بعده أخوه جعفر المقتدر وخلع مرتين
وبويع بعد خلعه عبد الله بن المعتز ومات عام ستة وتسعين ومائتين ، وبويع بعده أخوه محمد
القاهر بالله ، ومات مخلوعا سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ، وبويع بعده أحمد الراضى بالله ومات
سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبويع أخوه إبراهيم المتقى بالله ، وخلع ومات سنة سبع وسبعين
وثلثمائة ، وعاش بعد خلعه أربعا وعشرين سنة ، وبويع بعده عبد الله المستكفى بالله يوم خلع
ابن عمه المتقى بالله ، وخلع هو كذلك وسملت عيناه ، ومات سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وكانت
خلافته سنة وأربعة شهور ، وبويع بعده المطيع لله ابن المقتدر يوم خلع ابن عمه المستكفى بالله ،
وأقام فى الملك سبعة وعشرين سنة وأربعة أشهر وأياما ، ومات عام أربع وستين وثلثمائة ، وبويع
بعده ولده عبد الكريم ، ومات مخلوعا سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، وبويع بعده أبو العباس القادر

بالله ليلة خلع عبد الكريم ، ومات سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وبويع بعده ابنه أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله يوم موت والده وتوفى سنة سبع وستين وأربعمائة، وبويع بعده المقتدى بأمر الله عبد الله يوم وفاة جده القائم بأمر الله ، ومات سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، وبويع بعده ابنه محمد المستظهر بالله فى التاريخ المتقدم، وأقام فى الملك خمسا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، وتوفى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وولى بعده ابنه المسترشد بالله ، وأقام فى الملك سبع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وخلع وقتل سنة خمسمائة وتسع وعشرين ، وولى بعده ولده جعفر الراشد واتهموه بالمنكرات ، وخلعوه وأرسلوه إلى الموصل ، ثم قتلوه سنة خمسمائة واثنتين وثلاثين ، وولى الخلافة بعده عمه أبو عبد الله المقتفى لأمر الله محمد بن المستظهر بالله،وأقام فى الملك أربعا وعشرين سنة ، ثم قام عليه الجند ورجوه ثم حبسوه شهرا من غير شرب فمات بالظمأ سنة خمسمائة وخمس وخمسين ، وولى بعده ولده المستنجد بالله يوسف فأقام فى الملك إحدى عشرة سنة وخمسة أيام. وقتل مسجونا فى حمام عام ست وستين وخمسمائة ، وتولى بعده ولده الحسن المستضىء بالله فأقام فى الملك سبع سنين وأربعة أشهر ، وتوفى سنة خمسمائة وثلاث وسبعين بالطاعون ، وبويع بعده ولده أحمد الناصر لدين الله ، فأقام سنتين وشهرا وتوفى سنة خمسمائة وخمسة وسبعين ، وبويع بعده ولده المستنصر بالله المنصور على التتار حين جاءوا بغداد،وتوفى سنة ستمائة واثنتين وثلاثين بعد أن كسر التتار ونهبت جميع أموالهم،ونصره الله تعالى عليهم ، وتولى بعده ولده عبد الله المستعصم وأقام فى الملك خمس عشرة سنة ، وقتله التتار سنة ستمائة وستة وخمسين بجناية وزيره ابن العلقمى الذى كان رافضيا ، وخربت بغداد وبموته انقرضت دولة بنى العباس وانتقل كرسى الخلافة لمصر المحروسة ، وانتقل كذلك أولاد الخلفاء العباسيين إلى مصر ، وأكرمهم سلاطين الديار المصرية ، وكان ملكها حينئذ الملك الظاهر بيبرس ولم يزل بيت الخلفاء العباسيين بمصر معظما مشهورا والأحكام لسلاطين مصر ، وبعد أن انتقل الملك والشهامة إلى مصر توفى سلطانها بيبرس المذكور سنة ستمائة وست وسبعين ، وتولى بعده ولده محمد خان .



أسماء ولاة مصر من الهجرة إلى الآن

سنة هجرية		
26	ولاية عبد الله بن سعد	
36	« قيس بن سعد	
37	« محمد بن أبي بكر	
40	« عقبة بن عامر الجهني	
43	« عتبة	
47	« مسلمة بن مخلد	
62	« سعيد بن يزيد	
64	« عبد الله بن جحدم	
65	« عبد العزيز بن مروان	
86	« عبد الله بن عبد الملك	
90	« قرة بن شريك	
96	« عبد الملك بن رفاعة	
99	« أيوب بن شرحبيل	
101	« بشر بن صفوان	
102	« حنظلة بن صفوان	
105	« محمد بن عبد الملك	
105	« الحر بن يوسف	
108	« حفص بن الوليد	
109	« عبد الملك بن رفاعة	(ثانيا)
109	« الوليد بن رفاعة	
117	« عبد الرحمن بن خالد	
118	« حنظلة بن صفوان	(ثانيا)
123	« حفص بن الوليد	(ثانيا)
127	« حسان بن عتاهية	
127	« حفص بن الوليد	(ثالثا)
128	« جوثرة بن سهيل	
131	« المغيرة بن عبيد الله	
132	« عبد الملك بن مروان	
133	« صالح بن على. أول وال من بنى العباس	
137	« أبى عون	
141	« موسى بن كعب	
141	« محمد بن الأشعث	
143	« حميد بن قحطبة	

سنة هجرية		
144	ولاية يزيد بن حاتم	
152	« عبد الله بن عبد الرحمن	
155	« محمد بن عبد الرحمن	
155	« موسى بن على	
161	« عيسى بن لقمان	
162	« واضح المنصورى	
162	« منصور بن يزيد	
162	« يحيى بن داود	
164	« سالم بن سوادة	
165	« إبراهيم بن صالح	
167	« موسى بن مصعب	
168	« أسامة بن عمر	
169	« الفضل بن صالح	
169	« على بن سليمان	
171	« موسى بن عيسى	
172	« مسلمة بن يحيى	
173	« محمد بن زهير	
174	« داود بن يزيد	
175	« موسى بن عيسى	(ثانيا)
176	« إبراهيم بن صالح	(ثانيا)
176	« عبد الله بن المسيب	
177	« إسحاق بن سليمان	
178	« هرثمة بن أعين	
178	« عبد الملك بن صالح	
179	« عبيد الله بن المهدى	
179	« موسى بن عيسى	(ثالثا)
180	« عبيد الله بن المهدى	(ثانيا)
181	« إسماعيل بن صالح	
182	« إسماعيل بن موسى	
182	« الليث بن الفضل	
187	« أحمد بن إسماعيل	
189	« عبد الله بن محمد العباسى	
190	« الحسين بن جميل	

سنة هجرية		
192	ولاية مالك بن دلهم	
193	« الحسن بن البجاح	
194	« حاتم بن هرثمة	
195	« جابر بن الأشعث	
196	« عباد بن محمد	
197	« المطلب بن عبد الله	
197	« العباس بن موسى	
199	« المطلب بن عبد الله	(ثانيا)
200	« السرى بن الحكم	
201	« سليمان بن غالب	
201	« السرى بن الحكم	(ثانيا)
205	« محمد بن السرى	
206	« عبيد الله بن السرى	
211	« عبد الله بن طاهر	
213	« المعتصم بن الرشيد	
215	« عبدويه	
216	« عيسى بن منصور	
217	« نصر بن عبد الله	
219	« موسى بن العباس	
224	« مالك بن كيدر	
226	« على بن يحيي	
229	« عيسى بن منصور	(ثانيا)
233	« هرثمة بن نصر	
234	« حاتم بن هرثمة	(ثانيا)
234	« على بن يحيي	(ثانيا)
235	« إسحاق بن يحيي	
236	« عبد الواحد بن يحيي	
238	« عنبسة بن إسحاق	
242	« يزيد بن عبد الله	
253	« مزاحم بن خاقان	
254	« أحمد بن مزاحم	
254	« ارخوز بن أولوغ طرخان	
254	« أحمد بن طولون	
270	« خماروبه بن أحمد بن طولون	
282	« أبى الجيش بن خماروبه	

سنة هجرية		
283	ولاية هارون بن خماروبه	
292	« شيبان بن أحمد بن طولون	
292	« عيسى بن محمد النوشرى	
292	« محمد بن على الخلنجى	
293	« عيسى بن محمد النوشرى	(ثانيا)
297	« تكين الخزرى	
303	« ذكاء الرومى الأعور	
307	« تكين الخزرى	(ثانيا)
309	« هلال بن بدر	
311	« أحمد بن كيغلغ	
311	« تكين الخزرى	(ثالثا)
321	« ابن تكين الخزرى	
321	« أحمد بن كيغلغ	(ثانيا)
322	« أبو بكر بن طغج الملقب بالاخشيد	
334	« انجور بن محمد بن طغج	
349	« أبى الحسن بن محمد الاخشيد	
355	« كافور الاخشيدى	
357	« أبى الفوارس بن أبى الحسن	
362	« خلافة المعز لدين الله أبى تميم. أول الفاطميين	
365	« العزيز بالله نزار بن معد	
386	« الحاكم بأمر الله	
411	« الظاهر لاعزاز دين الله	
427	« المستنصر بالله	
488	« المستعلى بالله	
495	« الآمر بأحكام الله	
524	« الحافظ لدين الله	
544	« الظافر بأمر الله	
549	« الفائز بنصر الله	
555	« العاضد لدين الله ، وبه انتهاء الفاطميين	
567	« السلطان يوسف صلاح الدين . أول الدولة الأيوبية	
589	« ابنه الملك العزيز عماد الدين	
595	« ابنه الملك المنصور ناصر الدين	
596	« الملك الأفضل عم المنصور	
615	« الملك الكامل بن الأفضل	

سنة هجرية	
635	ولاية الملك العادل سيف الدين بن الكامل
638	« الملك الصالح نجم الدين أخيه
648	« توران شاه وبه انتهاء الدولة الأيوبية
648	« الملك المعز عز الدين ايبك أول المماليك البحرية
655	« الملك المنصور نور الدين
657	« الملك المظفر سيف الدين
658	« الملك الظاهر بيبرس
676	« الملك السعيد ناصر الدين
678	« الملك العادل سلامش
678	« الملك المنصور قلاوون
689	« الملك الأشرف بن قلاوون
693	« الملك الناصر بن قلاوون
694	« الملك العادل كتبغا
696	« الملك المنصور لاجين
698	« الملك الناصر محمد بن قلاوون
708	« الملك المظفر بيبرس
709	« الملك الناصر بن قلاوون
741	« الملك الناصر سيف الدين (١)
742	« الملك الأشرف علاء الدين
742	« الملك الناصر شهاب الدين
743	« الملك الصالح عماد الدين
746	« الملك الكامل سيف الدين
747	« الملك المظفر حاجى
748	« الملك الناصر بدر الدين حسن
752	« الملك الصالح صلاح الدين
755	« الملك الناصر بدر الدين حسن
762	« الملك المنصور صلاح الدين بن حاجى
764	« الملك الأشرف زين الدين شعبان
778	« الملك المنصور علاء الدين
783	« الملك الصالح زين الدين ، وبه انتهت دولة المماليك .
783	« الملك الظاهر برقوق ، أول دولة المماليك الجراكسة .
801	« الملك الناصر أبى السعادات

سنة هجرية	
808	ولاية الملك المنصور عبد العزيز
808	« الملك الناصر أبى السعادات
815	« الملك المؤيد أبى النصر
824	« الملك المظفر بن المؤيد
824	« الملك الظاهر سيف الدين
824	« الملك الصالح أبى النصر
825	« الملك الأشرف برسباى
841	« الملك العزيز جمال الدين
842	« الملك الظاهر جقمق
857	« الملك المنصور عثمان
857	« الملك الأشرف اينال
865	« الملك المؤيد بن اينال
865	« الملك الظاهر خوشقدم
872	« الملك الظاهر يلباى
872	« الملك الظاهر تمربغا
872	« الملك الأشرف قايتباى
901	« الملك الناصر بن قايتباى
904	« الملك الظاهر قانصوه الأشرفى
905	« الملك أبى النصر جانبلاط
906	« الملك العادل طومان باى
906	« الملك الأشرف قانصوه الغورى
922	« الملك طومان باى الغورى ، وبه انتهت دولة الجراكسة فى عهد السلطان سليم
923	« خيربك باشا . أوّل وال من طرف الدولة العلية فى عهد السلطان سليمان .
928	« مصطفى باشا
929	« أحمد باشا
930	« قاسم باشا
931	« إبراهيم باشا
933	« سليمان باشا الخادم
945	« داود باشا
956	« على باشا
961	« محمد باشا
963	« اسكندر باشا

(١) إن هذا الملك والسبعة بعده هم أبناء الملك الناصر بن قلاوون .

سنة هجرية

968 ولاية على باشا الخادم
969 « مصطفى باشا الثانى
971 « على باشا الصوفى
973 « محمود باشا
(فى عهد السلطان سليم بن سليمان)
975 « سنان باشا
982 « حسين باشا
(فى عهد السلطان مراد الثالث)
982 « مسيح باشا
988 « حسن باشا الخادم
991 « إبراهيم باشا
992 « سنان باشا الثانى
994 « عويس باشا
999 « أحمد باشا الخادم
(فى عهد السلطان محمد الثالث)
1003 « قورط باشا
1004 « محمد باشا الشريف
1006 « خضر باشا
1009 « على باشا السلحدار
(فى عهد السلطان أحمد)
1012 « إبراهيم باشا
1013 « محمد باشا الكورجى
1014 « الوزير حسن باشا
1016 « الوزير محمد باشا
1021 « محمد باشا الصوفى
1022 « أحمد باشا الدفتردار
(فى عهد السلطان مصطفى الأول)
1026 « مصطفى باشا المغلى
(فى عهد السلطان عثمان الثانى)
1027 « الوزير جعفر باشا
1028 « مصطفى باشا
1029 « حسين باشا
1031 « محمد باشا
(فى عهد السلطان مصطفى الأول)
1031 « إبراهيم باشا

سنة هجرية

1032 ولاية مصطفى باشا الطوبجى
(فى عهد السلطان مراد الرابع)
1033 « تثبيت مصطفى باشا الطوبجى
1036 « بيرم باشا
1039 « الوزير محمد باشا
1040 « الوزير موسى باشا
1041 « خليل باشا البستانجى
1042 « أحمد باشا الكورجى
1045 « حسين باشا
1047 « الوزير محمد أحمد باشا
(فى عهد السلطان إبراهيم)
1049 « مصطفى باشا البستانجى
1050 « مقصود باشا
1054 « الدفتردار شعبان بك
1055 « أيوب باشا
1057 « محمد باشا حيدر
1058 « الوزير أحمد باشا
(فى عهد السلطان محمد الرابع)
1061 « الوزير عبد الرحمن باشا
1063 « محمد باشا السلحدار
1067 « عمر باشا
1078 « إبراهيم باشا
1085 « حسين باشا
1087 « حسين باشا خنبلاط
1091 « عثمان باشا
1099 « حسن باشا السلحدار
(فى عهد السلطان سليمان الثانى)
1101 « أحمد باشا
1102 « على باشا قلج
(فى عهد السلطان مصطفى الثانى)
1107 « إسماعيل باشا
1109 « حسين باشا
1111 « قره محمد باشا
(فى عهد السلطان أحمد الثالث)
1116 « محمد رامى باشا

سنة هجرية		
1118	ولاية على مسلم باشا	
1119	« حسن باشا كاتخدا	
1121	« إبراهيم باشا القبودان	
1122	« خليل باشا	
1123	« ولى باشا	
1127	« عابدين باشا	
1129	« على باشا الأزمرلى	
1130	« رجب باشا	
1132	« محمد باشا الباشيمى	
1138	« على باشا	
1138	« محمد باشا	(ثانيا)
1141	« بكير باشا	
1142	« عبد القادر باشا	
	(فى عهد السلطان محمود)	
1144	« محمد باشا السلحدار	
1146	« عثمان باشا الحلبى	
1148	« بكير باشا	(ثانيا)
1149	« مصطفى باشا	
1152	« سليمان باشا	
1153	« على باشا حكيم	
1154	« يحيى باشا	
1156	« محمد باشا اليدكشى	
1158	« محمد راغب باشا	
1161	« أحمد باشا كور وزير	
1163	« شريف باشا عبد الله	
1166	« محمد أمين باشا	
1166	« مصطفى باشا	
	(فى عهد السلطان عثمان الثالث)	
1169	« على باشا حكيم	ثانيا

سنة هجرية	
1171	ولاية محمد سعيد باشا
	(فى عهد السلطان مصطفى الثالث)
1173	« مصطفى باشا
1174	« أحمد كامل باشا
1175	« بكير باشا
1176	« حسن باشا
1179	« حمزة باشا
1181	« محمد راقم باشا
1182	« محمد باشا الأورفلى
1183	« أحمد باشا
1184	« قره خليل باشا
	(فى عهد السلطان عبد الحميد)
1188	« مصطفى باشا النابلسى
1189	« إبراهيم باشا عرب كيرلى
1190	« محمد باشا عزت
1193	« إسماعيل باشا
1195	« محمد باشا ملك
1196	« على باشا القصاب
1197	« محمد باشا السلحدار
1198	« مراد بك
1200	« محمد باشا يكن
1201	« عابدين باشا الشريف
1203	« إسماعيل باشا التونسى
	(فى عهد السلطان سليم الثالث)
1205	« محمد باشا عزت
1209	« صالح باشا القيصرلى
1211	« أبو بكر باشا الطرابلسى
1216	« خسرو باشا
1218	« على باشا الجزائرلى
1218	« خورشيد باشا

وكان قد ظهر أمر محمد على باشا فى خلال ذلك لأسباب مدوّنة فى التاريخ ، فعهدت إليه الدولة بولاية مصر ، فتولاها فى ربيع سنة 1220 ، وهو رأس العائلة العلوية الحاكمة على مصر الآن .

وفى حياته حكم ابنه إبراهيم باشا سنة 1264 ثم عباس باشا الأوّل سنة 1265 هـ ثم محمد سعيد باشا سنة 1270 ثم إسماعيل باشا سنة 1279 ثم توفيق باشا سنة 1296 ثم عباس باشا

الثانى

الثانى سنة 1309 ثم السلطان حسين كامل 1332 ثم الملك فؤاد الاول سنة 1335 متع الله المسلمين بحياته .

ملوك آل عثمان

وتواريخ ولادتهم وجلوسهم ووفاتهم

السلطان الغازى عثمان خان : ولد سنة 656 هـ وجلس سنة 699 ، وتوفى سنة 726 ، ودفن فى بروسه داخل الحصار .

الغازى اورخان خان : ولد سنة 680 وجلس سنة 726 وتوفى سنة 761 ودفن بجوار والده فى قبة مناستر .

الغازى مراد خان : ولد سنة 726 وجلس سنة 761 ودفن فى بروسه بالمحل المسمى چكرده .

الغازى يلدرم بايزيد خان : ولد سنة 761 وجلس سنة 792 وتوفى سنة 805 ودفن فى بروسه بالقرب من جامعه .

السلطان چلبى محمد خان : ولد سنة 681 وجلس سنة 816 وتوفى سنة 824 ودفن فى بروسه .

الغازى مراد خان الثانى : ولد سنة 806 وجلس سنة 824 وتوفى سنة 855 ودفن فى بروسه .

الغازى أبو الفتح محمد خان : ولد سنة 833 وجلس سنة 855 وتوفى سنة 886 ودفن باسلامبول .

الغازى بايزيد خان : ولد سنة 851 وجلس سنة 886 وتوفى سنة 918 ودفن بجوار جامعه

الغازى ياوز سليم خان : ولد سنة 875 وجلس سنة 918 وتوفى سنة 926 ودفن بجوار جامعه .

الغازى سليمان خان : ولد سنة 900 وجلس سنة 926 وتوفى سنة 974 ودفن قبالة جامعه

الغازى سليم خان الثانى : ولد سنة 930 وجلس سنة 974 وتوفى سنة 983 ودفن بالقرب من جامع أيا صوفية .

الغازى مراد خان الثالث : ولد سنة 953 وجلس سنة 982 وتوفى سنة 1003 ودفن بجوار أيا صوفية .

الغازى محمد خان الثالث : ولد سنة 974 وجلس سنة 1003 وتوفى سنة 1012 ودفن بجانب السلطان سليم الثانى .

الغازى أحمد خان : ولد سنة 998 وجلس سنة 1012 وتوفى سنة 1026 ودفن بجانب جامعه .

الغازى مصطفى خان : ولد سنة 1001 وجلس سنة 1026 ثم عزل بعد ثلاثة أشهر فى غرة ربيع الأول سنة 1027 .

الغازى عثمان خان الثانى : ولد سنة 1013 وجلس سنة 1027 وتوفى سنة 1031 ودفن بجوار والده السلطان أحمد خان .

ثم أعيد السلطان مصطفى خان المعزول ، ثم عزل ثانيا فى القعدة سنة 1032 وبقى معزولا حتى توفى سنة 1049

الغازى مراد خان الرابع : ولد سنة 1018 وجلس سنة 1032 وتوفى سنة 1049 ودفن بجوار والده السلطان أحمد خان .

الغازى إبراهيم خان : ولده سنة 1024 وجلس سنة 1049 وتوفى سنة 1058 ودفن بجامع أيا صوفية .

الغازى محمد خان الرابع : ولد سنة 1051 وجلس سنة 1058 وتوفىسنة 1099 ودفن بتربة والدته ترخان .

الغازى سليمان خان الثانى : ولد سنة 1052 وجلس سنة 1099 وتوفى سنة 1102 ودفن بتربة جده السلطان سليمان .

الغازى أحمد خان الثانى : ولد سنة 1052 وجلس سنة 1102 وتوفى سنة 1106 ودفن بتربة جده السلطان سليمان .

الغازى مصطفى خان الثانى : ولد سنة 1074 وجلس سنة 1106 وتوفى سنة 1115 ودفن بجوار والده السلطان محمد خان الرابع .

الغازى أحمد خان الثالث : ولد سنة 1084 وجلس سنة 1115 وتوفى سنة 1143 ودفن بتربة والدته .

الغازى محمود خان : ولد سنة 1108 وجلس سنة 1143 وتوفى سنة 1168 ودفن بتربة أبيه السلطان مصطفى خان .

السلطان عثمان خان الثالث : ولد سنة 1110 وجلس سنة 1168 وتوفى سنة 1171 ودفن بجانب أخيه السلطان محمود خان .

الغازى مصطفى خان الثالث : ولد سنة 1129 وجلس سنة 1171 وتوفى سنة 1187 ودفن بساحة جامعه .

الغازى عبد الحميد خان : ولد سنة 1137 وجلس سنة 1187 وتوفىسنة 1203 ودفن بتربته ببغجه قپوسى .

الغازى سليمان خان الثالث : ولد سنة 1175 وجلس سنة 1203 وعزل سنة 1222 وتوفى فى جمادى الأولى سنة 1123 ودفن بتربة والده السلطان مصطفى خان .

الغازى مصطفى خان الرابع : ولد سنة 1193 وجلس سنة 1222 وتوفى سنة 1223 ودفن بتربة والده السلطان عبد الحميد خان .

الغازى محمود خان الثانى : ولد سنة 1199 وجلس سنة 1223 وتوفى سنة 1255 ودفن بتربته فى جيزلى طاش .

الغازى عبد المجيد خان : ولد سنة 1237 وجلس سنة 1255 وتوفى سنة 1277 ودفن بتربته بجوار جامع السلطان سليم .

الغازى عبد العزيز خان : ولد سنة 1245 وجلس سنة 1277 وخلع فى سنة 1293 وتوفى فيها .

السلطان مراد الخامس : ولد سنة 1256 وجلس سنة 1293 وخلع فيها .

السلطان عبد الحميد خان الثانى : ولد فى 21 شتمبر سنة 1842 وجلس فى 31 غشت سنة 1876 .

السلطان محمد رشاد الخامس

السلطان وحيد الدين

السلطان عبد المجيد

تواريخ أهمّ الحوادث

سنة هجرية		سنة هجرية	
01	تأسيس مسجد قباء	145	ابتداء المنصور فى بناء بغداد
02	غزوة بدر الأولى	170	بناء جامع قرطبة
03	ولادة الحسن بن على	187	نكبة البرامكة فى صفر
04	غزوة بدر الثانية	210	رصد ابن المولى ميل الشمس وحدّده 23 درجة - 9 و 55 دقيقة
07	غزوة خيبر	329	دخول علم الحساب فى أوروبا
10	حجة الوداع	358	استيلاء الفاطمية على مصر
13 - 15	فتح دمشق ومدن الشام	359	بناء الجامع الأزهر والقاهرة
16	فتح المداين والموصل	361	الانتهاء من بنائهما
21	بناء عمرو بن العاص مسجده	380	ادخال العرب أرقام الحساب فى أوروبا
23	حفر خليج مصر	393	انشاء دار الحكمة بالقاهرة
31	موت يزدجرد ملك الفرس	407	استعمال البارود فى حصار مكة
32	موت العباس عم النبي ﷺ وعمره 88	547	انقراض الدولة السلجوقية
43	وفاة عمرو بن العاص	548	وصول رأس الحسين إلى مصر
49	وفاة الحسن بن على	567	انتهاء خلافة الفاطميين بمصر
50	غزوة القسطنطينية وبناء القيروان	572	إنشاء قلعة القاهرة
74	بناء الحجاج الكعبة	577	طرد اليهود من فرنسا
87	جعل الكتابة فى دواوين مصر بالعربية		

سنة هجرية		سنة هجرية	
616	دخول علم الفلك والجغرافيا فى أوروبا	1191	ثورة المغاربة بالأزهر
629	استيلاء التتار على العجم	1213	دخول فرنسا للقاهرة
656	انتهاء الدولة العباسية ببغداد	1216	جلاء الفرنسيين عن مصر
725	تجديد عمارة الأزهر	1229	اختراع وابور السكة الحديدية
733	وفاة سيدى ياقوت العرشى	1230	انتصار المصريين على الوهابية
739	أوّل استعمال الانكليز للمدافع	1238	انشاء مطبعة بولاق
783	انتهاء دولة المماليك البحرية	1239	حريق قلعة مصر
790	اختراع كرات المدافع	1246	احتلال فرنسا للجزائر
812	اختراع الرسم بالزيت	1246	استقلال مملكة بلجيكا
814	دخول علم الجبر فى أوروبا	1248	انشاء مدرسة الألسن
871	اكتشاف الكهرباء بأوروبا	1262	اختراع آلة الخياطة
885	حرب اسبانيا مع عرب الأندلس	1267	استعمال الطريقة المترية
897	خروج العرب من الأندلس	1272	انشاء السكة الحديدية من مصر إلى الاسكندرية
1123	انتصار تركيا على الروسيا	1292	استعمال التاريخ الافرنجى فى مصر
1131	الحرب بين فرنسا واسبانيا		
1157	الحرب بين انكلترا وفرنسا		

انتهاء العالم

من الأدلة على قرب انتهاء العالم . أوّلا : أن مياه البحر تسطو شيئا فشيئا على الأرض فلابدّ أن يأتى يوم يضيق نطاقها فيغرق من لا تسعه من الناس .

ثانيا : أن الثلوج تتراكم بالتدريج حوالى القطب الشمالى ، بكيفية تؤدّى إلى فقدان موازنة الأرض فربما مادت من جانب إلى آخر .

ثالثا : تقترب الأرض شيئا فشيئا من الشمس فتشتدّ الحرارة فيها حتى يحترق الانسان .

رابعا : المياه العذبة آخذة فى القلة فيموت الانسان عطشا .

خامسا : من ابتداء سنة 3000 بعد الميلاد أى عقب 1100 سنة يتصاغر حجم الانسان حتى يوازى حجم الحيوانات الدقيقة .

سادسا : حرارة الشمس آخذة فى الخمود فيتغلب الزمهرير ، ويموت الانسان من شدّة البرد .

مساحة الكرة الأرضية

تبلغ مساحة الكرة الأرضية خمسمائة وعشرة ملايين كيلو متر مربع منها 000 , 000 , 373 كيلو متر بحار . ومنها 000 , 000 , 137 كيلو متر أرضا يابسة .

سكان الأرض

يبلغ عدد سكان الكرة الأرضية هذا 1،179،000 بل قال فى النخبة الأزهرية ، وقد يبلغ عدد سكان الأرض جميعها نحو البليون بالباء والخمسمائة مليون من الأنفس هكذا : 1،500،000،000 اهـ .

وهم موزعون فى القارات الخمس كما يأتى :

	المساحة بالكيلو متر المربع	عدد السكان فى الكيلو متر المربع
أوروبا	10،000،000	433،390،000
آسيا	44،300،000	907،430،000
أفريقيا	29،500،000	154،466،000
أمريكا	38،700،000	162،310،000
أوستراليا	14،500،000	53،573،000

سكان الأرض بحسب لغاتهم

ينقسم سكان الأرض بحسب لغاتهم كما يأتى :

المتكلمون بالصينية	370،000،000
« بالهندستانية وفروعها	132،000،000
« بالانكليزية	125،000،000
« بالروسية	100،000،000
« بالاسبانية	70،000،000
« بالفرنساوية	50،000،000
« باليابانية	48،000،000
« بالعربية	45،000،000
« بالايطالية	34،000،000
« بالتركية	12،000،000
« باللغات الأخرى المتعددة	653،000،000

سكان الأرض بحسب دياناتهم

يبلغ عدد سكان الأرض بحسب دياناتهم المختلفة كما يأتى :

مسيحيون	560،000،000
مسلمون	240،000،000
إسرائيليون	12،000،000
براهمة وبوذيون ومجوسيون الخ	899،000،000

سكان الأرض بحسب ألوانهم كما يأتى

النوع الأبيض :	ثمانمائة وخمسون مليونا	850
« الأصفر :	ستمائة وتسعون مليونا	690
« الأسود :	مائة وخمسون مليونا	150
« الأحمر :	عشرة ملايين	10

أهمّ الحواضر العربية وعدد سكانها

أسماء البلدان :	
القطر المصرى	14 168 756
الاسكندريه	571 000
دمشق	172 000
حلب	161 000
بيروت	120 000
القدس	63 000
يافا	48 000
بغداد	150 000
مكة المشرّفة	62 000
المدينة المنوّرة	31 000
الحجاز	800 000
اليمن	1 000 000
نجد	1 500 000
العراق	3 500 000
فلسطين	262 000
لبنان	626 000
سوريا	2 000 000
الكويت	40 000
مسقط	40 000
عدن	50 000
زنجبار	120 000
طرابلس الغرب	1 000 000
الحبشة	12 000 000
السودان المصرى	6 000 000

بقية

بقية أهمّ الحواضر العربية وعدد سكانها

الخرطوم	100 000
تونس	270 000
الجزائر	146 000

المسلمون خصوصا

ذكر الشيخ طنطاوى فى كتابه القرآن والعلوم العصرية أنّ عدد المسلمين فى أقطار الأرض ثلاثمائة وخمسون مليونا .

منهم فى بلاد الهند الصينو والصين سبعون مليونا 70

وفى الهند وما جاورها خمسة وسبعون مليونا 75

وفى ولاية الحجاز واليمن باقسامها أحد عشر مليونا 11

وفى فلسطين والعراق العربى والعجمى ستة ملايين وخمسمائة ألف .

وفى مصر والسودان المصرى ثمانية عشر مليونا 18

وفى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ثمانية عشر مليونا 18

وفى الصحراء الكبرى والسودان الفرنسى عشرون مليونا 20 إلى غير ذلك مما ذكره من البلدان فانظر تزدد يقينا .

إحصاء سكان الايالة المغربية

وقع بتاريخ 7 مارس سنة 1926 إحصاء رسمى لسكان الايالة المغربية أى سكان النواحى التى استتب فيها الأمن والنظام ، فبلغ عدد السكان على وجه الاجمال أربعة ملايين ومائتى ألف وتسعة وعشرين ألفا ومائة وستة وثلاثين نسمة منها 882 016 4 من المسلمين .

و — 712 104 من الأوربيين

و — 552 107 من الاسرائيليين

وحبا فى الافادة ننشر ما وقفنا عليه من التفاصيل المتعلقة بهذا الاحصاء بالنسبة لكل مدينة وكل ناحية .

الاحصاء الرسمى لسنة ١٩٢٦ م

اسماء البلدان	المسلمون	اسرائليون	لفرنسا	الاجانب	الجميع
ازمور	8223	750	119	35	9127
الدار البيضاء	52134	19490	20183	14801	106608
فاس	70060	7553	3053	506	81172
القنيطرة	5553	477	2822	1097	9931
مراكش	132893	12718	2930	722	149263
الجديدة	14141	3385	1087	546	19159
مكناس	18682	6325	3768	1155	29930
الصويرة	9836	7730	569	266	18401
وجدة	9751	1445	7383	1397	19976
الرباط	20452	3676	10460	3456	38044
سلا	18090	1806	798	271	20965
آسفى	21347	4172	935	460	26914
سفرو	4894	3444	129	11	8478
سطات	6165	1187	324	108	7834
تازا	7217	105	2041	243	9606

المدن التى ليس بها بلديات

اسماء البلدان	المسلمون	اسرائيليون	لفرنسا	الاجانب	الجميع
اكدير	1372	151	214	5	1742
امزميز	3630	735	61	16	4142
بنى ملاك	3589	1481	90	31	5191
ابركان	1485	97	1165	518	3265
ابن رشيد	98	171	353	90	712
بودنيب	999	660	262	24	1945
ابو الجعد	7731	1010	123	15	8879
دمنات	2495	1818	13	4	4330
فضالة	1882	86	502	572	3042
جرسيف	1260	213	634	85	2192
قصبة تادله	1820	295	280	35	2430
خنيفرة	2695	8	137	18	2858
خريبقة	1555	18	699	411	2683
مولاى إدريس	6211	00	00	000	6211
وادى زم	2389	56	426	174	3045
وزان	10952	1364	510	84	12910
تارودانت	7875	897	21	00	8793
تيزنيت	4361	219	8	00	4588

سكان النواحى

	المسلمون	اسرائيليون	لفرنسا	الاجانب	الجميع
ناحية الشاوية	382836	21721	23591	16321	444469
ناحية الغرب	182864	777	4433	1632	189706
ناحية وجدة	138855	4025	11445	2261	156586
ناحية الرباط	198100	5542	12498	4112	220252
ناحية فاس	432734	15708	4929	823	454194
ناحية مراكش	1488617	35083	4203	989	1528892
ناحية مكناس	299148	7811	5772	1532	314264
ناحية تازا	197349	470	3190	362	201371
دائرة عبدة وأحمر	240494	4298	969	480	246241
دائرة دكالة	308276	4158	1696	705	314835
دائرة الصويرة	85792	7885	636	272	94585
دائرة وادى زم	61816	74	1196	665	63751
المجموع	4016882	107552	74558	30154	4229146

عدد سكان مشاهير الدول الأوربآوية

	عدد سكانها
الدولة العثمانية	33 525 000
الدولة الفرنساوية	38 517 975
الدولة الألمانية	52 279 901
النمسا	41 384 956
إيطاليا	31 384 853
إسبانيا	17 974 323
الدولة الانكليزية	40 188 927
بلجيكا	6 586 593
برتغال	5 049 972
بلغاريا مع روملى	3 309 816
جبل أسود	227 841
دمرك	2 172 380
الروسيا	128 931 827
رومانيا	5 417 249
سويد	4 009 632
نرويج	2 000 917
سو ولاية مقرها مدينة برن	2 917 754
صرب	2 334 205
هولانده	5 004 204
اليونان	2 433 806

تم كتاب إرشاد الشيخ والشارخ

ويليه الضياء المنتشر

الكتاب الخامس

الضياء المنتشر

فى وفيات أعيان القرن الأول إلى الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَصَلَّى اللّٰهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

حمدا لمن تفرد بالبقاء ، وحكم على سواه بالفناء ، وصلاة وسلاما على مولانا محمد المبعوث بالحنيفية الغراء ، وعلى آله وأصحابه نجوم الاقتداء .

﴿ أمّا بعد ﴾ فيقول العبد الفقير إلى الله ، محمد بن محمد بن عبدالله الموقت بالحضرة المراكشية وقته كان له الله :

لما كانت معرفة وفيات الأئمة ، من أعيان علماء هذه الأمة من الأمور العلية ، يعتنى بها كل ذى همة زكية ، عنّ لى أن أذكر ما تحصل به الفائدة والمزية ، مقدما فى ذلك السابق ، على اللاحق ، تنشيطا للرّاغب السابق ، وسميته :

الضياء المنتشر

فى وفيات أعيان القرن الأوّل إلى الرّابع عشر

جعله الله خالصا لوجهه الكريم ، ونفع به النفع العميم ، آمين .

وفيات الصحابة العشرة رضى الله عنهم

توفى أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه لثمان بقين من جمادى الأولى سنة 13 هـ .

توفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قتيلا لأربع بقين من ذى الحجة سنة 23 هـ .

توفى عثمان بن عفان رضى الله عنه قتيلا يوم الأربعاء بعد العصر لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة 35 هـ

توفى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قتيلا صبيحة يوم سبع عشرة من رمضان سنة 40 ﻫ

توفى طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قتيلا يوم الخميس لعشر خلون من جادى الآخرة سنة 36 ﻫ .

توفى الزبير بن العوّام رضى الله عنه قتيلا كذلك يوم الخميس لعشر خلون من جادى الآخرة سنة 36 ﻫ .

توفى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه سنه 31 ﻫ .

توفى سعد بن مالك رضى الله عنه سنه 55 ﻫ .

توفى سعيد بن زيد رضى الله عنه سنة 50 ﻫ .

توفى أبو عبيدة عامر بن الجرّاح رضى الله عنه سنة 18 ﻫ .

وفيات بعض مشاهير الصحابة رضى الله عنهم

حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه توفى قتيلا سنة	3	من الهجرة
جعفر بن بن أبى طالب رضى الله عنه توفى قتيلا سنة	8	
عتبة بن غزوان رضى الله عنه توفى سنة	17	
معاذ بن جبل رضى الله عنه توفى سنة	19	
بلال بن رباح الحبشى مؤذن رسول الله ﷺ توفى سنة	20	
عمرو بن معديكرب الزبيدى رضى عنه توفى سنة	21	
خالد بن الوليد رضى الله عنه توفى سنة	21	
أبىّ بن كعب رضى الله عنه توفى سنة	30	
أبو ذرّ الغفارى رضى الله عنه توفى سنة	31	
العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه توفى سنة	32	
عبد الله بن مسعود رضى الله عنه توفى سنة	32	
عبادة بن الصامت رضى الله عنه توفى سنة نيف وثلاثين		
أبو الدرداء عويمر بن مالك رضى الله عنه توفى سنة	32	
حذيفة بن اليمان العبسىّ رضى الله عنه توفى سنة	36	
سلمان الفارسى رضى الله عنه توفى سنة	36	بعد ما عاش 350
عبد الله بن سلام الاسرائيلى رضى الله عنه توفى سنة	43	
عمرو بن العاص القرشى رضى الله عنه توفى سنة نيف وأربعين		
أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه توفى سنة نيف وأربعين		
زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه توفى سنة نيف وأربعين		
الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما توفى مسموما سنة	50	
أبو بكرة نفيع بن الحرث رضى الله عنه توفى سنة	51	
عمران بن حصين رضى الله عنه توفى سنة	52	

الأعلام	سنة	
أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه	52	
حسان بن ثابت رضى الله عنه	54	
سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه	55	
شدّاد بن أوس رضى الله عنه	58	
عقبة بن عامر الجهنى	58	
أبو هريرة عبد الرحمن رضى الله عنه	59	
الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما قتيلا يوم عاشوراء	61	
علقمة بن قيس رضى الله عنه	62	
النعمان بن بشير رضى الله عنه	64	
عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما	65	
عبد الله بن العباس رضى الله عنهما	68	
عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما	73	
أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه	74	
أبو ثعلبة رضى الله عنه	75	
العرباض بن سارية رضى الله عنه	75	
جابر بن عبد الله رضى الله عنه	78	
عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما	87	
عمار بن ياسر رضى الله عنه	87	
سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه	91	بعد أن عاش مائة سنة وقد أحصن سبعين امرأة وهو آخر صحابى مات بالمدينة
أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم	93	بعد أن عاش مائة سنة

وفيات التابعين الذين اشتهروا بالفتوى أيام الخلفاء الراشدين

الاعلام	سنة	
علقمة بن قيس النخعى	61	عن تسعين سنة
مسروق بن الأجدع الهمدانى	63	
الربيع بن خيثم	64	
عبيدة السلمانى	72	
عبد الله بن الزبير القرشى	73	
الأسود بن يزيد الكوفى	74	
عبد الله بن عتبة الهزلى	74	

الأعلام	سنة	
عمر بن ميمون الدودى	74	وقد حج مائة حجة وعمرة
أبو أمية شريح بن الحارث الكندى	80	عاش مائة سنة
عبد الرحمن بن غنم الأشعرى	80	
سويد بن غفلة الكوفى	80	
الأسود بن الهلال الكوفى	84	

وفيات التابعين الذين اشتهروا بالفتوى وغيرها بعد الصحابة

الأعلام	سنة
أبو العالية زياد	90
مرثد بن عبد الله الحيرى	90
رفيع بن مهران الرّياحى	90
زين العابدين علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب	92
سعيد بن المسيب	93
زرارة بن أوفى	93
أبو الشعثاء جابر بن زيد	93
عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود	94
عروة بن الزبير بن العوّام	94
أبو بكر بن عبد الرحمن المخزومى	94
مطرف بن عبد الله بن الشخير	95
سعيد بن جبير الكوفى	95
إبراهيم بن يزيد النخعى	96
قيس بن أبى حازم الكوفى	98
خارجة بن زيد بن ثابت	100
سليمان بن يسار	100
شقيق بن سلمة الكوفى	100
عمر بن عبد العزيز بن مروان	101
أبو عمرو الشعبى	103
مجاهد بن جبير المفسر	103
خالد بن معدان الكلاعى	103
أبو بردة عامر بن أبى موسى الأشعرى	103
أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف	104

الأعلام	سنة	
أبو قلابة عبد الله بن زيد	104	
أبان بن عثمان بن عفان الأموى	105	
عكرمة المفسر المغربى	105	
القاسم بن محمد بن أبى بكر الصدّيق	106	
سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب	109	
إسماعيل بن عبيد	106	
طاوس بن كيسان اليمانى	106	
عطاء بن أبى زيد الليثى	107	
مسلم بن خالد المخزومى	108	
الحسن البصرى	110	
محمد بن سيرين	110	
رجاء بن حيوة الكندى	112	
مكحول بن أبى مسلم	113	
عبد الرحمن بن رافع التنوخى المصرى	113	
عطاء بن أبى رباح اليمانى	114	عاش مائة سنة
الحكم بن عتيبة الكندى	115	
عمرو بن دينار الجمحى	115	– مقاتل – 115
محارب بن دثار الكوفى	116	
وهب بن منبه صاحب الأخبار	116	
عبد الله بن أبى زكرياء الخزاعى	117	
عبد الرحمن الأعرج	117	
قتادة بن دعامة البصرى	117	
سليمان بن موسى الأموى الدمشقى	119	
نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب	120	
ابن كثير أحد القرّاء السبعة	120	
أبو بكر بن حزم الأنصارى	120	
محمد بن مسلم بن شهاب الزهرىّ	124	
عبد الرّحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصدّيق	126	
ثابت بن سالم البنانى	127	
أبو إسحاق عمرو بن عبد الله الهمدانى	127	
محمد بن واسع الأزدى	127	

الأعلام	سنة
عاصم أحد القراء السبعة	127
أبو رجاء يزيد بن أبى حبيب	128
أبو الزبير محمد الأسدى	128
يحيى بن أبى كثير الطائى	129
محمد بن المنكدر المدنى	130
عبد الله بن أبى الزناد	130
مالك بن دينار	131
أيوب السختيانى	131
عبد الله بن ذكوان	131
فرقد السنجى	131
عطاء الخراسانى	135
ربيعة بن أبى عبد الرحمن	136
عطاء بن السائب الثقفى	136
العلاء بن الحرث الحضرمى	136
زيد بن أسامة	139
يونس بن عبيد العبدى	140
خالد بن مهران البصرى	141
أشعث بن عبد الملك	142
سليمان بن طرخان	143
حميد الطويل	143
أبو شبرمة الكوفى	144
هشام بن عروة بن الزبير	145
سليمان بن مهران الأعمش	148
جعفر الصادق بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب	148
أبو الوليد عبد الملك بن جريج القرشى	149
محمد بن إسحاق صاحب المغازى	149
الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان	150

وفيات مشاهير المائة الثانية

أبو عمرو أحد القراء السبعة	154
معمر بن راشد الصغانى	154

الأعلام	سنة
حماد الراوية	155
الامام مقاتل	155
حمزة أحد القراء السبعة	156
أبو زيد عبد الرحمن الأوزاعى	157
سفيان الثورى	159
شعبة	159
عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون	160
العارف سيدى إبراهيم بن أدهم	162
حماد بن سلمة	167
سعيد بن عبد العزيز التنوخى	168
الخليل بن أحمد الأزدى	170
أبو النضر جرير بن حازم الأزهرى	170
أبو الحرث الليث بن سعد	175
ابن عبد الحكم المالكى	171
عبد الرحمن بن لهيعة	174
أبو عوانة الواسطى	176
شريك بن عبد الله الكوفى	177
الامام مالك رضى الله عنه	179
أبو وهب عبد الله الجزرى الرقى	180
سيبويه عمرو بن عثمان	180
عبد الله بن المبارك	181
عثمان بن كنانة	181
موسى الكاظم	183
أبو يوسف يعقوب صاحب أبى حنيفة	183
عبد العزيز بن أبى حازم	188
المغيرة بن شعبة المخزومى	189
يحيى بن يمان العجلى	189
أبو الحسن الكسائى	189
عبد الرحمن بن القاسم المالكى	191
الشاعر أبو نواس	194
وكيع بن الجراح الكوفى	196

الأعلام	سنة
ابن وهب المالكى	197
يحي بن سعيد القطان	198
سفيان بن عيينة	198
العارف معروف الكرخى	200

وفيات مشاهير المائة الثالثة

الأعلام	سنة
الامام محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه	204
أبو عمران الامام أشهب المالكى المصرى	204
أبو زكرياء الفراء	207
أبو العتاهية	211
عيسى بن دينار المالكى	212
عبد الملك الماجشون المالكى	212
أسد بن الفرات المالكى	213
العارف أبو سليمان الدارانى	215
الامام الأصمعى	216
الحافظ الحيدى الحنفى	219
يحي بن يحي المالكى	220
العارف بالله بشر الحافى	227
أبو تمام الشاعر	231
يحي بن معين البغدادى	233
الحافظ سليمان بن أحمد الطبرانى	233
الحافظ ابن المدينى	234
حاتم الأصم	237
عبد الملك بن حبيب المالكى	238
الحافظ ابن راهويه	238
الامام سحنون المالكى	240
الامام أحمد بن حنبل	241
ابن أسلم الطوسى	242
العارف بالله الحرث المحاسبى	243
أبو تراب النخشبى	245

الأعلام	سنة
ذو النون المصرى	245
الحافظ أبو جعفر الطبرى	248
العارف بالله السرى السقطى	251
الهادى ابن محمد بن على الرضا	254
أبو عثمان الجاحظ	255
الحافظ الدارمى	255
الحكيم الترمذى	255
الحافظ ابن حبان	256
الحافظ الحجة الامام البخارى	256
يحيى الرازى	258
العارف بالله أبو يزيد البسطامى	261
الحافظ الحجة الامام مسلم بن الحجاج النيسابورى	261
أبو إبراهيم المزنى	264
الحافظ الحجة أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى	275
الحافظ ابن قتيبة	276
الحافظ أبو حاتم الرازى	277
الحافظ الحجة أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى	279
الحافظ ابن أبى الدنيا عبد الله بن محمد القرشى	281
أبو العيناء سليمان	282
العارف بالله سهل التسترى	283
البحترى	284
أبو العباس المبرد	286
أبو العباس المعروف بثعلب	291
العارف بالله إبراهيم الخواص	291
الحافظ البزار أحمد بن عمر	292
الحافظ ابن ماجه محمد بن يزيد القزوينى	293
ابن نصر المروزى	294
ابن المعتز	296
العارف بالله أبو القاسم الجنيد	297

وفيات

وفيات مشاهير المائة الرابعة

الأعلام	سنة
الحافظ الحجة أبو زيد عبد الرحمن النسائى	303
الحسين الحلاج	309
أبو إسحاق الزجاج صاحب التفسير	310
الامام البغوى صاحب التفسير	317
الامام ابن سلمة	319
الحافظ الطحاوى	321
الامام ابن دريد أبو بكر محمد	321
الحافظ الفربرى	322
أبو بكر الكتانى	322
الامام أبو الحسن الأشعرى	324
الامام الزجاجى	330
الامام أبو منصور الماتريدى	333
أبو جعفر النحاس صاحب الناسخ والمنسوخ	338
أبو الطيب المتنبى	354
أبو على القالى صاحب كتاب الأمالى	356
أبو بكر الآجرى	360
عبد القهار الجرجانى	366
أبو إسحاق المستملى	376
أبو على الفارسى	377
الحافظ ابن حمويه	381
على بن عيسى الرمانى	384
الحافظ ابن شكرة أبو على حسين السرقسطى الصدفى	385
الحافظ أبو الحسن الدارقطنى	385
أبو طالب المكى صاحب قوت القلوب	386
ابن أبى زيد القيروانى المالكى صاحب الرسالة	386
أبو الفتح عثمان بن جنى	392
الحافظ القرطبى المالكى	393
أبو النصر إسماعيل الجوهرى	394
الامام الهمذانى	398

الأعلام	سنة
الامام أصبغ المالكي	399

وفيات مشاهير المائة الخامسة

الامام أبو بكر الباقلانى المالكى	403
الحافظ الحجة الحاكم صاحب المستدرك	405
الحافظ ابن نباتة	409
أبو سعيد المالينى	411
أبو عبد الرحمن السلمى	412
أبو المطرف المالكى	413
عبد الوهاب البغدادى المالكى	422
الرئيس ابن سينا	428
أبو منصور الثعالبى	429
الحافظ أبو نعيم الاصفهانى صاحب الحلية	430
الامام الهروى	435
أبو العلاء المعرى	449
الامام الماوردى	450
ابن يونس المالكى	451
الحافظ ابن حزم الظاهرى	456
الحافظ الامام البيهقى أحمد بن حسين	458
الحافظ ابن عبد البر المالكى	463
الامام القشيرى صاحب الرسالة	465
أبو بكر الأصفهانى	466
إمام الحرمين	478
أبو عثمان الصابونى	481
المعتمد بن عباد الأندلسى	488
أبو بكر السرخسى	490
القاضى أبو الوليد الباجى المالكى	494
أبو الحسن اللخمى المالكى	498

وفيات مشاهير المائة السادسة

حجة الاسلام الامام الغزالى	505

الأعلام	سنة
الحافظ ابن طاهر المقدسى	507
ابن النحوى صاحب المنفرجة	513
الامام الحريرى صاحب المقامات	515
الامام أبو بكر الطرطوشى المالكى	520
أبو الوليد بن رشد المالكى	520
الفتح صاحب قلائد العقيان	528
الامام المازرى المالكى	530
أبو العباس بن العريف المالكى	536
أبو القاسم محمود الزمخشرى	538
الامام سند المالكى	541
الحافظ أبو بكر بن العربى المعافرى المالكى	543
القاضى أبو الفضل عياض المالكى	544
أبو الحسن بن حرزهم	559
العارف بالله أبو شعيب دفين آزمور	561
الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه	561
الشيخ عبد القادر السهروردى	563
الحافظ المحدث ابن سعادة	565
العارف بالله على بن غالب	568
أبو الحسن المتيطى المالكي	570
الشيخ أحمد الرفاعى	570
العارف بالله الشيخ أبو يعزى ينور	572
أبو العباس المحب الطبرى	576
الشيخ أبو مدين الغوث	580

وفيات مشاهير المائة السابعة

العارف بالله الشهير الشيخ أبو العباس السبتى	601
الفخر الرازى صاحب التفسير الكبير	606
الامام ابن شاش المالكى	610
نجيب الدين السمرقندى	620
الامام الرافعى	623
العارف بالله مولانا عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه	625
ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان	626

الأعلام	سنة
الامام السكاكى	626
أبو الحسن بن الأثير صاحب الكامل فى التاريخ	630
العارف بالله أبو محمد صالح دفين آسفى	631
السهروردى صاحب العوارف	632
العارف بالله أبو حفص عمر بن الفارض رضى الله عنه	632
الشيخ الأكبر ابن العربى الحاتمى	638
الحافظ ابن الصلاح	640
الامام ابن الحاجب المالكى	646
الامام ابن محرز	655
الشيخ العارف بالله أبو الحسن الشاذلى الشهير رضى الله عنه	656
ابن سيد الناس المالكى	659
عز الدين بن عبد السلام	660
الشيخ عبد الحق بن سبعين	667
الامام القرطبى المالكى المفسر	671
محمد بن مالك النحوى صاحب التسهيل والألفية	672
الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة	675
العارف بالله سيدى أحمد البدوى دفين طنطا رضى الله عنه	675
الشيخ ابراهيم الدسوقى المالكى	676
الامام النووى	676
العارف بالله أبو عبد الله الهزميرى	678
الامام ابن خلكان	681
الامام القزوينى صاحب عجائب المخلوقات	682
الحافظ أبو العباس القرافى المالكى	684
العارف بالله أبو العباس المرسى رضى الله عنه	686
الشيخ ابراهيم الجعبرى	687
العارف بالله عبد العزيز الديرينى رضى الله عنه	694
الامام البوصيرى صاحب البردة والهمزية	696

وفيات مشاهير المائة الثامنة

الأعلام	سنة
الامام النسفى صاحب التفسير	701
الامام ابن دقيق العيد	702
الامام البغورى صاحب إكمال الاكمال	707

الاعلام	سنة
العارف بالله ياقوت العرش الشاذلى رضى الله عنه	707
العارف بالله ابن عطاء الله السكندرى صاحب الحكم	707
أبو الفضل بن منظور صاحب كتاب لسان العرب	711
الامام الغبرينى	714
الامام الزواوى	719
الامام ابن البنا المراكشى الشهير	721
ابن آجروم النحوى صاحب المقدّمة	723
الحافظ ابن تيمية الحنبلى	728
أبو سعيد المجاصى	732
أبو حفص الفاكهانى المالكى	734
أبو عبد الله العبدرى صاحب المدخل	737
الامام الجزولى شارح الرسالة	741
أبو العباس بن جزىّ	741
أبو العباس بن فرحون	742
أبو حيان النحوى	745
الشيخ عبد الله المنوفى المالكى	748
الامام شمس الدين الذهبى	748
الشيخ خليل صاحب المختصر	749
صفى الدين الحلى	750
الحافظ ابن القيم الجوزية الدمشقى	751
عضد الدين بن عبد الرحمن	756
الامام ابن السبكى الشافعى	756
ابن هشام صاحب المغنى وغيره	761
العارف بالله سيدى محمد وفا الشاذلى	765
العارف بالله أبو العباس ابن عاشر السلاوى	765
الامام اليافعى الشافعى	768
الشيخ يوسف العجمى	768
العارف بالله أبو زيد عبد الرحمن الهزميرى	770
أبو العباس الفيومى مؤلف المصباح فى اللغة	770
العارف بالله أبو إسحاق الدلفيق	771
لسان الدين ابن الخطيب	776

الأعلام	سنة
الامام القباب	780
أبو الحسن السيرافى الحنفى	790
الامام الشاطبى المالكى صاحب الاعتصام	790
ابن نباتة المصرى	798

وفيات مشاهير المائة التاسعة

العارف بالله سيدى على وفا الشاذلى	801
أبو عمران شارح الرسالة	802
الامام ابن عرفة المالكى	803
العارف بالله ابن الملقن	804
السراج البلقينى	805
الحافظ زين الدين العراقى	806
الشيخ المكودى النحوى الفاسى	807
الامام المؤرخ ابن خلدون المغربى	808
الحافظ الدماميني صاحب حياة الحيوان	808
أبو طاهر الفيروزابادى صاحب القاموس	816
الشيخ أبو المواهب المقدسى الشاذلى	825
العارف بالله عبد الكريم الجيلى صاحب الانسان الكامل	830
ابن ناجى المالكى	837
العارف بالله شمس الدين الحنفى الشاذلى	847
الحافظ ابن حجر العسقلانى الشافعى	852
الامام العينى	855
أبو العباس الحضرمى	857
الكمال بن الهمام	861
الجلال المحلى المصرى المفسر	864
الامام الجزولى صاحب دلائل الخيرات	870
العارف بالله أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي صاحب التفسير	875
الشيخ الأشمونى المالكى	881
العارف بالله أبو العباس الشيخ زروق	899
الحافظ السخاوى	899
الشيخ السنوسى صاحب العقيدة	900

الأعلام	سنة
العارف بالله أبو عبد الله آمغار دفين آزمور	900

وفيات مشاهير المائة العاشرة

الحافظ ابن زكرى	906
أبو العباس الوانشريشى	910
الشيخ أبو البقاء المصمودى	910
سيدى إبراهيم بن هلال	910
الشيخ داود الانطاكى	910
أبو الحسن السمهودى صاحب وفاء الوفاء	911
الحافظ جلال الدين السيوطى	911
العارف بالله الشيخ عبد العزيز التباغ	914
ابن غازى المكناسى	920
الامام المغيلى	920
الحافظ ابن صعد	920
الشيخ زكرياء الأنصارى	925
العارف بالله أبو العباس بن يوسف الراشدى نزيل مليانة	927
العارف بالله أبو محمد عبد الله الغزوانى	935
العارف بالله سيدى سعيد بن عبد المنعم	940
العارف بالله سيدى محمد بن عيسى المكناسى	940
العارف بالله سيدى على الخواص وكان حيا	941
الحافظ الشامى	942
أبو عبد الله الامام الحطاب المالكى	954
الحافظ ابن خجو	956
الحافظ أبو زيد سقين	956
العارف بالله أبو الرواين المكناسى	960
عبد الوهاب الزقاق	960
العارف بالله سيدى عبد الله بن ساسى	961
أبو عبد الله الشطيبى	963
الامام الخروبى	963
العارف بالله سيدى أحمد اموسى	970
الحافظ التمنارتى	971
سعد الدين التفتازانى	972

الأعلام	سنة
العارف بالله سيدى عبد الوهاب الشعرانى	973
العارف بالله سيدى عبد الرحمن المجذوب	976
ابن تركى شارح العشماوية	979
العارف بالله سيدى الغازى بن أحمد الدرعى	981
أبو السعود المفسر	982
الامام المقرى	982
ابن عسكر صاحب الدوحة	986
العارف بالله أبو نعيم سيدى رضوان الجنوى	991
العارف بالله سيدى محمد البكرى الصديق	992
ابن عرضون المالكى	992
أبو العباس المنجور الفاسى	995
الحافظ ابن حجر المكى الهيتمى	995
الشيخ أبو الشتاء الشاوى	997
العارف بالله مولاى عبد الله بن احساين المصلوحى	999

وفيات مشاهير المائة الحادية عشرة

العارف بالله أبو الحسن المعروف بأبى الشكاوى دفين شاله	1004
العارف بالله أبو عبد الله بن مبارك الزعرى	1006
الشيخ محمد بن يوسف المسارى	1009
العارف بالله سيدى محمد الشرقى	1010
الشيخ القصار الفاسى	1012
العارف بالله أبو المحاسن سيدى يوسف الفاسى	1013
أبو العباس الصومعى	1013
العارف بالله أبو عبد الله المعروف بابن حسون دفين سلا	1013
ابن سلطان المولى على القارى	1016
الحافظ أبو العباس السنهورى	1016
أبو العباس بن أبى المحاسن الفاسى	1021
أبو العباس المعروف بابن القاضى	1025
الامام المناوى	1030
الشيخ أبو العباس النقشبندى	1034
العارف بالله أبو زيد الفاسى	1036

الأعلام	سنة
الشيخ أحمد بابا السوداني	1036
الامام سيدي عبد الواحد بن عاشر صاحب نظم المرشد	1040
أبو العباس صاحب نفح الطيب	1041
سيدي ابراهيم اللقاني	1041
الامام الحلبي صاحب السيرة	1044
العارف بالله سيدي عبد الله بن علي بن طاهر	1045
العارف بالله سيدي رحال الكوش	1050
العارف بالله سيدي العربي بن أبي المحاسن صاحب المرآة	1052
الشيخ أبو العباس بن عبد الصادق	1065
الشيخ علي الأجهوري المالكي	1066
الشيخ سعيد قدورة	1066
الشهاب الخفاجي	1069
الشيخ ميارة الفاسي	1072
الامام الصباغ العقيلي	1076
الشيخ أبو عسيرة	1077
عبد السلام بن إبراهيم اللقاني	1078
العارف بالله سيدي قاسم الخصاصي	1083
الشيخ سيدي محمد بن ناصر الدرعي	1085
أبو سعيد المرغيثي صاحب المقنع	1089
العارف بالله مولاي عبد الله الوزاني	1089
الحافظ أبو سالم العياشي	1090
العارف بالله سيدي عبد القادر الفاسي	1091
أبو العباس الحموي	1098
الشيخ عبد الباقي الزرقاني	1099

سيدي المهدي الفاسي شارح دلائل الخيرات من أهل هذه المائة .

وفيات مشاهير المائة الثانية عشرة

الشيخ الخرشي المالكي	1102
الامام اليوسي	1102
الامام الشبرخيتي	1106
أبو العباس التجموعتي	1108
العارف بالله أبو عبد الله الوزاني	1120

الأعلام	سنة
الامام الزرقانى شارح المواهب	1122
النفراوى شارح الرسالة	1125
العارف بالله مولاى التهامى الوزانى	1127
« بالله أبو العباس بن عبد القادر القستاوتى	1127
« بالله أبو العباس سيدى أحمد بن ناصر الدرعى	1128
« بالله سيدى عبد العزيز الدباغ صاحب الذهب الابريز	1130
أبو العباس الرسموكى	1133
الشيخ إسماعيل حقى صاحب روح البيان	1137
الحافظ الافرانى المراكشى	1140
الحافظ أبو على بن رحال	1140
الشيخ أبو الحسن بن حمدوش	1140
الحافظ الخطيب أبو العباس المقرى	1141
أبو العباس القضاعى	1141
العارف بالله عبد الغنى النابلسى	1143
أبو العباس السودانى النحوى شارح الآجرومية	1144
الامام ابن عقيلة	1150
الحافظ أبو العباس بن مبارك اللمطى جامع الذهب الابريز	1155
الامام العكارى الرباطى	1159
أبو العباس ابن عبد العزيز الهلالى	1159
الشيخ مصطفى البكرى	1162
العارف بالله مولاى إبراهيم بن أحمد المصلوحى	1172
أبو العباس التصادى	1174
العارف بالله أبو العباس الصقلى	1177
الامام البرزنجى	1179
العارف بالله سيدى محمد المعطى بن الصالح صاحب الذخيرة	1180
العارف بالله مولاى الطيب الوزانى	1181
الشيخ جسوس الفاسى	1182
الحافظ أبو العلاء العراقى الفاسى	1183
العارف بالله سيدى عبد الرحمن العيدروس	1192
الشيخ البنانى صاحب الحاشية على الزرقانى	1194
العارف بالله سيدى على الملقب بالجمل	1194
الامام عبد الكريم اليازغى	1199

الأعلام	سنة
الامام الجنوى شيخ الرهونى	1200

وفيات مشاهير المائة الثالثة عشرة

العارف بالله أبو العباس الدرديرى المالكى	1201
الشيخ سليمان الجمل صاحب الحاشية على الجلالين	1204
الشيخ مرتضى شارح القاموس والاحياء	1205
الشيخ عبد الله الميرغنى	1207
الشيخ التاودى بن سودة الفاسى	1209
الشيخ الطيب بن كيران	1217
العارف أبو العباس التجانى	1228
الشيخ الرهونى صاحب الحاشية على الزرقانى	1230
أبو عبد الله الدسوقى صاحب الحاشية على الدرديرى	1230
الشيخ حمدون بن الحاج الفاسى	1232
العارف بالله الشيخ مولاى العربى الدرقوى	1239
أبو العباس الصاوى صاحب الحاشية على الجلالين	1241
الشيخ العارف بالله سيدى المختار الكنتى	1250
العارف بالله مولاى المكى الوزانى الرّباطى	1250
المحدّث السيد عبد القادر الكوهى	1253
العارف بالله أبو العباس بن إدريس الشاذلى	1253
أبو الحسن التسولى شارح التحفة	1258
العارف بالله سيدى إبراهيم الرياحى	1266
العارف بالله أبو العباس بن عجيبة	1266
بدر الدين الحومى	1266
العارف بالله سيدى قدور العلمى	1266
العارف بالله سيدى الحاج العربى الوزانى	1267
العارف بالله مولاى عبد الواحد الدباغ	1271
العارف بالله أبو العباس البدوى الشهير بزويتن	1275
الفقيه أبو عبد الله بن عبد الرحمن الفيلالى	1275
الامام الباجورى	1276
العارف بالله الشيخ سيدى أبو بكر البنانى الرباطى	1284
العارف بالله مولاى الطيب بن الدرقوى	1294

الأعلام	سنة
المؤرخ أبو عبد الله اكنسوس المراكشي صاحب الجيش	1294
الشيخ عليش المصرى	1299
الشيخ عبد القادر بن محيي الدين الجزائرى	1300

وفيات مشاهير المائة الرابعة عشرة

الشيخ كنون الفاسى صاحب اختصار حاشية الرهونى	1302
الشيخ حسن العدوى	1303
أبو العباس أحمد فارس اللبنانى صاحب جريدة الجوائب	1305
الشيخ دحلان	1306
العارف بالله الشيخ سيدى محمد العربى المدغرى	1309
الشيخ سيدى إبراهيم التادلى الرباطى	1311
الفقيه ابن عبد الهادى الفاسى	1316
أبو العباس عابدين الدمشقى	1320
الشيخ محمد عبده المصرى	1323
العارف بالله الشيخ سيدى محمد الكتانى	1327
العارف بالله الشيخ ماء العينين الشنقيطى	1328
الشيخ الحاج على السوسى	1328
العارف بالله والدنا أبو عبد الله الموقت المراكشى	1329
مولاى عبد الكبير الكتانى الفاسى	1333
الفقيه السيد الجيلانى بن أحمد الرباطى	1336
الحافظ أبو عبد الله بن القرشى المراكشى	1347

يقول جامعه محمد الموقت كان الله له ، ومن أراد بسط الكلام على تراجم هؤلاء السادات وذكر مواليدهم ، فعليه بكتابنا :

[البحر الزاخر . فى ذكر ماللملوك الشرق والغرب ومعاصريهم من النوادر والمفاخر]

وفيما ذكرناه كفايه لذوى البصائر .

تم كتاب الضياء المنتشر

ويليـــه

تليين الطبع * فى ذكر ما يسر السمع

الكتاب السادس

تليين الطبع

فى ذكر ما يسرّ السمع

بسم الله الرحمن الرحيم

وَصَلَّى ٱللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

حمدا لمن جمع أشتات المخلوقات بعد العدم ، وأنعم عليهم بنعمة الايجاد والامداد بمحض الفضل والجود والكرم ، وصلاة وسلاما على مولانا محمد الجامع لجميع المحاسن والكمالات ، المخصوص بأشرف المعجزات والآيات ، وعلى آله وأصحابه ذوى المفاخر العاليات .

﴿ أمّا بعد ﴾ فيقول العبد الفقير إلى الله ، محمد بن محمد بن عبد الله ، الموقت بالحضرة المراكشية وقه ، كان له الله ، هذه طرف رائقة ، وأخبار شائقة ، وملح فائقة ، وفوائد لطيفة ، ومسائل شريفة ، وعجائب العجائب ، وغرائب الغرائب ، من شاء وجد منها ناسكا يعظه ويبكيه ، ومن شاء صادف منها فاتكا يضحكه ويلهيه ، وبالجملة ففيه من عجائب الوقائع ، وغرائب البدائع ، مايطرب السامع ، ويشنف المسامع ، جمعتها فكاهة لى وللأخوان ، الراغبين فى سماع ما يسرّ فكرتهم فى السرّ والاعلان ، وسميتها :

تليين الطبع * فى ذكر ما يسرّ السمع

جلعها الله خالصة لوجهه الكريم ، ونفع بها النفع العميم ، آمين ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الأوليـــات

أولية العالم : العالم هو ما سوى الله تعالى . قال فى منظوم الأخبار ، ويروى فى مناجاة موسى عليه السلام أنه قال : يارب إنى أريد أن أسألك عن مسألة ولكنى أخاف وأستحى ، فقال الله عزّ وجلّ ياموسى : من لم يخفنى ولم يستحى منى لم يعرف قدرتى ، ولكن سل ! قال يارب متى

نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

قال المسعودى فى مروج الذهب : إن الله سبحانه وتعالى خلق فى الأرض قبل آدم ثمانية وعشرين أمة، على خلق مختلفة وهى أنواع : منها ذوات أجنحة وكلامهم قرقعة ، ومنها ماله أبدان كالأسود ورءوس كالطير ، ولهم شعور وأذناب وكلامهم دوى ، ومنها ماله وجهان واحد من قبله والآخر من خلفه وأرجل كثيرة ، ومنها ما يشبه نصف الانسان بيد ورجل، وكلامهم مثل صياح الغرانيق ، ومنها ما وجهه كالآدمى وظهره كالسلحفاة وفى رأسه قرن، وكلامهم مثل عواء الكلاب، ومنها ماله شعر أبيض وذنب كالبقر ، ومنها ماله أنياب بارزة كالخنازير ، وآذان طوال ، ويقال أن هذه الأمم تناكحت وتناسلت حتى صارت مائة وعشرين أمة ، ولم يخلق الله تعالى أفضل ولا أحسن ولا أجل من الانسان .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه خلق الله تعالى ألف أمة وعشرين أمة : منها ستمائة فى البحر ، وأربعمائة وعشرون فى البر ه

وقال الشيخ عبد الله فى كتابه [تحفة الألباب] دخلت إلى باشقرد فرأيت قبور عاد فوجدت من أحدهم طوله أربعة أشبار ، وعرضه شبران ، وكان عندى فى باشقرد نصف ثنية أخرجت لى من فك أحدهم الأسفل ، فكان نصف الثنية شبرين ، ووزنها ألفا ومائتى مثقال ، وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعا ، وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع ، وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام .

قال ولقد رأيت فى بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد رجلا طويلا طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعا ، كان يسمى دبقى ، وكان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الانسان الولد الصغير ، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع البقل .

وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعا تحمل على عجلة وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل وكان يأخذ فى يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله ، وكان خيرا متواضعا كان إذا لقينى يسلم على ويرحب بى ويكرمنى ، وكان رأسى لا يصل إلى ركبته، رحمة الله تعالى عليه، ولم يكن فى بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة ، وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات فى بلغار .

وقال لى قاضى بلغار يعقوب بن النعمان إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم وكان أقوى أهل بلغار قيل إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته .

وروى عن وهب بن منبه فى عوج بن عنق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم إلا أنه كان لا يوصف طوله ، قيل انه كان يخوض فى الطوفان فلم يبلغ ركبتيه ، ويقال إن الطوفان علا على رءوس الجبال أربعين ذراعا، وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير وعمره الله دهرا طويلا حتى أدرك موسى عليه السلام ، وكان جبارا فى أفعاله يسير فى الأرض برا وبحرا ويفسد ما شاء ، ويقال انه لما حصر بنو إسرائيل فى التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم ، فبعث الله طيرا فى منقاره حجر مدوّر فوضعه على الحجر الذى على رأسه فانثقب من وسطه وانخرق فى عنقه ، وأخبر الله عزّ وجلّ نبيه موسى عليه السلام بذلك

أنت إله فى الألوهيـة ؟ قال الله سأصف لك شيئا من ذلك : إنى خلقت قبل أن أخلق السموات السبع والأرضين السبع والجنة والنار ثمانين ألف مدينة، كل مدينة طولها وعرضها ثمانون ألف سنة بعضها فوق بعض فملأتها خردلا أبيض ، وخلقت طائرا أخضر ، وجعلت رزقه فى ذلك الخردل فجعل يأكل كل شهر حبة حتى ظهر النقص فى الحب ، فجعل يأكل كل حبة فى سنة حتى فنى مافى المدائن، ثم خلقت فى تلك المدائن سبعين ألف رجل عاش كل واحد منهم سبعين ألف سنة فعصانى واحد منهم فأمرت تلك المدائن فضرب بعضها بعضا فصارت دكا ، ثم خلقت بعد ذلك بستة آلاف سـنة اللوح والقلم ونور محمد والعرش والكرسى والملائكة الكروبيين والجنة والنار ، وكل مرتبة من هذه المراتب بعد ستة آلاف سنة ، ثم خلقت السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم خلقت بعد ذلك بستة آلاف سـنة رجلا ليس من الانس والجنّ ولا من الملائكة سميته آدم فعاش عشرة آلاف سنة ومات ، ولم أخلق شيئا بعده عشرة آلاف سـنة ، ثم خلقت رجلا آخر فسميته آدم ، فعاش عشرة آلاف سنة فمات ، فلم أخلق شيئا بعده عشرة آلاف سنة ، فلم أزل أخلق آدم بعد آدم حتى خلقت عشرة آلاف آدم، يعيش كل واحد عشرة آلاف سنة ، ولم أخلق شيئا بعد موت كل واحد منهم عشرة آلاف سنة، ثم خلقت إبليس فعبدنى سبعين ألف سنة ، ثم خلقت ياموسى أباك آدم فى الجنة .

أوّل الأنبياء آدم عليه السلام ، وأوّل الرسل قيل أوّل أولاده ، وقيل نوح عليه السلام ، وأوّل عاص لله تبارك وتعالى إبليس ، وأوّل ظلم وقع فى الأرض ظلم قابيل بن آدم لأخيـه هابيل ، وهو أوّل قتيل ، وأوّل من أسلم وآمن بمولانا رسول الله ﷺ مطلقا أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها .

ورد فى الخـبر أن بنى آدم عشر الجن ، والجن و بنو آدم عشر حيوانات البر ، وهؤلاء كلهم عشر الطير ، وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحر ، وكل هؤلاء عشر ملائكة الأرض الموكلين، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الأولى ، وكل هؤلاء عشر ملائكة الثانية ، ثم على هـذا الترتيب إلى السابعة ، ثم الـكل فى مقابلة ملائكة الكرسى نزر قليـل ، ثم هؤلاء عشر ملائكة السرادق الواحد من سرادقات العرش التى عـددها ستمائة ألف سرادق طول السرادق وعرضه وسعته إذا قو بلت به السموات والأرض وما بينهما فانها تكون شيئا يسـيرا وقدرا صـغيرا ، وما من مقدار موضع قدم منها إلا وفيه ملك ساجد ، أو راكع ، أو قائم ، لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، ثم كل هؤلاء فى مقابلة الملائكة الذين يحفون حول العرش كالقطرات فى البحر ، ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ثم كل هؤلاء فى ملائكة اللوح المحفوظ نزر قليل ، وقيل بين القائمتين من قوائم العرش خفقات الطير المسرع ثمانين ألف عام ، وقيل فى عظم العرش إن له ثلثمائة وستة وستين قائمة، قدر كل قائمة كالدنيا ستون ألف مرة ، و بين القائمتين ستون ألف صحراء فى كل صحراء ستون ألف عالم ، وفوق العرش سبعون حجابا كل حجاب سبعون ألف عام ، و بين كل حجاب وحجاب سبعون ألف عام ، وكل ذلك معمور بالملائكة الكرام ، وكذا مافوق الحجب السبعين من عالم الرّقا بتشديد الراء والقاف .

وورد فى بعض الأحاديث : إنّ لله ملـكا يملأ ثلث الـكون ، وملـكا يملأ ثلثيه ، وملـكا يملأ الـكون كله ، وهم أجسام نورانية فلا تتزاحم كالسراج يملأ البيت نوره، و يسع ألف سراج سواه

فخرج إليه وضربه بعصاه فقتله ، ويقال إن موسى عليه السلام كان طوله عشرة أذرع ، وعصاه عشرة أذرع ، وقفز فى الهواء عشرة أذرع ، وضربه فلم يصل إلى عرقوبه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ومن ذلك ماقيل عن أمه عنق بنت آدم عليه السلام وكانت مفردة بغير أخ ، وكانت مشوّهة الخلقة لها رأسان ، وفى كل يد عشرة أصابع ، ولكل أصبع ظفران كالمنجلين ، وهى أوّل من بغى فى الأرض وعمل الفجور ، وجاهر بالمعاصى ، واستخدم الشياطين وصرفهم فى وجوه السحر وكان قد أنزل الله تعالى على آدم عليه السلام أسماء عظيمة تطيعها الشياطين ، وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحترز بها ، فغافلتها عنق وسرقتها ، واستخدمت بها الشياطين ، وتكلمت بشىء من الكهانة فدعا عليها آدم وأمّنت على ذلك حواء ، فأرسل الله عليها أسدا أعظم من الفيل فهجم عليها وقتلها ، وذلك بعد ولادتها عوجا بسنتين .

ومن ذلك ماحكى عن بعض فقهاء الموصل أنه شاهد ببلاد الأكراد فى جبل من جبال الموصل إنسانا طوله تسعة أذرع وهو صبىّ لم يبلغ الحلم ، وكان يأخذ بيده الرجل القوى ويرميه خلف ظهره ، فأراد صاحب الموصل استخدامه ، فقيل له فى عقله خبل ، فتركه .

وروى عن الامام الشافعى رضى الله عنه أنه قال : دخلت بلدة من بلاد اليمن ، فرأيت بها إنسانا من وسطه إلى أسفله بدن واحد ، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين وأربع أيد ، وهما يأكلان ويشربان ويتقاتلان ويتلاطمان ويصطلحان . قال ثم غبت عنهما قليلا ورجعت ، فقيل لى أحسن الله عزاءك فى أحد الشقين ، فقلت وكيف صنع به ؟ فقيل ربط فى أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل ، ثم قطع ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهبا وراجعا .

﴿يقول جامعه محمد الموقت كان الله له﴾ ونظير هذه الأعجوبة بعينها ماشاهدته فى آخر العشرة الثانية من هذا القرن الرابع عشر بحضرتنا المراكشية ، وهو أن بعض الناس أتى بولد له للحضرة العلية من وسطه إلى أسفله بدن واحد ، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان كالهيئة المتقدمة من «باب لافرق» ، وبقى بمراكش إلى أن مات أحد الشقين ، ومات الآخر بعده بثلاثة أيام .

ومن ذلك ماذكره فى الكتاب المذكور أنه أهدى إلى أبى منصور السامانى فرس له قرنان وثعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما ، وإذا بعد ألصقهما .

وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل ومثلها أيد .

وذكر أنه كان لبعض ولاة مصر مملوك فولاه قوص من أعمال الصعيد فتزوّج بها وولد له ولد ، ثم انقلب امرأة فتزوّج بها وولد ولدين .

وأمّا كبش بأربعة قرون ، ودجاجة بأربعة أرجل ورأسين ، وحيوان برأسين والمخرج واحد فكثير ، وعجائب الله تعالى فى مصنوعاته غير متناهية .

ومن ذلك بنات الماء وهم أمّة ببحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثدى وفروج وهنّ حسان ولهنّ كلام لايفهم ، وضحك ، ولهنّ رجال من جنسهنّ ، ويقال إن الصيادين يصطادونهنّ ويجامعونهنّ فيجدون لذّة عظيمة لا توجد فى غيرهنّ من النساء ، ثم يعيدوهنّ فى البحر ثانيا ويقال إن هذا الصنف يوجد بالبرلس ورشيد على ماذكر .

وحكى

وحكى عن الشيخ أبى العباس الحجازى . قال حدثنى بعض التجار أنه فى سنة من السنين خرجت سمكة عظيمة فنقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وأخرجوها ففتحت أذنها ، فخرجت جارية حسناء ، جميلة بيضاء ، سوداء الشعر ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين من أحسن مايكون من النساء ، ومن سرتها إلى نصف ساقيها شىء كالثوب يستر قبلها ودبرها ، وداثر عليها كالازار ، فأخذها الرجال إلى البر ، فصارت تلطم وجهها ، وتنتف شعرها ، وتعضد يدها ، وتصيح كما تصيح النساء حتى ماتت فى أيديهم ، فألقوها فى البحر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وذكر ابن زولاق فى تاريخه أن رجلا من الأندلس من الجزيرة الخضراء صاد جارية من البحر حسناء الوجه ، سوداء الشعر ، حمراء الخدين ، نجلاء العينين ، كأنها البدر ليلة التمام ، كاملة الأوصاف ، فأقامت عنده سنين ، وأحبها حبا شديدا ، وأولدها ولدا ذكرا ، وبلغ من العمر أربع سنين ، ثم أراد السفر فاستصحبها معه ووثق بها ، فلما توسطت البحر أخذت ولدها وألقت نفسها فى البحر ، فكاد أن يلقى نفسه خلفها حسرة عليها فلم يمكنه أهل المركب من ذلك ، فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له وألقت له صدفا كثيرا فيه در ، ثم سلمت عليه وتركته ، فكان ذلك آخر العهد بها ، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه ، ومالم نشاهده ونسمع به أكثر ، فسبحان القادر على كل شىء لا إله إلا هو ولا معبود سواه ، فالعاقل يعرف الجائز والمستحيل ، ويعلم أن كل مقدور بالاضافة إلى قدرة الله تعالى قليل ، وإذا سمع عجبا جائزا استحسنه ولم يكذب قائله ، والجاهل إذا سمع مالم يشاهده قطع بتكذيب قائله ، وتزييف ناقله ، وذلك لقلة عقله .

فلا تكن مكذبا بما تسمع من عجائب المصنوعات فى الآفاق والسموات .

ومن أغرب ماذكره صاحب [تحفة الألباب] أن فى بلاد السودان أمة لارءوس لهم ، وقد ذكرهم الشعبى فى كتاب [سير الملوك] وذكر أن فى بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ولا يعيش فى أرضهم ذكر ، وأن هؤلاء النساء يدخلن فى ماء عندهن فيحبلن من ذلك الماء ، وتلد كل امرأة منهن بنتا ، ولا يلدن ذكرانا أبدا .

وتلك الأمة التى لارءوس لهم أعينهم فى مناكبهم وأفواههم فى صدورهم ، وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون .

من أغرب مايسمع أنه كان لبعض السلاطين ابنة أحبت عبدا أسود ، فافتض بكارتها ، وولعت بالنكاح ، فكانت لاتصبر عنه ساعة واحدة ، فشكت أمرها لبعض القهرمانات ، فأخبرتها بأن لاشىء أنكح من القرد ، فاتفق أن جاء قراد بقرب قصرها بقرد كبير ، وكان عندها شباك تنظر منه إلى الناس ، فأسفرت عن وجهها ونظرت إلى القرد ونظر إليها فغمزته بعينها ، فقطع وثاقه وطلع لها فأخبأته فى مكان عندها ، وصار معها ليلا ونهارا على أكل وشرب ونكاح إلى أن فطن بذلك أبوها فهم بقتلها ، فتزيت بزى المماليك وركبت فرسا ، وحملت من الذهب قدر ماتطيق وحملت القرد معها إلى مصر ، فاستقرت فى بعض بيوت بالصحراء .

ومما يدل على قوة شهوة النساء أن الجارية يربيها أبوها صغيرة ويصونها كبيرة ، ولا تراعى هذه الحقوق مع وجود عقلها بل انها تختار من تريد لشهوها ولو كان منتنا وسخا قذرا ، فترمى نفسها

عليه ، وتسافر للبلدان فى سبب ذلك .

ذكر ابن كثير فى تاريخه أنه كان بطرابلس بنت تسمى نفيسة تزوجت بثلاثة أزواج وهم لايقدرون على افتضاض بكارتها ، وظنوا أن بها رتقا ، فلما بلغت خمس عشرة سنة غار ثدياها ، ثم جعل يخرج من محل الفرج شىء قليلا قليلا إلى أن برز منه ذكر قدر الأصبع وأنثيان ، فسبحان الحكيم البديع .

ذكر الراغب فى تذكرته فى باب المكتسبين بالضراط أن رجلا جاء إلى باب المعتصم العباسى ، وقال قولوا على الباب ضراط فأوصلوا كلامه للملك ، فقال لهم قولوا له اذهب ، فعندنا حاتم الدبس وهوأحذق الضراطين، فقال عندىماليس عنده،فاستؤذن له ،فلما دخل قال له المعتصم ماعندك ؟ فقال أضرط ضرطة تفتق السراويل ، فقال إن فعلت ذلك فلك مائة دينار ، وإن عجزت فمائة سوط ، ففعل وأخذ الدنانير .

وحكى عن رجل أنه كان يفتح الباب بضرطته ، وكان سعيد بن حميد يضرط على إيقاع العيدان .

ومما يحكى عن شخص من الموالى أنه حضر فى مجلس وكان به عوّاد ، فقام بوسط المجلس ووضع يديه على الأرض ورفع رجليه فى الهواء ، فصار منكسا رأسه إلى الأرض ورجلاه إلى فوق ، وصار يحرّك رجليه على إيقاع العود ، وكلما حرّك رجليه ضرط ضرطة ، واستمرّ على ذلك إلى أن فرغ العوّاد .

قيل وقف بين يدى الحجاج بن يوسف رجل من البادية ، فلما أخذ فى الكلام ضرط ، فضرب بيده على استه ، وقال إمّا أن تتكلمى فأسكت ، وامّا أن تسكتى فأكلم الأمير بما أشتهى.

قيل لبعض الأعراب وقد أسنّ كيف أنت اليوم . قال ذهب الاطيبان الناب والنصاب، وبقى الارطبان السعال والضراط .

قيل إن بعض الفقراء أصابه قولنج شديد فى بعض المساجد ليلا ، فجعل يتأوه ويتقلق ويقول : ياألله ضرطة ، ورفع صوته بحضرة رفقائه ، فلما أصبح وقد أشرف على الهلاك ، وعاين الموت قال : اللهم إنى أسألك الجنة ، فقال بعض رفقائه مارأيت أحق منك أنت من الغروب إلى الآن تسأل الله فى ضرطة فما فرحت بها ، فصرت تسأله الجنة التى عرضها السموات والأرض .

حكى ابن خلكان عن أبى معشر الفلكى أن بعض الملوك طلب رجلا من أتباعه ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه فاستخفى ، وعلم أن أبا معشر يدلّ عليه بالطريق التى يستخرج بها الخفايا ، فأراد أن يعمل شيئا لايهتدى إليه ، فأخذ طشتا من النحاس وجعل فيه دما ، وجعل فى الدم كرسيا من الذهب ، وجلس على الكرسى أياما فطلبه الملك ، وبلغ فى طلبه ، فلما عجز عنه قال لأبى معشر عرفنى موضعه بما جرت به عادتك ،فعمل المسألة التى يستخرج بها ذلك ، ثم سكت ساعة حائرا ، فقالله الملك ماسبب سكوتك ؟ فقال أرى شيئا عجيبا ، فقال ماهو ؟ قال أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب ، والجبل فى بحر من دم محيط بسور من نحاس ، ولا أعلم فى العالم موضعا على هذه الصفة ، فقال له أعد النظر ففعل ثم قال لاأرى إلا كما ذكرت ، وهذا شىء ماوقع

لى

لى مثله ؛ فلما أيس الملك من القدرة عليه بهذا الطريق نادى فى البلد بالأمان للرجل ، فلما حضر بين يديه سأله عن الموضع الذى كان فيه فأخبره بما فعل فأعجبه حسن احتياله فى إخفاء نفسه ولطافة أبى معشر فى استخراجه لذلك ، وهذا من العجائب ، ولأبى معشر إصابات كثيرة من هذا النوع .

حكى القاضى أبو اليسر عطاء أن جبلا يقال له جبل كورة فيه غار فى أعلى الغار نقب كفم الكوز إذا دخل إليه إنسان وجد فى ذلك النقب حزمة من قضبان عددها خمسة عشر قضيبا لايدرى من أىّ شيء هى ؟ فاذا حلت تلك العقدة لايقدر أحد أن يعقد مثلها ، وإذا أخذ الانسان تلك الحزمة وخرج بها من الغار سقطت أخرى مكانها هكذا دائما أبدا ، وهذا من أغرب مايسمع .

ومن العجائب جبل عظيم بقرب مدينة در بيك فى أسفله ضيعة يسكنها قوم ليس لهم شغل سوى الدروع وآلات الحروب وليس لهم زراعة ولا بساتين ،وهم أكثر الناس خيلا ومالا يقصدهم الناس من سائر الآفاق بكثير من السلع والانعام .

ومن عجيب أمرهم أنهم إذا مات فيهم الميت ، فان كان رجلا أسلموه إلى رجال فى بيوت تحت الأرض يقطعون أعضاءه وينقون عظامه من اللحم والمخ ، ويجعلون لحمه ناحية ويضعونه للغربان السود تأكله ويقفون بالقسىّ يمنعون غيرها من الحيوان والطير أن يأكل منه ، وإن كان الميت امرأة أسلموها إلى نساء تحت الأرض فيخرجن عظامها ويطعمن لحمها للحدأ ، ومن حسرة الملوك أن لايقدروا على واحد منهم لأنهم ليس لهم دين يعرف ولا يعطون لأحد طاعة ، وحاصرهم الأمير سيف الدين محمد صاحب دربيك ، وكان فى عسكر عظيم ، فحين رأوا العسكر قد أحاط بهم خرج من تحت الأرض جماعة منهم عليهم الأسلحة المحكمة ، فأشاروا بأيديهم إلى الجبال وتكلموا بكلام لايفهم ، ثم غابوا تحت الأرض ، وإذا بريح عظيمة وثلج وبرد ، وكادت السماء تنطبق على الأرض فلم يبق من العسكر إلا من سقط على وجهه وهرب ، فيصدم بفرسه صاحبه فيقتله ، فحين بعدوا عن القرية انكشفت تلك الثلوج وفقد من العسكر خلق كثير ، وذلك من سحر أولئك الذين يجرّدون اللحم عن عظام الموتى تحت الأرض ، وهذا من العجائب .

قال فى مرآة الزمان جبل الفتح من أعظم جبال الدنيا فيه أمم كثيرة وممالك وهم اثنتان وسبعون أمة كل أمة لها لسان وملك، وفيه شعاب وأودية ومدن . قال وفى هذا الجبل قرود يقف القرد على رأس الملك ، فاذا كان الطعام مسموما غمز القرد الملك بعينه ، فحينئذ يمتنع من الأكل .

وقال ابن الجوزى فى المرآة ان بين الهند والصين بطة من نحاس على عمود من نحاس فاذا كان يوم عاشوراء مدّت عنقها إلى نهر تحتها فشربت منه ثم عادت على ما كانت عليه ، ثم تفتح منقارها فيفيض منه من الماء ما يكفى سكان تلك البلاد وزروعهم ومواشيهم إلى مثل عاشوراء من السنة القابلة ، ثم تفعل مثل مافعلت فى العام الماضى .

وقال فى المرآة إن فى أرض الموصل جبلا قريبا من ناحية الشرق عليه دير يقال له دير

الخنافيس للنصارى فيه عيد فى ليلة من العام .

قال ابن الجوزى حكى لى جماعة من أهل الموصل أنه فى تلك الليلة تصعد إليه جميع الخنافس التى فى الدنيا ، وتبيت فيه ألوف من الناس يمشون عليها طول الليل ، فاذا طلع الصباح لم يوجد للخنافس أثر و بأرض المغرب مثله .

وقال فى المرآة ومن العجائب دير الزرازر ، وذلك أنه يقصده فى يوم معلوم من السنة كل زرزور على وجه الأرض ، ومع كل واحد ثلاث زيتونات واحدة فى منقاره واثنتان فى رجليه فيلقون ذلك جميعه فى الدير ، فيعتصر منه الرهبان ما يكفيهم لسرجهم وإدامهم ويبيعون منه لمئونتهم إلى العام القابل ، وهذا الدير فى مدينة رومية .

قال الزمخشرى فى كتابه [ربيع الأبرار] مدينة تبت يسكنها اليوم الترك وهى التى ينسب إليها المسك التبتى يقال إن من أقام فيهما أصابه سرور لايدرى ماسببه ، ولا يزال ضاحكا متبسما حتى يخرج منها .

قال فى المرآة بلاد الصين وأهلها موصوفون بالصناعة الدقيقة والتصاوير العجيبة يعرف مصورهم فى تصويره بين من هو ضاحك ، ومن هو خجلان ، ومن هو مستهزئ ، ومن هو مسرور .

قال بعض السائحين دخلت مدينة ، فرأيت فيها ثلاث عجائب لم أر مثلها قط : رأيت رجلا فلس فى مد من نوى فلسه القاضى ، ورأيت شيخا كبيرا يدور على بيوت القيان ماشيا يعلمهم الغناء ، فاذا حضرت الصلاة صلى قاعدا ، ورأيت رجلا أعسر يكتب بشماله وهو يسبق من يكتب بيمينه .

ومن أغرب مايسمع وأجله ماحكاه العمرى أنه رأى فى مدينة نهاوند وردا أصفر فى الوردة ألف ورقة ، وذكر أنه عدها فكانت كذلك .

حكى الثعالبي فى كتابه [العرائس] أن الهدهد يرى الماء تحت الأرض كما يرى أحدكم الشراب فى كأسه .

قال صاحب غرائب العجائب جبل الطير بصعيد مصر الأدنى مطل على النيل وفيه أعجوبة لم ير مثلها فى سائر الأقاليم وهى باقية إلى يومنا هذا ، وذلك أنه إذا كان آخر فصل الربيع قدم إليه فى يوم معلوم طيور كثيرة بلق سود الأعناق مطوقات الحواصل سود أطراف الأجنحة فى زعاقها بحاحة يقال لها طير البح لها صياح يسد الآفاق ، فتقصد مكانا فى ذلك الجبل ، فينفرد منها طائر واحد فيضرب بمنقاره فى مكان مخصوص فى شعب الجبل عال لا يمكن الوصول إليه ، فان علق تفرقت الطيور عنه ، وإن لم يعلق تقدم غيره وضرب بمنقاره فى ذلك الموضع ، وهكذا واحد بعد واحد حتى يعلق منهم واحد فيبقى معلقا بمنقاره ، فتتفرق عنه الطيور حينئذ وتذهب إلى حيث جاءت ، فلا يزال معلقا بمنقاره إلى أن يموت فيضمحل فى العام القابل و يسقط ، فتأتى الطيور على عادتها فى السنة القابلة فتعمل العمل المذكور . قال وقد أخبرنى بهذا غير واحد من المصريين ممن شاهد ذلك ، وهذا مشهور معروف بمصر إلى يومنا هذا .

ومن العجائب ما حكاه كثير من المؤرخين أنه كان ببابل سبع مدائن فى كل مدينة أعجوبة

ففى

ففي أحدهما : تمثال الأرض ، فاذا التوى على الملك بعض أهل مملكتـه بخراجهم خرق أنهارهم عليهم فى التمثال فلا يطيقون سـدّ الشق حتى يعتدلوا فى ذلك البلد ومالم يسد فى التمثال لايسدّ فى ذلك البلد .

وفى الثانية : حوض إذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه أتى كل واحد بما أحب من شراب فصبه فى ذلك الحوض ، فاختلطت الأشربة ، فـكل من سقى منه كان شرابه الذى جاء به .

وفى الثالثة : طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهله قرعوه ، فان كان حيا سمع له صوت ، وإن كان ميتا لم يسمع له صوت .

وفى الرابعـة : مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها فأبصروه على أى حالة هو عليها كأنهم يشاهدونه .

وفى الخامسـة : أوزة من نحاس ، فاذا دخل فيها الغريب صوّتت الاوزة صـوتا يسمعه أهل المدينة .

وفى السادسة: قاضيان جالسان على الماء فيأتى الخصمان ، فيمشى المحقّ على الماء حتى يجلس مع القاضيين ، ويقع المبطل فى الماء .

وفى السابعة : شجرة ضخمة لاتظلّ إلا ساقها ، فان جلس أحـد أظلته إلى ألف شخص ، فاذا زادوا على الألف واحدا جلسوا فى الشمس كلهم .

الـكهنة السبعة الذين ملـكوا مصر

ولهم من الأعمال العجيبة والأمور الغريبة ما يكاد يعدّ من قبيل المحال .

الـكاهن الأوّل : اسمه صيلم وهو أوّل من اتخذ مقياسا لزيادة النيل وعمل بركة من نحاس وعليها عقابان ذكر وأنثى وفيها قليل من الماء ، فاذا كان أوّل شهر يزيد فيـه النيل اجتمعت الـكهنة وتكلموا بكلام فيصفر أحد العقابين ، فان كان الذكر كان النيل فى الزيادة ، وإن كانت الأنثى كان النيل فى النقصان .

الـكاهن الثانى : اسمه اعشامش من أعماله العجيبـة أنه عمل ميزانا فى هيكل الشمس ، وكتب على الـكفة الأولى حقا ، وعلى الثانيـة باطلا ، وعمل تحتها فصوصا ، فاذا حضر الظالم والمظلوم أخذ فصين وسمى عليهما ما يريد ، وجعل كل فص منهما فى كفة ، فتثقل كفة المظلوم وترتفع كفة الظالم .

الـكاهن الثالث : عمل مرآة من المعادن ، فينظر فيها الأقاليم السبعة فيعرف ما أخصب فيها وما أجدب وماحدث من الحوادث ، وعمل فى وسط المدينة صورة امرأة جالسـة فى حجرها صبىّ كأنها ترضعه ، فأىّ امرأة أصابها وجع فى جسمها مسحت ذلك الموضع فى جسـد تلك الصورة فتبرأ من ساعتها .

الـكاهن الرابع عمل شـجرة لها أغصان من حـديد بخطاطيف إذا قرب منها الظالم خطفته وتعلقت به فلا تفارقه حتى يقرّ بظلمه .

وعمل صنما أسود سماه عبد زحل يتحاكمون إليه ، فمن زاغ عن الحق ثبت فى مكانه ، ولم يقدر على الخروج حتى ينتصف من نفسه ، ولو أقام سبع سنين .

الكاهن الخامس : عمل شجرة من نحاس فكل وحش وصل إليها لم يستطع الحركة حتى يؤخذ ، فشبعت الناس فى أيامه لها .

وعمل على باب المدينة صنمين صنما عن يمين الباب ، وصنما عن شماله ، فاذا دخل أحد إن كان من أهل الخير ضحك الصنم الذى عن يمين الباب ، وإن كان من أهل الشر بكى الصنم الذى عن يسار الباب .

الكاهن السادس : عمل درهما إذا اشترى صاحبه شيئا اشترط أن يزن له بزنته من النوع الذى يشتريه ، فاذا وضع فى الميزان ووضع فى مقابلته كل ما وجد من الصنف الذى يريد شراءه لم يعدله ، ووجد هذا الدرهم فى كنوز مصر فى أيام بنى أمية .

الكاهن السابع : كان يعمل أعمالا عجيبة من جملتها أنه كان يجلس فى السحاب فى صورة إنسان عظيم ، فأقام مدة ثم غاب ، فأقاموا بلا ملك إلى أن رأوه فى صورة الشمس فى برج الحمل فأخبرهم أنه لايعود إليهم ، وأن يولوا فلانا بعده .

حكى أن رجلا فيلسوفيا فى زمن خوارزم شاه محمد جاء من بلاد الهند إلى خراسان فأسلم ، وكان يستخرج طالع كل إنسان أراد حتى جربوه بالطوالع الرصدية ، فلم يخطئ شيئا ، وزعم أن ذلك بواسطة حساب يعرفه ، فرفع أمره إلى السلطان ، فقال له هل تقدر على استخراج غير الطوالع ؟ قال نعم . قال أخبرنى عما رأيت البارحة فى نومى ، فرجع إلى نفسه وحسب ثم قال : رأى السلطان أنه فى سفينة و بيده سيف ، وقال السلطان لقد أصاب لكنا لانقنع بهذا القدر لأنى على طرف جيحون كثيرا ما أركب السفينة والسيف لايفارقنى فربما قال اتفاقا ، فامتحنه مرة أخرى فأصاب فقربه من نفسه ، وكان يستعين به فى أموره .

معرفة حال الشخص

احسب اسم الشخص واسم أمه واسم أبيه بالجمل المشهور واطرحه سبعة سبعة فان بقى واحد فهو أحمق سريع الحركة ، وإن بقى اثنان فهو حليم لطيف متأنى ، وإن بقى ثلاثة فهو قاسى القلب متعدظالم ، وإن بقيت أربعة فهو مضحك كثيرالتحوّل والانتقال ، وإن بقيت خمسةفهوفطن حاذق فصيح متكلم ، وإن بقيت ستة فهو محب للخمور إلا أنه صاحب كرم وشفقة ورحمة ، وإن بقيت سبعة فهو جائر جبار ، والله أعلم بغيبه ذكره فى مفاتح الغيب ، وفيه

قاعدة فى معرفة ما يعترى الأطفال من الأمراض والأسقام

إذا سئلت عن طفل مريض ما مرضه ومن أىّ شىء هو وهل يئول إلى الموت أم السلامة ؟ فاحسب الحرف الأوّل من اسمه بالجمل ، وأوسط حرف من اسم أمه ، وآخر حرف من اسم أبيه ، وأوّل حرف من اسم اليوم الذى سئلت فيه ، وأوسط حرف من اسم الشهر ، وآخر حرف من اسم النبى ﷺ واجمع العدد ثم أسقطه سبعة سبعة أو اقسمه على سبعة وانظر الباقى ، فان كان

واحدا فرضه من العين ، وعلامته كثرة البكاء والسهر وترك الزاد ويرجى شفاؤه ، وإن كان اثنين فمن القرينة ، وعلامته يسخن ويبرد ويرتعش ويغمى عليه وينام قليلا ويشرب كثيرا ولا يأكل وهو طيب سالم ، أو هو أقرب للسلامة ، وإن كان ثلاثة فمن الأرض ، وعلامته يبس الأعضاء والسهر والقلق والفزع من النوم ويأكل ويشرب ويطول مرضه ولا يؤمن عليه من زيادة الأمراض ، وإن كان أربعة فمن البرد وعلامته السخونة والارتخاء وترك الأكل والشرب وهو يشفى من هذا المرض وتتناوبه أمراض وهو سليم القلب ، وإن كان خمسة فرضه من ابن أمه وعلامته تغيير اللون والقرقرة وهفتان النفس وعدم الأكل والشرب إلا القليل وهو إلى السلامة أقرب ، وإن كان ستة فمن سقطة سقطها أو شجة ، وعلامته كثرة البكاء والفزع والتألم والسقم الزائد وكثرة الشرب وإن كان سبعة فمن الله بغير أسباب مما ذكرت وعلامته السخونة والاغماء والرقاد والبكاء وهو طيب إن أبطأ فى مرضه والله أعلم اهـ .

من أغرب مايسمع ماذكره فى ربيع الأبرار أن أرض حمص لاتعيش بها العقارب ، وزعم أهلها أن ذلك لطلسم ، وإن طرحت فيها عقرب غريبة ماتت لوقتها .

قال وقد سمعت من شخص من أهل حمص أنه رحل منها وسكن فى مصر ، وكان من جملة أمتعته التى اصطحبها معه بساط ففرشه بالمنزل الذى سكن فيه بمصر ، فكان كلما دب عليه عقرب مات لوقته وهذا عجيب اهـ .

الناس علَى دين ملوكهم

كان الوليد بن عبد الملك بن مروان مشغوفا بتشييد البنيان ، فكان الناس فى زمانه ليس لهم همة إلا تشييد البنيان والقصور .

ثم ولى بعده أخوه سليمان بن عبد الملك بن مروان ، فكان مشغوفا بكثرة الأكل وتنويع الأطعمة وتكثير الألوان ، فكان الناس فى زمانه يتفاخرون بالتوسعة فى تنويع المأكولات ، وينهمكون فى التلذذ بالشهوات .

ثم ولى بعده عمر بن عبد العزيز الملحق بالخلفاء الراشدين ، فكانت همته بالطاعات والعدل وإقامة الدين ، فكان الناس فى زمنه راغبين فى فعل الطاعات مستكثرين من فعل الخيرات ، فالخليفة به صلاح الأمة وفسادها .

فضائل الأَيام وخواصها

يوم الجمعة عيد الملة الحنيفية وسيد الأيام . روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أسكن الجنة ، وفيه أهبط منها ، وفيه تاب الله عليه ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة لايوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه] ، وروى ابن مسعود [من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله منه داء وأدخل

فيه شفاء] ويقال : إنّ قلم الأظفار يوم الجمعة ينفى الفقر .

يوم السبت هو عيد اليهود ، وزعم أصحاب الفلاحة أن النخلة إذا غرست يوم السبت لم تحمل .

يوم الأحد عيد النصارى . قال أصحاب السير : ان أوّل الأيام الأحد وهو أوّل أيام الدنيا، وبدأ الله فيه خلق الأشياء .

يوم الاثنين يوم مبارك كان رسول الله ﷺ كثير المواظبة على صومه وصوم يوم الخميس ، فسئل عن ذلك ، فقال هما يومان ترفع فيهما الأعمال ، فأنا أحبّ أن يرفع عملى وأنا صائم .

يوم الثلاثاء تستحبّ فيه العقود وإصلاح حال النفس والحجامة ، وقيل إن قابيل قتل هابيل يوم الثلاثاء .

الاربعاء يوم قليل الخير والاربعاء الأخير من الشهر يوم نحس مستمرّ .

يوم الخميس يوم مبارك لاسيما لطالب الحوائج وابتداء السفر ،وكان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا لايخرج إلا يوم الخميس ، وتكره الحجامة فيه .

روى حمدون بن إسماعيل قال سمعت المعتصم بالله العباسى يحدث عن المأمون عن الرشيد عن المهدى عن المنصور عن أبيه عن جدّه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ ﷺ أنه قال [من احتجم يوم الخميس فمات فى ذلك المرض] قال دخلت على المعتصم يوم الخميس فاذا هو يحتجم ، فلما رأيته وقفت واجما ساكتا حزينا ، فقال ياحمدون لعلك تذكرت الحديث الذى حدثتك به ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، فقال والله ماتذكرت حتى شرط الحجام ،فحمّ من ساعته وكان المرض الذى مات فيه رحمه الله تعالى .

﴿ فائدة ﴾ قال جعفر الصادق رضى الله عنه إذا أشكل عليك أوّل شهر رمضان فعدّ الخامس من الشهر الذى صمته فى العام الماضى ، فانه أوّل يوم من شهر رمضان الذى فى العام المقبل ، وقد امتحنوا ذلك خمسين سنة فكان صحيحا .

يحكى أنه كان فى بنى إسرائيل شاب عابد ، وكان الخضر عليه السلام يأتيه ، فسمع بذلك ملك زمانه فأحضره بين يديه ، وقال إذا جاءك الخضر فأتنى به وإلا قتلتك ، فقال الشاب ويحك أآتيك بالخضر ؟ قال نعم وإلا قتلتك ، فرجع الشاب إلى مكانه متفكرا فى أمره حتى جاء الخضر عليه السلام فحدثه بحديث الملك ، فقال امض بى إليه ، فلما دخلا على الملك . قال له الملك أنت الخضر ؟ قال نعم . قال حدثنى بأعجب شىء رأيته ، فقال الخضر عليه السلام رأيت كثيرا من عجائب الدنيا وأحدثك بما أحضرنى الآن كنت فى اجتيازى مررت بمدينة كثيرة الأهل والعمارة سألت رجلا من أهلها متى بنيت هذه المدينة ؟ فقال هذه مدينة عظيمة ماعرفنا مدّة بنائها نحن ولا آباؤنا ، ثم اجتزت بها بعد خمسمائة سنة ، فلم أر للمدينة أثرا ، ورأيت هناك رجلا يجمع العشب فسألته متى خربت هذه المدينة ؟ فقال لم تزل هذه الأرض كذلك ، فقلت أما كان هاهنا مدينة ؟ فقال مارأينا هاهنا مدينة ولا سمعنا عن آبائنا ، ثم مررت بها بعد خمسمائة سنة ، فوجدت بها

بحرا

بحرا ، فلقيت هناك جمعا من الصيادين فسألتهم متى صارت هذه الأرض بحرا ؟ فقالوا مثلك يسأل عن هـذا إنها لم تزل كذلك . قلت أما كان قبل ذلك يبسا ؟ قالوا مارأيناه ولا سمعنا به عن آبائنا ، ثم اجتزت بعد خمسمائة سنة وقد يبست فلقيت بها شخصا يختلى ، فقلت متى صارت هـذه الأرض يبسا ؟ فقال لم تزل كذلك ، فقلت له أما كان بحر قبل هـذا ؟ فقال مارأينا ولا سمعنا به قبل هذا ، ثم مررت بها بعد خمسمائة عام فوجدتها مدينة كثيرة الأهل والعمارة أحسن مما رأيتها أوّلا ، فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة ، فقال إنها عمارة قديمة ماعرفنا مدة بنائها نحن ولا آباؤنا ، فقال الملك إنى أريد أن أتبعك وأفارق ملكى ، فقال له إنك لاتقدر على ذلك ولكن اتبع هذا الشاب فانه يدلك على الرشاد ، والله الموفق للصواب .

ذكر السمرقندى أن ذا القرنين أراد أن يعرف ساحل البحر الأبيض ، فبعث مركبا فيـه وأمره بالمسير سـنة كاملة لعـله أن يأتى بخبر ، فسار المركب سـنة كاملة مارأى سوى سطح الماء وأراد الرجوع ، فقال بعضهم نسـير شهرا آخر لعلنا نطلع على شىء نبيض به وجوهنا عنـد الملك ونقلل الزاد والماء فى الرجوع فساروا شهرا آخر ، فاذا هم بمركب فيـه أناس ، فالتقى المركبان ولم يفهم أحـدهما كلام الآخر ، فدفع قوم ذى القرنين إليهم امرأة وأخذوا منهم رجلا ورجعوا به وزوّجوه امرأة منهم فأتت بولد يفهم كلام الوالدين ، فقالوا سل أباك من أين جئت ؟ فسأله فقال بعثنا الملك لنعرف حال هـذا الجانب ، فقيل له قل وهل له لـكم ملك ؟ قال نعم أعظم من هذا الملك .

ذكر أن مراكب الاسكندر وصلت إلى بحر الصين ، فوقعت فى جزيرة فيها قوم على هيئة الانسان رءوسهم كرءوس السباع ، فلما دنوا منهم غابوا عن أبصارهم .

وذكروا لجزائر بحر الصين من العجائب مايستغرب ، منها جزيرة تعرف برامانى. قال ابن الفقيه فيها ناس حفاة عراة رجال ونساء لايعرف كلامهم مساكنهم رءوس الأشجار ، وعلى أبدانهم شعور تغطى سوآتهم وهم أمة لايحصى عددها مأكلهم ثمار الأشجار طول أحدهم أربعة أشبار وجوههم عليها زغب أحمر ، ومنها جزيرة الوقواق والمسير إليها بالنجوم تملكها امرأة . قال موسى بن المبارك السيرافى دخلت عليها فرأيتها على سرير عريانة وعلى رأسها تاج من ذهب ، وعنـدها أربعة آلاف وصيفة أبكارا . قالوا وإنما سميت بهذا الاسم لأن بها شجرا يسمع من يمرّ بها صوته كأنه يقول وقواق .

ومنها جزيرة البنان فيهما قوم عراة ألوانهم بيض ولهم جمال وحسن صورة يأوون إلى رءوس الجبال ويأكلون الناس ، ومن ورائها جزيرة فيها قوم سـود لهم خلق عادى أجسامهم عظيمة ووجوههم طوال ، وقدم أحدهم مقدار ذراع ويأكلون الناس أيضا .

حكى أن أصحاب ذى القرنين رأوا فى بعض جزائر بحر الهنـد أمة رءوسهم رءوس الـكلاب وأنيابهم خارجة من أفواههم مثل لهيب النار خرجوا إلى المراكب وحاربوهم ، فرأوا نورا بعيـدا ساطعا ، فاذا هو قصر من البلور تخرج منه هـذه الأمة ، فأراد ذو القرنين النزول عليهم ودخول القصر فمنعه بهرام الفيلسوف ، وقال من نزل هذا القصر يغلبه النوم والغشى ولا يستطيع الخروج فتظفر به هذه الامة .

وفي جزائر هذا البحر من العجائب مايستغرب ، منها سمكة كبيرة معروفة عندهم يكتب الكتاب برطوبتها لايبين على الكاغد شيء ، فاذا كان الليل يظهر على الكاغد كتابة واضحة ويكتب برطوبتها من أراد أن لايطلع على مكتوبة أحد .

ومنها سمكة خضراء رأسها كرأس الحية من أكل منها اعتصم عن الطعام أياما .

[بحر فارس] ومن عجائبه جزيرة التنين وهي جزيرة واسعة عامرة ، وفيها جبال وأشجار وعلى حصونها سور عال يظهر به تنين عظيم ، فاستغاث أهلها بالاسكندر ، وذكروا أن التنين أتلف مواشيهم ، وأنهم يأخذون له كل يوم ثورين وينصبونهما قريبا من موضعه ، فيقبل كالسحابة السوداء وعيناه تتقدان كالبرق الخاطف والنار تخرج من فيه فيبلع الثورين ويعود إلى موضعه ، فلما سمع الاسكندر ذلك أمر باحضار الثورين فسلخهما وحشا جلودهما زفتا وكبريتا وكلسا وزرنيخا، وجعل مع ذلك كلاليب من حديد وجعلهما في ذلك المكان، فخرج التنين وابتلعهما، فاضطربت أحشاؤه في جوفه وتعلقت الكلاليب بأحشائه ، فانتظره الناس في اليوم الآخر فما وجدوا له أثرا فذهبوا إليه فاذا هو ميت فاتح فاه ، ففرح الناس بموته ، وشكروا سعي الاسكندر وحملوا إليه هدايا عجيبة .

قال في عجائب المخلوقات : وروى عن بعضهم أنه رأى تنينا ميتا ، فوجد طوله نحو الفرسخين ولونه مثل لون النمر ، وله جناحان عظيمان على هيئة جناح السمك ، ورأس مثل التل العظيم كرأس الانسان ، وأذنان طويلتان ، وعينان مدورتان كبيرتان جدا ، ويتشعب من عنقه ستة أعناق طوال كل عنق نحو عشرين ذراعا على كل عنق رأس كرأس الحية .

وحكى عن بعض التجار . قال ركبت بحر الزنج ، فدارت بي الدوائر حتى وجدت في بعض جزائره ، فرأيت فيها خلقا كثيرا ، وبقيت بها زمانا ، واستأنست بهم ، وتعلمت لغتهم ، فاذا الناس في بعض الأيام مجتمعون ينظرون إلى كوكب طلع من أفقهم ، ثم شرعوا في البكاء والعويل وقالوا إن هذا الكوكب يطلع في كل ثلاثين سنة مرة ، فاذا وصل إلى سمت رءوسنا يحرق ما في هذه الجزيرة ، فتأهبوا للنقل في المراكب ، فلما دنا الكوكب من سمت رءوسهم ركبوا فيها وأخذوا معهم ماخف من القماش ، فركبت معهم فغبنا عنها مدة ، فلما علموا أن الكوكب زال عن سمت رءوسهم عادوا إليها ، فوجدوا جميع ما كان فيها رمادا ، فشرعوا في استئناف العمارة .

وحكى عن يعقوب بن إسحاق السراج . قال رأيت رجلا من أهل رومية . قال ركبت بحر الزنج، فعارضتني ريح أوصلتني إلى بعض جزائره ، فوجدت هناك مدينة أهلها ناس قامتهم قدر ذراع وأكثرهم عور ، فاجتمع علي جمع منهم وساقوني إلى ملكهم ، فأمر بحبسي فجعلوني في شبه قفص فكسرته فأمنوني ، فرأيتهم في بعض الأيام يتأهبون للقتال ، وقالوا لنا عدو يأتينا ، وهذا أوان مجيئه ، فلم نلبث أن طلعت عليهم عصابة من الغرانيق ، وكان عور أعينهم من الغرانيق ، فأخذت عصا وشددت عليها فطارت وذهبت فأكرموني ، وذكر أرسطاطاليس في كتاب الحيوان أن الغرانيق تنتقل من خراسان إلى ناحية مصر حيث يسيل ماء النيل تقاتل هناك رجالا قامتهم قدر ذراع .

والغرنيق طائر أبيض طويل العنق من طير الماء ، وقيل أسود فى قدر البط .

قال الدميرى فى حياة الحيوان : وروى أن ذا القرنين لما بنى السد وأحكمه انطلق يسير حتى وقع على أمة صالحة يهدون بالحق وبه يعدلون مقسطة مقتصدة ، يقسمون بالسوية ، ويحكمون بالعدل ، ويتراحمون ، حالهم واحدة ، وكلمتهم واحدة ، وأخلاقهم مستقيمة ، وطريقهم مستوية ، وقبورهم بأبواب بيوتهم ، وليس لبيوتهم أغلاق ، وليس عليهم أمراء ، ولا بينهم قضاة ، ولا بينهم أغنياء ، ولا فقراء ، ولا أشراف ، ولا ملوك . لا يختلفون ، ولا يتفاضلون ، ولا يتنازعون ، ولا يتسابون ، ولا يقتتلون ، ولا يضحكون ، ولا يحزنون ، ولا تصيبهم الآفات التى تصيب الناس وهم أطول الناس أعمارا ، وليس فيهم مسكين ، ولا فقير ، ولا فظ غليظ ، فلما رأى ذلك ذو القرنين عجب من أمرهم ، وقال أخبرونى أيها القوم خبركم فانى قد أحصيت الدنيا كلها برّها وبحرها ، شرقها وغربها فلم أر أحدا مثلكم فخبرونى خبركم ؟ قالوا نعم . فسل عما تريد ؟ قال خبرونى ما بال قبوركم على أبواب بيوتكم ؟ قالوا عمدا فعلنا ذلك لئلا ننسى الموت ، ولئلا يخرج ذكره من قلوبنا . قال فما بال بيوتكم ليس عليها أغلاق ؟ قالوا ليس فينا متهم ، وليس منا إلا أمين . قال فما بالكم ليس عليكم أمراء ؟ قالوا لاحاجة لنا بذلك . قال فما بالكم ليس عليكم حكام ؟ قالوا لأنا لا نختصم . قال فما بالكم ليس فيكم أغنياء ؟ قالوا لانا لا نتكاثر بالأموال . قال فما بالكم ليس فيكم أشراف ؟ قالوا لانا لانتفاخر . قال فما بالكم لا تتنازعون ، ولاتختلفون ؟ قالوا من صلاح ذات بيننا . قال فما بالكم لاتقتتلون ؟ قالوا من أجل أنا سسنا أنفسنا بالحكم . قال فما بال كلمتكم واحدة وطريقتكم مستقيمة ؟ قالوا لكوننا لا نتكاذب ، ولا نتخادع ، ولا يغتب بعضنا بعضا . قال فأخبرونى من أىّ شىء تشابهت قلوبكم واعتدلت سرائركم؟ قالوا صحت نياتنا فنزع بذلك الغلّ من صدورنا والحسد من قلوبنا . قال فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير ؟ قالوا لكوننا نقتسم أموالنا بالسوية . قال فما بالكم ليس فيكم فظ غليظ ؟ قالوا لاتصافنا بالذل والتواضع لربنا . قال فلأىّ شىء أنتم أطول الناس أعمارا ؟ قالوا لكوننا نتعاطى بالحق ونحكم بالعدل . قال فلأى شىء لاتضحكون ؟ قالوا لئلا نغفل عن الاستغفار . قال فما بالكم لا تحزنون ؟ قالوا من أجل أنا وطنا أنفسنا للبلاء مذ كنا أطفالا ، فأحببناه وحرصنا عليه . قال فلأىّ شىء لاتصيبكم الآفات كما تصيب الناس ؟ قالوا لأنا لا نتوكل على غير الله تعالى ، ولا نعمل بالأنواء والنجوم . قال حدثونى هكذا وجدتم آباءكم ؟ قالوا نعم وجدنا آباءنا يرحمون مساكينهم ، ويواسون فقراءهم ، ويعفون عمن ظلمهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ، ويحلمون على من جهل عليهم ، ويصلون أرحامهم ، ويؤدّون أماناتهم ، ويحفظون وقت صلواتهم ، ويوفون بعهودهم ، ويصدقون فى مواعيدهم ، فأصلح الله بذلك أمرهم وحفظهم ماداموا أحياء ، وكان حقا عليه أن يخلفهم بذلك فى عقبهم ، فقال ذو القرنين لو كنت مقيما عند أحد لأقمت عندكم ولكن لم أؤمر بالاقامة اهـ .

قال فى عجائب المخلوقات من حيوانات بحر الزنج سمكة تعرف بالمنشار مثل الجبل العظيم ، ومن رأسها إلى ذنبها أسنان مثل المنشار من عظام سود كل سنّ منها فى رؤية العين مقدار ذراعين ، وهذه السمكة تقطع السفينة إذا عبرت من تحتها أو خرجت عليها ، فاذا رأى أصحاب المراكب هذه السمكة يضجون إلى الله تعالى حتى يدفعها عنهم .

قال ومنها سمكة تعرف بالبال طولها أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع ، وأهل المراكب تفزع منها ليلا ونهارا فاذا أحسوا بها ضربوا بالدبادب وضجوا حتى تنفر، وانها تحشر بذنبها وأجنحتها السمك إلى فيها ، فاذا بغت على حيوان البحر بعث الله سمكة نحو الذراع فتلتصق بأذنابها ولا خلاص للبال منها فتطلب قعر البحر وتضرب الارض بنفسها حتى تموت ، وتطفو فوق الماء كالجبل العظيم .

قال ومنها سمكة تعرف بالبغل . قال أبو حامد الأندلسى رأينا بمجمع البحرين سمكة مثل جبل عظيم صاحبة صيحة ماسمعت أهول منها، يكاد القلب ينشق منها فاضطرب الماء منها ، وكثرت الامواج حتى خفنا الغرق . قال البحريون انها سمكة يقال لها البغل هربت من السمكة الكبيرة ، وذلك أن السمكة الكبيرة تتبعها لتأكلها فى بحر الظلمات فتنفر منها وتعبر فى مجمع البحرين إلى بحر الروم وتأتى السمكة الكبرى خلفها لتعبر فى مجمع البحرين فلا يمكنها لعظمها .

قال ومنها سمكة تعرف بالمنارة ترمى نفسها على السفينة فتكسرها وتغرقها ، فاذا أحس الناس بها ضربوا بالطشوت والبوقات لتبعد عنهم .

قال وحكى بعض التجار . قال مرّت بنا سمكة وانتهى ذنبها بعد أربعة أشهر .

قال : السرطان هو حيوان لارأس له ، وعينه على قفاه وفه على صدره،وله ثمانية أرجل يمشى على أحد جانبيه ، وفى كل سنة يسقط جلده سبع مرات ، ولمكانه بابان : أحدهما إلى الماء ، والآخر إلى اليبس، فاذا انسلخ جلده يسدّ الباب الذى فى الماء لئلا يدخل بيته شىء من حيوانات الماء فى حال ضعفه وعجزه ويترك الباب الذى على اليبس مفتوحا ليهبّ الهواء منه ، وإذا كثر وقوع الهواء عليه يصلب جلده ويعود إلى حاله ، فحينئذ يفتح باب الماء ويخرج منه لطلب معاشه .

حكاية عجيبة . قال القزوينى كنت بالموصل عند بعض كبرائه فى بستان له و بنى فيه مجلسا و بركة وتوالدت الضفادع فيها ، وكان نعيقها يؤذى سكان المجلس طول الليل ، فقال الأمير دبروا دفع هذا النعيق فما أفاد شيئا حتى جاء رجل ، وقال اجعلوا طشتا على وجه الماء مكبوبا ففعلوا فلم يسمع بعد ذلك شىء من النعيق أصلا اه .

وروى أن المسلمين لما فتحوا مصر جاء أهلها إلى عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وقالوا أيها الأمير إن لبلادنا سنة لايجرى النيل إلا بها ، وذلك أنه إذا كان لاثنتى عشرة ليلة من شهر بئونة عمدنا إلى جارية بكر فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلىّ والثياب أفضل مايكون وألقيناها فى النيل ليجرى ، فقال لهم عمرو إن هذا فى الاسلام لايكون ، فأقاموا بئونة وأبيب ومسرى يعنى ثلاثة شهور والماء لايجرى قليلا ولا كثيرا وهمّ الناس بالجلاء ، فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلمه بذلك ، فكتب فى جوابه : أمّا بعد فقد أصبت فى أن هذا فى الاسلام لايكون،وقد بعثت إليك بطاقة فألقها داخل النيل ، فاذافى الكتاب:من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر : أمّا بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الواحد القهار هو الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك ، فألقى عمرو بن العاص البطاقة فى النيل قبل الصليب بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء ، فأصبحوا يوم الصليب ، وقد أجرى الله تعالى النيل ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة .

قال صاحب تحفة الغرائب: مكان بدمغان يسمى كهب به عين إذا أراد أهل الضيعة هبوب الريح لتنقية الحبوب أخذوا خرقة الحيض ورموها فى تلك العين فيتحرك الهواء ، ومن شرب من مائها ينتفخ بطنه ، ومن حمل معه شيئا من ذلك الماء إذا فارق منبعه يصير حجرا .

وقال فى تحفة الغرائب بأرض باميان عين ينبع منها ماء كثير بصوت وجلبة ، ويشم منها رائحة الكبريت من اغتسل به يزول جربه اه .

قلت : ونظيره عين الكبريت التى عندنا بالمغرب وتعرف عند العامة بعين مولاى يعقوب .

قال القزوينى عين تعرف بشميرم وهى من ناحية أصبهان وشيراز بها مياه مشهورة ، وهى من عجائب الدنيا ، وذلك أن الجراد إذا وقع بأرض يحمل من ذلك الماء إليها بشرط أن لايوضع الظرف الذى فيه الماء على الأرض ، ولا يلتفت حامله وراءه ، فيتبع ذلك الماء من الطير الأسود عدد لايحصى ، ويقتل الجراد ، وهذا مجرب . قال ولقد وقع بأرض قزوين جراد كثير وأكل جميع زرعها وباضت ، فبعث أهل قزوين اطلب هذا الماء ، فجاءوا به فجاء الطير خلفه وأكل الجراد جميعه .

الجـــــــــراد

قال ابن جعفر الفاسى فى سلوة الأنفاس فى ترجمة أبى زيد عبد الرحمن مانصه : الجراد كله فى البحر المحيط بعضه من ناحية المشرق ، وبعضه من ناحية المغرب ، وبعضه من ناحية الجوف وبعضه من ناحية القبلة ، وله فى كل ناحية من النواحى الأربعة المذكورة فى البحر قصر عظيم أساسه فى الماء ورأسه كأنه متصل بسماء الدنيا له باب واحد عليه ملك ، وفى داخل ذلك القصر ثلثمائة وستون مخزنا كل مخزن مثل القبة وليس له إلا باب واحد عليه ملك ، وكل مخزن منها فيه جراد قوى لايحصى لو خرج لغطى الشمس مشرقا ومغربا ، وفى وسط هذا القصر قبة فى داخلها سلطان الجراد الذى فى ذلك المخزن ، وفى كل مخزن نهر عذب جار عليه ملك يسبح الله تعالى بسبعين ألف لغة يخلق الله قوت ذلك الجراد من ذلك التسبيح وخروج الجراد من تلك المخازن بالنوبة فى كل يوم يخرج جراد مخزن منها ويذهب به الملك حيث شاء الله عز وجل .

وفيها من ترجمة العارف مولاى الطيب الكتانى مانصه : من أهمه أمر كيفما كان فليتوضأ ويصل ركعتين ، ثم يقول : استغثت بك يامولاى رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك ثلاث مرات ، فان الله سبحانه وتعالى يقضى حاجته ويفرج كربته .

ذكر الجمل فى حاشيته على الجلالين أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وبعث النبى ﷺ فى الألف السادس ، ودلت الآثار على أن مدة أمته ﷺ تزيد على ألف سنة ، ولا تبلغ الزيادة عليه خمسمائة سنة اه من كتاب السيوطى ، سماه [الكشف عن مجاوزة هذه الألف] اه منها .

قلت ونحن فى المائة الرابعة عشرة .

يحكى أن رجلا قال لأبليس أحب أن أكون مثلك . قال اترك الصلاة ولا تحلف صادقا .

قال بعض الحكماء الأطباء : إذا لازمت خمسة عشر حالة فقد حفظت صحتك : لاتدخل طعاما على طعام ، ولا تمش حتى تعيي ، ولا تجامع عجوزا ، ولا تدخل حماما على الشبع ، وإذا جامعت فكن على حال وسط من الغذاء ، وعليك فى كل أسبوع بقيئة ، ولا تأكل الفاكهة إلا فى أوان

نضجها، ولا تأكل القديد من اللحم، وإذا تغديت فنم، وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة ونم على يسارك لتقع الكبد على المعدة فينهضم مافيها وتستريح الكبد من حرارة المعدة، ولا تنم على عينك فيبطئ الهضم، ولا تأكل بشهوة عينك بعد الشبع، ولا تنم ليلا حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج، واقعد على الطعام وأنت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه.

قال الغزالى فى الاحياء شهوة الفرج أغلب الشهوات على الانسان وأعصاها عند الهيجان على العقل، فمن ترك الزنا مع تيسر الأسباب وزوال الموانع وصدق الشهوة نال درجة الصديقين.

وفى الخبر: مامن عبد إلا وله صيت فى السماء، فان كان حسنا وضع فى الأرض، وان كان شينا وضع فى الأرض، والصيت بالكسر الذكر.

ذكر الامام ابن الجوزى فى كتابه نقد القلم مانصه: بينما موسى عليه السلام جالس فى بعض مجالسه إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس له يتلوّن فيه ألوانا، فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه، ثم أتاه وقال: السلام عليك ياموسى، فقال له موسى من أنت؟ قال أنا إبليس. قال فلا حياك الله،ماجاء بك؟ قال جئت لأسلم عليك لمنزلتك عند الله تعالى ومكانك منه. قال فما الذى رأيته عليك؟ قال به أختطف قلوب بنى آدم. قال فما الذى إذا صنعه الانسان استحوذت عليه؟ قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه، وأحذرك ثلاثا: لاتخلونّ بامرأة لاتحل لك قط فانه ماخلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها ولا تعاهد الله عهدا إلا وفيت به، فانه ماعاهد الله أحد إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء به، ولا تخرجنّ صدقة إلا أمضيتها، فانه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين إخراجها، ثم ولى وهو يقول: ياويله ثلاثا علم موسى مايحذر به بنى آدم.

وقوله عليه برنس وهو كل ثوب رأسه منه وهو المعروف عندنا بالسلهام.

ذكر ابن القيم فى كتاب الروح: أنّ للروح شأنا مع البدن فتكون فى الرّفيق الأعلى وهى متصلة ببدن الميت بحيث إذا سلم على صاحبها ردّ السلام وهى فى مكانها هـ.

قلت:وهذا صريح ماأخرجه ابن عساكر وغيره عن أبى هريرة أنه ﷺ قال: مامن عبد يمرّ بقبر رجل كان يعرفه فى الدنيا فسلم عليه إلا عرفه وردّ عليه السلام.

قال ابن حجر لكل روح اتصال معنوى بجسدها، أشبه شىء به حال النائم، وإن كان هو أشد من حال النائم اتصالا، ولا ينقطع الاتصال ولو تفرقت أجزاء البدن أو نقل إلى قبر آخر.

ونحو هذا ما ذكره الامام القرطبى وجمهور أئمة السنة والمكاشفات، وأشار إليه البيهقى فى الحديث الذى فيه «إنّ إبراهيم يرضع فى الجنة» مع أنه مدفون بالبقيع.

السهر

إنما يحمد شرعا إذا كان منوطا بالعبادة كتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى والصلاة على النبى ﷺ ونحو ذلك من أنواع العبادات. أمّا إذا كان مصحوبا بلغو الكلام، وهذيان العوام كما هو متعارف فى هذه الأعوام، من اجتماع الناس فى السهرات، وتكلمهم بما دبّ ودرج من أنواع الخرافات، لاسيما إذا اشتمل على الغيبة والنميمة والبهتان فذلك من أقبح القبائح، والنوم أولى بالنسبة إليه كما قيل نوم الظالم رحمة: أى للمظلومين، فانّ الظالم إذا نام استراحت الناس من شرّه حال نومه.

تنبيه

﴿ تنبيه ﴾ يحمد السهر إذا كان منوطا بالعبادة ما لم يؤدّ إلى وهن البدن وضعفه ، وعدم القيام بما فرض عليه من أداء فرضه ، أو ينشأ عن ذلك عدم حضور القلب فى صلاة الصبح أو لا يضبط ما صلى ، وهكذا فانّ السهر المؤدّى إلى ما ذكر لا يجوز شرعا .

الإحســـــان

الاحسان شىء جيل وأجل منه أن يحلّ محله ويصيب موضعه ، الاحسان من الناس كثير ووصوله إلى مستحقه ، وصاحب الحاجة إليه قليل .

فلو أضاف المحسن إلى إحسانه إصابة الموضع فيـه لما سمع سامع فى ظلمة الليل شكاية بائس ولا أنة محزون .

حكاية غريبة : ذكر الشعرانى فى لطائف المنن قال : سمعت سيدى عليا الخوّاص رحمه الله تعالى يقول : من صحب الأحمق فلا يلومنّ إلا نفسه فانه يريد أن ينفع صاحبه فيضرّه . قال : وقد بلغنا أن شخصا كان نحالا يقطف عسل النحل من كوارته ، وكان له صاحب جاهل لا ينظر فى العواقب فنام النحال والجاهل جالس عند رأسه فكان الذباب يقف عليه وهو ينشه عنه ، فلما أعجزه الذباب وهو يطير ويرجع . قال ما بقى لى حيلة فى نجاة صاحبى من لدغ الذباب إلا أن أرمى على وجهه صخرة ، وأقتل الذباب كله ، فقطع من الجبل صخرة قدر وجه النائم ورأسه ، وجاءه فرضخ بها وجهه ورأسه ليقتل الذباب كله ، فطار الذباب يمينا وشمالا ، وشدخ رأس الرّجل ، وخرجت عيناه ، وذاب فى رأسه فمات لوقته ، فهذا مثال نفع الجاهل لصاحبه .

قال فى درر الغوّاص ، وسألت سيدى عليا الخوّاص رضى الله عنه عن قوله ﷺ : يحشر المرء على دين خليله ، هل الأمر فيه على العموم والاطلاق ؟ فقال نعم ، ومن هنا وقع البلاء والخوف فلا يكون خليلا الامن كانت أوصافه حميدة عند الله تعالى اه .

قال الامام الشافعى رحمه الله من عاشر الكرام صار كريما ، ومن عاشر اللئام نسب للؤم .

قال فى النصيحة عن بعض العلماء من له قرناء سوء ، وعسر عليه مفارقتهم وأراد أن لا يرجع إليهم فيشخصهم وليصلّ عليهم صلاة الجنازة ، واستدل على ذلك بأن النبى ﷺ كبر أربعا على قوم لم يغزوا معه اه .

قال بعض العلماء : الاسلام لا يبيح لأىّ مسلم أن يتهاون بأمر صحته لأىّ غرض كان حتى فى عبادة ربه ، روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال قال لى رسول الله ﷺ يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار ، وتقوم الليل ؟ فقلت : بلى يا رسول الله . قال : فلا تفعل صم وأفطر ، وقم ونم ، فانّ لجسدك عليك حقا ، وانّ لعينك عليك حقا ، وانّ لزوجك عليك حقا ، وانّ لزوارك عليك حقا ، وان بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فانّ لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فان ذلك صيام الدهر كله ، فشدّدت فشدّد علىّ . قلت يا رسول الله إنى أجد قوّة . قال فصم صيام نبىّ الله داود عليه السلام ولا تزد عليه . قلت : وما كان صيام نبىّ الله داود عليه السلام ؟ قال : نصف الدهر ، وكان يقول بعد ما كبر : يا ليتنى قبلت رخصة النبىّ ﷺ .

ولا شكّ أن هذه القواعد تجعل المسلم شديد التحفظ على صحته كثير الغيرة عليها .

تنبيه تاريخى

أوّل خلفاء بنى حرب بن أمية سيدنا معاوية رضى الله عنه ، وبويع عام الأربعين من الهجرة

وآخرهم معاوية بن اليزيد ، وكان ذلك سنة ست وستين .

وأوّل خلفاء بنى الحكم مروان بن الحكم ، وكان ذلك فى السنة المذكورة ، وآخرهم مروان ابن محمد ، ومات سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، وبموته انقرضت دولة بنى أمية .

وأوّل خلفاء بنى العباس عبد الله السفاح ، وبويع له عام اثنتين وثلاثين ومائة ، وآخرهم عبد الله المستعصم .

وأوّل ملوك بنى الأحمر الذين تداولوا ملك الأندلس فى آخر المدّة محمد بن يوسف ، وآخرهم محمد بن سعد .

وأوّل ملوك بنى مرين ملوك المغرب الأقصى عبد الحق ، وآخرهم عبد الحق .

وأوّل ملوك العلويين المولى محمد بن الشريف ، وبويع سنة خمسين وألف .

فانظر كيف توافقت أسماء ملوك أوّل هذه الدول ، وأسماء ملوك آخرها ، وذلك بتقدير الله وتدبيره ، فانه سبحانه وتعالى له فى كل شيء حكمة بل مامن ذرّة فى العالم إلا وهى مشتملة على حكمة بل على حكم كثيرة ، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم .

﴿ تنبيه ﴾ مدّة خلافة بنى العباس خمسمائة سنة، وأربع وعشرون سنة لأنّ ابتداء دولتهم سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وانتهاؤها سنة ست وخمسين وستمائة ، وعدد خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة .

ومدّة ولاية الأدارسة مائتا سنة بالتثنية واثنتان ، ومدّة ملوك مغراوة ، وبنى يفرن سبع وثمانون سنة ، ومدّة ملوك المرابطين ثمانية وسبعون سنة ، ومدّة الموحدين مائة وثمانية وعشرون سنة ، ومدّة بنى مرين ، وفيها ملك بنى وطاس مائتا سنة بالتثنية ، وأربع وتسعون سنة ، ومدّة السعديين مائة وثمان سنين ، راجع فى هذا الموضوع تقويمنا المراكشى إن شئت زيادة على هذا .

﴿ تنبيه ﴾ مذهب أهل السنة أن الأعمال التى تصدر من العبد كلها خلق لله تعالى ، وكسب للعبد ، وعلى الكسب الكائن من العبد يكون ثوابه وعقابه .

وفى قوله تعالى ـ والله خلقكم وما تعملون ـ ما يدل على أن العمل الصادر من العبد خلق لله ضرورة فى العبد وإقدار الله له عليه كسب له .

قال الامام المواق فى سنن المهتدين ، الناس فى هذا العالم سفر : أوّل منازلهم المهد ، وآخرها اللحد والوطن الجنة أو النار ، والعمر مسافة هذا السفر ، والسنون مراحل ، والشهور فراسخ ، والأيام أميال ، والأنفاس خطوات ، والطاعة هى البضاعة ، والاوقات هى رأس المال ، والشهوات قطاع الطريق ، والربح الفوز بلقاء الله سبحانه فى دار السلام .

وفى بعض التقاييد الموثوق بصحتها أن رجلا قال لمولانا رسول الله ﷺ أوضح ، فقال لا تكلم الله فى أمر قضاه عليك .

وكان بعض العارفين يقول إذا دعا : اللهم إنى لا أسألك دفع ماتريد ، ولكن أسألك التأييد بروح من عندك على ماتريد .

ذكر صاحب سنن المهتدين : أن الصحابى الجليل سيدنا حذيفة بن اليمان رضى الله عنه تزوج بيهودية زيادة على زوجتين مسلمتين كانتا تحته ولا يخفى مقامه فى الصحابة ، فكتب إليه

سيدنا

سيدنا عمر رضى الله عنه ينهاه ، فكتب إليه حذيفة أحرام هى ؟ قال لا ، وقد تزوج سيدنا طلحة ابن طلحة بن عبيد الله رضى عنه بهودية ، وكذا سعد بن أبى وقاص وعثمان رضى الله عنهم ، وأسلمت زوجة عثمان رضى الله عنه .

قال الامام المؤاق بعد هذا ، وانظر هذا المعنى هو فى الحقيقة كما قاله بعض الفضلاء لما اعترض عليه : هذا زيادة علم أو نقصان ورع إن لم يكن أجر وإلا فلا حرج اه .

[حكاية غريبة] يروى أن عيسى عليه السلام مرّ على رجل جالس عند قبر ، وكان يكثر المرور به فيجده جالسا ، فقال ياعبد الله أراك تكثر الجلوس عند هذا القبر ، فقال ياروح الله هذه امرأة كان لى من جمالها وموافقتها كيت وكيت ، ولى عندها وديعة . قال أفتحب أن أدعو الله فيحييها لك ؟ قال نعم، فتوضأ عيسى وصلى ركعتين ودعا الله عزّ وجلّ ، فاذا أسود قد خرج من القبر كأنه جذع محترق ، فقال له من أنت ؟ فقال يارسول الله أنا رجل فى عذاب منذ أربعين سنة ، فلما كنت فى هذه الساعة قيل لى أجب فأجبت ، ثم قال يارسول الله قد مرّ علىّ من أليم العذاب أما إن ردنى الله إلى الدنيا أعطيته عهدا أن لاأعصيه ، فادع الله لى ، فرّق له عيسى عليه السلام ودعا الله عزّ وجلّ ، ثم قال له امض فمضى ، فقال صاحب القبر يارسول الله لقد غلطت بالقبر إنما قبرها هذا ، فدعا الله عيسى عليه السلام ، فخرجت من ذلك القبر امرأة شابة جميلة ، فقال له عيسى أتعرفها ؟ قال نعم هذه امرأتى ، فدعا الله عيسى حتى ردّها عليه ، فأخذ الرجل بيدها حتى انتهيا إلى شجرة فنام تحتها ووضع رأسه فى حجرها ، فمرّ بها ابن الملك فنظرها ونظرت إليه وأعجب كل واحد منهما بصاحبه ، فأشار إليها فوضعت رأس زوجها عن حجرها واتبعت عن الفتى فاستيقظ زوجها فتفقدها فلم يجدها فطلبها ، فدلّ عليها فتعلق بها وقال امرأتى ، فقال الفتى هى جاريتى ، فبيناهم كذلك إذ طلع عيسى عليه السلام ، فقال الرجل هذا عيسى ، ثم قصّ عليه القصة ، فقال لها عيسى ماتقولين ؟ قالت أنا جارية هذا ولا أعرف هذا ، فقال لها عيسى ردّى علينا ماأعطيناك قالت . قد فعلت فسقطت مكانها ميتة ، فقال عيسى هل رأيتم أعجب من هذا ؟ رجل أماته الله كافرا ثم بعثه فآمن ، وهل رأيتم امرأة أماتها الله مؤمنة ثم أحياها فكفرت .

[عوج بن عنق] وقد تقدم لنا الكلام عليه ولابأس بزيادة زيادة فى الاستمتاع . قالوا كان طول عوج ثلاثة وعشرين ألف وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا بالذراع الأول، وكان عوج يحتجز السحاب ويشرب منه الماء ، ويتناول الحوت من قرار البحر ، فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله .

ويروى أنه أتى نوحا فى أيام الطوفان ، فقال له احملنى معك فى سفينتك ، فقال له اذهب ياعدوّ الله فانى لم أومر بك ، فطبق الماء الأرض من سهل ومن جبل وما جاوز ركبتيه ، وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يد موسى ، وكان عسكر موسى فرسخا فى فرسخ ، فجاء عوج ونظر إليهم ، ثم جاء إلى الجبل وقوّر منه صخرة على قدر العسكر ثم حملها ليطبقها عليهم ، فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور ، فجعلت تنقر بمناقيرها حتى قوّرت الصخرة وانقبت فوقعت

فى عنق عوج فطوقته وصرعتـه ، فأقبل موسى وطوله عشرة أذرع ، وطول عصاه عشرة أذرع وقفز إلى فوق عشرة أذرع فما أصاب منـه إلا كعبه وهو مصروع فى الأرض فقتله وأقبل جماعة كثيرة ومعهم الخناجر ، فجزوا حتى حزوا رأسه ، فلما قتل وقع على نيل مصر فجسره سنة .

وكان قبل ذلك لقى أصحاب موسى ، وكان على رأسه حزمة حطب ، فأخذ الاثنى عشر نقيبا وجعلهم فى حزمتـه وانطلق بهم إلى امرأته ، وقال لها انظرى إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا وطرحهم بين يديها ، وقال لأطحننهم برجلى ، فقالت له امرأته لاتفعل بل خلّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ، ففعل ذلك وخلى سبيلهم فجعلوا يتعرّفون أحوالهم .

من يأخذ من الزكاة

أجاب الامام ابن رشد المالـكى عمن يخص قرابته بزكاته بما نصه ان فعل أجزأه ، وإن وجد أحوج منهم فالاختيار أن لايخصهم .

وأجاب الامام اللخمى عمن يخص زكاته بأخته بما نصه : انه يجزئه وهو أفضل من جعل زكاته فى غيرها .

وسئل سيدى يحيى السراج عن إعطاء الرجل زكاته لولده الذكر البالغ هل هو مكروه أو ممنوع ، فأجاب : إذا كان الولد البالغ فقيرا فانه يعطيـه كغيره ، وأما إذا كان قادرا على الـكسب ، وله صنعة تقوم به فانه لايعطيه من الزكاة ويمنع ذلك ، وإن وقع لم يجزه اه .

وسئل الشيخ المسناوى عمن أراد أن يدفع زكاته لأولاده وهم معه على عولة ومؤنة واحـدة يخدم كل واحد منهم مايليق بوالده ، فأجاب لاشك أن ببلوغ الأولاد الذكور قادرين على الـكسب تسقط نفقتهم عن الأب وإن بقوا فى مؤنته فيجوز له أن يدفع لهم زكاته إذ لايجب لهم عليه شىء بشرط أن يصرفوها فيما يختص بهم لافيما يرجع إلى الأب الباقى معهم على مؤنة واحدة . قال العلامة الفاسى سيدى المهدى الوزانى هذا هو الصواب دون كلام الهلالى والله أعلم .

وقال ابن عرضون من كانت فيـه منفعة للمسـلمين مثل القضاة والعلماء والمقدّمين والرؤساء والأئمة والمؤذنين فقد نصّ الشـوشاوى فى كتاب تعليم الصبيان إن الزكاة تجوز لهم ، وإن كانوا أغنياء لقوله ﷺ [أعطوهم ولو كانت أقلامهم من ذهب] اه من المعيار الجـديد للوزانى رحمه الله .

كبائر الذنوب وصغارها

قال الامام المواق فى سـنن المهتدين كبائر الذنوب : كقتل ولو بشبهة عمدا ، وطء فى حيض نميمة ، غيبة ، زنا ، قطيعة رحم ولو لعم أو خال ، فرار ، أكل مال اليتيم ، تأخير الصلاة عن وقتها ، رياء ، ضرب مسلم بلا حق كزيادة على مايستحقه ، كتمان شهادة ، منع زكاة ، اليأس من رحمة الله ، الأمن من مكره ، الترك للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لقادر ، إحراق حيوان ولو استحب قتله .

والصغيرة : كالنظر لما حرم كثرة ضحك هجر فوق ثلاث : كثرة مخاصمة ، مجالسة فسقة ،

إيناسا ، إمامة بكراهة لعيبه ، تخطى رقاب يوم الجمعة ، استمناء ، بيع على بيع أخيه ، بيع حاضر لباد ، تلقى الركاب ، اتخاذ كلب للهو ، ويمحوها ترك كل كبيرة وإلا فالعبادة تكفر منها اه .

الناس عَلَى ضربين : مؤمن وكافر

الكافر فى النار باجماع ، والمؤمن على ضربين : طائع وعاص ، المطيع فى الجنة باجماع ، والعاصى على ضربين : تائب ومصرّ ، التائب فى الجنة باجماع ، والمصرّ على ضربين : مصر على الصغائر ومصرّ على الكبائر ، المصرّ على الصغائر دون الكبائر فى الجنة باجماع ، والمصرّ على الكبائر على قسمين : مستحل لها ، وغير مستحل لها ، فالمستحلّ لها فى النار بالاجماع ، والمصرّ عليها القائل بتحريمها فى مشيئة الله سبحانه وتعالى اه من سنن المهتدين .

وفيه نقلا عن الامام اللخمى أن قاضى الحاجة يذكر الله قبل دخوله موضع قضاء الحاجة ، وروى عياض جوازه فيه . قال القاضى ذهب بعضهم إلى جواز ذكر الله فى [الكنيف] وهو قول مالك والنخعى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وقال ابن القاسم : إذا عطس وهو يبول يحمد الله . قال ابن رشد : الدليل لابن القاسم من جهة الأثر أن مولانا رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء استعاذ ، وعن مولاتنا عائشة رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه ، ومن طريق النظر أن ذكر الله يصعد إلى الله فلا يتعلق به من دناءة الموضع شىء فلا ينبغى أن يمتنع من ذكر الله على حال إلا بنص ليس فيه احتمال .

أوحى الله إلى موسى عليه السلام : أنا جليس من ذكرنى . قال يا ربّ إنا نكون على حال نجلك أن نذكرك عليها كالجنابة والغائط ، فقال اذكرنى على كل حال اه .

من العجائب ما ذكره صاحب تحفة الغرائب أن بقرب مدينة نهاوند عينا فى شعب جبل ، من احتاج إلى الماء لسقى الأرض يمشى إليها ويدخل الشعب وعنده يقول بصوت رفيع : إنى محتاج إلى الماء ، ثم يمشى نحو زرعه فالماء يجرى نحوه ، فاذا انقضت حاجته يرجع إلى الشعب عند العين ويقول : وقد كفانى الماء ويضرب برجله على الأرض فان الماء ينقطع .

هاروت وماروت

قال مجاهد كانت لى محبة فى سماع الأعاجيب وكنت لا أسمع بشىء من ذلك إلا اجتهدت فى مشاهدته ، فأتيت بئر بابل لنرى هاروت وماروت ، فانطلقت حتى أتيت موضعا قريبا منها فوجدت فيه يهوديا عارفا بهما ، فسألته أن يأخذ بيدى فى ذلك ، فقام ورفع صخرة ، فاذا شبه سرداب ، فقال لى اليهودى : انزل معى وانظر إليهما ، ولا تذكر اسم الله تعالى ، قال مجاهد فنزل اليهودى ونزلت معه فلم يزل يمشى بى حتى نظرت إليهما مثل الجبلين العظيمين منكوسين على رءوسهما وعليهما الحديد من أعقابهما إلى ركبتهما ، فلما رأيتهما لم أملك أن ذكرت الله تعالى ، فاضطربا اضطرابا شديدا حتى كادا يقطعان ما عليهما من الحديد فهرب اليهودى وتعلقت به حتى خرجنا ، فقال لى اليهودى أما قلت لك لا تفعل ذلك كدنا والله نهلك .

حكى بعض التجار : قال ورثت من أبى مملوكا أسود شيخا ، فكنت فى بعض أسفارى راكبا على بعير، والمملوك يقوده ، فاجتاز علينا رجل من بنى مدلج فأمعن فينا نظره ، وقال ماأشبه الراكب بالقائد ، فوقع فى قلبى من قوله ما وقع حتى رجعت إلى أمى وأخبرتها بما قال المدلجى ، فقالت: صدق والله المدلجى ، اعلم يابنى أنه كان زوجى شيخا كبيرا ذا مال لم يوجد له ولد ، فخشيت أن يفوت ماله عنا بموته ، فمكنت نفسى من هذا المملوك الأسود فحملت بك ولولا أن هذا شىء ستعلمه فى الآخرة ما أخبرتك فى الدنيا .

حكى أن سيف بن ذى يزن لما استنصر بكسرى على قتال الحبشة بعثه إليهم كسرى فى جند عظيم برا و بحرا ، فخرج إليهم ملك الحبشة مسروق بن أبرهة فى مائة ألف من الحبشة وغيرهم من حمير وكهلان فتصاف القوم ، وكان بين عينى مسروق بن أبرهة ياقوتة حمراء معلقة فى تاجه بعلائق من الذهب تضىء كالنار وهو على فيل عظيم فقاتل عليه ساعة ، ثم نزل عن الفيل وركب جملا ساعة ، ثم نزل عن الجمل وركب فرسا ساعة ، ثم أنف من محاربتهم على الفرس استصغارا لأصحاب سيف ، فدعا بحمار فركبه ، فتأمل هرمز ذلك ، وقال احملوا عليه فان ملكه قد ذهب انتقل عن كبير إلى صغير ، فحملوا عليهم وكشفوا الحبشة ، فأخذتهم السيوف من كل جانب وقتلوا مسروق بن ابرهة وخواصه .

حكى أنه كان ببغداد عراف يخبر بأشياء قلما يخطئ فيها ، فجاءه رجل وقال له : إن لى مسألة إن أصبت فيها فلك كذا وكذا ، فقال سلها ؟ فقال إن أخرجتها لك فلا أطمئن إلى جوابها، فسكت العراف يسيرا ثم قال : تسألنى عن محبوس ؟ فقال أصبت والله ، فأخبرنى عن حبسه ، فقال الشرط أملك إذا وفيت بوعدك أخبرتك بحاله ، فمضى الرجل إلى بيته وأتاه بما وعده به ، وقال أخبرنى عن حبسه ؟ فقال إنه يخرج عن قريب ويخلع عليه، فلم تمض أيام حتى كان الأمر على ماقال فأتى السائل إلى العراف ، وقال له أخبرنى بكيفية معرفتك أمر هذا المحبوس ، فقال له : اعلم أنى إذا سئلت عن شىء أنظر أمامى وعن يمينى وعن يسارى ، فان رأيت شيئا يكون بينه و بين المسئول مناسبة أو مشابهة أجبت على وفق ذلك ، فانك لما سألتنى رأيت قربة فيها ماء مع رجل سقاء ، فقلت السؤال عن محبوس ، ولما سألتنى ثانيا رأيت القربة بعينها قد أفرغت وألقاها الرجل السقاء على منكبه ، فقلت يخرج و يخلع عليه ، والله أعلم بغيبه .

وحكى القاضى محمد بن سهل الواسطى أنه خرج صناع لقطع القصب من قرية على نهر جعفر ، فرأوا شبلا كالسنور فقتله أحدهم ، وقال الباقون الساعة يأتى أبواه يطلبانه ونحن نبيت فى الصحراء فلا نأمن على أنفسنا فما كان بأسرع من أن سمعنا زئير الأسد فهربنا والتجأنا إلى بيت خارج الأكمة فصعدنا الغرفة ولها باب ، فلما رأى الأسد شبله قتيلا جاء على أثرنا ، فوجدنا مجتمعين فى الغرفة ، فجعل يثب نحو الغرفة حتى يصعد فلم يقدر فصعد أكمة هناك وصاح صيحة شديدة فأتى بضعة عشر سبعا ، فلما جاءوا إلى الغرفة لم يقدروا على وصولنا ونحن كالموتى ، فاجتمعت السباع كالحلقة وصاحوا صيحة هائلة فما كان إلا ساعة حتى جاء سبع أسود هزيل متجرد الشعر طويل فتلقته السباع ووقفت بين يديه ، فجاء نحو الغرفة والسباع حوله ، فوثب حتى صعد إلى باب الغرفة

ونحن

ونحن قد غلقناه وقعدنا خلفه فلم يزل يدفع الباب بمؤخره حتى كسر منه لوحين ، فدخل عجزه إلينا فعمد أحدنا إلى ذنبه وجذبناه إلى داخل وقطعناه بمنجل ، فصاح صيحة عظيمة منكرة ورمى بنفسه إلى الأرض فلم يزل يخدش السباع وينهشها حتى قتل غير واحد منها وهربت السباع من بين يديه ، وهام هو فى الصحراء يتبعها ، فنزلنا ولحقنا بالقرية وأخبرنا أهلها بما رأينا ، فقال لنا شيخ كبير إنه كالجراد إذا قطع ذنبه أكله الفأر .

وحكى بعضهم أن أسدا قصده ، فالتجأ إلى شجرة فصعد عليها فاذا على بعض أغصانها دبّ يقطف ثمرتها . قال فلما رآنى الأسد قد قصدت الشجرة جاء وافترش تحتها ينتظر نزولى ، فنظرت إلى الدبّ فاذا هو يشير بأصبعه إلى فيه يعنى لاتنطق كى لايعرف الأسد أنى على الشجرة . قال فبقيت متحيرا بين الدبّ والأسد ، وكان معى سكين صغير فأخرجته وجعلت أقطع الغصن الذى عليه الدبّ فقطعت أكثره وانكسر الباقى ، فثقل الدبّ فوقع على الأرض فوثب الأسد عليه وتصارعا زمانا وغلبه الأسد فأكله ومرّ .

وحكى بعض أهل صنعاء أنه مرّ بقرد فى سفح جبل نائم واضع رأسه فى حجر زوجته وقد غاص فى نومه ، فاذا بقرد آخر قد جاء ووقف حذاءها فوضعت القردة رأس زوجها رويدا رويدا وقامت إلى ذلك القرد وجامعها كما يجامع الرجل المرأة ، فلما انتبه القرد ولم يجدها اتبع أثرها حتى وجدها ، فلما دنا منها شمها فعلم أنها زنت ، فصاح صيحة عظيمة ، فاجتمع كثير من القرود ، فأخبرهم بفعلها ، فحفروا لها حفرة ، وجعلوها فى تلك الحفرة ورجموها حتى ماتت .

ومن أغرب مايسمع أن من تصبح بوجه القرد عشرة أيام متوالية جلب إليه السرور ولا يكاد يحزن ، واتسع رزقه ، وأحبته النساء محبة شديدة وأعجبن به ، ذكره القزوينى فى عجائب المخلوقات .

من الغرائب أن الأعمى أكثر الناس نكاحا كما أن الخصى أصح الناس بصرا فانهما طرفان مانقص من أحدهما زاد فى الآخر ، فازداد العميان إما قوة الفهم أو الحفظ أو النكاح .

من غرائب الفوائد أول سن تقع من الصبي تحفظ كيلا تقع على الأرض ويتخذ لها عروة من الفضة وتعلق على المرأة لاتحبل .

الفلاحـــــة

[الأترج] : من الأشجار التى لاتنبت إلا بالبلاد الحارة . قال صاحب الفلاحة إذا جعل رماد ورق اليقطين تحت شجرة الأترج يكثر ثمرها ولا يسقط منها شىء أصلا .

[إجاص] : قال صاحب الفلاحة إذا طليت شجرة الاجاص بمرارة البقر لا يتولد الدود فى ثمرتها .

[تفاح] : قال صاحب الفلاحة إذا أردت غرس تفاح فازرع حواليها العنصل ، فان الدود لايقع فى ثمرتها ، وإذا غرست تحتها الورد الأحمر يحمرّ ثمرتها .

[التين] : قال صاحب الفلاحة إذا أردت غرسه فاجعله فى ماء الملح يوما ، ثم اجعله تحت زبل البقر ثم اغرسه فان طعم ثمرته يطيب جدا .

[الجوز] : من الأشجار التى لاتنبت الا بالبلاد الباردة . قال صاحب الفلاحة : اذا أردت أن تفتت قشر الجوز باليد ، فخذ جوزة واتركها فى بول صبى غير مدرك خمسة أيام ، ثم ازرعها وانثر عليها الرماد .

وان شئت خذ جوزة وقشرها بحيث لايصيب اللب خدش ، ثم ضعها فى كاغد أو خرقة أو ورقة من كرم ، ثم ازرعها وانثر عليها الرماد فانها تثمر جوزا قشرها كالكاغد .

[خوخ] : قال صاحب الفلاحة اذا أردت أن يحمر الخوخ فخذ النواة التى تنشق بنفسها واجعل فى شقها شيئا من الزنجفر وضع اللحم فيها ، ولا تلفها ، واترك لحمها عليها فانها تخرج خوخة شديدة الحمرة .

[رمان] : قال صاحب الفلاحة اذا أردت أن لا يكون فى الرمان عجم فشق عن أسافل قضبانه عند الغرس ونق أجوافها عن مخها واضمم بعضها الى بعض واربطها بشىء من الحشيش واغرسها فانها اذا نبتت لا يكون فيها شىء من العجم .

واذا أردت أن يحمر لونها ، فاخلط رماد الحمام بالماء وصب فى أصل شجرتها فانه تشتد حمرة حبها .

واذا أردت أن يحلو الرمان الحامض فافتح التراب عن أصل شجرتها ، واطل عروقها بجمرور الخنازير وانضحها بأبوال الناس ، ثم أعد التراب عليها كما كانت .

وقال صاحب الفلاحة من أراد أن يبقى الرمان غضا طريا فليقطعه بيده من شجره من غير أن يصيبه جراحة ويغمس طرفه فى زيت مسخن ويضعه فى بيت بارد فانه يبقى زمانا طويلا غضا طريا ولو تركها على شجرتها ولف عليها شيئا من الأوراق ، ثم حصنها بحيث لايدخلها الهوام تبقى زمانا طويلا .

[الزيتون] : قال صاحب الفلاحة إذا أخذت أوتادا من شجرة البلوط وغرستها فى الأرض حول شجرة الزيتون فانها تقوى ويكثر ثمرها .

[السفرجل] : قال صاحب الفلاحة إذا أردت أن يبقى السفرجل زمنا طويلا ، فضعه على نشارة الخشب أو التبن ، ولا تدع معه شيئا من أنواع الثمر .

[الكرم] : قال صاحب الفلاحة إذا أردت أن يكون الكرم كثير النفع قوى الأصل، سريع الثمار ، فخذ غرسها من قضبان شجرة قريبة العهد واغرسه فى النصف الأول من الشهر والطخ رأس القضيب بروث البقر وضع فى المغرس شيئا من رماد البلوط .

وإذا أخذت وزنا من العنب الأسود وآخر من الأبيض ، وثالثا من الأحمر وشققتها بحيث لايقع منها قشرها وتلصق بعضها بالبعض وتغرسها تثمر العنب الأسود والأبيض والأحمر ، فترى هذه الألوان الثلاثة على شجرة واحدة .

وإذا أردت أن تسود العنب الأبيض فاحفر ماحول الكرمة واقلب فيها شيئا من النفط الأسود فان عنبها يسود .

وإذا أردت أن لايقع فى الكرم دود فاقطع طاقاتها بمنجل ملطخ بدم الضفدع أو دم الذئب

وان

وإن أردت أن تسلم من البرد فدخن الكروم بالزبل بحيث يصل الدخان إليها جميعا ، ثم انثر عليها ثمر الطرفاء فانها تسلم من آفة البرد باذن الله .

سبب حدوث الخمر

ان ملكا من ملوك المتقدمين كان فى بعض متصيداته رأى فى بعض الجبال كرمة عليها عناقيد عنب فتعجب منها وأمر بقطعها ، وقال إنا سمعنا أن الجبال ينبت فيها السموم فلعل هذه منها ، وأمر بحفظها حتى يجرّبها فيمن يستحق القتل ، فجعلوها فى رحلهم فتكسرت حباتها فعصروها وجعلوا ماءها فى ظرف حتى عاد الملك إلى مستقرّه ، فأمر باحضار رجل يستحق القتل وأحضر العصير وقد احتدت وصارت خمرا ، فسقى الرجل منها قهرا فشربها بمشقة شديدة فما شكوا فى كونها سما فزادوا فى سقيه ، فنام الرجل نومة ثقيلة فلم يشكوا فى أنه يجود بنفسه ، فلما انتبه من نومه قال اسقونى مرّة أخرى فسقوه مرارا ، فما كان إلا الالتذاذ فشرب غيره ، وذكر مافيه من اللذة والطرب وشرب الملك أيضا ، وأمر بغرس تلك الشجرة فى البلاد ليكثر ثمرها ففعلوا ذلك .

[اللوز] : قال صاحب الفلاحة يجعل اللوز فى العسل ثم يزرع لتكون ثمرته طيبة جدّا ، وإذا أردت أن ينفرك تجعل لبه فى قرطاس أو ورقة كما ذكرنا فى الجوز .

وإذا أردت أن لايتساقط منها شىء فاجعل فى وسط فروعها رأس حمار معلقة .

[الليمون] : وهو من أشجار بلاد الحر ، وخواص شجر الليمون وثمرتها تشبه بالأترج وقد مرّت فلا نعيدها هنا ، ولماء الليمون خاصية عجيبة فى دفع سمّ الأفاعى ، ومن عجيب حكاياتها ماذكره أبو جعفر الضبي من ثقات البصرة . قال كانت لى ضيعة على نهر الدير وكنت متوطنا بها وبجنب دارى بستان ظهرت فيه أفعى كأنها جراب طولا وسعة وانتفاخا وكثرت جناياتها ، فطلبت حاويا يصيدها ، فجاءنا رجل وبخر بدخنة ، فخرجت عليه فلما رآها هاله أمرها فنهشته فتلف فى الحين فانتشر خبرها وامتنع الحواة عنها وتركت البستان والدار حتى جاءنى رجل ، وقال بلغنى أمر الحية التى عندكم جئت لتدلنى عليها . قلت إنها عن قريب قتلت حاويا ما أحب تعرّضك لها ، فقال إنه كان أخى وجئت لآخذ بثأره فأريته البستان فأخرج دهنا فطلى به جميع بدنه وجلست أنا فوق السطح أنظر ، فأخرج دخانة وبخر بها فما كان بأسرع من أن ظهرت كأنها دبّ فحين قربت من الحاوى دهمها فهربت منه فتبعها ولحقها فقبضها ، فالتفت عليه وعضت يده وقتلت ، فحملنا الرجل فمات فى ليلته وأنا على هذا مدّة ، فاذا فى بعض الأيام جاءنى رجل وسألنى ماسألنى السائل قبله ، وكانا شبيهين بصورته فنعته . فقال الرجلان كانا أخوىّ ولابدّ لى أن آخذ بثأرهما أو ألحق بهما فعينت له البستان وصعدت السطح فأخرج الدهن وطلى به بدنه حتى صار الدهن يتقاطر منه ثم بخر فخرجت الأفعى فطلبها الحواء ، فأخذت تحاربه فتمكنت يد الحواء من قفاها ، فانقلبت عليه وعضت إبهامه ، فبادر الحواء وحزم فاها وجعلها فى سلة وأخرج سكينا كان معه وقطع إبهام نفسه وأغلى زيتا وكواها به فحملناه الى الضيعة ، فرأى ليمونة بيد صبي يلعب بها ، فقال أهذا موجود عندكم ؟ قلت نعم ، فقال أغثنى بما تقدر عليه منه هذا فى بلدنا يقوم مقام الترياق . قالت

أين بلدكم ؟ قال عمان فأتيته بشيء من الليمون فأخذ يقطعه ويسرع فى أكله وعصر ماءه وطلى به موضع اللسعة حتى جاوز وقت موت إخوته وأصبح من غد سالما ، وقال ماخلصنى الله إلا بالليمون، وأظنّ أن أخوىّ لو وقع لهما لماتلفا ، ثم أخرج الأفعى وقطع رأسها وذنبها وأغلاها فى طنجير ، وأخرج دهنها وجعله فى قارورة وانصرف .

[المشمش] : شجرة عجيبة شحم ثمرتها ولبها مأكولان طيبان بخلاف غيرها من الثمار ، فان المأكول إما شحمها أو لبها .

وفى الخبر أن نبيا من الأنبياء بعثه الله تعالى إلى قومه ، وكان لهم عيد يجتمعون فيه كل سنة ، فأتى النبىّ ذلك اليوم ودعاهم إلى الله تعالى ، فقالوا له ادع الله تعالى أن يخرج لنا من هذا الخشب اليابس ثمرة على لون ثيابنا ، وكانت ثيابهم صفراء ، فدعا نبىّ الله فاخضر وأورق ، وأتى بالمشمش فى ساعته ، فمن أكل منه على عزم أن يؤمن خرج نواه حلوا ، ومن أكل على عزم أن يكفر ولا يؤمن خرج نواه مرًّا .

حكى أن طبيبا مرّ برجل يغرس شجرة المشمش ، فقال له ماذا تصنع ؟ فقال أعمل لى ولك يعنى أنتفع أنا بثقله وأنت بعلته يأكلها الناس فيمرضون ويحتاجون إلى الطبيب .

[النخل] : شجرة مباركة لاتوجد إلا ببلادالاسلام . قال صاحب الفلاحة إذا لم يثمر شيء من النخل يأخذ رجل فأسا ويقرب منه ويقول لغيره إنى أريد قطع هذه الشجرة لأنها لاتثمر ، فيقول الآخر لاتفعل فانها تثمر فى هذه السنة ، فيقول الرجل إنها لاتفعل شيئا ويضربها ضربتين أو ثلاثا فيمسكه الآخر بيده ويقول لاتفعل فانها شجرة حسنة واصبر عليها هذه السنة فان لم تثمر فاصنع بها ماشئت . قال فاذا فعل ذلك فان الشجرة تثمر ثمرا كثيرا ، وكذلك غير النخل من الأشجار إذا فعل به هذا أثمر .

وقال أيضا إذا قاربت بين ذكران النخل وإناثها فانها يكثر حملها لأنها تستأنس بالمجاورة وإذا قطع إلفها من الذكران فلا تحمل شيئا لفراقه .

وإذا غرست الذكران فى وسط الاناث ، فهبت الريح ، فخالطت الاناث رائحة طلع الذكران حملت من تلك الرائحة كل أنثى حوله .

وإن اتخذت لها أوتادا من خشب البلوط ودققتها فى الأرض حول خشبها تكثر ثمرتها ولا يسقط منها شيء .

[الورد] : هى الشجرة المعروفة . قال صاحب الفلاحة إذا أردت أن تخرج أوراقها من أكمامها سريعا فاسقها الماء الحار ، وإذا جعلت وقت غرسها فى جوف قضبانها شيئا من الثوم تزداد رائحتها طيبا .

[بصل] : قال صاحب الفلاحة إذا أردت زرع البصل فقشر بزره لتكون ثمرته حسنة ، وكلما كان نزوله فى الأرض أكثر كان أقوى وليترصد لوقت زرعه غروب الثريا ليكون طعمه طيبا ، وكذلك عند حصاده .

وعن معاوية أنه وفد إليه وفد فقرب إليهم الطعام ، ثم دعا بالبصل ، وقال كلوا من هذا فان

كل

كل من جاء أرضنا وأكل منه لم يضره ماؤها .

قال الجاحظ : الاكثار من البصل يفسد العقل .

قلت ورأيت فى معجم البلدان للامام الحموى من الجزء الأول مانصه : وذكر يوسف بن إبراهيم فى كتاب أخبار الأطباء . قال بعض الأطباء ، وقد قال له رجل إنى إذا أكلت البصل لا أحس بملوحة الماء ، فقال إن خاصية البصل إفساد الدماغ ، فاذا فسد الدماغ فسدت الحواس ، فالبصل إنما يقلل حسك لملوحة الماء لما أفسد من الدماغ . قال ولهذا لا ترى فى صقلية عالما ولا عاقلا بالحقيقة بفن من العلوم ، ولا ذا مروءة ودين ، بل الغالب عليهم الرقاعة والضعة وقلة العقل والدين اه منه .

[البطيخ] : قال صاحب الفلاحة ينقع بزر البطيخ فى العسل واللبن ، ثم يزرع فتكون ثمرته فى غاية الحلاوة ، وإذا وضعت بزر البطيخ فى وسط الورد ثم زرعته تشم من بطيخه رائحة الورد ، وإن وضعت رأس حمار فى وسط ضيعة البطيخ دفع عنها كثيرا من الآفات وأسرع نباتها وحملها .

وإذا اجتازت الحائض بضيعة البطيخ تغير جميع بطيخها ، وإذا أصاب بزر البطيخ والقثاء رائحة الدهن يصير مرا .

وإذا كان البطيخ فى بيت لايختمر فيه العجين أصلا .

[الثوم] : قال صاحب الفلاحة إذا زرعت الثوم فى الأيام التى يكون القمر بها تحت الأرض لم يوجد لها رائحة وليترصد غروب الثريا لوقت الزرع .

وإذا أردت أن تعرف أن المرأة بكر أو ثيب ، فاخلط الثوم المدقوق مع العسل وأمرها أن تتحمل به ، واصبر عليها ساعتين ، فان شممت رائحة الثوم من فيها فهى بكر وإلا فهى ثيب .

[الفجل] : قال صاحب الفلاحة إذا نقعت بزر الفجل فى العسل وزرعته يأتى فجله حلوا طيبا .

[حجر الرخام] : إذا أردت أن لاتحبل المرأة فاسقها وزن درهم رخاما مسحوقا ، والرخام مشهور وهو حجر أبيض ، وقال بعض الحكماء : قد يوجد فى وسط الرخام دودة من أخذ ثلاثة منها وشدها فى خرقة ثم علقها على المرأة لم تحبل .

[حجر النوشادر] : وهو مشهور من رش البيت بالماء الذى جعل فيه النوشادر يهرب منه جميع الهوام .

[الزواق] : مشهور من تقلد بقلادة من صوف ملطخة بالزواق المقتول فانه لايتولد فى ثوبه قمل أصلا ، ومن طلى به بدنه قتل عنه القمل والصئبان .

روى أن إدريس عليه السلام ترك فى الأرض ولدا ، فتزوج امرأة فولدت له ولدا اسمه لامك وكانت له قوة عجيبة يضرب بيده الشجرة العظيمة فيقتلعها من أصلها ، فخرج ذات يوم إلى البرية فاذا هو بامرأة فى نهاية الحسن والجمال ، وبين يديها غنم ترعاها ، فأعجب بها وسأل عنها ، وسألها عن نفسها فأخبرته ، فقال لها ألك زوج ؟ فقالت لا . قال كم سنك ؟ قالت مائة وثمانون سنة ، فقال أما إنك لو كنت بالغة لتزوجتك ، وكان البلوغ يومئذ إلى استيفاء مائتى سنة ، فقالت له من أنت ؟

فلم يقل لها من أولاد شيث للعداوة التي بين أولاد شيث و بين أولاد قابيل ولكن قال أنا من أولاد من لايحلّ له الحرام ، فقالت كان عندي أنك تريد أن تفضحني ، فاما إذ أردت أن تتزوّج بي فقد أتى عليّ مائتا سنة وعشرون سنة ، فانطلق إلى أبي واخطبني منه فمضى وخطبها من أبيها ، ورغبه في المال حتى تزوّج بها ، فولدت منه نوحا النبيّ عليه السلام .

ناقــــة صالح

لما اجتمع نبيّ الله صالح عليه السلام مع قومه يوم عيدهم للمباهلة وقف بين يدى الملك ، ثم نادى يا آل ثمود إني رسول الله إليكم جميعا فآمنوا بي تسلموا من عذابه فأقبلوا عليه وقالوا يا صالح أرنا منك آية مثل غيرك ، فقال ماتريدون ؟ قالوا نريد منك أن تخرج لنا ناقة من هــذه الصخرة لنؤمن بك ونعلم أنك صادق ، فقال صالح إنّ ذلك هين على ربي ولكن صفوها ، فقال الملك لقومه : من الذي يصف هــذه الناقة ؟ فقال داود بن عمرو خادم الأصنام ائذن لى أيها الملك في وصفها ، فقال قد أذنت لك فافعل مابدالك ، فأقبل على صالح فقال له ياصالح إن كنت نبيا صادقا فأخرج لنا ناقة وذكر وصفا ، فوثب رجل اسمه بحر بن الشكيم فقال أيها الملك ائذن لى في وصف الناقة فان داود قد قصر في وصفها ، فقال قد أذنت لك في وصفها ، فقال يا صالح أخرج لنا ناقة وذكر وصفا ، فوثب آخر اسمه لبيد ، فقال أيها الملك إن هذين قد قصرا في صفة الناقة فأذن لى في وصفها قال صفها ، فقال يا صالح إن كنت نبيا أخرج لنا من هــذه الصخرة ناقة وذكر وصفا ، وأخــذ كل واحد يقول ما أجرى الله على لسانه من وصفها ، فلما كثر ذلك على الملك أعرض عنهم وأقبل على صالح وقال إن هؤلاء قد أكثروا عليك غير أني أصفها لك بما في قلبي وهو أن تكون ناقة ذات فرث ودم ولحم وعظم وعصب وعروق وقصب وجلد وشحم وشــعر يخالطه مع ذلك وبر ، ولتكن مع ذلك شكلاء ســوداء دعصاء ولصاء هلباء دباء كوماء غبراء شــقراء هوجاء جوفاء منهاجة مدراجة موثقة معتقة لها ضرع كأكبر مايكون من القلال تدرّ من غير أن تستدرّ لبنا غزيرا صافيا زويدا ، وليكن مع ذلك لها تبيع يتبعها على صفتها ، فاذا رغت الناقة أجابها تبيعها بمثل رغائها وحنينها ، وليكن حنينها الاخلاص لربك بالتوحيــد والاقرار لك بالنبوّة ، فان أخرجتها على هذه الصفة آمنا بك .

فأوحى الله إلى صالح أن أعط القوم ماسألوك فلولا أني أحببت أن يكون من دعائك لأخرجتها أسرع من طرفة العين ليعلموا أن الله على كل شيء قدير ، فأقبل صالح على قومه ، وقال إن الله قد أسعفني في حاجتي ، فان أخرجتها أفتؤمنون ؟ فقالوا نعم بشرط أن يكون لبنها ألذّ من الخمر وأحلى من العســل . قال صالح إن أخرجتها أفتؤمنون ؟ قالوا على شرط أن يكون لبنها في الصيف باردا وفي الشتاء حارّا لايشربه مريض إلا برىء ولا فقير إلا استغنى. قال صالح فان أخرجتها أفتؤمنون ؟ قالوا نعم على شرط أن لاترعى في مراعينا ، ولتكن ترعى في رءوس الجبال و بطون الأودية ، وتذر مايكون على وجه الأرض لمواشينا . قال صالح فان أخرجتها أفتؤمنون ؟ قالوا نعم على شرط أن يكون الماء لها يوما ولنا يوما ولا يفوتنا اللبن. قال صالح إن أخرجتها كذلك أفتؤمنون ؟ قالوا

نعم على شرط أن تكون بالعشيات فى ديارنا وتسمى كل واحد باسمه وتنادى الا من أراد اللبن فليخرج فليضع ما يريده تحت ضرعها فيمتلئ لبنا من غير احتلاب منا . قال صالح أفتؤمنون حينئذ ؟ قالوا نعم . قال قد شرطتم على شروطا كثيرة وإنى أيضا أشترط عليكم أن لايركبها أحد منكم ولا يرميها بحجر ولا سهم ، ولا يمنعها من شرابها ولا فصيلها من ذلك ، فقالوا لك هذا كله ياصالح ، فأخذ صالح عليهم العهود والمواثيق على هذا جميعه ، ثم توضأ وصلى ركعتين ثم رفع يديه إلى السماء ودعا ، فلم تزل أقدام القوم عن مواضعها حتى اضطربت الصخرة وتمخضت وتفجرت من أصلها بماء معين حتى ملأ الوادى والقوم ينظرون إلى ذلك ، ثم تقدم صالح إلى الصخرة فضربها بقضيب آدم عليه السلام فاضطربت ، وجعلت تئن كما تئن المرأة الحامل عند الطلق ، فخرج منها رأس الناقة ، ثم انفلقت الصخرة فوثبت الناقة من جوفها كأنها قطعة جبل حتى وقفت بين يدى الملك وقومه بأحسن ماوصفوا ، ولعينها شعاع نور ، ولها ذوائب كألوان اليواقيت والزبرجد ، ولها عرف منظوم باللؤلؤ واليواقيت والمرجان ، ولها زمام من اللؤلؤ ، ومن سنمها إلى ذنبها سبعمائة ذراع ، وما بين قوائمها خمسمائة ذراع طول كل قائمة من قوائمها مائة وخمسون ذراعا فى عرض سبعين ذراعا لها ضروع على قدرها لكل ضرع اثنتا عشرة حلمة من الحلمة إلى الحلمة عشرة أذرع ، وهى تنادى : لا إله إلا الله صالح رسول الله ، ثم تقدم جبريل عليه السلام فوكز بطنها بحربة كانت معه ، فخرج من ظهرها فصيلها على لونها ، ثم نادت الناقة : أنا ناقة ربى فسبحان من خلقنى وجعلنى آية من آياته الكبرى ، فلما نظر الملك إلى ذلك قام عن سريره إلى صالح فقبل رأسه ، ثم قال : يامعشر قبائل ثمود لاعمى بعد هذا ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن صالحا نبى الله ورسوله ، فآمن الملك وآمن معه كثير .

فمكثت الناقة فى أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانت الناقة فى الصيف إذا كان الحر تطلع ظهر الوادى فتهرب منها أغنامهم وبقرهم وإبلهم وتهبط إلى بطن الوادى فى حره وحدته فكانت كل المواشى تنفر منها إذا رأتها ، وإذا كان الشتاء سبقت الناقة إلى بطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادى فى البرد والحدة ، فأضر ذلك مواشيهم للبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم حتى أجمعوا على عقر الناقة ، فاحتالوا فى عقرها ، فلما عقرت اقتسموها وأكلوا لحمها ، وخرج أهل البلد لصالح يعتذرون إليه ويقولون إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا ، فقال صالح لكل أمة أجل فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب ، وكان عقر الناقة يوم الأربعاء فسألوه عن وقت العذاب وآيته ، فقال إنكم تصبحون يوم الخميس ووجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم الجمعة ووجوهكم محمرة ، ثم تصبحون يوم السبت ووجوهكم مسودة ، فلما كان يوم الخميس أصبحوا ووجوههم مصفرة كأنها طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم ، فأيقنوا بالعذاب ، وعرفوا أن صالحا قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه ، فخرج صالح عليه السلام هاربا منهم حتى لحق إلى بطن من ثمود يقال لهم بنو غنم ، فنزل على سيدهم رجل منهم يقال له نفيل وهو مشرك فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل ، فلما أصبحوا اليوم الثانى إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم ، فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا أن العذاب واقع بهم ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم الاقد مضى يومان من

الأجل وحضركم العذاب ، فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار ، فصاحوا جميعا الا قد حضركم العذاب ، فلما كان ليلة الأحد خرج صالح عليه السلام من بين أظهرهم وخرج معه من آمن حتى جاءوا الشام فنزلوا رملة فلسطين، فلما أصبح القوم تكفنوا وتحنطوا ثم ألقوا أنفسهم بالأرض ، فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى السماء مرّة وإلى الأرض مرّة لايدرون من أين يأتيهم العذاب ، فلما اشتدّ الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت فى الأرض، فقطعت قلوبهم فى صدورهم، فلم يبق فيهم صغير ولا كبير إلا هلك كما قال الله عزّ وجلّ [فأصبحوا فى دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود]

النمـــل

بينما سليمان عليه السلام فى مسيره يريد أرض الشام للغزو إذ نظر على بعد واذا بكراديس النمل وهى تزيد على مائة ألف كردوس مثل السحاب وهى زرق العيون ولها أيد وأرجل ، فقال سليمان لمن معه إنى أرى سحابة مبسوطة فى الأرض ولا أدرى ماهى ، فلم يفرغ من كلامه حتى أسمعته الريح كلام النملة وهى تقول [يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون فتبسّم ضاحكا من قولها] ثم نزل عن فرسه ونزل الناس معه ، فقال هل تعلمون ما هذا السواد ؟ فقيل له هذه أمة من الأمم يقال له النمل ، فأخبرهم بقول النملة وأخذت النمل تدخل مساكنها زمرة زمرة ، والنملة تنادى : الوحا الوحا فقد وافتكم الخيل فأراها سليمان الخاتم ، فجاءته خاضعة حتى وقفت بين يديه وهى أكبر من الذئب فسجدت بين يديه ، ثم رفعت رأسها وقالت : يا نبىّ الله ماسجدت لآدمى قبلك إلا لأبيك إبراهيم عليه السلام ، وها أنا بين يديك فأمرنى بأمرك ، فقال سليمان أخبرينى عما تكلمت به قبل أن أصل إليك ؟ قالت يا نبىّ الله إنى لما رأيتك فى موكبك وعسكرك ناديت النمل تدخل مساكنها لايحطمها جندك ، وإنما قلت لهم ذلك لأنى أدركت ملوكا قبلك ، وكانوا إذا ركبوا أفسدوا الأرض ، ولقد أدركت زيادة على عشرين ألف ملك كذلك ، وما رأيت أحدا أعطى مثل ملكك ، فقال سليمان وما اسمك ؟ قالت اسمى ويلو وأنا كمثل غيرى من الملوك أريد الاصلاح والصلاح لقومى ، فقال لها فكم عددكم وأين منتهاكم ومتى خلقتم وما تأكلون وما تشربون وأين تسكنون؟ فقالت يانبىّ الله إنك لو أمرت الانس والجنّ والشياطين يحشرون اليك نمل الأرض لعجزوا عن ذلك لكثرته ، وما على وجه الأرض واد ، ولا جبل ، ولا غابة الا وفى أكنافها مثل مافى سلطانى من النمل ، ولو تفرق كردوس واحد فى الأرض لما وسعته ، ولقد خلقنا قبل أبيك آدم بألفى عام ، وانا لنأكل رزق ربنا ونشكره فأمرها سليمان أن تعرض النمل عليه فنادته ، فخرجت النمل من أجحارها ، وجعلت تمرّ على سليمان زمرة بعد زمرة وهو ينظر الى اختلاف ألوانها من بين أسود وأبيض وأخضر وأصفر ، فقال ملك النمل يا نبىّ الله أمّا أسودها : فمأواه الجبل ، وأمّا أحمرها : فمأواه على قرب الماء ، وأمّا أخضرها : فانه يكون بين الأشجار ، وأمّا أصفرها : فانه يكون بين الزرع ، وأمّا أبيضها :

فانه يكون فى الهواء وهى الطيارة ، وأنها اذا نبتت أجنحتها فقد هلكت لأن كل طير فى الهواء يختطفها ، واعلم يا نبىّ الله أن النملة لا تموت حتى يخرج من ظهرها عدد من النمل ، وما شىء على وجه الأرض أحرص من النمل ، وإنها لتجمع فى صيفها ما يملأ بيتها ، وهى مع ذلك تظن أنها لا تشبع .

قال ابن عطاء الله تكلمت النملة فى قوله ، قالت نملة الآية ، فجمعت فى كلامها هذا عشرة أجناس من الكلام . نادت، ونبهت، وسمت، وأمرت، ونصحت، وحذرت، وخصت، وعمت، وأشارت، وأعذرت ، فأمّا النداء : فيا ، وأمّا التنبيه : فأيها ، وأمّا التسمية : فقولها النمل ، وأمّا الأمر : فقولها ادخلوا ، وأمّا النصح : فقولها مساكنكم ، والتحذير : من قولها لا يحطمنكم ، والتخصيص : قولها سليمان ، والتعميم : قولها جنوده ، والاشارة : قولها وهم ، والعذر : قولها لا يشعرون ٭ وفى الآية دليل على أن النمل كغيره يعرف الأنبياء عليهم السلام .

معنى قولنا : لا إله إلا الله لا معبود بحق فى الواقع إلا الله ، ومعنى سبحان الله لا عيب فى الله ولا نقص فهو تنزيه لله عن جميع النقائص ، والحمد لله : معناه المدح كله لله فالذى يستحق المدح على الحقيقة هو الله .

والله أكبر : معناه لا أكبر سواه الذى عند ذكره يصغر كل شىء رغما ، ومعنى لا حول ولا قوة إلا بالله : أى لا تحول عن معصية الله إلا بعصمته ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيقه .

الصـــــلاة

سئل بعض العلماء ما الحكمة فى أن الصلاة المفروضة خمس ؟ فأجاب بقوله : إنما لم تزد على خمس لأمور منها أن نعم البدن خمس : الذوق ، والشم ، والسمع ، والبصر ، واللمس ، وهى الحواس الخمس فكل فريضة فى مقابلة حاسة ، وحكمة كونها مثنى وثلاث ورباع ما فى كل حاسة من النعم ، وذلك أن العبد يشمّ من الجوانب الأربع ، فقابلتها أربع ركعات وهى الظهر ويسمع من الجوانب الأربع فقابلته أربع ركعات ، وهى العصر ويرى عن يمينه ويساره وأمامه ولا يرى خلفه فقابلتها ثلاث ركعات وهى المغرب ويعرف بالذوق الحرارة والبرودة والعذوبة والملوحة فقابلتها أربع ركعات وهى العشاء ، وإذا وضع يده على شىء عرف نعومته وخشونته فقابلتها ركعتان وهى الصبح .

وقال آخر : إنما جعلت الصلاة مثنى وثلاث ورباع لأن أجنحة الملائكة كذلك والصلاة أجنحة للآدمى يطير بها إلى رضا الله تعالى .

البشـــــارة

كما لا ينفع مع الشرك شىء كذلك لا يضرّ مع الايمان شىء ، والدليل على هذا ما حرره الأئمة فى آية [ولم يلبسوا إيمانهم بظلم] فالمراد بالظلم الشرك لقول الصحابة رضى الله عنهم أينا لم يلبس إيمانه بظلم ، فقال لهم ﷺ إنما هو الشرك .

[حكاية غريبة] عن وهب بن منبه أن نبىّ الله سليمان عليه السلام . قال إلهى قد أعطيتنى

مالم تعط أحدا من خلقك ، وإنى أسألك أن تجعل أرزاق عبادك بيدى ، فأوحى الله إليه إنك لن تطيق ذلك ولا يغرّنك ما أنت عليه من الملك فانه فى جنب ملكى كالذرّة فى الفلوات ، فقال سليمان يارب فيوما واحدا ، فأوحى الله إليه إنك لن تطيق . قال سليمان فساعة واحدة من النهار فأوحى الله إليه إنى قد أعطيتك فاستعدّ لأرزاق خلقى واجمع لهم فانى قد فتحت لك أسباب الأرضين ، وابدأ بسكان البحر قبل سكان البرّ . قال فأخذ سليمان فى الاستعداد ، وجمع لهم البرّ والشعير والحبوب وغير ذلك حتى جمع ماينوف على وسق مائة ألف بعير و بغل ، ثم سار يريد البحر حتى أشرف على الساحل وحط ما كان معه هناك ، ثم أمر مناديه فى سكان البحر أن يناديهم احضروا لقبض أرزاقكم ، فاجتمع الحيتان والضفادع ودوابّ البحر على صور مختلفة وإذا بحوت قد أخرج رأسه مثل الجبل العظيم ، فقال أشبعنى يا ابن داود فقد جعل ربى رزقى على يديك فى هذا اليوم ، فقال سليمان دونك هذا الطعام فلم يزل يأكل حتى أكل جميع ماجمعه سليمان ، ثم قال زدنى يانبىّ الله ، فتعجب سليمان منه ، وقال هل عندكم فى البحر مثلك ؟ قال يانبىّ الله إنى لفى زمرة من الحيتان فيها سبعون ألف زمرة كل زمرة مثل عدد الرمل والمدر وقطر المطر وورق الشجر ، وفى البحر حيتان لو دخلت فى جوف أحدها لما كنت فى جوفه إلا كخردلة فى أرض فلاة . قال فبكى سليمان عند ذلك ، وقال يارب أقلنى عثرتى فى مسألتى فانه لاتفنى خزائنك ولايقدر أحد قدرتك ، فأقاله الله عزّ وجلّ ذلك .

وأوحى الله إليه يابن داود قف حتى ترى جنودى ، فان ما رأيت قليلا ، فوقف فاذا البحر قد اضطرب اضطرابا شديدا ، وإذا حوت قد خرج يشقّ البحر شقا ، وله خرير كخرير الرعد وهو يقول : سبحان من تكفل بأرزاق العبيد سبحانه ، فلما قرب من الساحل قال : يابن داود لولا اليد الباسطة عليك لكنت أضعف العباد إنك لم تقدر أن تشبع حوتا واحدا ولا نال منك طعمة فكيف تقدر على أن تتكفل برزق الخلائق ؟ ثم مرّ ذلك الحوت ، فنظر سليمان إلى عظمة خلقة ذلك الحوت ، وقال يا إلهى هل خلقت أعظم من هذا ؟ فأوحى الله إليه إن فى البحر من خلق من يقدر أن يأكل سبعين ألفا من هذا ولا يشبعه إلا نعمتى ولطفى .

زكاة الحبوب

قال وهب بن منبه بينما سليمان عليه السلام خارج ذات يوم من دار بنى إسرائيل إذ مرّ بزرع عن يمينه قائم على سوقه وقد بلغ الحصاد ، وزرع عن يساره دقيق لاحب فيه ولا خير وليس بينهما إلا حائط ، فتعجب سليمان من ذلك ، فسمع صوتا يقول عن يساره : إنّ أصحابى إذا حصدونى لايخرجون منى حق الله ، فلذلك أنا كذلك بلا خير .

البعوض

عن وهب بن منبه . قال سليمان عليه السلام : إلهى هل خلقت خلقا هو أكثر من النمل ؟ فأوحى الله إليه نعم وسترى ذلك ، ثم أوحى الله تعالى إلى ملك البعوض حتى يحشرها لسليمان ،

فنادى ملك البعوض فيهم ، فحشرت من شرق الأرض وغربها ، فأقبلت كراديس البعوض كأنها السحاب يتبع بعضها بعضا فى اختلاف خلقتها حتى وقف كردوس منها على سليمان ، ثم أقبل ملكها على سليمان ، فقال يا نبيّ الله مالك والضعفاء من خلق ربك ألهيتهم عن التسبيح ، يا بن داود إنا فى هذه الأرض من قبل أبيك آدم بألفى عام نأكل من رزق ربنا ولا نفتر عن ذكره صباحا ولا مساء ، فقال سليمان أخبرنى كم أنتم وأين مأواكم وكم تعيشون ومن أين ترزقون ؟ فقال ملك البعوض يا نبيّ الله أما ماتحت يدي فسبعون سحابة كل سحابة تملأ المشرق والمغرب ، منها ما يأوى إلى قلل الجبال ، ومنها ما يأوى إلى البحار ، ومنها ما يأوى إلى الغياض والآجام وبين الأشجار والأنهار ، ولكل زمرة منها موضع معلوم تأكل كل واحدة منها رزقها ، ولولا خوف المعاد لأكلت كل مافى الدنيا ، ثم سجد لسليمان وانصرف .

لما أرسل الله تعالى على نمروذ وجنوده البعوض جاءهم من البعوض ماملأ الدنيا ، واجتمع البعوض على جيش نمروذ فارسهم وراجلهم حتى مات من لدغها خلق كثير لايحصون عددا ، والتجأ الباقون إلى الدور والمنازل ، وأوقدوا النار ، وأغلقوا الأبواب ، وأرسلوا الستور فلم تغن عنهم شيئا ، والنمروذ يشاهد ذلك فخاف على نفسه وانفرد عن جيشه ودخل منزله ، وأمر بغلق الأبواب ، وإرخاء الستور ، وبقى متفكرا ، فأقبلت إليه بعوضة سخرها الله تعالى لذلك وخرقت الستور والأبواب حتى وصلت إلى شفتيه ، ثم طارت فدخلت فى أحد منخريه وصعدت إلى دماغه وأخذت تتغذى بدماغه حتى عذبه الله عزّ وجلّ بها أربعين يوما لاينام ولا يطعم ولا يشرب ، وصار يضرب برأسه الأرض ، وكان أعظم الناس عنده من يضرب رأسه ، فلما كان بعد الأربعين يوما شقت البعوضة رأسه وخرجت على كبر الفرخ .

وروى أنه حشر لسليمان عليه السلام سبعون ألف جنس من الطيور مما لم ينظر إليه أولاد آدم ولا عرفوه كل جنس لا يعيش برزق صاحبه ، وله خلقة غير خلقة صاحبه ، فأمرن أن يقفن على رأس سليمان كالسحاب المظل فى ألوان مائة ألف وعشرين ألف لون يخالف لون كل طائر لون صاحبه فى طبعه وجنسه وصورته ، فرآهنّ سليمان عليه السلام ، فمنها ما كان صوته كصوت الثور والخيل والحمير والكلاب والذئاب ، ومنها مايصيح كصوت الطبل والمزمار ، فسألها سليمان عن حالها ومعاشها وأين تبيض وأين تأوى ؟ فقالت يا نبيّ الله إنا نأوى إلى جوّ الهواء ونبيض على الجناح الأيمن فنمسكه أربعين يوما ، فاذا تمّ ذلك انفلق البيض وطار الفرخ باذن الله تعالى .

وفى رواية : إنا نتسافد فى الهواء ونبيض فى الجوّ ، فتبقى البيضة معلقة باذن الله تعالى فيطير الفرخ فى اليوم الثالث ونسلنا أبدا دائم .

وحكيَ عن سليمان بن منصور بن عمار عن أبيه . قال حدّثنى أخ لى يكنى أبا الياسر وكانت له سياحة ومجاهدة ، فقال خرجت يوما أسير فى ساحل بحر الهند لعلى أرى شيئا أتعظ به فاعتبر بآثار قدرة الله تعالى وبدائع حكمته ، فسرت بضعة عشر يوما فى أيكة ملتفة الأغصان فيها عيون ، وإذا بشجرة عالية لاأدرى ماهى تحمل ثمرا لاأدرى ماهو لم أذق شيئا ألذّ منه ، وإذا لتلك الأشجار روائح ليس للمسك والكافور مثلها ذكاء وطيبا ، ورأيت صنفا من الطير حسانا

عظام الأجسام أصغرها كالسنور استوطنت تلك الأيكة لها شجو وهدير يطرب السامعين ، فقلت لنفسى هــذه قطعة من الجنــة أو شبهها فى الوصف ، فلما قطعتها رأيت ثلاثة تلال رمال كالجبال سـحالتها التبر والفضة ، فحملت معى من ثمر تلك الشــجرة ، فكنت أتناول منـه قليلا فيشبعنى ويروينى ، ثم أفضيت إلى الساحل ، وإذا بصومعة فيها شيخ قد فنى من طول الزمان ومكابدة الأحزان ، فقلت له يا راهب ما الذى صيرك إلى ما أرى ؟ قال حقّ عرفته فأضعته ، وباطل علمته فآثرته . قلت وما ذلك الحقّ والباطل أيها الرجل ؟ قال آثرت الدنيا وهى الباطل على الآخرة وهى الحقّ ، وإنى خائف لذلك وجل أن لايتغمدنى الله برحمتــه . قلت وما دينك ؟ قال يا هــذا أو غير الاســلام دين ؟ قلت له عليه ولدت . قال لا . فقلت له كيف دخلت فيــه ودنت به ؟ قال ذلك من اللطيف الخبير ، ولـكن لـكل شىء سبب ، وأنا أخبرك عن ذلك السبب ☆ اعلم أنى لم أزل منذ بلغت الحلم ، وأمدّنى الله بنور العقل موحدا معتقدا أن المسيح عبــد الله عزّ وجلّ ، وكنت فى عنفوان شبابى سائحا فى الأرض من بلد إلى بلد ، ثم إنى ركبت إلى الصين فأقلع المركب ولج بنا فسرنا بريح طيبــة شهرا ، ثم إنه أشرف من بعــد شىء كهيئة الجبل وجاءنا من نحوه ريح عاصفة سوداء شــديدة ، فتحطم المركب وتقطع قطعا ، فأقبلت أنا على لوح من ألواحه ، فلم تزل الأمواج تلعب بذلك اللوح وأنا معانقــه ، فبقيت كذلك شهرا ونصف شهر فيما أحسب ، فضعفت قواى ، وأظلم بصرى ، وأيقنت نفسى بالهلاك ، ثم رمى الموج باللوح إلى ساحل جزيرة من جزائر البحر ، فاذا فيها شــجر عظيم ذاهب فى الهواء ، وله ورق كبير بحيث ان الورقة منه توارى الرجل ، وفى الورق مكتوب بالحمرة والبياض فى خضرة ذلك الورق كتابة بينة خلقة ابتــدعها الله تعالى فى الورقة ثلاثة أســطر : السطر الأول [لا إله إلا الله] ، والسطر الثانى [محمد رســول الله] ، والسطر الثالث [إنّ الدين عند الله الاسلام] ، وثمر الشجر النبق بقدر التفاح الـكبير ، فأكلت منه فاذا هو أحلى من العسل وألين من الزبد لاعجم له ، فذاك كان يشبعنى ، وكنت أجد له لذّة وقوّة فى فى جسمى ، وفى خلال تلك الأشــجار عيون عذبة تجرى على الأرض فيها من الجواهر شىء أعرفه وشىء لا أعرفه ، وشىء من الطير حسان الصور مختلفات الهيئة فى الـكبر والصغر يتجاوبن على تلك الأشــجار فى الأسحار ، وفى انتصاف الليل والنهار ، وهى تقول : لا إله إلا الله الملك الجبار ، فما سمعت شيئا أطيب من أصواتها وعجبت من إفصاحها بكلمة التوحيد ، ولا عجب من أمر الله ، وعلمت فى ذلك مستيقنا إن فى ذلك عــبرة ، ولله على ذلك أتم حجة مع ما أشهدنى الله تبارك وتعالى على ورق الأشجار من كتابة اسم محمد ﷺ بالنبوّة وإتيانه بالرسالة ، فقرنت حينئذ مع قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وعلمت أن دين الاسلام هو الحق وهو الدين عنــد الله ولقد كنت عرفت ممن شاهدت ببلدى وبلاد الشام مع من لقيت من العباد طرفا من علم شريعــة الاسلام ، وقرأت سورا من القرآن ، فلما هدانى الله سبحانه وتعالى إلى الاسلام أقبلت أعبد الله تعالى بما كنت أعرفه من الصلاة والصيام ، فلبثت فى تلك الجزيرة ثلاث سنين ، وظننت أن مماتى بها ومحشرى منها ، فقلت له كيف كان خروجك منها ؟ قال كنت جالسا فى ساحل تلك الجزيرة إذ رأيت مركبا بازائى فى اللجة ، وكانت الريح قد ركدت فحطت بعض قلوعها لاصلاح بعض شأن من

فيها

فيها ، فلما رأيت المركب واقفا ، ولم أر منذ وقفت إلى تلك الجزيرة مركبا قبله توجهت إليهم ودخلت المركب بقارب سيروه إلىّ ، فلما نظروا إلى ماقد علانى وركبنى من الشعر حتى كأنى شيطان خافوا منى ، فسألونى عن أمرى وحالى ، فأخبرتهم بقصتى وحدثتهم بحديثى ، وما رأيت فى الجزيرة فقالوا لقد رأيت عجبا وهموا بالقاء قاربهم إليها لمشاهدة ما رأيت هناك فلم يساعدهم الوقت وأقلعوا وساروا ، وكان فى المركب عدة رجال نصارى ، وكانت مدينتهم أمام ساحل البحر ، فصعد النصارى إلى مدينتهم وصعدت أنا معهم ، وكنت أخالطهم حتى ألفونى فأسلم بعضهم على يدى ، واقتصر الباقون على دين المسيح عليه السلام ، وكذلك كان سبيل أهل المدينة فانهم كانوا نصارى يزعمون أن عيسى هو الله ، تعالى الله عن كلمة الكفر ، فكلمتهم وعرفتهم فساد دينهم ، فرجع القوم جميعا عن دينهم .

فقلت كيف رقيت إلى هذه الصومعة ؟ قال كنت ربما خرجت عنهم ، فسرت فى هذا الساحل ، وما اتصل به إلى المواضع والجزائر معتبرا بما أشاهد بها من العجائب وأعود الى المدينة وكان راهب هذه الصومعة الذى كان بها قبلى شيخا كبيرا ، وكان موحدا مؤمنا بعيسى وبمحمد عليهما السلام ، وكان العاشر من آبائه قد لقى تلميذ المسيح عليه السلام ، وكان للراهب شرف بهذا ، وكانوا يتوارثون أمر الصومعة ، فلما حضرت الراهب الوفاة دعاهم ووصاهم ، وأمرهم أن يسلموا الىّ الصومعة ، وكان قد انقطع نسله ، فسألونى عن ذلك فأجبتهم ، وذلك منذ ستين عاما. قلت له كم مضى من عمرك ؟ قال مائة سنة وعشرون سنة . قال أبو إلياس ، فعجبت من تملكه وقوة عقله ونفسه مع كبر سنه وقدم عمره . قلت ما اسمك ؟ قال اسمى عند الناس أبو الوفاء واسمى عند نفسى عبد الأحد . قلت له قد هربت من الدنيا حق الهرب وحبست نفسك فى هذه الصومعة من الدنيا . قال يا أخى انى أيقنت أنى أخرج منها كارها ، فأردت أن أخرج منها طائعا . قلت كيف صبرك على الوحدة ؟ قال وأنا صائر اليها انك لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت اليها . قلت له فما أفادك الانفراد ؟ قال الأنس بالملك الجواد ، ثم بكى وأدخل رأسه فى صومعته ، فلم أزل أسمع صوت بكائه وزفيره ، فأمسكت عنه حتى سكن بكاؤه ، ثم ناديته فأشرف علىّ ، فقلت أيها الحكيم متى يذوق العبد حلاوة المعرفة بالله تعالى ؟ قال اذا صحت المعاملة لله تعالى . قلت فمتى تصح المعاملة ؟ قال اذا صار الهم هما واحدا . قلت فما ذلك ؟ قال الاقلاع عن الذنوب ، وصفو الوداد للمحبوب ، فحينئذ يقطع ولىّ الله حبل الفناء ، ويعتصم بحبل البقاء ، ثم شهق شهقة كادت تخرج معها نفسه ، فلما أفاق قلت له أيها الحكيم ان الله بحكمته وحسن تقديره بنى هذه الأجسام على الاغتذاء بالطعام وأنت عن الناس والعمارة منقطع ، فمن أين تتقوت ؟ قال أظنك تخاف الفاقة علىّ ، وقد تكفل الخالق برزقى وأنا مخبرك أن أهل تلك القرية كانوا يأتونى بقرص من خبز الأرز فى كل عشية وكان ذلك قوتى ، فلما عزموا على فراق البلاد ساروا الىّ ، فسألونى المضىّ معهم ، وضمنوا لى بناء صومعة بدلا من هذه الصومعة ، فأبيت ذلك عليهم ، فقيض الله اللطيف لى نفرا من أوليائه وهم سبعة يأتونى فى كل ليلة جمعة فيجلسون إلى تلك العين ، وأشار الى عين عذبة تنبع عند باب الصومعة . قال فأنزل اليهم فيظلون يومهم فى ذكر الله والثناء عليه ، واذا صلوا العشاء قدم

أحدهم فطورهم شيئا يشبه التمر وليس بتمر فيفطر القوم عليه وأنا معهم ، ولا أجد عوضا الى دعوتهم إلا ليلة الجمعة الأخرى ، وكذلك يأتوننى فى كل ثلاث سنين بقميص مخيط وكمل لى بهم حفظ القرآن وشرائعه ، وعرفت كثيرا من حدود الاسلام .

من أعجب مايسمع ماحكاه صاحب النطق المفهوم : أن غازيا خرج إلى الجهاد ، فخرجت معه زوجته إلى بعض الطريق لتودعه ، فقالت له يانعم العشير ألا توصينى ، فقال وبم أوصيك ؟ وكانت حاملا ، فرمق بطرفه إلى السماء ، وقال استودعت مافى بطنك فى يد من لا تخيب لديه الودائع وفارقها ، فلما كان فى بعض الأيام حضرها الطلق ، فقضى الله تعالى أنها ماتت ولم تلد ما فى بطنها ، فدفنت الجارية ، فرأوا من قبرها عمودا من نور يسطع من الأرض إلى السماء ، فجاء زوجها من من الجهاد بعد ذلك بعشرين يوما ، فمضى إلى قبرها وكشف اللبن عن قبرها وعنها ، فوجدها جالسة فى قبرها ، والطفل يرضع ثديها ، فقالت له يا نعم العشير خذ الولد الذى استودعت اللطيف الخبير ، ولو استودعتنى لوجدتنى ، فأخذ الطفل من حجرها ، وعاش ذلك الطفل ستين سنة .

[حكاية غريبة] قال وهب بن منبه خرج عيسى بن مريم عليه السلام ذات يوم مع جماعة من أصحابه ، فلما ارتفع النهار مرّوا بزرع ، وكان قد أفرك ، فقالوا يانبىّ الله إنا جياع ، فأوحى الله إليه أن ائذن لهم فى قوتهم فأذن لهم فتفرّقوا فى الزرع يفركون ويأكلون ، فبينما هم كذلك إذ جاءهم صاحب الزرع وهو يقول : زرعى وأرضى ورثته عن آبائى بأذن من يأكل هؤلاء ، قال فدعا عيسى ربه ، فبعث الله تعالى جميع من ملك تلك الأرض من لدن آدم إلى ساعته ، فاذا عند كل سنبلة ماشاء الله من رجل وامرأة كلهم يقولون : زرعى وأرضى ورثته عن آبائى ، فجاء صاحب الزرع ، وكان قد بلغه أمر عيسى عليه السلام وهو لايعرفه ، فلما عرفه قال معذرة اليك يارسول الله انى لم أعرفك زرعى ومالى لك حلال ، فبكى عيسى عليه السلام ، وقال ويحك كلهم قد ورثوا هذا الزرع وعمروها ، ثم ارتحلوا عنها وأنت مرتحل عنها وبهم لاحق ويحك ليس لك أرض ولا مال .

وروى أن عيسى عليه السلام اجتاز بجمجمة نخرة ، فقال له أصحابه : ياروح الله لو سألت الله تعالى أن ينطق لنا هذه الجمجمة ، فعسى تخبرنا بما رأته من العجائب ، فصلى عيسى عليه السلام ركعتين ، وسأل الله تعالى ذلك ، فأنطقها الله تبارك وتعالى ، فقالت ياروح الله عشت ألف سنة واستولدت ألف ولد ذكر ، وفتحت ألف مدينة ، وهزمت ألف جيش ، وقتلت ألف جبار ، وصحبت الدهر وامتحنته ، فلم أر شيئا أنفع من الزهد فى الدنيا ، ولم أجد لهذا الدهر شيئا أنفع من الصبر ، ولم أر هلاك النفس الا فى الحرص والطمع ، ووجدت العزّ فى الرضى بقسمة الله تعالى .

وفى رواية : أن عيسى عليه السلام بينما هو فى بعض سياحته اذ مرّ بجمجمة نخرة ، فأمرها أن تتكلم ، فقالت ياروح الله أنا بهرام بن حفص ملك اليمن قتلت ألف جبار ، وفتحت ألف مدينة ، فمن رآنى فلا يغتر بالدنيا ، فما كانت الا كحلم نائم ، فبكى عيسى عليه السلام .

أعتبار لأولى الأبصار

عن كعب الأحبار : أن عيسى ابن مريم عليه السلام مرّ بوادى القيامية عشية جمعة ، فاذا هو بجمجمة ، فعجب منها فصلى ركعتين، ثم قال : يا ربّ أئذن لهذه الجمجمة أن تكلمنى بلسان حىّ وتخبرنى كم أتى عليها منذ ماتت ، و بأىّ موتة ماتت ، وما كانت تعبد وماذا لقيت ؟ فأتاه نداء من السماء يا روح الله سلها فانها تخبرك ، فدنا منها وقال : السلام عليك أيتها الجمجمة النخرة . قالت لبيك . قال كم أتى عليك منذ مت ؟ قالت لانفس تعدّ بعد الممات ولاروح تحصى السنين ، فأتاه النداء أنها قد ماتت منذ أربع وسبعين سنة ، فقال لها كيف كان حالك عند الموت ؟ قالت أتانى مثل سهم من السماء ، فدخل فى جوفى كالحريق ، ثم بعده أتانى ملك الموت ومعه أعوانه وجوههم كوجوه الكلاب بادية أنيابهم زرق أعينهم كلهب النار بأيديهم المقامع ، فضربوا وجهى ودبرى ، فنزعوا روحى ، ثم وضعها ملك الموت على جمرة من جمر جهنم ، ثم لفها فى قطعة من مسوح جهنم، فرفعوا روحى إلى السماء فنعتها أهل السماء أن تدخل ، وأغلقت الأبواب دونها ، وأتى نداء من السماء ردّوا هذه النفس الخاطئة إلى ماوراءها ومثواها . قال لها عيسى فأىّ شيء كان أشدّ عليك ظلمة القبر وضغطته ، أم عذاب جهنم ؟ قالت ياروح الله إذا نزع الروح من الجسد فليس فى البصر نور يعرف الظلمة والضوء ، وليس للقلب عقل يعرف الضيق من السعة ، ولكن لما نزعت روحى واحتملت إلى القبر دخل علىّ ملكان عظيمان لا يوصفان ، بيد كل واحد منهما مقمعة من حديد وأقعدانى ، فضربانى ضربة ظننت أن السموات السبع وقعن على الأرض ودفعا إلىّ لوحا ، فقالا اكتب ماعملت فى الدنيا ، فكتبته ، فلما كتبت الكتاب فتحا لى بابا إلى جهنم، فجاءت نار وامتلأ قبرى حيات كأمثال الذئاب أعناقهنّ كأعناق البخت ، فنهشوا لحى ورضوا عظمى ، ودخل علىّ ملك ومعه مقمعة، وفى رأس المقمعة ثعبان لايوصف، وفى أصله عقارب سود كأمثال البغال الدهم على تلك المقمعة ثلثمائة وستون غصنا كل غصن ثلثمائة وستون لونا من نار فضربنى بها ،فأشعل النيران فى جسدى ، وأقبل الثعبان والعقارب علىّ إذ أتانى نداء علىّ بهذه النفس الخاطئة ، فتعلق بى ملائكة لا توصف ألوانهم غير أن أنيابهم كالصياصى ، وأعينهم كالبرق ، وأصابعهم كالقرون فانتهوا بى إلى ملك قاعد على كرسىّ ، فقال اذهبوا بهذه النفس الظالمة إلى جهنم ، فانطلقوا بى إلى أوّل باب من أبواب جهنم ، فاذا أنا بأبواب ضيقة وريح منتنة شديدة ، واذا أنا بأصوات كالرعد القاصف وعواصف شديدة من النار سوداء مظلمة ، ثم انطلقوا بى الى الباب الثانى ، واذا أنا بنار تأكل النار الأولى ، وهى أشدّ حرّا من النار الأولى ، ثم أدخلت الى الباب الثالث ، فاذا أنا بنار هى أشدّ حرّا من النار الأولى والثانية ، وهى تأكل الثانيـة والحجارة ، ثم أدخلت الباب الرابع ، فاذا بنار تأكل الثالثة ، وهى أشدّ حرّا من النار الثالثة ، واذا أنا بشجرة تتساقط منها حجارة سود قد كلف قوم بأكل تلك الحجارة . قيل هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، ثم انطلقوا بى الى الباب الخامس ، واذا أنا بنار مظلمة هى أشد من الأبواب كلها فيها شجرة رءوسها كرءوس الشياطين فيها ديدان سود، طول الدودة مائة ذراع ،واذا برجال قد كلفوا أكلها ،قيل هذه الشجرة شجرة

الزقوم ، وهؤلاء أكلة الربا ، ثم انطلقوا بى الى الباب السادس ، فاذا بنار تتضاعف على ما رأيت حرًّا ودخانا وظلمة ، وإذا فيها قوم يسيل من فروجهم الصديد . قيل هم الزناة ، ثم انطلقوا بى إلى رجل قاعد على كرسيّ من نار وحوله الملائكة قياما بأيديهم مقامع من نار ، فقالوا ما كانت تعبد هذه النفس الخاطئة ؟ قالوا كانت تعبد ثورا من دون الله . قالوا انطلقوا بها إلى أصحابها . قال عيسى عليه السلام كيف كنتم تعبدون الثور ؟ قالت كنا نعبد ثورا ونطعمه الخبيص ونسقيه العسل المصفى . قال عيسى ومن كان نبيكم ؟ قالت الجمجمة إلياس . قال فانطلقوا بى حتى أدخلت الباب السابع ، فاذا فيه ثلثمائة قصر من نار فى كل قصر ثلثمائة دار من نار فى كل دار ثلثمائة بيت من نار فى كل بيت ثلثمائة لون من العذاب فيها من الحيات والعقارب ما لايحصى ولا يوصف ، فألقيت فيها مغلولة يديّ إلى عنق مع أصحابى تحرقنا النار وتأكل بطوننا الأفاعى وتنهشنا الحيات وتضربنا الملائكة بالمقامع ، فأنا منذ أربع وسبعين سنة فى العذاب لايخفف عنى طرفة عين إلا يوم الجمعة والخميس ، فنعرف يوم الجمعة والخميس بالتخفيف عنا ، فبينا أنا كذلك إذ أتانى نداء أن أخرجوا هذه النفس الخاطئة الخبيثة إلى جمجمتها ملقاة بوادى القيامية ، فان روح القدس قد شفع لها فأخرجت ، فأسألك ياروح الله وكلمته أن تسأل ربك أن يعفو عنى ، فصلى ركعتين ،ودعا ربه أن يبعث له النفس الخاطئة ، فبعثها الله له ، لم يزل مع عيسى حتى رفع إلى السماء ، ثم قبض بعد ذلك ☆ اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .

وقد أذكرنى هذا الموضوع وإن كان خارجا عن المقصود ماذكره منصور بن عمار . قال بلغنى أن لمالك خازن النار أيديا بعدد أهل النار ، مع كل رجل يد تقيمه وتقعده وتغله بسلسلة فاذا نظر إلى النار أكل بعضها بعضا خوفا منه ، ثم قال : ومع مالك هذا تسعة عشر من الزبانية وهم يتصرفون بأرجلهم كما يتصرّفون بأيديهم ، فيأخذ الواحد منهم عشرة آلاف من الكفار بيد واحدة ، وعشرة آلاف باليد الأخرى ، وعشرة آلاف باحدى رجليه ، وعشرة آلاف بالرجل الأخرى ، فيعذب فى دفعة واحدة من الكفار أربعين ألفا ، وهؤلاء هم رؤساء ملائكة النار ، وتحت كل واحد منهم من الخزنة ما لايحصى لم يخلق الله فى قلوبهم من الرحمة والرأفة مقدار ذرّة ، أجارنا الله منهم بجاه نبيه مولانا محمد وبحق آله وأصحابه وأتباعه آمين .

حكى أبو نصر السمرقندى أن موسى عليه السلام خرج من مدينة أنطاكية ، فرأى رجلا فقال له يا موسى هل أضافك أحد فى هذه المدينة ؟ قال لا . قال أتريد الضيافة ؟ قال نعم . قال ارجع فرجع فأضافه ثلاثة أيام ، فلما أراد الانصراف .قال أتريد المركب ؟ قال نعم ، فخرج الرجل إلى الصحراء فرفع رأسه إلى السماء ودعا ، فجاءت قطعة سحاب ، فقالت يا وليّ الله ما الحاجة ؟ قال أين تذهبين فقالت إلى خراسان ، فقال لا حاجة لى إليك ، فجاءت قطعة أخرى ، فسألها فقالت إلى الشام فى ساعة واحدة ، فقال احلى نبيّ الله فنزلت وحملت موسى عليه السلام ووضعته فى الشام ، فلما رأى موسى ذلك حقر نفسه ، وقال إلهى كنت أعتقد أنه لاعبد لك أفضل منى والآن احتجت إلى دعاء وليّ ، فكيف هذا وبماذا استحق هذه الكرامة ؟ قال كان بارًّا بوالدته .

روى أبو هريرة رضى الله عنه . قال ان سليمان عليه السلام كانت له أربعمائة امرأة ،وستمائة

سرية ، فقال يوما لأطوفن الليلة عليهن أجمع ، فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يستثن فطاف عليهن فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة ، فجاءت بشق إنسان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لو استثنى ، فقال إن شاء الله لولد له ما قال فرسانا يجاهدون فى سبيل الله .

[غريبة] قال وهب بن منبه مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة فتعجب منها وقام ، فصلى ركعتين ثم قال : إلهى ائذن لهذه الخربة أن تكلمنى ، فارتعدت الخربة ونادت يا روح الله سلنى عما تريد ، فقال عيسى عليه السلام : أيتها الخربة كم أتى عليك ؟ قالت أربعة آلاف سنة وخمسمائة سنة . قال كم أناس كانوا فيك ؟ قالت لا أحصيهم ولكن أسمى لك من تسمية واحدة كان فى أربعون ألف هارون . قال أخبرينى ما سبب هلاكهم ؟ قالت كان فى ملك اتخذ صنما من ذهب طوله عشرون ذراعا ، واسمه ميكايل يخدمه كل يوم ألف رجل ، وكل ليلة ألف امرأة ، وكان يسجد له الملك كل يوم سبع مرات ، وبالليل كذلك ، لباسه الديباج ، وله طوق من ذهب مكلل بالدر والياقوت ويقولون لانعرف إلها سواه ، فيأتون عنده فى لهو وفى طرب ، فخسف بهم . قال عيسى عليه السلام وأين أموالهم ؟ قالت فى . قال عيسى بؤسا لأزواجك الباقين كيف لايعتبرون بأزواجك الماضين .

حكى أن رجلين تنازعا فى أرض ، فأنطق الله لبنة من جدار تلك الأرض ، فقالت إنى كنت ملكا من الملوك ملكت الدنيا ألف سنة ، ثم مت وصرت رميما ألف سنة ، فأخذنى خزاف فاتخذ منى خزفا ، ثم أخذنى رجل فضرب منى لبنا ، فأنا فى هذا الجدار منذ كذا وكذا سنة فلم تتنازعان فى هذه الأرض ؟

قال مجاهد حدثنى ابن عباس رضى الله عنهما أن آدم حج من أرض الهند أربعين حجة على رجليه ، فقيل لمجاهد يا أبا الحجاج أكان يركب ؟ فقال وأى شيء كان يحمله ؟ فوالله إن خطوته لمسيرة ثلاثة أيام ، وفى الخبر ان آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة إلى الأرض نزل بالهند .

من أغرب مايسمع ماحكى من أمر فرعون . قيل إن فرعون هذا ملك مصر خمسمائة سنة لم يصبه ألم ولا نصب ، ولم يزل مخولا فى نعم الله تعالى إلى أن أغرقه الله فى اليم .

ولم يكن فرعون من أولاد الملوك ، وإنما كان عطارا بأصبهان أفلس وركبته الديون ، فخرج هاربا ، فأتى الشام فلم يستقم حاله ، فجاء إلى مصر ، فرأى ملكها مشتغلا بلهوه ، فتوصل إليه بحيلة وخرج إلى المقابر ، وسمى نفسه عامل الأموات ، وصار يأخذ عن كل ميت جعلا حتى بلغ الملك خبره ، فأرسل إليه وكلمه فأعجبه عقله ومعرفته فاستوزره ، وصار فى الناس سيرة حسنة ، وكان عدلا سخيا يقضى بالحق ولو على نفسه ، فأحبه الناس لكثرة عدله ، فتوفى الملك فولوه عليهم ، فعاش زمانا طويلا حتى مات منهم ثلاثة قرون وهو باق فتجبر وبغى ، وقال أنا ربكم الأعلى ، فاستخف قومه فأطاعوه ، وقال موسى يارب إن فرعون يجحدك مائتى سنة فكيف أمهلته ؟ فأوحى الله تعالى الى موسى أنه عمر بلادى وأحسن الى عبادى ، فلما أراد الله هلاك فرعون خرج فى طلب موسى عليه السلام وفى طلب بنى اسرائيل ، وكان على مقدمة فرعون هامان فى ألف ألف وستمائة ألف

سوى القلب والجناحين ، ولم يخرج معه من عمره فوق الأربعين ولا دون العشرين ، وكان فى عسكره ذلك اليوم مائتا ألف حصان من الدهم ، فلما انتهى موسى ومن معه من بنى إسرائيل إلى بحر القلزم وهو منتهى حد مصر هاجت الرياح ، وتراكمت الأمواج كالجبال ، فقال يوشع ابن نون ياكليم الله أين أمرت ؟ فقد غشينا فرعون من ورائنا والبحر أمامنا ، فقال موسى عليه السلام إلى هاهنا ، نخاض يوشع الماء ونخع حزقيل فرسه بلجامها حتى طار الزبد من شدقيها ، ثم أدخلها البحر حتى غاب فى وسط الماء ، فذهب قوم موسى يفعلون مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى عليه السلام لايدرى كيف يصنع ؟ فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق وصار البحر اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم بينهما مسالك ، فدخل كل سبط من بنى إسرائيل مسلكا يرى بعضهم بعضا من خلال الماء ، ودخل فرعون وقومه فى أثرهم ، فلما استقروا جميعا أطبق الله البحر عليهم ، فأغرق فرعون ومن معه جميعا .

ولما أوحى الله إلى موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون ، انطلق هو وأخوه إلى مدينة فرعون ، ولها سبع وسبعون مدينة فى كل مدينة سبعون ألف مقاتل بين كل مدينتين الزرع والأنهار والثمار والأسود ، وهو فى مدينة جوف هذه المدائن ، وعليها سبعون سورا فى ربض كل سور سبعون ألف مقاتل ،ومن دون المدينة التى يسكنها فرعون ودون حيطانها غيضة غرسها فرعون ، وسقاها من النيل ، وألقى فيها السباع الضارية ، فتوالدت وتناسلت حتى كثرت ، ثم جعلها جندا من أجناده تحرسه ، ثم جعل خلال الغيضة طرقا معلومة ليس لمدينته طريق غيرها ، فمن أخطأها وقع فى تلك الغيضة ، ومن وقع فيها تأكله الأسود ، ثم صار موسى وهارون يقطع تلك المدن إلى أن وصل الغيضة ، فلما رأته الأسود ملأ الله قلوبها ذعرا ورعبا شديدا ففرت من بين يديه ، ولما رأى ساستها ذلك خافوا أن يخبروا فرعون بشىء من ذلك ، فانطلق موسى وهارون حتى انتهيا إلى باب مدينة فرعون العظمى ، فعالجه موسى ليفتحه ، فأشرف عليه بعض حراس فرعون، فقال ياعبد فرعون ،وبه كان يسمى بعضهم بعضا ماأنت ومن أنت؟ لقد اجترأت فقال موسى أنا عبد الله وأنتم عبيده ومن فى هذه المدينة ، وضرب بعصاه الباب وقال : بسم الله الذى يفعل مايشاء ، فانفتح الباب وانخلع بعضه من بعض ، فلم يزل موسى يفتح بابا بابا حتى وصل إلى المحل الذى فيه منزل فرعون ، وملأ الله قلوب الحراس خوفا ورعبا ، وصاروا كأنهم فى حيز الأموات .

ولما وقفا ببابه صارا يلتمسان الاذن عليه وهما يقولان : إنا رسول رب العالمين ، فمكثا نحو السنتين يغدوان إلى بابه ويروحان ، وفرعون لايعلم بهما ولا يجترئ أحد أن يخبره بشأنهما حتى دخل عليه بطال له يلعب معه ويضحكه ، فقال له أيها الملك ان على بابك رجلين يقولان قولا عجيبا يزعمان أن لهما إلها غيرك ، فقال فرعون أدخلوهما ، فأدخل موسى ومعه هارون عليهما السلام .

ولما خاف موسى من سطوته دعا بهذا الدعاء وهو : لا اله الا الله الحليم الكريم ، لا اله الا الله العلى العظيم ، سبحان رب السموات السبع والأرضين السبع ومافيهن ومابينهن ورب العرش العظيم ،

وسلام

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ☼ اللهم انى أدرأ بك فى نحره وأعوذ بك من شره وأستعين بك عليه فاكفنيه بما شئت ، فتحول ما فى قلب موسى من الخوف أمنا ، وكذلك كل من دعا بهذا الدعاء وهو خائف أمن الله خوفه ونفس كربته وهون عليه سكرات الموت .

صرح فرعون

قال العلماء : قدأملى الله لفرعون فى كل باب من أبواب التملك والتسلط والثروة والتنعم والترفع والتمتع ماقد استخف به رعيته حتى استعبدهم مع ما أوتى من العمر الطويل والقوة والمنعة والسعة والجنود والشوكة والعدة والعدد ، وكان قد بلغ من صحة جسمه واعتدال طبيعته وخلقته وقوة تركيبه أنه ربما لبث أربعين يوما لايخرج منه شىء إلا مرة واحدة ، وهو مع ذلك يأكل و يشرب ولا يبزق ، ولا يتمخط ، ولا يتنحنح ، ولا يسعل ، ولا يأخذه وجع فى بطنه ، ولا ترمد عيناه ، ولا يمرض ، ولا تصيبه آفة فى نفسه ولا كراهة .

قالوا و بلغ من إملاء الله تعالى له أنه كان يركب كل صعب وذلول من دوابه ، وكان له قصر من قصوره مشرف منيف على ألف درجة ، وسخر الله له دابة من دوابه يركبها ، فيصعد ذلك القصر عليها ، وكان يركبها صاعدا ونازلا ، ولما عاين من أمر موسى ماعاين ، وخاف على قومه أن يؤمنوا به ويجعلوه مكانه احتال لنفسه وعزم على بناء صرح يقوى به سلطانه ويشيد أركانه ، فقال لوزيره ـ ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ـ فأمر هامان ببنائه ، فجمع له العمال والفعلة ولم يترك أحدا يقدر عليه ممن يعمل البنيان إلا جمعه لبنائه حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ممن يطبخ الآجر والجص ، ويتخذ الخشب والأبواب والمسامير ، فلم يزل يبنى الصرح ، ويسر الله تعالى له أمره استدراجا منه ، وأتاه الأمر على ما يريده إلى أن فرغ منه فى سبع سنين ، فارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض ، فشق ذلك على موسى ، فأوحى الله إليه أن دعه وما يريد فانى مستدرجه وآخذه بغتة ، وإنى مبطل كل ماعمله فى ساعة واحدة ، فلما أتم بناءه بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ، فضرب بجناحه الصرح ، فقذف به على عسكر فرعون فقتل منهم ألفى ألف رجل .

فلما رأى فرعون ذلك من أمر الله تعالى علم أن حيلته لم تغن عنه شيئا ، فعزم على قتال موسى وقومه ، فأمر أصحابه فنصبوا له الحرب إلى غير ذلك مما يطول بنا ذكره .

قلت وقد أذكرنى هذا الصرح صرح عدو الله النمروذ . قال سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : كان طول الصرح من السماء خمسة آلاف ذراع ، وقال مقاتل وكعب : كان طوله فرسخين ، والنمروذ هذا هو الذى عمد إلى أربعة أفراخ من النسور ، فعلفها اللحم والخبز ورباها حتى شبت واستفحلت ، ثم قعد فى تابوت ومعه غلام ، وقد حمل قوسه ونشابه ، وجعل لذلك التابوت بابا من أعلاه ، وبابا من أسفله ، ثم ربط التابوت بأرجل النسور ، وعلق اللحم على عصا فوق التابوت ، ثم خلى عن النسور ، فطارت وصعدت طمعا فى اللحم حتى أبعدت فى الهواء ، فقال النمروذ لفتاه

افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها ؟ ففتح الباب الأعلى ونظر ، فاذا السماء على هيئتها ، ثم قال افتح الباب الأسفل فانظر إلى الأرض كيف تراها ؟ ففتح فقال أرى الأرض مثل اللحية البيضاء ، والجبال كالدخان ، وطارت النسور وارتفعت حتى حالت الريح بينها و بين الطيران فقال لغلامه افتح البابين ، ففتح الأعلى فاذا السماء كهيئتها ، وفتح الباب الأسفل فاذا الأرض سوداء مظلمة ، ونودى أيها الطاغى الباغى أين تريد ؟ قال عكرمة : فأمر عند ذلك غلامه ، فرمى بسهم فعاد إليه السهم متلطخا بالدم ، فقال كفيت شغل إله السماء ، واختلفوا فى ذلك السهم من أى شيء تلطخ ؟ فقال عكرمة من سمكة فى بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض .

ثم أمر النمروذ غلامه أن يصوّب العصا وينكس اللحم ففعل ذلك ، فهبطت النسور بالتابوت ثم إن الله أرسل ريحا على صرح النمروذ ، فألقت رأسه فى البحر وخرّ الباقى عليهم وانقلبت بيوتهم وذلك معنى قوله تعالى — فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون — وذلك أن النمروذ لما أبى الايمان بابراهيم عليه السلام بعد مارأى من المعجزات العظيمة أمر الحق سبحانه وتعالى الملك أن يفتح عليه بابا من البعوض ففعل ، فطلعت الشمس ذلك اليوم فلم يروها من كثرة البعوض ، فبعثها الله تعالى على النمروذ وقومه ، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق منهم إلا العظام ، والنمروذ كما هو لم يصبه شيء من ذلك ، فبعث الله إليه بعوضة ، فدخلت فى منخره حتى وصلت إلى دماغه ، فمكث مدّة تضرب رأسه بالمطارق ، فأرحم الناس به من جمع يديه ثم يضرب بهما رأسه ، وكان جبارا أربعمائة سنة ، فعذبه الله أربعمائة سنة كمدة ملكه إلى أن أهلكه الله وخذله .

ممن غلب عَلَى مصر من الفراعنة

بختنصر ، وهو من قرية من قرى بابل لم يعرف له أب ، وهو الذى خرّب بيت المقدس وملك مصر ، واستولى عليها ، وأخذها من يد القبط ، و بقيت مصر خرابا أربعين سنة ليس بها أحد ثم ردّهم بختنصر فعمرها وملك عليهم رجلا من جهته ، ومن ذلك الوقت بقيت مصر معمورة . قال صاحب الأنس الجليل ان أرمياء النبىّ عليه السلام رأى بختنصر قديما وهو صبىّ أقرع يأكل خبزا ويتغوّط ويقتل قملا ، فقال له ماهذا ؟ فقال منفعة تدخل ، وأذى يخرج ، وعدوّ يقتل فقال سيكون لك شأن .

وكانت ولاية بختنصر قبل الهجرة الشريفة بألف وثلثمائة وتسع وتسعين سنة ، ومائة وسبعة عشر يوما ، وكان هلاك بختنصر ببعوضة دخلت فى دماغه .

نيـــــــل مصر

من عجائبه أن ابتداء زيادته فى شدّة الحرّ عند نقص الأنهار وجفوفها ، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهار وفيضها ، وأوّل ابتداء زيادته فى حزيران وهو يونيه ، فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعا تمّ خراج السلطان ، فان زاد ذراعا كان الخصب فى العام والصلاح التام ، فان بلغ ثمانية

عشر

عشر ذراعا أضرّ بالضياع وأعقب الوباء ، وإن نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان وإن نقص ذراعين استسق الناس ، وكان الضرر شديدا .

والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وهى : النيل ، والفرات ، ودجلة ، وسيحون ، وجيحون .

بيت المقــــدس

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن ، يقال إنه ليس على وجه الأرض مسجداً كبر منــه ، وان طوله من شرق إلى غرب سبعمائة وثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكى ، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا ، وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث .

[غريبة] كان رجل جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة ، وكانت تراسله وتعارضه فى الطريق وتدعوه لنفسها ، وهو يمتنع ويتهاون ، فلما أعياها أمره دست له عجوزا تصدت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد و بيدها كتاب مختوم ، فلما مرّ بها قالت له يا سيدى أتحسن القراءة ؟ قال : نعم . قالت له هذا الكتاب وجهه إلىّ ولدى وأحبّ أن تقرأه علىّ ، فقال لها نعم ، فلما فتح الكتاب قالت له يا سيدى إن لولدى زوجة وهى بأسطوان الدار فلو تفضلت بقراءته بين بابى الدار بحيث تسمعها ، فأجابها لذلك ، فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب ، وخرجت المرأة وجواريها ، فتعلقن به وأدخلنه إلى داخل الدار ، وراودته المرأة عن نفســه ، فلما رأى أن لاخلاص له . قال لها إنى حيث تريدين فأريني بيت الخلاء ، فأرته إياه فأدخل معه الماء ، وكانت عنــده موسى حديدة فحلق لحيتــه وحاجبيه وخرج عليها ، فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله ، وأمرت باخراجه وعصمه الله بذلك .

[غريبة] ادّعى رجل مجهول أنه المهدى وذلك فى المائة السابعة فتكاثر الناس عليه ووعدهم بتملك البلاد ، وقسم بينهم بلاد الشام ، وكان يعين لهم البلاد و يأمرهم بالخروج إليها و يعطيهم من ورق الزيتون و يقول لهم استظهروا بها فانها كالأوامر لكم ، فاذا خرج أحدهم إلى بلد أحضره أميرها ، فيقول له : إن الامام المهدى أعطانى هــذا البلد ، فيقول له أين الأمر ؟ فيخرج ورق الزيتون فيضرب ويحبس ، ثم إنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين ، وأن يبدءوا بمدينــة جبلة ، وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ، ووعــدهم أنها تصير فى أيديهم سيوفا عنــد القتال ، فغدروا مدينة جبلة وأهلها فى صلاة الجمعة ، فدخلوا الدور ، وهتــكوا الحريم ، وثار المسلمون من مسجدهم ، فأخذوا الســلاح وقتلوهم كيف شاءوا ، واتصل الخبر باللاذقيــة ، فأقبل أميرها بعسكره واتبعوهم حتى قتل منهم عشرين ألفا ، وتحصن الباقون بالجبال .

[غريبة] كان رجل معاشه صيد الفيلة قال : استخفيت مرّة فى شجرة عالية كثيرة الأوراق فى غيضة كانت تجتاز بها الفيلة من شرائع الماء التى تردها إلى مراتعها ، فاجتاز بى قطيع منها ، وكانت عادتى أن أدع القطائع تجوز إلى أن يبلغ آخر فيل ، فأرميه بسهم مسموم فى بعض مقاتله فتفزع الفيلة ، فاذا مات الفيل المجروح نزلت فسلخت جلده وأخذت ذلك فبعتــه حتى اجتاز بى هــذا القطيع ، فرميت آخر فيل كان فيــه ، فخرّ واضطربت الفيلة وأسرعت عنــه ، فاذا أعظمها

قد عاد ، وما زال قائماً والفيل المجروح يضطرب إلى أن مات ، فضج ذلك الفيل ضجيجاً عظيماً ، وضجت معه الفيلة وانتشرت فى الغيضة ، وفتشتها شجرة شجرة ، فأيقنت بالهلاك فانتهى الفيل الأعظم إلى الشجرة التى كنت عليها ، فلما رآنى أحتك بالشجرة فاذا هى قد انكسرت على عظمها وصلابتها وضخامتها ، وسقطت الشجرة إلى الأرض فلم أشك أن الفيل سيدوسنى ، فاذا به قد جاء حتى وقف على وجعل يتأملنى وأحجمت الفيلة عنى ، فلما رآنى الفيل العظيم وقوسى وسهامى لف خرطومه على برفق وشالنى من غير أذى حتى وضعنى على ظهره ، وجعل يريد الطريق الذى أقبل منه ، وهرولت الفيلة خلفه ، فجاء بى إلى غيضة حتى بلغ الماء والفيلة معه ، فاذا قد خرج عليها ثعبان عظيم ينفخ فتنحت الفيلة عنه ، وشال الفيل الأعظم خرطومه فلواه على فأنزلنى وتركنى على الأرض وأخذ يومئ بخرطومه إلى الثعبان ، فشددت سهماً إلى الثعبان ورميته فأصبته وتابعت رمية أخرى فانصرع ميتاً ، فتقدم الفيل إليه فداسه ثم عاد إلى فأخذنى بخرطومه وجعلنى على ظهره ورجع يهرول والفيلة خلفه ، فجاء بى إلى غيضة لم أكن أعرفها من تلك التى أخذنى منها فاذا هى فراسخ وفيها فيلة ميتة لا يحصى عددها إلا الله تعالى وأكثرها قد بلى جسده وبقيت عظامه ، فما زال يتتبع الأنياب ويجمعها ويومئ الى فيل فيل فيجيء اليه فيعى عليه ما يمكنه أن يعبيه عليه من ذلك الى أن لم يدع هناك ناباً الا جمعه وأوقر به تلك الفيلة ، ثم أركبنى على ظهره وأخذ بى فى طريق العمارة واتبعته الفيلة ، فلما شارف القرى وقف وأومأ الى الفيلة فطرحت أحمالها حتى لم يبق منها شيء ، ثم أنزلنى بخرطومه برفق وتركنى عند الأنياب ، وقد صار تلاً عظيماً هائلاً ، فجلست عندها متعجباً من سلامتى ، ورجع الفيل يريد الصحراء ورجعت الفيلة برجوعه ، وأنا لا أصدق بسلامتى ولا بما شاهدت من عظم فطنة الفيل ووفائه ، فلما غابت الفيلة عنى مشيت الى أقرب القرى منى ، واستأجرت خلقاً كثيراً حتى خرجوا معى ، وحملوا تلك الأنياب فى أيام الى القرية ، وما زلت أبيعها فى تلك المدن حتى حصل لى مال عظيم كان سبب يسارى وغناى عن صيد الفيلة .

[غريبة] قال ابراهيم الخواص ركبت البحر مع جماعة من الصوفية ، فانكسر بنا المركب فنجا قوم على خشبة من خشب المركب ، وكنت أنا من جملتهم فوقعنا على شاطئ لا ندرى أى مكان هو ؟ فاقمنا أياماً لا نجد ماء ولا شيئاً نقتات به فأحسسنا بالموت ، فقال بعضنا لبعض تعالوا نجعل لله سبحانه وتعالى على أنفسنا نذراً فلعله يخلصنا من هذه الشدة ، فقال بعضهم : لا أفطر الدهر وقال بعضهم : أصلى كل يوم كذا وكذا ، وقال كل واحد شيئاً ، وأنا ساكت ، فقالوا لى قل أنت شيئاً فلم يجر على لسانى الا أن قلت لا آكل لحم فيل أبداً ، فقالوا ما هذا القول فى مثل هذه الحالة ؟ فقلت والله ما تعمدت هذا ولكننى مذ بدأتم لم يخطر على قلبى غير هذا الذى لفظت به ، فلما كان بعد ساعة . قال أحدنا لم لا نطوف هذه الأرض متفرقين ونطلب قوتاً فمن وجد شيئاً أنذر به الباقين والوعد عند هذه الشجرة ، فتفرقنا ، فوقع أحدنا على ولد فيل صغير ، فلوح بعضنا لبعض فاجتمعنا فأخذه أصحابنا واحتالوا فيه حتى شووه وقعدوا يأكلون ، وقالوا لى تقدم فكل ، فقلت : أنتم تعلمون أنى منذ ساعة تركته لله ، ولعل الذى جرى هو سبب لموتى من بينكم فاعتزلتهم فأكلوا ، وجاء الليل فتفرقنا ، وأويت إلى أصل شجرة ، فلم يكن الا لحظة واذا بفيل عظيم قد أقبل والصحراء

تدوى له من سعيه وصوته وهو يطلبنا ، فقال بعضنا لبعض قد حضر الأجل ، فاستسلم القوم وتشهدوا وأخذوا فى التسبيح والاستغفار ، وطرح القوم نفوسهم على وجوههم ، فجعل الفيل يقصد واحدا واحدا ، ويشمه من أوّل جسده إلى آخره فاذا لم يبق موضع إلا شمه رفع إحدى قوائمه فوضعها عليه ففسخه فاذا علم أنه أتلفه قصد إلى الآخر ففعل به كذلك إلى أن لم يبق غيرى وأنا جالس أشاهد ماجرى وأستغفر الله وأسبحه ، فقصدنى الفيل فرميت نفسى على ظهرى ، ففعل بى كذلك من الشم كما فعل بأصحابى ثم عاد فشمنى دفعتين أو ثلاثا وروحى تكاد تخرج فزعا ، ثم لف خرطومه علىّ ، فرفعنى فى الهواء ، فظننت أنه يريد قتلى بصفة أخرى ، ثم لفّ بخرطومه حتى جعلنى فوق ظهره ، فانتصبت جالسا واجتهدت فى حفظ نفسى ، وانطلق بى يهرول ساعة ويمشى ساعة أخرى ، وأنا أحمد الله تعالى على السلامة ، وتارة أتوقع أن يثور بى فيقتلنى ، فلم يزل كذلك إلى أن طلع الفجر ، فاذا به قد لفّ خرطومه علىّ وأنزلنى عن ظهره وتركنى على الطريق ورجع من حيث شاء ، فلما غاب سجدت لله شكرا ، وقمت وأنا على محجة عظيمة ، فمشيت نحوا من فرسخين فانتهيت إلى بلد كبير فدخلته ، فتعجب أهله منى وسألونى عن قصتى فأخبرتهم ، فزعموا أن الفيل قد سار بى فى تلك الليلة مسيرة أيام ، فاستغربوا سلامتى .

يروى أنه لما كان يوم اجنادين وتصاف خالد بن الوليد بالمسلمين وتصاف وردان بجيوش الروم سأله ضرار بن الأزور أن يأذن له فى مبارزة الروم ، فأذن له خالد فخرج ضرار ، وقال ماشىء أحبّ إلى قلبى من ذلك ، فخرج ضرار وقد تدرّع بدرع ، وألقى الزرد على وجهه وركب جواده وعليه يومئذ سجاف من جلود الفيلة ، وقد أخفى نفسه عن الروم بلباسه ، ثم أطلق عنانه ، وأشرع سنانه ، وحمل فى صفوف الروم ، فرشقوه بالسهام ورموه بالحجارة فلم يعمل فيه شىء من ذلك وهو يفرق صفوفهم ، ويجندل أبطالهم ، إلى أن قتل منهم ثلاثين فارسا وراجلا ، فأقبلت الفرسان تتأخر عن قتاله مما ظهر لهم منه ، ثم رمى بالبيضة عن رأسه والزرد عن وجهه ، وقال يا بنى الأصفر أنا ضرار بن الأزور صاحبكم بالأمس وغريمكم اليوم ، أنا قاتل حمران بن وردان ، أنا البلاء المسلط على من يشرك بالرحمن ، فلما سمعت الروم كلامه عرفوه ، فتقهقروا إلى ورائهم ، فقال وردان من هذا البدوى ؟ فقالوا أيها الملك هذا الذى يظهر مرّة عارى الجسد ، ومرّة مكسيا ، ومرّة برمح ، ومرّة بلا رمح ، فلما سمع وردان بذكر ضرار تنفس الصعداء ، وقال والله هذا قاتل ولدى ومقلّ عددى ، ولقد اشتهيت من يأخذ بثارى منه ، وله منى مايريد ، فبرز إليه بطريق ، وقال : أيها الصاحب أنا آخذ بثارك ، ثم أطلق عنانه وحمل على ضرار ، فجالا مدّة فى الميدان الى أن طعنه ضرار طعنة صادقة خرق بها درعه ، فانجدل صريعا ، فقال وردان نعم مافعلت معه ، ولولا أنى رأيت ذلك عيانا ماصدقت بصرى ، وكيف يطيق الانسان قتل الجنّ ، وما أدرى لهذا الذميم غيرى ، ثم إنه ترجل ولبس لامته ، وألقى على بدنه درعا من أعجب ما يرى ، وركب على جواد من نسل خيل العرب ، وهمّ أن يخرج فتقدم اليه بطريق ، وقال أيها الصاحب ان أنا أخذت بثارك من هذا اللئيم وقتلته أو أسرته أتزوّجنى بابنتك ؟ فقال وردان هى لك وبين يديك ، أنا أشهد علىّ من حضر من ملوك الشام وخواص الملك بذلك ، فلما سمع البطريق ذلك خرج فى سرعة كأنه شعلة نار ، وحمل على ضرار ،

ثم حمل عليه ضرار ، وأبدى كل منهما أبوابا من الحرب حتى ضجر الناس من قتالهما ، وتعب الجوادان ، ثم ان وردان لما نظر إلى صاحبه وقد أشرف على الموت ، وعلم أنه إن لم يدركه هلك فقال لقومه ان هذا الشيطان قد أكل من كبدى قطعة ، وان لم أقتله اليوم قتلت نفسى ، ولابدّ لى من الخروج إليه ، فما زالت به البطارقة والقياصرة حتى حلف لهم بالصليب أنه لابدّ له من الخروج إليه ، فخرج فى عشرة وهم مدرّعون فى أرجلهم خفاف من حديد ، وسواعد من حديد ، وبأيديهم أعمدة من حديد ، ووردان قد تكفن فى لامته ، وعلى رأسه التاج ، فخرج القوم ووردان يقدمهم كأنه شعلة نار ، وضرار قد أشرف على هلاك صاحبه ، فلم يلتفت إلى من خرج إليه منهم إلا أنه تأهب لهم ، فهو كذلك إذ نظر خالد إلى الرّوم وخروجهم ، ونظر إلى التاج وهو يلمع على رأس صاحبهم ، فقال إن التاج لا يكون الا على رأس الملك ، ولاشك أنه صاحب القوم وأراه قد خرج إلى صاحبنا وما الذى يقعدنا عن نصرته ؟ ثم قال لأصحابه يخرج منكم عشرة حتى نساوى القوم ، ثم خرج خالد فى عشرة من خيار أصحابه فأطلقوا الأعنة إليهم وقد وصلت الرّوم إلى ضرار فناوشهم الحرب إذ وصل إليه خالد وأصحابه ، وقال يا ضرار أبشر فقد أسعدك الجبار ، ولا تجزع من الكفار ، فقال ضرار ما أقرب النصر من الله ، والتفت الرجال بالرجال ، وانفرد كل واحد بصاحبه وطلب خالد صاحبهم وردان ، ولم يزل ضرار عن خصمه إلى أن ألقى الكافر بنفسه عن الجواد وولى هاربا ، فبادر ضرار ، فألقى نفسه عن جواده وطلب عدوّ الله حتى لحقه ، فعند ذلك رمى ضرار الرّمح من يده ، وتصارعا على وجه الأرض ، وتواخزا بالمناكب وتعاركا ، وكان عدوّ الله كالصخرة الجلمود ، وكان ضرار نحيف الجسم غير أن الله أعطاه حولا وقوّة ، فلما طال بهما العراك ضرب ضرار بيده إلى مخرم سراويل عدوّ الله مع مراق بطنه فعلقه عن الأرض ثم جلد به الأرض ، فصاح عدوّ الله ، وجعل يستجير بوردان ، فصاح به وردان يا ويلك من ينقذنى من هؤلاء السباع ؟ فلم يمهل ضرار خصمه دون أن برك على صدره ، وهو يتراوغ تحته ، ويعجّ كعجّ البعير ، وكل واحد من القوم مشتغل عن نصرة صاحبه ، فشهر ضرار سيفه ومكنه من نحر عدوّ الله ، فأخرج السيف من جانب حلقه ، فعندها زعق عدوّ الله زعقة عظيمة أسمع العسكر فملت الروم بأسرها ، ثم كبر المسلمون وحملوا جميعا ، وكان ما كان فى تلك الواقعة .

[غريبة] قال بعضهم خرجت ليلة وأنا سكران ، فقصدت بعض البساتين لأمر من الأمور ومعى كلبان لى كنت ربيتهما ومعى عصا ، فغلبتنى عيناى ، فاذا الكلبان ينبحان ويصيحان ، فانتبهت بصياحهما فلم أر شيئا أنكره ، فضربتهما وطردتهما ونمت ، فأعادا الصياح والنباح فنبهانى بصياحهما ، فوثبت إليهما وطردتهما ، فما أحسست الا وقد سقطا علىّ يحركانى بأيديهما وأرجلهما كما يحرّك اليقظان النائم لأمر هائل ، فوثبت فاذا أنا بثعبان عظيم قد قرب منى ، فوثبت اليه فقتلته ، ثم انصرفت الى منزلى ، فكان ذلك إلهاما من الله تعالى للكلبين وسبب خلاصى .

[غريبة] خرج رجل من أهل البصرة الى الجبال ينتظر ركابه ، فاتبعه كلب له ، فلما صار الى الموضع وثب به قوم كان لهم عنده ثار ، وكان معه جار له وأخ ، فهربا عنه وتركاه وأسلماه ، فجرح جراحات كثيرة ورمى به فى جهة ، وحثى عليه التراب حتى واراه ، ولم يشكوا فى قلوبهم أنه

قد مات ، والكلب مع هذا يهمّ عليهم وهم يرجونه ، فلما انصرفوا أتى الكلب الى الحفرة ، فلم يزل يعوى ويحثو التراب بمخالبه حتى ظهر رأسه ونفسه يتردّد ، وقد كان أشرف على التلف ، ولم يبق فيه إلا حشاشة نفسه ، فبينما هو كذلك إذ مرّ به على تلك الحالة مارّة ، فاستخرجوه حيا وحملوه إلى أهله ، فلما رآهم الكلب قد حملوه تقدمهم فتبعوه ، فلم يزل بهم الكلب حتى أقبل إلى أهل الرجل ، فخطوه حيا ، وقصوا على أهله القصة .

[غريبة] يحكى عن لص قال دخلت مدينة قد ذكرت لى ، فجعلت أطلب شيئا أسرقه ، فلم أصب ، ووقعت عينى على صيرفىّ موسر ، فما زلت أحتال حتى سرقت كيسا له ، وانسللت فاجزت غير بعيد اذا بعجوز معها كلب قد وقعت فى صدرى تبوسنى وتقول : يابنىّ فديتك ، والكلب يبصبص ويلوذ بى ، ووقف الناس ينظرون إلينا ، وجعلت المرأة تقول : بالله انظروا إلى الكلب كيف قد عرفه ؟ فعجب الناس من ذلك ، وشككت أنا فى نفسى ، وقلت لعلها أرضعتنى وأنا لا أعرفها ، وقالت تجىء معى إلى البيت وتقيم عندى فلم تفارقنى حتى مضيت معها إلى بيتها ، فاذا عندها جماعة أحداث يشربون وبين أيديهم الفواكه والرياحين ، فرحبوا بى وقربونى وأجلسونى معهم ورأيت لهم بزّة حسنة ، فوضعت عينى عليها ، فجعلت أسقيهم ويشربون وأرفق بنفسى الى أن ناموا ونام كل من فى الدار ، فقمت فجمعت ماعندهم وذهبت أخرج ، فوثب علىّ الكلب وثبة الأسد الضارى ، وصاح وجعل يتراجع الى أن انتبه كل من فى الدار ، فخجلت واستحييت ، فلما كان النهار فعلوا مثل فعلهم بالأمس ، وفعلت أيضا أنا بهم مثل ذلك ، وجعلت أوقع الحيلة فى أمر الكلب الى الليل ، فما أمكننى فيه حيلة ، فلما ناموا رمت الذى رمته ، فاذا الكلب قد عارضنى بمثل ماعارضنى به ، فجعلت أحتال ثلاث ليال ، فلما أيست طلبت الخلاص منهم باذنهم ، وقلت أتأذنون لى أعزكم الله فانى على وفاء ؟ فقالوا الأمر للعجوز ، فاستأذنتها ، فقالت هات مامعك من الذى أخذته من الصيرفىّ وامض حيث شئت ، ولا تقم فى هذه المدينة ، فانه لايتهيأ لأحد أن يعمل معى فيها عملا ، فأخذت منى الكيس ، وكان قصارى مرامى أن أطلب منها نفقة فدفعتها الىّ ، وخرجت معى حتى أخرجتنى عن المدينة ، والكلب يتبعنى حتى بعدت ، ثم تراجع ينظر الىّ ويلتفت ، وأنا أنظر اليه حتى غاب عنى .

قال عبد الصمد : كان لنا كلب ، وكان يسرح مع الغنم صحبة الراعى دائما ، فلما كان فى بعض الأيام جاء الى البيت وحده ، فافتقدت الغنم فلم أجدهم ، فقلت وأين الغنم ؟ فولى خارجا ثم جاء ومعه الغنم والراعى ، فقلت للراعى الكلب جاء إليك ؟ قال نعم .

[نادرة] يحكى عن الشيخ العارف فخر الدين الفارسى أنه كانت له هرّة ، وكان لها نصيب من الطعام يوضع لها فى السماط فلا تتعداه الى غيره ، فلما كان ذات يوم وقد مدّ السماط على العادة خطفت الهرة شيئا من الآنية وانصرفت به ، ثم جاءت مرة ثانية فأخذت من قدام آخر من الجماعة قطعة لحم ، فأخذها بعض الجماعة ، وقال لها : ايش هذا ، ايش هذا ، وعرك أذنها ولطمها بيده فولت ، ثم جاءت وفى فمها قط مولود فوضعته ، ثم مرت فأتت بمولود آخر ، فتركته وانصرفت فأتت بولد آخر فوضعته وجلست ، فجعلت فرطوستها على يدها ، وهى منكسة الرأس ، فقيل

للشيخ فخر الدين: ايش هذا الذى جرى من المرة؟ فقال: هذه تقول أنا وقت كنت مجردة مثلكم كان لى نصيب واحد، والآن فلى هؤلاء الأولاد.

[غريبة] قال شريح بن يونس كنت ليلة قائما على مشرعة، فسمعت صوت ضفدع، فأخذت السراج فنزلت، فاذا ضفدع فى فم حية، فقلت سألتك بالله إلا خليتيه فخلته.

قال أحمد بن يحيى كان رجل أعرفه فى فلاة من الأرض وهو وحده، فبات فى واد، وحوط حوله داره، وقرأ عليها آية الكرسى، فبعد أن مضى من الليل شىء انتبه بوقعة شديدة، فرأى حية عظيمة تدفع بصدرها الحجارة والخشب، وجاءت إلى الخط الذى أداره حول التحويط فلم تقربه.

[نادرة] روى أن المطر أبطأ على بنى إسرائيل سنة، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قد أمرت السماء أن لاتمطر لهم، والأرض أن لاتنبت لهم، وأوحيت إلى أضعف خلق أن يميروهم فرهم فليأتوا قرية النمل، فليمتاروا منهم قوت سنتهم، فجعل الرجل يأتى بمكيال ويأخذ قوت سنته، فلما كان فى العام المقبل زرعوا، فحملوا إلى النمل ضعف ما أخذوا منهم، فخرج النمل فأخذوا مثل ماأخذوا منهم وتركوا الباقى.

[عجيبة] قال بعضهم لما كثر على النمل بالموضع الذى كنت فيه وأضر بى ألهمت أن آخذ من طعام المكاس وأجعله على موضع النمل، ففعلت ذلك فلم يظهر النمل بعد ذلك بذلك الموضع، ثم جربته ببلد آخر لما ظهر بالموضع الذى كنت فيه، فجعلت أيضا من طعام المكاس بالموضع الذى يخرج منه النمل، فلم يظهر النمل به بعد ذلك.

[عجيبة] روى عن بعض الفضلاء أنه قال: بينما أنا أطوف بالكعبة إذا بجارية وعلى عنقها طفل صغير، وهى تقول: ياكريم، ياكريم، عهدك القديم فانى على العهد القديم. قال فقلت لها أيتها الجارية وما العهد الذى بينك وبينه؟ قالت ركبت البحر فعصفت بنا ريح، فدمرت السفينة وغرق جميع من فيها فلم ينج منها أحد غيرى، وهذا الطفل فى حجرى على لوح، ورجل أسود على لوح آخر، فلما أصبحت نظر الأسود إلى، وجعل يدفع بذراعيه الماء حتى لصق بى، فاستوى معنا على اللوح، وأخذ يراودنى عن نفسى، فقلت ياعبد الله نحن فى بلية لانرجو النجاة منها بطاعة فكيف بمعصية؟ فقال دعينى فوالله لابد لى من ذلك الأمر، وكان الطفل نائما فى حجرى فقرصته قرصة، فاستيقظ وبكى، فقلت له يا عبد الله دعنى حتى أنوم هذا الطفل ويكون من أمرنا ما قدر الله علينا، فمد الأسود يده إلى الطفل ورماه فى البحر، فرمقت السماء بطرفى وقلت: يا من يحول بين المرء وقلبه حل بينى وبين هذا الأسود بحولك وقوتك إنك على كل شىء قدير فما استوعبت الكلمة إلا ودابة من دواب البحر قد فتحت فاها، والتقمت الأسود وغاصت به فى البحر، وعصمنى الله منه بحوله وقوته، وهو القادر على ما يشاء، فمازالت الأمواج ترمينى يمينا وشمالا حتى رمتنى الى جزيرة من جزائر البحر، فكنت آكل من بقلها، وأشرب من مائها حتى يأتينى الله بالفرج من عنده، فكنت كذلك أربعة أيام، فلما كان فى اليوم الرابع لاحت لى سفينة فى البحر على بعد، فأشرفت على تل عال، وأشرت اليهم بثوب كان عندى، فخرج الى

منهم ثلاثة نفر فى زورق ، فدخلت معهم ، فلما دخلت السفينة الكبرى اذا أنا بالطفل الذى قد كان رماه الأسود فى البحر عند رجل منهم ، فلم أتمالك أن رميت نفسى عليه وقبلته بين عينيه وقلت والله قطعة من كبدى ، فقال لى أهل السفينة أمجنونة أنت أم خبل عقلك ؟ فقلت والله ما أنا بمجنونة ولاخبل عقلى ، ولقد جرى علىّ من الأمر كيت وكيت ، وقصصت القصة إلى آخرها .

فلما سمعوا ذلك منى أطرقوا برءوسهم ، وقالوا لى ياجارية لقد أخبرتينا بأمر تعجبنا منه ونحن نخبرك بأمر تتعجبين منه أطرب من هذا : بينما نحن نسير فى البحر بريح طيبة إذا نحن بدابة من دواب البحر قد اعترضتنا ووقفت أمامنا ، وإذا بالطفل على ظهرها ، وإذا بمناد ينادى إن لم تأخذوا هـذا الطفل من ظهرها وإلا هلكتم ، فنزل واحد منا ، ومشى على ظهرها ، وأخذ الطفل ، فلما دخل به السفينة غاصت الدابة فى البحر ، والآن نعاهد الله أن لايرانا على معصية بعد هـذا اليوم أبدا .

[مستملحة] أن أحمقين اصطحبا فى طريق ، فقال أحدهما للآخر تعال نتمنّ على الله فان الطريق تقطع بالحديث ، فقال أحدهما : أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها ، وقال الآخر : أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لاتترك منها شيئا . قال ويحك أهـذا من حقّ الصحبة وحرمة العشرة ؟ فتصايحا وتخاصما ، واشتدّت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق ثم تراضيا على أن أوّل من يطلع عليهما يكون حكما بينهما ، فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل ، فحدثاه بحديثهما ، فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب ، ثم قال صبّ الله دمى مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين .

حكى أن البادية قحطت فى أيام هشام العباسى ، فقدمت عليه العرب ، فهابوا أن يكلموه وكان فيهم درواس بن حبيب ، وهو ابن ست عشرة سنة له ذؤابة وعليه شملتان ، فوقعت عليه عين هشام ، فقال لحاجبه ماشاء أحد أن يدخل علىّ إلادخل حتى الصبيان ، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقا ، فقال يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرا وطيا ، وانه لايعرف ما فى طيه إلا بنشره فان أذن لى أمير المؤمنين أن أنشره نشرته ، فأعجبه كلامه ، وقال : انشره لله درّك ، فقال يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث : سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، وسنة دقت العظم ، وفى أيديكم فضول مال ، فان كانت لله ففرّقوها على عباده ، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدّقوا بها عليهم ، فان الله يجزى المتصدّقين ، فقال هشام ما ترك الغلام لنا فى واحدة من الثلاث عذرا ، فأمر للبوادى بمائة ألف دينار ، وله بمائة ألف درهم ، ثم قال له ألك حاجة ؟ قال مالى حاجة فى خاصة نفسى دون عامة المسلمين ، فخرج من عنده وهو من أجلّ القوم .

حكى أن شاعرا كان له عدوّ ، فبينما هو سائر ذات يوم فى بعض الطرق إذا هو بعدوّه ، فعلم الشاعر أن عدوّه قاتله لامحالة ، فقال له ياهذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت ، ولكن سألتك الله اذا أنت قتلتنى فامض الى دارى ، وقف بالباب وقل :

☆ ألا أيها البنتان إنّ أباكما ☆

فقال : سمعا وطاعة ، ثم انه قتله ، فلما فرغ من قتله أتى الى داره ، ووقف بالباب وقال :

* ألا أيها البنتان انّ أباكما * وكان للشاعر ابنتان ، فلما سمعتا قول الرجل :

* ألا أيها البنتان انّ أباكما * أجابتاه بفم واحد * قتيل خذا بالثار ممن أتاكما *

ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره فأقرّ فقتله .

حكى أن حاتما الأصم كان رجلا كثير العيال ، وكان له أولاد ذكور وإناث ، ولم يكن يملك شيئا من الدنيا إنما قدمه التوكل ، فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدّث معهم ، فتعرّضوا لذكر الحج ، فداخل الشوق قلبه ، ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدّثهم ، ثم قال لهم لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه فى هذا العام حاجا ويدعو لكم ، ماذا عليكم لو فعلتم ؟ فقالت زوجته وأولاده أنت على هذه الحالة لاتملك شيئا ، ونحن على ماترى من الفاقة فكيف تريد ذلك ؟ وكانت له ابنة صغيرة ، فقالت لهم ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك دعوه يذهب حيث شاء فانه مناول للرزق وليس برزّاق ، فقالوا : صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت ، فقام من وقته وقصد بيت الله الحرام ، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج ؟ فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت : إلهى وسيدى عوّدت القوم بفضلك وإنك لاتضيعهم فلا تخيبهم ولا تخجلنى معهم ، فبيناهم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيدا فانقطع عن عسكره وعن أصحابه ، فحصل له عطش شديد ، فاجتاز ببيت حاتم الأصم فاستسقى منهم ماء ، فقالت زوجة حاتم من أنت ؟ قال الأمير ببابكم يستسقيكم ، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : إلهى وسيدى سبحانك البارحة بتنا جياعا واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا ، فأخذت كوزا وملأته ماء وناولته إياه ، فاستعذبه ، فقال هذه الدار لأمير ؟ قالوا لاوالله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم ، فقال الأمير : لقد سمعت به . قال الوزير ياسيدى لقد سمعنا أنه سافر للحج ولم يخلف لعياله شيئا ، فأمر الأمير لهم بقدر من المال له بال ، هذا ما كان من أمرهم ، وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم ، فانه لما خرج محرما ولحق بالقوم توجع أمير الركب فطلبوا له طبيبا فلم يجدوا ، فقال هل من عبد صالح ؟ فدلّ على حاتم ، فلما دخل عليه وكلمه دعا له ، فعوفى الأمير من وقته ، فأمر له بتعيين جميع مايخصه فى سفره .

قال الحكماء : من أيقن أن الرزق الذى قسم له لايفوته تعجل الراحة ، ومن علم أن الذى قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع .

[حكاية] رفع إلى هارون الرشيد أن بدمشق رجلا من بنى أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند يخشى على المملكة منه ، وكان هارون الرشيد يومئذ بالكوفة . قال منارة خادم هارن الرشيد ، فاستدعانى هارون الرشيد ، وقال اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام وائتنى بفلان الأموى ، وهذا كتابى إلى العامل لاتوصله له إلا إذا امتنع عليك ، فاذا أجاب فقيده وعاد له بعد أن تحصى جميع ماتراه وما يتكلم به واذكر لى حاله ومثاله وقد أجلتك لذهابك ستا ، ولمجيئك ستا ، ولاقامتك يوما أفهمت ؟ قلت نعم . قال فسر على بركة الله ، فخرجت أطوى المنازل ليلا ونهارا لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق ، فلما فتح الباب دخلت قاصدا نحو دار الأموى ، فاذا هى دار عظيمة هائلة ، ونعمة طائلة ، وخدم وحشم ، وهيبة

ظاهرة ، وحشمة وافرة ، ومساطب مقسمة ، وغلمان فيها جلوس ، فهجمت على الدار بغير إذن ، فبهتوا وسألوا عنى ، فقيل لهم إن هـذا رسول أمير المؤمنين ، فلما صرت فى وسـط الدار رأيت أقواما محتشمين ، فظننت أن المطلوب فيهم ، فسألت عنـه ، فقيل لى هو فى الحمام ، فأكرمونى وأجلسونى ، وأمروا بمن معى ومن صحبنى إلى مكان آخر ، وأنا أتفقد الدار وأتأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان ، فسلم علىّ وسألنى عن أمير المؤمنين فأخبرته أنه بعافيـة ، فحمد الله تعالى ، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة ، فقال تقـدم يامنارة كل معنا ، فقلت ما آكل فلم يعاودنى ، ورأيت مالم أره إلا فى دار الخلافة ، ثم قدم الطعام فوالله مارأيت أحسن ترتيبا ، ولاأعطر رائحة ، ولا أكثر آنية منه ، فقال تقدم يامنارة فكل قلت ليست لى به حاجة فلم يعاودنى ، ونظرت إلى أصحابى فلم أجد أحدا منهم عندى ، فحرت لكثرة حفدته وعدم من عنـدى ، فلما غسـل يديه أحضر له البخور فتبخر ، ثم قام فصلى الظهر فأتم الركوع والسجود وأكثر من الركوع بعدها ، فلما فرغ استقبلنى وقال : ما أقدمك يامنارة ؟ فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبله ووضعه على رأسه ، ثم فضه وقرأه ، فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيـه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله ، فضاقت الدار بهم على سعتها ، فطار عقلى ، وما شككت أنه يريد القبض علىّ ، فقال : الطلاق يلزمه والحج والعتق والصـدقة وسائر أيمان البيعة لايجتمع منكم اثنان فى مكان واحد حتى ينكشف أمره ، ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلنى وقدم رجليه ، وقال هات يا منارة قيودك ، فدعوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع فى المحمل وركبت معه فى المحمل وسرنا ، فلما صرنا فى ظاهر دمشق ابتدأ يحدثنى بانبساط ويقول هـذه الضيعة لى تعمل فى كل سنة بكذا وكذا ، وهـذا البستان لى وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا وهذه المزارع يحصل لى منها كل سنة كذا وكذا ، فقلت ياهـذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذنى خلفك وهو بالكوفة ينتظرك وأنت ذاهب إليـه ماتدرى ما تقدم عليه ؟ وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيدا فريدا وأنت تحدثنى حديثا غير مفيد ولانافع لك ولا سألتك عنـه ، وكان شغلك بنفسك أولى بك ، فقال إنا لله وإنا إليه راجعون لقد أخطأت فراستى فيك يامنارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة إلا لوفور عقلك فاذا أنت جاهل عامى لاتصلح لمخاطبة الخلفاء ، أما خروجى على ما ذكرت فانى على ثقة من ربى الذى بيده ناصيتى وناصية أمير المؤمنين فهو لا يضرّ ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى ، فان كان قد قضى علىّ بأمر فلا حيلة لى بدفعه ولاقدرة لى على منعه ، وإن لم يكن قد قدر الله علىّ بشىء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضرونى لم يستطيعوا ذلك إلا باذن الله تعالى ومالى ذنب فأخاف ، وإنما هذا واش وشى عند أمير المؤمنين ببهتان ، وأمير المؤمنين كامل العقل ، فاذا اطلع على براءتى فهو لايستحلّ مضرتى وعلىّ عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جوابا ، ثم أعرض عنى وأقبل على التلاوة ومازال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر ، وإذا النجب قد استقبلتنا من عنـد أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا ، فلما دخلت على هارون الرشيد قبلت الأرض ، فقال : هات يا منارة أخبرنى من يوم خروجك عنى إلى يوم قدومك علىّ ؟ فابتدأت أحدثه بأمورى كلها مفصلة

والغضب يظهر فى وجهه ، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه وخواصه وضيق الدار بهم وتفقدى لأصحابى فلم أجد منهم أحدا اسودّ وجهه ، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه فلما قلت إنه قدم رجليه أسفر وجهه واستبشر ، فلما أخبرته بحديثى معه فى ضياعه و بساتينه وماقلت له وما قال لى . قال هـذا رجل محسود على نعمته ومكذوب عليه ، وقد أزعجناه وأرعبناه وشوّشنا عليه وعلى أولاده وأهله ، اخرج إليه وانزع قيوده وفكه وأدخله علىّ مكرّما ، ففعلت ، فلما دخل قبل الأرض فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه واعتذر إليه ، فتكلم بكلام فصيح ، فقال له أمير المؤمنين سل حوائجك ؟ قال سرعة رجوعى إلى بلدى وجمع شملى بأهلى وولدى . قال هـذا كائن فسل غيره ؟ قال عدل أمير المؤمنين فى عماله ما أحوجنى إلى سؤال . قال فخلع عليه أمير المؤمنين ، ثم قال يامنارة اركب الساعة معه حتى تردّه إلى المكان الذى أخذته منه ، قم فى حفظ الله وودائعه ورعايته ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك .

فانظر إلى حسن توكله على خالقه فانه من توكل عليه كفاه ، ومن دعاه لباه ، ومن سأله أعطاه ماتمناه .

[موعظة حسنة] روى أن هـذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة فى التوراة ، فكتبها وهى :

يا بن آدم : لا تخافنّ من ذى سلطان مادام سلطانى باقيا وسلطانى لاينفد أبدا ☆ يابن آدم : لاتخش من ضيق الرزق مادامت خزائنى ملآنة وخزائنى لاتنفد أبدا ☆ يابن آدم : لا تأنس بغيرى وأنا لك فان طلبتنى وجدتنى ، وإن أنست بغيرى فتك وفاتك الخير كله ☆ يابن آدم : خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وقسمت رزقك فلا تتعب ، وفى أكثر منه فلا تطمع ، ومن أقلّ منه فلا تجزع فان أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك ، وكنت عندى محمودا ، وإن لم ترض بما قسمته لك ، فوعزتى وجلالى لأسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البرّ ، ولا ينالك منها إلا ماقد قسمته لك وكنت عندى مذموما ☆ يابن آدم : خلقت السموات السبع والأرضين السبع ، ولم أعى بخلقهن أيعيينى رغيف أسوقه لك من غير تعب ☆ يابن آدم : أنا لك محب فبحق عليك كن لى محبا ☆ يابن آدم : لا تطالبنى برزق غـد كما لا أطالبك بعمل غـد فانى لم أنس من عصانى فكيف من أطاعنى وأنا على كل شىء قدير وبكل شىء محيط .

من غريب ما اتفق وعجيب ماسبق ماحكى أن ملك الفرس أزدشير ، وكان ذا مملكة متسعة ، وجند كثير ، وكان ذا بأس شديد قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع ، وأنها بكر ذات خدر ، فسير أزدشير يخطبها من أبيها ، فامتنع من إجابته ولم يرض بذلك ، فعظم ذلك على أزدشير ، وأقسم بالأيمان المغلظة ليغزونّ الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شرّ قتلة وليمثلنّ بهما أخبث مثلة ، فسار اليه أزدشير فى جيوشه فقاتله قتالا شديدا حتى قتله أزدشير وقتل سائر خواصه ثم سأل عن ابنته المخطوبة ، فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسنا وجمالا وقدّا واعتدالا ، فبهت أزدشير من رؤيته اياها ، فقالت له أيها الملك انى ابنة الملك الفلانى ملك المدينة الفلانية ، وان الملك الذى قتلته أنت قد غزا بلدنا ، وقتل أبى وقتل سائر أصحابه قبل أن

تقتله

تقتله أنت ، وانه أسرنى فى جملة الأسارى ، وأتى بى فى هـذا القصر ، فلما رأتنى ابنته التى أرسلت تخطبها أحبتنى وسألت أباها أن يتركنى عندها لتأنس بى فتركنى لها ، فكنت أنا وهى كأننا روحان فى جسد واحد ، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك ، فأرسلها إلى بعض الجزائر فى البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك ، فقال أزدشير: وددت لو أنى ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة ثم إنه تأمل الجارية فرآها فائقة فى الجمال ، فمالت نفسه إليها ، فأخذها للتسرى ، وقال هذه أجنبية من الملك ، ولا أحنث فى يمينى بأخذها ، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها فحملت منه ، فلما ظهر عليها الحمل اتفق أنها تحدثت معه يوما وقد رأته منشرح الصدر ، فقالت له أنت غلبت أبى وأنا غلبتك ، فقال لها ومن أبوك ؟ قالت له هو ملك بحر الأردن وأنا ابنته التى خطبتها منـه ، وأننى سمعت أنك أقسمت لتقتلنى ، فتحيلت عليك بما سمعت ، والآن هـذا ولدك فى بطنى ، فلا يتهيأ لك قتلى ، فعظم ذلك على أردشـير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه فانتهرها وخرج من عنـدها مغضبا وعول على قتلها ، ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها ، فلما رأى الوزير عزمه قويا على قتلها خشى أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا وأنه لايقبل فيها شفاعة شافع ، فقال أيها الملك إن الرأى هو الذى خطر لك ، والمصلحة هى التى رأيتها أنت وقتل هـذه الجارية فى هـذا الوقت أولى وهو عين الصواب ، لأنه أحق من أن يقال ان امرأة قهرت رأى الملك وحنثته فى يمينـه لأجل شهوة النفس ، ثم قال : أيها الملك إن صورتها مرحومة وحمل الملك معها وهى أولى بالستر ولا أرى فى قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق ، فقال له الملك : نعم مارأيت خـذها غرقها ، فأخذها الوزير ، ثم خرج بها ليـلا إلى بحر الاردن ومعه ضوء ورجال وأعوان ، فتحيل إلى أن طرح شيئا فى البحر أوهم من كان معه أنها الجارية ، ثم إنه أخفاها عنـده ، فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه غرقها فشكره على ما فعل ، ثم إن الوزير ناول الملك حقا مختوما ، وقال : أيها الملك إنى نظرت مولدى ، فرأيت أجلى قد دنا على مايقتضيه حساب حكماء الفرس فى النجوم وان لى أولادا وعندى مال قد ادخرته من نعمتك نفذه إذا أنا مت إن رأيت ، وهذا الحق فيه جوهر اسأل الملك أن يقسمه بين أولادى بالسوية فانه إرثى الذى قد ورثته من أبى وليس عندى شىء اكتسبته منه إلا هـذا الجوهر ، فقال له الملك يطول الرب فى عمرك ، ومالك لك ولأولادك سواء كنت حيا أو ميتا فألح عليه الوزير أن يجعل الحق وديعة ، فأخذه الملك وأودعه عنده فى صندوق ثم مضت أشهر الجارية ، فوضعت ولدا ذكرا جيلا حسن الخلقة ، فلاحظ الوزير جانب الأدب فى تسميته ، فسماه شاه بور ، يعنى ابن الملك ، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم فعلمه كل مايصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية ، وهو يوهم أنه مملوك له إلى أن راهق البلوغ هـذا كله وأزدشير ليس له ولد ، وقد طعن فى السن وأقعـده الهرم فمرض وأشرف على الموت ، فقال للوزير قد هرم جسمى وضعفت قوتى ، وإنى أرى أنى ميت لامحالة وهذا الملك يأخذه من بعدى من قضى له به ، فقال الوزير لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولى بعـده الملك ، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الاردن وبحملها ، فقال الملك لقـد ندمت على تغريقها ، ولو كنت أبقيتها حتى تضع ، فلعل حملها يكون ذكرا ، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا

قال أيها الملك إنها عندى حية ، ولقد وضعت ولدا ذكرا من أحسن الغلمان خلقا وخلقا ، فقال الملك: أحق ماتقول ؟ فأقسم الوزير أن نعم ، ثم قال : أيها الملك إن فى الولد روحانية تشهد بأبوة الأب ، وفى الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن لا يكاد ذلك ينخرم أبدا ، وإننى آت بهذا الغلام بين عشرين غلاما فى سنه وهيئته ولباسه ، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو ، و إنى أعطى كل واحد منهم صوجانا وكرة ، وآمرهم أن يلعبوا بين يديك فى مجلسك هذا ، ويتأمل الملك صورهم وخلقتهم وشمائلهم ، فكل من مالت إليك نفسه وروحانيته فهو هو ، فقال الملك نعم التدبير الذى قلت،فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ، ولعبوا بين يدى الملك ، فكان الصبيّ منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدّم ليأخذها إلا شاه بور ، فانه كان إذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ، ولا تأخذه الهيبة منه ، فلاحظ أزدشير ذلك منه مرارا ، فقال له أيها الغلام ما اسمك ؟ قال شاه بور ، فقال له صدقت أنت ابنى حقا ، ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه ، فقال له الوزير هذا هو ابنك أيها الملك ، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبيّ منهم ولدا بحضرة الملك ، فتحقق الصدق فى ذلك ، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها ، فقبلت يد الملك ، فرضى عنها ، فقال الوزير أيها الملك قد دعت الضرورة فى هذا الوقت إلى إحضار الحق المختوم ، فأمر الملك باحضاره ، ثم أخذه الوزير وفكّ ختمه ، فاذا فيه ذكر الوزير وأنثياه مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك ، وأحضر عدولا من الحكماء ، وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك ، فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة. قال فدهش الملك أزدشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس فى الخدمة وشدّة مناصحته ، فزاد سروره ، وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به ، ثم إن الملك عوفى من مرضه الذى كان به وصح جسمه ، ولم يزل يتقلب فى نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة ، ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه ، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أزدشير ، وشاه بور يحفظ مقامه ، ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى .

يروى عن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن . قال أقبل سيل باليمن فى خلافة أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزا ، فكتبنا إلى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فكتب إلينا لاتحركوه حتى يقدم عليكم كتابى ثم فتح ، فاذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب ، وفى يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان :

إذا خان الأمير وكاتباه ✲ وقاضى الأرض داهن فى القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل ✲ لقاضى الأرض من قاضى السماء

وإذا عند رأسه سيف أشدّ خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد ابن إرم .

[مستملحة] تقدمت امرأة إلى قاض ، فقال لها جامعك شهودك فسكتت ، فقال كاتبه إن القاضى يقول لك جاء شهودك معك ؟ قالت نعم هلا قلت مثل ماقال كاتبك كبر سنك ، وقلّ عقلك وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك مارأيت ميتا يقضى بين الأحياء غيرك .

[غريبة] ذكر أن أنوشروان وضع الموائد للناس فى يوم نوروز وجلس ودخل وجوه أهل

مملكته فى الايوان ، فلما فرغوا من الطعام جاءوا بالشراب ، وأحضرت الفواكه فى آنية الذهب والفضة ، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه، وأنوشروان يراه ، فلما فقده الشرابى صاح بصوت عال لايخرجن أحد حتى يفتش، فقال كسرى ولم ؟ فأخبره بالقضية ، فقال قد أخذه من لايردّه ورآه من لاينمّ عليه فلا تفتش أحدا ، فأخذ الرجل الجام ومضى فكسره وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه ، وجدّد له كسوة جيلة ، فلما كان فى مثل ذلك اليوم جلس الملك ، ودخل ذلك الرجل بتلك الحيلة فدعاه كسرى ، وقال له هذا من ذلك فقبل الأرض وقال أصلح الله الملك .

(قيل) لبعض الناس أما يكسوك فلان ؟ فقال والله لو كان له بيت مملوء برًا ، وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء ، والملائكة ضمناء يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذى قدّ من دبر ما أعاره إياها، فكيف يكسونى ؟

[الأكلة من الناس] قيل إن وهب بن جرير سأل ميسرة عن أعجب ما أكل ، فقال أكلت مائة رغيف بمكوك بلح .

ومرّ ميسرة المذكور يوما بقوم وهو راكب حمارا فدعوه للضيافة ، فذبحوا له حماره وطبخوه وقدموه له ، فأكله كله ، فلما أصبح طلب حماره ليركبه ، فقيل له هو فى بطنك .

وقال المعتمر بن سليمان . قلت لهلال المازنى ما أكلة بلغتنى عنك ؟ قال جعت مرّة ومعى بعير لى فنحرته وشويته وأكلته ، ولم أبق منه إلا شيئا يسيرا حملته على ظهرى ، فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لى ، فلم أقدر أصل إليها ، فقالت كيف تصل إلىّ وبيننا جمل ؟ فقلت له كم تكفيك هذه الأكلة ؟ فقال أربعة أيام .

﴿وقال الأصمعى﴾ إن سليمان بن عبد الملك كان شرها نهما ، وكان من شرهه أنه إذا أتى بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوى لايصبر إلى أن يبرد ولا أن يؤتى بمنديل بل يأخذه بكمه فيأكل واحدة واحدة حتى يأتى عليها ، فقال هارون الرشيد ويحك يا أصمعى ما أعلمك بأخبار الناس ، إنى عرضت علىّ جباب سليمان ، فرأيت فيها آثار الدهن فظننته طيبا حتى حدثنى أن ألبس منها جبة، ثم أمر لى بجبة منها ، فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك .

﴿ وقال الشمردل ﴾ قدم سليمان بن عبد الملك الطائف ، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إلىّ وقال ياشمردل ماعندك ماتطعمنى ؟ قلت عندى جدى كأعظم مايكون سمنا . قال عجل به ، فأتيته به ، فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذ . قال هلمّ ياعمر ، فقال إنى صائم فأكله ، ثم قال يا شمردل ويلك أما عندك شىء ؟ قلت ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام ، فأتيته بهن فأتى عليهن ، ثم قال ياشمردل أما عندك شىء ؟ قلت سويق كأنه قراضة الذهب ، فأتيته به فعبه حتى أتى عليه ، ثم قال ياغلام : أفرغت من غدائنا ؟ قال نعم . قال ماهو ؟ قال نيف وثلاثون قدرا . قال ائتنى بقدر قدر ، فأتاه بها ومعه الرقاق ، فأكل من كل قدر ثلثه ، ثم مسح يده واستلقى على فراشه ، وأذن للناس فدخلوا وصف الخوان ، فقعد وأكل مع الناس .

وقال مسلم بن قتيبة عددت للحجاج بن يوسف أربعة وثمانين رغيفا مع كل رغيف سمكة .

وقال صدقة بن عبيد المازنى أولم لى أبى لما تزوّجت ، فعمل عشر جفان ثريد من جزور ، فكان أوّل من جاءنا هلال المازنى فقدّمنا له جفنة مترعة فأكلها ، ثم أخرى فأكلها حتى أتى على الجميع ، ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ ، فوضع طرفها فى شدقه ، وفرّغها فى جوفه ، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام .

وكان عبيد الله بن زياد يأكل فى كل يوم خمس أكلات ، فخرج يوما يريد الكوفة ، فقال له رجل من بنى شيبان الغداء أصلح الله الأمير فنزل ، فذبح له عشرين طائرا من الأوز فأكلها ، ثم قدم الطعام فأكل ، ثم أتى بزنبيلين فى أحدهما تين ، وفى الآخر بيض ، فجعل يأكل من هذا تينة ، ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه ، ثم رجع وهو جائع .

وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ومائة رغيف ، فذكر ذلك للمهدى ، فقال دعوت يوما بالفيل يعنى ميسرة وأمرته بالأكل ، فألقى إليه رغيف رغيف ، فأكل تسعة وتسعين ، وألقى إليه تمام المائة فلم يأكله .

وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهرى أنه سمع الشيخ الامام عزّ الدين بن عبد السلام يقول : إن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه كان يأكل فى كل يوم مائة رطل بالدمشقى ولا يشبع .

ونزل رجل بصومعة راهب ، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة ، وذهب ليحضر إليه العدس فحمله وجاء فوجده قد أكل الخبز ، فذهب فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس ، ففعل معه ذلك عشر مرّات ، فسأله الراهب أين مقصده ؟ قال إلى الأردن . قال لماذا ؟ قال بلغنى أن بها طبيبا حاذقا أسأله عما يصلح معدتى فانى قليل الشهوة للطعام ، فقال الرّاهب إنّ لى إليك حاجة . قال وما هى ؟ قال إذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك علىّ .

قلت وكم لهؤلاء من نظير ، وأعرف منهم أشخاصا خصوصا بقطرنا المراكشى ، وكم من الناس من يسمع بمثل هذا فيستغربه أو ينكره ، وذلك لجهله بأحوال الناس ، وعدم اطلاعه على سيرهم .

دخل السائب على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى يوم شات ، فناوله قدحا فيه عسل وسمن ولبن فأباه ، فقال أما وإنك لشربته لم تزل دفئا شبعان سائر يومك .

[مستملحة] عن نافع بن أبى نعيم . قال كان أبو طالب يعطى عليا قدحا من اللبن يصبه على اللات فكان علىّ يشرب اللبن ويبول على اللات .

حكى عن الامام الشافعى رضى الله عنه أنه كان نازلا عند الامام الزعفرانى ببغداد ، فكان الزعفرانى يكتب فى كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ، ويدفعها إلى الجارية فأخذها الشافعى منها يوما وألحق فيها لونا آخر فعرف الزعفرانى ذلك فأعتق الجارية سرورا بذلك ، وكانت سنة السلف الصالح رضى الله عنهم أن يقدموا جلة الألوان دفعة ليأكل كل شخص مايشتهى .

حكى أن بعض الكرماء كان سيئ الأخلاق على أضيافه ، فبلغ ذلك بعض الأذكياء ، فقال الذى يظهرلى من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق ، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف ، ولا بدّ أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره . قال فقصدته وسلمت عليه ، فقال هل لك أن تكون

ضيق ؟ قلت نعم ، فسار بين يدى إلى أن جاء إلى باب داره فأذن لى ، فدخلت فأجلسنى فى صدر مجلسه ، فجلست حيث أجلسنى وأعطانى مسندا فاستندت إليه ، فأخرج لى شطرنجا ، وقال أتتقن شيئا ؟ قلت نعم ، فلعبت معه ، فلما حضر الطعام جعل يقدم لى ما استطابه وأنا آكل ، فلما فرغنا قدم طستا وإبريقا ، وأراد أن يسكب الماء على يدى فلم أمنعه من ذلك وأراد الخروج بين يدى بعد أن قدم نعلى فلم أرده عن ذلك ، فلما أراد الرجوع . قلت ياسيدى أنشدك الله إلا فرجت عنى كربة . قال وماهى ؟ فأخبرته الخبر ، فقال والله مايحوجنى لذلك إلا سوء أدبهم ، ويصل الضيف إلى دارى فأجلسه فى الصدر فيأبى ذلك ، ثم أقدم إليه الطعام فلا أتحفه بشىء مستظرف إلا رده على ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل ، فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل ، ثم أريد أن أشيعه ، فلا يمكننى من ذلك ، فأقول فى نفسى لايحكم الانسان على نفسه حتى فى بيته ، فعند ذلك أشتمه وألعنه بل وأضربه .

نزل الامام الشافعى رضى الله عنه بالامام مالك رضى الله عنه ، فصب بنفسه الماء على يديه ، وقال له لايرعك مارأيت منى ، فخدمة الضيف على المضيف فرض .

يروى أنه لما دخل الفيل دمشق ، واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية رضى الله عنه فى مكان مرتفع ينظر إليه ، فبينما هو كذلك إذ نظر فى بعض الحجر من قصره رجلا مع بعض حرمه ، فأتى الحجرة ، ودق الباب ، فلم يكن من فتحه بد ، فوقعت عينه على الرجل ، فقال له ياهذا فى قصرى وتحت جناحى تهتك حرمتى وأنت فى قبضتى ماحملك على هذا ؟ فبهت الرجل وقال حلمك أوقعنى فقال له معاوية فان عفوت عنك تسترها على ؟ قال نعم ، فعفا عنه وخلى سبيله ، وهذا من الحلم الواسع .

وأمر زياد بضرب عنق رجل ، فقال أيها الأمير إن لى بك حرمة . قال وماهى ؟ قال إن أبى جارك بالبصرة . قال ومن أبوك ؟ قال يامولاى إنى نسيت اسم نفسى فكيف لاأنسى اسم أبى ؟ فرد زياد كمه على فه وضحك وعفا عنه .

وممن يضرب به المثل فى الحلم معن بن زائدة الشيبانى ، ومن نوادره فى ذلك وقد روهن بعض الشعراء وقته على مائة بعير إذا هو غاظه فعمد إلى جمل فنحره وسلخه ، ولبس الجلد مثل الثوب ، وجعل اللحم من خارج ، والشعر من داخل والذباب مجتمع عليه ، ولبس برجليه نعلين من جلده كذلك ، وجلس بين يدى معن على هذه الصورة ومد رجليه وقال يخاطبه :

أنا والله لا أبدى سلاما ✡ على معن المسمى بالأمير

فقال معن السلام لله إن سلمت رددنا عليك ، وإن لم تسلم ما عتبنا عليك ، فقال الشاعر :

ولا أنزل بلادا أنت فيها ✡ ولو حزت البلاد مع الثغور

فقال معن البلاد بلاد الله . إن نزلت فرحبا بك ، وإن رحلت كان الله فى عونك ، فقال الشاعر :

وأرحل عن بلادك ألف شهر ✡ أجد السير فى أعلى القفور

فقال له معن مصحوبا بالسلامة ، فقال الشاعر :

أتذكر إذ قميصك جلد شاة ✡ وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال معن أعرف ذلك ولا أنكره ، فقال الشاعر :

وتأوى كل مسطبة وسوق ✵ بلا عبد لديك ولا وزير

فقال ما نسيت ذلك يا أخا العرب ، فقال الشاعر :

ونومك فى الشتاء بلا رداء ✵ وأكلك دائما خبز الشعير

فقال الحمد لله على كل حال ، فقال الشاعر :

وفى يمناك عكاز قوى ✵ تذود به الكلاب عن الهرير

فقال ما خفى عليك خبرها إذ هى كعصا موسى ، فقال الشاعر :

فسبحان الذى أعطاك ملكا ✵ وعلمك القعود على السرير

فقال بفضل الله لا بفضلك ، فقال الشاعر :

فعجل يا ابن ناقصة بمال ✵ فانى قد عزمت على المسير

فأمر له بمائة دينار ، فقال الشاعر :

قليل ما أمرت به فانى ✵ لأطمع منك بالشىء الكثير

فأمر له بمائة أخرى ، فقال الشاعر :

فقلت إذ ملكت الملك رزقا ✵ بلا عقل ولا جاه خطير

فأمر له بثلثمائة دينار ، فقال الشاعر :

ولا أدب كسبت به المعالى ✵ ولا خلق ولا رأى منير

فأمر له بأربعمائة دينار ، فقال الشاعر :

فمنك الجود والافضال حقا ✵ وفيض يديك كالبحر الغزير

فأمر له بخمسمائة دينار فأخذها وانصرف متعجبا من حلمه وعدم انتقامه منه ثم غير حالته ورجع إليه ومدحه واعتذر إليه بأن الحامل له على ما فعل هو المائة بعير التى روهن عليها فأمر له بمائة بعير يدفعها فى نظير الرهن ، وبمائة أخرى لنفسه .

[ومما ضرب به الأمثال فى الوفاء حديث السموءل بن عاديا] وتلخيص معناه ✵ أن امرأ القيس الكندى ، لما أراد المضى إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموءل دروعا وسلاحا وأمتعة تساوى من المال جلة كثيرة ، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموءل ، فقال السموءل لا أدفعها إلا لمستحقها وأبى أن يدفع إليه منها شيئا ، فعاوده فأبى وقال لا أغدر بذمتى ، ولا أخون أمانتى ، ولا أترك الوفاء الواجب على ، فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره ، فدخل السموءل فى حصنه وامتنع به ، فحاصره ذلك الملك ، وكان ولد السموءل خارج الحصن ، فظفر به ذلك الملك فأخذه أسيرا ، ثم طاف حول الحصن ، وصاح بالسموءل ، فأشرف عليه من أعلى الحصن ، فلما رآه قال إن ولدك قد أسرته ، وهاهو معى ، فان سلمت إلى الدروع والسلاح التى لامرىء القيس عندك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك ، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر فاختر أيهما شئت ، فقال له السموءل ما كنت لأخفر ذمامى وأبطل وفائى ، فاصنع ماشئت ، فذبح ولده وهو ينظر ، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبا

واحتسب

واحتسب السموءل ذبح ولده ، وصبر على وفائه ، فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلم إليهم الدروع والسلاح ، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده و بقائه ، فصارت الأمثال فى الوفاء تضرب بالسموءل ، و إذا مدحوا أهل الوفاء فى الأنام ذكروا السموءل فى الأول .

ولما أحسّ مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فصّ ياقوت قيمته ألف ألف وقال له انج بهذا ، فأخذه زياد ودقه بين حجرين ، وقال والله لاينتفع به أحد بعدك .

حكى عن ابن عبد الكريم . قال ان أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلا مطروحا ، فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم ، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه و يعلمه حتى تهذب وتمرّن ، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش به فأخذه إليه ، فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه ، وقال له أنت عندى بمكانة أرعاك بها ، ولكن عادتى أنى آخذ العهد على كل من أصرفه فى شىء أنه لايخوننى فعاهده ، ثم حكمه فى أمواله وقدمه فى أشغاله ، فصار أحمد اليتيم مستحوذا على المقام حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام ، والأمير أبو الجيش ابن طولون يحسن إليه ، فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن إليه ، واعتمد فى أمور بيوته عليه ، فقال له يوما يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية ، ففى المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فائتنى بها ، فمضى أحمد ، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شابّ من الفراشين ممن هو من الأمير بمحلّ قريب ، فلما رآياه خرج الفتى وجاءت الجارية إلى أحمد ، وعرضت نفسها عليه ودعته إلى قضاء وطره ، فقال لها معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلىّ وأخذ العهد علىّ ، ثم تركها ، وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه ، و بقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد لئلا يذكر حالها للأمير ، فأقامت أياما لم تجد من الأمير ماغيره عليها ، ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه وغمرها بعطاياه واشتغل بها عمن سواها ، فكبر عليها إعراضه عنها ، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها ، فدخلت يوما على الأمير ، وأعلنت بالبكاء بين يديه ، وقالت : إن أحمد اليتيم راودنى عن نفسى ، فلما سمع الأمير ذلك اشتدّ غضبه وهمّ فى الحال بقتله ، واستحضر خادما يعتمد عليه وقال له إذا أرسلت إليك إنسانا ومعه طبق من ذهب ، وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكا فاقتل ذلك الانسان ، واجعل رأسه فى الطبق وأحضره مغطى ، ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه ، وأحضر عنده ندماءه الخواص وأدناهم لمجلس قربه ، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن فى سربه لم يخطر بخاطره شىء ، فلما مثل بين يدى الأمير قال يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم وقل له : يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكا ، فأخذه أحمد ومضى ، فاجتاز فى طريقه بالمغنين و بقية الندماء والخواص ، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم ، فقال أنا ماض فى حاجة للأمير أمرنى باحضارها فى هذا الطبق ، فقالوا له أرسل من ينوب عنك فى إحضارها وخذها أنت وادخل بها على الأمير ، فأدار عينيه ، فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية ، فأعطاه الطبق ، وقل له امض إلى فلان الخادم ، وقل له يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكا ، فمضى ذلك الفراش إلى الخادم ، فذكر له ذلك فقتله ، وقطع رأسه وغطاه وجعله فى الطبق وأقبل به ،

فناوله لأحد اليتيم ، فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر ، فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال له ماهـذا ؟ فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين و بقية النـدماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من إنفاذ الطبق و إرساله مع الفراش وأنه لا علم عنـده غير ما ذكره . قال أتعرف لهـذا الفراش خبرا يستوجب به ماجرى عليه ؟ فقال أيها الأمير إن الذى تم عليه بما ارتكبه من الخيانة وقد كنت رأيت الاعراض عن إعلام الأمير بذلك ، وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده ، وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره لما أنفذه لاحضار السبحة من الجوهر فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها ، فأقرت بصحة ما ذكره أحمد ، فأعطاه إياها وأمره بقتلها ففعل وازدادت مكانة أحمد عنـده وعلت منزلته لديه ، فانظر إلى آثار الوفاء كيف تحمى من المعاطب وتنجى من قبضة التلف بعد إمضاء القواضب ، ويفضى بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب .

ورد فى أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة كان ملكا بين دجلة والفرات ، وكان له هناك قصر مشيد ، و بلغ ملكه الشام فأغار على مدينة سابور ذى الاكتاف فأخذها وأخذ اخت سابور ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، ثم ان سابور جمع جيوشا وسار إلى الضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شىء ، ثم ان النضيرة بنت الضيزن حاضت فخرجت من الربض وكانت من أجمل أهل دهرها ، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن ، وكان سابور من أجمل أهل زمانه فرآها ورأته ، فعشقها وعشقته ، وأرسلت إليه تقول : ما تجعل لى أن دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبى ، فقال أحكمك ، فقالت عليك بحمامة زرقاء فاخضب رجليها بحيض جارية زرقاء بكر ثم أطلقها فانها تطير وتقعد على حائط المدينـة ، فتتداعى المدينة كلها ، وكان ذلك طلسما لايهدمها إلا هو ففعل ذلك ، فقالت له وأنا أسـقى الحرس الخمر ، فاذا صرعوا فاقتلهم ففعل ذلك ، فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن ،واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها، فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ فى فراشها ، وهو من حرير محشو بريش النعام فالتمس ما كان يؤذيها فاذا هو ورقة آس التصقت بعكنتها وأثرت فيها ، فقال لها كل هذا التململ من هذا الورقة ؟ قالت نعم . قال فما كان أبوك يطعمك ؟ قالت كان يطعمنى مخ العظم ، وشهد أبكار النحل والزبد ، ويسقينى الخمر المصفى أربعين مرة ، فقال أهذا كان جزاؤه منك ؟ ثم أمر بها فربطت بين فرسين جموحين فضرباها حتى تمزقت أعضاؤها ، وكانت نضيرة هـذه فى غاية الجمال بحيث إذا نظرها أحد حصل فى عقله خبل وخلل ، وكان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها .

وقال القرطبى فى تذكرته روى عن النبى ﷺ أنه قال [إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج فى شهر واحد ألف حوراء يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا] اه .

يقول جامعه محمد بن محمد بن عبد الله ، الموقت بالحضرة المراكشية وفقه كان الله له ورضى عنه وفيما أوردناه هنا كفاية فى نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، وكان الفراغ منـه فى أذان مغرب يوم الاثنين المبارك التاسع والعشرين من صفر الخير عام ثمانية وأربعين وثلثمائة وألف ، من هجرة من له العز والشرف ، مولانا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأمته وعلينا معهم بمحض الفضل والجود والكرم ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

يقول

﴿ يقول الفقير إليه تعالى (إبراهيم بن حسن الانبابى) خادم العلم ورئيس لجنة التصحيح بمطبعة الشيخ الجليل (مصطفى البابى الحلبى وأولاده) بمصر المحروسة ﴾

حمدا لمن نزّل أحسن الحديث كتابا كافلا بأنباء من غبر، حاثا على السير فى الأرض ليعتبر بمن مضى من تأخر، وصلاة وسلاما على من أطلعه الله سبحانه وتعالى على أخبار القرون الأول، مسليا لجنابه الأنخم بحوادث السابقين من الملل، حكم بالغة، ومواعظ عالية، وعلى آله الأعلين، وصحابته البررة العاملين، ومن نحا نحوهم إلى يوم الدين.

﴿ وبعد ﴾ فقد تم طبع المجموعة المباركة المسماة «اليواقيت العصرية» المشتملة على ماتفرق فى طويل الأسفار، والمجاميع الكبار، من أهمّ التواريخ والحوادث، وغيرها من عجائب الوقائع والأخبار، وهاك بيان ما اشتملت عليه من الأسفار الفريدة فى بابها، المفيدة لطلابها. الاستبصار، فى ذكر حوادث الأعصار ✲ المعرب، عن مشاهير مدن المغرب ✲ نزهة المالك والمملوك، فى تراجم مشاهير الملوك ✲ إرشاد الشيخ والشارخ، لملخص بعض التواريخ ✲ الضياء المنتشر، فى وفيات أعيان القرن الأول إلى الرابع عشر ✲ تليين الطبع، فى ذكر مايسر السمع. لجامعها ذى التآليف العديدة، والمصنفات المفيدة، صاحب الباع الأطول، فى الافادة بين المختصر والمطوّل، العلامة السيد محمد بن محمد بن عبد الله، الموقت بالحضرة المراكشية، رزقنا الله وإياه حسن النية.

وقد اعتنى بتصحيحها وطبعها على هذا الشكل الباهى، والرونق الزاهى بمطبعة [الشيخ مصطفى البابى الحلبى وأولاده] بسراى رقم ١٢ بشارع التبليطه بجوار الأزهر الشريف بمصر، ذات الأدوات الجه، والاستعدادات المهمه، وكفاها فخرا ماطبع بها من الكتب النافعة فى جميع العلوم والفنون، وقد وافق التمام أواخر أوّل الربيعين من عام سنة ١٣٥٠ هجرية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية آمين

فهرس مجموعة اليواقيت العصرية

صحيفة

صحيفة

الكتاب الثانى

« المغرب عن مشاهير مدن المغرب »

الكتاب الثالث

نزهة المالك والمملوك فى تراجم مشاهير الملوك

الكتاب الخامس

الضياء المنتشر فى وفيات القرن الأول إلى الرابع عشر

الكتاب السادس

﴿ تمت الفهرست ﴾


VETUS TESTAMENTUM
NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY


Princeton University Library
32101 086587720